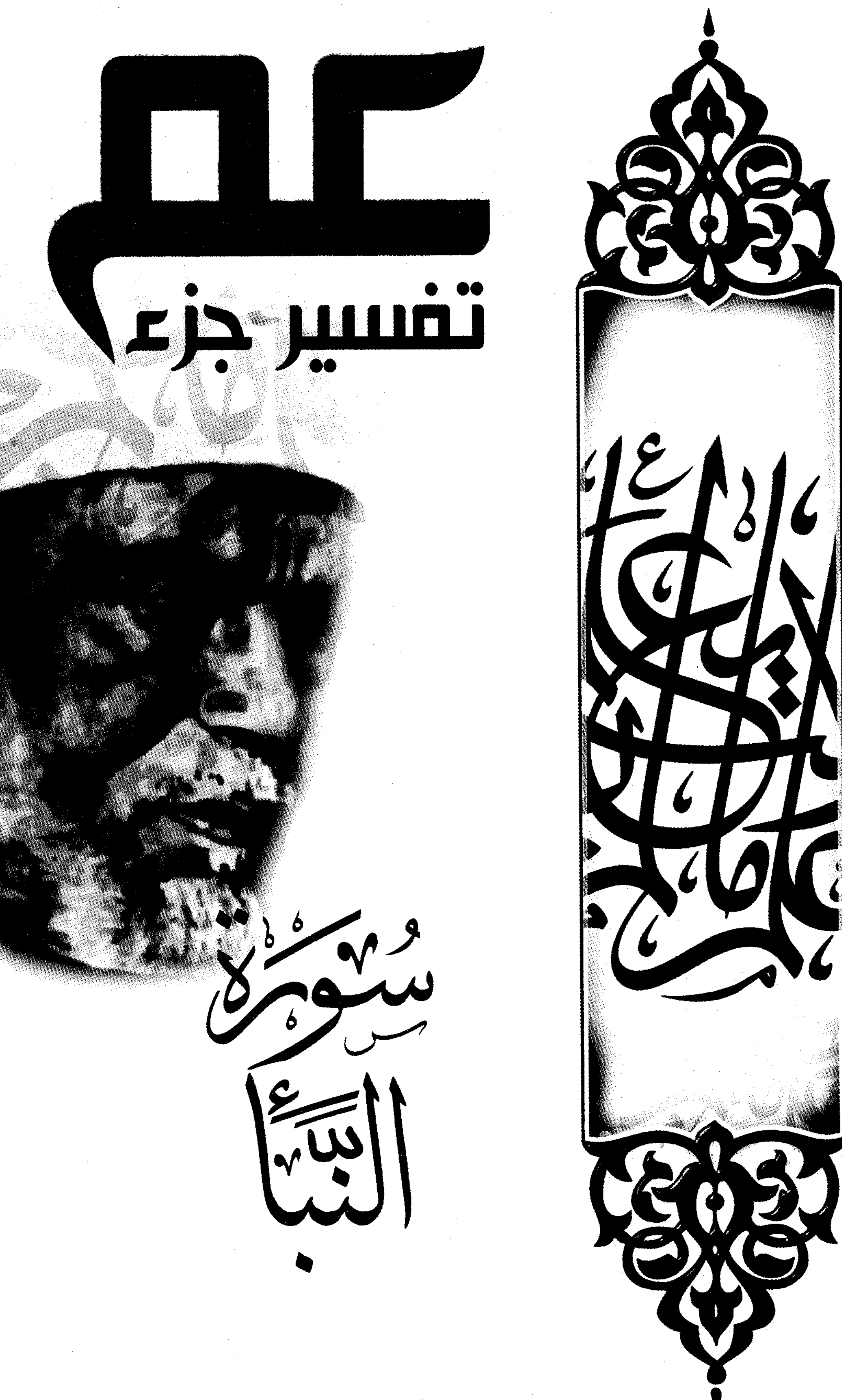
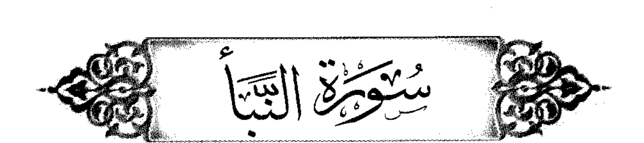


عم
تفسير جزء
سورة
النبأ





الحمد لله بخير ما يُحمد ، وأصلي وأسلم على خير خلقه سيدنا محمد ﷺ ، وبعد . .

مرحبًا بك أخي القارئ الكريم على هذه الصفحات في رحاب القرآن الكريم ، وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يمدنا بأرزاق قلوبكم وأفهامكم ، وأن يهبنا التوفيق في كل ما نأتي ، وكل ما نذر .

إذا ما أردنا أن نعرف موقع قول الله عز وجل : ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ من السورة قبلها وجدنا الارتباط المعنوي والسياقي يتطلب ذلك الإلحاق ، فالسورة التي قبلها هي سورة (**المرسلات**) ، وإذا قرأنا سورة (**المرسلات**) وجدنا قوله سبحانه وتعالى : ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا * فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا * وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا * فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا * فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا * عُذْرًا أَوْ نُذْرًا * إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾[1] ، فكأن السورة قد استهلت بقسم متعدد الألوان ، والمقسم عليه هو ما كان المشركون يكذبونه ، وهو اليوم الآخر ، فقال في جواب القسم : ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ ، وبعد ذلك ذكر علامات ذلك الوقوع ، فقال : ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ * وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ * لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ * لِيَوْمِ الْفَصْلِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾[2] ، فناسب أن تكون السورة التي بعد هذه السورة شارحة ليوم الفصل ؛ لأن الحق حينما يقول : ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ يدل بذلك على أن يوم الفصل شيء عظيم .. شيء مهول .. شيء يجب أن تتنبه الأذهان إليه .. شيء يجب أن يُستعد له ، وحين يقول : ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ نعلم أن قول الله دائمًا : ﴿وَمَا

---

1 - سورة : المرسلات ، الآية : 1 - 7 .
2 - سورة : المرسلات ، الآية : 8 - 15 .

أَدْرَاكَ ﴾ يأتي لشيء يعطي الله رسوله فيه البيان ، ما أدراك سابقًا : أي لم تتلق أي شيء عن هذا اليوم من قبل ، ولكن لا مانع أن تتلقى منه بعد ، ولكن حين يقول : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ ﴾ فإنه بذلك ينفي عنه أن يعرف عن ذلك الأمر شيئًا حتى في المستقبل ، فكأنه نفي للإدراك ، نفي لأن يعطيه أحد أي معلومات عما يقول ، فإذا رأيت (**ما أدراك**) فاعلم أنه سيدريه ، وإذا رأيت (**وما يدريك**) فاقطع الأمل في أنه سيدريه ؛ ولذلك جاء بعد سورة (**المرسلات**) وقوله ﷻ : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴾ جاء بعدها بسورة (**النبأ**) ليدريه ما هو يوم الفصل .

وأيضًا هناك مناسبة ، وهذه المناسبة هي أن سورة (**المرسلات**) تعرضت لأشياء كونية في الكون المحيط بالإنسان ، فمثلاً قال الحق فيها : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا ﴾[1] بعد أن قال : ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ الأَوَّلِينَ ﴾[2].. ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴾[3].. ﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴾[4]، وكذلك قال في سورة (**النبأ**) : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ فالسياق إذًا واحد .

وكذلك نجد في السورتين اللتين قبل سورة (**النبأ**) مباشرة (**المرسلات والدهر**) نجد فيهما أمرًا عجيبًا ، وهو أن سورة (**الإنسان**) تعرضت لأحوال النعيم للمتقين ، ولم تتعرض لأحوال العذاب للكافرين إلا تعرضًا يسيرًا في قوله ﷻ : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاسِلَ وَأَغْلالاً وَسَعِيرًا ﴾[5]، وبعد ذلك قال : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ .. ﴾ ثم أخذ في تعريف النعيم الذي ينتظر المؤمنين ، ثم جاء في آخر السورة : ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾[6]، ثم تعرض أيضًا للكافرين في

---

1 – سورة : المرسلات ، الآية : 25 .

2 – سورة : المرسلات ، الآية : 16 .

3 – سورة : المرسلات ، الآية : 20 .

4 – سورة : المرسلات ، الآية : 23 .

5 – سورة : الإنسان ، الآية : 4 .

6 – سورة : الإنسان ، الآية : 24 .

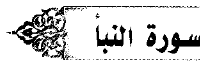
آية أخرى ، ولكن السياق كله متعرض لنعمة المؤمنين في الآخرة .

ثم جاءت سورة (**المرسلات**) على العكس ، فتعرضت لألوان العذاب للكافرين في الآخرة ، ولم تتعرض لألوان النعيم إلا للون واحد وهو قوله ﷻ : ﴿ **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ** ﴾[1] ، وكأن سورة (**الدهر**) تعلقت بأحوال النعيم إلا اللفتة اليسيرة فيما يتعلق بأحوال الكافرين ، وسورة (**المرسلات**) تعرضت لأحوال العذاب الذي ينتظر الكافرين إلا اللفتة اليسيرة المتعلقة بالمؤمنين ، فجاءت سورة (**النبأ**) لتعطي الجزاء الوفاق ، تعطي لكل واحد من الفريقين حظه من النعيم أو العذاب .

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾
كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾

حين نقرأ قوله ﷻ : ﴿ **عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ** ﴾[2] نجد التفخيم بالإبهام ، يعني عن أي شيء يتساءلون ؟ هذا التفخيم بالإبهام دلالة على تعظيم المسئول عنه ، وحين يعظم الحق المسئول عنه يكون هذا التعظيم دلالة على أن ذلك أمر عظيم حتى يقول الحق عنه : إنه عظيم ؛ لأن الإنسان منا قد يقول عن الشيء إنه عظيم بمقتضى فهمه عن العظمة ، ولكن حين يفخم الله شيئًا ويعظمه فإن تعظيمه يكون على قدر علمه ﷻ ، ومن العجيب أن هذا السؤال في قول الله ﷻ : ﴿ **عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ** ﴾ يجيب الله ﷻ عنه سريعًا فيقول : ﴿ **عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ** ﴾[3] ، فكأن الحق ﷻ فخم بالإشارة حين استفهم بما ، ثم فخم بالعبارة بقوله : ﴿ **عَنِ النَّبَإِ**

1 – سورة : المرسلات ، الآية : 41 .
2 – سورة : النبأ ، الآية : 1 .
3 – سورة : النبأ ، الآية : 2 .



الْعَظِيمِ﴾ ، ونحن نعلم أن النبأ ليس مطلق الخبر ، وإنما هو الخبر الخطير الشأن الذي يتعلق بأمر عظيم ، ولا شك أن غايات الدين كلها إنما تؤول لمعرفة سر ذلك اليوم ؛ لأنه الحصيلة ، ولأنه الحصاد الذي سيأتي في نهاية الدنيا ليحاسب فيه كل إنسان عما قدم .. إن خيرًا فخير ، وإن شرًّا فشر ، فلا بد أن يكون أعظم حدث يتعلق بالإنسان .

والحق سبحانه وتعالى حينما يقول : ﴿ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴾ يعطينا لفتة ، هذه اللفتة هي استنكار للسؤال عنه ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ ، كأنك تستنكر : أهذا أمر يمكن أن يكون مسئولاً عنه ؟! هذا أمر من الوضوح ، ومن البداهة بحيث يجب أن لا يكون موضع سؤال ؛ لأنه نبأ عظيم ، وأمر واضح جلي ، تقوم عليه الأدلة ، ولكن خطأ المنهج في الكافرين إنما جاء من ناحية أنهم أرادوا أن يناقشوا الجزئيات العَقَدية ، ومناقشة الجزئيات العقدية لا يصح أن يأتي أبدًا من عاقل ، إلا أن يناقش القمة العقدية أولاً ، فنحن لم نؤمن باليوم الآخر أولاً ، وبعد ذلك آمنا بالله سبحانه وتعالى ، وإنما آمنا بالله عز وجل أولاً ، وحين آمنا به علمنا أنه سبحانه وتعالى يخبرنا أن هناك يومًا آخر ، فعند ذلك صدقنا فورًا ما قال سبحانه وتعالى .

إذًا فالمناقشة يجب أن لا تكون في اليوم الآخر وقوفًا واستبعادًا واستغرابًا وتعجبًا ، كان يجب أن تكون المناقشة في قمة العقيدة للإيمان : تؤمنون بالله أو لا تؤمنون ، فإن آمنتم بالله فالتزموا ، وإن لم تؤمنوا بالله فما الذي يضير إذا لم تؤمنوا بما يقوله الله ، إذن فالقمة الإيمانية أولاً هي أن تؤمن بالله ، فأنا لم أومن بالملائكة ولا بالكتب ولا بالرسل ولا بالقضاء والقدر خيره وشره ولا بيوم القيامة إلا لأن الله قال ذلك ؛ لأنها أمور غيبية ، والأمور الغيبية التي لا تقع تحت الحس لا يمكن أن أصدقها إلا إذا قال بها من أثق بصدقه ، فإذا توقف عقلي في الكيفية ، نقول : معرفة الكيفية لا يعني الوقوع أو عدم الوقوع ، الحدث وقوعه شيء وكيفية وقوعه شيء آخر .

ويظهر الفرق بين وقوع الحدث ذاته ووقوعه على كيفية خاصة عند فهمنا قول إبراهيم

عليه السلام لربــه : ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾[1] ،إبـراهيم حـينما قـال لله : ﴿ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ قـال بـعض العلماء : كيف يوجد ذلك التناقض الظاهري في القرآن ؟! فإن الله تعالى حين قـال إبـراهيم ذلك ﴿ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ﴾ فأجاب إبـــراهيم : ﴿ قَالَ بَلَى ﴾ ، ومعنى ﴿ بَلَى ﴾ أي : آمنت ، ومعنى الإيمان هو اطمئنان القلب إلى عقيدة ما ، بحيث لا تطفو العقيدة مرة أخرى إلى الذهن لتناقـش من جديد ، فإن طفت العقـيدة إلى الذهن لتناقــش من جديد لا يكون ذلك إيمانًا ، ولا تكون عقيدة ، وإنما تكون فكرة لا تزال قيد البحث ، فقول الله على لسان إبـراهيم : ﴿ بَلَى ﴾ أي آمنت ، وإذا كان قـد آمن واطمأن قلبـه فلماذا يقـول بـعد ذلك : ﴿ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ ؟ فكأن اطمئنان القلب عند إبـراهيم كان مفقودًا ، أو هو يطلبـه بـذلك ، وما دام اطمئنان القـلب غير موجود فما كان يصح لإبـراهيم أن يقول جوابًا لله حين قال : ﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ﴾ أن يقـول له : ﴿ بَلَى ﴾ ، ولكن هذا التناقـــض الظاهري جاء من إهمال لفظ في الآية ، وإهمال لفظ أو حـرف يغير مجرى الفهم في الآية ، ولكن إبـراهيم لم يسـأل ربـه قـائلاً : هل تحيي الموتى ؟ وإنما قـال له : ﴿ كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ ، فكأن السـؤال عن الكيفية لا عن وقـوع الحدث ، فهو مؤمن بأن ربه يحيي الموتى ، أي أنها قضية مسلمة ، ولكن المسئول عنه أنه يريد أن يرى الكيفية ، فقوله : ﴿ بَلَى ﴾ أنا آمنت أنك تحيي الموتى ، وهذا هو المطلوب التكليفي من العبد المكلف .. أن يؤمن بأن الله يحيي الموتى ، أما معرفة الكيفية ، فهذا أمر لا يضير في العقيدة .. عرفتها أم لم تعرفها ؛ لأن انتفاعك بالأشـــياء لا يعني ضرورة فهم كيفيتها ؛ فمثلا : الأمي والبــدوي والفلاح ينتفع كل منهم بالكهربـــاء في بـــيته ، لكن هل يعرف كيف تأتي تلك الكهرباء ؟ لا يعرف شيئًا عن ذلك ، إذن فهو ينتفع بـالحدث ، لكن معرفة كيفيته لا يغير من انتفاعه أو عدم انتفاعه ، والله كذلك قــــادر على أن يحيي الموتى ، ولكن الله تعالى يلفت

1 – سورة : البقرة ، الآية : 260 .

إبراهيم لفتة عقدية ، هذه اللفتة العقدية هي أنه يقول : ليس من عظمتي ولا من قدرتي أن أنقل إلى الغير أثر قدرتي ، ولكن العظمة أن أنقل إلى الغير بعض قدرتي ليفعل ، فالقوي من البشر إذا ما وجد رجلاً عاجزًا عن حمل شيء ثقيل عليه ماذا يصنع معه ؟ إنه يحمله له ، إذن فقد عدى إلى الغير أثر قوته ، ولكن العاجز ظل عاجزًا ، ولكن الله حين يريد أن ينقل إلى العاجز قوة تفعل هي ، كأنه يقول : أنت لا تقدر على أن تحمل فأنا لا أحمل عنك ، وإنما أجعلك تقدر على أن تحمل ، تلك هي عظمة الحق في أنه ينقل قوته إلى فاقد القوة ، ولكن البشر لا ينقلون قوتهم إلى فاقد القوة ، وإنما ينقلون أثر قوتهم إلى فاقد القوة ، ويظل فاقد القوة فاقدًا للقوة ، فكان جواب الحق سبحانه وتعالى في الكيفية التي يريدها إبراهيم أنه قال له : خذ أنت أربعة من الطير ، ثم قطعهم ، واجعل على كل جبل منهن جزءًا ، وبعد ذلك تتجلى قدرة العظيم ، لا يقول الله : أنا أدعو الطير فتأتيها الحياة ، لكن ادعهن أنت ، تلك هي العظمة في أن يجعل من لا يقدر قادرًا بإرادة أن يفعل ، ﴿ ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ﴾ ، فلم يقل : أنا أدعوهم ؛ لأن دعوتهم عملية بسيطة ، ولكن العظمة هي أن يجعله الله عز وجل يستطيع أن يفعل ذلك ، إذن فقد أجابه الله بالكيفية على أبلغ مدى ، وعلى أوسع نطاق في أن الحق يمتاز عن الخلق بأنه يعدي قوته للغير ليفعل ، ولكن الخلق لا يستطيعون أن يعدوا إلا أثر قوتهم للآخرين ليفعلوا .

فإذا ما أراد الحق سبحانه وتعالى أن يستنكر السؤال : ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴾ .. ما كان يجب أن يتساءلوا ؛ لأن ذلك الأمر من الوضوح بمكان .

ومن الذي يتساءل ؟ !

أولاً ما دام الحق يستنكر السؤال ، فلا بد أن يكون التساؤل من المنكرين للبعث : ﴿ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [1] .. متى الساعة ؟! ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا

1 – سورة : يونس ، الآية : 48 .

وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾ [1] ، وهذا تعجب ، فكأن التساؤل وقع من المشركين ، أو من المكذبين بالبعث فيما بينهم ، أو كانوا هم يسائلون النبي والمؤمنين .

ومادة التساؤل غير مادة سأل ، كما تقول : سألت فلانًا عن كذا ؛ تقتضي فاعلاً ، وتقتضي مفعولاً ليقع عليه السؤال ، لكن تساءل تجمع الأمرين معًا ، تساءل القوم ، أي : أن كل واحد منهم صار سائلاً مرة ومسئولاً مرة أخرى ، فهو إذًا فاعل ومفعول معًا ، إذن فـ ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ أي : إنهم يتساءلون فيما بينهم سؤال استنكار واستهزاء ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ * الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴾ وإذا كانوا يتساءلون ؛ فكيف يكون الخلاف بينهم في السؤال ، فكلهم منكرون ؟!

وجواب ذلك أن الإنكار يختلف في الدرجة ، فهناك منكِر جزمًا وآخر مرتاب ، وما دام منكرًا جزمًا إذن فهو مخالف للشاكٍّ ، لأن المنكر جزمًا جزم بالأمر ، والشاك متأرجح ، إذن فهذا لون من الخلاف ، أو هم مختلفون مع النبي والمؤمنين ، فهذا يصدق وهذا يكذب .

﴿ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ﴾ .. كلا ، كلمة ردع وزجر ، ومعنى الردع والزجر أن الكلام الذي قبلها يجب أن يُنتهى عنه ، لصالح المنتهي أو غير المنتهي ، ليس لصالح من يقول به ؛ لأن الله لا يفيده أن يكذِّب الناس بهذه المسألة ، لأن هذه المسألة مسألة فرعية ، فكان يجب أن ينقلوا مجال النقاش إلى القمة ، وهي الإله ، ولكنهم اضطربوا في موضوع النقاش ، ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [2] ، إذن فمسألة الوجود الإلهي والخلق والربوبية لم يقدروا على إنكارها ، فذهبوا إلى الفرعيات ، علمنا أجوبتهم عن الله ، وأما عن الرسول والقرآن ، فيقول الله ﷻ : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ ﴾ فأنت صادق عندهم

---

1 – سورة : المؤمنون ، الآية : 35 ، 36 .

2 – سورة : الزخرف ، الآية : 87 .

﴿ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾[1] .. فقالوا في القرآن : إنه سحر وشعر وكهانة ، وكل هذا قالوه وبعد ذلك تورطوا ، ماذا كان تورطهم ؟!

تورطهم أنهم قالوا : ﴿لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾[2]، فكأن هذا القرآن قرآن عندهم هم أيضًا ، ولكن الذي أتعبهم أن يجيء على لسان هذا الرجل ، إذن فالقرآن ليس فيه نقاش ، ثم بعد ذلك تورطوا تورطًا آخر يدل على السفه في الجدال ، ﴿ وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ﴾[3] .. إذن فقد أقروا بأن ما جاء به رسول الله هو الهدى ، أقروا في نهاية المطاف والجدل أن رسول الله ﷺ جاءهم بالهدى ، ولكنهم خافوا من أنهم لو اتبعوا الهدى أن يتخطفوا من أرضهم ، إذن فكان من المنطق أن لا يُبحث يوم البعث إنكارًا أو تحقيقًا ، إنما يجب أن يبحثوا في القمة ، وبعد ذلك إذا بحثوا في القمة فإنهم يستوثقون من الخبر ، فالحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ﴾ ، و" ثم " تدل على شيئين اثنين : أن طريقة العلم لهم سوف تختلف ، وهي أنهم سيعلمون أنه الحق .

ومراتب العلم ثلاثة:

المرتبة الأولى : علم اليقين .

المرتبة الثانية : عين اليقين .

المرتبة الثالثة : حق اليقين .

إذن هناك ثلاث مراحل للعلم . .

تجد ذلك المعنى في سورة التكاثر في قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ

1 – سورة : الأنعام ، الآية : 33 .

2 – سورة : الزخرف ، الآية : 31 .

3 – سورة : القصص ، الآية : 57 .

تَعْلَمُونَ * كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴾ [1]، وكذلك في قـــول الحق ﷻ : ﴿ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ [2] أي : الذي كنت لا تراه أولاً أصبحت تراه الآن ، ويتضح له مثال عالم الملكوت والأشياء التي كان مكذبًا بها ، وبعد ذلك حين يبعثون على حقيقتهم يعلمون علمًا آخر ، أو لأن المكذب يعارض مصدقًا ، والفريقان : هذا مؤمن مصدق ، وذلك كافر مكذب ﴿ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ﴾ سيعلمون موقعهم من يوم الفصل ، ويعلمون موقع الفريق المقابل في يوم الفصل ، وحين توجد المقارنة بين الضدين تكون الحسرة ، أي الذي يعذب في يوم الفصل كان يكفيه من آلامه أن يعذب ، أما أن يعذب ويرى الفريق المقابل يُنعم ؛ فذلك تعذيب آخر ، والذي كان مصدقًا ثم يرى نفسه في نعيم ، ويرى المكذب في جحيم ، يكون ذلك نعيمًا آخر .

إذًا فالتنعيم والتعذيب له لونان :

اللون الأول: أن يصيبه الألم ، ويرى الفريق المقابل في نعيم .

اللون الثاني: يرى العذاب ويرى غيره في النعيم ، وحينئذٍ تتأكد الحسرة بالنسبة لهم .. ثم ترك الحق ﷻ الأمر المقسم عليه ، وبعد ذلك قال : ﴿ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ثم انتقل إلى شيء آخر ، هذا الشيء الآخر في ظاهره أنه بعيد عن القصد ، ولكنه في حقيقته لم يبعد عن القصد ، وإنما اقترب من القصد بإيجاد دليل القصد ؛ فكأن الحق يريد أن يعرض صورًا كونية تصل الإنسان بها من حياته ؛ ليتفكر في الصور الكونية المحدثة له دليلاً على صدق الله فيما يحضره .

والحق ﷻ حينما يريد عرض قضية مختلف فيها لأنها غيبية ، يأتي بقضية متفق عليها ؛ ليجعل من المتفق منطلقًا إلى المختلف فيه .

---

1 - سورة : التكاثر ، الآية : 3 - 6 .

2 - سورة : ق ، الآية : 22 .

وهذه القضية شائعة في القرآن كثيرًا ، فمثلاً : قضية الحياة ، وكيف خُلقنا ، هذا أمر لم يشهده الإنسان ، إذن فهذه مسألة وضع فيها الحجز أمام النشاط الذهني العلمي في معرفة كيف بدأ الخلق ، فهي مسألة مفروغ من أن الإخبار بها يأتي من الخالق ، فإذا أرادوا أن يعرفوا كيف خلق الله السماوات والأرض فإنهم يرهفون آذانهم لمن خلق ؛ ليقول لهم كيف خلقهم ، وعندما تحدث الحق ﷻ عن مسألة الخلق حكى عن الإنسان الأول أنه خلقه من سلالة من طين ، وقال : من تراب ، ومن طين ، ومن حمأ مسنون ، ومن صلصال كالفخار .

فهذه مرحليات وأطوار مر بها الإنسان عند خلقه ، وليست تناقضًا ، وهذا أمر غيبي عنا ، ونحن صدقنا هذا لأننا نثق بالله ﷻ ونصدقه ، لكن الحق ﷻ حينما يريد أن يعرض صدقه في هذه القضية ماذا يقول ؟

يأتي بأمر حسي ليجعله دليلاً على أمر الغيب ، فنحن لا يمكننا أن نعرف كيف جاءتنا الحياة ، ولكننا بالتأكيد نعرف كيف نموت ، إذن جعل الموت – وهو من المظاهر الحسية التي نراها – وسيلة للتصديق بالظاهرة الغيبية ، وإذا مات الإنسان فآخر شيء يحدث هو خروج الروح ، وهي آخر شيء وضع في قصة الحياة .

إذن فآخر شيء جاء لإيجاد الحياة هو نفخ الروح ، وأول شيء يذهب منه هو الروح ، وهذا أمر منطقي ؛ فإنك إذا سرت في طريق إلى نهايته ، ثم أردت العودة من نفس الطريق فحتمًا ستكون آخر محطة وصلت إليها هي أول محطة تعود منها ، وكذلك حياة الإنسان ، فأنت ترى الميت يبدأ في التحلل ، وبعد ذلك ينتن ، ذلك هو الحمأ المسنون ، وبعد ذلك يتبخر الماء الذي في جسم الإنسان فتصير العناصر الأخرى ترابًا ، فهذا مشهد نراه كلنا ؛ ولذلك فلا تعجب حينما تقرأ في **سورة الملك** قوله ﷻ : ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ** ﴾[1] .. فذكر الموت قبل الحياة ؛ لأن الموت ملحوظ وتقدر أن تراه ، وبعد ذلك تستدل من وقائع الموت وترتيبها إذا عكستها على وقائع الحياة .

---

1 – سورة : الملك ، الآية : 1 .

أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَـٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّـٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾

بعد ذلك قال : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا ﴾ أمر مشاهد محس ﴿ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا * وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا * وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا * وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا * وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا * وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا * وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا * لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا * وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴾ أخذ الأمر المحس في الكون الذي يتصل بالإنسان .

الأرض ممهدة للراحة فيها ، وبعد ذلك ينتقل من المهاد إلى الجبال الأوتاد ، فكأن ارتفاع الجبال مكمل لجزئية الأرض ، وكلمة أوتاد نفسها تشعر بالتثبيت ؛ ولذلك عندما تكلم العلماء عن هذه الآية قالوا : إن قول الله ﷻ : ﴿ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ و: ﴿ وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ﴾[1] .. معنى ذلك أن الجبال لها صلة بتثبيت الأرض ، فلو أن الأرض مخلوقة على هيئة الثبوت والاستقرار لكانت لا تميد ولا تضطرب ، إذن فمعنى : ﴿ وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ ﴾ أنها عرضة للحركة ، وما دامت عرضة للحركة فقد تضطرب .

ولقد توقف العلماء طويلاً عند هذه الآية ليقولوا : إنها مثبتات .. ولكن التشبيه هنا لا يعطي فقط أنها مثبتات ؛ لأن الحق ﷻ حين يأتي بأمثلة من البيئة التي يعيش فيها الذين

---

1 – سورة : النحل ، الآية : 15 .

استقبلوا القرآن أولاً نجد أن هذا الأمر معروف لكل إنسان ؛ حيث إن بيوتهم مصنوعة من الخيام ، وهذه الأوتاد هي أدوات تثبيت البيوت ، فما دام الوتد يثبت البيت ، فنضرب لهم مثلاً من بيئتهم ومن مثل ما يصنعونه ، ولو لم تُثبت هذه الأوتاد الخيمة ، فالعُمد لا تكفي لتثبيت البيت ، لكن الأوتاد هذه تختلف ، ولكن الله يقول : ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ لم يقل : الجبال كالأوتاد ، حتى يكون تشبيه الجبال بالأوتاد ، ولكن جاء بها على طريقة التشبيه البليغ ، فالحقﷻ قال : ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ جاء بها على طريقة التشبيه البليغ ، فكيف جاء الحق بالمشبه الضخم ويشبهه بالشيء التافه البسيط ، مع أن المفهوم من التشبيه أن الشيء الأقل هو الذي يشبه بالكبير .

لكن شبه الجبال بالأوتاد ، وفيها لفتة ، وهذه اللفتة لكي يلفت الإنسان إلى أن الأوتاد وضعت لتثبيت شيء على الأرض .

وعندما أراد العلماء أن يبحثوا في كتلة جبل من الجبال لكي يعينوا بها كتلة الأرض ، رأوا أن الأرض لا تصلح للحياة إلا بوجود الهواء فيها ؛ لأن الهواء هو العنصر الأول من عناصر مقومات الحياة ، وقد عرفنا أن هناك غلافًا هوائيًّا حول الأرض ، وهذا الغلاف الهوائي من مكونات الأرض ؛ ولذلك عندما تكلم اللهﷻ عن السير قال : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ﴾[1] .. ولم يقل : سيروا على الأرض ؛ لأن القبة الهوائية التي تغلف الأرض التي يعيش الناس عليها من متممات تلك الأرض ، فتكلموا عن هذه القبة الهوائية ، وقالوا : إنها تمنع أشياء ضارة كثيرة جدًّا ، مثل : الأشعة البنفسجية وفوق البنفسجية ، وإلا كنا نهلك .

واللهﷻ هو الذي وضع هذه القبة الهوائية ، ولا بد أن يوجد شيء يشدها فبحثوا عن هذا الشيء فوجدوا أن هناك قانونًا يسمى : (**قانون الجاذبية**) ، كأن قانون الجاذبية يجذب القبة لكي لا تتفلت في الفضاء الكوني ، فجاء عالم من العلماء ، وقال : هل لثقل كتلة الأرض

---

1 – سورة : النمل ، الآية : 69 .

دخلٌ في قوة جاذبيتها ؟ إن كان ذلك فوجود الجبال لقوة الجذب ، ويكون على ذلك قوله : ﴿ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ متمشيًا مع واقع الخيمة وموقع الوتد ومهمته في الخيمة ، والدور الذي يقوم به الوتد في عملية الجذب ليحتفظ بهذا الشيء الذي فوقه ، وهذه مسائل لم يذكرها القرآن بالتفصيل عند قوم لا توجد لديهم ثقافة ، وإنما القرآن فيه زادٌ للنشاط الذهني بحيث إذا ارتقى الإنسان في بحث من البحوث لا يجد في القرآن صادًّا له عن نشاطه الذهني ؛ لأن القرآن له عطاء إلى أن تقوم الساعة ، ولو لم يكن للقرآن عطاء إلى أن تقوم الساعة لكان فسرها رسول الله ﷺ ، وحين يفسره سيفسره بما يلائم العقول المعاصرة ، وإذا فسره بما يلائم العقول المعاصرة فإنه يكون قد جمده ، وإذا جمده فإن صلاحيته لكل زمان ومكان تمتنع ، فرسول الله ﷺ يشرح الأحكام المطلوبة من المؤمن في كل عصر ، وإلى أن تقوم الساعة ، وبعد ذلك ما يتعلق بالكونيات التي تخضع للنشاط الذهني واستنباط أسراره يتركها ليأخذ الذهن منها على قدر ما يستطيع ؛ ولذلك بيَّن في القرآن كل شيء ، ومنه يأخذ كل إنسان قدر ذهنه .

وحين يقول الحق ﷻ : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا ﴾ يلفتنا لفتة في الاستفهام : أي جعلنا الأرض مهادًا ، ولماذا لم يقل : إننا جعلنا الأرض مهادًا مباشرة ؛ لأن كلمة : (جعلنا الأرض مهادًا) خبر من الله ، أما ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا ﴾ فكأن الله استأمننا على أن يسأل هو ذلك السؤال لنجيب نحن ، وجاءت صيغة الاستفهام بالنفي لئلا يكون تلقينًا بالجواب ، وليكون أبعد ما يكون عن التهمة .

إذًا كان من المعقول أن تنكروا قضية البعث إذا لم نكن صنعنا لكم مقدمات في حياتكم تستلزم قدرتنا الفائقة ، وعندما قالوا : إن الإنسان خُلق بالصدفة ، وجاء فيلسوف فرنسي واعتقد أنه جاء بالرد على أهل الصدفة ، الرد الذي لا ينقض ، فقال : العجيب أن الذين يقولون بالصدفة لم يتنبهوا إلى شيء ، وهو أن الصدفة من أعدائها الرتابة ، والصدفة يحكمها قانون الاحتمال ، وقانون الاحتمال هذا نسبته من 1 إلى 200 مليون ، ومن المحال أن الصدفة هي



الموجِدة ؛ لأن الصدفة إذا كانت هي التي خلقت الرجل فهل من المعقول أن الصدفة نفسها خلقت شيئًا آخر هو الأنثى من جنسه ، ومختلفة معه في النوع ؛ بحيث إذا التقيا لقاء غريزيًا خاصًا وُجد نسل منهما ؟ إن ذلك لا يكون بالصدفة ، وإنما هناك قصد وغاية .

فهذا الذي قال : إن الإنسان خلق بالصدفة .. نقول له : لقد نبهتنا إلى قرآننا .. حيث قال ﷻ : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1] ، وهذا دليل على القصد والغاية ، وهذا الخلق لا بد له من مقومات ، وذلك يدخل في قوله ﷻ : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴾ .

ومقومات الحياة لونان : **لون فيه يقظة** ، وهي للحركة والعمل ، **ولون فيه موت "نوم"** ، وكأن أول مقوم للحياة ليس هو الطعام والشراب فقط ، ولكن هناك النوم أيضًا ، وهو الذي عجز الفلاسفة عن معرفة سببه ، وآخر ما انتهوا إليه هو أنه ردع ذاتي في الآلة الإنسانية .

ومعنى ردع ذاتي في الآلة الإنسانية أن الآلة الإنسانية تعبت ، قد تتعب تعبًا يتحمل عقل الإنسان معه ، ثم يغلبه النوم فلا يستطيع أن يواجه الحياة بأي طاقة ، فينام إلى أن يعود إلى نشاطه سريعًا ؛ ولذلك نجد القرآن يعرض تلك العملية بقوله : ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ ﴾[2] ، كأن النوم عملية حياتية ضرورية ، ولذلك فبعد قوله ﷻ : ﴿ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ قال : ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴾ ، إذ إن النوم نعمة عظيمة من نعم الله ﷻ على الإنسان : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾[3] ، ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[4] ، وما دام النوم يفقد الإنسان صلته بحركة الحياة سُمي موتًا ؛ لأنه قطع عن

---

1 – سورة : الروم ، الآية : 21 .

2 – سورة : الأنفال ، الآية : 11 .

3 – سورة : الروم ، الآية : 23 .

4 – سورة : القصص ، الآية : 71 .

الحياة بالنوم ، وكذلك سُمي بالسُّبات ؛ لأنه قطع عن الحركة ، ولكنه قطع عن الحركة إلى أن تحدث العودة .

وكذلك عدم الوعي في النوم نعمة أخرى من نعم الله الكبيرة ؛ حيث إن المريض بمجرد أن ينام ويذهب عن الوعي لا يشعر بآلام المرض ، مما يدل على أن الذي يتألم ليس هو العضو المريض ، ولكنه النفس ووعيها ، وإلا فأين ذهب الألم حين غابت النفس عن الوعي .

لذلك جعل الله النوم ردعًا طبيعيًّا للجسم ؛ لكي يُعلم الجسم بأنه لم يعد صالحًا لحركة الحياة ، فليعتزل حركة الحياة قسرًا عنه ولْيَنَم ، فإذا نام وارتاح عاد تفاعله (الفسيولوجي) إلى طبيعته ، ثم قام نشيطًا فاستأنف حياته ؛ ولذلك فإن النوم يأتي دائمًا رغمًا عن الإنسان ، قد يطلبه الإنسان فلا يأتيه ، ولكنه يفاجئه ليذهب في نوم لا يعرف كيف بدأ به ، هذا ردع ذاتي للآلة الإنسانية ، حيث لم تعد صالحة لمواجهة حركة الحياة ؛ ولذلك سمى الله النوم سباتًا ، ثم قال تعالى ..

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ .. أي : سترًا ، وهذا الستر له فوائد كثيرة ، منها : أن الإنسان حين يخلو بنفسه ويخلد إلى النوم يحب ألا يطلع عليه أحد ، لأنه في نومه فاقد الوعي ، وقد تصدر منه أشياء لا يجب أن يراها أحد ، فلذلك جعل الله تعالى الليل لباسًا وسترًا .

وكذلك هناك ضرورات حركية تقتضي وجود اللباس ، كأن تباغت عدوًّا ، أو أن تبيت له كي لا يرى ما تعده له ؛ لذلك فهناك ضرورات في وجود الستر .

وكذلك مادام هناك ليل وستر ، فلابد من نهار ومعاش للحياة ، لذلك عقب الله تعالى بعد ذلك بقوله ..

﴿ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ .. وهذا أمر واضح ـ كما قلنا ـ ، ففيه حركة الحياة وسير أمور الناس ومعاشهم .

ثم يقول الحق بعد ذلك ..



﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ السبع الشداد ـ كما تدل عليها السياقات الكثيرة في القرآن ـ هي السماوات السبع ، وأما كون السماوات سبعًا فقد ورد في نصوص متعددة ، وكذلك كونها طباقًا ، إلا أن الناس ـ نظرًا لأن إدراكهم لم يصل بعد إلى جرم السماء ليعرفوا حقيقة ذلك الجرم ـ حاولوا جاهدين أن يعبِّروا عن معنى السماء بأشياء تطيقها عقول الناس ، وخاصة عندما تبرز في ميدان الفكر نظريات تبهر الناس حين يسمعونها ، أما الذين يحبون ـ إخلاصًا لدينهم ـ ألا يُبعدوا الدين عن واقع الحياة فإنهم يحاولون جاهدين أن يقربوا قضايا الدين ـ وخاصة الغيبيات ـ إلى عقولهم .

والتقريب إلى العقل عملية تعرض لها مفكرو العصر الحديث ، وكان على رأس هؤلاء المفكرين **الشيخ محمد عبده** ، وهو رائد المدرسة العقلانية ، تلك المدرسة التي كانت تحاول دائمًا أن تقرب قضايا الدين التي تتعلق بالغيب إلى عقول الناس ، وهي ظاهرة إن دلت على شيء فإنما تدل على الغيرة على الدين والحرص عليه ، ولكنها للأسف تضر أكثر مما تنفع .

وذلك لأن قضايا الدين جميعًا ، خاصة في الأمور الغيبية يجب الإيمان بها مطلقًا ، أما كُنْه وكيفية ما نؤمن به فليس من الضروري أن نعرف تفاصيله .

ولابد أن نعرف أن للإيمان قمة ، وهو أن تؤمن بالله ، فإذا ما آمنت بالله باختيارك ووصلت إلى القمة بعقلك ، فيجب أن تتقبل كل ما يصلك عن الله ﷻ ، وسعه عقلك أم لم يسعه .

وفي ماديات الحياة ما يؤكد صدق هذه القضية ، فكم من أمور لم تكن غيبًا بحتًا ، وإنما كانت غيبًا فقط عن مشاهدنا ؛ لأن آلات إدراكنا لم تكن تستوعبها ، وإن كانت مادية ، كالميكروبات مثلاً ، ولكن حين تقدم العلم وتقدمت آلاته من مجاهر وميكروسكوبات ، أمكننا أن نرى ما لم نكن نراه من قبل .

إذن فكونك لا تدرك الأمر بحسك لا يعني أنه غير موجود ، يجب أن تتهم أنت حسك لأنه لم يصل إلى إدراك ذلك الأمر ، ووجود أشياء كانت غيبًا ثم صارت الآن مشهدًا دليل على أن

عقلك يجب ألا يتوقف في الأمر الغيبي بحجة أنه لم يدركه ، بل يقول : ما دام أن الله قد أخبر به فهو موجود ، أدركته أم لم أدركه ، وإذا كان العلم لا يزال يكشف لنا مستورًا من مستورات الله في كونه ، بعد أن كانت غيبًا عن الناس ، ثم صارت الآن مشهدًا ، أفلا يكون ذلك دليلاً لي حين يخبرني الحق عن غيب أن لا أرفض هذا الكلام لمجرد أنني لا أدركه ؟! لأننا نقول : إن هناك ماديات حياتية كانت أمور غيب ، ثم أصبحت مشهدًا ، فخذ من ذلك وسيلة أيضًا إلى الإيمان بأن مغيبات كثيرة لم يكن عقلك يدركها ، ولكن الله أخبر بها ؛ لذلك فيجب أن تصدقها .

ولذلك فنحن دائمًا نقول : إن القرآن حينما يميز المؤمنين يقول : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾[1] ؛ لأن الإيمان بالمشهود أمر قد يشترك فيه المؤمن وغير المؤمن ، فلا مزية للمؤمن إلا أن يؤمن بأمر الغيب .

أما إذا كان العقل مقتنعًا بأمر ما والحِسُّ يؤيده ، فما الداعي لعدم الإيمان إذًا ؟! لا داعي لعدم الإيمان أبدًا .

ولذلك لما رأوا أن السماوات لا تدخل تحت حسِّنا ، ولا تحت تجربتنا ، ولا نستطيع أن نعرف عنها شيئًا قالوا : إن السماء هي كل ما علاك فأظلك ، والكواكب والشمس والقمر والنجوم فوقنا عبارة عن السماء ، ونقلوها عن الغيب إلى عالم الحس ، فاعتبروا أن الكواكب السَيارة التي كانوا يعرفونها في ذلك الزمن الغابر كانت سبعًا ، وأنها مطابقة لعدد السماوات السبع ، لكن تبيَّن فيما بعد أن السيارات حول الشمس ليست سبعًا ، فقد اكتُشفت سيارات أخرى ، فهل كانت السماء فارغة إلا من الشمس وتوابعها من السيارات ؟! كلا ، إن هناك نجومًا وكواكب كثيرة نراها أمامنا ، ولكنهم أرادوا أن يقربوا تلك المسألة للعقول المعاصرة ، فقالوا : إن السماء هي عبارة عن الشمس والقمر والكواكب .

---

1 – سورة : البقرة ، الآية : 3 .

وقد أراد الإمام **محمد عبده** أن يفسر كلمة : ﴿ بَنَاهَا ﴾ في قول الله ﷻ : ﴿ أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴾ [1] ، وفي قوله ﷻ : ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ ، فقال : إن معنى البناء هو إيجاد أشياء تتماسك تماسكًا قويًّا بحيث لا تنفصل عن بعضها البعض ، كما تُبنى اللبنة فوق اللبنة ، ثم يتماسك ما بين اللبنات بطين أو أسمنت أو ما شابه ذلك ، وكل ذلك يعتبر ضمن عملية البناء .

وعلى ذلك فقد فسر الإمام **محمد عبده** كلمة : ﴿ بَنَاهَا ﴾ في هذه الحالة بقوله : جعلها متماسكة مع بعضها البعض ، بحيث تظل مترابطة متماسكة ، لا يسقط شيء منها بفعل قانون الجاذبية الذي حاولوا استعماله لإثبات أن القرآن يساير القوانين العلمية .

ومع أن هذا الكلام كلام طيب من الإمام ، إلا أن القرآن لا يؤخذ آية آية ، وإنما يؤخذ القرآن جملة واحدة ، فهو كتاب كامل متكامل ، وإن كان نزل منجمًا مفرقًا ، إلا أن آياته لابد وأن تؤخذ جملة واحدة .. والقرآن بيَّن لنا أن السماء غير النجوم غير الشمس غير القمر .. وهكذا .

والدليل على ذلك أننا إذا قرأنا ـ مثلاً ـ قول الحق ﷻ : ﴿ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴾ [2] ، فإننا نجد ما يدل على أن السماء غير النجوم ، وبعد ذلك يأتي استهلال سورة الانفطار ، يقول الله ﷻ فيها : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ ﴾ [3] ، فمرة تكون النجوم مغايرة للسماء ، ومرة تكون الكواكب مغايرة للسماء .. وهكذا .

---

1 - سورة : النازعات ، الآية : 27 - 29 .

2 - سورة : المرسلات ، الآية : 8 ، 9 .

3 - سورة : الانفطار ، الآية : 1 ، 2 .

يقـول الحق ﷻ : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾[1] ، فالشمس والقمر من مكونات السماء ، والسماء تشتمل عليهما .

ويلاحظ أن القرآن دقيق في استيعاب هذه الأشياء ، فمرة يقول : ﴿ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴾[2] ، ومرة يقول : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ ﴾[3] ، فيأتي مرة بالنجوم مقابل السماء ، ومرة بالكواكب مقابل السماء .

ثم علمنا أخيرًا أنهم قد فرقوا بين النجوم والكواكب ، حيث قالوا : إن النجم مضيء وملتهب بذاته ، لكن الكوكب يعكس ضوء غيره ؛ ولذلك نجد في القرآن الكريم دقة الخالق في الأداء ، حيث يقول : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴾[4] ، ويقول : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ﴾[5] ، فأتى بالكواكب مرة وبالمصابيح مرة ، وذكر أنها زينة للسماء ؛ لأن الكواكب ومعها القمر ، تستمد ضوءها من الشمس ، فهي متلألئة وضاءة ومشرقة ؛ لذلك فهي زينة .

إذن لا يشترط أن تكون متوهجة في ذاتها ، ولكن يكفي أن تكون آخذة الضوء من غيرها كي تكون زينة ، سواء أطلق عليها كواكب ، أو أطلق عليها مصابيح .

ولو أردنا أن نفرق بين الكواكب والمصابيح ، فسنجد أن القرآن هو الفيصل في هذا ، حيث يدلنا على أن المصباح متوقد بذاته ، ولكن يوجد شيء يمنحه الإشعاع ولو كان غير متوقد بذاته ، فنجد قول الله ﷻ : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا

1 – سورة : نوح ، الآية : 15 ، 16 .

2 – سورة : المرسلات ، الآية : 8 ، 9 .

3 – سورة : الانفطار ، الآية : 1 ، 2 .

4 – سورة : الصافات ، الآية : 6 .

5 – سورة : الملك ، الآية : 5 .

مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ [1] ، فالزجاجة ليست مضيئة بذاتها ، ولكنها تعكس ضوء المصباح الذي هو مضيء بذاته .

وعندما يقول ﷻ : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ﴾ ، ثم في مرة أخرى يقول : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴾ [2].. ، فإن الحق ﷻ ذكر الاثنين : إما أن تكون كوكبًا ، وإما أن تكون نجمًا مضيئًا بذاته .

والخلاصة من هذا كله أن السماء شيء والكواكب والشمس والقمر شيء آخر ، خصوصًا أنهم بعد أن اكتشفوا سيارات أخرى مثل : أورانوس ونبتون وبلوتو ، زادت السيارات عن سبع ، ومع ذلك فعندما جاء عالم الفلك وقال : أين هذه الكواكب السبعة السيارة التي حول الشمس من ملك الله ؟ هذه مجموعة واحدة من مائة مليون مجموعة في مجرتنا ، ويوجد في الكون مائة مليون مجرة مثلها ، فالكواكب والنجوم عددها مثل عدد حبات الرمال على شواطئ البحار ، فماذا أفاد **الإمام محمد عبده** ومدرسته عندما قال : إن الكون كله ليس فيه إلا المجموعة الشمسية : الشمس والقمر والأرض ، فأين هذا من ملك الله ؟! إن بيننا وبين الشعرى أربع عشرة سنة ضوئية ، بينما بيننا وبين الشمس ثمان دقائق ضوئية فقط ، وهي مع ذلك تعطي ضوءًا وحرارة مثل الشمس 26 مرة ، وإذا كانوا يقولون : إن الأرض هي مركز الكون ، فهذا غير صحيح ؛ لأن الأرض لا تساوي شيئًا بالنسبة لملك الله ، ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [3] ، فهذا الكون واسع جدًّا ، فكونهم يقولون : إن السماء هي هذه ، والجاذبية هي التي تمسكها ، فإننا نرد عليهم بأن القرآن عندما يتعرض لمباني السماء فإنه يأتي بصيغة واحدة وهي كلمة بناء ، وعندما يتعرض لمباني الأرض يطلق عليها اسم

1 - سورة : النور ، الآية : 35 .

2 - سورة : الصافات ، الآية : 6 .

3 - سورة : الذاريات ، الآية : 47 .

البنيان ، ﴿ الَّذي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴾[1] .. ، فكل ما يتعلق بالسماء يسميه بناء ، وحين يتعرض لمباني الأرض يقول : ﴿ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴾[2].. ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالمينَ * لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَ أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[3].. فكل ما يتعلق بالمباني في الأرض يسميه بنيانًا ، وكل ما يتعلق بالبناء في السماء يسميه بناء فقط .

وإذا كان البناء يمكن أن تميز فيه لبنة عن لبنة ، ويوجد بين اللبنات ما يعمل على تماسكها ، فإن السماء لا ترى فيها من فطور (ثقوب) ، فالبناء هنا متماسك ومتلاحم بحيث لا تستطيع أن تتبيَّن فاصلاً بين شيء وشيء آخر ؛ ولذلك يقول الله ﷻ : ﴿ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾[4].

ولذلك عندما ترى السماء صافية تجدها بلون واحد وشكل واحد ، أما عندما تنظر إلى القمر تجد فيه ما يسمونه بالكلف ، وعندما تنظر إلى الشمس تجد فيها البقع ، فمعنى بناء السماء أنها بناء لا يوجد فيه شقوق ولا فطور .

والحق ﷻ حينما يسري برسوله في رحلة الإسراء والمعراج ، ثم يأتي الرسول ﷺ ويقول صعدت إلى السماء ، واستفتح **جبريل** ، وبعد ذلك قيل : من معك ؟ قال : **محمد** ، ففتحوا له ، ثم صعد إلى السماء الثانية ، فهل بعد ذلك يا إمام تقول أنت ومدرستك : إن السماء هي ما علانا فأظلنا من شمس وكواكب ونجوم ؛ لتقرِّبوا هذه المسألة إلى العقول لكي تقولوا : إن الدين ليس متعارضًا مع العلم .. صحيح أن الدين لا يتعارض مع العلم ، ولكن أي علم ؟! العلم الذي

---

1 – سورة : البقرة ، الآية : 22 .

2 – سورة : الصافات ، الآية : 97 .

3 – سورة : التوبة ، الآية : 109 .

4 – سورة : الملك ، الآية : 4 .

يصل إلى حقيقة العلم ؛ لأن التضارب لا يمكن أن يتأتى بين كلام الله وبين كون الله ، فالله هو الذي خلق الكون ، وهو الذي قال القرآن ، فلا تعارض أبدًا ، إنما ينشأ التعارض عندما تعتبر حقيقة في القرآن على فهمك ، وهي ليست بحقيقة ، أو تعتبر حقيقة في الكون على فهمك ، وهي ليست بحقيقة ، أما إذا توصلت إلى حقيقة قرآنية كحقيقة قرآنية ، وإلى حقيقة كونية كحقيقة كونية ، فلا يمكن أن يوجد تعارض أبدًا ، ولكن الناس دائمًا يتعجلون ، وكلما رأوا بارقة من علم نظري يحاولون أن يفسروا بها غيب الله ﷻ ، ورغم إخلاصهم إلا أنهم قد يضرون ؛ لأنه ليس من مهمة الدين أن ينزل إلى مستوى عقول الناس ، إنما المهم أن يرفع من عقول الناس إلى مستواه ، فهذه مسألة تتساوى فيها المعرفة وعدم المعرفة ، أي أن هذا طرف عقلي وعلمي ، فإن عرفت أن السماء هي كذا أو كذا ، فهذا لن يترتب عليه من نفعك منها والذي قصده الله لك شيئًا ، بل أنت في كل الأحوال منتفع .

وبعد ذلك ، ماذا ترك عقل القرن العشرين لعقل القرن الثلاثين والأربعين ، إذا كنا كل يوم نخطو في العلم خطوات تدلنا على حقائق ، فإذا كان العقل في القرن العشرين يريد أن يفهم الحقائق الغيبية الآن ؛ فماذا ترك لعقل القرن الثلاثين ؟! إن أسرار الله تأتي تباعًا ، كل يوم يعطي الله ﷻ خلقه بعض الأسرار ؛ ولذلك جاء قول الحق ﷻ : ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ** ﴾ [1] ..أي سنظل نريهم ، وليس أريناهم ، وسنبقى نقرؤها إلى قيام الساعة سنريهم .

إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾

وبعد أن تكلم الحق عن مظاهر قدرته وإبداعه ، ومظاهر حكمته الموضحة في هذه الأشياء ،

1 – سورة : فصلت ، الآية : 53 .

ينتقل إلى المعني المطلوب ..

﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴾ .. أي إنه لا بد أن لا تكذبوا الخالق الذي فعل ذلك ؛ لأنكم ستلقونه في يوم الفصل .

وكلمة : ﴿ كَانَ مِيقَاتًا ﴾ .. تدل على أن الذين يستعجلونه يريدون أن ينفعل الله ﷻ لاستعجالهم ، فيعجل اليوم إلى وقت قريب ، ولكنهم لا يعلمون أن الله لا ينفعل ؛ لأن الانفعال تغيُّر ، والحق ﷻ لا يتغير .

والميقات : هو الوقت المعلوم .

﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴾ .. وكأنها بداية يوم الفصل .. ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾[1] .

وعن **معاذ بن جبل** رضي الله عنه أنه لما نزلت هذه الآية سأل عنها رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ له : **" يا معاذ ، سألت عن أمر عظيم من الأمور "** . ثم أرسل عينيه ، وقال : **" تحشر عشرة أصناف من أمتي ، بعضهم على صورة القردة ، وبعضهم على صورة الخنازير ، وبعضهم منَكَّسون أرجلهم فوق وجوههم يسحبون عليها ، وبعضهم عمي ، وبعضهم صم وبكم ، وبعضهم يمضغون ألسنتهم فهي مدلاة على صدورهم يسيل القيح من أفواههم يتقذرهم أهل الجمع ، وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم ، وبعضهم مصلَّبون على جذوع من نار ، وبعضهم أشد نتنًا من الجيف ، وبعضهم يلبسون جبابًا سابغة من قطران لازقة بجلودهم ، فأما الذين على صورة القردة فالقَتَّات من الناس[2] ، وأما الذين على صورة الخنازير فأهل السحت ، وأما المنَكَّسون على وجوههم فأكلة الربا ، وأما العمي فالذين يجورون في الحكم ، وأما الصم والبكم فالمعجبون بأعمالهم ، وأما الذين**

---

1 – سورة : الإسراء ، الآية : 71 .

2 – القتَّات : أي الذين يسعون بين الناس بالنميمة .

يمضغون ألسنتهم فالعلماء الذين خالفت أقوالهم أعمالهم ، وأما الذين قطعت أيديهم وأرجلهم فهم الذين يؤذون جيرانهم ، وأما المصلَّبون على جذوع من نار فالسعاة بالناس إلى السلطان ، وأما الذين هم أشد نتنًا من الجيف فالذين يتبعون الشهوات واللذات ومنعوا حق الله ﷻ في أموالهم ، وأما الذين يلبسون الجباب فأهل الكبر والفخر والخيلاء "[1] .

وعن أبي هريرة ﵁ ، أن الناس قالوا : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال رسول الله ﷺ : " هل تمارون في القمر ليلة البدر ؟ " قالوا : لا يا رسول الله . قال : " فهل تمارون في الشمس ليس دونها سحاب ؟ " قالوا : لا يا رسول الله . قال : " فإنكم ترونه كذلك ، يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول : من كان يعبد شيئًا فليتبعه ؛ فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ، ويتبع من كان يعبد القمر القمر ، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت ، وتبقى هذه الأمة فيها شافعوها ، أو منافقوها (شك الراوي) ، فيأتيهم الله ﷻ ، فيقول : أنا ربكم . فيقولون : هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا ، فإذا جاءنا ربنا عرفناه . فيأتيهم الله ﷻ في صورته التي يعرفون ، فيقول : أنا ربكم . فيقولون : أنت ربنا . فيتبعونه ... إلى آخر الحديث[2] .

﴿ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴾ .. أي أنها ليست مفتوحة الآن ، وستفتح حينها .

﴿ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ .. والجبال هي أثبت شيء يراه الإنسان ، والجبال أخذت حظًّا وافرًا في القرآن ، حيث نجد أن تسعًا وعشرين سورة متعلقة بالجبال ، منها إحدى عشرة آية متعلقة بأحوال الجبال يوم القيامة ، ومسألة التسيير .

والسراب : هو الشيء الذي تتوهم أنه شيء وليس بشيء .

---

1 - تفسير أبي السعود 6 / 439 .

2 - البخاري : (6885) ، ومسلم : (276) .

والتسيير يكون بالنسبة للجبال ، كما في قول الحق ﷻ : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ [1]، وقوله ﷻ أيضًا : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [2]، وقوله : ﴿ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ [3]، وقوله ﷻ : ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ * وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ * لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ * لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴾ [4].

ولكن السور الثلاث لم تتعرض لما تسير إليه بعد التسيير ، ولكن في **سورة النبأ** كان التفصيل : ﴿ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ ، فنتيجة التسيير أنها تصير سرابًا ، وهنا تحرك من أماكنها بالسير ، ثم تصير سرابًا ، وهناك في **سورة المزمل** : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا ﴾ [5]، **والكثيب** : هو الرمل المهيل الهائل بعد ما كان متماسكًا ، والرمل حين يتماسك يصبح ثابتًا في مكانه ، ولا يكون سرابًا ، وكلمة : ﴿ كَثِيبًا مَهِيلًا ﴾ تدل على التفكك والتفتت .

وهذه المعاني الكثيرة الواردة في الآيات تدل على أنه إما أن يكون النسف هو التسيير ، أو أن يكون النسف لبعض الجبال ، والتسيير لبعض ، وذلك لاختلاف طبيعة الجبال ، فالجبال طبائعها مختلفة ، واختلاف طبائعها يجعل الحالة التي تؤول إليها الجبال لتنتقل إلى العدم تأخذ صورتين اثنتين : صورة تسيير فتصبح سرابًا ، أو صورة نسف .

إذن فالجبال نوعان : نوع فيه نسف ، ونوع فيه تسيير .

---

1 – سورة : التكوير ، الآية : 1 – 3 .

2 – سورة : الكهف ، الآية : 47 .

3 – سورة : الطور ، الآية : 10 .

4 – سورة : المرسلات ، الآية : 10 – 13 .

5 – سورة : المزمل ، الآية : 14 .

إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾

إن الكون كله خاضع للحق ، الكون كله مسبح ، الكون كله مؤدٍ لمهمة يريدها الله ﷻ ، فعندما يرى الكون إنسانًا فاجرًا طاغيًا فإنه ينبو عنه وينفر منه ، وينتظر حتى يأتي يوم عذاب ذلك الإنسان فيتميز من الغيظ ، حتى يقال : هل امتلأت ، فتقول : هل من مزيد ؟

فهذا هو انفعال **الكون المسخر.. الكون المسبح .. الكون العابد** .. كان متغيظًا ، وكان محنقًا من جنس الإنسان الذي انقسم إلى طائع وعاصٍ ، في حين أن بقية الأجناس طائعة بالإجماع .

ويتضح هذا الإجماع عندما نعرض لقول الحق ﷻ : ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ** ﴾ ، ولكن عندما كان الكلام عن الإنسان .. سيد هذه الدنيا قال : ﴿ **وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ** ﴾[1] .

إذن فلم ينقسم الخلق إلا عند الإنسان ، أما الجميع فبالإجماع ؛ ولذلك فجهنم معذورة في أنها تظل مترصدة لهؤلاء الذين خالفوا منهج الله ﷻ .. ﴿ **إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا** ﴾ .

﴿ **لِلطَّاغِينَ مَآبًا** ﴾ .. وكلمة ﴿ **مَآبًا** ﴾ تدل على أن أمر الأوبة مقطوع به ، وكأنهم في رحلة وسيعودون منها إلى مستقرهم الحقيقي ، ﴿ **لِلطَّاغِينَ مَآبًا * لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا** ﴾ ،

1 – سورة : الحج ، الآية : 18 .

وهنا وقفة للعلماء ، حيث يقدرون الحقبة بثمانين سنة ، ولا يكون اللبث أحقابًا إلا إذا كان متتابعًا ؛ لأن الحقبة مشتقة من حقيبة الراكب التي يضعها خلفه ، فهي تابعة لرَحله ، لذلك فإن ﴿ لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴾ لا تعني عددًا محدودًا من الزمن ؛ لأن كلمة أحقاب لا تطلق إلا على أزمنة متلاحقة متتابعة ، أي : كلما ينتهي حقب يأتي حقب آخر بعده .

وقد قال بعض الناس : ما دام أن الله ﷻ قد قال : ﴿ لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴾ فإنه ﷻ قد عدَّها ، والحقب ثمانون سنة ، ومع إعطاء الجمع أكثره لا تدل كلمة أحقاب على استمرار التتابع .

ونقول لهؤلاء : إن كلمة أحقاب تدل على العذاب المقيم ، كما قال الله ﷻ : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ ، أما عن فائدة كلمة أحقاب ، فإنها تدل على أنه استدامة لعذاب هؤلاء وبعد أن ينالوا قسطًا من العذاب يوجه وجوههم تلقاء الجنة ، فيتجدد عندهم الأمل في الخروج من النار ودخول الجنة ، ثم يعيدهم بعد ذلك إلى النار تارة أخرى ، فيكون ذلك أشد في النكاية بهم ، ووصلاً في العذاب فوق العذاب ، كما لو منعت إنسانًا من الماء ، واستمر منعك له من الماء ، فيستحكم منه اليأس ويعلم أن قد قضي الأمر ، أما إذا أمَّلته ومددت إليه يدك بكوب من الماء ، حتى إذا ما مد يده ليأخذها أعدت يدك ولم تعطه إياها ، فإن ذلك سيكون أشد استدامة للعذاب .

فكلمة **أحقاب** معناها : أنهم يأخذونهم فترة ، ثم بعد ذلك يأنسون إلى أن الله ﷻ سيعفو عنهم ، ثم يُعادون بعد ذلك ، وهكذا ، كما قال الشاعر العربي :

كما أبرقت قومًا عطاشًا غمامة   فلما رأوها أقشعت وتجلت

أو كما قال الآخر :

فأصبحت من ليلى الغداةَ كقابض   على الماء خانته فروج الأصابع

حيث تسرب الماء من بين أصابعه .

﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِلطَّاغِينَ مَآبًا * لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا * لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾ وكلمة (إلا) عندما تذكر فإنها تعطي لسامعها أملاً ؛ لأن كلمة (إلا) من المعروف في الاستثناء أنها للإخراج ، وما دامت إخراجًا من عذاب فإنها تصبح أداة للرحمة ، فإذا به يجد بعدها عذابًا أنكى ، فالله ﷻ أطمعه ، ثم أخبره بما أعده له من العذاب ، ولذلك قال الصحابة : " هذه أشق آية في القرآن " .

﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾ .. وهذا السياق يأتي على طريقة المدح في معرض الذم ، أو الذم في معرض المدح ، فساعة أن يسمع (إلا) يظن أن باب الفرج قد انفتح ، ثم بعد ذلك يقول : ﴿ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾ ، وقوله ﷻ : ﴿ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾ ..

الحميم : هو الماء المتناهي في الحرارة ، فهل يكون هذا بردًا ؟!

والغساق : هو الصديد .. صديد أهل النار ، فهل يكون هذا شرابًا ؟!

ولكي لا تأخذنا بشاعة الجزاء ، وهول الوصف يقول الحق ﷻ ..

﴿ جَزَاءً وِفَاقًا ﴾ هنا قال : ﴿ جَزَاءً وِفَاقًا ﴾ وهناك : جزاء فيه عطاء أي يأخذون حسنة مقابل الحسنة التي صنعوها ثم تزيد بعد ذلك تسعة ، وهو العطاء ، أي أنه جمع بين الجزاء وبين العطاء .

عندما نقرأ ﴿ لِلطَّاغِينَ مَآبًا * لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا * لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا * جَزَاءً وِفَاقًا * إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴾ .. نجد الحق يأتي بالحيثية التي تجعل السامع يؤمن تمام الإيمان أن الجزاء جزاء عادل ، فقال : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا * وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴾ .. هذا الجزاء الذي تقدم لماذا استحقوه ؟!

استحقوه لأمرين : الأمر الأول : أنهم كانوا لا يرجون حسابًا ، كيف لا يرجون حسابا ؟! لأنهم لا يؤمنون بالحساب ، أو يؤمنون بالحساب ولكنهم يتعجبون كيف يعودون ثانية بعد أن كانوا عظامًا ورفاتًا .

فإذا استقرأت كل فساد الدنيا وجدته ناشئًا من أنهم ﴿ لاَ يَرْجُونَ حِسَابًا ﴾ ، فإن المجتمع يفسد حين لا يرجو أعضاء المجتمع أو لا يتوقعون حسابًا على تصرفاتهم ، فحين توجد هذه الصفة في المجتمع ، ولا يتوقع أحد حسابًا على تصرفاته ينطلق كلٌّ في حركة حياته كما يحب ويشتهي ، إذن فالضامن لصلاح المجتمع هو بعينه الضامن لصلاح الآخرة ، فهؤلاء حدث لهم هذا لأنهم .. ﴿ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ حِسَابًا ﴾ .

إذن فعدم توقع الحساب من الإنسان يجعله ينفلت في حركة حياته غير متقيد لا بنظام عقدي ولا بنظام قيمي ؛ لأنه لا يتوقع حسابًا ، وكذلك الدنيا يكون الفساد فيها حين لا يتوقع الناس في المجتمع حسابًا ، أما إذا توقعوا حسابًا ، وتذكر كل إنسان أنه سيحاسب على تصرفه .. فهنا ينتظم المجتمع ، وحين لا يتوقع حسابًا .. يفسد المجتمع فسادًا كبيرًا .

إن هؤلاء حدث لهم هذا لأنهم ﴿ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ حِسَابًا ﴾ مما يدل على أن عدم توقع الحساب من الإنسان يجعله ينفلت في حركة حياته غير متقيد لا بنظام قيمي ولا بنظام عقدي ؛ لأنه لا يتوقع حسابًا .

فالمحاسب سيكون في مجتمعنا ثلاثة أشياء : إما الحاكم الذي نصبه الله ليقيم حدوده ، وإما المجتمع ، وإما النفس ، وهذا هو ما انتهت إليه مدارس الجزاء الحديثة كلها ، إلا أنها تمتاز بأن هناك حسابًا آخر ترجوه في الآخرة ، وتلك المدارس الحديثة لا تنظر إلى هذا الحساب ، بل تنظر إلى حساب الدنيا .. المجتمع .. حساب الحاكم بتقنيناته .. حساب النفس ؛ ولذلك نشأت مدرسة اسمها مدرسة الضمير ، ونشأت مدرسة اسمها مدرسة المجتمع ، ونشأت مدرسة الحاكم .. وهكذا .

ولكنا نقول لأصحاب هذه المدارس جميعًا : إن هذه الأشياء الثلاثة لم يهملها القرآن ، ولم يهملها المذهب العقدي الإسلامي ، لكن ما رأيك فيمن يحتاط للجريمة بحيث لا تقع عليه عين الحاكم ، ولا عين المجتمع ؟!



إذًا فالعاصم النهائي القوي الذي يستوعب كل هذا هو أن يعتقد الإنسان أنه محكوم أمام عين خبير لا تخفى عليه خافية ، لا يستطيع أن يستتر عنه ، وهو مردود إليه قطعًا ليجازيه .

إذا تأملنا قوله ﷻ : ﴿ **لاَ يَرْجُونَ حِسَابًا** ﴾ وجدناها قضية تنصرف ، فالذين لا يرجون حسابًا في الآخرة يفسدون الفساد الأصيل ، من القمة كفرًا بالله ﷻ .. إلى أصغر الصغائر ، أما في الدنيا فإن الفساد فيها لا يتأتى إلا إذا كان الناس لا يرجون حسابًا ، فإذا وجد حاكم يقيم القانون على طائفة دون طائفة ، فماذا تظنه يحدث ؟ لا شك أن التي يقام عليها القانون ستشعر بالظلم ، مما سيؤديها دائمًا إلى المخالفة ، وأما الطائفة الأخرى فبشعورها أن ليس من حساب لا شك ستفسد ، وهذا هو معنى قول رسول الله ﷺ : " **إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد** "[1] .

ويقول الله ﷻ : ﴿ **وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ** ﴾ .. وهذه من الوازع الديني .. ﴿ **وَالْمُؤْمِنُونَ** ﴾[2] .. يعني : الجو المحيط بكم .

إذن فقول الحق ﷻ : ﴿ **إِنَّهُمْ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ حِسَابًا** ﴾ بيان علة فسادهم وكفرهم واستهزائهم .. علة وقوفهم من النبي ﷺ موقف الصد والعدوان والاضطهاد ، كل هذا ناشئ من .. ﴿ **إِنَّهُمْ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ حِسَابًا** ﴾ .

وبعد ذلك يقول الحق ﷻ : ﴿ **وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا** ﴾ .. وإذا تأملنا كلمة ﴿ **كِذَّابًا** ﴾ نجد أنها وردت للتوكيد بالتشديد . فلِمَ لَمْ يقل : تكذيبًا ، أو كذبًا ؟! مع أنها كلها لغات فيها .. ولكن كلمة (كِذَّاب) مصدر مثل التكذيب ، ويقال : إن هذه هي لغة أهل اليمن ، كما تجد الرجل اليمني يسأل في الحج فيقول : أيهما أفضل الحلق أم القصار ؟ يعني الحلق أم التقصير .

---

1 – متفق عليه : البخاري (3288 ، 3526 ، 4053 ، 6406) ، ومسلم (1688) كلاهما من حديث عائشة رضي الله عنها .
2 – سورة : التوبة ، الآية : 105 .

ووردت قراءة ثانية : (وكذبوا بآياتنا كِذَابا) ، ووردت قراءة ثالثة : (كُذَّابا) .. جمع كاذب ، كفساق جمع فاسق .

فإنك لو قلت : كَذَّب فلان فلانًا ، فإن تكذيب فلان لفلان لا يجعلك تلقي اللائمة على من كذب ؛ لأنه من الجائز أن يكون صادقًا ، فأنت كذبته في الخبر ، أليس من الجائز أن يكون تكذيبك صحيحًا ، فبقي أن تقول : كذبوا بآياتنا ، وهل صدقوا في ذلك أم كذبوا ؟ فيقول لك : بل كذَّبوا ثم ترك مصدرها لتفهمها ، وبعد ذلك قال : (وكذبوا كذَابا) ، أو (وكذبوا كذَّابا) ؛ ليقول لنا : إنهم ليسوا صادقين ، إنهم كذبوا ويبقى مصدرها محذوفا (تكذيبًا) ، ولم يَصدقوا في ذلك ، بل كذَبوا في ذلك التكذيب كذابا ، وتكون (كذابا) راجعة لفعل غير المذكور فيكون مصدر المذكور محذوفًا ، (كذبوا) كأنه قال : كذبوا تكذيبًا ، وهم غير محقين في ذلك التكذيب .

وهنا شيء يسمونه في اللغة احتباكًا ، وهو أن تأتي بجملتين ، كل جملة لها ركنان ، ثم تحذف من الأولى ركنًا ومن الثانية ركنًا ، لكن الركن المحذوف من الثانية عليه دليل في الأولى ، والمحذوف في الأولى عليه دليل في الثانية ، وذلك مثل قول الحق ﷻ : ﴿ **قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ** ﴾[1] ، كان المفترض أن يقال : فئة تقاتل في سبيل الله ، وأخرى تقاتل في سبيل الشيطان ، لكن القرآن مبني على الأسلوب العالي من البلاغة فحذف ﷻ كلمة مؤمنة من الأولى واستدل عليها بمقابلها في الثانية ، فقال : ﴿ **فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ** ﴾ كأن الأولى مؤمنة أي : فئة مؤمنة ، أخذنا مؤمنة من مقابل ما ذكر في الثانية .

فجاءت كلمة : ﴿ **كَافِرَةٌ** ﴾ لتستدل على المؤمنة الأولى ، وجاء في الأولى ﴿ **فِي سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ لتستدل على أن معنى الثانية هو : في سبيل الشيطان .

---

1 - سورة : آل عمران ، الآية : 13 .

وهذا هو ما يسمى بالاحتباك .. حيث حذف من الأولى نظير ما وجد في الثانية ، وحذف من الثانية نظير ما وجد في الأولى .

أي : وكذبوا بآياتنا تكذيبًا ، أو وكذبوا في ذلك كذبا أو كذَّابا ، جاء بالفعل في الأول وترك المصدر ، وجاء بالمصدر في الثاني وترك الفعل .

وهناك من استشكل بآية من القرآن ، وهي قول الحق ﷻ : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾[1] .. قال : فلماذا كذبهم الله ﷻ ، مع أنهم لم يشهدوا بقضية كاذبة ، وإنما شهدوا للنبي ﷺ بالرسالة ؟!

فنقول : لقد أخذت متعلق الفعل وتركت الفعل .. إنهم لم يقولوا : إنك رسول الله فقط ، بل إنهم قالوا : ﴿ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾ ، فالتكذيب في قولهم : (نشهد) ، وليس في شهادتهم نفسها ؛ لأنها ليست شهادة فهي مجرد كلام من لسانهم لم يصادف إيمانًا في قلوبهم ، فالشهادة هي أن يقول الإنسان قولاً مطابقًا لما في ضميره ، وهم ليسوا مؤمنين بهذه الشهادة ، فقالوها بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم .

﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴾ .. الإحصاء هو معرفة الشيء وعده ، ومع الإحصاء هناك الكتابة ؛ لأنك إن أردت أن تعد الشيء لعددته في ذهنك ، ولكن إن أردت أن تؤكد هذا الإحصاء فلابد من كتابته ؛ ولذلك عدل عن مصدر الإحصاء فلم يقل : وكل شيء أحصيناه إحصاء ؛ لأن كلمة : (أحصيناه) .. أي : علِمناه علما لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ، لكن هذا العلم يكون حجة عندي أنا ، وليس حجة عليهم ، إنما أنا أريد حجة عليهم ، فلم يكتفِ الحق ﷻ بالإحصاء ، وهو العلم الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ، بل تعدى ذلك إلى الكتابة أيضا ؛ وذلك حتى يقرأ كل إنسان كتابه يوم القيامة ، كما قال ﷻ في ذلك : ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ

1 - سورة : المنافقون ، الآية : 1 .

كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾[1] .

﴿ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا ﴾ .. ويلاحظ في هذا الأسلوب أن الحق ﷻ يتكلم عن الكافرين وعن المنكرين للبعث فيرد عليهم بالغيب كله : ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِلطَّاغِينَ مَآبًا * لاَبِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا * لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلاَ شَرَابًا * إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا * جَزَاءً وِفَاقًا ﴾ ، كان يمكن أن يقول السياق : فليذوقوا ، لكن المسألة انتقلت من الغيبة إلى الخطاب ؛ لأن ﴿ فَذُوقُوا ﴾ خطاب من متكلم والمخاطبون يسمعون ، لكن الأول غيب ، فهو يريد أن يجعل الأسلوب يشف عن المعنى شفافية مطلقة ؛ لأن الآخرة غيب ، فقد يكذب الناس بها ، لكن عندما تكون مشهدًا فكأنه قيل : ستواجهون بها هكذا ، بعد ما كان الأمر غيبًا أصبح مواجهة .. ﴿ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا ﴾ .

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ حِسَابًا * وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا * وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا * فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا ﴾ .. وكلمة (لن) للتأبيد ، مثل (إلا) الأولى ﴿ فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلاَّ ﴾ فعندما نقرأ (إلا) نقول : سيأتي هنا تخفيف ، ولكنه يقول : ﴿ إِلاَّ عَذَابًا ﴾ ، وكما قدمنا أن التيئيس بعد الإطماع أبلغ في النكاية ، وأعظم في الترويع والتخويف ، وضربنا لذلك مثلاً : أن الإنسان إذا كان عطشانًا بشدة ويطلب منك كوب ماء ، وأنت لا تعطيه الماء ، ثم بعد ذلك التفت إليك فوجدك تذهب نحو القارورة وتملأ الكوب ماءً وتتوجه به إليه ، فكل ذلك يعطي له الأمل في أنك سترق وتعطيه كوب الماء ، ثم بعد ذلك يمسكه ليشربه فتقوم بضرب الماء من يده فيقع منه ، فلو أنك من أول الأمر لم تتحرك في اتجاه الماء لكان الأمر هينًا عليه ، أما أن تطمعه هذا الإطماع ، ثم بعد ذلك تقنطه ، فهذا أبلغ في النكاية فيه .. ﴿ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا ﴾ .

وبعد ذلك ينتقل السياق لإيلامهم أكثر بالحديث عن المقابل ، وهو جزاء المتقين يوم

---

1 - سورة : الإسراء ، الآية : 14 .

القيامة ، وهو : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴾ ، إن المتقين لم يكونوا مكذبين ، وليس لهم علاقة في هذا الموضوع ، ولكن ذلك من أجل التقابل ، وهذه هي عدالته ؛ ولذلك فإن الحق ﷻ دائمًا يقابل بين الفريقين فيقول : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾[1] ، إذن فهذه العملية فيها نكاية أخرى ؛ لأن العذاب على السيئة عذاب ، ثم تنعيم المقابل يكون لونًا آخر من ألوان العذاب .

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴾ .. كلمة : (مفازًا) هذه تطلق على عدة معان ، تطلق ويراد بها الفوز .. إن للمتقين فوزًا ، والفوز هو بلوغ الخير المؤمل للنفس ، (فاز) يعني بلغ الخير الذي كان يؤمله ، أو (مفازًا) أي منجاة من المعاطب ، فاللفظ يحتمل الاثنين ، وفي الآخرة يكون هذا وذاك ، كما في قوله ﷻ : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴾[2] .. لأننا سنمر ونشاهد لهيب النار ونحن نمشي على الصراط ، وكون أني أرى النار ، ثم بعد ذلك أنجو منها ، فهذه نعمة حتى ولو كنت مع أهل الأعراف ، لا في جنة ولا نار ، فما بالك إذا ذهب هذا ، ثم بعد ذلك دخل الإنسان الجنة ..

إذًا .. ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴾ أي نجاة ، كما في قوله ﷻ : ﴿ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾[3] ، إذًا فعناصر الفوز نوعان : أن يزحزح الله الإنسان المؤمن عن

1 – سورة : الانفطار ، الآية : 13 ، 14 .

2 – سورة : مريم ، الآية : 71 .

3 – سورة : آل عمران ، الآية : 185 .

النار فهذه مزية ، ولو ظل بلا نار ولا جنة ، فما بالك إذا زحزحه عن النار وأدخله الجنة ، فهو الفوز ﴿ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ ، وكان العرب يسمون الصحراء (مفازة) ؛ لأن الصحراء عادة تكون مهلكة ، فعندما يمشي فيها أحد لا يجد عين ماء يشرب منها ، وقد يعترضه وحوش أو سباع أو عدو يبغته ، فينجو منها ؛ ولذلك فهم يسمونها مفازة تيمنًا ؛ كي لا يناله فيها معاطب ، فأول درجات الفوز ألا توجد المعاطب ، والمرتبة العالية : ألا توجد المعاطب وتوجد المحَاسن ، ﴿ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ .

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا * حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴾ .. بعد ذلك أعطانا لونًا من ألوان نعيم الجنة ، والحق ﷻ حين يتكلم عن الجنة يتكلم عنها بالأسلوب الذي وجد في لغتنا ، حيث إن الجنة أمر أخبرنا الله به غيبًا ، ولكن أخبرنا عن أصول المسائل فيه : ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [1] ، والرسول ﷺ يشرح لنا ذلك ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : **قال الله ﷻ : " أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر " ، فاقرءوا إن شئتم : ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾** [2] ، فإن قيل : فما دام فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فكيف يوجد في لغة الناس ما يؤدي معانيها ؟! والجواب : نسأل كيف جاءت لغة الناس ؟ إنما جاءت اللغة حيث وجد المعنى في الذهن أولاً ، ثم وضع له اللفظ الذي يؤدي معناه .

إذن فلا لفظة في اللغة إلا وقد سبق الذهن إلى معناها ، وإذا كانت فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فهل عندنا ألفاظ تؤدي مدلول هذه الأشياء؟! إن الألفاظ لا توجد في لغة الناس إلا بعد أن تتشخص المعاني في الذهن ، وعندما تتشخص المعاني في

---

1 – سورة : السجدة ، الآية : 17 .

2 – رواه البخاري (3072 ، 4501 ، 4502) ، ومسلم (2824 ، 2825) .

الذهن توجد لها الألفاظ ، أما أن لا يوجد المعنى في الذهن فلا يوجد لفظ يؤديه ، فإذا كانت الجنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فمن أين تأتي الألفاظ التي تؤدي هذا ، فيكون لا ألفاظ في لغتنا لتؤدي المعاني التي في الجنة ، ولكن الله أعطانا فقط مثالاً من نعيم الدنيا ؛ ولذلك فهو لم يقل : الجنة التي وعد المتقون ، وإنما قال : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾ ، ومعلوم أن المثل معدل ، ﴿ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ ﴾ معدل : ﴿ غَيْرِ آسِنٍ ﴾ ، ﴿ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ ﴾ معدل ﴿ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴾ ، ﴿ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ﴾[1] ، والخمر لا غول فيها ، حتى رغم أنه يقول : إني أعطيكم مثلاً فقط ، فليس حقيقة ما في الجنة ، بل معدل أيضًا في المثل .

لابد أن نعرف أن الذي كان يمتلك حديقة أو بستانًا أو حائطًا في البيئة العربية هو من عُرف بالثراء والترف ، والحديقة هي البستان ذو السور وهذا السور دليل على الخصوصية ، أي أن من مُتَع الجنة متعة الخصوصية ، وقد أعطانا ربنا ﷻ رمزية لها فقال : ﴿ حَدَائِقَ ﴾ ؛ ولذلك جاء في موضع آخر يقول : ﴿ حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴾[2] ، وفوق ذلك : ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴾[3] ، ففضل الله ﷻ متسع لأن يعطي كل إنسان خصوصية ، والدليل على ذلك هو قوله ﷻ : ﴿ حَدَائِقَ ﴾ أي ذات أسوار .

وبعد ذلك أتى بأمتع ما في الحدائق وهو الأعناب ، عندما يأتينا لفظ في القرآن له نظير في الدنيا فلا نأخذه على ذلك النظير ، بل نأخذه على مقياس زمنها ، فيكون هناك عنب الدنيا وعنب الآخرة ، وخمر الدنيا وخمر الآخرة ؛ ولذلك يقول : ﴿ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ ﴾[4] ، فيعطيها لفظًا من ألفاظ الدنيا .

---

1 – سورة : محمد ، الآية : 15 .

2 – سورة : الرحمن ، الآية : 72 .

3 – سورة : الرحمن ، الآية : 74 .

4 – سورة : الواقعة ، الآية : 19 .

ولذلك فإن الله ﷻ يقول في آية أخرى : ﴿ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ﴾[1] ، وقبل ذلك ﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ ﴾ .. فالمرء في الجنة يخيل إليه أن هذا الذي رزقه هو ما رزقه من قبل ، فإذا أكله وجده ليس هو ، بل شيئًا آخر ، اللون واحد .. والطعم مختلف .

إذًا فما الحكمة في أن تأتي هذه النعم على هيئة ما نراه في الدنيا ، ولم تأتِ على صورة أخرى جديدة لم نرها من قبل ؟! والجواب : هو أن إلف النفس للأشياء هو الذي يشجع على تناولها ، فمثلاً إذا رأيت في مكان ما طعامًا أو فاكهة لم ترها من قبل في بيئتك فلن تقبل عليها غالبًا ؛ لأنك لا تعرفها ، وبالتالي فإنك قد تزهد فيها .

وكذلك إذا قيل لك إن في الجنة حور عين ، فإنك قد تتساءل : هل هي مسألة جنسية فحسب ؟! أم حب وعاطفة ؟! أم غير ذلك ؟! والجواب : أن هذا هو أمتع ما وجد في الحياة من متع النفس ، ولكنك لا تتصوره .. بواقع العملية ، أو بمقدمات العملية ، إنما أنت تتصوره بنهايات العملية ، فالإنسان قبل أن تتم هذه العملية تكون هي ألذ شيء عنده ، ولكن بعد ذلك إن استقذر شيئًا فذلك بعد أن تذهب ثورته .

فالمقدمات محبوبة لا شك ، وواقع العملية محبوب كذلك ، فما الذي يجعلها مستقذرة ؟! هو ما يأتي بعدها من منغصات للذة في الدنيا ، فكما نزع من خمر الدنيا منغصاتها ، فهو ينزع من هذه العملية أيضًا منغصاتها ، فلا تجد لها منغصات ؛ لذلك فلا ينبغي أن تقيس المسائل دائمًا على واقعها في الدنيا .

﴿ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴾ .. الكعاب من النساء .. هي البنت التي ثدياها يشبه الكعب ، أي لم يتهدل لأسفل كالقربة ، وهؤلاء الكواعب أتراب ، ومعنى أتراب : أنهن متساويات في السن .

﴿ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴾ .. الكأس : هو وعاء الخمر ، وكأس دهاق يعني : ممتلئة صافية

1 – سورة : البقرة ، الآية : 25 .

متتابعة ، وهي كذلك ذات مذاقات مختلفة ، فتجد كأسًا مزاجها الكافور ، وكأسًا مزاجها الزنجبيل ، وهكذا .. ألوان متعددة من هذا الكأس الدهاق .

ثم تجد ذلك القيد الجميل : ﴿ لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلاَ كِذَّابًا ﴾ .. حيث إن أصل اللغو إنما ينشأ من ذهاب العقل ، وهذه الخمر لا تذهب العقل ولا تؤثر فيه ، فلا يخرف ولا يلغو ، ولا يفرح باللغو دائمًا إلا اللاغي ، أما إذا كان الإنسان واعيًا متزنًا فإنه يتأذى إذا سمع من يلغو ؛ لذلك قال ﷻ بمنتهى الدقة : ﴿ لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلاَ كِذَّابًا ﴾ ، فليس النفي للغو فقط ، وإنما النفي للكذب كذلك ، فالجنة لا لغو فيها منهم ولا من غيرهم ، فالمجلس بعيد كل البعد عن أن يشابه مجلسًا من مجالس خمر الدنيا .

بخلاف ما يكون في الدنيا من مجالس تشرب فيها الخمر ، سواء أثناء شربها أو بعد أن تشرب .

﴿ جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴾ .. الجزاء أجر على عمل ، والعطاء هبة بلا عمل ، فإذا تأملنا كلمة : ﴿ حِسَابًا ﴾ فقد نظن أن هناك تناقضًا في الكلام ، فكلمة : ﴿حِسَابًا ﴾ تشعر أن العطاء يكون بالحساب ، مع أنه سيعطي من غير حساب ! !

فنقول : إننا إذا أردنا أن ننظر في مدلول كلمة في اللغة فلا بد من أن ننظر إلى كل مدلولاتها اللغوية ، وهذا المعنى هو الشائع لكلمة : ﴿ حِسَابًا ﴾ ،ولكن الحساب كما يأتي للعدِّ فإنه يأتي ويقصد به المحاسبة كذلك ، ويأتي كذلك ويقصد به معنى من (أَحْسَبه الشيء) أي تقول : حسبي ، أي بلغ الكفاية ، فتكون : ﴿ جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴾ ليست للحساب ، بل من أحسب الشيء ، أي غمره حتى قال : حسبي .

﴿ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لاَ يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴾ .. ولماذا لا يكون منه ذلك وهو رب السماوات والأرض ، وهو المالك المتصرف ؟! وعندما يعطيك حتى تقول : حسبي ، أي كفاني فليس هناك قوة فوقه تقول له : لماذا فعلت هذا ؛ لأنه ﴿ لاَ يُسْأَلُ

عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾[1] .

وكذلك ما دام هذا العطاء من عند ﴿ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ فهو لا ينقص ما عنده .

ثم يأتي بالوصف المناسب للإنعام ودوامه فيقول : ﴿ الرَّحْمَنِ لاَ يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴾ ، ولماذا لا يملكون منه خطابًا ؟! لأن الحق ﷻ حينما خلق الدنيا جعل فيها أسبابًا هو الذي خلقها أيضًا ، ولكن الإنسان قد يغفل بالسبب عن المسبب ؛ لأنه لا يرى أمامه دائمًا إلا هذه الأسباب .

ولكن هذه الأسباب ممنوعة في الآخرة ، فيكون الإنعام كله من المسبب ﷻ مباشرة ، فأصبحت المسألة بغير وسائط بين الحق ﷻ وبين العباد من أسباب ، بل أصبحت في القدرة المباشرة .. أصبحت في (كُنْ) ، وما دامت المسألة هكذا فلا يملك أحد خطابًا .

يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾

ثم يؤكد ﷻ ذلك المعنى قائلاً : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لاَ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ ، وإذا كان ليس للملائكة ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ ﴾ وهو الناموس الذي كان ينزل على الأنبياء جبريل ، ﴿ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لاَ يَتَكَلَّمُونَ ﴾ مع أن هؤلاء لم يفعلوا معاص ، إنما مهابة الرب وإجلاله ﷻ تجعلهم .. ﴿ لاَ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ .

---

1 – سورة : الأنبياء ، الآية : 23 .

مع أن هؤلاء الملائكة الكرام لم يكونوا يقولون في الدنيا غير الصواب ، ولم ينطقوا من قبل بباطل أبدًا ، فهل من المعقول أن يقولوا في الآخرة غير الصواب ؟! قطعًا كلا ، ولكن الصواب هو موافقة الحق والواقع ، ولأن الحق ﷻ لا يأذن لأحد أن يشفع لأحد إلا لمن شاء الله أن تكون شفاعته مقبولة ، فهم لا يشفعون إلا لمن أراد الله ﷻ أن يشفعوا فيه .. ﴿ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى ﴾ .

﴿ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ ﴾ .. ذلك اليوم الواقع الذي لا شك فيه .. هو اليوم الحق ، وإن كان قبل ذلك عندكم فيه شك ، هل هو حق أم باطل ، أما اليوم فهو الحق فقط ؛ لأنكم كنتم في الدنيا متروك لكم بعض الاختيار ، قد تفعلون الصواب وقد لا تفعلونه ، ولكن في يوم القيامة ذلك هو اليوم الحق .

﴿ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا ﴾ يضع الله ﷻ مسألة إياب العبد لربه ﷻ أمام عينيه ، ﴿ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا ﴾ .. ثم يؤكد الإنذار بقوله :

﴿ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا ﴾ .. فكل آتٍ فهو قريب ، بدليل قوله ﷻ : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ ، أو أن هناك عذابًا بعيدًا نوعًا ما وعذابًا قريبًا ، فالقريب هو ما يرونه بعد ما يموتون ، حين تعرض عليهم أعمالهم ، ويشاهدون مقاعدهم من النار ، ويذقون نوعًا من العذاب إلى أن تقوم الساعة ، كما قال ﷻ : ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاَقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ * يَوْمَ لاَ يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ .. فهذا يكون يوم القيامة ، ولكن قبل ذلك : ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ .

فقد يكون المعنى المقصود هنا هو ما يكون في القبر قبل يوم القيامة ، وقد يكون المراد هو يوم القيامة نفسه ، وسماه قريبًا لأن كل ما هو آت قريب .

﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ .. وذلك كما في قوله ﷻ : ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾[1] .

﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ .. حين ينظر الكافر إلى أهوال يوم القيامة .. وهو الذي خُلق من تراب .. يقول : يا ليتني لم أخلق أصلاً ولم أولد ، وظللت ترابًا كما كانت أصل خلقتي .

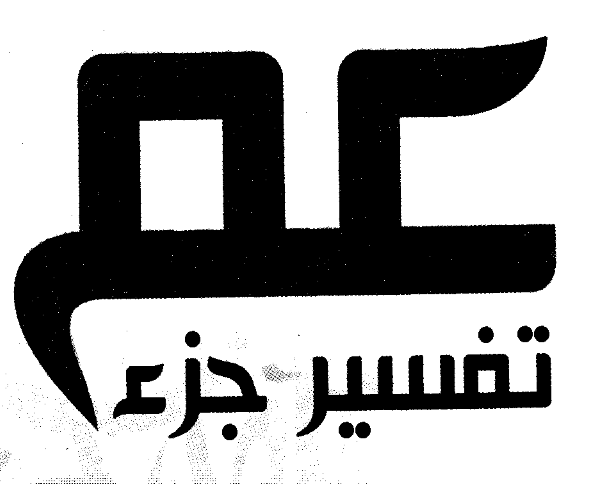
نسأل الله ﷻ أن يجعلنا دائمًا من المتقين ، وأن يجعل لنا مآبًا إليه ، وأن يكفينا شر أنفسنا ، وأن يكفينا شر الشيطان ، وأن يحقق لنا آمالنا أجمعين .

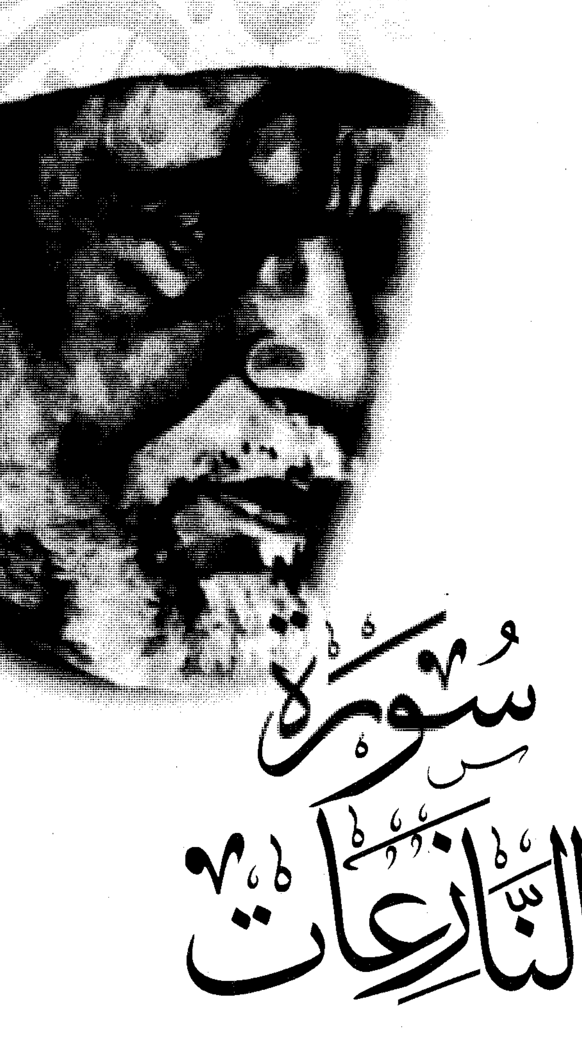
والحمد لله رب العالمين .

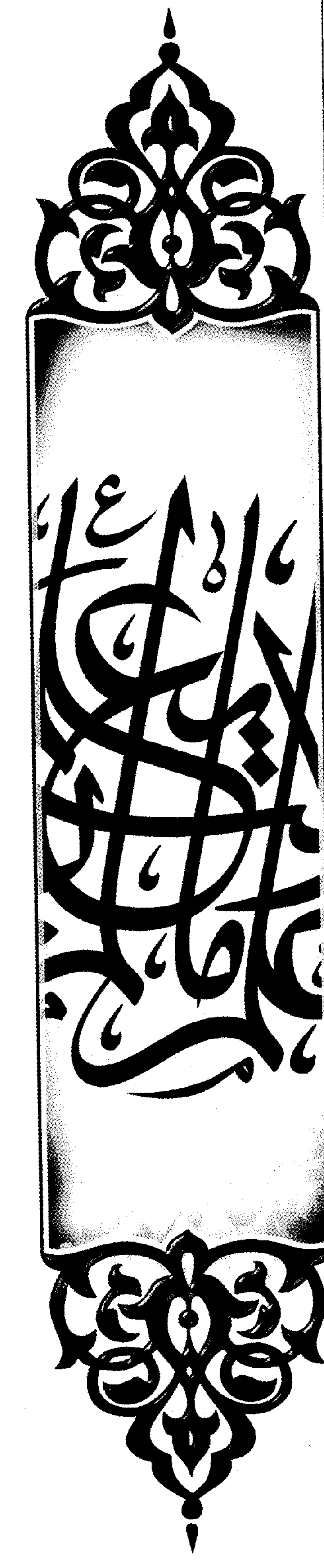
---

1 – سورة : آل عمران ، الآية : 30 .




تفسير جزء
عم


سُورَةُ
النَّازِعَاتِ







بسم الله الرحمن الرحيم أحمدك ربي ، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد رحمة الله للعالمين ، وخاتم الأنبياء والمرسلين ، وبعد :

فقد انتهينا في خواطرنا حول (**سورة النبأ**) إلى أن هذه السورة قدمت قسم بيان الحقيقة بالشهادة ؛ لأن الحق عرض أدلة ذلك فقال : ﴿ **أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا** ﴾ [1] ، إلى آخر ما قال ﷻ ..

تلك هي البينة التي تشهد لله ﷻ الذي خلق هذه الأشياء بقدرته ، وأبدعها ونظمها بحكمته ، ونسقها تنسيقاً متسقاً مؤتلفاً ، بحيث يؤدي كل جنس في الوجود مهمته على أكمل وجه ، تلك هي الشهادة على الكون لصدق الحقيقة البعثية .

بقي أن يستوعب الحق ﷻ إثبات الحقيقة بلون آخر ، وهو اليمين الحق ، حينما قال ﷻ : ﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ** ﴾ [2] .. تلك هي الشهادة ، ثم بعد ذلك يثبت الحقيقة أيضا باليمين : ﴿ **فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ** ﴾ [3] ، إذًا فقد استوعب الحق إثبات الحقائق بالشهادة مرة وباليمين مرة أخرى .

ولقد تعرضت **سورة** (**النبأ**) للبيان الذي يثبت بالشهادة ، ثم جاءت بعد ذلك **سورة** (**النازعات**) ، أو **سورة** (**الساهرة**) ، أو **سورة** (**الطامة**) ، لكي تبدأ بالقَسَم ، وكأن **سورة**

---

1 – سورة : النبأ ، الآية : 6 ، 7 .

2 – سورة : آل عمران ، الآية : 18 .

3 – سورة : الذاريات ، الآية : 23 .

(**النبأ**) أدت مهمة الشهادة ، ثم جاءت **سورة** (**النازعات**) لكي تؤدي مهمة القَسَم .

ليتم إثبات حقيقة البعث بأمرين : بالشهادة في **سورة** (**النبأ**) ،وبالقَسَم في **سورة** (**النازعات**) ؛ لكي يتم استيعاب الحقيقة بهذين الركنين الأساسيين .

إن الحق ﷻ حين يقسم بقوله : ﴿ **وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا * فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا * يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ** ﴾ [1] .. يريد بذلك أيضًا إثبات حقيقة البعث .

ولكن **سورة** (**النبأ**) تعرضت لإثبات أن يوم الفصل حقيقة لا ارتياب فيها ، ولكن لم تتكلم **سورة** (**النبأ**) عن المقدمات التي تسبق ذلك البعث ، فجاءت هذه السورة .. جاءت **سورة** (**النازعات**) بعد أن أقسم الله بما أقسم به من خلقه لتثبت العلامات والأشراط التي تواكب ذلك اليوم من الانقلاب الهائل في الأرض وفي السماء .

فالمناسبة إذًا واضحة بين **سورة** (**النازعات**) وبين **سورة** (**النبأ**) ، **سورة** (**النبأ**) قالت : ﴿ **إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا** ﴾ [2] هذا خبر ، وقالت : ﴿ **إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ** ﴾ [3] ، ثم جاءت **سورة** (**النازعات**) بعد ذلك فقالت : ﴿ **يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ * قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ * يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ * أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً * قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ** ﴾ [4] ، فما دامت السورة قد استهلت بالقسم لتكمل إثبات الحقيقة بعنصر اليمين كما أكدته الأولى بعنصر البينة والشهادة .. فنحن أمام ظاهرة أسلوبية في القرآن ، وهي ظاهرة القسم ، والقسم هو الحلف ، ولكن الحلف هنا من الله ﷻ ، والحلف يقتضي عناصر ليتكون منها : يقتضي

---

1 – سورة : النازعات ، الآية : 1 – 7 .

2 – سورة : النبأ ، الآية : 17 .

3 – سورة : النبأ ، الآية : 40 .

4 – سورة : النازعات ، الآية : 6 – 12 .

حالفا ، ويقتضي محلوفًا عليه وهو جواب القسم ، ويقتضي صيغة للحلف ، ويقتضي سببًا موجبًا للحلف ، ويقتضي محلوفًا به .

والحالف والمقسم هنا هو الله ﷻ ، والمحلوف عليه هو إثبات يوم القيامة وما فيه من هول ، والمحلوف به هو ما يلي أداة القسم .. وهو كل ما جاء في أول السورة ، من قوله ﷻ : ﴿ **وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا * فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا** ﴾ ، والمحلوف له هم الذين يكذبون بذلك اليوم ، وأما سبب الحلف فسيأتي الكلام عنه إن شاء الله .

إذا أراد إنسان أن يحلف على شيء فماذا يريد بذلك الحلف ؟! لابد أنه يريد توكيد وتوثيق المحلوف عليه كي يصدقه المخاطَب تصديقًا يذهب بأي شك فيه أو ريب ، ولكنك تلحظ أن القَسَم يأتي على لونين :

الأول : قسم يأتي على أمر وقع قبل أن يقع القسم ، كمن يقول : والله لقد فعلت كذا بالأمس ، فهذا أمر سبق القسم .

والثاني : قسم يقع على أمر يكون بعد أن يقع القسم ، كالذي يقسم ويقول : والله إني سأفعل كذا غدًا ، فهذا أمر جاء بعد القسم .

فما الفرق بين النوعين ؟!

إن أقسمت على شيء قد مضى فمعنى ذلك أنك تريد أن توثقه عند من تخبره ، لتذهب بشكه وارتيابه في ذلك الأمر ، ولكنك لابد أن تقسم له بشيء ، هذا الشيء الذي تقسم به لابد أن يكون معظمًا عندك ، ولابد أن يكون له قهر وسلطان ، بحيث تخافه أنت إن كذبت في قسمك به في أمر فعلته أو لم تفعله على خلاف ما تقول ، فتخاف عقوبته .

وكذلك إذا أردت أن تحلف على أمر في المستقبل ، فأنت تلزم نفسك فعل أمر ما ، وهذا الإلزام إنما يتأتى من ناحية أنك تربط ذلك بأن تقسم بشيء عظيم تخافه إن أنت لم تفعل ذلك

الأمر .

فإذا كان هذا هو شأن القسم في الخلق ، فكيف نفسر القسم بالنسبة لله عَزَّوَجَلَّ على وجه من هذين الوجهين ؟!

هل يقسم الله على شيء حدث قبل أن يقسم ؟! أو على شيء يكون بعد أن يقسم ؟! وكذلك هل يقسم بشيء عظيم ، ولهذا الشيء العظيم جبروت وقهر عليه .. بحيث يخاف إن هو كذب أو حنث في شيء أن يناله منه عقاب أو عذاب ؟! حاشا لله ، بل إن هذا محال بالنسبة لله عَزَّوَجَلَّ .

إذن : فيجب أن نبحث عن سر قسم الله تعالى ؛ بحيث نخرجه عن طريقة قسم المخلوقين ، فأنا حين أقسم بالله على شيء فعلته أو على شيء لم أفعله ، أو على شيء سأفعله أو شيء لن أفعله .. فإنني أخاف إن أنا كذبت في يميني الأول ، أو حنثت في يميني الثاني أن يأخذني الله بذلك الكذب أو الحنث ، فينتقم مني بجبروته وسلطانه .

لكن ذلك محال بالنسبة لله عَزَّوَجَلَّ حين يقسم بأشياء من خلقه ، وما دامت الأشياء التي يقسم بها من خلقه فكيف نضع الله موضع من يخاف سطوة ذلك المخلوق لينتقم منه إذا حنث ؟!

إننا إذا أمعنَّا الفكر بدقة ؛ كي نستطيع أن نفهم مسوغ القسم من الله ببعض خلقه على شيء من الأشياء ، وكذلك باستعراض القسم في القرآن فسنجد أن القسم يتأتى بأشياء هي في نظر المخلوقين عظيمة ، وقد يفتن بها المخلوقون ؛ لما يرون فيها من المنافع ومن الأثر في حياتهم ، هذه الفتنة قد تلفتهم إلى عظمة ذاتية فيها ، فالذين يعبدون الشمس مثلاً رأوا في الشمس نفعًا ، ووجدوا فيها آثارًا تعود عليهم في حياتهم ، فعظموها تعظيمًا ذاتيًا ولم يلتفتوا إلى أنها مخلوق من مخلوقات الله عَزَّوَجَلَّ ، فإذا ما أرادوا أن يعظموا فينبغي عليهم أن لا يعظموا المسخَّر ، بل من سخر هذا المسخَّر له .

والعقول التي تبحث في الأشياء بحثًا سببيًا ، فترتبط بالسبب المباشر وتترك المسبِّب

افتتنت فيها ، وكذلك من قد فتنوا بالملائكة فعظموها وعبدوها .. وهكذا .

فالحق ﷻ يقسم بهذه الأشياء لينبه الأذهان حين يقسم بهذه الأشياء ، لأنها عظيمة عند السامعين ، فيلفت انتباههم إلى ما يكون بعدها .

ثم إذا به ﷻ حين يقسم بهذه الأشياء المعظمة عند الكثيرين من الخلق يذكر في نفس القسم ظاهرة كونية من الظواهر التي يراها الناس في ذلك المعظَّم ، ولكن بشيء يناقض الفتنة بها .. بشيء يردهم عن فتنتهم ، لأنه يظهر لهم فيها ظواهر التغيير والتبديل ، فمثلاً حين يسمع الناس قول الله ﷻ : ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾ [1].. فإنهم يلتفتون إلى أن الشمس عظيمة وفيها منافع وضوء ودفء وحرارة .. إلى آخر هذه المنافع ، ولذلك قد يعظمونها ، ولكنهم حين يتمون ما أقسم الله به تكون المفاجأة ، حين يقول الله ﷻ : ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا * وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴾ [2] أي : يغطيها فتزول وتختفي ، فيلفت نظر الناس إلى آية تناقض فتنتهم بها ، لأن الذي يأفل لا يصح أن يُعبد ، ولذلك قال الله ﷻ عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ * وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [3] .

---

1 – سورة : الشمس ، الآية : 1 .

2 – سورة : الشمس ، الآية : 1 – 4 .

3 – سورة : الأنعام ، الآية : 74 – 79 .



وكذلك حين فتن بعض الناس بالملائكة قال لهم الله ﷻ : ﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴾[1] ، هؤلاء هم الملائكة الذين كنتم تعبدون ، يتلون ذكرًا ويسبحون ويحمدون ، ثم يعقب فيقول : ﴿ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴾[2].

هذا نوع من أنواع القسم الذي يقسم به الله ﷻ .

وهناك أشياء يقسم بها الله ﷻ ، لأن مجرى الإلف والعادة جعلها أمرًا عاديًّا لا يؤبه له ولا يُلتفت إليه ، فيقسم به الحق ﷻ ؛ لكي يكون القسم به لَفتة للذهن لينتبه ، فلابد وأن يكون فيها فوائد عظيمة .

إن الحق ﷻ أقسم بأشياء كثيرة ، فأقسم مثلاً بذاته وبربوبيته فقال : ﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي ﴾[3] ، ويقول أيضا : ﴿ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ﴾[4] ، ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[5] ، ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ﴾[6] ،﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ ﴾[7] .

إذًا فالحق ﷻ يقسم مرة بذاته ، ومرة بشيء من خلقه ، أما ذاته فهي عظيمة بالاتفاق ، وأما قسمه بشيء من خلقه فقد أقسم بشيء من الجمادات ، كقوله ﷻ : ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾[8] ، وقوله : ﴿ وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴾[9] ، ويقسم أيضا بنباتات كما في

---

1 - سورة : الصافات ، الآية : 1 - 3 .
2 - سورة : الصافات ، الآية : 4 .
3 - سورة : يونس ، الآية : 53 .
4 - سورة : التغابن ، الآية : 7 .
5 - سورة : الحجر ، الآية : 92 .
6 - سورة : المعارج ، الآية : 40 .
7 - سورة : الحاقة ، الآية : 38 ، 39 .
8 - سورة : الشمس ، الآية : 1 .
9 - سورة : الضحى ، الآية : 1 ، 2 .

قوله : ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴾[1] ، ويقسم أيضا بالملائكة : ﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴾[2] ، ويقسم أيضا بأشياء أخرى ، كل ذلك لماذا ؟! ما هو المقسم عليه في كل هذه الأنواع من القسم ؟!

إنه ﷻ يقسم بها على إثبات حقيقة شيء ، فيقسم الحق ليثبت ألوهيته الواحدة : ﴿ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴾[3] ، ويقسم مرة أخرى لإثبات أن القرآن حق : ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴾[4] ، ويقسم على صدق رسوله ﷺ ؛ لأنهم كانوا يكذبونه : ﴿ يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾[5] ، ويقسم الحق ﷻ على أمر يتعلق بالإنسان .. ذلك الإنسان الذي يُفتن بنفسه حين يجد في نفسه قدرة أو تدبيرًا ، أو حين يجد استجابة من الأجناس التي دونه لخدمته ، فحين يفتن بذلك يظن أن له الحق في الغرور ، وأنه أصبح ذاتيًا ، وأنه أصبح أصيلاً في الكون ، فيقسم الحق ويقول : ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾[6] .

وتجد أن الحق ﷻ حينما يتكلم عن الإنسان مطلقًا ، فإنه يقصد الإنسان غير المقيد بمنهج السماء ، فتجد أن كل ما يأتي بعد ذلك من صفات لذلك الإنسان إنما هي من صفات الخسران والبوار .

﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ﴾[7] ، ولكننا قد نجد أناسًا اغتنوا ومع ذلك

---

1 – سورة : التين ، الآية : 1 .

2 – سورة : الصافات ، الآية : 1 .

3 – سورة : الصافات ، الآية : 4 .

4 – سورة : الذاريات ، الآية : 23 .

5 – سورة : يس ، الآية : 1 – 3 .

6 – سورة : العصر .

7 – سورة : العلق ، الآية : 6 ، 7 .

لم يطغوا ، فما الذي حماهم من الطغيان مع الغنى ؟!

إن الإنسان الذي يطغى هو ذلك الإنسان المجرد عن الارتباط بمنهج السماء ، أما الإنسان المرتبط بمنهج السماء فكلما آتاه الله غنى ذكر المعطي ، وحين يذكر المعطي يقل طغيانه وكبريائه .

كما في قوله ﷻ : ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ ﴾ على إطلاقه .. البعيد عن منهج الله ﴿ لَفِي خُسْرٍ ﴾ ، فما الذي ينجيه من ذلك الخسر ؟ ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ .

وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ﴿٤﴾ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ﴿٥﴾

ابتدأت هذه السورة بالقسم : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا * فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ .. قسمَ بأشياء ، إلا أن هذه الأشياء يكتنفها الغموض ، مما يذهب فيها الذهن مذاهب شتى .

والإبهام مقصد من مقاصد البيان ؛ لأنه لو بيّن دائمًا لجاء الأسلوب دائمًا على وجه واحد ، ولكنه حين يبهم يذهب الفكر مذاهب شتى ؛ ليتساءل : ما هي النازعات ؟! وما هي الناشطات؟!

فيجد أن ﴿ وَالنَّازِعَاتِ ﴾ تفسر على معانٍ متعددة ، و ﴿ وَالنَّاشِطَاتِ ﴾ تفسر على معانٍ متعددة ، و ﴿ وَالسَّابِحَاتِ ﴾ تفسر على معانٍ متعددة ، و ﴿ فَالسَّابِقَاتِ ﴾ تفسر على معانٍ

متعددة ، وكلها مما يحتمله اللفظ .

إذًا .. فإذا رأيت في القرآن إبهامًا لشيء فاعلم أن ذلك الإبهام مقصد من مقاصد البيان ؛ لأن الشيء إذا بيِّن يتبيَّن على وجه واحد ، والحق يريد أن يذهب فكرك فيه مذاهب شتى ، وكل مذهب فيه تجد النص يسعفه ويسنده .

لذلك نستطيع أن نقول : إن البيان يحدد ، والإبهام يعدد .

كما في قول الحق ﷻ في وصف شجرة الزقوم : ﴿ أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴾ [1] ، وشجرة الزقوم الآن في النار ، والنار لا تزال غيبًا عنا ، ونحن لم نعرفها ، ولم نؤمن بها إلا لأن الحق ﷻ قد أخبرنا بها ؛ لأننا لا نعرف شجرة الزقوم ، وما دمنا لا نعرف شجرة الزقوم فكان ينبغي أن يضرب لنا مثلها بشيء نعرفه ، وذلك شأن التشبيه في اللغة دائمًا ، فالشبيه يكون بتشبيه شيء مجهول بشيء معلوم لتقريب صورة ذلك المجهول من الذهن ، فإذا قلت لك : (زيد مثل فلان) فلابد وأن يكون فلان هذا معلومًا لك ، ويكون زيد مجهولاً .

لكن شجرة الزقوم في النار ونحن لازلنا لا نعرفها ، فلما أراد القرآن أن يشبهها لنا قال : ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ [2]، ونحن لم نرَ رءوس الشياطين ، فكيف يأتي تشبيه مبهم بمبهم ؟! إذا نظرت تلك النظرة الدقيقة التي ننظر بها إلى ذلك الكلام على أنه كلام الله ﷻ ، وفيه من الأسرار ما فيه ، والتي يجب على العقل أن يستنبطها ، وعلى قدر يقظة العقل يخرج منها ما يراد ، علمت أن ذلك الإبهام هو غاية البيان ؛ لأن الله لو مثَّل طلع شجرة الزقوم بشيء نعرفه ، مهما كان ذلك الشيء قبيحًا بشعًا مفزعًا مخيفًا فقد حدد القبح والبشاعة في شيء نعرفه ، والقبح والبشاعة مما تختلف فيه الأنظار ، فقد يكون الشيء بشعًا

1 - سورة : الصافات ، الآية : 62 : 64 .

2 - سورة : الصافات ، الآية : 65 .

عند شخص وغير بشع عند شخص آخر ، وقد يكون الشيء جميلاً عند قوم وغير جميل عند آخرين ، فمثلاً : من علامة الجمال عند الزنوج كبر الفم وغلظ الشفاه ، بينما هذه الصفات عند آخرين من علامات القبح .

ولذلك .. فإذا أقمنا لرسامي الكاريكاتير في العالم مسابقة لرسم صورة للشيطان ، وجاء مليون رسام ، وأخذ كل واحد منهم ريشته وألوانه وأوراقه ، وظل كل واحد يتخيل البشاعة في الشيطان ليرسمها لنا ، ثم استقبلت لجنة التحكيم الرسومات المختلفة ، فلمن سوف تعطي الجائزة ؟! سوف تعطيها لأقبح صورة .

لكن إذا استعرضت الصور وقارنتها ببعضها فإنك سوف تجد صورًا مختلفة في البشاعة ، فرأى أحدهم البشاعة في أن يجعل عينيه مشقوقتين ، ورأى الآخر البشاعة في أن يجعل له قرونًا ، وجعل الآخر البشاعة في أن يجعل للشيطان عينًا واحدة .

إذًا .. فالبشاعة مما تختلف فيها الأنظار ، فلو أن الحق مثَّل طلع شجرة الزقوم بشيء بشع محدد لحدَّد البشاعة بطرف واحد ، ولكنه حين قال ﷻ : ﴿ **طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ** ﴾ .. فرءوس الشياطين يتوهمها الناس على اختلاف مذاهبهم ، كل إنسان يصفها بالبشاعة التي تفزعه هو .

﴿ **وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا** ﴾ .. وللعلماء في تفسير قول الله ﷻ : ﴿ **وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا** ﴾ أقوال كثيرة .. فما المراد بالنازعات ؟!

إن أرجح أقوال العلماء فيها أنها هي الملائكة التي تنزع أرواح الناس حين الموت ، وبخاصة أرواح الكافرين ؛ لأن الكافر حين يعالج سكرات الموت يتشبث بالحياة ، فتنتزع الملائكة منه روحه نزعًا .

﴿ **وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا** ﴾ .. والنَّشْط : هو العَقْد ، ومنه " الأنشوطة " ، وهي التي نسميها في العامية : " عقدة وشنيطة " .

والعقدة تكون لأجل أن تحزم الشيء ، ولكني أريد أن أحله فيما بعد ، فحينما أريد أن أحله أشدها كما أحل عقدة السراويل .

فكأن أرواح المؤمنين تنشط ، وأرواح الكافرين تنزع نزعًا وتقتلع اقتلاعًا .

فالملائكة حين تقبض روح الكافر يكون هناك عملية نزع ؛ لأنه متشبث بالحياة وحريص عليها ، وهذا النزع يقتضي نوع مقاومة ، فلو أن الكافر يمتلك قدرة لنازع عملية الموت ، فهو لا يحب أن تخرج روحه منه ، لكن المؤمن يريد أن تخرج روحه لأنه يستقبل الحياة الحقيقية .

إذًا : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴾ هي الملائكة تنزع الأرواح وتنشطها ، تنزع أرواح الكافرين وتنشط أرواح المؤمنين .

﴿ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴾ هي الملائكة تسبح في كون الله ﷻ ؛ لأن لها مهمات مكلفة بها ، كما يقول الحق ﷻ : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾[1] .

وقيل : إن معنى الآية أنها تأخذ الأرواح وتسبح بها لترد كل روح إلى مكانها الذي أعده الله لها .

﴿ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴾ إلى تنفيذ أوامر الله ﷻ ؛ لأنهم ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[2] .

﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ .. كل ملك موكل بأمر يقوم به ، فهذا موكل بالوحي ، وذلك موكل بالموت ، وآخر موكل بالرزق .

فكأن الحق ﷻ أقسم بخلق من خلقه في حالات لهم شتى ليثبت أمر القيامة والبعث .

وهناك قول آخر يقول : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴾ .. هي النجوم والكواكب في أفلاكها ، وقيل كذلك : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴾ أي : الإغراق في الشيء ، بمعنى الجد والاجتهاد فيه ،

---

1 - سورة : الرعد ، الآية : 11 .

2 - سورة : التحريم ، الآية : 6 .

لأن للكواكب أفلاكًا تسبح فيها ، فهي مجددة في سبحها لا تتوانى ، وتنتقل من برج إلى برج ، وذلك كقولهم : " نزعت الخيل " .. إذا جرت .

إذًا .. فقوله : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴾ : أي الجاريات جريًا فيه جد ؛ لأن كل كوكب من الكواكب له مسار يقطعه .

﴿ وَالنَّاشِطَاتِ ﴾ .. كما يقال : " نشط الدلو " .. أي : أُخرِج من البئر ، فكأن أي كوكب من الكواكب أو أي نجم من النجوم يسير في فلكه وينتقل ويخرج من برج فيدخل إلى برج .

وقوله : ﴿ وَالسَّابِحَاتِ ﴾ ، كما يقول عنها القرآن : ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[1] ، أي هذه المجرات تسبح وتدور في مساراتها ، كلٌّ في مساره :

﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴾ .. وذلك لأن الكل لا يسير بسرعة واحدة ، فكلٌّ يدور ويسير حسب محيطه ، وحسب مجاله الذي يقطعه .

إلا أن هذا التفسير قد يوجد إشكالاً ، وذلك في قوله ﷻ : ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ ، فهو إن كان يقسم بالنجوم ، فهل النجوم تدبر الأمور ؟!

نقول : إن التدبير يكون على عدة معانٍ ، منها أن يكون الشيء مخلوقًا ليكون سببًا في إيجاد شيء ، فالنار مثلاً سبب للإحراق ، والماء سبب للري ، فلو قيل : كيف يأتي التعبير بقوله : ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ في الكلام عن الكواكب ؟!

نقول : هي أسباب جعلها الله لتدبير الأشياء .

فما هي تلك الأشياء التي تدبرها الأفلاك ؟! إنها تدبر أمرين .. أمر دينك وأمر دنياك ، فإن قيل : كيف تدبر أمر دينك ؟!

نقول : أليست الشمس تبين لك اليوم تحديدًا ؟! وتبين لك السنة ؟! وأليس القمر يبين لك الشهر؟! وتلك هي مواقيت العبادات ، فبالشمس تعرف متى تصلي الفجر قبل أن تشرق

1 – سورة : يس ، الآية : 40 .

الشمس ، ومتى تصلي الظهر عند الاستواء ، ومتى تصلي العصر حين يكون ظل كل شيء مثليه ، ومتى تصلي المغرب حين تغرب الشمس ، ومتى تصلي العشاء حين يغيب الشفق الأحمر ، وهكذا .

كذلك هي تدبر لك أمر الحج بمعرفة منازل القمر ، وأيضًا تدبر لك أمر إيفاء زكاتك ، وتدبر لك أمر صومك .

وكذلك هي تدبر لك أمورًا من الأمور المتعلقة بدنياك ، كيف ؟!

إن الشمس مثلاً تعطي ضوءًا فنسبح في الحياة ، وتغيب فتحل ظلامًا فننام ، وكذلك تبث حرارتها في الماء فيتبخر ، ويصعد إلى الجو فينزل المطر ، فتسقي الحرث ، وهكذا .. إذا تدبرنا في كل هذه الأسباب التي أعطانا الله ﷻ نجد أنها سبب في تدبير أمور حياتنا ، ولكن الخطأ فقط أن نقف عند السبب وننسى المسبب .

وهناك قول آخر يقول : إن المقصود **بالنازعات** هي النفوس المؤمنة أو الفئات المجاهدة ؛ لأنها (تنزع القوس) ، ومعلوم أن القوس مصنوع من غصن لين ينثني ولا ينكسر ، ومشدود بوتر وفيه سهم ، فكلما نزعت القوس والوتر وانثنى أكثر كلما كان عند تركه أقوى وأشد رميًا ، فهؤلاء المجاهدون في سبيل الله ينزعون قسيهم بإغراق ، أي إلى آخر ما يمكن أن يتحمل ثني القوس ؛ كي يكون رمي القوس أبعد .

﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ .. بمجرد ما يكون النزع ويترك القوس ينشط السهم في خروجه إلى العدو ، فهذا هو معنى : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴾ .

ومعنى : ﴿ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴾ .. هي الخيل التي هي وسائل للغزو ، ومعنى كلمة : ﴿ سَبْحًا ﴾ : أي تجري جريًا لا اضطراب فيه ، جريًا رتيبًا لا يشعر راكبها أنها توقفت ثم سارت ، بل تسير سيرًا انسيابيًّا لا توقف فيه ولا اضطراب .

ولذلك فعندما أراد الشاعر العربي أن يمدح فرسه قال :

.... سبوح لها منها عليها شواهد



أي أنه عندما يركب فرسه لا يجري به ، بل إنه يشعره أنه يسبح ، حيث يسير على وتيرة واحدة لا يضطرب لها من يركبه .

﴿ **فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا** ﴾ .. أي تتسابق إلى أن تصل إلى العدو .

﴿ **فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا** ﴾ .. مدبرات بمعنى مخلوقة لتدبر ، أي منوط بها سبب من أسباب التدبير ، ليست هي التي تدبر .

إذًا : فحين قال الله ﷻ : ﴿ **وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا * فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا** ﴾ .. بإبهامها هكذا أعطانا صورًا متعددة ؛ ليذهب فيها الفكر كل مذهب .

يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾

إن كل قسم لابد له من جواب ، وقد أقسم الحق ﷻ بقوله : ﴿ **وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا * فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا** ﴾ .. ولذلك يتطلب هذا القسم جوابًا ، فأين الجواب ؟!

الجواب هو : ﴿ **يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ** ﴾ ، أتى بالظرف لذلك البعث المقسم على وجوده ، وهذه هي أساليب القرآن ، فأحيانًا يجيب الحق ﷻ عن مثل هذا القسم بقوله : ﴿ **إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ** ﴾ [1] ، وكذلك يقول : ﴿ **إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَا لَهُ**

1 – سورة : الذاريات ، الآية : 5 ، 6 .

مِنْ دَافِعٍ ﴾[1] ، وهكذا .. وأحيانًا لا يجيب عن القسم بالإجابة المتوقعة المباشرة ، وإنما يجيب بأساليب مختلفة ، ولكنها مشتركة في شيء واحد ، وهو إثبات يوم البعث .

إذًا فحين يقسم الله بأشياء ، ثم يأتي بعدها بما يمس يوم القيامة ، يكون المقسم عليه هو إثبات يوم القيامة .

فقول الحق ﷻ : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴾ بعد قوله : ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ : دليل على أن هذا اليوم فيه أمر عظيم ، ذلك الأمر هو البعث ، فكأنه قال : لتبعثن ، ومتى يكون هذا البعث ؟ ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴾ .

ولكن .. نفترض أني لم أفهم السور التي قبلها ، أو كانت هذه هي أول سورة أقرأها في القرآن ، فلم أقرأ **سورة الذاريات** ، أو **المرسلات** ، أو قرأتها ولم أنتبه إليها ، فلا يتركني الله ﷻ هكذا ، بل يعطيني ما يفهمني ذلك فيقول : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ * قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ * يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ * أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً ﴾ .

وهنا زادت هذه السورة عن **سورة النبأ** ؛ لأن **سورة النبأ** لم تتكلم إلا عن وجود ذلك اليوم ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴾[2] ، ولم تتحدث عن أحداثه بشيء ، ولكن هذه السورة تكفلت بالأمور التي تحدث يوم الفصل ، الذي هو يوم الميقات .

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ * قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴾ ، حال يحدث في الكون ، وحال آخر يظهر بانفعال الإنسان يوم القيامة فيه ، أما الذي يظهر في الكون فهذا هو المؤثر الأول عند حدوثه ، ثم انفعل الإنسان له فحدث ما حدث .

إذن .. ظهر هذا الانقلاب في الكون .. ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴾ ، هذا ما

1 – سورة : الطور ، الآية : 7 ، 8 .

2 – سورة : النبأ ، الآية : 17 .

حدث ، فكانت النتيجة .. ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴾ .

و ﴿ الرَّاجِفَةُ ﴾ فسرها الله ﷻ لنا بقوله : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ ﴾[1] ، إذًا ﴿ الرَّاجِفَةُ ﴾ هي الأرض حين يحدث لها الاهتزاز الذي يبدلها ويغيرها .

﴿ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴾ والتي أردفت بها هي السماء ؛ لأن السماء خلقت بعد الأرض .

لكن .. هل الأرض راجفة أم مرجوفة ؟! إن الأرض ليست راجفة ، بل إن شيئًا ما قد رجفها ، فالأرض مرجوفة ومضطربة وليست راجفة ، ولكن هذا أسلوب من أساليب البلاغة العربية .. المجاز .. وذلك مثل قوله ﷻ : ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾[2] ، هل العيشة هي الراضية أم مرضي عنها ؟! إن العيشة مرضي عنها ، ولكن بلغ من رضاك عنها وحبك لها أن أصبحت ليست من جانب واحد ، ولكنها أصبحت أيضًا راضية ومتعلقة بك ؛ لأن الحب أسوأ ما يكون حينما يكون من جانب واحد فقط ، لكن إذا كان الحب متبادلاً من الطرفين فيحدث الامتزاج .

فكأن الحق ﷻ حينما يقول : ﴿ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ فمعناها أنه بلغ من الرضا عن العيشة أن نفس العيشة راضية عنك وتحبك ومنسجمة معك تمام الانسجام ، حتى أصبحتما كالشيء الواحد .

وكذلك في قوله ﷻ : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴾ .. فقد بلغ من هول الموقف بعد أن أرجفت قدرةُ الله الأرضَ أن أصبحت هي في ذاتها راجفة ، فكأن الله أمدها بقوة ترجف هي نفسها ذاتيًا ، قال لها : ارجفي ، فأعطاها القوة لتكون راجفة ، إذن : فهي مرجوفة في الواقع ، ولكنها راجفة .

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴾ حين يحدث في الأرض ما يحدث ، ويحدث

---

1 – سورة : المزمل ، الآية : 14 .

2 – سورة : الحاقة ، الآية : 21 .

في السماء ما يحدث ، حين تكور الأرض ويحدث فيها فتور ، وتتشقق السماء وتفتح أبوابها ، كل هذا ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴾ ، فإذا حـــدث ذلك في الكون علم الناس جميعًا ، وخاصة أولئك الذين كانوا ينكرون أن الأمر جد ، الذين كانوا يقولون : إن الدنيا هي الباقية ، وإن الناس يذهبون وغيرهم يجيئون .. كل أولئك يعلمون أن المسألة ليست كذلك ، فلقد جاءهم بوادر ما كانوا يكذبون به .

فإذا جاءهم بـوادر ما كانوا بـه يكذبـون ، وعرضت عليهم أعمالهم ومواقـفهم العقـدية والسلوكية ، يقولون : لقد بدأت ظواهر ما كنا نكذب به .

فقلوبـهم واجفة مضطربـة فزعة ؛ كل ذلك لأنها رأت بـوادر ما كانوا يكذبـون بـه ، فاستحـضرت النفوس أعمالها ، فلما استحـضرت أعمالها وجدت نفسـها على خلاف المنهج الذي كان يجب أن يكون .

إذًا فلابد أنهم ينتظرهم مصير مؤلم ، كالذي بشرتهم به الرسل أصحاب هذه المناهج ، فلقد أصبحـت المسألة حـقًّا واقـعًا ؛ لذلك فقلوبـهم .. ﴿ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴾ ، وجيف القـلوب أمر مختفٍ عن نظر الناس ؛ لذلك فلابـد أن يوجد له أمر واضح يحس لدى الناس جميعًا ، فيأتي في منفذ الأحاديث كلها وهو العين ، فالعين هي المنفذ الذي يستطيع أن يدرك كل حقيقـة النفس الإنسـانية ، فتستطيع من نظرة العين أن تعرف أهي نظرة محب أم نظرة مبغض ، وتستطيع من نظرة العين أن تعرف أهي نظرة إعجاب أم نظرة احتقار وتهكم ، تسـتطيع أن تعرف من نظرة العين كل ما تكنه النفس ؛ ولذلك يقـول الحق ﷻ : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾[1] ، حتى عندما يريد الأطباء أن يعرفوا شرايين إنسـان أهي سليمة وتعمل بكفاءتها أم لا فإنهم ينظرون إلى شرايين العين ، فهي أصدق وسيلة لمعرفة حالة باقي شرايين الجسم .

1 – سورة : غافر ، الآية : 19 .

﴿ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴾ .. ذليلة .. منكسرة .. متواضعة ، بعد أن كانت أبصارًا وقحة .. مستهزئة .. منكرة ، لقد تغير الموقف وتبدل ؛ لأن الانفعال أتى من الخارج ، فأثر على القلوب ، فأفشت العين الأمر .

ونلاحظ هنا أن القرآن لم يقل : " أبصارهم خاشعة " ، بل نسب الأبصار إلى القلوب ، وهذا يعلمنا أسلوبًا جديدًا أيضًا ، وهو أن القلوب حين تضطرب وتقلق ، يسري القلق منها إلى كل جزء من أجزاء النفس ، فكأن القلب ليس وحده هو الذي وجف ، بل أصبح كل الجسم واجفًا ، فصار سمت القلوب سمتًا للأنفس والأجساد كلها ؛ لذلك قال : ﴿ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴾ ، فكأنهم جميعًا باضطرابهم وقلقهم أصبحت كل ذاتهم مضطربة قلقة ، وليس القلب وحده .

وفي ذلك يقول الشاعر:

خطرات ذكرك تستثير مودتي فأحس منها في الفؤاد دبيبا
لا عضو لي إلا وفيه صبابة فكأن أعضائي خُلِقن قلوبا

وإذا تساءلنا : لماذا كل هذا القسم على البعث ؟ !

والجواب : لأنهم كانوا .. ﴿ **يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ * أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً * قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ** ﴾ .. هذا هو قولهم ، قالوا : ﴿ **أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ** ﴾ .. بمنتهى الإنكار والتكذيب والاستبعاد أن يبعثوا بعد موتهم .

والحافرة : أي المحفورة ، يقال : رجع فلان في حافرته ، أي عاد فيما كان عليه من الأمر ، وذلك مأخوذ من الطريق إذا حفر فيه الإنسان سردابًا يسير فيه ، أو هو الطريق الذي أخذت قدم الإنسان منه فنزلت به عن مستوى الأرض ، فكان كالقناة يسير فيها ، هذه هي الحافرة ، فكأنهم قالوا : أئنا راجعون إلى ما كنا فيه من الحياة مرة أخرى ، ثم أرادوا أن

يدللوا على قولهم هذا بقول آخر ، فقالوا : ﴿ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً ﴾ ، أي عظامًا بالية .. تتهشم إذا لمستها يد ، أو بمعنى منخورة الجوف كأن نخاعها قد ذهب وسارت مجوفة كالأسطوانة ؛ وسميت نخرة لأن الريح حينما تضرب فيها تأتي بصوت كالنخير .

فلما رأوا أن الإنسان بعد موته يكون عظامًا نخرة استبعدوا أن يعيد الله هذه العظام ثانية .

ثم استمروا في غيهم ، وحساباتهم العقلية الفاسدة ، فقالوا : حتى وإن قدر الله على إعادتنا مرة أخرى : ﴿ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ ، أي : رجعة خاسرة علينا ، أو رجعة نحن خاسرون فيها ، وأسند الحق الخسران للكرة أي للرجعة على طريقة .. ﴿ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ ﴾[1] ، إن الذي يربح هو صاحب التجارة ، ولكن ما دامت التجارة هي الوسيلة للربح نسب الربح والخسران لها ، وكذلك نسب الخسران إلى الكرة والرجعة .

إنهم حين أرادوا أن يستوعبوا هذه القضية قاسوا على عقولهم القاصرة وقدراتهم الضعيفة ، ولم ينتبهوا إلى أنهم يجب أن ينظروا لقدرة الخالق لا المخلوق ، فلابد أن يقارن كل فعل بفاعله ، فلا تستبعد أي فعل من أي فاعل ، ولكن الاستبعاد أو عدمه يكون بالمقارنة بين الفعل وبين قدرة الفاعل ، فإذا أردتم أن تعيدوا أنفسكم فسيكون صعبًا عليكم ، لكن إذا أردنا نحن أن نعيدكم فهذه مسألة هينة علينا ، لأن فعل الله لا يتكلف الله فيه مشقة أو عسرًا .

إن المسألة لا تتطلب من الله جهدًا أو مشقة .. حاشا لله .. ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ ، إن قيامكم من قبوركم وبعثكم لا يتطلب منا عناءً ؛ لأننا كما بدأنا خلق كل إنسان منكم ونفخنا فيه الروح ، فإننا نعيد كل فرد كما بدأناه ، وننفخ فيه الروح كما نفخناها فيه من قبل .

يقول ﷻ : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[2] .. فمن المعلوم أن الإعادة دائمًا أهون من

---

1 - سورة : البقرة ، الآية : 16 .

2 - سورة : الروم ، الآية : 27 .

البداية ، فأنتم إذا كنتم قد آمنتم أن الله ﷻ هو الذي خلقكم من عدم ، فإن قال لكم : سوف أعيدكم من العدم .. فأيهما أهون بمقاييس العقل البشري ؟! إن الإعادة أهون من الابتداء طبعًا باعتبار أساليب البشر ، فليس هناك شيء أهون من شيء عند الله في الحقيقة ، ولكن هذا باعتبار مقاييس البشر .

﴿ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴾ .. يفاجؤون بعد هذه الصيحة مباشرة أنهم بالساهرة ، فما هي الساهرة ؟!

الساهرة : هي الأرض البيضاء ، وستكون أرض المحشر بلون واحد .. نقية كالفضة ؛ لأن الأرض إنما تلونت لتلون العناصر المطلوبة للحياة ، أما في الآخرة فلا احتياج لمثل هذه الأسباب .

وقيل : ﴿ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴾ ، أي : التي يسهر مَن عليها ؛ لأن الذي يقوم إلى ذلك الهول لا يجد النوم وإن طلبه .

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾

انتقل القرآن بنا إلى مشهد من قصة موسى عليه السلام ، هذا المشهد يعطينا فكرة عامة عن



القصص في القرآن ، فالقصص لم يأتِ في القرآن ليعطينا تأريخًا ، وإنما يأتي بالجزء الذي يؤكد العبرة من القصة فقط .

فإن المهم من أي قصة هو الأحداث الضخام المثيرة ، الأحداث التي أوجدت عُقَدًا وفيها حلولها ، تلك هي عناصر القصة ، فالقصة حدث ، ولابد وأن يكون هذا الحدث مثيرًا ، وهو مثير لأن فيه عقدًا ، ولهذه العقد حلول ، وكلما كانت القصة مستوفية لهذه العناصر كانت مستوفية للأداء الفني ، فالحق ﷻ يأتي فقط بالجزء الذي يقتضيه المقام من القصة .

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾ .. لا شك أنه قد أتاه وقد عرفه ، ولكن الحق ﷻ يريد أن يبرز جزءًا من قصة موسى يناسب السياق الذي جاء فيه ، سياق الحديث عن البعث وإثبات حقيقته لأولئك الكفار الذين أنكروه وكذبوا رسول الله وأعنتوه ، حتى بلغ من عنتهم له أن الحق ﷻ كان يسليه كثيرًا ، كقوله ﷻ : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ ، وكقوله : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ ، فرسول الله ﷺ لفرط رحمته بالناس جميعًا كان يريدهم جميعًا مؤمنين مهتدين ، فلقد ذاق ﷺ حلاوة الإيمان ؛ لذلك فهو يحب أن يذوقوا جميعًا تلك الحلاوة .

فيقول الله ﷻ له : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾ .. أي : ما لهؤلاء القوم يبالغون في عنتهم وتكذيبهم وطغيانهم ، ألم يعلموا قصة موسى مع فرعون ؟! مع أنهم لم يصلوا لما وصل إليه فرعون من الملك ، ولم يطغوا طغيانه هو ، فلقد وصل فرعون لقمة الطغيان ، فادعى أنه إله ، بل ادعى أنه هو إله العالمين الوحيد ، فقال : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾[1] ، وادعى أنه ربهم ، بل ربهم الأعلى ، فقال : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى ﴾[2] ، فكان طغيان فرعون أقصى من طغيان هؤلاء ، ومع ذلك ما تخلى الله ﷻ عن رسوله موسى عليه السلام في أن ينصره على

1 - سورة : القصص ، الآية : 38 .

2 - سورة : النازعات ، الآية : 24 .

فرعون في الدنيا قبل الآخرة .

نفهم من ذلك أنه يريد أن يبلغهم رسالة ، وهي أن لا يظنوا أن ما يخوفهم به هو عذاب القيامة فقط ، بل هناك عذاب قبل ذلك ، فلن نكذب رسلنا ، سنجعل رسلنا دائمًا صادقين ، ونجعل رسلنا دائما منتصرين .

فمهما بلغ خصومك يا **محمد** من الطغيان ومن العنت ، ومن إرهاق الفئة المؤمنة وإتعابهم ، فلينظروا إلى قصة **فرعون** .

ذلك تخويف للقوم المنكرين ، ومن ناحية أخرى فهو إيناس لقلب رسول الله ﷺ ، وهو : ﴿ **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِل لَّهُمْ** ﴾[1] ، وها هي الأمثلة أمامك ، هذه الأمثلة انتهت دائمًا بنصر رسل الله ، فلا يغرنك من هؤلاء المعاندين ذلك العناد والإعراض ، ولا يبلغن منك اليأس مبلغه بسبب موقفهم .

إن القرآن حينما يعرض لمثل هذا القصص يأتي بالغرض المزدوج ، أي أنه يأتي بالأمر الواحد ويجعل له مغزيين اثنين معًا ، فهي تهديد للعدو وطمأنة للرسول ﷺ في نفس الوقت ، فالآية تشمل الأمرين معًا : تهديدهم وتخويفهم من العذاب في الدنيا والآخرة ، وطمأنة النبي ﷺ بأن هناك رسولاً من قبله فعل معه قومه ذلك ، ومع ذلك نصرناه ، فالأسلوب الواحد أعطى الغرضين معًا .

ولقد جاء هذا الأسلوب في القرآن كثيرًا ، كما في قول الحق ﷻ : ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ** ﴾[2]، فيرد عليهم القرآن قائلاً : لو أننا صدقناكم فيما تزعمون من أنكم تؤمنون بما أنزل إليكم وهو من التوراة فقط ، ولا تريدون أن تؤمنوا بما وراء ذلك من الكتب ، فإذا كنتم مؤمنين

---

1 – سورة : الأحقاف ، الآية : 35 .

2 – سورة : البقرة ، الآية : 91 .

بالتوراة فهاتوا لنا نصًا من التوراة يبيح لكم أن تقتلوا أنبياءكم .. ﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ .. إذًا فأنتم لم تؤمنوا أيضًا بما أنزل إليكم ، بدليل أنكم إن كنتم آمنتم بما أنزل عليكم .. ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ، والشاهد هنا في كلمة : ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ ﴾ والتي أتت بصيغة المضارع ، مع كلمة : ﴿ مِنْ قَبْلِ ﴾ والتي تدل على الزمن الماضي ، فكأن السياق يقتضي معنى : " قتل آباؤكم الأنبياء من قبل " ، ولكن الحق ﷻ قال : ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ ﴾ ؛ لأن الخبر عن جريمة واقعة يمكن أن يُضعف تأثيرها بعد أن تثبت الجريمة في النفس ، فأراد الحق ﷻ أن يجعلنا نستحضر صورة الجريمة كاملة ، وكأننا نراهم موغلين في دم أنبيائهم ؛ لأن المجرم حين يرتكب جريمته ثم يتعرض للون من العقاب ، يكون القوم قد بدأوا في التعاطف معه ؛ لأن عملية العقاب تكون حالية على أمر قد انتهى ، ولكنهم لو استحضروا ما فعله المجرم ساعة فعلها ، ووضعوا هذه الصورة مع تلك في إطار واحد ، لهان في مرآهم ما يصيبه من عقاب .

وكذلك هم لم يقتلوا ، إنما آباؤهم هم الذين قتلوا ، ولكن هم ذرية من قتل ، والذي قتل وعاصر الأنبياء هو الذي بلغ ذلك التحريف وبلغ الأشياء إليهم ، فكأنكم جميعًا أنتم الذين قتلتم أنبياء الله .

قد يظن البعض أن كلمة : " من قبل " زائدة ، لكن إذا أمعنًا النظر فيها نجد أنها زادت هنا فهمين : فهمًا لليهود ، وفهمًا للنور الذي جاء لرسول الله ﷺ ؛ لأنهم ما دام لهم سوابق في قتل الأنبياء ، فما الذي لا يجعل فكرة القتل تدور برءوسهم كما دارت من قبل في رءوس آبائهم فقتلوا أنبيائهم .

فالحق ﷻ أيأسهم من أن يفكروا مجرد تفكير في فكرة القتل هذه ؛ لأنه يعلم ما قلوبهم ، ويعلم ما فعله آباؤهم مع أنبيائه من قبل ، وهو ﷻ سيحمي نبيه ويعصمه منهم ، فلن يقتلوه ﷺ ، ولن يخلصوا إليه أبدًا ، ومع ذلك فقد حاولوا ولم يفلحوا .



وكذلك هو طمأنة لرسول الله ﷺ ؛ لئلا يدور في خاطره أنهم طالما أنهم قتلة الأنبياء فما الذي يمنعهم من قتله ، فتكون الطمأنة من الله ﷻ لنبيه ﷺ .

كذلك هذه القصة .. قصة موسى عليه السلام مع فرعون لعنه الله ، نجد فيها أن الله سبحانه وتعالى حين أراد أن يقص القصة لم يقصها كاملة كما وردت في مواضع أخرى ، لم يقل مثلاً هنا : ﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ﴾ [1] ، ولم يذكر قصة : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ﴾ [2]، ولا حتى ذكر أحداث قصته مع فرعون كما في : ﴿ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ ﴾ [3].

ولكن الحق سبحانه وتعالى قال : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى * اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ .. وبما أن فرعون قد طغى فمن الضروري أن يأتي له رسول يرده إلى منهج الله سبحانه وتعالى .

و ﴿ طَغَى ﴾ أي : تجبر وزاد عن حده ؛ لذلك كان من المتوقع أن يأتيه رسول من عند الله يكون عنيفًا شديدًا كي يقابل هذا الطاغية بعنف وشدة وقوة وقهر ، لكنه قال : ﴿ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ﴾ ، وتأمل هذا اللين وهذه الرقة في عرض الهداية على ذلك الطاغية المتجبر ، إنه حتى لم يأمره بالانقياد لهذا الدين الذي جاءه به موسى عليه السلام ، بل إن الله ﷻ قد أمر نبيه موسى عليه السلام أن يعرض عليه ذلك الأمر ؛ لأن الله ﷻ يراعي أن فرعون الذي طغى وادعى الألوهية على قومه لم يَعرف ولم تَعْتَدْ أُذُنهُ أمرًا من أحد ، فهو دائمًا آمر ، فإذا فاجأه أحد بخطاب فيه نوع أمر فسيكون ذلك الأمر داعيًا لصده عن سبيل الله .

فالحق سبحانه وتعالى بعد كلمة : ﴿ طَغَى ﴾ المناسبة للشدة ، أنزل الخطاب من الطغيان إلى القول

---

1 – سورة : القصص ، الآية : 29 .

2 – سورة : طه ، الآية : 17 .

3 – سورة : القصص ، الآية : 32 .

اللين والرفق في العرض ، كما جاء في موضع آخر : ﴿ فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا ﴾[1] ؛ لأنه اعتاد الطاعة والخضوع من الناس ، فينبغي أن تدخل له من الطريق اللين .

هذه هي الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، إننا لا نريد أن نعاقب ، بل نريد أن نهدي .

﴿ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ﴾ ، هل لك إلى أن تتطهر من رجس ما أنت فيه ومن دعوى الألوهية ، ومن طغيانك وتعذيبك لبني إسرائيل ، ومن تقتيل الأبناء واستحياء النساء ، تتزكى من كل هذا ، ﴿ هَلْ لَكُ ﴾ استفهام للعرض ، ﴿ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ﴾ أي : هل ترغب في أن تتزكى وأن تتطهر ؟

﴿ وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ ﴾ ؛ لأنك ضللت طريقَ الربوبية ، وما دمت تدعي أنك رب فأنت تمهد للناس طريقهم إليك ، وما دمت تمهد لهم طريقك فأنت في ضلال عن طريق ربك أنت ، فأنا أريد أن أهديك إلى ربك أنت ، فأنت تجعل نفسك ربًا لهؤلاء الناس ، وأنا أريد أن أهديك إلى ربك ﷻ .

﴿ وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴾ .. فكأن الخشية المطلوبة لا تتأتى إلا بعد الهداية ؛ لأنه إذا هداه إلى ربه ثم علم عظمة ربه فإنه يقينًا سيعلم قدرة ربه ويعلم رحمة ربه ، وحينئذٍ لا بد وأنه سيستصغر نفسه ويستقلها ويعتبر أن الذي فات من عمره ما هو إلا نزوة يجب عليه أن يرجع عنها ويتوب ويتطهر منها .

إن الإنسان يخشى الله ﷻ إذا علم عظمته ، وزادت عظمه الله ﷻ في نفسه ، وقد تذهب خشية الله من نفس بالكلية إذا لم يعلم قدر الله ولا قدر عظمته ﷻ ، كما يقول الله ﷻ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾[2] .

---

1 – سورة : طه ، الآية : 44 .

2 – سورة : فاطر ، الآية : 28 .

﴿ فَأَرَاهُ الآيَةَ الْكُبْرَى ﴾ التي هي آية العصا ، ومعنى ذلك أنه كَذَّبَ ؛ فإن أحـدًا لا يريد آية على صدق محدثه إلا إذا كان قد أعرض عن مجرد العرض وعن مجرد الكلام ، وأحوجه في دعواه إلى بـينة .. فماذا كان بـعدما رأى تلك الآية الكبرى ؟! هل آمن وعلم أنها من عند الله ﷻ كما هو المتوقع ممن يرى مثل هذه الآية ، كلا ، لقد كانت النتيجة ..

﴿ فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴾ ، ولم يكتفِ بذلك التكذيب والعصيان ، بل زاد على ذلك ..

﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى ﴾ ، فهل أدبـر يسـعى خوفًا من الآية التي هي الحية ؟! كلا ، بـل إنه أدبر يسعى ليدبر المكيدة بجمع السحرة ، ومحاربة **موسى** عليه السلام بكل وسيلة .

﴿ فَحَشَرَ فَنَادَى ﴾ .. حشر أي : جمع .. جمع كل سحـار عليم ؛ لينشـئوا مبـارزة مع **موسى** عليه السلام .

﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأعْلَى ﴾ .. فيكون **فرعون** قد أذنب ذنبـين : أذنب أولاً ذنبًا في حـق الرسـول ﴿ فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴾ ، ثم بـعد ذلك اجترأ على مقـام الألوهية نفســه ، ﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأعْلَى ﴾ ، فلم يكتفِ بمجرد التكذيب ، ولكنه جمع مع التكذيب بالرسـول التطاول على مقام الألوهية .

﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى ﴾ .. نَكَالَ أي : عقوبـــة وجزاء ، وبما أن **فرعون** لعنه الله أذنب ذنبـين ، فلابـد وأن يعاقـب بعقابـين ، فكان عقابـه أن جمع الله ﷻ له بـين عقوبتي الآخرة والأولى .

ولكننا نجد أن الله ﷻ قـد ذكر الآخرة قبـل الأولى ؛ لأن هذه هي قـمة الكفر ، أن يدعي إنســان الألوهية ؛ لذلك قــال الله ﷻ : ﴿ نَكَالَ الآخِرَةِ ﴾ .. يعني جزاء الزلّة الآخرة التي هي قوله ﷻ : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأعْلَى ﴾ ، ولم يغفر له الزلة الأولى ، فلم تتداخل الجرائم ، بـل هو معاقـب على الأولى أيضًا ، وكان جزاء الآخرة هو النار ، وجزاء الأولى هو العذاب الأدنى .. كما قــــال ﷻ : ﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ [1].

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴾ أي : في ذلك المشهد من القصة عبرة لمن يخشى ، وهنا رجع القرآن إلى ما كان يتكلم عنه ، وهو أمر قريش ، أي : يا من كفرتم **بمحمد** وكذبتموه ، وادعيتم أن القرآن سحر .. خذوا عبرة لكم من هذه القصة الواقعة ، فلقد كان **فرعون** أشد منكم قوة وحضارة ومدنية ، وبالرغم من ذلك ، فقد أغرقناه وجنوده في اليم .

فلا تصادروا دعوة **محمد** ؛ لأنكم إما أن تؤمنوا ، أو يأخذكم الله كما أخذ **فرعون** وقومه .

﴿ لَعِبْرَةً ﴾ أي : نصيحة وذكرى واعتبار ، ﴿ لِمَنْ يَخْشَى ﴾ أي : لمن يخاف العواقب ، ويجعل لنفسه الآن عبرة بما حدث في أمم قبله من المكذبين بالرسل .

ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾

﴿ أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ﴾ .. يعود بنا القرآن ليؤكد أمر البعث مرة أخرى ، فمن المعلوم أنه لا يمكن أن يُطرح سؤال لمعاند إلا إذا كان السائل على يقين بأن الجواب سيكون في صفه ، لا يمكن أن يطرح سائل هذا السؤال إلا إذا كان واثقًا من أن المجيب لن يقول إلا : " السماء أشد خلقًا " .

﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴾ **السمك** : هو البعد في ارتفاعه ، أي : رفعها رفعًا عاليًا .

﴿ فَسَوَّاهَا ﴾ أي : فسواها تسوية بحيث لا تستطيع أن تدرك الفواصل بين لبنات بنائها ،

---

1 – سورة : غافر ، الآية : 45 ، 46 .

ومعلوم أن البناء عادة هو ضم شيء إلى شيء بواسطة تضم بعضه البعض ، ومعلوم أنه مهما بلغت الدقة في الشيء المبني فلابد من فروق وفتوق تكون بين ثنايا ذلك الشيء المبني ، لكن التحدي حين تجد أنها مبنية بناء محكمًا مستويًا لا فروق أو رتوق فيه .

فالله ﷻ يوجه البشر إلى النظر إلى قدرته العجيبة في الكون ، من خلق السماء ، ورفع سمكها ، ومن تسويتها ، ومن دحو الأرض ، ومن إيجاد ما تتطلبه الحياة على وجه الأرض ليضمن لكم بقاء حياتكم .

﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴾ أي : جعل لكم في الزمان خِلْفة ، فلم يجعله ليلاً مظلمًا دائمًا ، ولا نهارًا مضيئًا دائمًا ، فالظلمة الدائمة لا تصلح ، والنور الدائم لا يصلح ؛ لأن حياتكم تقتضي وجود هذين اللونين المتكاملين من الضوء والظلمة ، فذلك هو التكامل لا التضارب .

﴿ وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾ .. وهنا قد يرد سؤال ، وهو ما المقصود بكلمة : ﴿ بَعْدَ ﴾ في قول الحق ﷻ : ﴿ وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾ ؟!

إن هناك فرقًا بين بعدية الحدث وبعدية الذكر ، فبعدية الحدث هي أن تذكر حدثًا أولاً ثم تذكر حدثًا وقع في زمان بعد زمن الحدث الأول ، أما بعدية الذكر فلا تقتضي أن يكون زمن الحدث الثاني حاصلاً بعد زمن الحدث الأول .

لكن هذه البعدية الذكرية لا تكون إلا في الامتنان ، كأن تكرم أحدًا أو تصنع له جميلاً مرة ، ثم بعد ذلك أرسلت إليه بهدية بعد تلك المرة ، فإذا ما أردت أن تذكر ذلك في موضع الامتنان فليس من الضروري أن تذكرهما بالترتيب ، ولكن لك أن تذكر الجميل أولاً ثم تعقب بذكر الهدية ، أو أن تذكر الهدية أولاً معقبًا إياها بذكر الجميل الأول .

فكأن الحق ﷻ لفتنا أولاً إلى القمة العالية ، وهي السماء ، ثم تكلم بعد ذلك عن الأرض ، وهذا لا يعني أن حدث الأرض كان بعد حدث السماء .

وقد يقال : إن خلق الأرض قد أخذ طورين : الطور الأول أنه خلق مادتها ، ثم بعد ذلك خلق مادة السماء ، ثم عاد إلى الأرض بعد ذلك فدحاها ، وهذا هو الطور الثاني من أطوار خلق الأرض ، ودحاها أي : بسطها وجعلها مهيأة لحياة الإنسان عليها .

﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴾ .. وهذه هي أهم عملية لإبقاء الحياة .

﴿ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴾ .. أي أثبتها على سطح الأرض لتثبت الأرض ولا تميد بأهلها .

﴿ مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ .. وتلك هي اللفتة التي يجب أن نتنبه إليها هنا ، وهي أن قول الحق ﷻ : ﴿ مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ جاء بعد .. ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴾ ، فإرساء الجبال وإنبات الأرض وإخراج المرعى ووجود الجبال في ذلك متاع لنا ولأنعامنا .

وفي ذلك يخبرنا علماء الطبيعة بأن تلك الجبال تؤثر فيها عوامل التعرية فتؤدي إلى شيء من التفتت الصخري ، ثم بعد ذلك يسقط عليها المطر فيجرف هذه الأجزاء المفتتة ويجعلها تنزل على الأرض ، فيتكون ما يُسمى بالغرين ، تلك المادة التي تنجرف إلى الوديان ، فتكون بإذن الله سببًا لخصوبة الأرض ، فكأن هذه الجبال الصماء هي مخازن الأقوات .

أما إذا لم يحدث ذلك ، أو منعنا وصول ذلك الغرين إلى الأرض فإنها تقوم بإخراج هذه العناصر من نفسها على سطحها ، وبالتالي تفقد عناصرها شيئًا فشيئًا ، وهذا هو ما حدث في مصر عندما قلّت مياه السد العالي ولم يعد النيل يحمل الغرين والطمي الذي كان يجرفه من جبال الحبشة ، كي يكسو أرض مصر والوادي كله بطبقة خصبة ، تجدد خصوبة الأرض كل سنة .

هذه هي العلاقة في قوله ﷻ : ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ .



﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَى ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَى ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٤١﴾﴾

يرجع الحديث مرة أخرى لتلك القضية التي يؤكد عليها مرارًا ، وهي قضية البعث ؛ لأن قضية البعث إذا اتضحت في ذهن الإنسان فلابد أن يؤمن بالله ﷻ وبرسوله ﷺ ، ولابد من أن يقبل ذلك المنهج الرباني ويُقبل عليه بكل كيانه ، إن لم يكن رهبًا من ذات الله ، فرهبًا من ذلك اليوم .

﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ ﴾ .. والطامة هي الحدث الضخم المروع المهول الذي ينسي الإنسان كل حدث قبله ، فهذا طَمَّ على ذاك ، أي : هذا أنسى ذاك وهوَّنه بالنسبة إليه .

﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ مَا سَعَى ﴾ .. ساعة أن يأتيه هذا الحدث المفاجئ الذي لم يكن ينتظره ، إذا به يستعرض ذكريات حياته كلها ، يقول يومها : هذا هو اليوم الذي كنت أكذِّب به ، فدعاني التكذيب به إلى تكذيب الرسل ، وتكذيب وجود الإله ، وأداني إلى الإسراف في الطغيان .

ولِمَ لا يكذب نفسه ؟! وقد تأكد أنه أمام حدث سيقطع عليه كل شهوة ، وسيستقبل فيه عقاب ما قدمت يداه .. ﴿ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾ ، فلما نسوه جاءهم هذا اليوم ..

﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ مَا سَعَى * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى ﴾ .. **برزت** : أي أصبحت الجحيم التي كانوا يكذبون بها ، ولا يصدقون إخبار الرسل عنها ، أصبحت بارزة للعيان ، برزت الجحيم لكل من تتأتى منه الرؤية ، فكل من عنده رؤية يلزم أن يراها .

﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ ﴾ .. ومعنى ذلك أنها ستظهر للبر والفاجر ، والمؤمن والكافر ، والتقي والعاصي .

﴿ لِمَنْ يَرَى ﴾ أي : لكل الناس حينذاك ؛ لأنه فسرها ﷺ في آية أخرى فقال : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴾[1] ، فإن المؤمن يتنعم بالنعيم مرتين : مرة حين يرى عذابًا نجاه الله منه ، ومرة حين يرى نعيمًا ينعمه الله به .

﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ وصفان : ﴿ طَغَى ﴾ و ﴿ آثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ ، وبعدها جاء وصفان آخران : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ * وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ ، فهنا تقابل بين ﴿ طَغَى ﴾ و ﴿ آثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ ، فطبيعي أن ﴿ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ ، وبين ﴿ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ * وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴾ ، فطبيعي كذلك أن ﴿ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ ، ويلاحظ هنا أن التقابل في غاية الانسجام ؛ لأن الطغيان هو تجاوز الحد ، وتجاوز الحد ينشأ من فساد القوى العقلية ؛ لأن الإنسان حين يتجاوز حده ويطغى ويظلم ويتعالى ويتكبر فإن هذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن عقله غير سليم ؛ لأن الإنسان لا يطغى بقوته إلا على ضعيف ، ومعنى طغيانه على الضعيف هو أن تفكيره غير سليم من جهتين ..

الأولى : أنه ظن أنه هو القوي ولا قوي فوقه ، في حين أنه لو علم أن قويًّا فوقه ما كان تكبر ولا تجبر ..

والثانية : أنه ظن أن قوته هذه قوة ذاتية فيه ، لا تضعف ولا تتغير ، في حين أنه لو علم أنها تتغير لما تكبر ولا تجبر .

إذًا فالطغيان نتيجة استشعار الإنسان دائمًا أن لا يوجد مثله في المحيط الموجود فيه ، فيجعله ذلك لا يستحضر خشية الله أمامه ؛ لأنه لو استحضر عظمة ربه لتضاءل بكل عظمته

---

1 – سورة : مريم ، الآية : 71 .

أمام ربه ﷻ ، وما دام يتضاءل بكل عظمته أمام ربه فلا يطرق الكبر بابه .

﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴾ وهذا دليل فساد القوة العاقلة ، ﴿ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ .. فهو عنده خياران : عاجلة فانية بزخرفها ، وآجلة باقية بنعيمها ، وهو يقول : أنا أريد العاجلة ، فهذا آثر الحياة الدنيا ، وأعطى نفسه شهواتها كلها ، وهذه هي القوة الفعالة .

إذًا .. فهنا عنصران اثنان : فساد القوة العاقلة في قوله ﷻ : ﴿ طَغَى ﴾ ، وفساد القوة الفعالة في قوله ﷻ : ﴿ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ ، ثم جاء بالمقابل لـ ﴿ طَغَى ﴾ بقوله ﷻ : ﴿ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ﴾ ، والثانية : ﴿ آثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ ، ومقابلها : ﴿ نَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴾ ، فكان من الطبيعي بعد أن ذكر المقابل هنا في الدنيا أن يذكر المقابل هناك في الآخرة ، وهو الجزاء ، فقال عن الأول : ﴿ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ ، ومقابله : ﴿ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ .

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾ .. يعود فيستأنف ذكر استهزائهم تعجيبًا منهم فقال : ﴿ يَسْأَلُونَكَ ﴾ .. أي : قريش على سبيل التجديد والاستمرار سؤال استهزاء وإنكار واستبعاد ، ﴿ عَنِ السَّاعَةِ ﴾ .. أي : البعث الآخر ؛ وذلك لكثرة ما تتوعدهم بها عن أمرنا .

ولما كان السؤال عنها مبهمًا بينه بقوله : ﴿ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾ أي : في أي وقتٍ إرساؤها ، أي وقوعها ، أو ثباتها واستقرارها .

﴿ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا ﴾ .. ولما كان إيراد هذا الرد هكذا مفهمًا للإنكار عليهم في هذا

السؤال ، وكان من المعلوم أنه يقول : إنهم ليسألونني وربما تحركت نفسه الشريفة ﷺ إلى إجابتهم لحرصه على إسلامهم شفقة عليهم ، فرده عن ذلك وصرح بالإنكار بقوله : ﴿ فِيمَ ﴾ .. أي في أي شيء ﴿ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا ﴾ .. أي ذكرها العظيم ؛ لتعرفها وتبين وقتها لهم ؛ حرصًا على إسلامهم ، وعلمها لا يفيدهم شيئًا ليؤمنوا بها .

﴿ إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا ﴾ .. ثم عرَّفها بما لا يمكن المزيد عليه مما أفادته الجملة التي قبل ، من أنه لا يمكن علمها لغيره ﷻ فقال : ﴿ إِلَى رَبِّكَ ﴾ أي المحسن إليك وحده ﴿ مُنْتَهَاهَا ﴾ أي منتهى علمها وجميع أمرها .

﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا ﴾ .. ولما كان غاية أمرهم أنهم يقولون : إنه متقول من عند نفسه ، قلب عليهم الأمر فقال : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ ﴾ أي يا أشرف المرسلين﴿ مُنْذِرُ ﴾ أي مخوف على سبيل الحتم الذي لا بد منه مع علمك بما تخوف به العلم الذي لا مرية فيه ﴿ مَنْ يَخْشَاهَا ﴾ أي فيه أهلية أن يخافها خوفًا عظيمًا فيعمل لها لعلمه بإتيانها لا محالة ، وعلمه بموته لا محالة ، وعلمه بأن كل ما تحقق وقوعه فهو قريب ، وذلك لا يناسب تعيين وقتها فإن من فيه أهلية الخشية لا يزيده إبهامها إلا خشية ، وغيره لا يزيده ذلك إلا اجتراء وإجرامًا ، فما أرسلناك إلا للإنذار بها لا للإعلام بوقتها ، فإن النافع الأول دون الثاني ، ولست في شيء مما يصفونك به كذبًا منهم ؛ لأنا ما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ، ولا أنت مبعوث لتحرير وقت الساعة وعلم عينه ، وإنما قصره على من يخشى لأن غيره لا ينتفع بإنذاره ، فكان كأنه لم يحصل له الإنذار ، ولهذا المعنى أضاف إشارة إلى أنه عريق في إنذار من يخشى ، وأما غيره فهو منذر له في الجملة أي يحصل له صورة الإنذار لأنه منذره بمعنى أنه لا يحصل له معنى الإنذار .

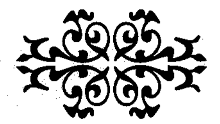
﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ .. ولما أثبت أنه منذر ، وكان أخوف الإنذار الإسراع ، قال مستأنفًا محقرًا لهم الدنيا مزهدًا لهم فيها : ﴿ كَأَنَّهُمْ ﴾ أي



هؤلاء المنكرين لصحة الإنذار بها ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَهَا ﴾ أي يعلمون قيامها علمًا هو كالرؤية ، ويرون ما يحدث فيها بعد سماع الصيحة وقيامهم من القبور من علمهم بما مر من زمانهم وما يأتي منه ﴿ لَمْ يَلْبَثُوا ﴾ أي في الدنيا وفي القبور ﴿ إِلاَّ عَشِيَّةً ﴾ أي من الزوال إلى غروب الشمس ، ولما كانوا على غير ثقة من شيء مما يقولونه قال : ﴿ أَوْ ضُحَاهَا ﴾ أي ضحى عشية من العشايا ، وهو البكرة إلى الزوال ، والعشية ما بعد ذلك ، أضيف إليها الضحى لأنه من النهار ، والإضافة تحصل بأدنى ملابسة ، وهي هنا كونهما من نهار واحد ، فالمراد ساعة من نهار أوله أو آخره ، لم يستكملوا نهارًا تامًّا ، ولم يجمعوا بين طرفيه .

نسأل الله ﷻ أن يجعلنا دائمًا من المصدقين بالساعة ، وأن يكفينا شر أنفسنا ، وأن يكفينا شر الشيطان ، وأن يحقق لنا آمالنا أجمعين . .

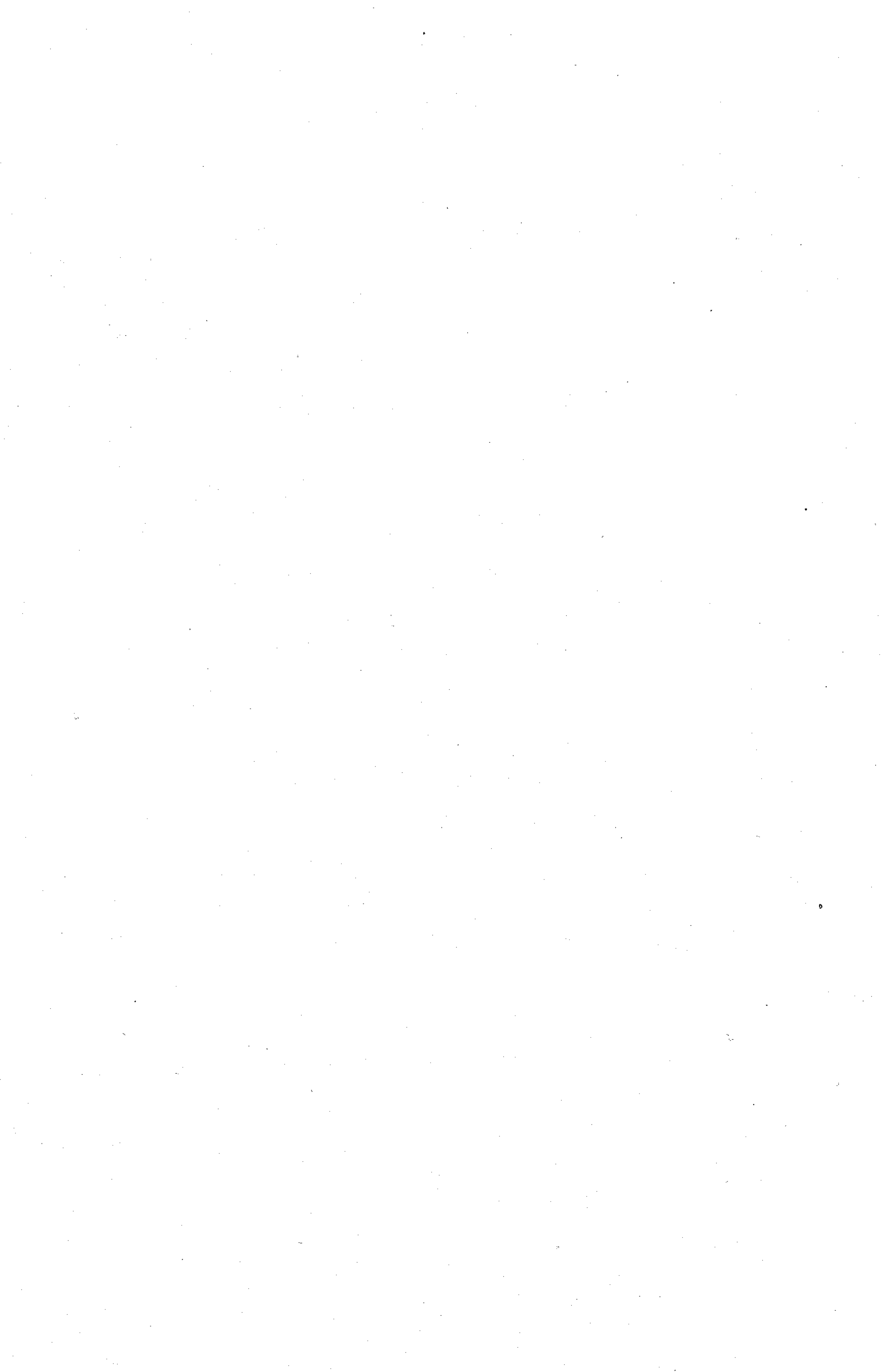
والحمد لله رب العالمين . .

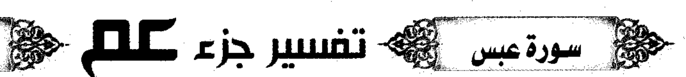


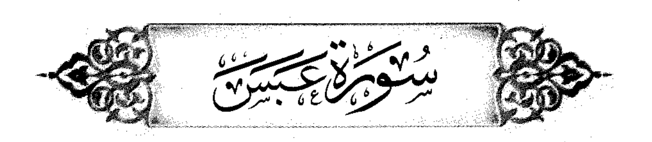


تفسير جزء عم

سورة عبس







بسم الله الرحمن الرحيم أحمدك ربي ، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد رحمة الله للعالمين ، وخاتم الأنبياء والمرسلين ، وبعد :

نحن الآن بصدد الحديث عن **سورة** (**عبس**) ، **وسورة** (**عبس**) وردت في المصحف الشريف بعد **سورة** (**النازعات**) مباشرة ، والمناسبة التي تربط بين السورتين مناسبة وثيقة ، فإن آخر **سورة** (**النازعات**) كان عن الساعة وعن سؤال الكفار لرسول الله ﷺ : ﴿ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾[1] ، ثم الرد من الحق ﷻ : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا ﴾[2] ، فإذا نظرنا إلى قول الحق ﷻ : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا ﴾ وجدنا مقابلاً لذلك أن من لا يخشاها لا ينفعه إنذار .

فكأننا بصدد قضيتين : قضية من ينفعه إنذار النبي ﷺ ، وقضية من لا ينفعه الإنذار ، فجاءت **سورة** (**عبس**) وتعرضت للفريقين .

إن القرآن كلام الله ﷻ ، وتوجيهه إنما هو إلى عباده الذين آمنوا به ، وإن كان هو كمعجزة تدعو إلى الإيمان برسول الله ﷺ المبلغ عن الله ﷻ ، فهو كمعجزة حجة ، ولكنه ككتاب منهج لا يتقبله إلا من يقبل هذه الحجة ، ويؤمن بالله ﷻ ، فليس معنى أن هذا القرآن من عند الله ﷻ أن يتلقى الناس ما فيه من عظة ومن حكمة ومن اعتبار بمجرد أن يسمعوه ؛ لأن ذلك راجع إلى القابل نفسه .

وكما هو معلوم أن الفاعل قد يكون واحدًا ، وقد يكون فعله واحدًا ، ولكن أثره في القابل

---

1 – سورة : النازعات ، الآية : 42 .

2 – سورة : النازعات ، الآية : 43 .

يختلف باختلاف ذلك القابل .

يشرح القرآن هذه القضية في قوله ﷻ : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلاَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾[1] ، فاختلاف أثره يكون باختلاف القابل له : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ﴾[2] ، وكأنهم لم يلتفتوا إلى العجيب في القرآن ؛ لأن القابلية فيهم مفقودة ، فليست المسألة في طبيعة القرآن ، ولكن في طبيعة من تلقى هذا القرآن .

إذن فقول الحق ﷻ : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا ﴾[3] أي : لا ينفع إنذارك من لم يخشَ الساعة ، وليس ذلك لفساد في المنذِر ولا في المنذَر به ، ولكن الفساد في من يتلقى الإنذار .

لذلك جاء عرض هذه القضية بالتفصيل في **سورة** (**عبس**) .

ومن أسماء **سورة عبس** (**سورة الصاخة**) ؛ لأن هذا هو اللفظ المخوف به في السورة ، وبعض الناس يسمونها (**سورة الأعمى**) ؛ لأن مناسبة نزول هذه السورة كان هو قصة **عبد الله بن أم مكتوم** رضي الله عنه .

وتتعرض (**سورة عبس**) كذلك إلى عدة أمور بخلاف قصة **ابن أم مكتوم** : أولها هو هذه القصة ، والقصة واقع ، ودائمًا ما يكون الواقع هو منطلق تثبيت العقائد في النفوس ، فالعقائد والأحكام لا تأتي غالبًا من أوامر نظرية تصب صبًّا ، ولكن حين تحدث في الأرض حادثة تتطلب حكمًا من الذي في السماء ﷻ ، فينزل الحكم مع تلك الحادثة التي مسَّت كيان الواقع ، فترتبط المبادئ التي تنزل في الحادثة الواقعة بنفس تلك الواقعة ، وما دام الواقع لا

1 – سورة : فصلت ، الآية : 44 .

2 – سورة : محمد ، الآية : 16 .

3 – سورة : النازعات ، الآية : 43 .

يغيب أبدًا عن الذهن ، فتظل بالتالي العقائد التي جاءت من أجل هذه القصة ثابتة في النفس ؛ ولذلك نزل القرآن منجمًا مفرقًا ، كما قال الله ﷻ : ﴿ **كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً** ﴾[1] ، فلقد كان النبي ﷺ متعرضًا في مدة دعوته لأشياء كثيرة ، كل شيء منها يحتاج إلى تثبيت جديد من السماء ، فلو أن القرآن نزل جملة واحدة لكان له تثبيت واحد ، ولكن كلما حدثت حادثة قد تزعزع شيئًا في نفس النبي ﷺ أو في نفوس أصحابه نزل نجم من القرآن ، وكان كل نجم ينزل يستقبله المسلمون فيحفظونه ويتدبرون معانيه ، فإذا ما فرغوا من ذلك النجم ، وقد تفتر هممهم وعزائمهم – كحال جميع البشر – ينزل نجم آخر .. وهكذا .

وهناك فائدة أخرى نجدها في ذلك التعقيب القرآني ، حيث يقول الله ﷻ : ﴿ **وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا** ﴾[2] ، أي إذا كانوا لم يقترحوا شيئًا جديدًا بعد ، ولم يتكلموا عن شيء كي نأتي لكم بالحكم ، ولكن لو أنهم تكلموا أو اقترحوا فسنأتي بالرد عليه وأحسن منه تفسيرًا ، فإذا كان القرآن قد نزل جملة واحدة فكيف يُفسح لهم المجال للاقتراح ؟ !

قصة هذه السورة عبارة عن حادثة حدثت ، أبطالها رسول الله ﷺ و**ابن أم مكتوم** رضي الله عنه وصناديد قريش ، هؤلاء هم أبطال القصة .

وكان **ابن أم مكتوم** رضي الله عنه أعمى ، وكانت له مكانة عند **خديجة** رضوان الله عليها ، فلقد كان ابن خالتها رضوان الله عليهما ، وذات يوم جاء إلى رسول الله ﷺ يطلب منه معرفة المزيد من أحكام الله ﷻ ، وهذا دليل على أنه مقبل على الإسلام ليتعلمه إقبال عاشق ، ولكن رسول الله ﷺ كان مشغولاً بدعوة صناديد قريش ، **شيبة وعتبة** ابني **ربيعة والوليد بن المغيرة وأمية بن خلف وأبو جهل بن هشام** ، ومعهم **العباس بن عبد المطلب** رضي الله عنه ، وكان آنذاك

1 – سورة : الفرقان ، الآية : 32 .

2 – سورة : الفرقان ، الآية : 33 .

مشركًا لم يسلم بعد .

ولقد كان الرسول ﷺ يتمنى أن يسلموا ويهتدوا إلى الإيمان ، فمن الممكن أن يفادي الإسلام من شرهم ، أو على الأقل أن يكفوا عن إيذائهم لضعفاء المسلمين ، وثانيًا : قد يستطيع الخائف من إعلان إسلامه أن يعلنه ، وثالثًا : سوف تصير القوة التي ضده معه .

هذه جميعًا هي أهداف جهاد النبي **محمد** ﷺ ، فهل هذا الاجتهاد من رسول الله ﷺ لصالح الدعوة أم ليس لصالحها ؟! وهل كان عمله هذا واحتياله في إقناعهم يكلفه مشقة أم لم يكن يكلفه مشقة ؟!

قطعًا كان كل ذلك لصالح الدعوة ، وقطعًا كان يكلفه من المشقة والعنت ما يكلفه ، فحين يعاتبه الله ﷻ على تصرف تصرفه في تلك اللحظات فلا يجب أن يُفهم أنه يعاتبه على أنه مقصر ، بل يعاتبه لأنه حمَّل نفسه من المشقة فوق ما تتطلبه الرسالة ، أو فوق ما يطيق ، فهذا العتب لصالح رسول الله ﷺ لا عليه .

أما السورة فقد أتت بكل المقومات التي ذكرناها آنفًا ، ذكرت القصة ، ثم عقبت بعدها بالحكم الذي يبين الحق في هذا التصرف ، ثم أعلنت المبدأ الذي يجب أن يسير عليه منهج الدعوة ، ثم بينت حيثيات ذلك المنهج ، ثم التفتت إلى الإنسان الذي جاء إليه ذلك المنهج ودعت عليه دعوة : ﴿ قُتِلَ الإِنْسَانُ ﴾ والدعاء بـ ﴿ قُتِلَ ﴾ هو منتهى ما يصيب من الشر ، وبينت العجب من كفره ، وبعد ذلك ذكرت الأشياء التي كان يجب أن تؤديه إلى الإيمان ، لا أن تؤديه إلى الكفر ، فذكر أصل خلقته ومن أين جاء ، وذكر إمداد القيومية له بما أمده الله فيه من رزق في الأرض ، ثم بعد ذلك عقب أخيرًا بأن الذي لم يحمد الله ويؤمن به لأنه خلقه من كذا ورزقه بكذا ، فيجب عليه أن يؤمن به خوفًا من أنه سيعود إليه ، فمن لم يأتِ رغبًا فليأتِ على الأقل رهبًا ، فسوف تأتي صاخة ، ومعنى الصاخة أن من لم يكن يسمع من قبل فسيسمعها ، ومن كان غافلاً تشغله غفلته فلم يعد هناك غفلة ؛ لأنها صاخة تصخ أذنه .



وبعد ذلك يعطينا نتيجة ذلك ، يعطينا الوجوه المسفرة الضاحكة المستبشرة ، والوجوه التي عليها غبرة ترهقها قترة أولئك هم الكفرة الفجرة .

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ .. نرى هنا أن العبارة جاءت بضمير الغائب ، لا بضمير المخاطب ، فلم يقل : عبستَ وتوليتَ ؛ حتى لا يعرضه إلى المواجهة بضمير الخطاب في العبارة ، حتى نفهم أن الله ﷻ يعرض لنا صورة من إخلاص نبيه ﷺ في الدعوة ، كأنه يقول لنا : يا أمة محمد ، انظروا كيف كان رسولكم ﷺ يغار على هذه الدعوة ، فهو عبس في الطريق الميسر السهل ، ويريد أن يذهب للطريق الصعب ، بدليل أنه جاء بعدها : ﴿ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ﴾ ، والتصدي يحتاج إلى مجهود وقوة مقاومة .

فالحق ﷻ تلطف مع رسوله ﷺ تلطفًا كبيرًا ، حتى في أسلوب الخطاب .

والعبوس : هو تقطيب الوجه ، وتقطيب الوجه ليست عملية عقلية ، بل هي عملية غريزية ، فلا يستطيع أحد أن يقول : والله سأقطب وجهي وأعبس عندما يأتي فلان ، فهي لا تُسْتَدعى ، بل تُفْرَض .

﴿ أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى ﴾ .. ويلاحظ أن القرآن حين أراد أن يذكر ابن أم مكتوم لم يأتِ بغير كلمة " الأعمى " ، مع أنها صفة من الممكن أن يتأذى صاحبها منها ، ولكن القرآن حرص

على أن يأتي بها ؛ لأنه يريد أن يقول لنا : إن الظروف كلها كانت مواتية لأن ينتبه له الرسول ﷺ وألا يعرض عنه ، فهو مع أنه " أعمى " إلا أنه قد .. ﴿ جَاءَكَ يَسْعَى ﴾ .. أي يسرع ، ومعنى ذلك أنه راغب في معرفة منهج السماء ، وأراد أن يعلمه الرسول ﷺ ليزداد من ذلك العلم ، ولا شك أنه كلما تعلم مسألة من المسائل كلما تقيد سلوكه ، فالإنسان الذي يسعى ليقيد سلوكه راغب في المنهج .

وعلى الرغم من أنه معلوم أن الأعمى يمشي ببطء وتؤدة ، إلا أن الله ﷻ قال : ﴿ يَسْعَى ﴾ .. فكأن طبيعة ما عنده من الشوق إلى أن يلتقي برسول الله ﷺ وأن يسمع منه جعلت لديه طاقة جعلته يسعى ، مع وجود حيثيات تجعله لا يستطيع أن يسعى .

وبعد ذلك جاء بالحيثية الأخرى ﴿ وَهُوَ يَخْشَى ﴾ .. يسعى وهو أعمى .. ﴿ وَهُوَ يَخْشَى ﴾ ، ولم يذكر ماذا يخشى ، وهذا من عطاء القرآن وثرائه وخصوبة أدائه ؛ كي تبحث أنت عن مفعول لهذا الفعل ، فطالما أنه أعمى ويسرع فقد يخشى أن يقع في حفرة ، أو أن يصطدم بشيء ، وقد يخشى خصوم الإسلام الصناديد الذين كانوا يراقبون هؤلاء الضعفاء ويتلقفونهم ويسلطون أذاهم عليهم ، أو هو يخشى ما فوق ذلك .. يخشى الله ﷻ ، كل ذلك تعطينا إياه كلمة ﴿ يَخْشَى ﴾ .

فالمسألة إذًا سهلة ، مؤمن جاءك يسعى ليتعلم منك الإسلام ، وعنده كل مقومات الإيمان ، وكل الاستعداد لتنفيذ ما تأمره به ، فلماذا تعرض عنه وتتصدى لهؤلاء الكافرين المعاندين ؟!

وهذا هو سبب العتاب ، فلم يكن العتاب لأن النبي ﷺ ترك الطريق الوعرة ، والتمس لنفسه الطريق السهلة الممهدة ، بل لأنه ترك هذه الطريق السهلة التي يأمره بها المنهج ، وأخذ الطريق الوعرة الصعبة التي لم يكلَّف بها ، وذلك بلا شك غيرة منه ﷺ على الدعوة ، فلقد كان النبي ﷺ يحمل همَّ الناس جميعًا ، ويتمنى أن يدخلوا جميعًا في الإسلام ، بل لقد عاتبه الله ﷻ على هذا أيضًا ، كما قال الله ﷻ له : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ

إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾[1] ، أي : لعلك حزين من أجلهم ، وتهلك نفسك أسىً عليهم وأسفًا ، فلا تحزن ، فماذا سيقدمون للإسلام ؟! وهل سيعطون الإسلام شيئًا ؟! كلا ، بل إن الإسلام هو الذي سيعطيهم ، فمن يطع الرسول فقد اهتدى ، وأما من لم يطع الرسول فقد غوى .

﴿ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴾ .. كلمة : ﴿ تَلَهَّى ﴾ لها معنى آخر غير ما نتصور .. فهناك اللهو ، وهناك اللعب ، فاللعب هو أن تشغل نفسك بشيء غير مطلوب لذاته ، ولكنه لم يصرفك عن أمر مطلوب ، أما اللهو فهو أن تشغل نفسك بشيء مطلوب لذاته ، ولكنه يشغلك عن أمر مطلوب لذاته ، فكأن الحق ﷻ أراد أن يقول للنبي ﷺ : يا **محمد** .. يجب أن يكون ميدان عملك مع هؤلاء المقبلين عليك عشقًا للدعوة وحبًّا لهذا المنهج ، أما أن تتلهى بأولئك المعاندين المعرضين فهذا لا ينبغي أن يكون .

وكلمة : ﴿ تَلَهَّى ﴾ تدل على أن انشغال النبي ﷺ بهؤلاء لا يجدي شيئًا ؛ لأنه شغل بما لا يفيد ، وهو يعطله عما يفيد ، ولذلك فإذا استقرأت حالهم وجدتهم جميعًا لم يموتوا على الكفر ، إلا **العباس** عم النبي ﷺ ، ونحن نعلم موقف **العباس** ﷺ من النبي ﷺ ، لدرجة أنني أعتقد أنه كان مسلمًا ، ولكنه أخفى إسلامه حتى لا يجترئ الكفار على رسول الله ﷺ ولو احترامًا له **ولأبي طالب** ، بدليل أنه هو الذي ذهب ليوثق للنبي ﷺ أمره مع الأنصار يوم العقبة ، كما روى ذلك **الإمام أحمد** في مسنده قال :

حَدَّثَنَا **يعقوب** قَالَ : حَدَّثَنَا أَبِي عَنْ **ابن إسحاق** قَالَ : فَحَدَّثَنِي **معبد بن كعب بن مالك بن أبي كعب بن القين** أَخُو **بني سلمة** أَنَّ أَخَاهُ **عبيد الله بن كعب** ، وَكَانَ مِنْ أَعْلَمِ الأَنْصَارِ حَدَّثَهُ أَنَّ أَبَاهُ **كعب بن مالك** ، وَكَانَ **كعب** مِمَّنْ شَهِدَ الْعَقَبَةَ وَبَايَعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِهَا قَالَ : خَرَجْنَا فِي حُجَّاجِ قَوْمِنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ ، وَقَدْ صَلَّيْنَا وَفَقِهْنَا ، وَمَعَنَا **البراء بن معرور** كَبِيرُنَا

---

1 – سورة : الكهف ، الآية : 6 .

وَسَيِّدُنَا ، فَلَمَّا تَوَجَّهْنَا لِسَفَرِنَا وَخَرَجْنَا مِنَ الْمَدِينَةِ قَالَ البراء لَنَا : يَا هَؤُلَاءِ إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ وَاللهِ رَأْيًا ، وَإِنِّي وَاللهِ مَا أَدْرِي تُوَافِقُونِي عَلَيْهِ أَمْ لاَ . قَالَ : قُلْنَا لَهُ : وَمَا ذَاكَ ؟ قَالَ : قَدْ رَأَيْتُ أَنْ لاَ أَدعَ هَذِهِ الْبَنِيَّةِ مِنِّي بِظَهْرٍ - يَعْنِي الْكَعْبَةَ - وَأَنْ أُصَلِّيَ إِلَيْهَا . قَالَ : فَقُلْنَا : وَاللهِ مَا بَلَغَنَا أَنَّ نَبِيَّنَا يُصَلِّي إِلاَّ إِلَى الشَّامِ ، وَمَا نُرِيدُ أَنْ نُخَالِفَهُ . فَقَالَ : إِنِّي أُصَلِّي إِلَيْهَا . قَالَ : فَقُلْنَا لَهُ : لَكِنَّا لاَ نَفْعَلُ . فَكُنَّا إِذَا حَضَرَتْ الصَّلاَةُ صَلَّيْنَا إِلَى الشَّامِ وَصَلَّى إِلَى الْكَعْبَةِ ، حَتَّى قَدِمْنَا مَكَّةَ ، قَالَ أَخِي : وَقَدْ كُنَّا عِبْنَا عَلَيْهِ مَا صَنَعَ ، وَأَبَى إِلاَّ الإِقَامَةَ عَلَيْهِ ، فَلَمَّا قَدِمْنَا مَكَّةَ قَالَ : يَا ابْنَ أَخِي انْطَلِقْ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَاسْأَلْهُ عَمَّا صَنَعْتُ فِي سَفَرِي هَذَا ، فَإِنَّهُ وَاللهِ قَدْ وَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْهُ شَيْءٌ لَمَّا رَأَيْتُ مِنْ خِلاَفِكُمْ إِيَّايَ فِيهِ . قَالَ : فَخَرَجْنَا نَسْأَلُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَكُنَّا لاَ نَعْرِفُهُ ، لَمْ نَرَهُ قَبْلَ ذَلِكَ ، فَلَقِيَنَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ ، فَسَأَلْنَاهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَقَالَ : هَلْ تَعْرِفَانِهِ ؟ قَالَ : قُلْنَا : لاَ . قَالَ : فَهَلْ تَعْرِفَانِ **العباس بن عبد المطلب** عَمَّهُ ؟ قُلْنَا : نَعَمْ . قَالَ : وَكُنَّا نَعْرِفُ **العباس** ، كَانَ لاَ يَزَالُ يَقْدَمُ عَلَيْنَا تَاجِرًا . قَالَ : فَإِذَا دَخَلْتُمَا الْمَسْجِدَ فَهُوَ الرَّجُلُ الْجَالِسُ مَعَ **العباس** . قَالَ : فَدَخَلْنَا الْمَسْجِدَ فَإِذَا **العباس** جَالِسٌ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ مَعَهُ جَالِسٌ ، فَسَلَّمْنَا ثُمَّ جَلَسْنَا إِلَيْهِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ **للعباس** : **هَلْ تَعْرِفُ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ يَا أَبَا الْفَضْل** ؟ قَالَ : نَعَمْ ، هَذَا **البراء بن معرور** سَيِّدُ قَوْمِهِ ، وَهَذَا **كعب بن مالك** . قَالَ : فَوَاللهِ مَا أَنْسَى قَوْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ : **الشَّاعِرُ** ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : فَقَالَ **البراء بن معرور** : يَا نَبِيَّ اللهِ إِنِّي خَرَجْتُ فِي سَفَرِي هَذَا ، وَهَدَانِي اللهُ لِلإِسْلاَمِ ، فَرَأَيْتُ أَنْ لاَ أَجْعَلَ هَذِهِ الْبَنِيَّةَ مِنِّي بِظَهْرٍ ، فَصَلَّيْتُ إِلَيْهَا ، وَقَدْ خَالَفَنِي أَصْحَابِي فِي ذَلِكَ ، حَتَّى وَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ ، فَمَاذَا تَرَى يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : **لَقَدْ كُنْتَ عَلَى قِبْلَةٍ ، لَوْ صَبَرْتَ عَلَيْهَا** ، قَالَ : فَرَجَعَ البراء إِلَى قِبْلَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَصَلَّى مَعَنَا إِلَى الشَّامِ ، قَالَ : وَأَهْلُهُ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ صَلَّى إِلَى الْكَعْبَةِ حَتَّى مَاتَ وَلَيْسَ ذَلِكَ كَمَا قَالُوا ، نَحْنُ أَعْلَمُ بِهِ مِنْهُمْ ، قَالَ : وَخَرَجْنَا إِلَى الْحَجِّ ، فَوَاعَدَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ الْعَقَبَةَ مِنْ أَوْسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ ،

فَلَمَّا فَرَغْنَا مِنْ الْحَجِّ ، وَكَانَتْ اللَّيْلَةُ الَّتِي وَعَدْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ ، وَمَعَنَا **عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر** سَيِّدٌ مِنْ سَادَتِنَا ، وَكُنَّا نَكْتُمُ مَنْ مَعَنَا مِنْ قَوْمِنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ أَمْرَنَا ، فَكَلَّمْنَاهُ وَقُلْنَا لَهُ : يَا **أبا جابر**، إِنَّكَ سَيِّدٌ مِنْ سَادَتِنَا ، وَشَرِيفٌ مِنْ أَشْرَافِنَا ، وَإِنَّا نَرْغَبُ بِكَ عَمَّا أَنْتَ فِيهِ أَنْ تَكُونَ حَطَبًا لِلنَّارِ غَدًا ، ثُمَّ دَعَوْتُهُ إِلَى الإِسْلَامِ ، وَأَخْبَرْتُهُ بِمِيعَادِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَأَسْلَمَ وَشَهِدَ مَعَنَا الْعَقَبَةَ ، وَكَانَ نَقِيبًا ، قَالَ : فَنِمْنَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ مَعَ قَوْمِنَا فِي رِحَالِنَا ، حَتَّى إِذَا مَضَى ثُلُثُ اللَّيْلِ خَرَجْنَا مِنْ رِحَالِنَا لِمِيعَادِ رَسُولِ اللهِ ﷺ نَتَسَلَّلُ مُسْتَخْفِينَ تَسَلُّلَ الْقَطَا ، حَتَّى اجْتَمَعْنَا فِي الشِّعْبِ عِنْدَ الْعَقَبَةِ ، وَنَحْنُ سَبْعُونَ رَجُلاً وَمَعَنَا امْرَأَتَانِ مِنْ نِسَائِهِمْ ، **نسيبة بنت كعب أم عمارة** إِحْدَى نِسَاءِ **بني مازن بن النجار** ، و**أسماء بنت عمرو بن عدي بن ثابت** ، إِحْدَى نِسَاءِ **بني سلمة** وَهِيَ **أم منيع** ، قَالَ : فَاجْتَمَعْنَا بِالشِّعْبِ نَنْتَظِرُ رَسُولَ اللهِ ﷺ ، حَتَّى جَاءَنَا ، وَمَعَهُ يَوْمَئِذٍ عَمُّهُ **العباس بن عبد المطلب** وَهُوَ يَوْمَئِذٍ عَلَى دِينِ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنَّهُ أَحَبَّ أَنْ يَحْضُرَ أَمْرَ ابْنِ أَخِيهِ وَيَتَوَثَّقُ لَهُ ، فَلَمَّا جَلَسْنَا كَانَ **العباس بن عبد المطلب** أَوَّلَ مُتَكَلِّمٍ ، فَقَالَ : يَا مَعْشَرَ الْخَزْرَجِ – قَالَ : وَكَانَتْ الْعَرَبُ مِمَّا يُسَمُّونَ هَذَا الْحَيَّ مِنْ الأَنْصَارِ الْخَزْرَجَ أَوْسَهَا وَخَزْرَجَهَا – إِنَّ **محمدا** مِنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتُمْ ، وَقَدْ مَنَعْنَاهُ مِنْ قَوْمِنَا مِمَّنْ هُوَ عَلَى مِثْلِ رَأْيِنَا فِيهِ ، وَهُوَ فِي عِزٍّ مِنْ قَوْمِهِ وَمَنَعَةٍ فِي بَلَدِهِ ، قَالَ : فَقُلْنَا : قَدْ سَمِعْنَا مَا قُلْتَ ، فَتَكَلَّمْ يَا رَسُولَ اللهِ ، فَخُذْ لِنَفْسِكَ وَلِرَبِّكَ مَا أَحْبَبْتَ . قَالَ : فَتَكَلَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، فَتَلاَ وَدَعَا إِلَى اللهِ ﷻ ، وَرَغَّبَ فِي الإِسْلَامِ ، قَالَ : **أُبَايِعُكُمْ عَلَى أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ نِسَاءَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ** . قَالَ : فَأَخَذَ **البراء بن معرور** بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ : نَعَمْ ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَنَمْنَعَنَّكَ مِمَّا نَمْنَعُ مِنْهُ أُزُرَنَا ، فَبَايِعْنَا يَا رَسُولَ اللهِ ، فَنَحْنُ أَهْلُ الْحُرُوبِ وَأَهْلُ الْحَلْقَةِ ، وَرِثْنَاهَا كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ . قَالَ : فَاعْتَرَضَ الْقَوْلَ – وَ**البراء** يُكَلِّمُ رَسُولَ اللهِ ﷺ – **أبو الهيثم بن التيهان** حَلِيفُ **بني عبد الأشهل** ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الرِّجَالِ حِبَالاً ، وَإِنَّا قَاطِعُوهَا – يَعْنِي الْعُهُودَ – فَهَلْ عَسَيْتَ إِنْ نَحْنُ فَعَلْنَا ذَلِكَ ثُمَّ أَظْهَرَكَ

اللهُ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى قَوْمِكَ وَتَدعَنَا ، قَالَ : فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، ثُمَّ قَالَ : **بَلْ الدَّمَ الدَّمَ ، وَالْهَدْمَ الْهَدْمَ ، أَنَا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مِنِّي ، أُحَارِبُ مَنْ حَارَبْتُمْ ، وَأُسَالِمُ مَنْ سَالَمْتُمْ** " [1].

فكيف يكون **العباس** على الكفر ثم يوثق لرسول الله ﷺ مع الأنصار ؟! فهذا دليل على أنه كان على الإسلام ، أو على الأقل كانت عنده ميول إسلامية .

إن منهج السماء جاء ليصحح ما يفهمه البشر في منهج الأرض ، ففي المنهج الأرضي البشري حين يريد الناس أن يختاروا من بينهم أحدًا لأمورهم العظيمة فإنهم يصطفون له الصفوة والوجهاء والأقوياء والأعيان والأغنياء ، أما حسابات ومقاييس منهج السماء فغير ذلك ، غير كل تلك الأوضاع ، بل لقد جاء هذا المنهج السماوي ليهلك أمثال أولئك المغرورين الذين يُغتر بهم ، فكيف يعتز يومًا بأمثالهم ؟!

فلو أن الإسلام حين جاء كانت كل القوى معه لقالوا : إن مبدأه من المبادئ التي يلتف حولها الأقوياء ، فمجال القوة الذي كان لهم في غير الإسلام أصبح لهم في الإسلام ، وبالتالي يسود المبدأ .. ولكنهم يقولون : ﴿ **وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ** ﴾ [2] .

ولذلك فإننا نرد على من يقولون : إن الإسلام انتشر بالقوة ، فنقول لهم : إن الإسلام في بدايته لم يتبعه إلا الضعفاء لا الأقوياء ، ثم إنه لم ينتشر في **مكة** ، بل لقد أعلن الإسلام دعوته في آذان سادات الجزيرة ، ولم يعلن في مكان بعيد عنهم ، وهم الذين كانوا مهابين في شبه الجزيرة ، ولا يستطيع أحد أن يقف أمامهم أو أن يعترضهم .

ولكن الإسلام حين يتحقق له النصر فلا يكون النصر بهؤلاء أبدًا ، بل ينتصر بالمدينة وبين أهلها ؛ لأن القضية التي يريد القرآن أن يؤكدها هي أن الإيمان **بمحمد** هو الذي أوجد

---

1 - أخرجه أحمد في مسنده (31/ 432) .

2 - سورة : هود ، الآية : 27 .

العصبية **لمحمد** ، ولم توجد العصبية **لمحمد** الإيمان **بمحمد** ، فلم يؤمن **بمحمد** من تعصب له ، ولو كان الأمر كذلك لقالوا : هم قوم تعصبوا لواحد منهم لكي يسودوا بـه العالم ، بـل إن قومه لم يؤمنوا به ابـتداءً ، بـل وكانوا ضده ، وانتصر الإسـلام من بـعيد ، فلم ينتصر الإسـلام بالأقوياء ، بل انتصر بأولئك الضعفاء الذين تقووا بالإسـلام ، فكانوا أقـوى وأعظم من أي قـوة ظهرت على وجه الأرض ، وقهروا كل قوة كانت على ظهر هذه البسيطة .

﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ﴾ .. ورد هنا لفظان متقاربـــان في المعنى : ﴿ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ﴾ ، و ﴿ أَوْ يَذَّكَّرُ ﴾ .. فـ ﴿ يَزَّكَّى ﴾ أي : " يتطهر " ، ويـدل هـذا التطهر على وجود أقـذار يجب التطهر منها ، ولا شـك في وجود مثل هذه الأقـذار في ذلك المجتمع الجاهلي ، وربما كان هناك من لم يلتفتوا إلى هذه الأقـذار ولم يرتكبـوها ، فهؤلاء يكفيهم منك التذكرة ؛ لأنهم يريدون طريق الحق ، ولا يشغلون أنفسـهم بعبـادتهم لأصنام لا تضر ولا تنفع ، ومنهم من أراد البحـث عن الحقيقـة ، ومن خلد للتفكير في ذلك ، وما هذه إلا أدلة على قلقهم من تلك الحال ، وإرادتهم لسلوك الطريق الصحيح .

فالناس في الجاهلية كانوا فريقين : فريق به من أوزار الجاهلية ما بـه ، فهذا ﴿ يَزَّكَّى ﴾ ، فيتطهر من تلك الآثام ، وفريق يبحث عن الحقيقة وينتقـد ذلك الواقـع ، وهذا ﴿ يَذَّكَّرُ ﴾ ، وكأن فطرتهم تحتاج إلى تنبيه بسيط .

﴿ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى ﴾ .. وكلمة ﴿ اسْتَغْنَى ﴾ تقتضي مستغنيًا وهو هذا المخاطب ، ومستغنىً عنه ، ومسـتغنىً بـه ، فهو يستغني عن شـيء بشـيء آخر ، فقـد استغنى عن الإيمان بـالله **وبمحمد** ﷺ وعن منهجه الربـاني بمنهج الجاهلية الشـهواني المتمثل في الجاه والسـيطرة والنفوذ والقوة .

﴿ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ﴾ .. وكلمة : ﴿ تَصَدَّى ﴾ فيها الكثير مـن العطـاء القرآني الجميل والمبـدع ، فهي مأخوذة من : " دار صدد دار فلان " .. أي : مقابـلة ، أو من



" الصَّدَى " .. وهو العطش ، أو التلهف على الشيء والصبوة إليه ، أو أنك تتبع حتى صداه ، أي : مردوده .

هذا هو العطاء القرآني ، فالكلمة قد تؤخذ على مناحٍ عدة ، ولكن كلها تخدم المعنى المراد ، وهذه هي عظمة القرآن الكريم .

﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى ﴾ .. فلو أنك تدفع عن نفسك ضررًا بالإقبال عليه لكان ممكنًا ، ولكن الذي بعثك ﷻ هو من قال لك : ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاَغُ ﴾ [1] ، وما دام ليس عليك إلا البلاغ فليس عليك حرج يدفعك للتصدي لأمثال هؤلاء .

﴿ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴾ .. فعرض الحق ﷻ القصة كاملة ، وذكر أبطالها .. وذكر لكل دوره الذي يخصه ، وبعد ذلك قال أولا : ﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى ﴾ ، وذلك بالنسبة لصناديد قريش ، ثم قال : ﴿ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴾ ، وذلك لأولئك المؤمنين الذين يريدون أن يتعلموا هذا الدين .

إذن فالدرس الذي ينبغي أن نتعلمه من توجيه السماء لرسول الله ﷺ في هذا الموقف هو أن الجندي المقبل على الدعوة هو فقط الذي يستحق أن يستقطب دون غيره ، والذي يجب إمداده حتى يكوِّن خلية إيمانية قوية تستطيع أن تكون أسوة سلوكية تُرَغِّب غيرها في الإسلام وتحببهم فيه ، بعكس أولئك الذين امتلأوا بالعنهجية والكبر فإنهم هم المتضررون ؛ ولذلك عرض الله ﷻ تلك القضية فقال ﷻ عنهم : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ ﴾ [2] .

---

1 - سورة : الشورى ، الآية : 48 .

2 - سورة : الحجرات ، الآية : 17 .

كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾

﴿ كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ .. إن دعوتك ومنهجك يا محمد تذكرة ، ومدلول كلمة تذكرة أن هناك شيئًا قد تكون غافلاً عنه ويجب أن تذكره ، ولكنه موجود في طبيعة تكوينك ، ومعنى ذلك أن الفطرة السليمة في النفس البشرية فطرة إيمانية ، وكل ما يكون من انحراف فيها إنما هو نتيجة للبيئة غير الطيبة ، أو للغفلة ، فالفطرة تحتاج لمن يصقلها وينزع عنها غبار الغفلة ، فالذي لم يقعِّد لنفسه قاعدة في الضلال ولم يصنع لنفسه إيديولوجية فيه فيكفيه منك التذكرة .

ويلاحظ هنا أن الضمير جاء مؤنثًا : " إِنَّهَا " ؛ لأن الخبر مؤنث كذلك : " تَذْكِرَةٌ " ، فالعلماء يقولون : إن تأويله : " كلا ، إن القرآن تذكرة " ، فكيف يقول : " إنها " ؟! والجواب : لأن الخبر عندما يكون مؤنثًا فلك أن تُذكِّر مراعاةً للأصل ، أو أن تؤنث مراعاة للخبر .. وقد يكون المعنى هو : " كلا ، إن دعوتك ومهمتك تذكرة " .

﴿ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ ﴾ .. فما دامت هذه التذكرة للتذكير بشيء ، هو أصل ما انطبع في الفطرة البشرية ، والفطرة البشرية مطبوعة على التوحيد منذ العهد الذي أخذ منهم وهم في ظهر أبيهم آدم كالذر .. ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾[1] .. إذن فالذي ينقض عهد

---

1 - سورة : الأعراف ، الآية : 172 ، 173 .

الذر والفطرة السليمة هذه شيئان : الغفلة ، وتقليد الآباء ، أي البيئة التي يتربى فيها أولئك الأبناء .

فالتذكرة لتنبيه الغافل والمقلد الأعمى ، فإذا كان التذكير بعهد الفطرة يكون بالقرآن ، فمنهج الإسلام يطمئننا بأن هذا النهج الذي هو القرآن الذي جاء ليذكرك بعهد الفطرة الأصيل ، وينفض عنك الغفلة ، وينفض عنك تقليد البيئة فيه مواصفات تجعلك تثق ثقة مطلقة بأنه لم يحدث فيه أي تغيير ، وذلك بذاتيته ، وبمكانه ، وبكل ما يتصل به ، فقال : ﴿ كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ * فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ﴾ .. وهذه هي أول وقفة .. ﴿ مَرْفُوعَةٍ ﴾ .. أي لا تتناولها أيدي عابث .. ﴿ مُطَهَّرَةٍ ﴾ .. لا يمسها إلا المطهرون ، كي تعلم مدى الصيانة والحفظ ، فهي مكرمة ، ومرفوعة ليست في المتناول ، ومطهرة لا يمسها إلا مطهر ، ﴿ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴾ .. هم الذين يسفرون بها بين الله وبين خلقه .. ﴿ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ .

فالمذكر بعهد الفطرة له مواصفات متعددة ، مكرم في ذاته ، مرفوع في منزلته ، مصون من أن تمسه أيدٍ ليست طاهرة ، فالذي ينقله من الله إلى خلقه كرام بررة ، فهذه مواصفات تجعلك تطمئن بأن المذكر لك بالعهد الأصيل أو ما يرجع إلى الفطرة موثوق فيه ؛ لأنه جاءك كما هو .. كما صدر عن الله ﷻ ، لم يحدث فيه تغيير ، وهذه مسألة يؤكد عليها القرآن ؛ لأن آفة الديانتين السابقتين للإسلام هو التغيير والتبديل في المنهج والكتاب ، هذا التغيير والتبديل الذي أضاع المنهج من أصحابه بالتحريف تارة والتبديل أخرى والنسيان أيضًا ، فقد لا يكون ذلك عن قصد ، بل نسوا أشياء ، وأما الذي لم ينسوه فقد كتموا بعضه ، والذي لم يكتموه حرفوه ولووا ألسنتهم به ، وليتهم اقتصروا على هذا الحد ! ! بل زادوا أشياء من عند أنفسهم ثم قالوا : هو من عند الله .

و" **السفرة الكرام البررة** " .. إما أن تكون من السفارة العلوية التي هي بين الملائكة وبين سيدنا **محمد** ﷺ ، ثم بين سيدنا **محمد** ﷺ وبيننا ، أو أن الذين سينقلونه إلينا هنا

سينقلونه إلينا بكل أمانة ؛ ولذلك تنظر فتجد دقة في التلاوة ، ودقة في الأحكام ، ودقة في التوثيق .

ولذلك سيظل المنهج محفوظًا بإذن الله كما وعد الحق ﷻ بقوله : ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾[1] ، وبذلك يصبح لا حجة لإنسان في أن لا يؤمن به .

قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾

﴿ **قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ** ﴾ .. وورد التعبير القرآني بكلمة : ﴿ **قُتِلَ الإِنْسَانُ** ﴾ لأن الإنسان أشد ما يدعى عليه به هو القتل لا مجرد الموت ؛ لأن الموت أمر يدرك ، أما القتل فهو أمر مفزع ، فكلنا سنموت ، ولكن ليس كلنا سنقتل .

وكلمة : ﴿ **الإِنْسَانُ** ﴾ تعطيك حيثية ﴿ **قُتِلَ** ﴾ لأن القرآن إذا ذكر كلمة الإنسان في أمر ما فإنه دائمًا ما يأتي الخبر من ناحية الشر .. ﴿ **إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا** ﴾[2] ، ﴿ **وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ** ﴾[3] ، ﴿ **وَيَدْعُ الإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ** ﴾[4] ، ﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ** ﴾[5] ، ﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ**

1 – سورة : الحجر ، الآية : 9 .

2 – سورة : المعارج ، الآية : 19 .

3 – سورة : العصر ، الآية : 1 ، 2 .

4 – سورة : الإسراء ، الآية : 11 .

5 – سورة : البلد ، الآية : 4 .

سَافِلِينَ ﴾[1] ... وهكذا .

ولا ينجو من خبر الشر إلا من استثني ، أي لا بد أن يأتي بعده استثناء .. ﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ ﴾ أي إن ذلك بطبيعته كإنسان دون أن يصونه منهج سماوي لا بد من خسر ، بدليل : ﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلاَّ الْمُصَلِّينَ ﴾[2] .. أي أن الذي يعصم من خبر الشر في الإنسان هو المنهج السليم ، وفي موضع آخر يقول : ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾[3] ، إذن فلن ينجيه من ذلك الشر إلا الإيمان والمنهج ، وإلا فالإنسان لا يختلف عن الحيوان إلا بكونه يمتلك عقلاً يرجح به بين الأشياء ، فإذا تمكنت منه شهوته وليس عنده منهج يروض تلك الشهوانية يصبح مثل الحيوان .

إذًا فالمقصود هنا هو الإنسان الذي أخذ من الحق عطاء الربوبية ولم يأخذ منه عطاء الألوهية ، فعطاء الربوبية ممتد للمؤمن وللكافر ؛ فالله ﷻ هو الخالق لنا جميعا ، لكن عطاء الألوهية لا ينتفع به إلا المؤمن فحسب ، فالمؤمن يأخذ عطاء الربوبية وعطاء الألوهية ، والكافر يأخذ عطاء الربوبية فقط ، فنقول له : كن منطقيًا يا من أخذت عطاء الربوبية ، فما هو عطاء الربوبية ؟! أليس هو أن ينعم عليك بالنعم ؟! إن تلذذك بهذه النعم وانتفاعك بها فرع وجودك ، فالنعمة الأولى والمنة الكبرى هي في الإيجاد من العَدَم ، ثم المنة الثانية هي الرزق والإمداد من العُدْم .

﴿ قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ .. وكلمة : ﴿ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ تُحمَل على أسلوبين ، فقد تحمل على التعجب ، كأن تقول : ما أفصح عمر ! وقد تحمل على السؤال ، أي : ما هو الداعي

1 - سورة : التين ، الآية : 4 ، 5 .

2 - سورة : المعارج ، الآية : 19 - 22 .

3 - سورة : العصر .

الذي دعاه إلى هذا الكفر ؟!

كما جاء في قصة **أبي الأسود الدؤلي** مع ابنته حين نظرت إلى السماء متعجبة ثم قالت لأبيها : ما أحسنُ السماءِ ؟ فقال لها : نجومُها . فقالت : يا أبتِ ما أردت السؤال ، ولكن أردت التعجب . فقال لها : يا بنية فقولي : ما أحسنَ السماءَ ! وافتحي فاكِ .

وهذا هو الفرق بين المحملين في العبارة ، فقد تحمل على التعجب ، والتعجب لا يتأتى إلا من شيء جاء على خلاف ما يقتضيه العقل والمنطق ، فكأن الذي يقتضيه العقل والمنطق أن يكون الإنسان مؤمنًا ، وذلك كقول الحق ﷻ في **سورة البقرة** : ﴿ **كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾[1] ، فكأن كفرهم بالله ﷻ مسألة عجيبة تدعو إلى الدهشة من ذلك الشيء الذي جعلهم يكفرون بالله ﷻ ، وكأن العاقل ليس له سبيل إلى أن يكفر بالله ﷻ ، فأخبرونا كيف كفرتم به ؟! لأن ذلك أمر عجيب ، فكل الأدلة توحي بأن الإنسان يجب أن يرتقي بعقله وبنفسه وبوجدانه وبمشاعره وبأحاسيسه إلى قضية الإيمان ، فحتى لفظ : "**الكفر**" نفسه ، الذي هو ضد الإيمان يوحي إلينا بمعنى الإيمان ؛ لأن معنى الكفر هو : الستر ، والستر يقتضي مستورًا ، فكأن الكفر – وهو الستر – طرأ على شيء موجود ، وكأن أصل الوجود هو الإيمان ، فأصل الفطرة هو أن تؤمن بالله ، فإذا جاء الكفر فقد جاء شيء ستر شيئًا موجودًا ، فكأن الشيء الموجود الواضح كان أولاً ، ثم طرأ منك كفر عليه .

ثم بعد ذلك رد أسباب التعجب من كفره إلى شيء في طبيعة تكوين النفس ، فأنت أيها الإنسان الذي هو ، ولو كان كافرًا " **سيد في هذا الكون** " ، ومعنى " **سيد في هذا الكون** " أن كل أجناس الكون في خدمته .. الحيوانات في خدمته ، والنباتات في خدمة الحيوانات ، ثم تنتهي إلى خدمته ، والجماد في خدمة كل من الحيوان والنبات ، ثم تنتهي إلى خدمته .

إذن فأنت مخدوم بالمباشرة من أشياء ، وبالوسيلة من أشياء أخرى ، فكل أجناس الوجود

---

1 – سورة : البقرة ، الآية : 28 .



تصب في خدمتك ، فإذا كانت هذه الأجناس تصب في خدمتك أنت فمن الذي أعطاك هذه السيادة ؟! هل دخلت هذه الأجناس تحت قدرتك بحيث ترغمها أنت على أن تكون في خدمتك ؟! كلا ، بل إنها خدمتك قبل أن تكون لك قوة ، فإذا علمت أنها قد خدمتك قبل أن تكون لك قوة فيجب عليك أن تلتفت إلى تلك القوة التي هي أقوى منك ومنها ، وسخرتها لخدمتك .

ثم هبَ أن لك قوة على بعض الأشياء التي هي أقل منك قوة ، فهل لك قوة على الأشياء التي ليست في متناولك ؟! هل عندك قدرة على الشمس أو القمر ؟! هل لك قدرة على السحاب أو على الماء ؟! كلا ، فليس لك قدرة على أي شيء من هذه الأشياء ؛ لذلك فإن من واجبك أن تتنبه إلى من أعطاك هذه السيادة ﷻ .

لقد خص هذه السيادة بعنصر تكوينك ، فالشيء يشرف إما بالعنصر المكون منه ، أو بما آل إليه ، فانظر إلى هذه الأشياء الداخلة تحت سيطرتك .. هل ترغمها على الدخول تحت سيطرتك ؟ كلا ، إنك لا ترغمها ولا تستطيع أن ترغمها ، فهل عنصرك هو الذي تحكم في هذه السيطرة ؟! إن هذا العنصر شيء تافه .. ﴿ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴾ [1] ، ثم ما هذا الميكروب الضئيل الذي يحتوي على كل هذه الخصائص ؟! فيوجهك الله ﷻ إلى النظر في بدايات وجودك ، وأنك لم تستفد كل هذه العظمة في الكون ، ولم تستفد هذه السيادة ، ولم تستفد ذلك التكريم من عنصر وجودك ؛ لأن عنصر وجودك شيء تافه .. ﴿ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴾ ، إذًا فمن الذي خلع عليك هذه العظمة ؟ لا شك أنه هو الله ﷻ .

وقد تُحمَل الآية أيضًا على الاستفهام ، وإذا كانت على سبيل الاستفهام فسيكون أيضًا استفهامًا تعجبيًّا ، أي : ما هو السبب في كفر ذلك الإنسان بربه الذي خلقه ؟!

فتدبر بلاغة الأسلوب الذي يعطيك معنى التعجب والاستفهام معًا في عبارة واحدة ، وعلى

---

1 – سورة : السجدة ، الآية : 8 .

أي نحو منهما حملتها يعطيك المعنى الخاص بكلٍ على حدة .

﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ .. ابتدأ من أصل الخلق ، ﴿ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴾ .. وكما هو معلوم أن كلمة : " نطفة " هي الماء الخاص الذي تكون فيه الحيوانات المنوية ، ولم نكن نعرف أن النطفة تعيش في سائل خاص بها ، بعدما كنا نظن أن كل ما يخرج من الرجل هو الحيوانات المنوية التي تعيش في هذا السائل ، حتى جاء القرآن وأخبرنا بهذه الحقيقة حين قال : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ﴾[1] ، والنطفة شيء حقير تافه ، فالذي خلقك من ذلك الشيء التافه ثم أعطاك هذه العظمة التكوينية وأعطاك كذا وكذا ، فهو عندما خلقك قدر لك كل شيء تقديرًا .

كالذي نطالعه في الصحف والأبحاث المختلفة عن علم الوراثة من أن خواص الإنسان تكون في محتوى هذا الميكروب ، فانظر وتدبر عظمة الصنعة التي تتأتى في أمرين متضادين : أن تكون من الضخامة والعظم بحيث لا تدرك ، وأن تكون من الضآلة والصغر بحيث لا تدرك أيضًا ، فهي إما كبيرة جدًّا أو صغيرة جدًّا ، وفي كلتا الحالتين لا تدركان ، ففي التكوين الميكروبي هي دقيقة جدًّا ، حتى أنك قد تتساءل مستغربًا : كيف جاء هذا العالم الكبير وأولئك الناس الكثيرون من تلك النطفة الصغيرة الحقيرة ؟! ثم بعد ذلك تجد كل إنسان له صفاته المختلفة عن غيره ، إنه حقًّا لشيء عجيب ، وذلك من قدرة الله ﷻ الذي قدر كل تلك المخلوقات من خلال ذلك الشيء التافه الدقيق ، وعلى العكس فالسماء والأرض كبيرتان جدًّا بحيث لا أستطيع أبدًا الإحاطة بها .

ولذلك يقول الله ﷻ : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾[2] ، والنكرة ضد المعرفة ، فالمعرفة تفيد تحديد تشخيص الأشياء ، أما النكرة فتفيد العموم والشيوع ،

---

1 - سورة : القيامة ، الآية : 37 .

2 - سورة : غافر ، الآية : 57 .




ويقال أيضًا : إن الشيء قد ينكَّر مرة للتعظيم وقد ينكَّر في مرة أخرى للتحقير ، كما قيل :

له حاجب عن كل أمر يشينه ... وليس له عن طالب العرف حاجب

معناه أنه حاجب عظيم عن أي فحشاء ، وكلمة : " **وليس له عن طالب العرف حاجب** " هنا تفيد العموم ، فالمقصود هو أي حاجب ، والنكرة تأتي مرة للتعظيم ومرة للتحقير ، وتأتي مرة للتقليل ومرة للتكثير ، كأن تقول : إن له غنمًا صالحة ، وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال : هل هذا الإبهام في الجملة يأتي من ناحية البداية أم من ناحية النهاية ؟ فإن كان الإبهام من ناحية البداية فالغنم إذن قليلة ، وإن كان من ناحية النهاية فالغنم كثيرة .. فيصح أن تأتي النكرة للتعظيم وللتحقير ، ويصح أن تأتي للتكثير وللتقليل .

فقول الحق ﷻ : ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ ساعدنا في الجواب ، فمن الجائز أنه لو لم يعلمنا بذلك لما عرفنا أن العملية الجنسية هي السبب في وجودنا ، فلربما لم يخطر ببالنا ذلك ، وربما ذلك لمصاحبة اللذة الذاتية لهذه العملية ، وربما توهمنا أن تلك اللذة الوقتية هي فائدتها فقط ، فنبهنا الله لذلك فقال : ﴿ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴾ ، فكلمة : ﴿ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴾ تدل على أنه مخلوق بتقدير خاص .. تقدير لصفاته ، وتقدير لغرائزه ، وتقدير لعواطفه ، وتقدير للونه ، وتقدير لشكله ، كل هذه المسائل بتقدير من خلال تلك النطفة البسيطة .

﴿ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴾ .. لأنه من الممكن أن يبدأ خلقك ثم بعد ذلك يتركك حرًّا طليقًا تفعل ما تشاء ، ولكنه لم يتركك ، فقد خلقك بقدرته ، ثم أمدَّك بقيوميته ، أي إنك لن تستطيع الاستغناء عنه ، ولذلك فحينما يمتن الله ﷻ على عباده في **سورة الواقعة** فيمتن بالخلق أولاً ، ثم بوسائل البقاء ثانيًا ، مقومات استبقاء الحياة ، ففي **سورة الواقعة** تجدها فصولاً ، فيقول الله ﷻ : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ * أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ * نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لاَ تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ

عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَى فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ * أَفَرَأَيْتُم مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُم تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾[1].

فذكر الإيجاد وذكر ما يهدم الإيجاد : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَا تُمْنُونَ * أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ * نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ .. هذا خلق ، ثم يأتي بعد ذلك الاستبقاء فيقول الله ﷻ : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُم تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴾ .

والمهم أنه لا يجد معارضًا في أي من هذه الدعاوى أبدًا ، والعجيب أنه في الآية الأولى ﴿ مَّا تُمْنُونَ ﴾ ذكر إيجاد الحياة ثم ذكر ما يهدم هذه الحياة ، وهو الموت ، وفي إيجاد الزرع ﴿ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا ﴾ .. وهذا هو ما يحدث كثيرًا ، فهناك أقوام تقوم على الزرع وترعاه حتى يستوي ويعجبهم ، ثم يكون – بقدرة الله – حطامًا ، وفي الماء يقول : ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا ﴾ ، ثم عندما تكلم ﷻ عن النار امتن بها ، ولم يذكر ما يفسدها ، فقال عز من قائل : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴾ ، ولم يقل مثلاً : لو نشاء لجعلناها بردًا ، أو : لو نشاء لأخمدناها .. وذلك حتى تظل دائمًا مذكرة بنار الآخرة ، ومحذرة منها ؛ فلم يذكر ما يفسد

1 – سورة : الواقعة ، الآية : 58 – 74 .



هذه النار ؛ لأنها موصولة إلى يوم القيامة .

وحين قال الحق ﷻ في هذه السورة : ﴿ قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴾ .. فهو لم يتركنا نبحث عن الجواب ؛ لأننا سنعجز عن الجواب ، ولكنه أجاب هو ﷻ بمنه علينا ، ثم بعد ذلك أطلقها إطلاقًا ، ثم يأتي بعد ذلك العلم التشريحي والمعملي فيثبت المسائل كما أخبر بها الحق ﷻ تمامًا .

﴿ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴾ .. ولم يقل الله ﷻ : يسره سبيله ؛ لأن منطق الآية لو كان على الصورة الثانية – وهي التعريف بالإضافة – لكان المعنى أن كل إنسان يمشي في طريقه على حدة ، ولكن يجب أن يعرف الناس أن كلاً ميسر لما خُلِق له ، أي أنك ميسر لأن تقول كلمة : " **لا إله إلا الله** " ، والكافر ميسر لأن يقول : " **لا إله** " فقط .. والعياذ بالله ، فيدك مثلاً تستطيع أن تضرب بها إنسانًا ، وتستطيع أن تقيل بها عثرة إنسان آخر .

فيسر الله ﷻ السبيل على إطلاقه ، فيستطيع أن يكون خيِّرًا ، ويستطيع أن يكون غير ذلك ، فأنت عندما تختار لا تختار شيئًا لم يجعل الله لك فيه صلاحية ، بل خلقك صالحًا لهذا وصالحًا لذلك أيضًا ، وأعطاك المنهج ، وأعطاك الفكرة ؛ كي ترجح أي سبيل تسلكه .

وذلك كي يقطع الطريق أمام أولئك الجبرية الذين يقولون : إن كل شيء نفعله من خير أو شر مكتوب ومحتوم علينا ، ونحن عليه مجبرون ، فلو قال الله ﷻ : " سبيله يسره " لظن المجرم المذنب أن ذلك هو القدر الحتمي عليه ولا يستطيع مغايرته وإصلاحه ، ولكن الله أتى بذلك التيسير على إطلاقه ، فإن أردت أن تتجه إلى سبيل الخير كانت فيك الصلاحية لذلك ، وإن أردت أن تتجه إلى سبيل الشر باختيارك كان لك فيه أيضًا صلاحية ، وما دمت صالحًا لهذا ولذاك فأنت ميسر لما خلقت له ، بدليل أن الفرد العادي قد يتصرف تصرفًا صحيحًا في موقف ما ، ثم بعد ذلك يتصرف تصرفًا سيئًا في موقف آخر .

﴿ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴾ .. يسّرك لما خُلقت له ، فهل تدري لماذا أنت خُلقت ؟ لقد خُلقت

للخلافة في الأرض ، والخلافة منهج من قبيل المنهج العبادي (منهج العبادة) ، تلك هي مهمتك ، وأنت حين تكلف بمهمة فإن الله ﷻ ييسرك لها ، فلا يكلفك الله ﷻ إلا بما يعلم أنه في وسعك ؛ لذلك فيجب عليك أن تنظر إلى التكليف ، لا أن تنظر إلى الوسع ، لا تأخذ من مناط التكليف أولاً ، وإنما خذ التكليف أولاً لتحقق به الوسع ، فما دام الله قد كلفك بشيء فمعنى ذلك أنه بوسعك أن تفعله ، فلتبحث أولاً من زاوية : أكلفني الله ذلك أم لم يكلفني ؟ فإن كان قد كلفك فقد حكم بأن ذلك في وسعك ، فلا تجعل وسعك هو الحَكَم ، ثم ترى أنك غير قادر ، وبالتالي فأنت غير مكلف به ، كلا ، فإن الذي كلفك يعلم جيدًا أن ذلك بوسعك ، بدليل أنه حين يرى أن الشيء الذي تكلف به وأنت في عادة استقامتك وتناسق ملكاتك تقدر عليه فيكلفك ، فإذا اختل فيك شيء أسقط عنك هذا التكليف ، فيأمرك مثلاً بالصلاة ، ثم تسافر ، وفي السفر مشقة ، فيكون الأمر بقصر الصلاة وجمعها .

إذًا فالتكليف هو الأصل ، فإذا ثبت التكليف من الله فإنه بوسعك ، وأنت صالح وميسر لما كلفك الله به ، فإذا ما عرض لك أي ظرف فإنه يخفف عنك ذلك التكليف ، بل قد يسقطه بالكلية ، وما ذاك إلا لأن الحق ﷻ يَعْلمك ويَعْلم ما تقدر عليه أكثر مما تعرف أنت نفسك عن نفسك .. ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾[1] .

﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ .. ومن عجب أننا نلحظ في مادة الموت خاصة من بين سائر مواد اللغة أن الفعل فيها يستعمل لازمًا ومتعديًا ، والفاعل مرة يقع فاعلاً ، ويقع مفعولاً مرة أخرى ، مع أن الفاعل لشيء لا يأتي مفعولاً لنفس ذلك الشيء أبدًا ، فإذا قلنا : مات زيد .. فأين الفاعل ؟ إنه زيد ، وتقول : أمات الله زيدًا ، فماذا يكون زيد هنا ؟ إنه مفعول به ، فزيد جاء مرة فاعلاً ومرة مفعولاً به ، أي أن الفاعل والمفعول قد اتحدا في هذه المادة ، فإن أردته فاعلاً قلت : مات فلان ، وإن أردته مفعولاً قلت : أمات الله فلانًا ، فهي مسألة عجيبة في هذا اللفظ على وجه

1 - سورة : الملك ، الآية : 14 .

الخصوص .

فما هو الموت؟ الموت : هو انعزال عنصر الروح عن عنصر المادة ، ومعنى ذلك أن الزوجية المكونة للحياة قد انفصلت عن بعضها البعض ، فيحدث أن تتوفى النفس .. ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾[1] ، فقبل أن تلتصق الروح بالمادة لا يقال للروح : نفس ، وكذلك المادة بمفردها لا يقال لها : نفس ، إذًا **فالنفس هي المزيج المكون من الروح والمادة** .

وعندما يريد الله أن يتوفى الأنفس فإنه يقبض الروح ، فينحل هذا التركيب ، وما دام قد انحل التركيب وأُخذ عنصر من العنصرين وتُرك الآخر فتحدث الوفاة .

والوفاة تأتي منسوبة مرة إلى الله ﷻ : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾[2] ، وتأتي مرة أخرى منسوبة إلى ملك الموت : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ﴾[3] .. فالفاعل في الأولى كان الله ﷻ ، وفي الثانية ملك الموت ، فالحدث واحد ، لكنه أُسند إلى الله مرة ، وإلى ملك الموت مرة أخرى ، ثم في مرة ثالثة أُسند إلى الملائكة ، وهم جنود ملك الموت : ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾[4] .

وملك الموت مأمور من الله ﷻ ، فمرة ينسب الفعل إلى الآمر به ، وهو الله ﷻ ، ومرة ينسب إلى المنفذ المتلقي لذلك الأمر ، وهو ملك الموت ، ومرة ينسب إلى المنفذ المباشر ، وهم الملائكة الذين هم جنود ملك الموت ، فلكل واحد في الحدث عمل ، فالله هو الذي يقضي أولاً ، ثم بعد ذلك يبلِّغه ملك الموت ، ثم بعد ذلك ينفذه جنود ملك الموت .

وإذا نظرنا إلى تعريف الفاعل عند أهل النحو فإنه : **هو من فعل الفعل أو اتصف به** .. نقول : مات فلان ، فهل هو من فعل الموت ؟ كلا ، ولكنه هو من اتصف بالموت ، فاتصافه

---

1 – سورة : الزمر ، الآية : 42 .

2 – سورة : الزمر ، الآية : 42 .

3 – سورة : السجدة ، الآية : 11 .

4 – سورة : الأنعام ، الآية : 61 .

بـالموت يُسميه فاعلاً ، مع أنه في الواقـع غير فاعل ، إنما في ظاهر اللفظ فهو فاعل ، إذًا فقـد تجوزوا ، فجعلوا الذي وُصف بـالفعل فاعلاً ، مع أنه إذا أردنا أن نجعله فاعلاً حقيقـة فلا نقـول : " مات فلان " ، وإنما نقـول : " انتحـر فلان " ، فيختلف اللفظ تمامًا ، إذا مات أحدهم من غير الأسباب العادية للموت نقول : " قتل فلان فلانًا " .

إذًا فإزالة الحياة لها حالات ثلاث : إما موت ، وإما قـتل ، وإما انتحـار ، **فالانتحـار** هو أن يستعجل الإنسان أجله على الله ﷻ ، هو حـقًّا مات بـأجل ، ولكنه لم يكن يعلم أن أجله الآن ، وفعل فعلاً لم يكن مأمورًا به ، وإذا قتل أحدهم آخر نقـول : " قـتل فلان فلانًا " ، وهو أيضًا استعجل ما ادخره الله في علمه ، أما إذا كان موتًا طبـيعيًّا فنقـول : " مات فلان " ، أو : " أماته الله " ، فهذا الفعل الواحد يأتي له الفاعل ويأتي له المفعول .

﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ .. إن الله ﷻ يذكر هذا الكلام في معرض المن على ذلك الإنسـان الذي يتعجب من كفره حـين يقـول : ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴾ .. هو قـد امتن عليه بـكل ذلك ، فهل الموت من قبـيل الامتنان ؟! نعم ، فقـد يكون لإنسان أو لقوة ما سبب في إيجاد شيء ما ، ولكنه حـين يوجد ينطلق منها ولا تقـدر عليه تلك القـوة ، كأن تهب لأحـدهم نعمة من النعم – وأنت حـر في إعطائك له إياها – فيكفر بـك بـعد ذلك ؛ لعلمه أنك لن تقدر عليه بعدها ، ولكن الله ﷻ يعلمنا أن الأمر معه ليس كذلك ، فليس معنى أنني خلقت فيكم الحياة أن تنطلقوا مني ولا أقدر عليكم بعد ذلك ، كلا ، فأنا سـأميتكم وسترجعون إليَّ مرة أخرى ، فأنا لم أخلقك من نطفة بسـيطة ، وأعطيتك ذلك التكوين العظيم وأنت انفلتَّ من قـــدرتي لتنفد بـــنعمي وينتهي الأمر عند ذلك ، فأنا مثلما وهبـــتك الحياة أستطيع أن أسلبك إياها ، فإن كنت لم تعبدني وتؤمن بي شكرًا على ما فعلت لك ، فاعبـدني وآمن بـي خوفًا ، فمن العجيب أن تكفروا وأنتم غير مدركين لنعمي ، وأنني خلقـتكم من كذا وكذا ويسرتكم السبيل .. فآمنوا بي ؛ لأنكم سترجعون إليَّ مرة ثانية .



﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ .. وكلمة : ﴿ أَقْبَرَهُ ﴾ فيها لون من الامتنان أيضًا ، فنحن نرى جثث الحيوانات أمامنا تملأ الطرقات والشوارع ، لكن الإنسان هو المخلوق المكرم حيًّا وميتًا ، حيث إن جثته تقبر بعد موته ، تكريمًا من الله ﷻ له ؛ حتى لا يكون مُثْلَة ، وأيضًا لأجل أن لا يتأفف الناس من رائحتها ، وحتى لا تكون أكلاً للسباع أو الوحوش أو الطير ، وهذا نوع من التكريم .

ولكن الكائنات الأخرى ليست كالإنسان ، فجثثها ترمى في الطرقات ؛ لأن فيها رزقًا لكائن آخر ، فتأتي كائنات أخرى فتأكلها.

وهذه القضية يشير إليها القرآن في قول الحق ﷻ : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ * فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ * فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾[1] .

فإذا تدبرنا قوله : ﴿ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ .. وجدنا أنه يعطينا سلبية في الدفاع عن النفس ، وكان من المفترض أن يعلمني القرآن كيف أدافع عن نفسي إذا أتى أحدهم ليقتلني ، ولكنه علمنا أن الإيجابية لها شكل آخر ، إن الإيجابية ليست بإظهار حركة عضلية أو انفعالية ، ولكنها قد تكون بترقيق النفس ، كما يقول له هنا : ﴿ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ .. فكأنه يقول له : إن الذي يوقفني عن

---

1 – سورة : المائدة ، الآية : 27 – 31 .

مقاومتك عند مجيئك لتقتلني أني أخاف الله رب العالمين ، فإذا كان هو يخاف الله مع أنه سيقتله دفاعًا عن نفسه حتى لا يُقتل فما هو الحال إذا كان هو البادئ بالقتل ؟! إذًا فهذه ليست إيجابية من نوع عضلي ، وإنما هي إيجابية بترقيق قلب الذي يهدد بالقتل ، ولكي ينبهه قال له : أنا وأنت لنا إله ، وسوف نرجع إليه ؛ ولذلك فإنك لو قتلتني فلن أقتلك ؛ لأنني أخاف الله رب العالمين ، فإذا كان يخاف الله وهو معتدىً عليه وخائف ، فمن باب أولى أن يخاف الآخر من الله ﷻ ؛ لأنه هو المعتدي .

ثم لما قتله جلس أمام جثته لا يعرف ماذا يفعل ؛ لأنها كانت أول حادثة من نوعها على الأرض .. ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ ﴾ .. إذًا فقد علمه حيوان الدفن ، فكأن الحيوان نفسه كان معلِّمًا لقاتل أخيه أن يواري سوأة أخيه .

﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ .. لم يقل الحق ﷻ : " فقبره " ، وإنما قال : ﴿ فَأَقْبَرَهُ ﴾ ، وذلك للفرق الأسلوبي بين : " قبره " و : " أقبره " ، فـ " قبره " للذي يواري بالفعل ، و" أقبره" .. أي علَّم غيره أن يقبره ، أي علَّم الموجودين أن يقبروه .

﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ﴾ .. وكأن عملية القبر هذه أو الإقبار ليست آخرة صلته بالوجود ، وإنما ستكون له عودة إلى وجود آخر .

لكن يلاحظ أنه في الآيات الأولى لم يقدم المشيئة ، ولكنه في هذه الآية قدمها ؛ وذلك لأن الساعة علمها عند الله ﷻ وحده ، فالمشيئة ليست متعلقة بالنشر ، وإنما بتحديد ساعة النشر ، وهذا يدل على مدى الدقة .. ﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ﴾ ؛ لأنه لو قال : " أنشره " مباشرة ، دون أن يقدم المشيئة فمن الممكن حينئذٍ أن يأمل أحد في معرفة وقتها ، ولكنه قدم المشيئة حتى يظل سر الساعة محفوظًا ، لا يأمل أحد في معرفته .

كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾

﴿ كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ .. بعد أن تكلم الحق ﷻ عن هذه المقدمات قال : ﴿ كَلاَّ ﴾ .. وهي كلمة ردع وزجر عن الكفر بعد هذه النعم ، فما كان يصح أن يكفر بعد هذا كله لا رغبًا ولا رهبًا ، فهو ليس بعاقل ، ولا يفعل ما هو في مصلحة نفسه .

﴿ كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ .. ولنتأمل تلك الدقة في الأسلوب ، فلم يقل : " لم يقض ما أمره " ، مع أن " **لم** " نافية ، و " **لما** " أيضًا نافية ، فما الذي جعل الحق يعدل في أسلوبه عن " **لم** " إلى " **لما** " ؟!

وذلك لأن " **لم** " إذا دخلت على الأسلوب فإنها تفيد نفي الفعل في الماضي ، ومن الجائز في وقت الكلام أن يكون النفي قد انتهى ، كأن تقول : " لم يحضر زيد ، ثم حضر " .. أي : لم يحضر في الماضي ، ولكنه حضر الآن ، ولكن : ﴿ لَمَّا يَقْضِ ﴾ دليل على أنه إلى ساعة الكلام ، وإلى ساعة التوبيخ ، وإلى ساعة هذا العرض .. لم يحدث قضاؤه ، فكأن عدم قضائه لما أمره به ربه مستمر أيضًا حتى لم ينقطع النفي ، فإن " لم " ينقطع نفيها ، أما " لما " فلا ينقطع نفيها .

وكذلك توجد في " **لما** " ميزة أخرى ، وهي أنك تستطيع أن تقول : " لم يحضر زيد ، ولن يحضر " .. أي إنها قد تعطي معنى نفي الماضي والمستقبل ، أما " لما " فمن لطف الله ﷻ في

الأسلوب أنها لا تأتي نافية للمستقبل فتقول : " لما يثمر بستاننا وقد أثمرت البساتين " ؛ لذلك فمن يسمع هذه العبارة فقد يعود إلى الحق ﷻ فينزجر وينتهي عن ما يفعله .

﴿ فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴾ .. وبعد أن تكلم عن أصل خلق الإنسان ، وبيَّن أن تكريمه وسيادته ليست من عنصره ، وأن هذا الإنسان لم يؤمن بربه رغبًا أو شكرًا على ما أوجده وزوده في هذا العالم ، ولم يكن رهبًا مما يئول إليه ، لا هذا ولا ذاك ، وهذان هما لونا الإنسان ، فالإنسان لونان : لون يأتي بالرغبة والإقناع ، ولون يأتي بالبطش ، فلم يفد معه البطش ولا الإقناع .

أراد بعد ذلك أن يتكلم عن تقنيات الحياة ، هناك تكلم عن أصل الحياة : ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ ، ثم بعد ذلك أراد أن يتكلم عن مستبقيات تلك الحياة : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴾ .. فهو يريد أن يلفته إلى صفة القدرة أولاً ، وإلى صفة القيومية ثانيًا ، ويقول له : إنه ﷻ قائم على أمرك ، فلقد خلقك وأمدك بالحياة ، ثم أعطاك مقومات استبقاء هذه الحياة .

﴿ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴾ .. كلمة الصب في : ﴿ صَبَبْنَا الْمَاءَ ﴾ تشعر بالتدفق بغزارة وقوة ، فهل هذا يعني أنَّا صببنا الماء صبًّا بالأمطار ؟! ومن أين تأتي تلك الأمطار؟! إنها تأتي من تبخر الماء الذي يوجد في الأرض أصلاً ، ثم يصعد البخار إلى السماء ، أي يتقطر تقطيرًا ، ثم يتبخر ، ثم يصعد ويتجمع سحابًا ، فيصادف المنطقة الباردة فيتقاطر مطرًا بإذن الله ﷻ.

إذًا فالآية تتحدث عن الماء الموجود في الكون أولاً قبل أن يحدث البخر والمطر ، عندما خلق الله الأرض واستخلف فيها الإنسان أعطاه كمية من المياه ، ثم سلكه ينابيع في الأرض ، وجعل له البحار والأنهار والعيون ... إلى آخره ، ثم بعد ذلك فإن عوامل التبخير تتحكم ، ثم يعطينا الله ﷻ المطر ، فكأن كلمة : ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴾ تعطينا العملية الأولى .

﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا ﴾ .. وهذا الكلام واضح ، فهو يعمل بالزراعة ، فهذه النبتة الضئيلة تنبت من الطين ، ومن الممكن أن تكون حاملة لجزء كبير منه ، هذه النبتة إذا



أمسكتها تجدها صغيرة ، فكيف استطاعت هذه النبتة أن تفرع هكذا لولا وجود قيومية تمدها بهذه الحياة ، فإذا نظرنا مثلاً إلى حبة الحلبة نجدها تتعمق في الأرض ، وفي نفس الوقت تنمو لأعلى ، وإذا كانت الأرض جافة ومتشققة فإنها تلفظها إلى الخارج ، فكيف يقوى هذا النبات الضعيف على هذه العملية ؟! إلا بما أودع الله فيه من قوة بقيوميته تعالى .

وكلمة : ﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا ﴾ تدلنا على أن التشقيق أيضًا فيه أشياء ، بدليل أننا عندما نقوم بزرع شيء فلابد من حرث الأرض ؛ كي نجعل الأرض هشة ؛ وتكون هشة حتى يتخللها الهواء ، وأيضًا حتى تنفذ أشعة الشمس إليها ، وإذا لم تحدث هذه العملية فلن تصلح الأرض للزراعة ، إذًا فهذا النبات الذي يتطلب وجود أكسوجين أسفل التربة لنمو جذوره .. يحتاج إلى تربة لها مواصفات خاصة ، فلا هي رملية لا تمسك الماء ، ولا هي طينية سوداء تمسك الماء بشدة لا تسمح بتخلله للنبات ، فالتربة الطينية الملتصقة لا تقبل الماء ، ولا تسمح بدخول الهواء وأشعة الشمس لعدم وجود تشققات بها ، والتربة الرملية مع أنها مخللة وتسمح للعناصر السابقة بالدخول إلا أنها لا تمسك الماء فيها ؛ لذلك فالنبات يحتاج لتربة بين بين ؛ كي تمسك الماء ، ثم نقوم نحن بمساعدة التربة بتخليلها بالحرث ونحوه .

﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا ﴾ .. لحدث يأتي من أعلى ، ولحدث يأتي من أسفل ، والحدث الذي يأتي من أعلى هو أن يدخل فيها الهواء وأشعة الشمس ، والحدث الذي يأتي من أسفل أنها تقوى وتخضر .

﴿ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴾ .. والحب هو كل ما نتغذى به ، فأتى بالحب مثل الأرز والفول وكل ما نعرف من الحبوب ، ثم أتى بالعنب ؛ لأن في العنب خاصيتين : فمن الممكن أن يكون فاكهة ، ومن الممكن أن يكون غذاء لنا ، والقضب هو النباتات التي تؤخذ طرية خضراء ، مثل البقدونس والجرجير ، ثم تنبت مرة أخرى .

﴿ وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً * وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴾ .. وبعد أن أورد هذه النعم من البقوليات وغيرها أتى

بالدهنيات ، فقال : ﴿ وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً ﴾ ، ثم بعد ذلك قال : ﴿ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴾ ؛ لأن كل الأشياء السابقة قد تفيدني في غذائي ، ولكن مقومات الحياة ليست غذاء فقط ، وإنما هناك أشياء أخرى ؛ لذلك قال الحق ﷻ : ﴿ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴾ .. و﴿ غُلْبًا ﴾ جمع أغلب أو غلباء ، والأغلب والغلباء الأصل فيها أنها العنق تنتفخ أوداجه وتشد أعصابه ، وذلك عند غضب الإنسان ، فهو بهذا التعبير يريد أن يعطيني صورة للغابات ، حيث الأشجار الكثيفة الضخمة ؛ لأنني أريد لغير الأكل أخشابًا لأصنع منها أشياء أخرى ، كنول أو محراث أو أسقف بيت أو ما شابه ذلك ، فـ﴿ حَدَائِقَ غُلْبًا ﴾ .. أي كثيفة .

﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ .. الفاكهة نعرفها ، فما الأب ؟!

لسيدنا **أبي بكر** رضي الله عنه قصة مشهورة حين سئل عن الأب ، فقال : " **أي أرض تقلني، وأي سماء تظلني إن قلت في كتاب الله بغير علم؟!** " .. فسيدنا **أبو بكر** رضي الله عنه وقف عند مجرد اللفظ .

وقريب منها قصة لسيدنا **عمر** رضي الله عنه ، حين قال : " **الفاكهة عرفناها ، فما هو الأب؟!** " فهز ربطة كانت معه ، وقال : " **هذا هو التكلف يا ابن أم عمر ، وما عليك إن لم تعرف معنى الأب ؟! شيء امتن به الله على عباده ، وهل كل أجناس النبات تعرف؟!** " .. فما عليك إلا أن تجدها وتتمتع بها ، فهل انتفاعك بالشيء يترتب على معرفتك اسمه ؟!

فسيدنا **عمر** رضي الله عنه ينبهنا بهذه القصة إلى أن لا نتنطع ؛ لأن انتفاعك بالشيء لا يستلزم بالضرورة أن تعرفه ، فهل إذا وجدت فاكهة يأكلها الناس لا أنتفع بها لعدم معرفتي اسمها ؟! فكأنه يقول للناس : إن الذي تعرفونه من كتاب أنتم عاملون به ، والذي لا تعرفونه فخذوه على اعتبار أنه من عظمة الله ﷻ ، ومن خلق الله ﷻ .

وكذلك يدلنا على أن **أبا بكر** رضي الله عنه على جلالة قدره ، **وعمر** رضي الله عنه بسمو منزلته لم يجدا غضاضة ولا خجلاً في أن يمر عليهما لفظ لا يعرفانه ، فهما يُعلِّمان الناس أمانة أداء العلم ،



الخليفة نفسه يعلِّم الناس أمانة أداء العلم ، وهذا ليس فيه أي غضاضة ، فإن الذي يغض من نفس الإنسان ، بل قد يحمله على أن يَكذِب في العلم هو كبرياء ذاته أمام السائل ؛ لذلك فهذا هو السبب في قولهم : **من قال: لا أدري.. فقد أجاب** .. كيف أجاب وقد قال : لا أدري ؟! لقد أجاب فعلاً ؛ لأنه بقوله هذا فقد كلفك بأن تسأل غيره ، أما لو كان أجابك خطأ فكنت ستطمئن إلى أن هذا هو الجواب ، فتضيع الحقيقة منك ، ويضيع منك الصواب ، وليس من العيب أن يُسأل الإنسان عن شيء لا يعرفه فيقول : لا أعرف .

ولقد كان **لسيدنا عمر** ﷺ مواقف كثيرة مثل ذلك ، وهو لا يبالي ، فمثلاً ذات مرة كان يجلس مع القوم فأحدث .. خرج منه ريح ، فلما أرادوا أن يصلُّوا قال : والله هممت أن أصلي ، حياء أن يقال : أحدث أمير المؤمنين وهو جالس في المجلس ، ولكنه ﷺ وجدها كبيرة أن يصلي هكذا ، وتلك هي أمانة الإمامة ، ولكن هناك من يقوم للصلاة وهو محدث خوفًا من أن يقول الناس : إنه أحدث ، مع أن هذا الأمر ليس به أي غضاضة ؛ لأنه أمر طبيعي يحدث لكل الناس ؛ لذلك قام **سيدنا عمر** ﷺ فتوضأ ، ولم يرضَ أن يصلي هكذا ، فالحق أكبر من نفوسنا ، وفضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة .

﴿ مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ .. ﴿ مَتَاعًا لَكُمْ ﴾ أي ذاتية مباشرة ، ﴿ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ أي غير مباشرة ، ولكنها ستئول إليكم أيضًا بطريق غير مباشر ؛ لأن هذه الأنعام متاع لنا أيضًا .

فَإِذَا جَاءَتِ ٱلصَّاخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾

﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴾ .. وتأمل اختيار كلمة : " الصاخة " ، حيث تؤدي إلى إسماع من لم يسمع ، فكلمة : " صاخة " مثل فرقة الحجر التي تكسر الرأس وتُسيل الدماء ، كأن الناس كانوا في حياتهم يسمعون ولا يستمعون ، فيقول : كلا ، فسيأتي صوت يرغمهم أن يستمعوا له ، فقد كانوا يدعون عدم السماع ، ولكن ذلك الصوت " صاخة " .

أفرأيت الأسلوب : ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴾ التي تصخ الأسماع ، فلا تملك أُذن إلا أن تسمع ، لقد كان عندما ينادَى إلى الحق من قبل يدَّعي أنه لم يسمع ، فسيرغم على السماع ، فاللفظ نفسه مخيف ﴿ الصَّاخَّةُ ﴾ ، هي النفخة التي سيحدث بها ثورة الكون ، هي انقلاب في الوجود كله .

﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴾ .. فإن الود والوفاء والمحبة ، وكل هذه العواطف ستنتهي وتزول في ذلك اليوم .

وتأمل الترتيب في الفرار ، فإنه هام جدًّا : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴾ .. فقد يقول قائل : إن هذا الترتيب مخالف للطبيعة ، فلو قيل : يرتبها استعلاء ، يعني : يفر من أخيه ، ومن أمه وأبيه ، ومن صاحبته ، ومن بنيه ..

أو يرتبـها على اعتبـار الأهم فالمهم ، يعني : إنها تأتي طردًا وعكسًا ، كأن يفر أحـدهم من آخر ، فالذي يفر إنما يفر لأنه لا يستطيع أن يفعل شيئًا ، إما لأنه كان قـديمًا يسـتطيع أن يفعل له ، ثم أصبح الآن لا يستطيع ، فيفر منه حـتى لا يحرج ، أو يفر منه لأنه قـد قـصر في حقوقــه ، فهو يخاف ولا يقــدر على مواجهته ، فإذا أتيت إلى المعنى الأول تجد أنها ترتب عكسًا ، وفي المعنى الثاني ترتب طردًا ، كل إنســـان في الوجود يدرك الحياة مع أخ ، وليس المقصود بـه الأخ الصلبي خاصة ، ولكن هو الأخ الذي ارتضيت أخوته ، ومن الممكن أن يموت الفرد أو يموت أبوه ، وهو مازال في بطن أمه ، أو تموت أمه أثناء ولادته ، أو قبـل أن يدرك أن له أمًّا أو أبًا ، إنما قطعًا ما دام له وجود وأصبح مخاطبًا ومكلفًا فله إخوان ، فهذا أمر لابـد من وجوده ، وليس من الضروري أن يكون له سوابـق مع أم وأب ؛ لجواز أنه ربما بـعد نضوجه لا يجد أمًّا ولا أبًا ، كما أنه ليس من الضروري أن يكون لكل واحد صاحبة ، وليس من الضروري أيضًا أن يكون لكل واحد بنون ، ولكن كل واحـد لابـد له من أخ ، وقبـل أن يكون له صاحبـة وبنون يكون له أب وأم ، وحاجته للأم أولية ؛ لأن الإنسان عند ولادته تحتضنه أمه ، وتقـوم بكل ما هو متعلق به في أوليات حـياته ، ولا يتنبـه إلى مهمة أبـيه إلا بـعد أن يكبر ، وذلك من خلال إرجاء الأم لمتطلبـاته المادية حـتى يعود الأب ، إنما الأوليات التي كانت موجودة فهي موكولة للأم ؛ ولذلك فالحق ﷻ حين وصى قال : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ﴾[1] ، فالوصية للاثنين معًا ، ومع ذلك فالحيثيات المذكورة إنما هي للأم ، حـيث قـال : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا ﴾ ، فهذه الحيثيـات لـلأم ، فأيـن هي حيثيات الأب ؟! فأنت حين وُصيت في الاسـتهلال وُصيت بـهما معًا ، فلماذا عند عرض الحيثيات عرضت حيثيات الأم فقط ؟! وذلك لأن حيثيات الأب ليست في حاجة إلى تذكير ؛ لأن الإنســان حــين ينضج يعرف أن مرد كل أموره لأبـــيه ، لكنه لم يكن مدركًا لحنان أمه

1 ـ سورة : الأحقاف ، الآية : 15 .

وعطفها عليه ، فالذي لم يدركه وُجِّه إلى الحيثيات فيه ، والذي أدركه لم يوجه إليه ؛ ولعل هذا هو سبب قول الرسول ﷺ حين سأله أحد الصحابة : من أحق الناس بحسن صحبتي ؟ قال : " **أمك** " قال : ثم من ؟ قال : " **ثم أمك** " قال : ثم من ؟ قال : " **ثم أمك** " قال : ثم من ؟ قال : " **ثم أبوك** " [1]؛ لأنه بعد أن ينضج عقل الإنسان يفهم أنه وأمه تبعًا للأب .

وإذا قيل : فلماذا يفر من أخيه ؟! نقول : لأنه من الممكن أن يخنقه أخوه لو تمكن منه ؛ فقد يكون قد أضله أو أغواه يومًا من الأيام ، أو زين له السوء ، وإما أن يكون من الناحية السلبية قد قصَّر في بعض حقوقه ، وكلا السببين يستلزم الفرار ، وكذلك الأم ، وكذلك الأب ، وكذلك الصاحبة ، وكذلك البنين ، ويفر من الأم والأب لأنه لم يبرهم كما ينبغي ، ولهم عليه حقوق ، ويفر من زوجته لأنه قد يكون أطعمها من حرام وحملها على محرم أو قبيح ، ويفر من بنيه لأنه لم يقم بحسن تربيتهم التربية المرادة ، أو قصر في حقوقهم ، فلهم عليه حقوق لم يؤدها إليهم ، وإلا لو كانوا في مناط المساعدة لما كان الفرار ، فما دام وُجد الفرار فهم في موقف مؤاخذة .

﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ .. أي أن كل واحد منهم مكتفٍ بأمره ، وذاهل عما حوله ، ولذلك فلما قال رسول الله ﷺ : " **يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً** " . قالت **عائشة رضي الله عنها** : يا رسول الله .. النساء والرجال جميعًا ، ينظر بعضهم إلى بعض ؟! قال ﷺ : " **يا عائشة ، الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض** " [2].

وبعد ذلك تأتي النتيجة .. **﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾** .. فكأن الناس قد انقسموا إلى قسمين : القسم الأول : ضاحك مستبشر ؛ لأن هذه هي أولى عتبات الغيب ، فإنه كان يحدث عن ذلك فيؤمن به إيمانًا

---

1 – أخرجه البخاري (5514) ، ومسلم (4621 ، 4622) كلاهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

2 – أخرجه مسلم (5102) .

غيبيًّا ؛ لأن الله قاله ، وقد كان وقتها غيبًا ، واليوم أصبح مشهدًا ، فالذي وافق منهج الله وأطاع يجد ما آمن به حقًّا ، وما قيل له صدقًا ، فيحمد الله أن أنقذه ، ويشكره على توفيقه له ، ويذكر إيمانه ، ويذكر ورعه ، ويذكر متاعب إيمانه فيضحك ويستبشر .

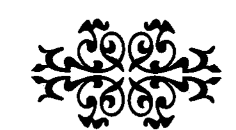
أما القسم الثاني فقد كان يقال له : هناك يوم آخر ، ينادى فيه ويحدث فيه كيت وكيت ، وكان ذلك غيبًا ، فلم يصدقه ، ولكن بمجرد حدوث أولى خطوة من خطوات الغيب وتحوله إلى مشهد تأكد أن كل ما كان يكذب به صحيح ، وأن ما فعله من أعمال سيئة سيحاسب عليها ، فماذا سيكون موقفه ؟! يحدث له انقباض نفسي ، ينطبع على وجهه ساعتها .

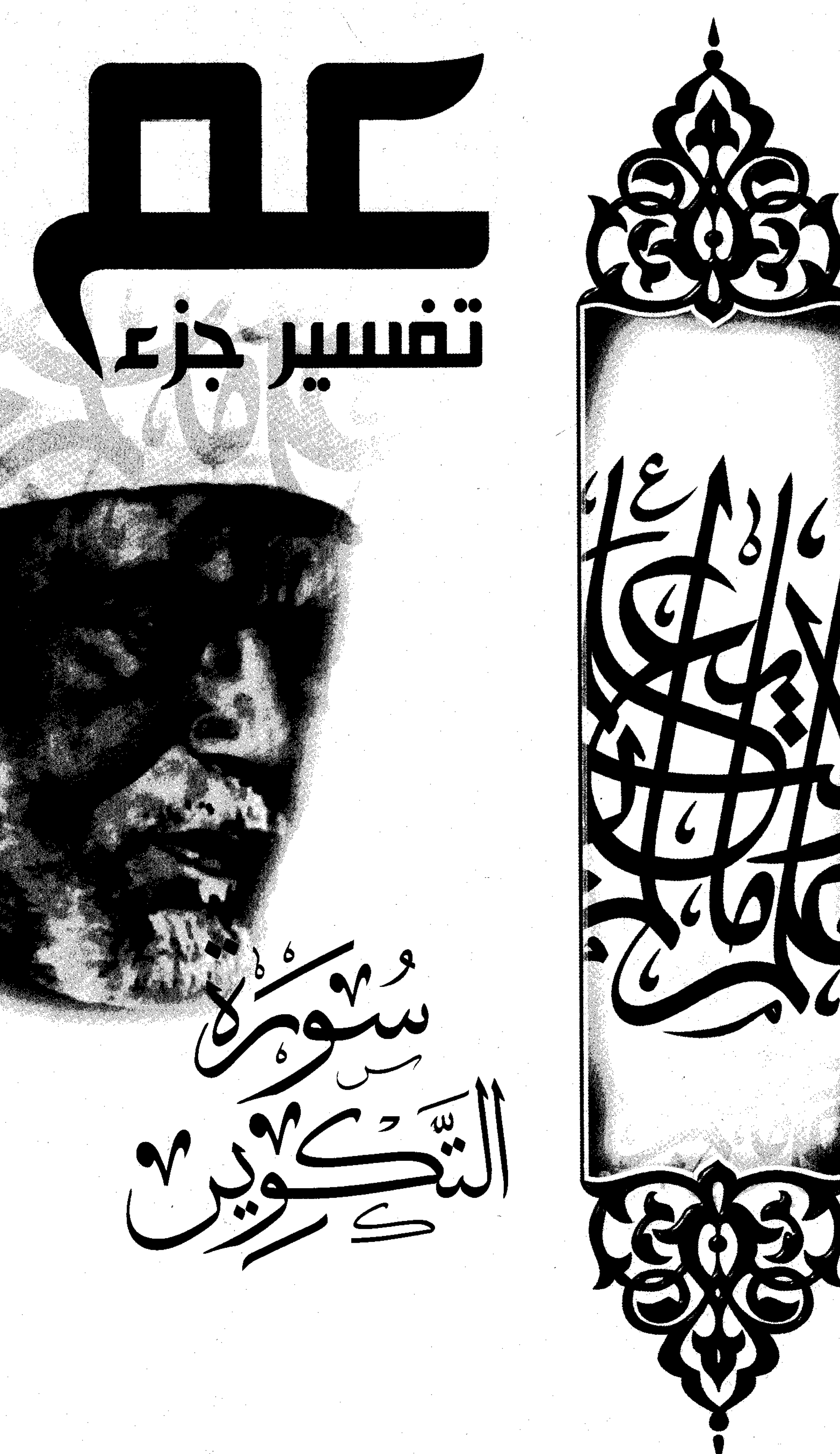
فالوجوه الأولى ابيضت ؛ لأنهم أيقنوا أن ما كان الله يعدهم به حق ، وأن الحياة السابقة تهون متاعبها أمام ما يقدمه الله لهم من نعيم مقيم ، وما دامت هذه أولية النعيم ، وكانت كما قال الله ﷻ ، فالذي سيأتي بعد ذلك سيكون كما قال الله ﷻ ، والوجوه الثانية على العكس من ذلك تمامًا والعياذ بالله .

﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾ .. وبهذا التعقيب ختمت السورة الكريمة .

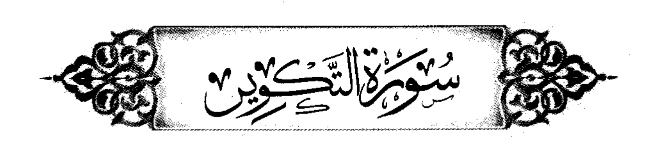
نسأل الله ﷻ أن يعدنا لهذا اليوم ؛ حتى نكون فيه من الضاحكين المستبشرين ، وأن يكفينا شر أنفسنا ، وأن يكفينا شر الشيطان ، وأن يحقق لنا آمالنا أجمعين ..

والحمد لله رب العالمين ..




عم
تفسير جزء
سُورَةُ التَّكوِير





بسم الله الرحمن الرحيم . . أحمدك ربي ، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد رحمة الله للعالمين ، وخاتم الأنبياء والمرسلين ، وبعد . .

نحن الآن مع خواطرنا حول سورة (**التكوير**) ، وسورة (**التكوير**) ككل سور القرآن لها عطاؤها وإيحاؤها الخاص بها ، وإذا ما استعرضنا آيات السورة الكريمة وجدنا أنها تتعلق من ناحية الأغراض بغرض يتعلق بأهوال يوم القيامة ، وغرض آخر يتعلق بالوحي من الله ووسائله ، من رسول مصطفى من الملائكة ، وآخر من البشر ، ثم موقف الناس من ذلك الوحي ، ثم تحقيق قضية تتعلق بمشيئة الله الأعلى .

هذا من ناحية الأغراض التي تتعرض بها السورة ، وأما من ناحية الأسلوب الذي أدى هذه الأغراض .. فإن الأسلوب ينقسم فيها إلى قسمين :

القسم الأول : شرط بأداة التحقيق في الشرط ، وهي " إذا " وجواب يتبع ذلك الشرط .

القسم الثاني : قَسَم ، وجواب يتبع هذا القسم ، ولكن القَسَم جاء على طريقة الإيجاب بنفي القسم ، وبعد ذلك المقسم عليه بأحواله .

إذًا فللسورة أغراض ، وأساليب تحقق هذه الأغراض .

فإذا ما استقبلنا الغرض الأول ، وهو شرح الأهوال التي تتعلق بقيام الساعة ، فإن هذا الشرح يأتي في اثنتي عشرة صورة ، كل صورة منها مقدمة بإذا والشرط في الاثنتي عشرة ، ثم يأتي جواب واحد على كل تلك الصور ، وهو : ﴿ **عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ** ﴾ ..

فإذا ما استقرأت الشرط وجدت قول الله ﷻ :

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ .. ثم عطف على الشرط في قوله تعالى :

﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ * وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ * وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ * وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ * وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ * وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ * وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ ..

فالشرط معطوف عليه باثنتي عشرة صورة ، ولكن جواب الشرط في الجميع واحد .. هو : ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾ ، وهنا نجد أن الشرط بصوره المتعددة الاثنتي عشرة التي تتعلق بأحداث تتعلق بعضها بالسماء ، وبعضها تتعلق بالأرض ، وأخرى تتعلق بالأنعام المستأنسة ، وأحداث تتعلق بالوحوش المتوحشة ، وأحداث تتعلق بالنفس الموءودة ، وأحداث تتعلق بالبحار ، وأحداث تتعلق بالنار ، وأحداث تتعلق بالجنة ، كل ذلك يلاحظ في ذلك الشرط أنه يصور انقلابًا هائلاً للوجود المعتاد والكون الموجود ؛ لأن ما نعلمه واعتدنا عليه أن الشمس تؤدي مهمتها ، والنجوم تؤدي مهمتها ، والبحار كذلك ، ولا نلتفت إلى غير ذلك بسبب الرتابة والتعود .

وعرفنا أن الأنعام التي ننتفع بها وتؤدي مهمتها ، وعرفنا وتعودنا أن الوحوش حينًا تنفر من بعضها ولا تتجمع وحينًا تثبت ، وعرفنا كل تلك الصور المألوفة المعتادة ، والإلف والعادة تقتضي أن الإنسان قد يغفل عن الحدث الكوني ، وأي شيء اعتدت عليه دائمًا ولا تنتبه إلى خطره إلا حين يخرج الشيء عما اعتدت وألفت ، فالإنسان منا له حواسه وله أجهزته المتعددة المعروفة باستقامتها وانسجامها وأداء مهامِّها على الوجه السليم المعافى ، فلا تكاد تشعر بجهد من أجل ذلك ، فأنت ترى بعينيك ، ولكنك لا تشعر بوجودهما دائمًا ، وتشم بأنفك ، وتتكلم بلسانك ، ولا تشعر أو تحس بها بسبب تلك الرتابة والتعود ، رغم ما تؤديه

جميعًا لك من مهام جيدة ومهمة .

فإذا ما حصل للعين آفة ، ابتدأت تنتبه إلى وجود تلك النعمة .

إذًا فلابد من أن ينتبه الإنسان دائمًا إلى وجود نعمة معتادة مألوفة ؛ لأن رتابتها جعلته يفقد الشعور بها .

فوجود الأحداث في ذات النفس ضروري لينبه الإنسان إلى قيمة تلك الحواس فيه ؛ ولذلك تجد غالبًا أن أقرب الناس إلى الله هم أصحاب الابتلاء والآفات ؛ لأنه يشعر دائمًا بقيمة هذا العضو ، وما أصابه من عطب ، فيذكر نعمة الله ﷻ ، ويتذكر الله حين يتذكر نعمة الله فيه ، وحين لا يجد العلاجات يلجأ إلى الله وحده .

وإذا نظرت إلى " كلمة التوجع " التي يقولها الإنسان حين يتألم ، كلمة : " آه " ، تشعر أنها مختزل لكلمة : " الله " ، وكأن معناها أنه يفزع إلى من خلقه وكوَّنه وحده ، وهو الذي وهبه تلك النعم ، وهو وحده الذي يستطيع أن يحفظ له إياها .

تلك الأحداث في الكون ترينا أن الإنسان يفقد الإحساس بالنعمة عندما تكون رتيبة ولا تتغير ، فيظل الناس ينعمون بما تعطي الأمطار من خير ، ولكنهم لا يشعرون بقيمة هذه الأمطار إلا إذا انقطعت عنهم فترة ، وحين تنعدم الأمطار لا يلتفت الناس إلى انعدامها إلا حين يرون آثار منع المطر ، فلا يجدون زرعًا ولا عُشبًا ، وبامتداد الأثر المباشر لهم في أن انعدمت حاجاتهم فيرجعون إلى السماء ويدعون .

إذًا فرتابة النعمة هي التي تُفقد الإنسان الشعور بها ، وهي التي تصيب الإنسان في نفسه أو فيما يحيط به مما ينفعه قيمة مذكرة بالخالق المنعم .

هذه القيمة المذكرة بالخالق المنعم تعطينا فكرة عن أن الوجود في نظامه العام قد تلحظ فيه بعض الشذوذ ، أو الخروج عن المألوف ، مما يعرفك أن هذا الوجود ليس آليًّا .

فالمكونات الفردية للأجناس العامة تنبهك أن وراء الناموس الذي أراده الله يوجد ناموس



أكبر وأقوى .

فمثلا .. يشــذ العقــل الإلكتروني فيقــال : هو لا يُخطئ ، لماذا ؟! لأنه ليس له اختيار ، فكيفما تعده وتبرمجه فإنه لا يخطئ فيما بــرمجته فيه ، لكن العقــل العادي للإنســان قــد يخطئ ، وهذه مزية فيه ، حـيث يسـتطيع أن يفتي في مسـألة ، يسـتطيع أن يجرب ، فهذا دليل على قدرته ؛ لأنه لو كان لا يخطئ أبدًا ، ولو لم يكن مخيرًا ، ولا يستطيع أن يخالف ، لكان آلة جافة جامدة .

إذًا فمخالفته للطبيعة دليل كونيته ودليل حياته .

وكذلك نواميس الوجود .. لو كانت أموره رتيبـة في الكون كنا نقــول : إن هذا الكون يعيش بـصفة القـيومية لله ، وأن الله يطلق القــانون في كونه ، وهو من فوق القــانون قــد يعطل ذلك القانون ، ولكن تأتي هذه الشواذ ، فإذا نظرنا فيها ، وأخذنا منها العبرة وجدنا أن وراء الكون ونواميس الوجود قوة ، إن شاءت جعلتها تؤدي نتائجها ، وإن شاءت عطلتها .

هذه النواميس ، وذلك التعطيل لها يعطينا فوائد ، أولها الفائدة العقــدية ، وهي تثبــيت إيمان المؤمنين ، ولفت انتبــاه الكافرين إلى قــدرة الله ﷻ ، وبــعد ذلك لها فائدة أنها تلفت الإنسان إلى النعمة .

وقد يسأل سائل فيقول: وما ذنب هؤلاء في أن يكونوا وسيلة إيضاح لغيرهم ؟! فنقول له : هو جعلهم وسيلة إيضاح ، ولكنه عوَّض أمام ما أفقده ؛ فتجد كل من أصيب بإعاقة في ناحـية من النواحــي قـد أعطي شـيئًا من المواهب التي تعوضه عن هذه الآفة ؛ ولذلك سمعنا قـديمًا في لغة الناس : " **كل ذي عاهة جبار** " ، وربما كان النقـص في التكوين في ناحـية من النواحــي سببًا من أسباب إيجاد موهبة من نوع آخر .

فمثلا قـد نجد اعتراضًا من الناس الذين لا دين لهم فيقـولون : إن الإنســان أصله حـيوان ، وإن هذا الإنســان قـد تميز بــفكره عن الجنس الذي سبقــه أي : الحيوان ، فلماذا خلق الله



مخلوقًا على صورة إنسان ، ثم بعد ذلك يسلب منه ما يميز هذا الإنسان وهو العقل ؟!

والجواب: لأن هذا العقل الذي هو أداة الإصلاح غالبًا ، يكون كذلك أحيانًا أداة إفساد ، فكما أن العقل يوجه الإنسان إلى الخير ، فإنه قد يمنعه عن الخير .

فإذا سلبه العقل ، وأعطاه شيئًا من صفاته فلا يُسأل عما يفعل ، لا في الدنيا ولا في الآخرة .

فرتابة الأشياء ، واعتياد الإنسان لها هو الذي يفقده الإحساس بها ، فإذا ما فقدها فإنه يشعر بها ، فالكون أمامنا رتيب مستقر ، فكيف نلتفت إلى أن وراء هذا الكون قوة أخرى إلا إذا وجدنا أن ذلك الكون قد خرج عن المألوف ، فيحدث في منطقة من المناطق زلزال مثلاً ، في حين أننا لا نستطيع أن نسجل الزلزال إلا بعد أن يقع ، بل إن بعض الحيوانات قد تتنبه قبل الإنسان إلى حدوث الزلازل ، وهذا الزلزال لم يحدث بقدرة الإنسان ولا غيره من المخلوقات ، بل بقدرة الله ﷻ .

فكل شيء لا يستطيع البشر أن يعرفوه دليلٌ على أن وراء الكون قوة أخرى ؛ ولذلك فعندما يظن الإنسان أنه يستطيع أن يتحكم في شيء من الكون تأتيه الأحداث لتخرج ذلك الكون عن المألوف ؛ حتى تلفت أنظارنا إلى الحق ﷻ .

فالسورة تصور لنا هذه الأشياء التي قد فتن الناس بها وبثباتها ودوامها واستقرارها واستمرارها وأداء مهمتها ، فيأتي عليها يوم تتغير وتتبدل ؛ لأنها مخلوقة يطرأ عليها التغيير ممن خلقها سبحانه وتعالى .

فالمقطع الأول من السورة يحدثنا عن انقلاب هائل في الكون ، يجعل الإنسان يؤمن بأن هذا الكون متغير ، وما دام متغيرًا فهو مخلوق ، فلا دوام ولا استقرار له .

فيكون من النصاحة والوعي والعقل أن لا تتمسك بما يتغير ، وبما لا دوام له ولا استقرار ، بل يكون تعلقك بمن له الدوام والاستمرار سبحانه وتعالى .

إذًا .. فمقدمة السورة تنبهنا إلى أن الأعمال التي يزاولها الإنسان غايات تدفع إلى وسائل ،



والإنسان لا يُقبل على الوسائل بهمة ونشاط وإقبال إلا أن تتضخم في نفسه الغاية ، فربنا سبحانه وتعالى يريد أن ينبهنا إلى أن الذي غايته هي الكون فستصير هذه الغاية إلى زوال ، وتلك الرتابة الموجودة في الكون ، وذلك المألوف كله سيتغير ، فوجب أن تقترن كل حركاتك بمن لا يتغير ، وهو الحق سبحانه وتعالى .

ولنا هنا أن نتساءل تساؤلاً هاما : لماذا يستهل الله تعالى السورة بالغاية ؟! **والجواب** : لكي يُعرِّف الغاية بهذا الهول ، وبهذا الاضطراب ، وبهذا الفزع ، وأن كل ما تظنه أمامك رتيبًا وثابتًا ومستقرًّا سيزول .

خلق المتغير ، وهو الذي لا يتغير سبحانه وتعالى ، وهذا يدفعك إلى التساؤل : إن الذي يغير هذه الأشياء عن رتابتها وعن نظامها .. ماذا يريد مني ؟!

فتكون الغاية قد اتضحت أمامك ، فتطلب الوسيلة عندئذ ، فتقديم الغاية والإشعار بها عن الوسيلة مراد ليوجهك إلى الوسيلة بحرارة وشوق ، وما دمت توجهت إلى الوسيلة بحرارة وشوق ، وأنها هي المنفذ الوحيد لإنقاذك من ذلك الهول ، وتلك الثورة في الوجود ، فيجب أن تقبل على تلك الوسيلة ، التي هي المنهج الإلهي .. منهج ربك سبحانه وتعالى .

وكيف وصل إليك هذا المنهج ؟ لقد وصل إليك بواسطة الوحي ، الوحي من الله تعالى لرسوله من الملائكة عليه السلام ، ثم إلى رسوله من البشر ﷺ ؛ ليبلغه إلى الخلق ، فبعد أن ضخَّم لنا الغاية أعطانا الوسيلة .

ثم بعد ذلك تكلم عن قضيتين اثنتين متعارضتين ، ولكنهما في الواقع متفقتان ، وهما : **مشيئة العبد المختار فيما يختار ، ومشيئة المكوِّن له** سبحانه وتعالى فيختم السورة بقوله تعالى : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ .

إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ﴿١٣﴾ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ ﴿١٤﴾

نعود للحديث عن الشرط وجزئياته ، فالشرط يتكون عادة من مقدمة تأتي أولاً ، ثم نأتي لها بالجواب ، فإذا وُجد الشرط وُجد جواب الشرط ، نعم وجود الجواب متعلق بوجود الشرط ، لكن إذا لاحظت التحقق وجدت أن الشرط نابع من الجواب ، كأن تقول لولدك : إن تذاكر تنجح ، أي لما تذاكر ستنجح ، لكنه لكي يذاكر يجب أن تتضخم مسألة النجاح في نفسه ، فيعرف لها متصورات ، ويعرف لها تبعات ، ويعرف لها ثمارًا .

إذًا فوجود الشرط في الذهن أولاً هو الذي يدفعك إلى إيجاد الجواب في الواقع ، أي أنه هو الذي يدفعك إلى أن تُقبل على الشرط لتحقق الجواب واقعًا ، فكأن الشرط واقع بين جوابين : جواب دافع ، وجواب واقع ، فالنجاح هو الذي يدفع التلميذ إلى أن يذاكر ، ثم بعد أن يذاكر بالفعل يتحقق له ذلك النجاح واقعًا .

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ .. الصور موجودة : تكوير الشمس .. انفجار النجوم .. تسجر البحار .. تعطيل العشار .. سؤال الموءودة .. قرب الجنة .. وغير ذلك ، كل هذه المسائل تصويرية فقط لتقريب الصورة .



فنحن لا نستطيع أن نتصور أي شيء من الأشياء التي تغيب عنا إلا على ضوء ما نحسه .

فعندما يقول ﷻ : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ .. فإن ذلك التعبير ليس فيه ما يدل على أن هذه الصورة ستحدث بالضبط ، وإنما هو يقرب لك الصورة تقريبًا يستوعبه الفهم من تصورات تكويرها ، وماذا يعني بمكورة ؟! فهي في واقعها مكورة .

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ .. وقد يقول قائل : هي بالفعل مكورة ، فكيف ستكور يومئذٍ ؟!

نقول له : هل يصلك التكوير ، أم أثر ذلك التكوير وما ينبعث منه من أشعة ؟ ولكن عندما تحجب أشعتها فلن تراها ، إذًا فأشعة الشمس منبسطة في الوجود ، ولكن هذه الأشعة ستنقبض يومًا ما ، ولن تراها .

إذًا فهناك شيء تأتي مهمته بالبسط ، فإذا انتهت مهمته جمعته وطويته ، وآخر تأتي مهمته بالطي ، فإذا انتهت مهمته بسط .

فالمعنى في الآية أن الشمس انتهت مهمتها في ذلك الوجود ؛ ولذلك طويت أشعتها .

﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴾ .. ومعنى الانكدار : هو الانصباب ، فالنجوم موجودة ، ومهمتها تتأتى وهي في وجودها ، فإذا ما هوت انتهت مهمتها .

﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ .. تلك الجبال الثابتة الراسية التي تتحكم في استقرار الأرض فلا يحدث فيها اضطراب أو اهتزاز ، تلك الجبال ستزول أيضًا هي الأخرى ، حتى كأنها سراب ، كما في قول الحق ﷻ : ﴿ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾[1] .

﴿ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾ .. وهنا نجد أن القرآن يأتي بكل الاستعمالات اللغوية ، وهو يستعمل أنسب معنى لغوي يؤدي هذا المفهوم .

العشار : هي النياق الحوامل ، ومفردها : عُشَراء ، والعشراء هي التي مر على حملها عشرة أشهر ، أي قاربت أن تلد ، فبعد أن كانت واحدة ستصبح اثنتين ، ثم بعد ذلك يأتي

---

1 – سورة : النبأ ، الآية : 20 .

منها اللبن ، وأهم شيء عند البدوي أن تأتيه الناقة باللبن الذي يكون منه غذاؤه ، وتلك هي أمتع أموال العرب .. العشار .

فهذه العشار لا يصبح لها قيمة يوم القيامة ، رغم قيمتها بالنسبة لذلك العربي .

﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ .. ومعنى : " حشرت " أي : جمعت ، والوحوش هي الأنعام غير المستأنسة ، وهي لا تقبل أي مخلوق أن يجتمع مع ذوات جنسها .

وهذه الوحوش رغم توحشها وخطرها إلا أن الله ﷻ ذللها ، وجعل لها ما تُقاد به ، فالحق ﷻ هو الذي خلقها ، وهو الذي ذللها ، بدليل أنه ترك بعض الحيوانات الضعيفة عن تلك التي استأنستها ، وأنت لا تستطيع أن تستأنسها ، وهذا هو الامتنان الذي امتن الله به على عباده في قوله ﷻ : ﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ ﴾[1] .

وهو يلفتنا إلى أن القوة التي ذللت هي الأكبر ، والتي لم تذلل هي الأقل .. ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴾[2] .

والتعبير بكلمة : ﴿ حُشِرَتْ ﴾ يشعرنا أنها في طبيعة تكوينها لم تكن محشورة ، فالوحوش لا تجتمع بجميع أنواعها واختلاف أجناسها ؛ لأنها نافرة من بعضها ، وكذلك نحن ننفر ونخاف منها ، وهي دائما تهاجم فرائسها ، وتخاف بعضها البعض ؛ لأنها – مع أنها متوحشة – إلا أن هناك وحش يفترس آخر ، وهذا يفترس ذاك ، وهكذا ، فيخاف أحدهم من الآخر ، وكل وحش له وسيلة الدفاع التي يدافع بها عن نفسه ، فإذا صادف القويُّ الضعيفَ افترسه .

هذه الوحوش التي هذه هي صفاتها .. نجدها في ذلك اليوم قد جُمعت كلها ، بل ومذهولة أيضًا ، فكأن الهول والفزع الذي سيصيب الكون سيعم الجميع ، حتى تلك الوحوش

---

1 – سورة : يس ، الآية : 72 .

2 – سورة : يس ، الآية : 71 .

المتوحشة النافرة .

﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ .. بمعنى : **اتقــدت ، وصارت نارًا** ، و ﴿ سُجِّرَتْ ﴾ بمعنى : **امتلأت** ، و ﴿ سُجِّرَتْ ﴾ بمعنى : **حُفظت من أن هيج وتضطرب** ، ثلاثة معانٍ في اللغة ، فأي معنى من هذه المعاني يقصده الحق ﷻ ؟!

إن إطلاق اللفظ يشتمل على كل هذه المعاني ، وهذا يعطينا الفائدة ، وهي زوايا متعددة من المعاني .

فستكون البحار كلها نارًا ، فهو يقرب لنا الصورة ، **وسجرت التنور** أي : ملأته بالحطب ، **وسجرت** بمعنى : منعت من أن تضطرب وتهيج ، فيكون أي معنى من هذه المعاني يمكن أن يذهب إليه الذهن ، والمراد أنها ستخرج عما ألفتم واعتدتم إلى أمر لم تعتادوه ولم تألفوه ، أمر مهول مفزع ، وهذا هو المعنى النهائي المراد .

﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ ..

ماهي النفس ؟ النفس : هي كلمة لم يستطع الفلاسفة من قديم أن يحددوا معناها ، فتخبطوا فيها ، فمرة يقولون : هي الروح ، ومرة يقولون كلامًا آخر بعيدًا عن معناها ، فلم يستطع أن يأتي بتحديد لها إلا القرآن .

فكلمة **نفس** تطلق على امتزاج الروح بالمادة ،فقبل أن يمتزج عنصر الروح بالمادة لا يكون هناك نفس ، فالروح وحدها لا تكون نفسًا والمادة وحدها لا تكون نفسًا ؛ ولذلك فإن الحق ﷻ حين أراد أن يعبر عن سلب الحياة عن أي إنسان قال: ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾[1]، ومعنى : " **يتوفاها** " أي : يفصل روحها عن جسدها ، ومن هنا نفهم معنى الأنفس ، فمدلول النفس : هو امتزاج الروح والجسد معًا .

فما دام هذا هو مدلول النفس ، فكيف يقال : ﴿ زُوِّجَتْ ﴾ ؟! يقول بعض العلماء : إن

1 – سورة : الزمر ، الآية : 42 .

معنى : ﴿ زُوِّجَتْ ﴾ أي : التقت الروح بالجسد يوم القيامة مرة أخرى ، بعد أن كانا قد افترقا في الدنيا ، فجمع الشيء إلى الشيء يسمى تزويجاً ، زوج المادة بالروح فعادت إليها مرة أخرى .

وهناك معنى آخر لقول الحق ﷻ : ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ .. أي : أن خلق الله أصبحوا أزواجًا ، أي : أصنافًا ، فالمتقون في الدرجة الأولى وحدهم ، والمتقون في الدرجة الثانية وحدهم ، والمتقون في الدرجة الثالثة وحدهم ، وأهل الشمال وحدهم كلٌّ في درجة .. وهكذا .

وهذا هو ما جاء في **سورة الواقعة** ، حيث قال الله ﷻ : ﴿ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴾ أي : أصنافًا ثلاثة .. ﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ .. ثم بعد ذلك : ﴿ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴾ [1] .

فـ : ﴿ زُوِّجَتْ ﴾ يعني وُزعت أصنافًا ، أو أنها في ساعة الحشر تأتي كل فرقة بإمامها ، كما قال الله ﷻ : ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾ [2] .

وقد يكون معنى : ﴿ زُوِّجَتْ ﴾ أي : قرنت بعملها ، فهناك أشياء كثيرة تصير إلى الفناء والزوال ، وهناك أشياء قليلة تدوم بعض الدوام ، ومعنى ذلك أن هذه الأشياء التي تزول تفارقني لأني أفارقها ، أما تلك التي تدوم فهي لا تفارقني ولا أفارقها ، فاقتراني بعملي في الدنيا ليس طبيعيًّا ، والإنسان قد يعمل العمل في الدنيا ويظن أنه قد انتهى ، أي : يذنب ذنبًا ويظن أن هذا الذنب قد انتهى وفارقه بعد أن فعله ، أو يعمل خيرًا ويظن أن ذلك الخير قد انتهى .

---

1 - سورة : الواقعة ، الآية : 7 - 14 .

2 - سورة : الإسراء ، الآية : 71 .

فـ ﴿ زُوِّجَتْ ﴾ أي : قرنت بـأعمالها ، فالذي كنت تهرب منه ، أو كنت قـد نسـيته ستجده أمامك .

﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ .. وهل تُسأل الموءودة ؟! أم أن وائدها هو الذي يُسأل ؟! تلك هي عظمة القرآن في العطاء اللغوي .

﴿ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ .. وهذا التعبير الرائع بـأن وأد البـنات عملية فظيعة جدًا ؛ لأنها اعتداء على جزء منك كنت أنت سبـبًا في إيجاده ، ومن مثله أنت وُجدت ، ومن مثله تطلب الكون نظامه ، والدليل على قسوة القـلب وقسـوة العاطفة ، أن السبـب في مجيئها هو نفسـه السبب في ذهابها .

أنت أقدمت على هذه العملية إقدامًا يخالف منطق العقل والوجدان وكل منطق ، فلابـد أن يكون هناك سبب قد دعاك إلى تلك الفعلة المشينة .

فالله ﷻ يسـأل تلك الموءودة : ماذا فعلتِ لكي يقـتلك أبـوك وأنت في هذا السـن ؟! فهذا السـؤال وإن كان موجهًا إلى الموءودة إلا أنه تقـريع للأب ، كما يسـأل الله ﷻ يوم القـيامة **عيسى ابن مريم** عليه السلام ، ولكن يكون هذا السؤال موجهًا إلى أولئك الذين ادعوا في **عيسى** أنه إله أو ابـن إله ، فيقـول له : ﴿ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾[1] .

فكأن قـوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴾ أي : أخبريني أي ذنب فعلتِه حـتى يئدك أبـوك ، فكأن هذا تقـريع للأب ، بـأنه ما كان يصح أن يعتدي عليها أبـدًا إلا إذا كانت قـد ارتكبت ذنبًا ، وحـيث لا ذنب ، فمعنى ذلك أنك قـد افتريت عليها بـدون ذنب تستحقـه ، فهذا تقريع على أعنف صور التقريع .

﴿ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾ .. ومعنى : ﴿ نُشِرَتْ ﴾ أنها كانت مطوية ، وهذا النشـر له

---

1 – سورة : المائدة ، الآية : 116 .

صُوَر ، لقد نشرت الصحف ليأخذ كل واحد صحيفته ، كأن صور الأعمال في الأرشيف ، ثم تأتي الريح وتبعثر ذلك الورق ، فتذهب كل صحفية إلى صاحبها لا تخطئه .. ﴿ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾[1] .

ولذلك يقول الله ﷻ : ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[2] .

﴿ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴾ .. حتى تلك السماء التي لا نعرف عنها إلا أنها شيء نراه فوقنا فحسب ، تلك السماء سوف نجدها غير موجودة ، وهذا أمر مفزع جدًّا ، فالشمس والنجوم والبحار والسماء .. كلها ستتغير وتتبدل .

﴿ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ * وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴾ ..

إذًا فتحدث أولاً عملية هول تفزع الناس جميعًا ، ثم بعد ذلك ينتهي الهول في الصورة بأن ترى الناس عيانًا بيانًا ويقينًا أمام أعينها ، وهذا هو معنى قول الحق ﷻ : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ * كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾[3] .. شاهده كان خبرًا سمعته ، فكان علم يقين ، فصار الآن عندك عين يقين .

فبعد أن كان صورة ذهنية ، وهي علم اليقين ، أصبحت صورة حسية تراها بعينك ، وهي عين اليقين ، ثم الصورة الثالثة والأخيرة ، والتي ليس فيها جدال ، وهي حق اليقين .

كما في قول الحق ﷻ : ﴿ فَلَوْلاَ إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ *

---

1 – سورة : الإسراء ، الآية : 14 .

2 – سورة : الكهف ، الآية : 49 .

3 – سورة : التكاثر ، الآية : 1 – 7 .

فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴾[1].

ففي قـول الحق ﷻ : ﴿ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ * وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ ﴾ .. كان القياس اللغوي يقتضي أن يكون الجواب هو : " علمت نفس ما أحضر لها " ، إنما قال : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ ﴾ ، وكأن النفس هي التي أحضرت ، فهي لم يُحضر لها شيء ، وإنما هي التي فعلت ، ولو لم تفعل لما أحضرت ، فكأن هذه النفس هي أساس عملية الإحضار .

فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ﴿٢٥﴾

تنتقل السورة بعد ذلك إلى الغرض الثاني ، وذلك بعد تضخيم الغاية بهذا التضخيم والتخويف ، ذلك الغرض هو أن لا تغتروا بثبات هذا الوجود أمامكم ، ولا برتابة هذه الموجودات ، فسوف يأتي عليها يوم لا تكون شيئًا ، وسيحدث ثورة في الكون ، وانقلاب في الوجود ، وفي كل شيء ألفتموه .

1 - سورة : الواقعة ، الآية : 86 - 95 .

فبذلك يكون قد ضخم لنا تلك الغاية ، ونبهنا إلى أن نستعد لهذه الغاية بالوسيلة المناسبة .

فما هي تلك الوسيلة ؟!

إنها منهج الله ﷻ .

وهذا المنهج العظيم .. كيف وصل إلينا ؟!

لقد وصل إلينا عن طريق الوحي .

وما هي مراحل ذلك الوحي ودرجاته ؟!

إنها عبارة عن مصطفى من الملائكة يأخذ من الله ليعطي مصطفى من البشر ، وهذا المصطفى من البشر يبلغنا بمراد الله ﷻ منا ، إذن فكان ولابد أن يعالج الأمر بتلك الصورة .

هذه هي القضية باختصار ..

فإذا أردنا أن نتكلم عن تلك الوسيلة بشيء من التفصيل فنقول : **الوسيلة** : هي أن يتبع الإنسان منهج الله ، ومنهج الله لا يمكن للعقل أن يبتكره ، فقصارى ما يفهمه العقل من قضية العقيدة هو أن يؤمن بوجود قوة عُليا وراء ذلك الكون ، أما اسم تلك القوة فالعقل لا يعرفها ، وكذلك مطلوبات هذه القوة لا يعرفها العقل ، والغاية التي تنشأ من مخالفتها كذلك لا يعرفها ، والغاية التي تنشأ من طاعتها لا يعرفها العقل أيضًا .

فمنتهى قدرات العقل هي أن يؤمن إيمان القمة بوجود قوة وراء ذلك الكون ، وهذه القوة هي التي تعبر عن نفسها ، فتقول : اسمي كذا ، ومطلوبي كذا ، ومن أطاعني فله كذا ، ومن عصاني فعليه كذا ، فلابد إذًا أن يوجد تبليغ .

فحتى ينجح المنهج أو الوسيلة في تلك الغاية فلابد أن يكون صادرًا عن الحق سبحانه وتعالى ، فنجد أن الحق سبحانه وتعالى يوثق لنا المنهج الذي ينظم حركة حياتنا .

فإن كنت قد آمنت بوجود الله ﷻ ، وبأن الله سبحانه وتعالى هو الذي صنعك وخلقك ، وهو الذي سيضع لك قانون صيانتك ؛ لتكون صائرًا إلى غاية تحبها وتحمدها ، فلابد من أن تأخذ ذلك



المنهج من الله ﷻ ، وهذا أمر مفروغ منه ، فهذا المنهج لابد من أن يكون من الله ﷻ .

إذًا فما هي الآفات التي قد تطرأ على هذا المنهج ؟!..

من أخطر ما يطرأ من آفات على ذلك المنهج هو أن يقـــنن الخلق للخلق ، فالخلق جميعًا متساوون في كل شيء ، فما الذي يجعل واحدًا من الخلق أهلاً لأن يقنن لبقية الخلق ؟!

فالذي يقـنن لحركة شـيء يجب أن تتوافر فيه خصال ، وهي : أن يكون عالمًا بـها ، وأن يكون حـكيمًا ، وأن يكون لا هوى له ولا منفعة فيما يقـنن ، وإلا فإن أي إنسـان من البشـر إذا قنَّن فلابد أن يكون له هوى في نفسه يسبق تقنيناته بما يجعلها مجنحة إلى صالحه ، وهذا أمر لا يتأتى في الحق ﷻ .

فكيف وصل إلينا إذًا هذا المنهج من الحق ﷻ ؟!..

إن الحق ﷻ لن يخاطب كل فرد خطابًا مفردًا خاصًّا بـه ؛ لذلك فإن الخبر يجب أن يأتينا منه بواسطة ، هذه الواسطة هي التي تقوم بـعمليات التوالي التي تعطي من الأقـوى إلى القـوي إلى الأقـل قـوة ، فوسـائل المنهج من الله هي رسـول مصطفى من البشـر ، يتلقـى عن رســول مصطفى من الملائكة ، كما قـال ﷻ : ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ ﴾[1] ..

أي : قـمة مصطفاة من البشـر تتلقـى عن قـمة مصطفاة من الملائكة ، وهذه القـمة المصطفاة من الملائكة تتلقى عن الحق ﷻ .

فالحق يريد أن يقول : إن المنهج الذي يحقق لك الغاية التي تقدمت في أول السورة ، وسبق الكلام عنها لا يتأتى إلا بـذلك المنهج ، من المنهج تطمئن إلى منهج دينك ، وتطمئن إلى منهج إسلامك ؛ لأن مبلغه مصطفى من الملائكة وصفته كذا وكذا ، إلى مصطفى من البشـر وصفته كذا وكذا ، وهذا المصطفى من البشـر نعرفه ، ونعرف طفولته ، ونعرف طبـاعه وصفاته ، ونعرف حـياته كلها ؛ فلذلك لم يطنب الحق ﷻ في بـيان صفته ﷺ ، فقـال ﷻ : ﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ

---

1 - سورة : الحج ، الآية : 75 .

بِمَجْنُونٍ ﴾ ، وكلمة : " صاحبكم " أي : من تعرفونه جيدًا من قبل أن يؤدي هذا المنهج إليكم ، عرفتموه أمينًا ، عرفتموه حكيمًا ، عرفتموه عاقلاً ، أي : لم آت إليكم برسول من جهة أخرى بعيدة عنكم ، بل هو منكم ؛ وهذا هو معنى قول الحق ﷻ : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾[1] .

ولكن **جبريل** عليه السلام المصطفى من الملائكة غائب عنا ؛ فلذلك أطنب الحق ﷻ في وصف ذلك المصطفى من الملائكة .

فإن آفة المناهج التي سبقت الإسلام أنها فسدت بالتناولات ، فسدت من جهة المبلغين عن هؤلاء الرسل المصطفين من الله ﷻ ، فحرَّفوا ، ولووا ألسنتهم ، وكتموا ، وزادوا ، وفعلوا كل شيء ، فالله ﷻ يريد أن يبين أن منهج الإسلام مخالف لكل هذه المناهج قبلنا ، فهو منهج موثق تمام التوثيق ، فصاحبكم **محمد** ﷺ أنتم تعرفونه جيدًا ، وخبرتموه :

لَقَّبتُموه أَمينَ القَومِ في صِغَرٍ   وَما الأَمينُ عَلى قَولٍ بِمُتَّهَمِ

خاصة وأنكم حتى بعد ما أخبركم بهذه الرسالة ، وكان بعضكم لا يزال كافرًا ، فكان لا يأتمن على ودائعه النفيسة إلا هذا الرجل ﷺ ، أليست هذه شهادة منكم لأمانته ؟!

وأما الذي لا تعرفونه وهو **جبريل** عليه السلام فوقِّر بحيثيات ، هذا هو الغرض ، فالغرض هو الوسيلة للغاية ، والوسيلة للغاية إنما هو المنهج ، والمنهج يحتاج إلى نقل ، والنقل يحتاج إلى مصطفى من البشر ، ومصطفى من الملائكة .

فتكلم الحق ﷻ عن هذا الغرض في القسم الثاني من السورة ، وعالجه بأسلوب القسم ، فعالج الغرض الأول بأسلوب الشرط والجواب ، وهذا عالجه بأسلوب القسم ؛ لأن القسم هو غاية البرهان .

فيقول الحق ﷻ : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ * وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ *

---

1 ـ سورة : التوبة ، الآية : 128 .

وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ على أي شيء يقسم ؟! ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ وهذا هو ما يتعلق بالمصطفى من الملائكة ، وهو جبريل عليه السلام ، ذلك الغائب عنا ، ثم عن النبي ﷺ يقول : ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴾ ثم يثبت الالتقاء بين المصطفى من البشر وبين المصطفى من الملائكة ، فيقول : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ ، ثم يسد عليهم جميع الأبواب : ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ .. كل المنافذ مغلقة عليكم .. ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ ، فلا مذهب إلا أن نلتقي بذلك المنهج ، بواسطة ذلك الرسول .

﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ﴾ .. وجاء القسم هنا على طريقة النفي ، وظاهر هذا القسم أنه لم يقسم ، ولكنه لو لم يكن قد أقسم لما أتى بجواب للقسم ، ولكنه أتى بالجواب فقال : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ .. فهذا هو جواب القسم ، فكيف يكون جواب قسم مع قوله تعالى : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ﴾ ؟!

لابد أن نعلم أن القسم بكلمة : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ﴾ آكد من قسم الإثبات ؛ لأنك حين تقسم بشيء على شيء فقد يكون عند المخاطب شبهة شك ؛ لأنك تؤكد له بالقسم ، والاعتراف بالشك يجعلك تؤكد ، لكن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يقول : إذا كان من يقسم على شيء يقسم لوجود شبهة فيه ، فهذا أمر لا يصح أن نقسم عليه ؛ لأنه من الوضوح بحيث لا يصح أن يتأتى فيه شك .

ومثل ذلك كمثل المريض يذهب للطبيب ، فالطبيب الذي يريد أن يؤكد له أنه بكامل صحته هل يصف له الدواء ؟! أم يقول له : أنت لا تستحق أن أكتب لك دواءً ، ومعنى أنه لا يستحق أن يكتب له دواء هو إزاحة ما بنفسه من شبهة المرض ، ولكن إذا كتب له دواء حتى وإن كان قليلاً يكون قد أكد على ما في نفسه من شبهة المرض ، فهذا آكد له أنه في منتهى الصحة .

وكذلك الحق ﷻ حين يقول : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴾ ، بدليل أنه ذكر المقسم به ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ﴾ ، أي : لو كنت مقسمًا لأقسمت : ﴿ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ * وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ .

إذًا فالقسم مؤداه كله أن يثبت صدق التبليغ عن الله ﷻ ، وأمانة الوسائط التي توسطت بيننا وبين الله ﷻ في نقل ذلك العهد ، وهو المصطفى من الملائكة والمصطفى من البشر ، وتقوم العلاقة بين تنسيق هذا الطريق إلينا وبين القَسَم .

﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ﴾ .. **والخنس** : هي الكواكب أو النجوم ، تطلع من أماكنها في أبراجها ، فتطلع من الأول ثم ترجع إلى الآخر ، ثم تعود إلى أبراجها ، فمعنى : (**خنس**) أي : خرج ورجع .

﴿ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴾ .. **والكنس** : مأخوذة من : **كناس الظبي** وهو مأوى الظبي .

فلو أننا استطعنا أن نعرف أن أوقات رؤيتنا لهذه الكواكب والنجوم التي يقسم ربنا علينا بها ليست مستمرة ، نعم وجودها مستمر ، ولكن أوقات رؤيتنا لها ليست مستمرة ، فمثلاً لما تطلع الشمس لا نرى النجوم أبدًا ، لكن لما تغيب الشمس نستطيع رؤية تلك النجوم ، ونستطيع أن نرصدها .

إذن فسبب عدم ظهور النجوم في النهار هو وجود ضوء أقوى من ضوئها ، ذلك الضوء الأقوى جعل أعيننا لا تستطيع أن ترى تلك النجوم ، كما قيل : " **ومن شدة الوضوح الخفاء** " ، وكما قيل : " **بضدها تتميز الأشياء** " .

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ ..

إن الرسالات التي سبقت الإسلام ظهرت جميعها ثم اختفت ، ولما اختفت وانطمست معالمها طمَّت الجهالة في الدنيا كلها ، فكأن الليل قد أصبح ثابتًا ؛ لذلك كان لابد من نهار يأتي ليذهب بهذا الليل .

وكلمة : ﴿ عَسْعَسَ ﴾ في اللغة كلمة معبرة ؛ لأنها تتكون من مقطعين ، هما : " **عس عس** " العين والسين والعين والسين ، ومعني : "**عس**" أي : سار في الظلام ، ومنه : " **العسس** " أي : الذي يعس في الظلام ، ليس ماشيًا على هدى ، فهو يمد يديه كي يتعرف بها على الأشياء .

ونلاحظ أنه لم يقل : " والليل إذا عس فيه الناس " ، بل نسب العس إلى الليل نفسه ، فالليل نفسه يعس ، فكأنه لا اهتداء له ، فنسب العس إلى الظرف ، فإذا كان الليل في ذاته – وهو الزمن – هو الذي يعس ، فكيف يكون حال الإنسان الذي يعيش فيه ؟! وهذه من بلاغة القرآن ، فعندما نعطي الشيء صفة منتهى الخفاء ، فهي للملتصق به أشد وأقوى .

فما دام الليل هو الذي يعسعس ، فيكون الذي فيه أشد عسعسة منه ، وذلك كما يقول الحق ﷻ ضاربًا مثلاً للظلمة : ﴿ **أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا** ﴾[1] ، فيده التي يعرف مكانها جيدًا لا يراها ، فما بالك بالشيء الذي لا يعلم موقعه جيدًا ، فأتى بأشد شيء التصاقًا بالنفس ، ومع ذلك لا يراها .

فيقول : ﴿ **وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ** ﴾ ثم يقول : ﴿ **وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ** ﴾ .. وكأن الصبح من وطأة ظلمة الليل قد أُرهق بالظلمة ، ثم أخذ يتنفس ، كأنه كانت مخمودة أنفاسه .

وكذلك يعطينا هذا التعبير الحيوي معنى أن النهار وإشراق الضوء يمنحنا الهواء النقي للتنفس ، فبالليل يخرج ثاني أكسيد الكربون من الأشجار والخضروات ، ثم بالصبح تنتج النباتات كلها الأكسجين الصالح الذي يجعل الناس تستطيع التنفس ، فالكون بالصبح ابتدأ يتنفس .

وكأن ذلك رمز للرسالات التي كانت موجودة ثم ذهبت ، ثم طمَّ الظلام بعدها ، فكان هذا

---

1 – سورة : النور ، الآية : 40 .

الظلام يحتاج أن يخرج الله صبحًا .. صبح هداية ، وصبح خير ببعث النبي ﷺ بالإسلام ، فكأن منهج النبي ﷺ هو متنفس الصبح للبشرية .

﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ .. لم يبدأ بالكلام عن ذات الحق ﷻ هنا ؛ لأن مسألة الحق قضية منتهية ، كأنها أصل فطري ، فإن نشأ خلاف فيجب ألا يكون في القمة ، فالخلاف الذي قد ينشأ فيكون في الوسائط التي تبلِّغ عن الله ﷻ فقط ، أما الله ﷻ فحقيقة فطرية لا يمكن للعقل أن يتوقف فيها ، وأما ما قد يتوقف فيه في الدين فهي تلك الوسائط التي يصلنا بها هذا المنهج .

فتكلم عن الوسيط الأول فقال : ﴿ إِنَّه لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ .. أي المنهج الذي نزل به القرآن ﴿ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ ، مع أنه قول الله ﷻ ، فمرة ينسبه إلى **جبريل** عليه السلام ، كما جاء هنا في قوله : ﴿ إِنَّه لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ ، ومرة أخرى ينسبه إلى النبي ﷺ ، كما قال : ﴿ إِنَّه لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ﴾ [1] ، فالحدث الواحد إذا كان يمر بمراحل متعددة ، فينسب مرة إلى المصدر الأصيل منكم ، ومرة ينسب إلى الواسطة الأولى ، ومرة ينسب إلى الله ﷻ .

إذن فكلمة : ﴿ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ توحي بأن الرسول هو الواسطة في التبليغ بين مرسِل ومرسَل إليه ، فالمرسل إليه لا رأي له في الرسول الذي يبلغ ، إنما الرأي لمن جاء منه ذلك البلاغ ، فما دام هو رسوله فيجب أن يكون باختياره هو ، كما قد قال الله ﷻ : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [2] ، فيكفيكم أن تعلموا أنه ﷺ رسول من عند الله ﷻ ، وما دام رسولاً من عند الله ﷻ فالله يعلم حيث يجعل رسالته ، فهو ﷺ مختار مصنوع على عينه .

ثم وصفه بأنه كريم ؛ وذلك لأن الكرم عندنا في التصوير البشري : مَلَكة في النفس يصدر

---

1 – سورة : الحاقة ، الآية : 40 ، 41 .

2 – سورة : الأنعام ، الآية : 124 .

عنها السخاء ، والسخاء فوق المطلوب ، فلا يقال لمن يؤدي حق الله في ماله : إنه كريم ، ولكن يقال له : هو مؤدٍّ لركن من أركان الإسلام، إنما الذي يؤدي فوق ما طُلب منه فهذا هو الكريم .

فقوله : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ أي : يؤدي فوق ما طلب منه ، فكيف بما طلب منه ، هذه هي صفة الكرم ، وهي مع كل صفات التطوع في النفس البشرية الخارجة عن نطاق التكليف تدل في صاحبها على عشقه الأمر الذي كلف به ، فالذي يتطوع بصلاة فوق الصلوات الخمس لم يتطوع بها إلا لأنه أحب وعشق التكليف بهؤلاء الخمس ، فلو أنه شعر بمشقة في التكليف بهذه الخمس ما تطوع بغيرها .

ولكن كلمة ﴿ كَرِيمٍ ﴾ هنا لا تعني أنه قد أتى بشيء زائد عما طلب منه ، بل إنه أراد أن يثبت له أنه عاشق لأداء ما وُكل به ، وأنه إن كان على مقاييسكم أنتم فإنه يكون كريمًا ومؤديًا أكثر مما طلب منه .

﴿ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾ .. قد يكون الإنسان كريمًا بما يقدر عليه ، ثم قد تأتيه ساعة ليس عنده فيها إمكانيات ، أما هذا الرسول فهو كريم وعنده إمكانيات ، هو كريم وقادر ، كريم وقوي .. ﴿ ذِي قُوَّةٍ ﴾ ، وحين يصف الحق سبحانه وتعالى شيئًا من خلقه بالقوة فهي بمقاييس الحق وليست بمقاييس البشر .

وقد يكون كريمًا وذا قوة ، إلا أنه ليس ممكّنًا في مكانته من الله عز وجل ، أما هذا الرسول فهو : ﴿ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾ .

وقد يكون كل ذلك ، ولكن الأقل منه لا يطيعون أوامره ، فقال : ﴿ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ أي : لا يشذ واحد من جنوده عن أداء ما أمره به .

بقي أن نتساءل سؤالاً ، وهو : هل هذه الأوصاف خاصة **بجبريل** عليه السلام أم **بمحمد** صلى الله عليه وسلم ؟

قيل : إن تلك الأوصاف خاصة **بجبريل** عليه السلام ، لأنه عطف بقوله : ﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴾ .

وقال آخرون : إن ذلك الوصف كله خاص برسول الله ﷺ .

وسواء كان الوصف خاصًّا برسول الله ﷺ ، أو خاصًّا **بجبريل** عليه السلام ، فالمهمة الأساسية من ذلك كله أن يطمئن الخلق على أن المنهج الصادر من الله إلينا منهج موثق بوثائق موثقة ، لا تقبل النقاش أو التبديل .

﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴾ .. وكلمة : ﴿ صَاحِبُكُمْ ﴾ توحي بأن الحكم كان منكم قبل أن يصدر مني لاصطفائه رســـولاً ، فالحكم صادر منكم أنتم ، ﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ ﴾ فهو ليس غريبًا عنكم ، وكلمة : ﴿ بِمَجْنُونٍ ﴾ أنفى لكل خصال التلف والشر ؛ ولذلك جاء في **ســورة القــلم** : ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[1] ؛ لأن الخلق العظيم ينافي أن يكون مجنونًا .

﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴾ .. فلو قلتم : إنه مجنون فتكون مردودة عليكم ، بدليل أنكم اضطربتم في وصفه ، فمرة تقــولون : هو مجنون ، وهل يقــال للمجنون : إن كنت تريد ملكًا ملكناك علينا ، كما قــلتم أنتم **لمحمد** ؟! فهذا شـيء عجيب ، فإذا كان مجنونًا فهل تُملِّكونه عليكم ؟! وهذا مما يدل على أن كلمـة : " **مجنون** " كلمـة جماهيريـة غوغائيـة ، أي أنـك إذا أردت أن تحققها لا تجد لها مدلولاً في الواقع ؛ ولذلك فالحق ﷻ يحدثهم عن الجنون فيقـول لهــم : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ ﴾[2] ، فلا تتكلموا بكلام الجمهور ، ولا بكلام الغوغاء ، بل نريد منكم أن يحسـب كل واحد منكم كلامه على نفسه .

فربنا بهذه القضية القرآنية أعطانا كيفية حل إشكالات الحوار ، فإن أي حـوار قـد يفسـده أن يكون الإنســان جاهلاً بالحقيقــة ، أي عنده قــضية مناقــضة للواقــع ، أو أن تكون نفس

---

1 – سورة : القلم ، الآية : 1 – 4 .

2 – سورة : سبأ ، الآية : 46 .

الإنســـان أعز عليه من الحق ، فهو لا يريد أن ينهزم أمام الناس ، ولذلك عندما يجلس اثنان مع بـعضهما ليتناقشـا في موضوع فإنهما عادة ما ينتهون إلى رأي ، ولكنهم إذا كانوا ثلاثة أو أربـعة فلا يمكن أن ينتهوا لرأي بسـهولة ؛ لأن كل واحـد يكابـر على أن الحق معه ، فكيف ينهزم أمام الناس ؟! فدخل هنا عنصر آخر غير عنصر الحق ، وهو عنصر النفس ، فقــال لهم الله ﷻ : دعوا هذه الغوغائية والجماهيرية واتبـعوا الحق فقـط ، فقــال ﷻ : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ ﴾ .. في قـضية الحكم بجنونه .. ﴿ مَثْنَى وَفُرَادَى ﴾ ، أي : أن يقـوم أحـدكم ويتفكر ويرى ما هو الجنون ويعرِّفه ثم يطبـق سـلوكه ﷺ على ما عرفه من الجنون ، فسينتهي بنفسه ويقـول : إنه ﷺ ليس بمجنون ، وإن لم يسـتطع أن يحاور نفسـه فليأتِ بآخر فقـط معه ، ثم ليتحـاوروا وليتناقشـا في ذلك الموضوع ؛ لأن الذي ينهزم منهما أمام الآخر فسينـهزم بحق ، وليس له فضيحة ، ولا حرج فيما بعد أمام الناس .

وقــالوا : كذابٌ ومفترٍ ، فما دام هو كذابًا ومفتريًا وعرفتم أنه كذاب ومفتر ، فلتكذبـــوا لنا كذبة ولتأتوا لنا بقرآن مكذوب ومفترىً أنتم أيضًا ، فلم ينفعهم ذلك أيضًا .

فقالوا : هو شاعر .. فقـال : ﴿ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾ ؛ لأن أي إنسـان يعيش في أمة صنعتها البيان وسجيتها الأداء وشهرتها بالبلاغة والفصاحة فليس من المعقول أن لا تسـتطيع أن تفرق بين الشعر وبين هذا الكلام ، فهذا دليل على عدم وجود الإيمان فقـط ، إنما هي حـجة عقـلية باهتة .

ثم قال : ﴿ وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ ﴾[1] .. فأسـلوب الكهانة قـد يكون أسـلوبًا مسجوعًا وفيه ما قد يشتبـه على غير اللبـيب أنه مثل كلام **محمد** بـزعمكم ، لكنك لما تتبـينه تجد موضوعه تافهًا وسجعه قلقًا ، فالتذكر مناسب لكم هنا .

فلما لم ينفعهم قولهم : مجنون ، وشـاعر ، وكاذب ، وكاهن قـالوا : آخر ما نقول عليه :

---

1 – سورة : الحاقة ، الآية : 42 .

إنه ساحــر ، ولم يفطن أولئك المغفلون أن الحجة في هذه المســألة أقــوى وأشــد ، فما دام هو ساحرًا فهل للمسحور اختيار مع الساحر ؟! ثم لماذا سحر الذين آمنوا به ولم يسحركم أنتم ؟! فلو كان ساحرًا لسحركم لتقروا له ، إنما بقاؤكم غير مسحـورين دليل على أنه غير ساحــر ، وبذلك انهدمت المسـألة من أساسـها ، وهذا يدل على أن العداوة فيه خاصة ، ليس في موضوع ما أتى بــه ، بـدليل أنهم قــالوا : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾[1] ، إذن فالقرآن ليس فيه كلام ، ولكن الذي يغضبـهم أنه نزل على **محمد** ﷺ ، ولو نزل على رجل آخر عظيم من الطائف أو ثقيف لكان مقبولاً عندهم .

ومن الأدلة أيضًا على أن ما جاء بـه **محمد** حـق وصدق أنكم قـلتم له : ﴿ إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ﴾[2].. فإن كانوا قالوا : إن نتبـع الضلال معك نتخطف من أرضنا ، لكان أوجه لما يزعمونه ، ولكن الحق أبـلج ، ويظهر دومًا في المقـدمة ، فيجعل الله ﷻ الخصم نفسه ينطق به .

وكذلك قــالوا : ﴿ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[3] ، فكيف يقولون : يا رب إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة ، بل لقد كان الأنسب أن يقـولوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه ، ولكنه تعصبهم الأعمى ضد **محمد** ﷺ .

﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴾ .. وما دام قد رآه بالأفق المبـين فهي ليسـت صورة نفسـية ، فلا يستطيع أحـد أن يقـول : إن هذا حـديث نفس عند **محمد** ﷺ لما يتمثل له الوحـي الذي يأتيه من السماء في أي صورة ، ثم بـعد ذلك يأتيه على حقيقـته ، فيعرف أنه أمام قـوة أخرى لها ذات مستقلة ولها شكل مستقل ، إذن فهي ليسـت من نفسـه ، ولا هي خواطر نفس ، ولا

1 – سورة : الزخرف ، الآية : 31 .

2 – سورة : القصص ، الآية : 57 .

3 – سورة : الأنفال ، الآية : 32 .

هواجس فكر ، ولا شيء من هذا القبيل .

فحين يظهر الله ﷻ جبريل عليه السلام لمحمد ﷺ الذي قانونه كباقي البشر أن لا يرى الملائكة ، فحتى لا يعتقد محمد ﷺ أن هذا حديث نفس فيمثل له الذي يوحي إليه مرة بشكله الخاص فيقدره على أن يراه على صورته ، حتى يحكم الحكم بأمر خالص عن ذات تكوينه .

ونحن نعرف أن جبريل عليه السلام كان يأتي رسول الله ﷺ على صور متعددة ، ولم يره على صورته الحقيقية غير مرتين : مرة عند سدرة المنتهى ، ومرة في الأرض .. ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴾[1].. أي على صورته الحقيقية ؛ وعلى صورته الحقيقية ليبين له المصدر الذي يتلقى منه بأنه ليس خواطر نفس ولا هواجس فكر ولا أي شيء ، بل أمر جاءت به ذاتية منفصلة عنه وهذه صورتها ، فإذا ما عرف ذلك اطمأن إلى ما يأتي بعد ذلك .

﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ .. وكلمة : ﴿ ضَنِينٍ ﴾ فيها قراءتان : ﴿ ضَنِينٍ ﴾ بالضاد ، و ﴿ ظَنِينٍ ﴾ بالظاء ، وكلتاهما تؤديان لمعان عدة ، وذلك اسمه تربيب الفائدة ، فالقراءات حين تأتي تربب الفائدة التي تؤكدها الآية ، أي تزيد فيها وتكثرها .

﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ .. فما دام ليس بمجنون ، وما دام صاحبكم وأنتم تعرفونه ، فلا يمكن أن يتهم بأنه لم يبلغ ؛ لأنه أمين ، ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِظَنِينٍ ﴾ أي : بمتهم ، أو : ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ أي : لا يكتم شيئًا أمره الله أن يؤديه ، فالكلمتان تعطيان معًا معنى قوة الآية .

﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴾ .. لأن هناك سوابق ؛ فمن قومه من كان الشياطين يسترقون السمع ثم يلقونه لهم، كما جاء على لسان الجن : ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ﴾[2]؛

---

1 - سورة : النجم، الآية : 12 - 14 .

2 - سورة : الجن، الآية : 9 .

فلذلك نفى تلك الصورة الموجودة في أذهان البشر من هؤلاء الناس .

﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴾ .. لأن مما قاله حرب على الشيطان ، وما دام مما فيه حرب على الشيطان فلا يمكن أن يكون من الشيطان أبدًا .

فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾

حين سدَّ الحق ﷻ عليهم جميع المنافذ ، وعلموا أنه لا سبيل إلا منهج الله ﷻ ، الواصل لكم عن **محمد** ﷺ ، المبلغ له عن **جبريل** ﵇ ، فإذا كان لا سبيل إلا هذا فلا تحاولوا أن تذهبوا إلى أي سبيل آخر ، فأخبروني الآن .. أين تذهبون ؟!

وكلمة : ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ لا يقولها إلا من حبس جميع الطرق المؤدية للغاية ، ولم يُبقِ إلا طريقًا واحدًا ، وهو قائم على هذا الطريق .

﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ .. سؤال من الحق ﷻ ، ولا ينبغي أن يجيب الخلق إلا بشيء واحد ، وهو : لا سبيل إلا هذا ، وكان الأسلوب هو أسلوب الاستفهام حتى لا يكون كلامًا خبريًا ، فالكلام الخبري يكون حجة من جهته ، أما عندما يقول : ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ فمعنى ذلك : لقد سألتكم سؤالاً فأجيبوني ، فإذا أرادوا أن يجيبوا لا يجدون إلا إجابة واحدة ، وهي : ليس إلا هذا السبيل ، وهذا يسمى بسؤال التضييق ، أي أنه لا سبيل من السبل إلا هذا السبيل .

﴿ إِنْ هُوَ إِلاَ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ .. وكلمة : ﴿ ذِكْرٌ ﴾ تلفتنا لفتة ثانية ؛ لأن معنى الذكر

هو أن شيئًا كان عندك فغفلت عنه ، فكأن الأصل الأصيل في الإنسان أنه حين خلقه الله تلقى ذلك المنهج ، وكان ذلك عند خلق آدم ﷺ ، وكان الواجب أن يبلغه آدم لأمته ، ولكن مع تباعد الزمن تغفل النفس عن المنهج رويدًا رويدًا ، فيبعث ربنا رسولاً مذكرًا ، ليبلغ منهج الله المطلوب إلى الخلق بعد أن انطمست معالم ذلك المنهج .

والدليل على ذلك هو قول الله ﷻ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ [1].

فكأن الإيمان أمر مركوز في الفطرة ، وكان من الواجب أن ينقل إلينا كما نقل إلينا كثير من أصول حياتنا بواسطة آبائنا ، ولكن قضية الدين بالذات يغفل أغلب الناس عن نقلها إلى الناس ، ولماذا لم يُخفوا عنهم كيف يُخبز الخبز ؟! بل بالله قل لي : هل من أحد يعلم من هو أول من فكر في طحن الحب وعجن العجين وتركه يخمر ؟! من أين أتتنا هذه الطريقة ؟ إنها منقولة إلينا من الابتداء الأول ، فما دام قد نُقل لنا أصول حياتنا كلها فكيف لم يُنقل لنا منهج الدين ؟!

إن المنهج دائمًا يضيق حركة الإنسان في هذه الحياة ، والنفس تحب أن لا تضيق حركتها ، ولكن منهج الله دائمًا يقف أمام شهوات النفس ، والنفس تريد أن تنطلق من شهواتها .

﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴾ .. فهو ذكر لمن يبحث عن منهج الاستقامة ، ولكن أغلب الناس لا يبحثون عن منهج الاستقامة ؛ لأنه يقيد شهواتهم ، إنما الذي يبحث عن ما ينجيه ويضع ذلك في عقله فيجب عليه أن يؤمن بالقرآن .

ولكن الناس مهملون في هذا الأمر ، فالرجل من هؤلاء لو توجع ابنه فإنه يهتم ويذهب به للطبيب ، ويقلب الدنيا رأسًا على عقب ، إنما حين يعرف أن ابنه لم يُصَلِّ فإنه لا يهتم ،

---

1 – سورة : الأعراف ، الآية : 172 .

فلماذا نحرص على منهج دنياه ، ونحافظ على بدنه ؟! ولماذا يؤرقك منهج الشهادة الدراسية التي تريده أن يحصل عليها ؟! فلماذا يأخذ هذا المنهج الدنيوي القليل اهتمامك واهتمام كل من حولك كي تصلح له شيئًا من بدنه أو ماديات حياته ، بينما منهج الدين ليس في بالك ولا من اهتماماتك ، لو كان في بالك أو من اهتماماتك لكان لك تصرف عندما يضعف الابن في أي خلق أو تصرف شرعي كما كان لك عند ضعفه في الدنيا أو الصحة .

﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴾ .. لا تظنوا أن هذا الذكر كالمغناطيس سيجذبكم غصبًا عنكم ، كلا ، بل يجب أن يكون لديكم استعداد ، وتريدون صلاح أمركم ، فإذا وجد عندكم هذا الاستعداد لصلاح أمركم فالقرآن يعطيكم هذه الاستقامة .

فإن هناك فرقًا بين الفاعل والقابل ، فالقرآن واحد ، يسمعه رجل فيجنح بروحه ، ويسمو بنفسه وتصفو ، وآخر يسمعه ولا شيء ، كما قال الله ﷻ : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ﴾[1] ، ولكن .. ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾[2].

﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ .. وهنا قد يحدث بعض الإشكال في الأسلوب ، فإنه ﷻ قال : ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴾ ، ثم بعد ذلك رد المشيئة إليه ، فقال : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ .

لذلك يجب أن يُفهم الأسلوب على معناه الحقيقي ، فإن هذه لها مدلول وتلك لها مدلول آخر ، فإن الإنسان يعيش في الحياة فيجد نفسه مقهورًا على أشياء ، ومهما حاول أن يخرج عنها فإنه لا يستطيع ، ويجد نفسه مختارًا في أشياء أخرى ، هذا هو واقع الحياة كله ، فأنا مثلاً أختار أن ألبس ثوبًا أبيض أو ثوبًا أسود ، وأختار من القماش له كما أشاء ، أو أبني بيتًا

---

1 – سورة : محمد، الآية : 16 .

2 – سورة : فصلت ، الآية : 44 .

في مكان معين ، وأن أفعل في ذلك البيت شكلاً معينًا ، فهذه وغيرها مسائل كثيرة خاضعة لاختياراتي ، ولكن هناك مسائل أخرى ليست خاضعة لاختياراتي ، فأنا لا أختار مثلاً أن تشرق الشمس في أي وقت ، ولا أختار بعد أن سرت في طريق قد اخترته أن تحدث لي حادثة أو لا تحدث ، فهناك مسائل داخلة في اختياراتي ، وذلك مثل المسائل التي تدخل تحت علمي ، وهناك مسائل لا تدخل تحت علمي ، ولا تدخل تحت اختياراتي ، وأيضًا الذي يعلم متفاوت في علمه .

فلا أنا صاحب المشيئة بإطلاق ، ولا أنا مسلوب المشيئة بإطلاق ، فعندما يجد الإنسان نفسه مقيد المشيئة في أشياء ومطلقها في أشياء فإنه يتأكد أن القوة الكبرى لشيء آخر ، فلا تكون القوة لي وأنا مقيد في أمور ، فلو أنني لست مقيدًا في الكل كانت القوة المطلقة قوتي أنا ، لكن مشيئتي مطلقة في أشياء ومقيدة في أشياء ، فأعلم حينها أن الأقوى مني هو الذي يقيدني .

وتلك الأشياء التي ليس لي فيها مشيئة ليست داخلة في نطاق تكليفي ، أما الأشياء الأخرى الداخلة في نطاق تكليفك فهي داخلة في نطاق التكليف ؛ لأن لله ﷻ صفات ، وكل صفة تطلب مجالاتها في الكون ، فمن صفاته أنه الجبار ﷻ .. فيجب أن يكون لها متعلق ، والرحيم .. ويجب أن يكون لها متعلق كذلك ، وقادر .. ويجب أن يكون لها متعلق أيضًا ، وكذلك هو عادل ﷻ ، فيجب أن يكون لها متعلق ، فلو أنك أخذت صفتي القدرة والخلق وصببتهما على كل شيء فإنك تكون قد عطلت صفة العدل عن الله ﷻ ، فعندما تقول : إن الله قد قهرك على ترك الصلاة مثلاً فإنك تكون قد سلبت من الله ﷻ صفة من صفاته ، وهي العدل ، وإن أثبت أنه ليس من شيء يخرج عن قدرته ، وليس هناك صفة تأخذ حظها على حساب صفة أخرى ، فهذه يجب أن تأخذ مجالها وهذه يجب أن تأخذ مجالها ، فعند ذلك يجب أن تعرض آيات القرآن ، وعندما تعرض آيات الإطلاق يجب أن تبحث وتنقب عن آيات التقييد ، فإذا بحثت ونقبت عن آيات التقييد مع آيات الإطلاق علمت أن المقيد حجة

على المطلق ، فإن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، ثم بيَّن في آيات أخرى من شاء هدايته ومن شاء إضلاله ، كما قال ﷻ : ﴿ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [1] ، ﴿ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [2] ، ﴿ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [3] .

فيكون قوله ﷻ : ﴿ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [4] .. مطلقًا ، ثم بين في آية التقييد من يشاء هدايته ومن يشاء إضلاله .

ثم بعد ذلك يجب أن تعرف معاني هذه الهداية في القرآن ، فإن هناك آيات في القرآن أثبتت الهداية لقوم ثم نفتها عنهم مثل قوله ﷻ : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ﴾ .. فأثبت أنه هداهم ، ثم قال : ﴿ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ [5] ، فإذا كان الله قد هداهم ، فكيف يكون لهم اختيار كي يستحبوا العمى على الهدى ؟! فلابد أن يكون للهداية هنا معنى آخر ، وأوضح من ذلك قول الله ﷻ للنبي ﷺ : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ .. فإنه أثبت له الهداية هنا ، ثم في موضع آخر قال له : ﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ فنفى عنه هنا الهداية ، ولكننا نقول : إن هذا كلام ربٍّ حكيم ، ولا يمكن أن يتضارب أبدًا ، فيجب أن تبحث في نفسك لكي تستطيع أن تجمع بين الجميع .

فإن الهداية ترد على معنيين في القرآن :

فقد تأتي بمعنى مطلق الدلالة على طريق الخير ، والدلالة فقط .

وقد تأتي مرة أخرى بمعنى المعونة على الخير ، أي : يدلك أولاً على الطريق الموصل للخير ، ثم يحملك على الطريق الموصل إلى الخير ، فهذان معنيان ، ومثال ذلك ، ولله المثل

1 – سورة : البقرة ، الآية : 258 .

2 – سورة : البقرة ، الآية : 264 .

3 – سورة : المائدة ، الآية : 108 .

4 – سورة : النحل ، الآية : 93 .

5 – سورة : فصلت ، الآية : 17 .

الأعلى في السماوات والأرض ، ولكننا نضرب المثال للتقريب ، فمثلاً عندما تكون سائرًا في طريق ما ، وتريد أن تذهب إلى مكان ما ، وعند مفترق الطرق وجدت خمس طرق مثلاً ، فقلت لرجل : ما هو الطريق المؤدي إلى مدينة كذا ؟ فقال لك : إن الطريق المؤدي إليها هو طريق كذا ، فهو هنا قد هداك بمعنى أنه دلك ، ثم بعد ذلك إن عملت بكلامه أو لم تعمل فإنك تشكره بكلام طيب ، فإذا وجدك الرجل قد أقبلت على كلامه وصدقته فإنه يقول لك : والله أنت أهل لأن أدلك أكثر ، فهذا هو الطريق ، ثم يزيدك : أن تنبه ، فبعد كيلو متر واحد ستجد حفرة أو عقبة هناك صعبة ، فسأقوم معك وأنقذك منها ، فبهذا يكون قد عمل معك عملين :

العمل الأول : هو الدلالة على الطريق .

والعمل الثاني : لما آمنت به وشكرته واعتقدت أن هذا نعمة أعانك .

وكذلك الحق ﷻ يدل الناس على الخير ، فمن آمن به سهل عليه مهمة الخير ، فليس منك إلا أن تتوجه لتفعل الخير ، ثم بعد ذلك يعينك الحق ، وييسر لك الأسباب .

فإذا أثبت الله الهداية لرسوله فهي هداية الدلالة .. ﴿ **وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** ﴾ ، وإذا نفاها الله ﷻ عنه فإنما ينفي هداية المعونة .. ﴿ **إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ** ﴾ .. أي : لا تعين على الهداية من أحببت .

فكأن هذا الأسلوب في ظاهره متناقض ، ولكن حين ننظر بدقة في الآيات جميعًا نجد بالجمع بينها منتهى التوافق .

نسأل الله ﷻ أن يهدينا دائمًا إلى الخير ، وأن يوفقنا إلى الخير في كل ما نأتي وكل ما نذر .

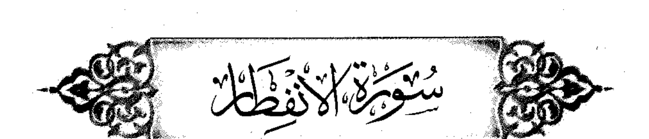
إنه ولي ذلك والقادر عليه .


تفسير جزء
عم


سورة
الانفطار







بسم الله الرحمن الرحيم .. أحمدك ربي ، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد رحمة الله للعالمين ، وخاتم الأنبياء والمرسلين ، وبعد ..

نحن الآن مع **سورة الانفطار** ، تلك السورة القصيرة التي تتحدث عن الانقلاب الكوني الذي قد تحدثت عنه **سورة التكوير** ، ولكنها تتخذ لها شخصية أخرى ، وسمتًا خاصًّا بها ، وتتجه إلى مجالات خاصة بها تطوّف بالقلب البشري فيها ؛ وإلى لمسات وإيقاعات من لون جديد .. هادئ .. عميق .. لمسات كأنها عتاب ، وإن كان في طياته وعيد .

ومن ثم فإنها تختصر في مشاهد الانقلاب ، فلا تكون هي طابع السورة الغالب كما هو الشأن في **سورة التكوير** ؛ لأن جو العتاب أهدأ ، وإيقاع العتاب أبطأ ، وكذلك إيقاع السورة يحمل هذا الطابع أيضًا ، فيتم التناسق والتوافق في شخصية السورة .

إنها تتحدث في المقطع الأول عن انفطار السماء وانتثار الكواكب ، وتفجير البحار وبعثرة القبور .. كحالات مصاحبة لعلم كل نفس بما قدمت وأخرت ، في ذلك اليوم الخطير .

وفي المقطع الثاني تبدأ لمسة العتاب المبطنة بالوعيد لهذا الإنسان الذي يتلقى من ربه فيوض النعمة في ذاته وخلقته ، ولكنه لا يعرف للنعمة حقها ، ولا يعرف لربه قدره ، ولا يشكر على الفضل والنعمة والكرامة : ﴿ **يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ** ﴾ .

وفي المقطع الثالث يقرر علة هذا الجحود والإنكار .. وهي التكذيب بالدين .. أي التكذيب بالحساب ، وعن هذا التكذيب ينشأ كل سوء وكل جحود ، ومن ثم يؤكد ذلك الحساب

* مقدمة تفسير السورة والمقطع الأول مقتبس بتصرف من : "في ظلال القرآن" .

توكيدًا ، ويؤكد عاقبـــــته وجزاءه المحتوم : ﴿ كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ * وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ * إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ * يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ * وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴾ .

وأما المقطع الأخير فيصور ضخامة يوم الحساب وهوله ، وتجرد النفوس من كل حول فيه ، وتفرد الله ﷻ بأمره الجليل : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ .

فالسورة في مجموعها حلقة في سلسلة الإيقاعات والطرقات التي يتولاها هذا الجزء كله بشتى الطرق والأساليب .

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ﴿٤﴾ عَلِمَتۡ نَفۡسٌ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ﴿٥﴾

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴾ .. يذكر هنا مظهرًا من مظاهر الانقلاب ، وهو انفطار السماء .. أي : انشقاقها ، وقد ذكر انشقاق السماء في مواضع أخرى ، كما في **سورة الرحمن** : ﴿ فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾[1] ، وكذلك في **سورة الحاقة** : ﴿ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾[2] ، وقال في **سورة الانشقاق** : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ ﴾[3] .

فانشقاق السماء حقيقة من حقائق ذلك اليوم العصيب ، أما المقصود بانشقاق السماء على وجه التحديد فيصعب القول به ، كما يصعب القول عن هيئة الانشقاق التي تكون آنذاك ،

1 - سورة : الرحمن ، الآية : 37 .

2 - سورة : الحاقة ، الآية : 16 .

3 - سورة : الانشقاق ، الآية : 1 .

ولكن كل ما يستقر في الحس هو مشهد التغيُّر العنيف في هيئة الكون المنظور ، وانتهاء نظامه المعهود ، وانفراط عقده الذي يمسك به في هذا النظام الدقيق .

﴿ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ ﴾ .. ويشارك في تكوين هذا المشهد ما يذكر عن انتثار الكواكب بعد تماسكها هذا الذي تجري معه في أفلاكها بسرعات هائلة مرعبة ، وهي ممسكة في داخل مداراتها لا تتعداها ، ولا تهيم على وجهها في هذا الفضاء الذي لا يعلم أحد له نهاية ، ولو انتثرت كما سيقع لها يوم ينتهي أجلها وأفلتت من ذلك الرباط الوثيق غير المنظور الذي يشدها ويحفظها لذهبت في الفضاء بددًا ، كما تذهب الذرة التي تنفلت من عقالها .

﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴾ .. وتفجير البحار يحتمل أن يكون هو امتلاؤها وغمرها لليابسة وطغيانها على الأنهار ، كما يحتمل أن يكون هو تفجير مائها إلى عنصريه : الأكسجين والهيدروجين ، فتتحول مياهها إلى هذين الغازين كما كانت قبل أن يأذن الله بتجمعهما وتكوين البحار منهما ، وكذلك يحتمل أن يكون هو تفجير ذرات هذين الغازين ، كما يقع في تفجير القنابل الذرية والهيدروجينية اليوم .. فيكون هذا التفجير من الضخامة والهول بحيث تعتبر هذه القنابل الحاضرة المروعة لعب أطفال ساذجة .

أو أن يكون بهيئة أخرى غير ما يعرف البشر على كل حال .. إنما هو الهول الذي لم تعهده أعصاب البشر في حال من الأحوال .

﴿ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ .. وبعثرة القبور إما أن تكون بسبب من هذه الأحداث السابقة ، وإما أن تكون حادثًا بذاته يقع في ذلك اليوم الطويل ، الكثير المشاهد والأحداث .. فتخرج منها الأجساد التي أعاد الله إنشاءها ، كما أنشأها أول مرة ، لتتلقى حسابها وجزاءها .

ويؤيد هذا ويتناسق معه قوله بعد عرض هذه المشاهد والأحداث : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ .. أي ما فعلته أولاً وما فعلته أخيرًا ، أو ما فعلته في الدنيا ، وما تركته وراءها من آثار فعلها ، أو ما استمتعت به في الدنيا وحدها ، وما ادخرته للآخرة بعدها .



على أي حال سيكون علم كل نفس بهذا مصاحبًا لتلك الأهوال العظام ، وواحد منها مروّع لها كترويع هذه المشاهد والأحداث كلها .

﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ .. والتعبير القرآني الفريد يقول : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ ﴾ .. وهو يفيد من جهة المعنى : كل نفس ، ولكنه أرشق وأوقع ، كما أن الأمر لا يقف عند حدود علمها بما قدمت وأخرت .

فلهذا العلم وقعه العنيف الذي يشبه عنف تلك المشاهد الكونية المتقلبة ، والتعبير يلقي هذا الظل دون أن يذكره نصًا ، فإذا هو أرشق كذلك وأوقع .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ .. يذكر الحق ﷻ أن الناس في غفلتهم عن ذلك اليوم ، وفي إهمالهم لمقتضيات الاستعداد له ، وفي انصرافهم عما يتطلبه من زاد التقوى ، وقد صدروا في كل ذلك عن شيء واحد ، وهو الغرور ، ذلك الغرور الذي خاطب الله ﷻ به الإنسان في قوله ﷻ : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ ﴾ ، وهو تبكيت بكلمة إنسان ؛ لأن كلمة إنسان توحي بأن إنسانيته كان يجب أن تردعه عن غروره ذلك ؛ لأنه لم يتميز بهذه الإنسانية إلا بوجود الفكر ، والفكر هو الذي ينظر ويتدبر ويتفكر ويستنبط ، فكان من الممكن إذا ما أعمل الإنسان إنسانيته في قمتها ألا يوجد منه هذا الغرور؛

لأن الغرور غفلة من المغتر عن وضعه بالنسبة للقيم التي يغتر بها ، فالإنسان إذا شاء أن يغتر فيجب عليه أن يغتر بشيء ذاتي فيه ، أما بشيء موهوب له من غيره فلا يصح أن يغتر به ، فلو أن أمور حياته والوجود الذي يعيش فيه كان من صنعة نفسه لكان من الممكن أن يغتر بتلك الصنعة ، ولكن بما أنه لم يدَّعها ولو دعوى ، فمن الواجب أن لا يغتر بشيء ليس ذاتيًا فيه .

فتصدير الآية القرآنية بقوله ﷻ : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ ﴾ ، أي : تنبه ! ! إن الصفة التي أعطيتك إياها ما كان ينبغي أن يوجد معها الغرور ، ومع ذلك وجد منك الغرور ، واغتررت بربك الكريم ، فلو أنك اغتررت بالذي وهب لو كان غير كريم لكان من الممكن أن تكون حفيظة نفسك قد أثرت فيك ، ولكنه ﷻ رب كريم ، فما داعي الغرور إذًا ؟!

فأنت تغتر بشيء لا ذاتية لك فيه ، بل هو لغيرك ، والذي تغتر به ليس لك ، بل للواهب ﷻ ، والواهب ليس على صفة تتطلب منك غرورًا .

إذًا .. فكل الحيثيات تشير إلى أن الذي يغتر غافل عن إنسانيته وهاجر لها ، فلو كان مقيمًا لإنسانيته لما صدر منه ذلك الغرور بالذي وهب ، وهو الموصوف بأنه كريم .

﴿ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴾ .. يعدد الحق شيئًا من مواد إكرامه .. الخلق والتسوية والتعديل ، وهذا أمر لا يشك فيه إنسان حين يجد فكره ، وحين يجد شكله ، وحين يجد تسويته واعتداله عن سائر ما خلق الله ﷻ ، فلم يخلقه الله ماشيًا على بطنه ، ولم يخلقه الحق ﷻ يمشي على أربع ، ولم يجعل قامته ملتوية إلى أسفل ، بل جعله مرتفع القامة ، هذا بخلاف التسوية والتعديل في أجهزته الدقيقة التي لا يزال علماء كل جهاز من هذه الأجهزة يقفون دائمًا عندها عجبًا ، ويكتشفون سرًا .

﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ .. أراد الحق ﷻ بعد ذلك أن يزجر ذلك الإنسان ، ومن حق الإله الخالق المنعم أن يزجر عباده ؛ لأن ذلك الزجر وسيلة من وسائل التربية ، وهو رب وهب ويؤدب ، وقد وهب ما تقدم ، فليؤدب ﷻ ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ

بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ * كَلاَّ ﴾ ..

وكلمة : ﴿ كَلاَّ ﴾ إذا وجدتها في كتاب الله فافهم أنها تعطي معنى الردع والزجر عن أمر ما كان ينبغي أن يكون ، والأمر الذي تقدم كلمة : ﴿ كَلاَّ ﴾ هنا هو الغرور ، أي : كلا .. ما كان يصح لك أن تغتر أبدًا ؛ لأنك إنسان تغتر بمن وهب لك ، ومن وهب لك كريم ، فحيثيات الردع والزجر في الصيغة : إنسان ورب وكريم .

وهل انزجر ذلك المغرور ؟! هل انزجر الإنسان ؟! ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ﴾[1] ، فساعة أن خُلق ، وساعة أن رُزق ، وساعة أُمد بالقيومية .. فَهِمَ أن هذه أمور رتيبة له ؛ لأنه لم يشهد يد الله محسوسة في عملها ، فاغتر بأنها له ، وآمن ووقف عند الأسباب وترك المسبب ، فالحق ﷻ يريد أن يقول : أنا سأزجره ، ولكنه أيضًا لن يرتدع ، سيظل في هذا الغرور .

﴿ كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴾ .. أي بيوم الجزاء .

والحق ﷻ بعد أن ربَّى بقوله : ﴿ كَلاَّ ﴾ .. أي : لا يصح لك أن تغتر ، بيَّن الحق ﷻ أن المنصرف عن الإيمان بالله ، وعن الاعتبار في ملكوته وفي نفسه سيظل سادرًا في غلوائه ، ولن يرتدع بهذا الزجر ، وإذا رأيت كلمة : ﴿ بَلْ ﴾ فاعلم أن هناك إضرابًا عن شيء وإثباتًا لشيء آخر ، ما قبلها مضرب عنه ، لن يزجر ، وما بعدها مثبت له .

﴿ كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴾ .. وهنا نلاحظ أن الأسلوب انتقل من الفردية في : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ ﴾ إلى الجمع في قوله : ﴿ كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴾ ، فكلمة : ﴿ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴾ جمع ، وكلمة : ﴿ الإِنْسَانُ ﴾ مفردة في ظاهرها ، ولكن الحق ﷻ حينما خاطب الإنسان بلفظ الإفراد جاء بـ (ال) ، وهي تفيد الاستغراق في الأفراد ، فمعنى : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ ﴾ أي : يا كل إنسان فيه هذه الصفة ، فما دام هناك استغراق فمن الممكن أن يأتي

1 - سورة : العلق ، الآية : 6 ، 7 .

بـــالجمع : ﴿ كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴾ ، أي : أيها الناس ، والذي يدل على أن كلمة : ﴿ الإِنْسَانُ ﴾ تأتي للاستغراق في الأفراد أن الله ﷻ في آياته قد استثنى منها الجمع ، ونحن نعرف أن المستثنى دائمًا يكون أقل من المستثنى منه ، فأنت لا تستثني من شيء إلا إذا كان الشيء المستثنى منه أكثر ، فلما قال الحق ﷻ : ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ ، ثم بعد ذلك استثنى من الإنسان جمعًا ، فلو أنه يدل على فرديته لما صح منه الاستثناء ، ولكنه قـــال ﷻ : ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾[1] ، فاستثنى ﷻ ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ، وهم جمع ، من الإنسان ، وما دام الجمع قد استثني من الإنسان المفرد فهذا دليل على أن الإنسان المفرد حينما دخلت عليه (**ال**) صار مستغرقًا لكل الأفراد ، ولذلك استثنيت منه جماعة .

﴿ كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴾ .. زجرهم بـ "**كلا**" ، ثم أضرب بـ "**بل**" ، أي أنهم لا ينتهون بهذا الزجر ، بل إنهم يكذبون بيوم الدين .

وكل شيء يصيب الإنسان من إهمال منهج الله ، والغفلة عنه ، وعدم الاستعداد للقائه ، كل ذلك تكذيب بيوم الدين ، فكأن يوم الدين قضية كاذبة عندهم ، ولو أن يوم الدين قضية صادقة عندهم لما كان منهم إلا أن يستعدوا لذلك اليوم ، وأن لا يغفلوا عنه أبدًا .

فكل غفلة عن منهج الله منشؤها إما التكذيب بيوم الدين الذي يرد فيه الإنسان إلى ربه ليجازيه على أعماله ، وإما الارتياب فيه ، ومعنى الارتياب أنه يذكره تارة ، ويغفل عنه تارة ، فحين يذكره يعمل العمل الصالح ، وحين يغفل عنه يلتوي عن منهج الله ﷻ .

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴾ .. وهنا نجد أن الحق ﷻ يستدل على الشيء بما يكون بسببه ، فيوم الدين يوم فصل بين الناس ؛ ليُجزى كل إنسان بعمله ، فلابد وأن يكون العمل المسئول عنه الإنسان والمحاسَب عليه مسطورًا ومكتوبًا ، فأراد الحق ﷻ أن يؤكد المسطور

---

1 – سورة : العصر .

والمكتوب هنا ؛ لأن الناس لا يألفون التوثيق إلا في المدوَّن ، فالمدون شهادة لا يمكن أن تُزوَّر ، ولو أن الكلام غير مدون فقد يُنسى ، وقد يغفل الإنسان عنه ، ولكن المكتوب عليه شيء موثق ، والكتابة هي أوثق آلات التسجيل على الإنسان ، فأراد الحق سبحانه وتعالى أن يقول : إن هذا الذي تعترفون به في التوثيقات فيما بينكم أمر موجود عندكم ، وإن كان غيبًا .

فالغيب الذي يتكلم عنه الحق سبحانه وتعالى نوعان : غيب واقع ، ولكن زمانه لم يأتِ بعد ، كغيب الساعة ، وهي يوم القيامة ، فهو واقع لا محالة ، ولكن زمنه لم يأتِ بعد ، وغيب موجود الآن ، ولكننا لا ندركه ، فمسألة الكتابة والحفظ والإحصاء كل ذلك غيب ؛ لأني لا أدركه : لا أرى الملَك ، ولا أحسه ، ولا أعرف كيف يكتب ، ولا بماذا يكتب ، وكل ذلك أمر لا ضرورة للإنسان في معرفته ، ولكن زمن الكتابة موجود الآن .

وبحث العقل في هذه المسألة حيث يبحث : أين الملكان ؟ وكيف يكتبان ؟ وبأي شيء يكتبان ؟ فهذه مسألة فوق نطاق الإيمان ؛ لأن هناك فارقًا بين أن يوجد الشيء وبين أن يدرك الشيء ، فليس إدراك كل شيء دليلاً على وجوده ، وليس عدم إدراك أي شيء دليلاً على عدم وجوده ، فكم من الأشياء كانت غيبًا عنا وغير مدركة ، ثم شاء الله أن يأذن للسر أن ينكشف فانكشف ، وذلك في ماديات الوجود ، وساعة كان غيبًا غير مدرك لم يكن ذلك يعني عدم وجوده ، بل كان موجودًا قبل اكتشافه ، بدليل أنك اكتشفته ، وما دمت قد اكتشفته ، وقد كان غيبًا عنك ، إذًا فهناك غيب لا يمكن لك أن تدركه إلى أن يأذن الله لك أن تكتشفه .

فكأن الحق سبحانه وتعالى ترك في الغيب المادي الموجود أمورًا ظلت غائبة مدة طويلة ، ثم أذن للعقل أن يكتشفها بنشاطه ؛ ليستدل من ذلك على أن هناك غيبًا آخر يجب أن نؤمن به من قبل اكتشافه .

إن اكتشاف الغيب ما هو إلا إيناس للغيب ليس إلا ، مثال ذلك كما نقول لك : عقلك بحيزه المحدود إذا ما أردت أن تستعيد منه الصور والأقوال والأفعال التي صدرت منك ومن



غيرك ممن وقع تحت حسك وجدتها مختزنة فيه ، فإذا وجد استدعاء معانٍ تذكرت أشياء حدثت منذ ثلاثين سنة ، ومعنى ذلك أنها محفوظة في ذهنك ، فكيف يفكر هذا الحيز الذي يسع تلك المعلومات الكثيرة ؟! وكيف تأتي الصورة فتستعيدها كما كانت ؟!

علاوة على ذلك أن المسألة الإيمانية لا تكون للأمر الذي يُحس فقط ، فالأمر الذي يمكن أن يحس ليس مناط إيمان ، فأنا حين أجلس بين الناس لا أقول : أنا أؤمن بأني أجلس بينهم ، وأتكلم معهم ؛ لأن هذا أمر محسوس ؛ فالمسألة ليست قضية إيمانية ، فالقضايا المحسة كلها ليست قضايا إيمان ، وإنما الإيمان دائمًا يكون في القضايا الغيبية .

ولكن هناك من يفرق بين الإيمان وبين اليقين ؛ لأنهم قالوا في قول الله ﷻ : ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾[1].. إن معنى ذلك هو إجراء الأحكام التكليفية للتقرب من الله ﷻ ، وهذه لا يأتي بها إلا مؤمن .. ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ﴾ .. يعني : أن العبادة تكون عن إيمان ، ﴿حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ .. وكأن في أول العبادة لم يوجد يقين ، وإنما كان هناك إيمان ، ثم بعد ذلك بالعبادة ، وبترددك على حضرة ربك ، وبتوددك إليه بما شرع .. يأتيك اليقين ، إذن فالإيمان مرتبة تدعو إلى العبادة ، والعبادة حين تتم بإخلاص وصفاء يترتب عليها اليقين .

ولكي نعرف الفارق بين الإيمان وبين اليقين ، نجد أن سيدنا عليًا رضي الله عنه – وهو من هو – حين سُئل : كم بين الإيمان واليقين ؟ أي : ما الفارق بين الإيمان وبين اليقين ؟ فقال : الفارق بين الإيمان واليقين أربع أصابع !! فقيل له : وكيف ذاك ؟! قال : الإيمان هو ما تسمعه أذناك فتصدقه ، واليقين هو ما تراه عيناك فتصدقه ، والفرق بين العين والأذن أربع أصابع ؛ ولذلك فصل رضي الله عنه في تلك المسألة وقال : **لو انكشف عني الحجاب ما ازددت يقينًا .**

وكما جاء عن الحارث بن مالك الأنصاري أنه مر بالنبي ﷺ فقال له : " كيف أصبحت يا حارثة ؟ " قال : أصبحت مؤمنًا حقًا . قال ﷺ : " انظر ما تقول ، فإن لكل قول

---

1 – سورة : الحجر ، الآية : 99 .

حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟! " قال : عزفت نفسي عن الدنيا ، فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري ، وكأني أنظر عرش ربي بارزًا ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها . قال ﷺ : " **يا حارثة .. عرفت فالزم** "[1] .

ولذلك نجد أن الحق ﷻ حين أراد أن يقص على النبي ﷺ قصة أصحاب الفيل عبر بقوله ﷻ : ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ** ﴾[2] ، ولم يعبر بـ : "**ألم تعلم**" ، في حين أن الآية تتحدث عن عام الفيل ، ذلك العام الذي ولد فيه النبي ﷺ ، فليس من المعقول أن يكون ﷺ قد رأى هذه الحادثة ، ولكن الحق ﷻ خاطبه بـ : ﴿ **أَلَمْ تَرَ** ﴾ ، ومعناها : ألم تعلم ؟!

وكأن الحق ﷻ يريد أن يقول : إذا أخبرتك بشيء فكن أوثق به مما تراه .. فما دام أن الله ﷻ هو الذي أخبر بذلك فيجب أن يكون ما يخبر به كأنه رأي العين ، وتلك هي مرتبة اليقين .

إذن فالأشياء الغيبية التي يتحدث الحق ﷻ عنها يكفي فيها أن تُعقل ، ولا ضرورة في أن تُتصور ، وإنما كانت متاهات العقول في إرادة تصور المعقول .

فإن الفلاسفة لم يضلوا إلا حينما تجاوزوا مطلوب التعقل إلى مطلوب التصور ، وإلا فلماذا بحث الفلاسفة الأقدمون فيما وراء المادة ؟! وما الذي جعلهم يبحثون في شيء وراء المادة ؟! فكأن فطرتهم أخبرتهم بأن وراء هذه المادة شيئًا ، ومن غير المعقول أن تنتهي هذه المادة ، وهذا كافٍ في التعقل ، إلا إنهم تعبوا وأتعبوا حينما أرادوا أن يتصوروا ما وراء تلك المادة ، ولو أنهم اكتفوا بفكرة التعقل لانتهت مشكلتهم .

ولذلك نقول للذين يطلبون الدليل على وجود الله ﷻ : ما الذي جعل أول من وضع دليلاً

---

1 – أخرجه الطبراني في الكبير .

2 – سورة : الفيل ، الآية : 1 .

على وجود الله ﷻ يجهد عقله ليبحث عن دليل لوجود الله ، ما لم تكن هناك فطرة تقول له : إن هناك شيئًا وراء الكون ؟!

إذن فالدليل الأول على وجود الله ﷻ هو طلب الدليل على وجود الله ، سواء استدللت أم لم تستدل ، فطلبك دليلاً على وجود الله هو عين الدليل على وجود الله ، وإلا فما الذي جعلك تجهد عقلك لتبحث عن دليل على وجود الله إلا لأنك مؤمن بأن هناك إلهًا ، فأجهدت عقلك لتستدل على ذلك ؟!

إذا كان هناك ألف محطة إرسال تليفزيونية ، وألف جهاز تليفزيون ، وهناك عدة موجات تبث على هذه المحطات ، وكل أولئك يلتقطون من الجو ، فما الذي يميز هذه الصورة عن الأخرى بحيث لا تختلط تلك الصور ببعضها ، وتعطي محطة الإرسال محطة إرسال أخرى ، مع أن كل ذلك يأتي من الأثير ، والأثير كله مختلط ، فما الذي ينقي هذه العملية ويعطي كل جهاز اختياره ؟! وما الذي يقوم بعملية التوزيع ؟!

إنها مسألة تحتاج إلى هندسة معقدة ، وقد استفاد العقل بها ، ولكنه لا يعرف كيف تتم .

﴿ كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ .. فلا ينبغي أن تكذبوا بالدين ؛ لأن عليكم حافظين .. كرامًا .. كاتبين .. يعلمون ما تفعلون ، ومعنى ذلك أن هؤلاء لم يوجدوا عبثًا ، وإنما وجدوا ليوَثِّقوا ، وما داموا وجدوا ليوثقوا فإن التوثيق له قضية وله مطلوب ، وسيُنشر هذا الكتاب ، وستحاسبون عليه .

﴿ حَافِظِينَ ﴾ أي : حافظين بذاتهم ، وحافظين بما يكتبون ، و ﴿ كِرَامًا ﴾ فلأن الكريم من شأنه أن يُسَرَّ من عمل الخير ، ويتأذى من عمل الشر ، فطبيعتهم تناسب المهمة ، وما دام الكريم يُسر من عمل الخير ، فساعة أن يعمل خيرًا يكتبه كتابة المسرور به ، أي أنه حريص على أن يسجله لك ، ويتألم من عمل الشر ، ويسجله عليك أيضًا .

فهناك مهمة وهناك استعداد ذاتي للمهمة ، وهناك فرق بين المهمة وبين الاستعداد الذاتي



للمهمة ، فمهمتهم هي أنهم كاتبون ، وأنهم كرام ، فلو أن إنسانًا وُكِّل بأمر من الأمور ولم يكن كريمًا فإن الحق قد يلتبس عنده ، أما الكريم فإنه يُسر من فعل الخير ، ويألم من فعل الشر ، وما دام يُسر من فعل الخير ، ويألم من فعل الشر بطبيعة ذاته ، فذاته وطبيعته مناسبتان لمهمته .

﴿ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴾ ، ومع أنهم حافظون ، أي : يحفظون الكتابة ، وبإمكان الملك الموكل بالحسنات والملك الموكل بالسيئات أن يسردا للإنسان ما عمله من عندهما ، إلا أن الله ﷻ لم يعتمد على حفظهما ، فأمر أولئك الحفظة بأن يكتبوا ، وكأنه ﷻ يقول لهم : إن حفظكم سيكون شهادة ، لكن كتابتكم سوف تبقى حجة ، وسنعطيهم الكتاب ، ونقول لهم : اقرءوا الكتاب .

فكأن الحق ﷻ قد نسَّق الأمر بين الحفظ وبين الكتابة ، الحفظ من المَلَك ، والكتابة منه أيضًا .

وكلمة : " **قرآن** " مصدر ، معناه : مقروء ، أي مضموم فيه لفظ إلى لفظ حتى يكون آيات وسورًا ، كما يطلق على القرآن لفظ : " **الكتاب** " ، وهذا يدل على أنه مكتوب ، فكأن للقرآن وسيلتين اثنتين : **أولا** : أنه محفوظ في الصدور ، **وثانيا** : أنه مسجل في السطور ، ومهمة الوسيلتين أن تكون كل واحدة منهما عونًا للأخرى على التذكر ، ولا يمكن أن نقول عن أي نص : إنه نص قرآني إلا إذا وافق المحفوظُ المكتوبَ ، بدليل أننا نجد ألفاظًا في القرآن الملفوظ فيها شيء والمكتوب شيء آخر ، **مثال ذلك كلمة** : "**الم** " قرأناها في أول **سورة البقرة** : " **ألف لام ميم** " ، ثم في أول **سورة الشرح** قرأناها : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [1] ، فما الذي جعلك تقرؤها هنا بطريقة وهناك بطريقة أخرى لو أن الأمر لم يكن مرتبطًا بين القراءة والكتابة ؟!

فقول الحق ﷻ : (**حافظين**) ، و (**كاتبين**) يدل على أنهما أداتان من أدوات التسجيل .

---

1 – سورة : الشرح ، الآية : 1 .

ولكن من رحمة الله ﷻ أنه جعل كاتب الحسنات أميرًا على كاتب السيئات ؛ ليجعل للإنسان فرصة في التوبة وفرصة في الندم ؛ لأن الله ﷻ لا يريد أن يتصيد لنا الأخطاء ، ولكن الله يريد أن يكثر لنا الحسنات ، كما ورد في الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ ، فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ ﷻ قَالَ : " **إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً ، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً ، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً** "[1] .

وذلك لأن الهمَّ من عمل القلب ، ويكفي أنك ضمنت قلب إنسان ليفكر في نية الخير برهة ، فما دام القلب فكر في نية الخير برهة فإنه يستحق أن نكتبها له حسنة ، وإن لم يحولها إلى واقع الوجود ، أما من يهم بسيئة ولا يفعلها فيكتبها حسنة ؛ لأنه همَّ بسيئة انشغل قلبه بها ، ثم وقفت أوامر الشرع دونه فلم يفعلها ، فمن هاجت نوازع الشر عنده ، ثم بعد ذلك تغلب عليها فهو خير من الغافل الذي لم تهج عنده نوازع الشر أصلاً .

فمن فكر في سيئة ولم يفعلها أكثر حظًّا من الذي لم يفكر في السيئة أصلاً ، ولذلك تكتب له حسنة ، لأن لوازم السيئة وجدت ، وشغل البال بما وُجِدَ ، ولكن وقوفه أمام المنهج منعه ، فما دام قد صمد أمام شواغل النفس فإنه يستحق أن يعطى حسنة .

﴿ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ .. وهذه الكلمة لا تفيد مجرد العلم المتحقق بالإحصاء ، ولكنه العلم مع الفهم ، وعلم ما يخفى ، مثل النوايا وأمراض القلوب كالحقد ، حيث لا يظهر ما لم يدل عليه بأي شيء .

إذن فالتوثيق عليك أيها الإنسان ثابت ، وما دمت تفهم أن التوثيق عليك ثابت فتنبه إلى

---

1 - أخرجه البخاري (6010) ، ومسلم (187) .

أنك لم تخلق عبثًا ، وأن كل أمر من أمورك مسطور ومسجل عليك ، كما قال ﷻ : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ * إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[1] ، فإذا نظرنا إلى التعبير القرآني بكلمة : ﴿ قَعِيدٌ ﴾ نجد أنها لا تعني قاعدًا ؛ لأن القاعد هو الجالس الذي يستطيع أن يقوم ، أما القعيد فهي صفة لازمة للملَك ، فلا يأمل إنسان أن يتركه أبدًا ، ولكن الإنسان هو الذي يفارقه في الأوقات التي فيها فضح للعورة : عند الخلاء ، والجنابة ، وعند الغسل ، ولكنهم عند هذه المفارقة لا ينقطع علمهم أيضًا .

إذن فالحق ﷻ وثّق على الإنسان ، وما دام الله ﷻ قد وثّق على الإنسان هذا التوثيق فلابد أن يكون لهذا التوثيق غاية ؛ لأنه لو لم يكن هناك بعث ، ولو لم يكن هناك حساب لكانت العملية عبثًا من أولها إلى آخرها .

إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾

﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ .. ما دامت هناك كتابة ، والكتابة والحفظ من الكرام ، فسيكون هناك تعلقًا بعمل الخير ، أو بعمل الشر ؛ ولذلك فلابد وأن تكون النتيجة المترتبة على ذلك أن يوجد مصير إلى النعيم أو إلى الجحيم ، فأكد الحق ﷻ هذا

1 – سورة : ق ، الآية : 16 – 18 .

الأمر ، وقال بصيغة التأكيد : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ .

" **الأبـــرار** " .. جمع : بَر ، و " **البَر** " هو من يفعل البر دائمًا ، وكلمة : " **بـــر** " صيغة مبـالغة ، تعني أنه ملازم لفعل البر ، وحـينما تحدث القـرآن الكريم عن البر تحدث عنه مرة بالإجمال ، ومرة بالتفصيل .

فقال إجمالاً : ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى ﴾[1]،وقال تفصيلاً : ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِالـــلَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِيـــنَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾[2] ، أي أن البر ليس أمرًا شكليًّا فقط ، وإنما يجمع بين الأمر الشكلي والأمر الموضوعي ، فلا فرق بـين الموضوع والشكل ، ولا يصح أن نقول : ما دام الأمر قـد تحقـق موضوعه فإن شـكله ليس ضروريًّا ؛ لأن الله ﷻ قد جمع بين الشكل وبين الموضوع في هذه الآية .

فعدد الحق ﷻ فيها ألوان البر ، فبدأها ﷻ بالعقائد الغيبية :﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ ، ثم عقب عليها بالسلوك العملي .. ﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الـــصَّلاةَ وَآتَى الـــزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِيـــنَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ﴾ ، إذن فكل هذا يأتي في الســـــلوك العملي ، وعند الحديث عن السلوك العملي يكون الكلام أولاً عن المال ، فكأن مسـألة المال هي المحك في البر ؛ لأن المال في أعرافنا هو الوسـيلة لتحقـيق المتع والشـهوات وتأمين الحياة في نظرنا نحن ، وكأنه يريد أن

1 – سورة : البقرة ، الآية : 189 .

2 – سورة : البقرة ، الآية : 177 .

يعقد شركة مع الله ﷻ ، فالمحك السلوكي لمن عنده مال يأتي بعد الناحية العقدية ، ولذلك يقول : ﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ﴾ ، ثم يذكر ﷻ : ﴿ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ﴾ في آية واحدة ، والزكاة هي المفروضة ، وتختلف عن إيتاء المال على حبه ؛ لأنه زائد عن المفروض ، فقد تجاوزوا مرتبة الإيمان إلى مرتبة الإحسان ، فهم يضعون أنفسهم في موضع التكليف في شيء لم يكلفهم الله به ؛ لأنهم عشقوا التكليف فزادوا على ما كلفهم الله به ، فلم يقبلوا على الزيادة إلا لأنهم قد عشقوا ذلك العمل ، وأحبته نفوسهم ، كما قال الله ﷻ : ﴿ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ﴾[1].

كما في قول الله ﷻ : ﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾[2]، وهل فرض الله ﷻ عليَّ ألا أهجع من الليل إلا قليلاً ؟! كلا ، لم يقل أحد ذلك ، فإذا صليت العشاء ونمت ولم تقم إلا عند أذان الفجر ، فقد أديت ما عليك .

والشاهد هنا في هذه الآيات قوله ﷻ : ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾[3]، حيث لم يقل : ﴿ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴾ كما جاء في **سورة المعارج** ، حيث قال الحق ﷻ هناك : ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾[4]؛ لأن المعلوم هو المفروض ، وهو ﷻ يتكلم هناك عن أولئك الذين يؤدون ما عليهم فحسب ، ولكن المقام هنا مقام إحسان ، ففي مقام تأدية الفريضة يجب عليك إخراج ربع العشر من المال ، ولكن في مقام الإحسان فحسب همتك الإيمانية ، فهي التي تحدد مقدار هذا الحق .

﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ .. إن : توكيدية للجملة الاسمية ، واللام أيضًا للتوكيد ، فإن هذه المسألة نتيجة للكتابة التي يقوم بها الحفظة .

---

1 – سورة : البقرة ، الآية : 184 .

2 – سورة : الذاريات ، الآية : 17 .

3 – سورة : الذاريات ، الآية : 18 .

4 – سورة : المعارج ، الآية : 24 ، 25 .

﴿ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ .. وهنا مقابلة لبيان مصير من هم خلاف أولئك الأبرار ، ومعنى كلمة جحيم : هي شدة تأجج النار ، فالجُحْمة : هي شدة تأجج النار وتلهبها ؛ ولذلك يقولون : فلان جحمه الغضب .. يعني جعل الغضب عنده حرارة شديدة ، وجعل وجهه يغلي حتى التهب ، وأصبح مثل شعلة النار .

ونجد هنا انسجامًا تناغميًّا بين كلمة : " **الفجار** " وبين كلمة : " **جحيم** " لفظًا ومعنى ، فكلمة : " **الفجار** " تعني أنهم خرقوا ستر أوامر الله ﷻ ونواهيه ، و " **فجر** " : يعني خرج عن مطلوب الطاعة منه ، وما دام قد خرج عن مطلوب الطاعة فيكون مصيره الجحيم ، فهناك انسجام في اللفظ والمعنى .

﴿ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴾ .. وعندما نستعرض كلمة يصلى في القرآن نجدها تأتي دائمًا في الكلام عن النار .

﴿ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴾ .. يزيد الله ﷻ الأمر توكيدًا وتقريرًا ، فيقول : ﴿ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴾ ، لا فرارًا ابتداءً ، ولا خلاصًا بعد الوقوع فيها ، ولو إلى حين ، فيتم التقابل بين الأبرار وبين الفجار ، وبين النعيم وبين الجحيم ، مع زيادة الإيضاح والتقرير لحالة رواد الجحيم .

ولما كان يوم الدين هو موضع التكذيب ، فإنه يعود إليه بعد تقرير ما يقع فيه ؛ ليقرر حقيقته الذاتية في تضخيم وتهويل بالتجهيل ، وبما يصيب النفوس فيه من عجز كامل وتجرد من كل شبهة في عون أو تعاون ، وليقرر تفرد الله ﷻ بالأمر في ذلك اليوم العصيب ..

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ .. وكلمة : " **أدراك** " يُفهم منها أن هناك أملاً في أن يدريه الله ﷻ ؛ لأن الله ﷻ قد نفى أن يكون قد درى في الماضي ، وما دام قد نفى ذلك عنه في الماضي فإنه يمكن في المستقبل أن يدريه ، أما : " **ما يدريك** " فهي نفي الإدراء المستقبل أيضًا ، يعني : لن تدريه أبدًا ، فإذا رأيت ﴿ مَا أَدْرَاكَ ﴾ .. فاعلم أن هناك أملاً في أن

تدريه ؛ لأن النفي قــــــد جاء في الزمن الماضي ، ولكن " **ما يدريك** " فالنفي فيها في الزمن المستقبل .

﴿ **ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ** ﴾ .. وهنا تكرار للجملة ، وتقــرير لها بـــ : " **ثم** " ، فكأن هناك إدراءين : إدراءً إخباريًّا وإدراءً واقعيًّا ، **الإدراءالإخباري** : هو ما يخبرنا الله ﷻ عنه ، **والإدراءالواقعي** : فهو ما سوف يشاهده الإنسان بنفسه ؛ ولذلك قـال الحق ﷻ : ﴿ **ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ** ﴾ ، فالصور الكلامية لن تفي بـالمطلوب من الإدراء الواقـعي ؛ لأن الصور الكلامية تأتي على وفق أداء لغة الإنسان ، واللغات ألفاظ وضعت لمعانٍ ، والمعنىَ دائمًا متقـدم على وجود اللفظ ، حـيث يوجد المعنى فيوجد له اللفظ ، وحـيث كانت تلك الأشياء غيبيـة كلها ، فإن معناها ليس عندنا ؛ لذلك فلم توضع لها ألفاظ نســــتطيع أن نعرفها أو نفهمها ، وكل ما يأتي بــه الحق ﷻ فمجرد تقـريب لذلك اليوم ، فالذي يجعلك تفهم ذلك اليوم على حقيقته هو أن تشاهده .

﴿ **يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ** ﴾ .. وتلك قــضية فاصلة في حـــياة الإنســـــان ، وهذا اليوم يمتاز بخاصيتين : **الخاصيةالأول** : أنه لا توجد نفس تملك لنفس شـــيئًا ، **والخاصيةالثانية** : أن الأمر كله لله ﷻ ، ومع أن الأمر كله لله ﷻ في الدنيا وفي الآخرة ، إلا أن الحق ﷻ حــين خلق الخلق في الدنيا ســـخر الكون للإنســـان ، وأعطاه من أسباب الفكر والقوة والطاقة ما يتفاعل به مع ذلك الكون ، فتعطيه الأسباب مسبباتها ، فيظن الإنسان أن علاقته بالأسباب ، فالسحاب مثلاً هو الذي يأتي بالمطر ، والتربـة الخصبـة هي التي تنبـت الزرع ، وكلها أسبـاب ، ولكن الله ﷻ من ورائها عند المؤمن ، ولا يقـول ذلك إلا المؤمن ، فالمؤمن المتيقن يرى يد الله ﷻ في كل شيء ، وتبقى الأسبـاب سـترًا ليد الله في العطاء فقط ، وقد يقف الغافل عند الأسباب الظاهرية ، لكن المؤمن ينظر إلى ما وراء ذلك ، وفي الآخرة تنفض الأسباب ولا يبقى إلا المسبب وحده ﷻ .

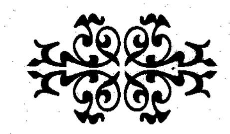
لا وزير ، ولا مشير ، ولا مجير ، ولا نصير ، ولا صداقة ، ولا خلة ، ولا شفاعة ، ولا أي شـــيء من ذلك ، فما كان يعرفه الناس في الوجود الدنيوي من الأسبـــاب ومن النصراء ومن الأولياء سيُمنع ، فهناك حياة مع المسبب فقط ، وما دامت حياة مع المسبب فقط فيكون الأمر لله ﷻ ظاهرًا وباطنًا .

فإذا اغتر إنسان بجاهه عند إنسان فقل له : إن هذا لا ينفعك ﴿ **يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا** ﴾ .

نسأل الله ﷻ أن يمدنا بما نعد به أنفسنا لهذا اليوم ؛ حتى نظفر بلقائه وحسن جزائه . .

إنه ولي ذلك والقادر عليه

والحمد لله رب العالمين . .











سُورَةُ المُطَفِّفِين







سورة المطففين

بسم الله الرحمن الرحيم .. أحمدك ربي ، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، ورحمة الله للعالمين ، وبعد ..

فمع سورة جديدة من سور الجزء الأخير من القرآن الكريم ، وهذه السورة تأخذ سياقها من التي قبلها ، ويلتقي سياقها مع ما بعدها في الغرض العام الشائع في هذا الجزء من أجزاء القرآن ، وهو تأكيد أمر البعث واليوم الآخر ، ذلك التأكيد الذي يتكرر في كل مناسبة في سور هذا الجزء ، وإذا كان أمر البعث قد أخذ هذا الحيز ؛ فلأنه يأتي في الناحية الثانية من القمة الإيمانية التي بدأت بالإيمان بالله ﷻ ، ثم ثنت بالإيمان بما يخبر الله ﷻ به من أمور الغيب كلها كالملائكة والكتب والرسل والقضاء والقدر واليوم الآخر ، فإن اليوم الآخر هو الحصيلة النهائية لذلك الإيمان كله ، فمن لم يؤمن بالله راغبًا فليؤمن بالله راهبًا ؛ لأنه سيلتقي به .

وسورة **المطففين** ترتبط بما قبلها وبما بعدها ، **فسورة التكوير وسورة الانفطار** تعلقتا بمقدمات اليوم في قول الله ﷻ : ﴿ **إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ** ... ﴾[1] إلى آخره ، وكذلك في قوله تعالى في **سورة الانفطار** : ﴿ **إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ** .... ﴾[2] إلى آخره ، وهذه مقدمة لليوم .. أي : الأهوال التي تصيب الكون لتنبئ بمجيء ذلك اليوم .

---

1 – سورة : التكوير ، الآية : 1 ، 2 .

2 – سورة : الانفطار ، الآية : 1 ، 2 .



ثم بعد تلك المقدمة لليوم يأتي شيء آخر ، وهو القيام لله رب العالمين ، وقد تعرضت هذ السورة لهذا الجزء من ذلك اليوم .. ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[1] .

ثم تأتي **سورة الانشقاق** بعد ذلك لتدلنا على النهاية النهائية لذلك اليوم بعد مقدماته ، وبعد الوقوف بين يدي الله ﷻ .. يوم أن يأتي أصحاب الإيمان فرحين بإيمانهم ، وينقلبون مسرورين .. ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾[2] ، ويأتي أصحاب الشمال ينقلبون في غم وحسرة وحيرة .. ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا * وَيَصْلَى سَعِيرًا ﴾[3] .

فالسياق كله يتعلق بمقدمات اليوم الآخر ، ثم بالوقوف بين يدي الله ﷻ لانتظار الفصل ، ثم بالنهاية التي يتوزع فيها الناس حسب أعمالهم حين يأخذون كتبهم إما بأيمانهم وإما بشمائلهم ، أو من وراء ظهورهم .

وأيضًا هناك مناسبة بين هذه السورة وبين السورة التي سبقتها وهي **سورة الانفطار** ، والسورة التي تليها وهي **سورة الانشقاق** ؛ لأن **سورة الانفطار** إنما تعرضت للكتبة الذين يكتبون أعمال الناس .. ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾[4] ، فمهمة هؤلاء هي أن يكتبوا ، ثم بعد ذلك تأتي السورة التي نحن بصددها ، وهي **سورة المطففين** تتكلم عن المكتوب نفسه .. ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴾ ، ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴾ ، فتعرضت السورة الأولى للكتبة ، وتعرضت السورة الثانية للمكتوب نفسه ، ثم نتيجة ذلك المكتوب فتتعرض له **سورة الانشقاق** .. ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا * وَأَمَّا مَنْ

1 – سورة : المطففين ، الآية : 6 .

2 – سورة : الانشقاق ، الآية : 7 – 9 .

3 – سورة : الانشقاق ، الآية : 10 – 12 .

4 – سورة : الانفطار ، الآية : 10 – 12 .

﴿ ... أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا * وَيَصْلَى سَعِيرًا ﴾[1] .. فهذه السور تتعرض للكتاب كتبةً ومكتوبًا وغاية واستلامًا .

فتناسب السياق موجود ، ولكن الملاحظ في هذه السورة هو أنها اتجهت إلى شيء آخر يتأتى بعد العقيدة ، وهو المنهج السلوكي للبشر .. واقع الحياة .. طبائع النفوس .. انتقلت فجأة من أمر عقدي كانت الدعوة مستهلة به في العهد المكي ، إلى أمر تقريري يقرر نظم الحياة والسلوك ، والعجيب أن بدء السورة كان بهذه المسألة .

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾

﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴾ .. انتقل الحق ﷻ من الحديث عن العقيدة إلى الحديث عن أمر سلوكي ينظم تعامل الناس في الأرض ، مع أن هذا الانتقال إنما كان من شأن السور المدنية ، بعد أن صار للإسلام دولة تقنن النظم ، وتضع الأسس للمجتمع ، وتضع أسس الإيفاء وأداء الحقوق ، والمعايير الدقيقة بين الحق والواجب في الناس ، أما أن يكون في سورة مكية فهذا أمر عجيب يستلزم النظر .

والحق ﷻ حينما شحن النفوس هذه الشحنة الإيمانية بالحديث عن الإيمان واليقين باليوم الآخر ، أراد ﷻ أن يلفتنا لفتة إلى أن العقائد ليست مطلوبة لذاتها ، وليس الإقرار باللسان بهذه العقيدة مطلوبًا لذاته ، وإنما العقيدة وإعلانها ، أي : الدخول في الإسلام بشهادة أن

1 – سورة : الانشقاق ، الآية : 7 ، 12 .

لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ، كل ذلك وسيلة لغاية ، تلك الغاية هي أن ينظم الحق سياسة البشر وحركة حياتهم .

إذن فالعقيدة والنطق بالشهادتين ، بل والإسلام كله إنما جاء ليؤكد نظامًا يسوس هذه الحياة وينظم حركتها .

فإن الخالق ﷻ حينما خلق الكون خلقه على لونين : لون لا اختيار للمكوّن فيه ، بل هو مسخر مُسَيَّر لا يملك أن يختار غير الطريق الذي قد رُسم له لتحقيق هدفه ، وهذا هو الكون كله باستثناء الإنسان ، وهو اللون الثاني : الإنسان ، فكل شيء ما عدا حركة الإنسان جاء بقانون التسخير .

ثم بعد كل ذلك التنسيق يفسد الكون حين يتدخل الإنسان بحركته وبجهله وبتنظيمه وبتشريعاته للأشياء ؛ ولذلك نقول : إن الحق ﷻ لفتنا هذه اللفتة حينما قال : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ .. من في السماوات ومن في الأرض من الغيبيات كالجن والملائكة ، بدليل أنه سيتكلم عن الإنسان بعد ذلك ، ﴿ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾ .. هذه هي أجناس الوجود كلها ، ثم لما جاء الحديث عن الإنسان لم يقل : والإنسان ، وإنما قال : ﴿ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ [1].. إذا فلم ينقسم الكون أبدًا إلا عند الإنسان ؛ لأن الإنسان له فكر وله غاية ، يختار بفكره ، أو يجمح بهواه إلى أشياء قد تخالف النظام المفروض على الناس ؛ لأنها تحقق للإنسان شهوة عاجلة ، ولا ينظر فيها إلى الجزاء الأخروي .

والمجال المقصود لهذا الكون كله هو أن يسير على قانون ثابت ، هذا القانون الثابت يعبر الحق ﷻ عنه بالميزان : ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [2].. إذا رأيتم الأرض والسماء وجميع أجرام

1 - سورة : الحج ، الآية : 18 .

2 - سورة : الرحمن ، الآية : 7 ، 9 .

الكون منتظمة في سيرها بشيء من الدقة لا تتصادم ولا تتعارض ، ولا يتأتى لها عطب فاعلموا أنها موضوعة في نظامها بميزان ، فإن أردتم أن تستقر أمور حياتكم هذا الاستقرار الدقيق فخذوا ذلك الميزان ممن خلقكم ، وما يجعل عالمكم يفسد هو أن تتركوا الميزان الذي وضعه لكم الله ﷻ ، ثم تضعوا من عندكم موازين بشرية ، ﴿**وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ**﴾ .. هذه واحدة ، ﴿**أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ**﴾ وهذه هي الثانية ، ﴿**وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ**﴾ .. إذا أردتم أن تستقيم أموركم – حتى الاختيارية منها – كما استقام الكون كله في نظمه العليا فخذوا نظام الله ﷻ وحكموه في حياتكم وأموركم .

ومن هنا جاءت هذه السورة لتؤكد أمر الميزان ، والميزان هو الآلة التي عرفها البشر أولاً في تقرير استيفاء الحقوق وأداء الواجبات ، فكل شيء بميزان دقيق .

إذًا فالحق ﷻ نقلنا نقلة من تأكيد الإيمان باليوم الآخر إلى شيء عملي في الحياة ، هذا الشيء العملي يقرر مبدأ عامًا ، فقد أخذ الحق ﷻ مبدأ من المبادئ التي هي الأساس في قوام الحياة ؛ لأن علم الإنسان في هذه الحياة محدود ، وزمنه لتعليم الأشياء محدود ، وحاجاته لا تنتهي ، فمع علم محدود وزمن محدود يواجه حاجات لا تتناهى ، فليس من الممكن أن يوجد إنسان يكون أمة وحده ، يستطيع أن يقوم بكل زوايا حياته لنفسه ، ولكن لابد من أن يقوم بزاوية من زوايا حياته ، ويصنع فيها شيئًا ، ويترك للآخرين مجالاً ليصنعوا في زوايا حياته ما لا يعرفه هو .

وهذا هو مبدأ التكامل بين الناس ، وما دام الناس متكاملين .. هذا يعطي هذا ما عجز عنه ، ثم يأخذ من الآخر ما عجز هو عنه ، فكل واحد يأخذ زاوية من زوايا الحياة يتفوق فيها حسب موهبته وقدراته ، ويؤدي مهمة لنفسه وللوجود من حوله ، فإذا ما أدى الإنسان ذلك كان هناك وسيلة للتبادل ، هذا التبادل ينشأ من وجود منتج ينتج أكثر من شيء ، فيأخذ حاجته ، ويرد ما زاد على حاجته على من لم ينتج أصلاً .



إذن فعملية التكامل لا يمكن أن تتأتى إلا بالتبادل ، هذا التبادل هو أن يصبح كل إنسان منتجًا في زاوية من زوايا الحياة ، ينتج لنفسه ولغيره ، والآخر هكذا ، أنا آخذ من غيري ما لا أحسن عمله ، وهو يأخذ مني ما لا يحسن عمله ، وذلك يؤدي إلى التكامل في المجتمع ، فهناك شيء اسمه الحق ، أنا آخذه ، وهناك شيء اسمه الواجب ، ينبغي عليَّ أن أؤديه ، والفيصل بين الحق والواجب هو أن توزن الأمور بموازين العدل والإنصاف .

إن مكونات الحياة – كما خلقها الله ﷻ – أن يطعم الله الناس من جوع ، وأن يؤمنهم من خوف ، فكل حركة الحياة للإطعام من الجوع وللأمن من الخوف ، والأمن من الخوف قوام المعاني النفسية ، والإطعام من الجوع قوام الحياة المادية .

﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ .. يستهل الحق ﷻ هذه السورة بأداة من أدوات الاستيفاء ، وعملية من عمليات أخذ الحقوق وأداء الواجبات ، فيقول : ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ ، فقد اختل عندهم ميزان الاستيفاء والأداء ، فيجب أن يكون الميزان واحدًا ، ما تستوفي به يجب أن تؤدي به ، أما أن تستوفي بالمعيار الواسع ، وتؤدي بالمعيار الضيق فذلك هو الظلم الذي ينشأ عنه الفساد في المجتمع .

ففساد المجتمع ينشأ من حرص الناس جميعًا على أن يأخذوا حقوقهم كاملة غير منقوصة إن لم تكن زائدة ، ثم حين يطلب منهم الواجب يؤدونه مطفوفًا ، فلو أن كل إنسان حرص على أن يؤدي واجبه كما يحرص على أن يأخذ حقه لاستقامت أمور الدنيا ، فالحق ﷻ يعرض هذه السورة فيقول : ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾ .. ثم بعد ذلك يشرح معنى المطففين فيقول : ﴿ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ .. واستهل الحق ﷻ السورة بكلمة : ﴿ وَيْلٌ ﴾ ، وهي نهاية العذاب المؤلم من الهلاك و الحزن

والغم والشر الذي يكتنف الإنسان من كل ناحية ، فالإنسان قد يصيبه عذاب يؤلمه في مادته ، ولكن الغاية من هذا العذاب قد تحبب للإنسان ذلك العذاب فينعم به نفسيًا ، ولكن الويل مختلف ، فهو عذاب مؤلم للحس ، وهو أيضًا همٌّ بالقلب وشرٌّ محيط ، فليس هناك أي منفذ .

ومعنى : ﴿ وَيْلٌ ﴾ هو واد في جهنم ، وهو مكان تجتمع فيه هذه الأمور كلها : المتاعب المادية التي لا حد لها ، والمتاعب النفسية التي لا حد له ، وكل ذلك يعبر عنه الله ﷻ بكلمة ويل .

وهناك من يقول : إن الويل هو الهلاك ، ومن يقول : هو عذاب مؤلم ، ومن يقول : شر محيط ، ولا مانع أبدًا أن يكون الويل واديًا في جهنم ، وتتحقق فيه جميع هذه الأشياء ، فإن الإنسان إذا عُذب وآلمه العذاب يظل ينتظر غاية من الغايات تخفف عنه هذا العذاب ، أما إذا كان مصيره جهنم خالدًا فيها ، فلن يخرج منها ، ولن يكون عنده أمل في أن يخفف عنه .

إذن فاستهلال السورة بـ : ﴿ وَيْلٌ ﴾ وهو العنف في العذاب الشديد ، لم يأتِ بعد ذلك بما هو متوقع ، فلم يقل مثلاً : ويل للقتلة ، أو : ويل لأصحاب الفحشاء ، أو ما شابه ذلك ، ولكنه يذكر شيئًا مما يستصغره الناس : ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾ .. والتطفيف هو الازدياد اليسير ، من طَفِّ الصاع أو الكيل ، وذلك حين تأخذه من جانب وتضعه في جانب آخر فقد تخونك يدك ، فيكون ذلك سببًا في الويل .

وهل يستحق هذا التطفيف القليل أن يكون جزاؤه هذا الجزاء الشديد ؟! نعم ؛ لأن هذا الشيء القليل يدل على حقارة النفس ، كأن تكون غنيًا ، وتمتلك الجاه من الشيء التافه ، وإذا كنت تفتري في الشيء التافه فالافتراء على الشيء الأكثر منه وارد ؛ لأنه ما دامت النفس قد وصلت إلى هذا المستوى وتريد أن تأخذ من الشيء الحقير ، فمن باب أولى أن تأخذ من الشيء الأكبر .

﴿ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴾ .. وعندما ننظر إلى الأداء القرآني نجده



يصور لنا حالة اجتماعية كانت شائعة وموجودة ، فهناك من يملكون أقوات الناس بجاههم وبسلطانهم وبمركزهم وبما يملكون من أموال ، ولذلك تجد العبارة القرآنية : ﴿ **اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ** ﴾ .. فكان القياس أن يقول : اكتالوا من الناس ، يعني : أخذوا منهم كيلاً أو وزنًا ، ولكنه قال : ﴿ **اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ** ﴾ ، فكأن الاكتيال ليس منهم ؛ لأن : " **منهم** " تدل على المساواة ، أما : " **عليهم** " فتدل على أن الذي اكتال له من السلطان ومن السيطرة ومن القهر ومن الإرهاب ومن التمكن ما لا يجعل للمكتال منه سببًا في اختياره .

﴿ **وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ** ﴾ .. فلم يقل : " **كالوا** " ، وإنما قال : ﴿ **كَالُوهُمْ** ﴾ ، فهم ليسوا ملحوظين في الصفقة ، كأن شخصًا يعقد صفقة مع غيره ، وذلك الذي يعقد معه الصفقة لا وجود له ، فلا هو آخذ ولا هو معطٍ ، فالآية تفيد أن هناك جماعة مسيطرين على اقتصاديات الناس ، ومسيطرين على مقومات الحياة ، فإذا أخذوا منهم أخذوا حقوقهم باستيفاء يصل إلى درجة الجور ، وإذا أدوا هم فإنهم يُخْسِرون .

﴿ **وَإِذَا كَالُوهُمْ** ﴾ .. تدل على أن الطرف الأخير معطٍ ، والطرف الأول آخذ ، وكالوهم : اكتالوا منهم ، وكالوهم يدل على العكس ، وهذا يدلنا على أن أصحاب المحاصيل أو المنتجين يذهبون بإنتاجهم أول العام ويعطونها للسادة ، ثم بعد ذلك يأتون تباعًا ، فيأخذون أقواتهم يومًا بيوم ، وذلك يدل على سيطرة غاشمة ، يريد الحق ﷻ أن يعالجها .

ومما يثير العجب أن هذه السورة مكية ، أي نزلت بمكة ، ونحن نعلم أن السور المكية لم يكن من خصائصها تقنين القوانين ، ولا سن التشريعات [1].

ولكن الحق ﷻ يريد أن يعطينا لفتة هامة عند الحديث عن العقائد ، وهو أن العقائد والعبادات مطلوبة بذاتها ، وليست مطلوبة لذاتها ، إن العقيدة والعبادة عبارة عن وسيلة

---

1 - نعم .. هناك من قال : إنها مدنية ، كالحسن وعكرمة ، ومن قال : إنها نزلت بين مكة والمدينة ، ولكن الراجح كما قال ابن مسعود والضحاك ومقاتل أنها مكية والله أعلم.

لشحن النفس لكي تستقبل نظام الله ﷻ في حركة حياة الناس ، فجاء بذلك الشيء الذي كان له وجود في قريش صاحبة رحلتي الشتاء والصيف ، وهي التي تتحكم في المسائل كلها ، وأهلها هم السادة المطاعون ، ولا أحد يقدر على أن يرفع رأسه عليهم .

ويلاحظ أنه حين قال : ﴿ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ ﴾ لم يأت بالميزان ، ولكن حين قال : ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ ﴾ أتى بالكيل والميزان معًا ، مما يدل على أنهم من جبروتهم وقسوتهم كانوا يأخذون كل شيء بالكيل ، وعندما يعطون ويبيعون ، فإنهم يبيعون شيئًا بالكيل وشيئًا بالوزن ؛ لأن الكيل قد يمكنهم من التطفيف ، ولكن الميزان عملية واضحة والتطفيف فيها صعب نوعًا ما .

فأراد الحق ﷻ في خضم إهاجة الناس بذكر البعث واليوم الآخر والإيمان به أن يدخل في صميم المسألة التي تتعلق بأوليات الحياة ، وهي الكيل والوزن ، ليس المراد هو الكيل والوزن فقط ، وإنما المراد هو استيفاء الحقوق ، فالأجير مثلاً كما أنه يأخذ حقه فلابد وأن يؤدي واجبه ، والموظف يأخذ راتبه فلابد وأن يقوم بدوره ، فكل أداء وكل إيفاء لابد أن يخضع لمنطق الميزان والعدل والحق ، فإن أراد الناس أن تستقر أمورهم اقتصاديًا ومعنويًا وأدبيًا واجتماعيًا فليضعوا هذا المبدأ نصب أعينهم ، وهو أن يستوفوا بالمعيار الذي يؤدون به ، فمن أراد أن يستوفي حقًا له فلابد وأن يؤديه حين يكون عليه يومًا ما ، ولا تجد فسادًا في أي مجتمع إلا حين يخالف الناس هذه القاعدة .

وقد يتساءل البعض : ما الذم في أنهم إذا اكتالوا على الناس يستوفون ؟! فنقول : إن الويل في الآية للمجموع ، أي أنهم عندما يأخذون يستوفون ، وعندما يعطون ينقصون ، فليس الويل للاستيفاء في الأخذ فقط ، وإنما لقرنهم الاثنين معًا ، فيكون ذلك نموذجًا سلوكيًا في النفس ، فلماذا عندما تأخذ تستوفي ، وعندما تعطي تنقص ؟!

وعندما نتدبر في كلمة : ﴿ وَيْلٌ ﴾ ، هل هي خبر أم دعاء .



فمن المعلوم أن الذي يدعو على إنسان بالويل لا يملك أن ينزل به الويل ، فهو يدعو من يقدر على إنزال هذا الويل بالمدعو عليه ، فإن دعوته تدل على عجزه عن أن يلحق الويل بخصمه ؛ لذلك دعا من يملك ويقدر على أن إنزال هذا الويل .

لكن إذا كان الله ﷻ هو الذي يقول هذه الكلمة ، وهو القادر على أن ينزل ذلك الويل ، فقد التقى الدعاء والإخبار في قول الله ﷻ ، فالدعاء من العبد شيء والإخبار شيء آخر ، ولكن حين يصدر من الله ﷻ ، فالدعاء من الله على خلقه بالويل معناه أن الويل واقع لا محالة .

إذن فلا مجال لاختلاف المفسرين فيها : هل هي دعاء ، أم خبر ؛ لأن الدعاء والخبر بالنسبة لله ﷻ سيان ، فما داما صادرين منه فهما واقعان ، فإذا كان الله ﷻ هو الذي يدعو فقد التقى الدعاء مع الخبر ، وتكون : ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾ دعاء عليهم ، وفيها إخبار كذلك بأن ذلك حاصل .

﴿ أَلاَ يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴾ .. يعود مرة أخرى لنفس الموضوع ، وقد استُهل الأسلوب بإهاجة النفس للإيمان باليوم الآخر ، ثم يذكر قضية اجتماعية تتعلق بمعاش الناس ، ثم بعد ذلك يعود إلى القضية الأصلية ، ﴿ أَلاَ يَظُنُّ أُولَئِكَ ﴾ .. والسبب في أنه ذكر الظن هو أن مجرد ظن الشر يكون كافيًا في أن يردع الإنسان عن العمل ، فلو قال لي شخص : لا تسِر من هذا الطريق ؛ لأنني أظن أن فيه خطرًا ..فدفع الشر في هذه الحالة يجعلني أعتبر الظن كأنه يقين ، فإذا كان مجرد الظن يكفي هؤلاء في أن يرتدعوا عن التطفيف ، فما بالك إن كان يقينًا ؟!

﴿ أَلاَ يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴾ .. وهنا استفهام تعجب لحالتهم ؛ لأن مقاييس النفع والانتفاع يجب على العاقل ألا ينظر إليها نظرة آنية ، فالنفع ليس هو ما ينفعني الآن ، لكن النفع هو الذي لا منغصات بعده ، فليس كل شيء يحقق لي نفعًا ذاتيًا الآن يكون حسنًا ، فهذا التطفيف سيؤدي إلى نفع عاجل بشيء بسيط ، ولكن لو نظروا إلى نتائج الأشياء

فسيجدون أنه يحقق ضررًا أكثر وأكبر وأخلد .

وفي هذه الآية فائدة عظيمة أيضًا ، وهي أن الذين يصنعون ذلك شر من الكفار ؛ لأن الله ﷻ قـــال عن الكفار : ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّه حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لاَ رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ [1] ، ولكن هؤلاء لا يوجد عندهم حتى الظن في اليوم الآخر ولقاء الله ﷻ .

﴿ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ .. ووصف الحق ﷻ ذلك اليوم بالعظمة ؛ لأنك إذا قارنته بأي شيء وجدته أعلى منه وأعظم .

فإذا ما قارنت النفع العاجل في يومك الحاضر بالنفع الآجل يوم القيامة وجدت أن نتيجة المقارنة واضحة ، فمن مبادئ الاقتصاد أنني إذا أردت أن أقوم بصفقة تجارية فإن ذلك لكي تحقق لي نفعًا أكبر مما بذلته فيها ، فإن لم تحقق لي ذلك النفع فإنها تكون صفقة فاشلة .

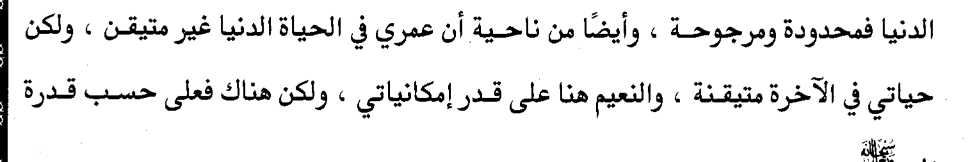
فهؤلاء الذين يطففون المكيال يريدون أن يحققوا لدنياهم شيئًا من الرخاء والرفاهية ، وهذا في حد ذاته حسن ، ولكنهم ليسوا اقتصاديين ؛ لأن هذه الصفقة لم تحقق الربح المناسب ، وهو أنهم ضحوا بآخرتهم لأجل متاع قليل من متاع الدنيا ، وهذا من الخسران المبين .

فهذه الدنيا مثلاً لا نتعب أنفسنا في حساب عمرها ؛ لأن عمر الدنيا عندي هو مقدار حياتي فيها ، فإن بقيت الدنيا مليوني سنة فإنما تبقى لغيري ، ولكنها منتهية لا محالة ، إذن فأنا عندما أقيس النفعية أبحث في مقدار حياتي في الدنيا ، فإذا ما كانت حياتي فيها غير متيقنة ، فمن الممكن أن أعيش سبعين سنة أو مائة سنة ، ومن الممكن أن أموت الآن ، فمع كونها محدودة فهي ليست متيقنة أيضًا ، وأيضًا فالنعيم فيها يكون على قدر إمكانياتي في أسباب المعيشة ، ولكن النعيم في الآخرة إنما يكون على حسب قدرة الحق ﷻ .

إذن فحينما أقارن الدنيا بالآخرة تكون الآخرة هي الراجحة في أنها غير محدودة ، أما

---

1 – سورة : الجاثية ، الآية : 32 .



الدنيا فمحدودة ومرجوحة ، وأيضًا من ناحية أن عمري في الحياة الدنيا غير متيقن ، ولكن حياتي في الآخرة متيقنة ، والنعيم هنا على قدر إمكانياتي ، ولكن هناك فعلى حسب قدرة ربي ﷻ .

إذن فالمقارنة من ثلاثة أوجه تجعل اليوم الآخر هو الراجح ، وهو العظيم ، وما عداه فليس عظيمًا ولا راجحًا ، فعندما تقارن الأشياء لا تقارنها بما أنت فيه الآن ، ولكن قارنها بما تؤول إليه تلك الأشياء ، فإذا قارنتها بما تؤول إليه هان عليك أمر الدنيا ، وتبين لك أنها زخرف وغرور ، وأنها متاع زائف إذا ما قورنت باليوم الآخر ، فإذا كان ذلك اليوم هو الذي يحقق المتعة الدائمة والنعيم المقيم فإنه يكون هو اليوم العظيم .

﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .. وهنا جانب آخر من جوانب العظمة ؛ لأن ضبط أمور الناس في الحياة ترجع إلى بعض الأسباب الكونية ، فهذا يقف أمام قاضٍ ، وذاك يقف أمام وزير ، والمرءوس يقف أمام رئيسه ، يعني أنت واقف موقف المسئول كسبب أمام سبب ، أما في هذا اليوم فلا أحد يقف أمام أحد أبدًا ، بل الكل سيقف أمام الله ﷻ ، فكل الأسباب والأشياء التي خلقها الله ﷻ من أجل صلاحية الكون ونظامه ، كل ذلك سينتهي ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

فهذا موقف يجب أن نخاف منه ، فأنت ساعة ما تقرأ : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .. تشعر بهيبة الوقوف ورهبته ، وكلمة : ﴿ يَقُومُ ﴾ تدل على فزعة الوقفة ، فساعة ما يكون الناس جالسين ثم يدخل عليهم رئيسهم أو المتولي شئونهم فإنهم في الغالب يهبون للوقوف له ، ولله المثل الأعلى ، فما بالك برب العالمين ﷻ ؟!

فكلمة : ﴿ يَقُومُ ﴾ هذه تنبه على أن الناس في غير ذلك اليوم كانوا قاعدين في تراخٍ وتكاسل ، ولكن عندما جاء هذا اليوم فإن الكل يقوم ينظر ؛ ولذلك فمن هول ذلك الموقف وشدته أن الناس يتمنون انصرافهم ولو إلى النار ، وكل ذلك يدل على هول الموقف وشدته .

﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .. وكلمة : ﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أيضًا فيها إيحاء وإشارة ، حيث يكون القيام أمام الرب ﷻ ، الرب المتولي التربية ، المتولي التأديب ، أي أنك لا تقف أمام من ليس لديه عنك فكرة ، أو من لا علم له بك ، كلا .. إنه ربك ، مربيك ومعدك الإعداد التربوي العقدي الذي يجعلك لا تقف له في هذا اليوم إلا موقف العزة ، إذن فأنت تقف أمام من يعلم كل شيء عنك ، لا تستطيع أن تقول : أنا لا أعرف .. لأنه أرسل إليك رسلاً ، ولا تستطيع أن تقول : ليس عندي استعداد .. لأن الله ﷻ قد خلق لك عقلاً تفكر به وتعقل .

إذن فكلمة : " **رب** " تفيد هول الموقف ، حيث إنك واقف عند خالق يعلم خلقه ، ويعلم الأطوار التي مرت بها عملية الخلق ، ويعلم أنه ما جعل لخلق من خلقه حجة ولا عذرًا ، وما دام لم يجعل لخلقه حجة ولا عذرًا فإن الموقف هنا موقف عسير إلا على من يسره الله ﷻ له .

كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ﴿٨﴾ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ﴿٩﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾

﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ﴾ .. بعد ذلك يتحدث الله عن الفجار ، ثم يرجع إلى الكتاب ، وكما قلنا : إن السورة السابقة تعرضت للكاتبين ، وهنا يتعرض للكتاب نفسه : ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ ، ثم يشرح معنى سجين ، ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ﴾ ، يعني : شيء يُستفهم عنه ، شيء لا يمكن للعقل العادي أنه يعرفه ما لم يُخبر به من يعرفه ، فعندما يقول لك : وما أدراك ما كذا ؟! يعني : لا توجد عندك أسباب تعرفك ما هو ، إلا إذا كنت أنا أعرفك ، فكأنه بلغ من دقته ، وبلغ من عظمته ، وبلغ من غيبيته عن مستويات



الناس ، أنه لا يمكن أن تعلمه إلا إذا أخبرك به خالقك .

وكلمة : ﴿ كَلاَّ ﴾ كما قلنا : تفيد الردع والزجر ، والردع والزجر منصب على ما قبلها ، وهو : ﴿ أَلاَ يَظُنُّ ﴾ ، أي : أنهم لا يظنون أنهم مبعوثون ، فزجر عن هذا ، ثم سماهم فجارًا ؛ لأن الفاجر هو الذي يخرق ستر التكليف ، فَجَر يعني : شق ستر الطاعة ، أو شق ستر التكليف ، ﴿ كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴾ .

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴾ .. يشرح لنا الحق ﷻ معنى كلمة سجين ، فيقول : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴾ .. أدرانا هو ، فقال : ﴿ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴾ .. فإذا وجدت : ﴿ مَا أَدْرَاكَ ﴾ في القرآن فانتظر أن يُعْلِمَك الله به ، أما إذا وجدت : ﴿ مَا يُدْرِيكَ ﴾ فلا تنتظر أن تعرفه ؛ لأن ﴿ مَا يُدْرِيكَ ﴾ نفي للإعلام في المستقبل ، أما ﴿ مَا أَدْرَاكَ ﴾ فهي نفي للإعلام في الماضي ، ونفي الإعلام في الماضي يمكن أن يتم الإخبار به في الحاضر أو المستقبل ، أما عندما ينفى الإعلام في المستقبل فذلك يعني أنه لن يتم الإخبار به ، فتكون المسألة قد انتهت .

﴿ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴾ .. وكلمة : ﴿ مَرْقُومٌ ﴾ يفسرها العلماء بقولهم : الرقْم وسيلة من وسائل التوثيق ، وهذا دليل على أنه لا يضيع أبدًا ، هذا معنى ، وهناك معنى آخر ، وهو : مرقوم : أي له رقم بحيث يعلم به ويعرف ، وبحيث يكون سمة له ، فعندما يراه الناس يقولون : هذا كتاب الفجار .. وكأنه كتاب فيه من سمت البشاعة ما يوحي لمن يراه بأنه كتاب فجار ، وهذا معنى ثانٍ ، والمعنى الثالث هو أن : ﴿ مَرْقُومٌ ﴾ أي : مخطوط ، ومعنى الخط هنا : أنه لا يتخطى شيئًا مما كُتب فيه ، ولا يتصور أحد أنه يُزاد فيه أو يُنقص .

إذن فهو كتاب موثق أتم التوثيق ، والذي كتبه هم الذين قال عنهم من قبل : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾[1] ، وكلمة : ﴿ سِجِّينٍ ﴾ مأخوذة من السجن ، وهو الحبس ، فكأن الكتاب موضوع أيضًا في سجين مبالغة في السجن ، فيكون

---

1 – سورة : الانفطار ، الآية : 10 – 12 .

معنى ذلك أنه كتاب محافظ عليه ؛ لأنه مرقوم ، ومُعلَّم بعلامة ، بحيث أنك عندما تراه تقول : هذا كتاب الفجار .. لأن له بشاعة وشدة ، فينفر منه الناس ، ومختوم بختم بحيث لا يمكن لأحد أن يفتحه ، أو أن يغير فيه شيئًا .

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ .. عاد ثانية للويل ، ولكنه في هذه المرة للذين يكذبون ، وهؤلاء المكذبون كثيرون ، والكذب هو أن لا يطابق كلام الإنسان الواقع ، والكذب أنواع ، وكذلك التكذيب أنواع ، وشره أن يكون تكذيبًا ليوم الدين ؛ لأنه يكون تكذيبًا بالقمة ، فمن المعقول أن نكذب في جزئية من جزيئات الحياة ، أما التكذيب بالقمة فهذه مسألة صعبة .

﴿ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلاَّ كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾ .. والمعتدي هو الذي يجترئ على الحق ، ويوم الدين حق ، فالذي يكذب به يكون معتديًا ؛ لأن الله ذكر أصلاً عقديًّا أنت تريد أن تخالفه ، وأثيم لأن عدم إيمانه به ، وإعراضه عنه جعله يلج في الإثم ؛ لأن هناك فرقًا بين الآثم والأثيم ، فإن الآثم هو الذي قد يفعل الإثم ، أما الأثيم فهو الذي قد اعتاد الإثم ، فأصبح الإثم ملكة عنده ، وما دامت عنده ملكة الإثم فسيتكرر منه ذلك الإثم لا محالة .

إن الذي يكذب بيوم الدين رغم كل تلك الآيات التي تذكره بذلك اليوم ، وتذكره بهوله ، وتذكره بأنه حق ، عندما يقرؤها يكذب نفسه ، فهذا الإنسان ليس عنده قدرة على أن يحمل نفسه على مشقة التكاليف ، وعندما لا يجد من نفسه القدرة على حمل مشقة التكاليف تجده يكذب نفسه ، فيقول : إن اليوم الآخر ليس له وجود ، فنقول له : إن اليوم الآخر له وجود ، ولكن أنت الذي تكذب نفسك ؛ لأنك غير قادر على أن تحمل نفسك على مشقة التكاليف ؛ ولذلك تريد أن تجعل لنفسك شيئًا من الأمل في أن يكون اليوم الآخر غير موجود ، ولكن الرسل كلهم حذروا أقوامهم منه ، جميع الأنبياء تحدثوا عن اليوم الآخر .

﴿ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ .. فأساطير الأولين هذه في السورة كالأساطير التي تحدث عنها السابقون : ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ



بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ [1] ، وقالوا : إن الأسطورة هي الشيء من الأباطيل ، وما ليس له وجه ، وآباؤنا أيضًا استقبلوه وأنكروه ، ونحن لسنا بدعًا في هذه المسألة ، فكما عملوا عملنا .. وهذا أيضًا لون من ألوان تكذيب النفس ، حين لم يقدروا على أن يحملوا أنفسهم على مشقة التكاليف .

كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾

﴿ **كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُون** ﴾ .. يذكر الحق ﷻ : ﴿ **كَلاَّ** ﴾ مرة أخرى ؛ ليعطي السبب الذي من أجله تمسكوا بهذا الموقف : الاعتداء والإثم ، وبعد ذلك قالوا : أساطير الأولين ، وهذا الذى حملهم على هذا الهروب من التصديق بهذا اليوم وهم مشركون ؛ لأنهم لو صدقوا باليوم وهم مشركون ، فإنهم يعتبرون عذابهم صحيحًا ؛ لذلك فالأفضل لهم من وجة نظرهم أن يكذبوا بهذا اليوم .

إن الذي جعلهم يقفون هذا الموقف ، أن الرين ، أو طبقة الحجاب ، أو طبقة الصدأ على اليقين ، قد دخلت قلوبهم ، فموقفهم هذا نتيجة ما كسبته أيديهم ، فالذي كسبته أيديهم جعل الران على قلوبهم ، وهذا الران هو الذي أشار إليه رسول الله ﷺ في حديث **حذيفة بن اليمان** ﷺ ، إذ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " **تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودًا ، فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء ، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة**

1 – سورة : الفرقان ، الآية : 5 .

بيضاء ، حـــتى تصير على قلبـــين : على أبـــيض مثل الصفا ، فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض ، والآخر أسود مرباداً كالكوز مجخيًا ، لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا إلا ما أشرب من هواه "[1] ، ونحن نعرف أن الحصير حـين تجف أعواده تُضم وتُربـط ببعضها البعض ، إذن فهذه الحصيرة الكبيرة تتكون من عود مع عود ، فالرسـول ﷺ يريد أن يشبه الفتنة التي تأتي على القلب بعود الحصير .

﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ .. يعني : غطى على قلوبــهم ، أو عمل طبقـــة صدأ على قلوبهم ، أو عمل حجابًا على قلوبـهم ، وسبـب ذلك هو ما كانوا يكسبـون ، إذن فكثرة الغفلة هى التى أدت إلى هذا الران ، فلم يجدوا منفذًا ولا خلاصًا أمام نفوسـهم إلا أن يكذبــوا بــيوم الدين ، فتكذيبهم بيوم الدين جاء من الران الذي على قلوبهم .

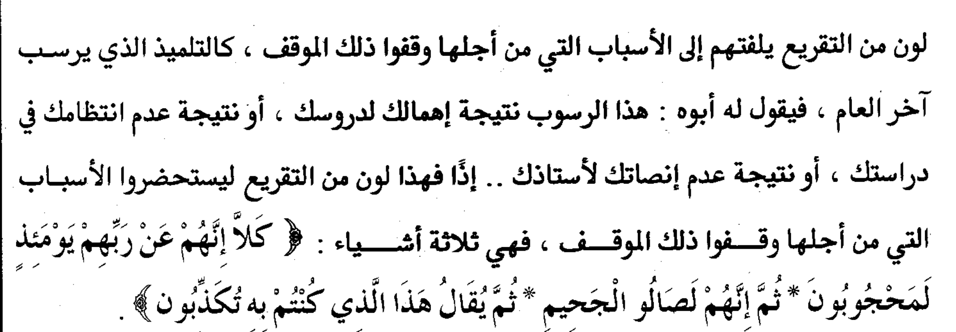
﴿ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ .. وتأتي كلمة : ﴿ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ بــعد : ﴿ بَلْ رَانَ ﴾ ؛ لأن الران هو الحجاب الذي يأتي على القـــــلب ، فكأن الذي لا يريد أن يُحجب عن ربه لا يحجب قلبه ، ومن يحجب قلبه فسيُحجب عن ربه ؛ لأن القلب هو محل الاعتقاد واليقين ، فعندما تحجبه بالإثم والاعتداء والمعاصي فإنك تُحجب عن ربك .

﴿ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ قـد يظن البـعض أن هذا معنى نفســي ؛ لأن ذلك الحجب إنما يؤلم النفوس ولا يؤلم الأبـدان ، فنقـول له : إن أمر النفوس والمعنويات ليس لها عندهم اعتبـار ، فلو أن عندهم إحسـاسًا أو شـعورًا أو كرامة لكان كافيًا أن لا تجعلهم هذه الأعمال يلتقـــون بحضرة الحق ﷻ ، فإذا لم يهمهم ذلك ، فإن جزاءهم في قـــول الحق ﷻ : ﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ * ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ فهـذا لا يعفيهـم من أنهم صالو الجحيم ، فجاء بالمعنى الحسي المادي .

﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ * ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ .. في هـذه الآيـات

---

1 - أخرجه مسلم (207) .



لون من التقريع يلفتهم إلى الأسباب التي من أجلها وقفوا ذلك الموقف ، كالتلميذ الذي يرسب آخر العام ، فيقول له أبوه : هذا الرسوب نتيجة إهمالك لدروسك ، أو نتيجة عدم انتظامك في دراستك ، أو نتيجة عدم إنصاتك لأستاذك .. إذًا فهذا لون من التقريع ليستحضروا الأسباب التي من أجلها وقفوا ذلك الموقف ، فهي ثلاثة أشياء : ﴿ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ * ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ .

كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرۡقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾

﴿ كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴾ .. أراد الحق سبحانه وتعالى أن يذكر المقابل ، فيذكر كتاب الأبرار ، حيث يقول : ﴿ كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴾ ، فكتاب الفجار في سجين ، وكتاب الأبرار في عليين ، وعليون : كلمة تشعر بمقام العلو تحت عرش الرحمن ، أو في مكان معين ، المهم أنهم في عليين .

ثم يقول : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ .. وكأن للعلو في لغة الناس وفي استعمالهم له معانٍ حسب أداء لغتهم ، ولكن لا نأخذ تلك المعاني حسب مدلولات لغتنا ؛ لأن هذه معانٍ فوق مدلولات لغتنا ، إلا أن الحق سبحانه وتعالى خاطبنا بالألفاظ التي نعرفها ؛ لأن اللغة ألفاظ توضع بعد وجود المعاني ، ولما كانت هذه الأشياء ليس عندنا لها معنى ، فليس عندنا ألفاظ تؤديها ، فيعطينا الله تمثيلات لها كأنه يقول : لا تظن أن عليين أو سجين كما تفهم من لغتك .

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴾ .. هنا تجد : ﴿ مَرْقُومٌ ﴾ ، وهناك في الكتاب المقابل تجد : ﴿ مَرْقُومٌ ﴾ أيضًا ، ولكن لا يتفلت شيء من الشر منه إلى الآخر ؛ لأن المكتوب فيه شر ، وهنا : ﴿ مَرْقُومٌ ﴾ لا يتفلت شيء من الخير منه إلى الآخر .

إذن فكلمة : ﴿ مَرْقُومٌ ﴾ لها معنى هنا ، ومعنى آخر هناك ، واللفظ واحد ، ومقصود به أنه كتابٌ سجينٌ ؛ لأن صاحب الشر كان يحب أن يتفلت شيء مما كتب في ذلك الكتاب ؛ لأنه كله شر ، أما صاحب الخير فلا يحب أن يتفلت شيء من الخير فيه .

إذًا ، مرقوم : أي ممنوع أن يتفلت منه شيء .

فكلمة ﴿ مَرْقُومٌ ﴾ : أعطت هناك معنى ، وأعطت هنا معنى آخر ، أعطت هناك معنى مسيئًا ؛ لأن الحق في الكافر أن يساء ، وأعطت هنا معنى يفرح ؛ لأن الحق في البارّ أن يفرح .

﴿ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ .. وكأنه كتاب مفرح ، فكل مقرب من الله و من عالمه الأعلى يحب أن يشهده ؛ لأنه ينعم بما فيه ، ويحب الثناء بما فيه ؛ لأن الملائكة ﴿ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾[1] ، وهم كذلك : ﴿ لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[2] .

إذن .. فالذي يؤدي طبيعة التكليف ، والأداء التعبدي على حق ، مثل هذا يسر من كل عمل وينسجم معه في الخير ، ويفرح عندما يرى أحدًا منسجمًا معه ؛ ولذلك تنسجم الأمكنة بالعباد ، فالعابد عندما يعبد الله في مكان ويصلي فيه ، فالمكان ينسجم معه ، فيصبح المكان عابدًا لا تأتي منه معصية .

وذلك كما قال علي رضي الله عنه : " إذا مات ابن آدم ، بكى عليه موضعان : موضع في السماء ، وموضع في الأرض ، أما موضعه في الأرض فموضع مصلاه ، وأما موضعه في السماء ، فهو

---

1 – سورة : الأنبياء ، الآية : 26 ، 27 .

2 – سورة : التحريم ، الآية : 6 .

مصعد عمله الطيب " .

وكما قال ﷺ : " أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد "[1] .

ولذلك قال الحق ﷻ عن قوم فرعون : ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ ﴾[2] ، فنفى أن تبكي عليهم السماء والأرض ، وهذا يعني أنها تبكي على مقابلهم ، وإلا لو كانت طبيعتها أنها لا تبكي ، لم يكن البكاء يذكر في حقها ، ولكن الله ﷻ قال : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ ﴾ ، فيكون ذلك دليلاً على أنها تبكي على المقابل الذي هو من المسلمين القائمين بمنهج الله ﷻ .

وهذا البكاء هو أسمى ألوان العواطف التي تميز بها الإنسان ، فلم يجعل الله ﷻ للأرض تسبيحًا فقط ، وإنما جعل لها عواطف أيضًا ، بحيث إنها لا تبكي على الفاسق أبدًا ؛ لأنها استراحت منه ، ولكنها تبكي على العابد ؛ لأنها حُرمت من صنف من الوجود ينسجم معها في العبادة .

وقد يكون معنى .. ﴿ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ .. أي أنهم يشهدون لصاحبه على صلاح حاله وأعماله شهادة تقربه من الله ﷻ في ذلك اليوم العصيب ، أي يكون ذلك توثيق شهادة بعد أن كان توثيق تثبيت .

---

1 - أخرجه مسلم (744) ، وأحمد (9083) ، وأبو داود (741) ، والنسائي (1125) ، جميعهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

2 - سورة : الدخان ، الآية : 25 - 28 .

إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخۡتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٌۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيۡنًا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾

﴿ **إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ** ﴾ .. ما هو النعيم ؟! إن النعيم هو ما يتنعم بـه الإنسـان ، أو هو ما يبلغ به الإنسان أوج الرضا وأعلى شـيء منه ، وهذا النعيم يجعله أوجب بـهذا الاسم من أي نعيم في الدنيا ؛ لأن أي نعيم في الدنيا يكتنفه أمران : إما أن أفارقـه ، وإما أن يفارقـني ، فإن النعيم لا يدوم ، إما أن أموت وأترك النعيم ، وإما أن يتركني ذلك النعيم ، بـــل عندما يكون عند إنسـان في الدنيا حـظ من النعيم ، فلابـد وأن يأتيه شـــيء يعكر عليه هذا النعيم ، فإما أن أفارق النعيم ، وإما أن يفارقني النعيم ، لكن النعيم في الآخرة يبقى خالدًا ، وكذلك صاحبه .

﴿ **عَلَى الأَرَائِكِ** ﴾ .. وهذه هي عادة العرب ، وكما قـــلنا من قبـــل : إن الصور التي في الآخرة عن الجنة وعن النار وما فيهما إنما يعبَّر عنها بـــألفاظ لغتنا ، واللغة يوجد المعنى فيها أولاً ، ثم يوجد له اللفظ ، فنحـن لا نضع في لغتنا ألفاظًا إلا لما نعرفه من معانٍ ، والشـيء الذي يكون في الجنة لا يخطر على قلب بشر ، ولذلك لا يوجد أبدًا لفظ في اللغة يؤديه ، ولذلك يقول الحق ﷻ : ﴿ **مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ** ﴾ [1]، فذلك مثل فقـــط ، وليس وصفًا للجنة ؛ ولذلك يقـول : ﴿ **فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ** ﴾ [2]، وما دامت النفس لا تعلم ،

1 – سورة : الرعد ، الآية : 35 .

2 – سورة : السجدة ، الآية : 17 .

فإن أي لغة ليس فيها من الألفاظ ما يؤدي المعاني التي تكون في الجنة ؛ ولذلك فإن الله يذكر لها صورة تقريبية ، بما نعلم من لغتنا منزوعًا منها المكدرات ؛ لأن كل نعمة موجودة عندنا يكون فيها شيء يكدر ، أما حين يتحدث الله ﷻ عن الجنة فيقول : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ﴾ ، ويشبهه لنا أيضًا بالماء عندنا ، ولم يذكر فيه شيئًا غير ما في الدنيا ، ﴿ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴾ [1] ، وذكر وصف ﴿ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴾ لأن خمر الدنيا ليس فيها لذة ، فهم يشربونها لأجل السكْر فقط ، ولكنها في ذاتها ليس فيها لذة ، أما خمر الجنة فاللذة الكاملة ، وخمر الدنيا تغتال العقول وتحجبها ، أما خمر الجنة فلا تغتال العقل ، فمع أن الله ﷻ قد أعطانا صورة من الدنيا ، إلا أنه نفى المكدرات الموجودة في تلك الصورة .

إذن فقول الحق ﷻ : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴾ .. يعطينا صورة للنعيم الذي كان موجودًا عند العربي ، و صور النعيم تختلف من مكان لآخر ، فكل إنسان له تصورات في النعيم حسب مرائيه وتصوراته ، فالعربي – مثلاً – أقصى ما يصل إليه من النعيم أن يجلس على الأريكة جلوسًا مريحًا ، وتلك هي فكرة التسامي في النعيم ، لدرجة أنه يعطي الإنسان الجلوس المريح ، وينفي عنه كل المكدرات .

﴿ عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴾ .. ومعنى ينظرون ، أي : أنهم ليس عندهم مشاغل نفسية تشغلهم ، لذلك فهم ينظرون في جمال الوجود ؛ لأن فيه مشاهد لا تتناهى ، وجمالاً ليس له حد .

فأعطانا صورة للنعيم ممثلة في حياة البيئة على أرقى ما يتصور من النعيم في تلك الحياة .

﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ .. كأن اسمه النعيم الناضر ، الذي ينضح على الوجه ؛ لأن الوجه هو المرآة المعبرة عما في النفس البشرية ؛ ولذلك فنحن نستطيع أن نعرف

---

1 – سورة : محمد ، الآية : 15 .

حال الإنسان .. هل هو فَرِحٌ أم حزين ، أم عنده مشاغل ، وذلك من خلال وجهه .. فلا يوجد شيء ينغص عليهم حياتهم تنغيصًا تنم عنه هذه الوجوه .

﴿ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ﴾ .. وقال : ﴿ يُسْقَوْنَ ﴾ ، ولم يقل : يشربون ؛ لأنهم لا يتكلفون عناء سقيا أنفسهم ، وإنما إذا أرادوا أن يشربوا وجدوا فورًا من يسقيهم من الرحيق المختوم .

وكلمة : ﴿ رَحِيقٍ ﴾ ، تدل على أنه هو الشراب الخالص المصفى ، وهو أيضًا مختوم .

﴿ خِتَامُهُ مِسْكٌ ﴾ ، فالرحيق في ذاته مصفى من كل الشوائب ، أي معقم وليس فيه عنصر غير المراد منه ، وبعد ذلك مختوم ، والختم دليل على الصيانة المتناهية ، و ﴿ خِتَامُهُ مِسْكٌ ﴾ ، فإذا كان الغطاء الذي تغطى به الزجاجة مسكًا فما بالنا بالرحيق نفسه ؟!

﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ .. وهذا هو الموضع الذي يصح أن يكون السباق فيه ، فيكون الحرص عليه ، لا على الطفيف من الأشياء ، أو المهين الحقير من حطام الدنيا وعرضها الزائل .

إذن : فالمنافسة هي أن أجتهد وأجد لأظفر بشيء ظفر به فضلاء ، بدون أن ألحق ضررًا بالآخرين ، وبذلك تختلف المنافسة على الخير عن التمني ؛ لأن مراتب التمني في الخير عديدة :

أولاً : إنسان يرى إنسانًا في خير ، فيحزنه ذلك ، وإن كان هو نفسه في خير .

ثانيًا : إنسان آخر يحزنه أن يكون غيره في خير ، وهو في ضد ذلك الخير . كإنسان فقير مثلاً يرى إنسانًا غنيًا ، فإما أن يتمنى أن يزول ما عنده وإن ظل هو على فقره ، وإما أن يتمنى أن يزول الذي عنده ويأتي إليه ، أو يتمنى أن يكون مثله ، لكن كل ذلك لم يتعدَّ التمني ، والتمني كما يقول الأدباء : بضاعة الحمقى ، فكونك تتمنى الأشياء دون أن تعمل للوصول إلى هذه الأشياء ، فهذه سمة الحمقى الذين ليست عندهم همة .



أما المنافسة فهي غير ذلك ؛ لأن المنافسة التي نحن بصدد عرضها ، فمنافسة في شيء من الممكن أن يأخذ المتنافسون جميعًا حظهم منه ولا ينقص ؛ لأنها في أمور الآخرة ، أما في أمور الدنيا فالخير فيها محدود ، فهذا يريد أن يأخذه ، وهذا يريد أن يأخذه ، بحيث إذا أخذه هذا لم يظفر به الآخر ، لكن المنافسة التي عند الله ﷻ فقد قال الله ﷻ عنها : ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾[1] ، فحظك لا يوقف حظي ، وحظي لا يوقف حظك ، إذن فتلك هي أشرف ألوان المنافسة .

﴿ وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴾ .. إن الذين يشربون الخمر نوعان : نوع يشرب ليغيب عن الوجود ، ونوع آخر يريد أن يأخذ من الشراب المسرة فقط دون أن يغيب ، فهذا النوع الثاني كان يشرب الخمر ممزوجًا بشيء ، كالماء مثلاً ، فأراد الحق ﷻ أن يبين أنها حتى وإن كانت ممزوجة بشيء فإن مزاجها من تسنيم .

والتسنيم هو أعلى شراب الجنة ، تقول : سنمت التراب ، أي : جعلته سنامًا للبعير ، وهو أعلى شيء فيه . فمعنى : ﴿ وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴾ .. أي : من أعلى شراب في الجنة .

﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾ .. أراد الحق ﷻ أن يفسر لنا التسنيم فقال : ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾ ، وقال : ﴿ يَشْرَبُ بِهَا ﴾ ، ولم يقل : " يشرب منها " ؛ لأننا لن نشرب في الآخرة عن ظمأ ، ولكن عن تلذذ ، فلا نأكل عن جوع ، ولا نشرب عن ظمأ ، فكأنه قال : تنبه أن يشرب هنا معناها : يتلذذ ، فأعطانا يشرب ، وجاء بالباء لنوصل بها المعنى .

---

1 - سورة : النحل ، الآية : 96 .

إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴾ .. بعد أن نقل لنا الصور السابقة ، والصورة المقابلة ، واتضحت لنا المسألة ، انتقل إلى معنى هو في الواقع غير مادي ؛ لأنه ليس متعلقًا بالاختيار ، المطففون والمسألة السابقة كانت متعلقة بالاختلاف المادي ، بعد ذلك تعرض الحق ﷻ إلى صورة من الصور الإيذائية التي كان يتعرض لها المؤمنون ، فالتعرض كان نفسيًّا وليس ماديًا ، يتحكمون في أقواتهم ويسيطرون عليهم بدليل قوله : ﴿ اكْتَالُوا ﴾ ، فهم يكتالون على الناس سيطرة وجبروتًا واحتكارًا ، لكنه سوف يعرض للصورة معنى نفسيًّا آخر ، وهنا يعرض السخرية ، فالكفار كانوا بقوتهم وجاههم وسيطرتهم ومنعتهم وعدتهم ، أمام المؤمنين في ضعفهم وقلتهم وفقرهم ورقة حالهم وعدم القدرة على الدفاع عن أنفسهم ، فكان الكفار في موقف المستعلي ، والمستعلي عادة يهزأ ممن دونه ، فالحق يريد أن يعطي لنا صورة فيقول : حتى غمزة العين استهزاء نحن نراها ونعلمها ، فمثلاً : عندما ترى إنسانًا يعذب بسببك ، ويعذب فيك ، ثم تقول له : أنا أعلم ما يفعلون بك ، إنهم يفعلون كذا وكذا ، فتعدد له ما يحدث معه ، فهذا دليل على أنك معتبر له ، وبصير به ، فذلك لون من إدخال الطمأنينة على النفس ، فعندما يضحك الكفار من المؤمنين ، ويعلم المؤمن أن الضحكة التي



يضحـــكها الكافر القـــوي من المؤمن الضعيف ، أو غمزة عينه ، أو لمزة ، أو أي حـــركة من حركات الاستهزاء والسخرية والتهكم ، عندما يعلم المؤمن أن ربه يرى هذا الاستهزاء بـألوانه المتعددة ، فهذا وحـــده يعزيه عما يحدث ، لماذا ؟! لأن الذي يجازي عليها يراها ، وأخبره بها في الدنيا ، يقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ .. أولاً : قابـل أجرموا بـــآمنوا ، لنعلم أن الجريمة العظمى ، أو الخيانة الكبرى ، هي خيانة الكفر ، ﴿ كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ وهنا في الأسلوب لفتتان : أولاً : كلمة ﴿ كَانُوا ﴾ تدل على أن إخبـار الحق بـهذه الصورة ، إخبـار عن شيء كان وانتهى ، معنى ذلك أن هذا الأمر الذي يقع بـكم أيها المؤمنون من استـهزاء هؤلاء وضحـكهم ، سيصير مدلولاً عليه بـ ﴿ كَانُوا ﴾ ، فلو قـال : إن الذين أجرموا ضحـــكوا ، أو يضحـــكون من الذين آمنوا ، فمن الممكن أنهم ضحـــكوا قبـــل ، وسيظلون يضحكون أيضًا ، ولكنه جاء بكلمة : ﴿ كَانُوا ﴾ التي هي للماضي ، على أن الفعل لا يفيد الاستمرار ، فهذا تبشير بـأن هذه الحالة ستنتهي ، وأن الكفار سيعودون إلى رشـدهم الإيماني ، وسـيرجعون مؤمنين ، وتنتهي هذه الحالة ، أو أنهم سـيموتون وينتهون ، وهذا في الدنيا ، لكن عندما قال ذلك ، لم يقل : ضحـكوا ، ولم يقـل : يضحـكون دون ﴿ كَانُوا ﴾ ، وإنما .. ﴿ كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴾ .. يريد استحـــــــضار الصورة ، ومعنى استحـــضار الصورة : أن الفعل المهين ، أو المقـــزز ، عندما تحكي عنه أنه مضى تنتهي صورة وقوعه الإيلامية ، ولكن عندما تريد تبشيع صورتها ، فإنك تستحـضرها حـالة وقـوعها ، فلو قال : ضحكوا ، فإن الصورة تنتهي ، بخلاف كلمة ﴿ يَضْحَكُونَ ﴾ .

فكأنه بـهذا الأسـلوب أراد شـيئين : أراد أن يدل على أن هذه حـــالة لا تدوم ، وعلى أنـها حـــالة أصبحـــت في عداد الماضي ، وأراد كذلك الحق أن يستحـــضر لنا الصورة التبـــددية في الفعل ، لا لكي أستحضرها خبرًا ، بل لأستحضرها عيانًا .

﴿ كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴾ .. ونحن نعرف أن الضحـــــك : انفعال من

المفارقات ، هذا الانفعال لا يصطنع ؛ لأنك إذا سألت عن ماهية الضحك ، لا يستطيع أحد أن يعبر ما هي الأعضاء التي تجعل الإنسان يضحك ، إذن : فنحن لا نعرف ماهية الضحك ، ولا نعرف ما هو تكوينه ، ولا ما هي الأعضاء التي تنفعل له ، ولا ما هي الحالة النفسية التي تتسبب في الضحك .

ولذلك فالحق ﷻ يقول : إن هذه من خصوصياتي : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴾[1] ، فلا يستطيع العلماء أن يبحثوا في الوظائف العضوية للإنسان ليعرفوا كيف يضحك الإنسان ، والإنسان هو الخاص بهذه الظاهرة ، الضحك والبكاء .. ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴾ ، يأتي بها في المسائل التي هي مثل الموت والحياة ، ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾[2] ، يأتي بها في الخصوصيات ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى ﴾[3] ، دليل على أن مسألة الضحك هذه ، لا يمكن للعقل البشري أن يتسامى ليعرف ماهيتها أبدًا ، ولا يستطيع أن يتحكم في ضحكه ، ولا في بكائه .

﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴾ .. أطلق الضحك دائمًا ، ثم عند المرور بهم أتى بالتغامز ، **والتغامز** : هو غمز العين لتشعر من معك أنك تهزأ ، ولا تحب أن يعرف ذلك من تهيبه ، وإلا كانت المسألة واضحة ، إذن : فكأن صورة الضحك : أنهم إذا جلسوا في مجالسهم الخاصة ولو لم يمر بهم المؤمنون ، يغتابونهم ويهزؤون بهم ، وساعة أن يغمزوا ، يقولون : هؤلاء الذين كنا نغتابهم ونهزأ بهم ، فأتى بصورة مشهدية وصورة غيبية ، الصورة الغيبية : أنهم كانوا منهم يضحكون في مواجهتهم وغير مواجهتهم ، كأنهم أصبحوا مادة للضحك ، وبعد ذلك الصورة المشهدية : أنهم إذا مروا بهم يتغامزون .

أين يعود الضمير في قوله : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ ﴾ ؟ أي الضمير في مروا ، والضمير في بهم ؟

1 – سورة : النجم ، الآية : 43 .

2 – سورة : النجم ، الآية : 44 .

3 – سورة : النجم ، الآية : 48 .

أولاً : الإسناد في الفعل الأول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴾ ، ففاعل الضحك : هم الذين أجرموا ، والمضحوك منه : هم الذين آمنوا ، ﴿ وَإِذَا مَرُّوا ﴾ من الذي مر بالآخر ؟ إن سياق الجمل يقتضي أن يكون المجرمون هم الذين مروا بالمؤمنين ، ويصح أن يكون المؤمنون هم الذين مروا بالكافرين ، وقيل : إن سياق الأسلوب يدل على أن الذين ضحكوا هم الذين مروا ، هم الذين حين انقلبوا إلى أهلهم ، انقلبوا فكهين ، أو أن يكون الأسلوب قد بدأ بالضمير لمن أجرموا ، وبعد ذلك جاء بالضمير للمستهزأ بهم .

وقيل : إن الضمير إذا عاد على شيء ثم بعد ذلك يعود على شيء آخر ، فهذا الشيء مألوف يحدث كثيرًا ، مثال ذلك قوله ﷻ : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَ تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ﴾ [1]، فهنا نفسان ، أي : لا تجزي نفس : هي النفس الجازية ، عن نفس : هي النفس المجزي عنها ، أي : لا يجزي الوالد عن ابنه ، ولا يجزي الابن عن والده ، إذن .. فهنا نفسان : نفس جازية ، ونفس مجزي عنها ، مرة يأتي الضمير للنفس الأولى ، ومرة يأتي الضمير للنفس الثانية ، فيقول : ﴿ وَلاَ يُقْبَلُ مِنهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ ﴾ [2]، ولذلك يأتي بالأسلوب بما يناسب عودة الضمير ، فمرة يعود الضمير على النفس الأولى : ﴿ لاَ تَجْزِي نَفْسٌ ﴾ التي هي الفاعل ، ومرة أخرى يعود على النفس الثانية التي هي المجرورة بعلى ، وسواء كان هذا أو هذا فإن المجرمين ضاحكون مستهزئون وذاهبون إلى أهلهم فرحين .

﴿ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴾ .. وفي ذلك دليل أن ذلك أصبح غريزة فيهم ؛ لأن الإنسان ذا المروءة إذا حدث منه شيء مخالف للأدب والمروءة مع أي إنسان آخر ، فبعد أن يحدث ذلك منه وتذهب منه الحالة الأولى وهي إرادة السخرية ، يندم وتتأذى نفسه من فعلته ، فكأن الحق ﷻ يقول : حتى لوم النفس على ما اقترفوه لم يحدث ، فإذا ذهبوا إلى

1 - سورة : البقرة ، الآية : 48 .

2 - سورة : البقرة ، الآية : 123 .

أهلهم يقولون لهم : ضحكنا من المؤمنين ، واستهزأنا بهم ، ويفرحون بفعلتهم ، أما الذي عنده بقية من كرم النفس ، فبمجرد أن ينفس عن نفسه بالفعل ، يعود إليه بعض ما عنده من كرم النفس ، فتتأذى نفسه من فعلته ، ويحزن على فعلته ، أما هؤلاء فعندما يذهبون إلى أهلهم فإنهم يكونون فرحين بفعلتهم ، حتى لوم أنفسهم لم يحدث منهم ، ﴿ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴾ ، وفي قراءة أخرى : ﴿ فَاكِهِينَ ﴾ ، أي : ناعمين مسرورين فرحين ؛ لأنهم فعلوا ذلك بالمؤمنين .

إن المؤمن عندما يسمع هذه الآية ، يقول في نفسه : إن الله ﷻ يرى كل هذه الأشياء ، ويحصيها عليهم ، فيبدأ هو بالسخرية منهم حتى في الدنيا ، فكأن الحق يقول لهم : سنجازيهم في الآخرة بما عملوا من السخرية والضحك والاستهزاء ، فضحك اليهود والمشركين لا دوام له ، وسينقلب الأمر عليهم ، فتضحكون منهم بدلاً من أن يضحكوا هم منكم ، والفائدة ستعود عليكم ، فالضحك عليهم سيكون أبديًا .

﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴾ .. فمن الضالُّ عندهم ؟! إنه هو الخارج عن نظامهم ، حيث إنهم لم يقصدوا الضلال الأخروي ؛ لأنهم لا يؤمنون بالآخرة ، ولكن ذلك بمفهوم الهداية عندهم ؛ لأنهم لا يعترفون بغير هذه الدنيا الفانية ، فالذي ينجح فيها ويفلح يكون هو صاحب الفلاح عندهم ، ومادام المؤمنون قد اشتروا شيئًا غيبيًا ، إذن فهم الضالون من وجهة نظرهم ، إذن : ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴾ .. بحكمهم في الهداية وفي الضلال ، لا في حقيقة الهداية والضلال .

﴿ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴾ .. من هم الذين أرسلوا ؟ يصح أنهم هم المؤمنون ، أو أنهم هم المجرمون .. يصح هذا ويصح ذلك ، فمعنى : ﴿ وَمَا أُرْسِلُوا ﴾ .. أي : كأن الكفار أو المجرمين يقولون : ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴾ ، ﴿ وَمَا أُرْسِلُوا ﴾ ، أي : ما أرسلوا على الذين يتكلمون حُفاظًا عليهم ، أي : أنهم لم يأتوا إليهم ليعدلوا لهم الموازيين وليحفظوهم ؛



لأنهم منكرون ويعتقدون أن هذه دعوة كذب أو افتراء ، يقولون : إن هؤلاء لضالون ، وما أرسلوا ليحفظوا لنا قيمنا ، أو ليحفظوا لنا نفوسنا ، أو ليحفظوا لنا منهج الحياة .

أو : ﴿ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴾ أي : أن هؤلاء الذين يحكمون بضلال المؤمنين ، ما أرسلوا عليهم حافظين ليقوموهم ، ليس هم المقومين لهؤلاء ، إذن : فيحتمل أن يكون المعنى هكذا ، وأن يكون هكذا .

﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾ .. اليوم ، أي : يوم القيامة الذي هو : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، والذي قال عنه : ﴿ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ ، وفيه يقول : ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ﴾[1] ، بكل ما تؤديه كلمة : **اليوم** .

﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾ .. ضحك مثل الضحك ، ولكنه للأبد ، لا ينتهي ولا ينفد .

﴿ عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴾ .. ينظرون ماذا ؟! وكأن هناك مرور ذليل ، مرور مضطهد ، عندما يرون الموقف ، المؤمنون في النعيم ، والكفار في العذاب ، وقد قيل : إن الكفار يفتح لهم يوم القيامة بابٌ إلى الجنة ، فيقال لهم : " هلم هلم " .. فيأتي الكافر ، فيغلق الباب دونه ، حتى يقال للرجل منهم بعد ذلك : " هلم " .. فلا يأتي ؛ لأنه يعرف النتيجة ، سيذهب فيغلق الباب دونه ، هذا موقف يجعل المؤمنين يتذكرون ما كان منهم ، ويعقدوا المقارنات .

﴿ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ .. وكأن هذه أخبار يجب أن تكون مشهودة ؛ لأن قائلها هو الحق تعالى الذي آمنتم به ، فتكون عملية الجزاء عملية يقينية .

إن كلمة ثواب هنا مثل كلمة : ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[2] ؛ لأن القرآن يبدأ الأسلوب بقول مفرح ، وبعد ذلك ينهيه بانتهاء مؤلم .

---

1 - سورة : غافر ، الآية : 16 .

2 - سورة : الانشقاق ، الآية : 24 .

كما قلنا من قبل مثال ذلك : إنسان ظمآن ، فأتيت له بكوب من الماء ، وعندما مد يده ليأخذه سكبته ، فهذا الابتداء المفرح ، يعقبه ذلك الانتهاء المؤلم ، فلو قال لك : " اسقني " .. ثم لم تعطه من أول الأمر ، لكان أفضل ، وكما قال الشاعر :

كما أبرقت قومًا عطاشًا غمامةٌ فلما رجوها أقشعت وتجلتِ

إذن ، فقوله : ﴿ فَبَشِّرْهُمْ ﴾ .. تهدي للنفس شيئًا من الانبساط ، وبعد ذلك يقول : ﴿ بِعَذَابٍ ﴾ ، فهذا الابتداء المفرح يعقبه ذلك الانتهاء المؤلم ، ومثل ذلك قوله ﷻ : ﴿ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ﴾ [1] ، فالإغاثة تكون بماء شديد الحرارة ، فهي ليست إغاثة ، وكذلك كلمة : ﴿ ثُوِّبَ ﴾ هنا ، فهي بهذا المعنى ، فهي شبيهة بكلمة : ﴿ فَبَشِّرْهُمْ ﴾ ، وفي هذا الوقت يحدث الألم ؛ لأنه عذاب كان من الممكن أن يكون في مقامه ثواب .

يلاحظ أن الحق ﷻ حينما يتكلم عن الكفار يتكلم بالنار وغيرها من ألوان العذاب ، وحينما يتكلم عن المؤمنين يتكلم بالجنة وغيرها من ألوان النعيم ، لم يأتِ في السور المكية ذكر أنه سيأتي يوم وينصرهم على الكفار ، إلا كلامًا رمزيًا ، كقوله : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ [2] ، وكقوله : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ [3] ، ونلاحظ أن القرآن يتحدث عن الآخرة ، ونعيم الآخرة ؛ لأن الله لا يريد من المؤمن أن يستقبل منهج الله ﷻ على أنه سينصره في الدنيا ، ولكنه يريد من المؤمن أن يطرح الدنيا وراء ظهره .

ولذلك فقد روى الإمام أحمد في مسنده قال : حدثنا يحيى بن زكريا بن أبي زائدة ،

---

1 – سورة : الكهف ، الآية : 29 .

2 – سورة : القمر ، الآية : 45 .

3 – سورة : النور ، الآية : 55 .

حدثني أبي ، عن **عامر**، قال : انطلق النبي ﷺومعه **العباس**عمه إلى السبعين من الأنصار عند العقبة تحت الشجرة ، فقال : " **ليتكلم متكلمكم ولا يطيل الخطبة ؛ فإن عليكم من المشركين عينًا ، وإن يعلموا بكم يفضحوكم** " . فقال قائلهم ، وهو أبو أمامة : " سل يا **محمد**لربك ما شئت ، ثم سل لنفسك ولأصحابك ما شئت ، ثم أخبرنا ما لنا من الثواب على الله ﷻوعليكم إذا فعلنا ذلك " . قال : فقال : " **أسألكم لربي ﷻأن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا ، وأسألكم لنفسي ولأصحابي أن تؤوونا وتنصرونا وتمنعونا مما منعتم منه أنفسكم** " . قالوا : " فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟ " . قال : " **لكم الجنة** " . قالوا : " فلك ذلك " [1].

فنلاحظ أن النبي ﷺلم يقل لهم : سينصركم الله ، وسيكون لكم في الدنيا كذا وكذا ؛ لأنه كان في وقت تربية الجنود للمعركة ، وهو لا يريد أن يشغلهم بالدنيا ، أو يجعلها في حسابهم أبدًا ، وإن أدخلها في حسابهم بعد ذلك : ﴿ **وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا** ﴾ [2]، فألمح بذلك ، ليس على أن هذا هو الجزاء ، ولكن حتى لا ينشغل المؤمن بالدنيا ويجعلها في منهجه وفي حسابه أبدًا ، ولكن لماذا جاء في الآيات المدنية بهذا المعنى ؟! لأن العقيدة تربت ودخلوا الدين على أن هذا الدين رافض للدنيا في منهجه وفي حسابه ، ولكن إذا انتصرتم عليهم ، فالغنائم هذه ليست جزاءً لكم على النصر ، ولكن المسألة أن هناك منهجًا للسماء أريد أن يطبق في الأرض ، وأنتم مخرجون لقيادة الناس ، فكأن ما يحدث لكم من الغلبة والفتح والنصر ليس جزاء ؛ لأننا ربيناكم على أن الدنيا مطروحة من حساب النصر ، ولكن نصرناكم لتحملوا منهج الله ﷻإلى كل الأرض ، ولتكونوا خير أمة أخرجت للناس ، فحين يربى المؤمن على

---

1 - أخرجه أحمد في مسنده (34 / 447) .

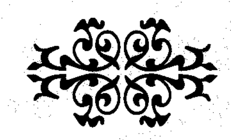
2 - سورة : الفتح ، الآية : 20 ، 21 .

أن الدنيا ساقطة من حسابه ، فإنه عندما يدخل المعركة الإيمانية ، يدخل وليس في ذهنه إلا هذه الغاية .

ولكن إذا انتكست هذه التربية وضاعت من الأمة ، فهنا يتحقق فيها قول رسول الله ﷺ : " **يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها** " . قالوا : " أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ " .. قال : " **بل أنتم كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، وليترعن الله المهابة من صدور أعدائكم ، وليقذفن في قلوبكم الوهن** " . قالوا : " وما الوهن يا رسول الله ؟ " .. قال : " **حب الدنيا وكراهية الموت** "[1] ، فعندما تحب الدنيا وتكره الموت ، تهون وتضعف أمام خصمك .

نسأل الله تعالى أن يجعلنا دائمًا من المصدقين بالساعة ، وأن يكفينا شر أنفسنا ، وشر أعدائنا ، وأن يحقق لنا آمالنا أجمعين . .

والحمد لله رب العالمين . .

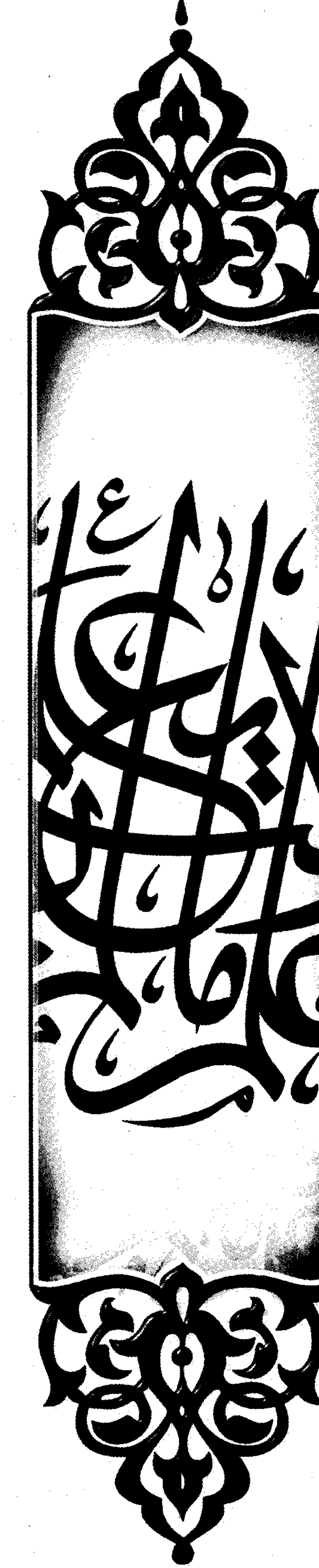


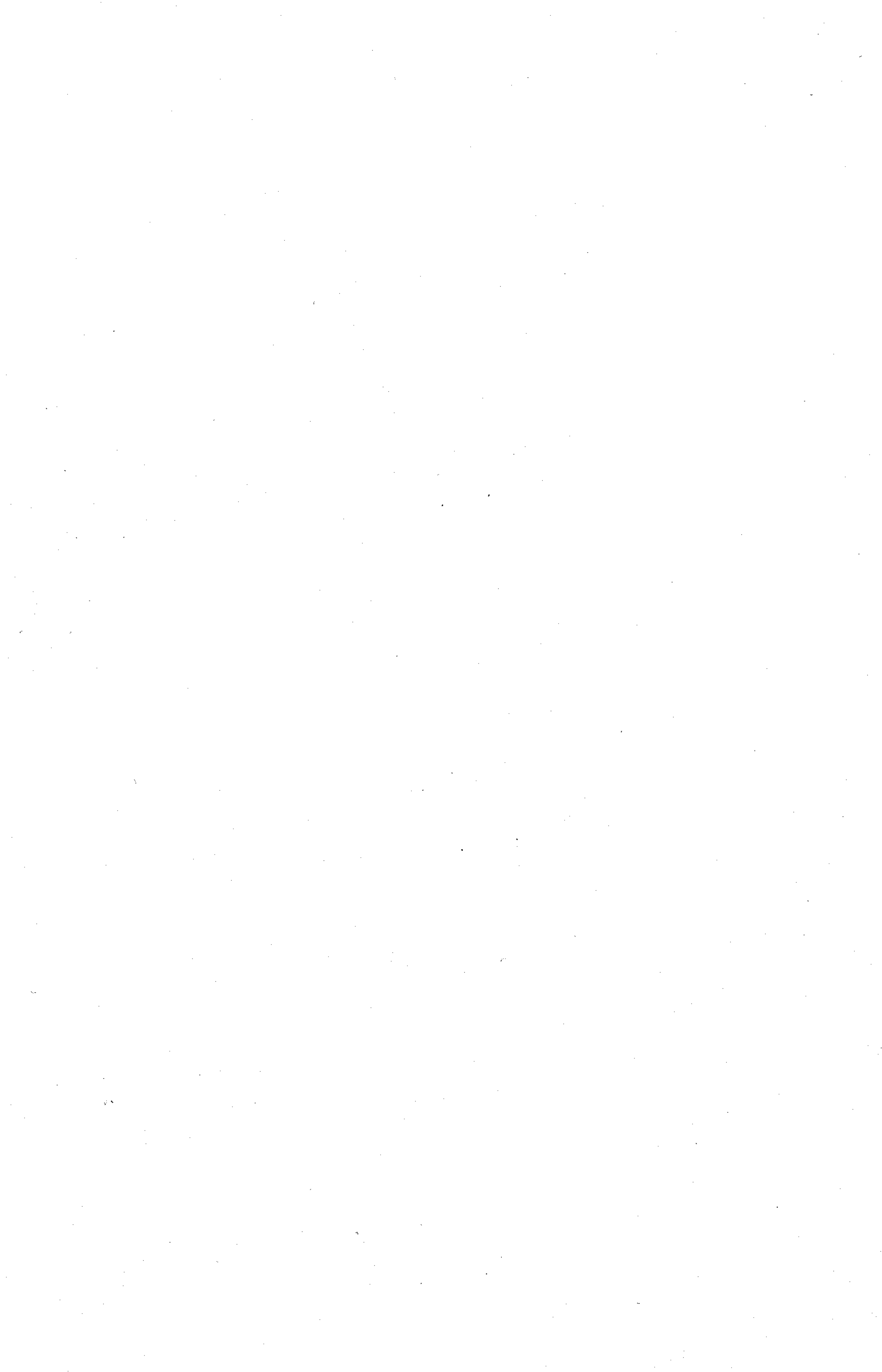
1 – أخرجه أحمد في المسند عن ثوبان (45 / 378) ، وأبو داود في السنن (3745) .



تفسير جزء عم

سورة الانشقاق





سورة الانشقاق

بسم الله الرحمن الرحيم . . أحمدك ربي ، وأصلي وأسلم على سيدنا

محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، ورحمة الله للعالمين ، وبعد . .

تبدأ **سورة الانشقاق** ببعض مشاهد الانقلاب الكونية التي عرضت بتوسع في **سورة التكوير** ، ثم في **سورة الانفطار** ، ومن قبل في **سورة النبأ** ، ولكنها هنا ذات طابع خاص ، طابع الاستسلام لله ﷻ ، استسلام السماء واستسلام الأرض ، في طواعية وخشوع ويسر : ﴿ **إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ** ﴾ . .

ذلك المطلع الخاشع الجليل تمهيد لخطاب الإنسان ، وإلقاء الخشوع في قلبه لربه ﷻ ، وتذكيره بأمره ، وبمصيره الذي هو صائر إليه عنده .

حين ينطبع في حسه ظل الطاعة والخشوع والاستسلام الذي تلقيه في حسه السماء والأرض في المشهد الهائل الجليل : ﴿ **يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاَقِيهِ * فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا * وَيَصْلَى سَعِيرًا** ﴾ . .

والمقطع الثالث عرض لمشاهد كونية حاضرة ، مما يقع تحت حس الإنسان لها إيحاؤها ، ولها دلالتها على التدبير والتقدير ، مع التلويح بالقسم بها على أن الناس متقلبون في أحوال مقدرة مدبرة ، لا مفر لهم من ركوبهم ومعاناتها : ﴿ **فَلاَ أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ * وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ** *

---

* مقدمة تفسير السورة والمقطع الثالث مقتبس بتصرف من : " في ظلال القرآن " .

وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ * لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ ..

ثم يجيء المقطع الأخير في السورة تعجيبًا من حال الناس الذين لا يؤمنون ، وهذه هي حقيقة أمرهم ، كما عرضت في المقطعين السابقين ، وتلك هي نهايتهم ونهاية عالمهم ، كما جاء في مطلع السورة : ﴿ فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لاَ يَسْجُدُونَ ﴾ ..

ثم بيان لعلم الله ﷻ بما يضمون عليه جوانحهم ، وتهديد لهم بمصيرهم المحتوم : ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ * وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ * فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ .

إنها سورة هادئة الإيقاع ، جليلة الإيحاء ، يغلب عليها هذا الطابع حتى في مشاهد الانقلاب الكونية التي عرضتها **سورة التكوير** في جو عاصف .. سورة فيها لهجة التبصير المشفق الرحيم ، خطوة بخطوة ، في راحة ويسر ، وفي إيحاء هادئ عميق ، والخطاب فيها هو : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ ﴾ .. فيه تذكير واستجاشة للضمير .

وهي بترتيب مقاطعها على هذا النحو تطوف بالقلب البشري في مجالات كونية وإنسانية شتى ، متعاقبة تعاقبًا مقصودًا .. فمن مشهد الاستسلام الكوني ، إلى لمسة لقلب الإنسان ، إلى مشهد الحساب والجزاء ، إلى مشهد الكون الحاضر وظواهره الموحية ، إلى لمسة للقلب البشري أخرى ، إلى التعجيب من حال الذين لا يؤمنون بعد ذلك كله ، إلى التهديد بالعذاب الأليم ، مع استثناء المؤمنين بأجر غير ممنون ..

كل هذه الجولات والمشاهد والإيحاءات واللمسات في سورة قصيرة لا تتجاوز عدة أسطر .

وهو ما لم يعهد إلا في هذا الكتاب العجيب ! فإن هذه الأغراض يتعذر الوفاء بها في الحيز الكبير ، ولا تؤدى بهذه القوة وبهذا التأثير .. ولكنه القرآن .. ميسر للذكر ، يخاطب القلوب مباشرة من منافذها القريبة .. صبغة العليم الخبير ﷻ .

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ﴿١﴾ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ﴿٣﴾ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾

يلاحظ هنا أننا نجد الشروط مصدرة بـإذا الشرطية : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ ﴾ .. نلاحظ هنا أنه لا يوجد جواب شرط مثل الذي في **سورة التكوير** : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴾ ... إلى آخر الاثني عشر شرطًا التي في السورة ، ثم قال ﷻ جوابًا لذلك الشرط : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ ﴾ .. فهذا هو الجواب ، والذي في **سورة الانفطار** : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ * وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ ، ماذا يكون ؟ ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ .

أما قوله : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاَقِيهِ ﴾ .. فلا يوجد جواب للشرط ، ومعنى ذلك : أنه لما تقدمت سور عُرف منها جواب الشرط ، حذف هنا جواب الشرط استغناء لما ذكر في نظيره ، وهذه ظاهرة في القرآن ، حتى يقبل الإنسان على قراءة النصوص بتدبر وتمعن ، فمثلاً في قوله ﷻ : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ

النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾[1] ، فهنا قد يطرح إنسانٌ سؤالاً : طالما أنهم كانوا أمة واحدة ، فلا اختلاف بينهم ، فلم أرسل الله النبيين ؟! فنقول له : هذا دليل على أنك لم تستوعب قراءة القرآن الكريم كاملاً ، فلا تحكم على نص أبدًا إلا بعد أن تبحث عن نظائره في القرآن ؛ لأنه قد يحذف من نص ما يوجد نظيره في نص آخر ، أو في نفس النص .

فقول الحق ﷻ : ﴿ **فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ** ﴾ ، ليست معطوفة على الأولى ، وهى قوله ﷻ : ﴿ **كَانَ النَّاسُ أُمَّةً** ﴾ ، ولكنها معطوفة على محذوف مقدر ، والمقدر له قرينة تدل عليه ، وهي : ﴿ **لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ** ﴾ ، إذن فالتقدير هو : كان الناس أمة واحدة ، ثم اختلفوا ، فبعث الله النبيين ليحكموا بينهم في ذلك الذي اختلفوا فيه .

إذن فالحذف من النظير جائز ، فهذا الذى ذكرناه من هذا اللون ، وهناك معنى آخر ، وهو أن الحق ﷻ عندما أعطانا ألوانًا متقدمة من أدوات الشرط وأفعال الشرط ، وأبهم جواب الشرط ؛ فإن ذلك لأجل أن تذهب فيه نفسك مذاهب شتى ؛ لأن الإتيان بجواب الشرط يضع الحقيقة في صورة واحدة ، أما الإبهام فيجعل كل إنسان يأخذ الصورة الانفعالية التي تحدث ، كما عند سماعك قوله ﷻ : ﴿ **إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ** ﴾ إلى آخر الآيات .. فيتبادر إلى أذهان بعض الناس أنه قد يحدث ما يهول أمره ، أو قد يحدث ما يغير نظام العالم الذي ألفته ، أو ماذا يحدث حين يعرض الناس على ربهم ، فيكون عندك عينات من جواب الشرط ؛ لينبهك حتى يكون ذهنك مستعدًا .

وقد يكون قوله ﷻ : ﴿ **يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ** ﴾ هي نفسها جواب الشرط ، وقد يكون قوله ﷻ : ﴿ **فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ** ﴾ هي الجواب ، فعندما يقول : ﴿ **وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ** ﴾ ، ما الذي يحدث ؟ يأخذ كلٌّ كتابه ، فأما من أوتي كتابه بيمينه فيحدث له هذا ، وأما من أوتي كتابه بشماله فيحدث له هذا ، فوزع الشرط في الطرفين ، إذن : فكأنه يقول :

---

1 – سورة : البقرة ، الآية : 213 .

﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ .. فإذا حدث هذا ، وحدث هذا ، يأخذ المؤمنون كتبهم بأيمانهم ويحاسبون حسابًا يسيرًا ، ويأخذ الآخرون كتبهم وراء ظهورهم ، ويحاسبون حسابًا عسيرًا .

فكأنه حينما شققت الشرط جاء منه مجموع الشرط ، وبعد ذلك يأتي بالتجميد : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ ﴾ .. مثل كلمة الإنسان التي في **سورة الانفطار** في قوله ﷻ : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾[1] ، أي : يا أيها الإنسان المخلوق في أسمى تكوين ، الذي أمدك الحق ﷻ بالفكر، وأمدك بالمعاني ، وأمدك بالروح التي لها تحليق ، وأمدك بكل ذلك ، ما كان يجب أن تقف هذا الموقف من ذلك اليوم العظيم ، وأنت – أيها الإنسان – كادح إلى ربك كدحًا فملاقيه .

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ ﴾ .. وكيف تنشق السماء ؟! ليس من الضروري أن نعرف هذا ، ولكن المهم أن نعرف أنها ستخرج عما ألفناه منها ، وتنتهي إلى أمر لم نألفه ، وتخرج عن رتابتها ، ويخرج الكون كله عن الرتابة المعهودة له .

﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ .. إن الأذن هي آلة الاستماع ، والاستماع نوعان :

النوع الأول : أن تستمع ، وأنت حر بعد ذلك في أن تطيع وأن تعصى .

والنوع الثاني : أن تستمع وليس لك إلا أن تطيع .

وعلى هذا فالمستمع قسمان : مستمع له خيار، ومستمع لا خيار له ، فالمستمع الذي له خيار يمكن أن يقول : سمعنا وعصينا ، أما الذي لا خيار له فلا يقول إلا : سمعنا ، دون أن ينكر ، كقول الله ﷻ : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾[2] .

فأذنت هنا معناها : استمعت ، كما قال الشاعر :

صم إذا سمعوا خيرًا ذُكرتُ به وإن ذُكرتُ بشر عندهم أذنوا

1 – سورة : الانفطار، الآية : 6 .

2 – سورة : فصلت، الآية : 11 .

فمعنى أذِن ، أي : استمع ؛ لأن الأذن هي آلة الاستماع ، وهل كل من يسمع ممن له خيار في أن لا يستجيب ؟ كلا ، فهذه خاصية خاصة بالإنسان فقط ، بينما المسخرات التي ليس لها أن تخرج عما أمرت بـه ، بمجرد الاستماع يكون الانصياع ، إذن : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ ﴾ ، أي : واستمعت ، و معناها انصاعت ؛ لأنها بمجرد أن تسمع فليس لها خيار ، وحق لها ذلك ؛ لأنها استمعت ممن لا تملك معه خيارًا ، ومن القادر على إنفاذ ما يراد منها ، فعندما يقول : ﴿ أَذِنَتْ ﴾ ، أي : انقادت ، فهذا تفسير بـالأمر النهائي ، ومادام الاستماع من السماء ، والسماء لا خيار لها في أي أمر ، بل هي مسخرة ، مجبورة ، مقـهورة على تنفيذ ما يراد منها ، فيكون مجرد السماع كافٍ ، فأذنت بالنسبة للأرض ، وبالنسبـة للآمر وهو الله ﷻ ، فمعناها النهائي : انقادت لمراده ، وحق لها ذلك ، أي : هي حقيقـة وجديرة بـذلك ؛ لأنه ليس لها اختيار مع خالقـها ، فهي مخلوقـة على هيئة الانصياع والالتزام ، بمجرد أن يقول لها : انشقي .. تنشق .

﴿ وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ ﴾ .. قـديمًا كان العرب يقـولون : " **مددت الأديم** " ، عندما يسلخون الجلد عن الذبيحة لينتفعوا به ، فعند دبغه على الطريقة البدائية ، يحدث له تقلص فيقل حـجمه ، يحدث فيه نتوءات ، فإذا بسـطت هذه النتوءات عاد إلى حـجمه الطبيعي ، فكأن الحق ﷻ يقول : إن الجبال ستكون كالعهن المنفوش ، والأرض والنتوءات والارتفاعات سـوف تمد ، كما جاء في آية أخرى : ﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لاَ تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلاَ أَمْتًا ﴾[1] ، أي : مدت واتسـعت لأجل أن يقـف الخلق عليها جميعا ، ليس الوقـوف لضيق المكان ؛ لأن المقصود أن نقف ، لا نستريح إلى أن يأتي وقت حسابنا .

﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ .. ألقت الأرض ما فيها ، إما القبور ، أي : الأموات بعثوا ، أو الكنوز والدفائن ، إلى آخر ذلك ، وكلمة : ﴿ وَتَخَلَّتْ ﴾ تفيد الاحـتياط في تنفيذ الأمر بشدة .

1 - سورة : طه ، الآية : 106 ، 107 .

﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ أي : انقادت لأمر الله ﷻ ، مثل السماء تمامًا .

﴿ يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاَقِيه ﴾ .. عرفنا الإنسان ومقوماته العليا وما ميزه الله ﷻ به في الخلق ، فما معنى كادح ؟ الكدح هو : مجاهدة النفس في أمر من الأمور مجاهدة يظهر أثرها المادي فيها ، كما قال الشاعر :

وما الدهر إلا تارتان فمنهما أموت وأخرى أبتغي العيش أكدحُ

يكدح أي : يتعب في الحياة تعبًا يبدو أثره على نفسه ، فأنت أيها الإنسان سواء كنت كافرًا أو مؤمنًا كادحٌ إلى ربك كدحًا ، أي : غايتك إلى ربك من بدايتك إلى نهايتك ، ولكن هناك فرق في من يكدح في أمر محمود ، ومن يكدح في أمر مذموم ، فهذا كادح في طلب الدنيا والإقبال عليها ومجهد نفسه في تحصيلها ، وهذا أيضًا كادح ، ولكن في طلب الآخرة ، ويحمل نفسه المشاق ، ويقف أمام شهوات نفسه ويتعرض لكذا وكذا ، فهذا كادح وذلك كادح ، ولكن شتان ما بينهما .

وهناك معنىً آخر : وهو أن الحق ﷻ يريد أن يعطينا صورة ، وهي : أن الإنسان هو الذي يكدح ويجاهد لأجل لقاء الله ﷻ ، فكأن اللقاء أمر حتمي لا مفر منه ، ومشوارك في الحياة هو هرولة تجاه ذلك الأمر .

ومادمت كادحًا إلى ربك كدحًا فملاقيه ، فتكون كلمة : ﴿ فَمُلاَقِيه ﴾ عندها تتحدد المواقف الجزائية ، فإن كنت على وفق ما أحب ، سيلقاك اللقاء الكريم ، ويلقاك بنعيمه ، وإن كنت على المنهج المضاد فسيلقاك بعذابه ، والعياذ بالله .

فيا أيها الإنسان ، إنك سائر إلى ربك لا محالة ، سواء بكدحك للدنيا ، أو بكدحك للآخرة ، فالاثنان في كدٍّ ونصب ، كما تبين ذلك في قول الحق ﷻ : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ [1]، فكبد متعلقه بالدنيا ، وكبد متعلقه بالآخرة .

---

1 – سورة : البلد ، الآية : 4 .

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِه * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ .. ومعنى ذلك أننا جميعا سنتعرض للحساب ، وهذا هو منطق العدل ، ولكن الحساب نوعان : حساب لعرض ذنوب الإنسان ، يقول الله له : فعلت كذا يوم كذا ، وفعلت كذا يوم كذا ، لكني غفرت لك ذنوبك ، وهذا هو معنى قول النبي ﷺ لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : **" من حوسب عذب "** .. قالت عائشة : " أو ليس يقول الله ﷻ : **﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾**[1] ؟! قال : **" إنما ذلك العرض ، ولكن من نوقش الحساب يهلك "**[2].

فالله ﷻ يعرض علينا ذنوبنا لنعرف النعم التى منَّ بها علينا ، فأنت أذنبتَ ، وأنا غفرتُ ، ثم أذنبتَ ، وغفرتُ ، فهذا اسمه العرض ، واسمه الحساب اليسير .

﴿ وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِه مَسْرُورًا ﴾ .. هذا هو السرور الحقيقي ، وليس سرور الذين قال الله ﷻ فيهم : **﴿ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴾**[3].

---

1 - سورة : الانشقاق ، الآية : 8 .

2 - أخرجه البخاري (4558 ، 5506 ، 6504) ، ومسلم (5122 ، 5123) .

3 - سورة : المطففين ، الآية : 31 .

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴾ .. وفي سورة الحاقة : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ ﴾[1] ، وقد قلنا : إن التوفيقات دائمًا عند النصوص تأتي بالتوفيق الذي يكون جامعًا للصورتين ، فالمعنى أنه يأخذه بشماله من وراء ظهره ، وكأنه يأخذه على استحياء من الذي يعطيه الكتاب ، فإما أن يكون عدم المواجهة خجلاً منه وحياءً ، وإما أن يكون الذي يعطيه الكتاب لا يريده أن يرى وجهه .

﴿ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴾ .. والثبور : هو الهلاك ، والعياذ بالله ، ومعنى : ﴿ يَدْعُو ثُبُورًا ﴾ يقول : يا هلاكي .. وا هلاكاه ، وهذا هو المعنى الذي أراده المتنبي وهو يقول :

كَفى بِكَ داءً أَن تَرى المَوتَ شافِيا   وَحَسبُ المَنايا أَن يَكُنَّ أَمانِيا

ومعنى ذلك : أن الذي هو فيه شر من الموت ، فيقول : وا ثبوراه ، أي : وا هلاكاه ، كما يقول في موضع آخر على لسان الكافرين : ﴿ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴾[2] ، كل هذا من الهول الذي يراه .

﴿ وَيَصْلَى سَعِيرًا ﴾ .. وهذا هو الذي يدعو الهلاك لينقذه منه ، وهيهات هيهات ! !

وأمام هذا المشهد التعيس يكر السياق راجعًا إلى ماضي هذا الشقي الذي انتهى به إلى هذا الشقاء .

﴿ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾ .. رجع أيضًا إلى الأسباب الحقيقية لهذه المواقف ، حيث إن ذلك الإنسان كان غافلاً عما وراء اللحظة الحاضرة ، لاهيًا عما ينتظره في الدار الآخرة ، لا يحسب لها حسابًا ، ولا يقدم لها زادًا .

﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ﴾ .. إلى ربه ، ولن يرجع إلى بارئه ، أو ظن أنه لن يرجع عن حالته التي كان فيها ، فأهل النعيم في الدنيا يظنون أنهم سيظلون في هذا النعيم ، ولكن كلا ،

---

1 - سورة : الحاقة ، الآية : 25 .

2 - سورة : النبأ ، الآية : 40 .

فالأمر على خلاف ما يظنون ، ولو ظنوا الرجعة في نهاية المطاف لاحتقبوا بعض الزاد ، ولادخروا شيئًا للحساب .

﴿ بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴾ .. لقد ظن أنه لن يحور ، ولكن الحقيقة أن ربه كان مطلعًا على أمره ، محيطًا بحقيقته ، عالمًا بحركاته وخطواته ، عارفًا أنه صائر إليه ، وأنه مجازيه بما كان منه .

وكذلك كان ، حين انتهى به المطاف إلى هذا المقدور في علم الله ﷻ ، والذي لم يكن بدٌّ أبدًا أن يكون .

وصورة هذا التعيس وهو مسرور بين أهله في حياة الأرض القصيرة المشوبة بالكدح في صورة من صور الكدح تقابلها صورة ذلك السعيد ، وهو ينقلب إلى أهله مسرورًا في حياة الآخرة المديدة ، الطليقة ، الجميلة ، السعيدة ، الهنيئة ، الخالية من كل شائبة من كدح أو عناء .

فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ ﴿٢٥﴾

يعود بهم القرآن من هذه الجولة الكبيرة العميقة الأثر بمشاهدها ولمساتها الكثيرة ، إلى لمحات من هذا الكون الذي يعيشون فيه حياتهم ، وهم غافلون عما تشي به هذه اللمحات من التدبير والتقدير ، الذي يشملهم ويقدّر بإحكام ما يتوارد عليهم من أحوال .

وهذه اللمحات الكونية التي يلوح بالقسم بها لتوجيه القلب البشري إليها ، وتلقي إيحاءاتها وإيقاعاتها .. لمحات ذات طابع خاص ، طابع يجمع بين الخشوع الساكن ، والجلال المرهوب ، وهي تتفق في ظلالها مع ظلال مطلع السورة ومشاهدها بصفة عامة .

﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴾ .. والشفق هو الوقت الخاشع المرهوب بعد الغروب ، وبعد الغروب تأخذ النفس روعة ساكنة عميقة ، ويحس القلب بمعنى الوداع ، وما فيه من أسى صامت وشجى عميق ، كما يحس برهبة الليل القادم ، ووحشة الظلام الزاحف ، ويلفه في النهاية خشوع وخوف خفي وسكون .

﴿ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴾ .. هو الليل وما جمع وما حمل .. بهذا التعميم ، وبهذا التجهيل ، وبهذا التهويل ، والليل يجمع ويضم ويحمل الكثير ، ويذهب التأمل بعيدًا ، وهو يتقصى ما يجمعه الليل ويضمه ويحمله من أشياء وأحياء وأحداث ومشاعر وعوالم خافية ومضمرة ، ساربة في الأرض وغائرة في الضمير ، ثم يؤوب من هذه الرحلة المديدة ، ولم يبلغ من الصور ما يحتويه النص القرآني القصير : ﴿ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴾ .. إنما يغمره من النص العميق العجيب رهبة ووجل ، وخشوع وسكون ، تتسق مع الشفق وما يضفيه من خشوع وخوف وسكون .

﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴾ .. مشهد كذلك هادئ رائع ساحر ، وهو القمر في ليالي اكتماله ، وهو يفيض على الأرض بنوره الحالم الخاشع الموحي بالصمت الجليل ، والسياحة المديدة ، في العوالم الظاهرة والمكنونة في الشعور ، وهو جوٌّ له خفية بجو ذلك التعبير : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ * وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴾ .. يلتقي معهما في الجلال والخشوع والسكون ..

هذه اللمحات الكونية الجميلة الجليلة الرائعة المرهوبة الموحية يلتقطها القرآن لقطات سريعة ، ويخاطب بها القلب البشري ، الذي يغفل عن خطابها الكوني ، ويلوح بالقسم بها

ليبرزها للمشاعر والضمائر في حيويتها وجمالها وإيحائها وإيقاعها ، ودلالتها على اليد التي تمسك بأقدار هذا الكون ، وترسم خطواته ، وتبدل أحواله وأحوال الناس أيضًا وهم غافلون .

﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ .. أي لتعانون حالاً بعد حال ، وفق ما هو مرسوم لكم من تقديرات وأحوال ، ويعبر عن معاناة الأحوال المتعاقبة بركوبها ، والتعبير بركوب الأمور والأخطار والأهوال والأحوال مألوف في التعبير العربي ، كقولهم : " إن المضطر يركب الصعب من الأمور ، وهو عالم بركوبه " ، وكأن هذه الأحوال مطايا يركبها الناس واحدة بعد واحدة ، وكل منها تمضي بهم وفق مشيئة القدر الذي يقودها ويقودهم في الطريق ، فتنتهي بهم عند غاية تؤدي إلى رأس مرحلة جديدة مقدرة ، كذلك مرسومة ، كتقدير هذه الأحوال المتعاقبة على الكون من الشفق ، والليل وما وسق ، والقمر إذا اتسق ، حتى تنتهي بهم إلى لقاء ربهم ، الذي تحدثت عنه الفقرة السالفة ، وهذا التتابع المتناسق في فقرات السورة ، والانتقال اللطيف من معنى إلى معنى ، ومن جولة إلى جولة ، هو سمة من سمات هذا القرآن البديع .

وفي ظل هذه اللمحات الأخيرة والمشاهد والجولات السابقة لها في السورة يجيء التعجيب من أمر الذين لا يؤمنون ، وأمامهم هذا الحشد من موحيات الإيمان ودلائله في أنفسهم وفي الوجود :

﴿ فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لاَ يَسْجُدُونَ ﴾ .. أجل ! فما لهم لا يؤمنون ؟! إن موحيات الإيمان في لمحات الوجود ، وفي أحوال النفوس ، تواجه القلب البشري حيثما توجه ، وتتكاثر عليه أينما كان ، وهي من الكثرة والعمق والقوة والثقل في ميزان الحقيقة ، بحيث تحاصر هذا القلب لو أراد التفلت منها ، بينما هي تناجيه وتناغيه وتناديه حيثما ألقى بسمعه وقلبه إليها .

إن القرآن يخاطبهم بلغة الفطرة ، ويفتح قلوبهم على موحيات الإيمان ودلائله في الأنفس

والآفاق ، ويستجيش في هذه القلوب مشاعر التقوى والخشوع والطاعة والخضوع لبارئ الوجود .. وهو " **السجود** " ..

إن هذا الكون جميل وموحٍ ، وفيه من اللمحات والومضات واللحظات والسبحات ما يستجيش في القلب البشري أسمى مشاعر الاستجابة والخشوع .

وإن هذا القرآن جميل وموحٍ ، وفيه من اللمسات والموحيات ما يصل القلب البشري بالوجود الجميل ، وببارئ الوجود الجليل ، ويسكب فيه حقيقة الكون الكبيرة الموحية بعظمة خالقه العظيم .

﴿ **فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لاَ يَسْجُدُونَ** ﴾ .. إنه لأمر عجيب حقًّا ، يضرب عنه السياق ليأخذ في بيان حقيقة حال الكفار ، وما ينتظرهم من مآل .

﴿ **بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ** ﴾ .. بل الذين كفروا يكذبون .. يكذبون إطلاقًا ، فالتكذيب طابعهم وميسمهم وطبعهم الأصيل .

﴿ **وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ** ﴾ .. والله أعلم بما يكنون في صدورهم ، ويضمون عليه جوانحهم ، من شر وسوء ودوافع لهذا التكذيب .

ثم يترك الحديث عنهم ، ويتجه بالخطاب إلى الرسول الكريم ﷺ ..

﴿ **فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾ .. ويا لها من بشرى لا تسر ولا يودها متطلع إلى بشرى من بشير !

وفي الوقت ذاته يعرض ما ينتظر المؤمنين الذين لا يكذِّبون ، فيستعدون بالعمل الصالح لما يستقبلون ، ويجيء هذا العرض في السياق كأنه استثناء من مصير الكفار المكذبين ..

﴿ **إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ** ﴾ .. وهو الذي يقال عنه في اللغة استثناء منقطع ، فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لم يكونوا داخلين ابتداء في تلك البشارة

السوداء ثم استثنوا منها ، ولكن التعبير على هذا النحو أشد إثارة للانتباه إلى الأمر المستثنى .

والأجر غير الممنون هو الأجر الدائم غير المقطوع في دار البقاء والخلود .

وبهذا الإيقاع الحاسم القصير ، تنتهي السورة القصيرة العبارة ، البعيدة الآماد في مجالات الكون والضمير .

نسأل الله ﷻ أن يجعلنا دائمًا من المصدقين بالساعة ، وأن يجعلنا يوم القيامة من الفائزين بالنعيم المقيم ، وأن يحقق لنا آمالنا أجمعين . .

والحمد لله رب العالمين . .







سورة البروج





بسم الله الرحمن الرحيم . . أحمدك ربي ، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، ورحمة الله للعالمين ، وبعد . .

فمع **سورة البروج** ، تلك السورة القصيرة التي تعرض حقائق العقيدة ، وقواعد التصور الإيماني .. أمورًا عظيمة .. وتشع حولها أضواء قوية بعيدة المدى ، وراء المعاني والحقائق المباشرة التي تعبر عنها نصوصها ، حتى لتكاد كل آية وأحيانًا كل كلمة في الآية أن تفتح كوة على عالم مترامي الأطراف من الحقيقة ..

والموضوع المباشر الذي تتحدث عنه السورة هو **حادث أصحاب الأخدود** .. وقصته هو أن فئة من المؤمنين السابقين على الإسلام ، والذين قيل إنهم من النصارى الموحدين ابتلوا بأعداء لهم طغاة قساة شريرين ، أرادوهم على ترك عقيدتهم والارتداد عن دينهم ، فأبوا وتمنعوا بعقيدتهم ، فشق الطغاة لهم شقًا في الأرض ، وأوقدوا فيه النار ، وكبوا فيه جماعة المؤمنين فقتلوهم حرقًا ، على مرأى من الجموع التي حشدها المتسلطون لتشهد مصرع الفئة المؤمنة بهذه الطريقة البشعة ، ولكي يتلهى الطغاة بمشهد الحريق .. حريق الفئة المؤمنة .

---

* مقدمة تفسير السورة مقتبس بتصرف من : "في ظلال القرآن" .

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ۝١ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ۝٣ قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ۝٥ إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ۝٦ وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ۝٧ وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ۝٩

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾ .. بدأت بقسم مشهدي ، وهي السماء وما فيها من البروج التي لها آثارها في نظام الكون وسنن الوجود .

﴿ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴾ .. وهو يوم القيامة ، وهو غيب ، فاستشهد الحق سبحانه وتعالى بالعظمة في السماء ذات البروج ، وذلك أمر مشهود ، بشيء غيبي وهو : ﴿ الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴾ .

﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ .. عطف الحق سبحانه وتعالى على القسم بعد ذلك ، وبيَّن لنا معنى المشهود .

﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ ﴾ .. ويجيء جواب القسم ليصور لنا حادثة من حوادث الإيمان مع الكفر .. ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ ﴾ .

﴿ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴾ .. وهذا تبيين أكثر للحادث .

ثم بعد ذلك أراد الحق سبحانه وتعالى أن يصور لنا مبادئ المعركة بين الإيمان والكفر ، بين الإيمان المفتون في ضعفه ، والكفر الفاتن في طغيانه ، فعرض الحق سبحانه وتعالى صورة لهذا الصراع ليبين لنا أن الموقف من هؤلاء الطاغين ضد المستضعفين من المؤمنين ، موقف لا تقره الفطرة ولا العقل .

فالصراع دائمًا يكون بين قوتين ، وحين يكون الصراع بين قوتين ، إنما يكون بين حق

وباطل ، وإذا كان الصراع بين حق وباطل ، فلا يطول ذلك الصراع أبدًا ؛ لأن الباطل زهوق ، وإما أن يكون صراعًا بين حقين ، فذلك لا يوجد ؛ لأنه لا يوجد في قضية واحدة حقان يتصارعان ، وإما أن يكون بين باطلين ، وذلك هو الصراع المشهود الذي يطول ولا ينتهي أبدًا ؛ لأن أحد الباطلين ليس أولى بأن ينصره الله ﷻ على غيره ، فيظل الصراع طويلاً ، فإذا رأيت معركة بين فريقين ولم تنتهِ ، فاعلم أن الصراع فيها بين باطلين .

هذه المعركة التي يصورها لنا الحق ﷻ يقول فيها بمنتهى الوضوح : ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ .. نقموا منهم أي : كرهوا وأنكروا ، إذن فالفئة الفاتنة ، أصحاب الأخدود ، الذين أوقدوا النار ، وطرحوا فيها المستضعفين من المؤمنين ، الذين لا ذنب لهم إلا أنهم آمنوا بالله العزيز الحميد ، كرهوا منهم ذلك الإيمان .

﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ .. يريد الحق ﷻ أن يصور أساس الفساد في الوجود كله ، فإذا رأيت فسادًا ، فاعلم أن ذلك الفساد ناشئ من هذه القضية الخطيرة ، كيف هذا ؟! حين ينقم فريق على قوم أنهم آمنوا بالله فكان المفروض أن تجد الحال بعد : ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ ﴾ .. أن تجد صفة مذمومة ، فأنت تقول : ما أنكرت على فلان شيئًا إلا كذا وكذا ، فمعنى ذلك أنه كان يجب أن يأتي بعد : " إلا " صفة من الصفات المكروهة التي تنكر ، لكنه حينما جاء بالصفة بعد : " إلا "وجدناها ليست من الصفات التي تكره ، بل هي من الصفات التي تزيدنا حبًا لهم ، تقول : ما نقمت على فلان ، أو ما أنكرت على فلان إلا أنه كافر ، ما أنكرت على فلان إلا أنه نمام ، فهي صفة الذم التي تنكرها عليه ، لكن هنا ما أنكروا عليهم إلا أنهم يؤمنون بالله ، فنجد أن ما بعد : " إلا " ليس من طبيعته أن ينكر ، وليس من فطرته أن يكره ، فما داموا كرهوا الأمر الذي ليس من طبيعته ولا من فطرته أن يكره ، فذلك فساد في عقلية من حكم بهذا الحكم ؛ لأنهم اعتبروا قمة الخير مما ينكر ويكره وينقم .



وهذا دليل على فساد طبعه ، وكأن القرآن يشير إلى أن هؤلاء لو عددوا صفات هؤلاء الذين فتنوهم في دينهم ، وحرقوهم بسبب هذا الدين ، لو استعرضوا صفاتهم أو استعرضوا خلقهم ، أو استعرضوا سلوكهم ، لم يجدوا فيهم شيئًا يكره .

فما هو الشيء الذي كرهوه منهم ؟! ﴿ **أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ** ﴾ ، وهذا نوع من الأداء البياني ، يسميه العلماء : " **تأكيد المدح بما يشبه الذم** " ، فهو لما قال : ﴿ **وَمَا نَقَمُوا** ﴾ وكأنه لا يوجد شيء عندهم يكره ولا ينكر ، ولما جاء بـ : " **إلا** " قلنا : إنه سيأتي بشيء يكره ، فإذا به شيء يحب ، فلم يجدوا مذمة فيهم إلا صفة مدح أخرى ، فأكد المدح بما يشبه الذم ، كأن تقول : **لا عيب في فلان إلا أنه كريم** ، معنى ذلك أنك مدحته بقولك : لا عيب فيه ، فنفيت عنه أصل العيب ، ثم استثنيت ، فظن السامع أنك ستأتي بخصلة ذميمة ، فإذا بك تأتي بعد الاستثناء بخصلة كريمة ، إذن فقد أكدت المدح بأسلوب يشبه الذم .

ونظيره قول النابغة :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

وقول الآخر :

لا عيب فيهم سوى أن النزيل بهم يسلو عن الأهل والأوطان والحشم

وهذا وارد في أسلوب العرب ، وفي القرآن منه أمثلة كثيرة ، ومن مادة نقم أيضًا : ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ** ﴾ [1].. لماذا أنتم كارهون لنا ؟! وماذا صنعنا ؟! لم نصنع إلا أن آمنا بالله ، فإذا كنتم تكرهون منا أن نؤمن بالله ﷻ ، فهل الفساد من طبعنا أم من طبعكم أنتم ؟! بل في طبعكم وفي مقاييسكم .

كأن الحق ﷻ يريد أن يصور لنا المعركة ، وهي أن هؤلاء الفاتنين للضعفاء من المؤمنين لم

1 – سورة : المائدة ، الآية : 59 .

يجدوا فيهم عيبًا حين يستعرضون صفاتهم وخلقهم وسلوكهم ، إلا أنهم مؤمنون بـالله ﷻ ، وما دمتم لم تجدوا فسادًا في سلوكهم ولا في خلقهم ، فهل الإيمان بـالله ﷻ هو ما تكرهونه فيهم فقط ؟! نعم ، لماذا ؟! لأنهم طغاة ، والطغاة دائمًا يحافظون على مركزهم الطغياني ، فأي إنسان يصرف العبودية لغيرهم يكون مجنونًا .

وكأن نقل المؤمن العبودية لغير هؤلاء الطغاة يكون هو الذنب ، فلا يشفع لهم أنهم مصلحون ، ولا يشفع لهم أنهم متخلقون بخلق كريم ، إنما الذنب كله أنهم صرفوا عبوديتهم لرب واحد هو الله ﷻ ، صرفوها عن هؤلاء الطغاة ، أما أولئك الذين لا يصرفون عبوديتهم إلى الإله الواحد ، ويوجهونها إلى هؤلاء الطغاة ، فالطغاة يغضون أبصارهم عن كل مساوئهم ، ولذلك لا تجد فسادًا في الأرض من حاكم إلا من القوم الذين يؤلهون الحاكمين ، وإن فسقوا ، وإن ارتشوا ، وإن أفسدوا ، وإن سرقوا ، كل ذلك مغتفر ما داموا يؤلهونهم ، وما دامت عبوديتهم لحسابهم .

والقوم الذين هم ضدهم وإن كانوا مصلحين ، وإن كانوا على خلق ، وإن كانوا مستقيمين ، فهذا لا يعجبهم ؛ لأن هذا هو ميزانهم الذي يزنون به الناس .

﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ .. جاء الحق بوصفين ، كان مقتضى القياس أن لا ينْكرا ، فالله له صفتان : **عزيز ، وحميد** ، أما صفة : " **العزيز** " فتدل على الغلبة ، وأنه ﷻ لا يُقهر ، وأما صفة : " **الحميد** " فتدل على أنه منعم ، إذن فهناك جانبان ، جانب الغلبة لمن يرهب ، وجانب الإنعام لمن يرغب .

﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ .. أي : الغالب ، فلم يذهبوا إلى ناحية ضعيفة ، بل لناحية لها الغلبة المطلقة ، فالكون كله في قبضته ، وحميد لأنه منعم يستوجب الحمد ، والحمد صفة ملازمة له ، فإذا كان الذي آمنوا بـه عزيزًا غالبًا لا يُغلب ، وحميدًا منعمًا نعمًا بقيوميته لا تنفد ، ولا ينفد من أجلها الحمد .. إذن فقد توجهوا بعقيدتهم



وإيمانهم إلى موطن حقيقي للإيمان ، إذن يصور لنا فساد الذين فَتنوا ، ويصور لنا صلاح الذين قُتلوا .

وكلمة : ﴿ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ لا نقولها هكذا بلا دليل ، والدليل أن له ملك السماوات والأرض ، وما دام له ملك السماوات والأرض ، فتكون الغلبة له مشهودة .

﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .. صفتان أيضًا ، ما دام له ملك السماوات والأرض ، وهذه حتى الكافر يؤمن بها ، لماذا ؟! لأنه وإن كان للكافر لون اختيار في بعض أعماله ، فهو مقهور في جمهرة أعماله ، وما دام مقهورًا في جمهرة أعماله فمن الذي يقهره ؟ إنه هو من له ملك السماوات والأرض .

﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .. وانظر إلى الدقة الأدائية ، لم يقل : وهو على كل شيء شهيد ، وإنما جعلها جملة استسلامية ؛ حتى لا تحتاج صلة الضمير إلى مرجع ، وجملة : ﴿ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ تناسب ما كان مذكورًا في أول السورة ؛ لأنه يقول : ﴿ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴾ ، فهم شهود ، أي مشاهدون لما يفعلونه بأولئك المؤمنين ، والله ﷻ شاهد أيضًا .

وكلمة : " **شهيد** " لها معنيان : شهيد أي : " **كل شيء يحضره ، لا يغيب عنه شيء أبدًا** " ، أو هو : " **شهيد لمن لا شاهد له ممن ظلمه** " ، فمن ظلم خفية ولا حجة عليه أنه ظلم ، فالحجة عند الله ﷻ أنه ظالم .

إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾

بعد ذلك يعرض الحق ﷻ لجزاء الفئة الأولى فيقول ..

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾ .. تجد أن الحق ﷻ يعامل الخلق معاملة رب ، أي بصفاته هو ، لا بصفات الخلق ، ومعنى ذلك أنه لا توجد عنده ندية ، فمهما يفعل الكافر ثم يتوب وينيب ويؤوب إلى الله ﷻ ، فكأن شيئًا لم يكن ، فليس عنده هذه الندية التي عند الخلق ؛ لأن الله ﷻ لا ينفعل للأشياء ؛ وذلك لأن كفر الكافرين لا ينقص من ملكه شيئًا ، وطاعتهم لا تزيد في ملكه شيئًا ، إنما هذا غيرة من الخالق على خلقه فقط ، فالحق ﷻ يريد أن يعطينا هذا المبدأ ، هذا المبدأ اسمه : " حسم الشر " ؛ لأن العاصي إذا كفر وطغى وصنع ما صنع ثم بعد ذلك لا يقبله الله ﷻ ، فما دام أنه خاسرًا خاسرًا ، فليأخذ حظه جبروتًا وطغيانًا ، لكن حتى هؤلاء يقول الحق ﷻ لهم : من يتُب يغفر له ما قد سلف ، فالحق ﷻ لا يقطع الرجاء والأمل أبدًا ، حتى لمن طغى وكفر وتكبر ، وقتل المؤمنين والمؤمنات ، ومعنى ذلك أن الله ﷻ يريد ألا يستطرد صاحب الشر بالشر ، ولا يعيث في الأرض فسادًا ، وهو يحث الإنسان على أن يتوب ، فالتوبة تجب ما قبلها ، وذلك يدل على أن صلة كل الخلق بربهم صلة مربوب بربه ، وليست



عداوة .

﴿إِنَّ الَّذِيــنَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾ .. والحريق لون من جهنم ، إنما أراد الحق ﷻ أن يذكرهم بلقطة : ﴿ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴾ ،أو أن عذاب جهنم ليس كل النار ، فهناك عذاب بالزمهرير ،وهو البرد الشديد ، فسيجمعون بين اللونين ، ولذلك عقب : ﴿ لَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾ ، أو أن المعنى : أن الذين كفروا بـــالله ولم يتعرضوا للمؤمنين ليفتنوهم عن دينهم ، جزاؤهم ليس كجزاء من كفروا بالله ثم تعرضوا للمؤمنين ليفتنوهم عن دينهم .

إذن : ﴿ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ﴾ .. على كفرهم ، وإن لم يتعدَّ ذلك إلى المؤمنين ليفتنهم في دينهم ، ثم ﴿ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾ ؛ لأنهم تعدوا وفتنوا المؤمنين في دينهم ، وحرقوهم في النار ، فالجزاء يتضاعف .

﴿ إِنَّ الَّذِيــنَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾ .. إذا كانت القصة عن أصحاب الأخدود ، فإنهم ماتوا ولم يتوبــوا ، ولكن ذلك تلميح للمعاصرين لرسول الله ﷺ ؛ لذلك يطلقها الحق ﷻ قضية إيمانية : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ ، يقول لهم : إن كان قد سبق منكم مثل هذا ، فاعلموا أنكم إن تبتم فقد انتهى كل شيء ، ويكون ذلك حسمًا لباب الفتنة والشر .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴾ .. وكما قيل : بالضد تتميز الأشياء .

إن المعركة حين تكون بين حق وباطل ، أو بين باطل وباطل ، فإما أن تتساوى الكفتان فلا يوجد منصور ومنصور عليه ، وإما أن يوجد منصور ومنصور عليه ، فأهون الأشـياء في المعارك أن تتذبـــذب المعركة ، ويكون الســجال هو النتيجة ، لا يوجد منصور ولا منصور عليه ، أو يوجد منصور ، ويوجد منصور عليـه ، إذن فالمنصـور عليـه فاتـه خـير النصـر وأدركتـه ذلتـه

للمنصور ، كمثل رجلين مع كل منهما سيف ، فضرب أحدهما على يد الآخر فأخذ سيفه ، فأصبح السيفان معه ، وصار الآخر بلا سيف ، فلو أن هذا ظل بسيفه ، وظل ذلك بسيفه ، ولم يحصل بينهما طعان فلا لون للفوز ، فهذا تعادل ، لكن إذا انتصر أحدهما على الآخر ، فقد فعل شيئين : أنه تخطى منطقة التعادل ، وهذه لم يأت منها غرم ، ثم بعد ذلك أخذ مرتبة النصر ، وهذا هو الفوز الكبير .

فقول الحق ﷻ : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ** ﴾ .. فأما الفوز الأول : فإنهم زحزحوا عن النار ، ولو زحزحوا عن النار ولم يدخلوا الجنة لكان فوزًا ، فكيف بهم لو زحزحوا عن النار وأدخلوا جنة ، ثم لما يزحزح عن النار ويدخل الجنة ، يأخذ فيها كل واحد منازله ، على قدر الفتنة التي فتن فيها في الله ﷻ .

﴿ **ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ** ﴾ .. لماذا ؟! لأن الحق ﷻ نجاهم بموقفهم من النار وذلك فوز ، وبعد ذلك أدخلهم الجنة وذلك فوز ، وبعد ذلك يعطيهم منازل على قدر الفتنة وذلك فوز أكبر ، فهناك فوز ، وفوز كبير ، وفوز أكبر ، ولذلك قال الله ﷻ هناك : ﴿ **وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ** ﴾[1] .

﴿ **إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ** ﴾ .. وهذه قضية ديمومة ، أي : لم يكن الله ذا بطش عند أصحاب الأخدود فقط ، بل القضية العامة أن ربنا ذو بطش شديد ، ومعنى **البطش** : هو الصرامة والعنف في الأرض ، فتجد الأداء البياني فيه ثلاثة أمور تلفت النظر: ﴿ **إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ** ﴾ .. إذن هذا التهديد فيما يتعلق بأمره ، وأمر دعوته ، وأمر الخارجين عليه ؛ لأنه أضاف الرب ﷻ إلى الرسول ﷺ ، فهذا هو التهديد للمعاصرين للرسول ، الذين كانوا يفتنون المؤمنين استهزاءً أو تعذيبًا أو تحريقًا أو رميًا على الرمضاء .

---

1 – سورة : التوبة ، الآية : 72 .

﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ .. ويصف كلمة : ﴿ بَطْشَ ﴾ بالشـــدة ؛ ليزيد من هول ذلك التهديد .

﴿ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴾ .. والبطش معناه الأخذ بصرامة وعنف ، والأخذ بـصرامة وعنف يريد قـوة قـوية ، ولماذا قـوة قـوية ؟! لأنه ليس أقـوى منه ، فهو صاحـب البـدء وصاحـب الإعادة ، يعني قوسا الوجود عنده : ﴿ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴾ ، وما دام قوسـا الوجود عنده من بـدْء وإعادة ، إذن فلا يوجد معه أحد ، فلا يوجد نصير لأحد من الله أبدًا ، فإذا أخذ الله أحدًا فلا يحميه أحد ، ﴿ وَهُوَ يُجِيرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾[1] .

يبـدئ ويعيد ، أي : يبـدئ الخلق والوجود ، ويعيده إليه ، أو يبـدئ الأفعال ، ويعيدها إليه ، أو كما حدث ذلك عند أمم سابقة ، فيعيد الكرة ويكون البطش الشـديد على من يكونون ضدك كما كان بطشـه شـديدًا على من كانوا ضد الرسـل الذين سبقـوك ، أو يعيد الكون كله في حلقــات متطورة وراجعة ، وأنت لو نظرت إلى أي شـــيء في الوجود من عناصر الحياة ، تجد إبداء وإعادة ، فهذا الماء الموجود في الكون هل زاد أو نقص منذ أن خلق الله ﷻ الكون ؟ إنه ما زاد ولا نقـص ، والذي نشربـه في حـياتنا يعود بالتبــخر منه ، أو مع بـوله ، أو عرقــه ، أو مخاطه ، فإذا بقي في الجسم بعض الماء تبـخر أيضًا بـعد موت الإنسـان ، وذلك يدلنا على أن الوجود كله حركة دائرية .

﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴾ .. كلمة : **الغفور** تشي بالمذنبـين ؛ لأن هناك ذنوبًا ، وهو غفور لهذه الذنوب ، وكلمة : **الودود** أي : ودود بالمحبــين ، فإذا كان غفورًا لمن يذنب ، وودودًا لمن يحب ، أفلا يجعلك هذا تحب هذا الإله ﷻ حق الحب ؟!

إذا ما وجدنا صفة من صفات الله ﷻ فيها مبالغة ، فيجب أن نفهم المبـالغة على حقيقـتها بالنسبة للحق ﷻ ؛ لأن المبالغة إنما تكون في صفات الحوادث ، الذين تقـوى صفاتهم تارة ،

---

1 ـ سورة : المؤمنون ، الآية : 88 .

وتضعف أخرى ، فنقول : هناك مبالغة ، لكن عندما نقول عن الحق ﷻ : إنه غفور ، أي : مبالغ في المغفرة ، فإن الصفات تكون : غافر مرة ، وغفور مرة ، وهي لا تقوى تارة وتضعف أخرى ، لكنها صفات كمال لله ﷻ ، صفات كاملة دائما ، فإذا وجدت مبالغة في الصفات ، كغفار ، وغفور مثلاً فاعلم أن المبالغة إنما هي في المتعلق .

وهنا قد يرد إشكال في قول الحق ﷻ : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾[1] ، وهو أن صفة المبالغة إذا أثبتت ، ثبتت الصفة المحضة ، أي : للمبالغة ، فإذا قلت : فلان علام ، فتكون قد أثبت له أنه عالم ما دمت أثبت له الوصف الكبير ، فلابد أن يكون له الوصف ، فمن أثبت له أنه علامة ، فتكون أثبت له أنه علام بدون تاء ، وأثبت له أنه عالم ؛ لأن ما أثبته الأقوى يثبت به الأقل والأضعف ، لكن إذا نفيت صفة المبالغة ، أيستلزم ذلك نفي الصفة الأصلية ؟ لا ، تقول : فلان ليس علامة ، وقد يكون عالما فقط ، إذن فصفات المبالغة إذا أثبتت ثبت ما دونها من باب أولى ، وإذا نفيت لم ينف ما دونها ؛ لأن من الجائز أن فيه الأقل وليس فيه الأكثر .

فإذا أورد أحدهم إشكالاً في قوله : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ ، فقال : إنه نفى أن يكون ظلامًا ، ولا يعني هذا أنه ليس ظالمًا !

نقول له : لا ، أنت أخذت الوصف على أن المبالغة صفة بالنسبة لله ، ولكن المبالغة بالصفة بالنسبة للمتعلق المقابل ، فقد قال : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ ﴾ ، ولم يقل : للعبد ، فلو كان قال : بظلاَّم للعبد ، لكنت تستطيع أن تقول هذا ، ولكنه قال : ﴿ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ ، فهناك عبيد كثيرون ، والفعل مبالغ فيه إما للقوة في ذاته ، وإما لكثرة متعلقه ، فإذا قلت : فلان أكول ، أو أكال ، فلو وصفته هذا الوصف ؛ لأنه عندما يأكل يأكل كعشرة ، فيكون هذا في قوة الفعل ذاته وقوة الحدث ، أو أنه كل ساعتين يريد أن يأكل ، فتقول : أكول ، أو

1 - سورة : فصلت ، الآية : 46 .

أكال ، فأنت لم تعطه الوصف للمبالغة في الحدث ، ولكن لتكرار الحدث .

فلو أن الله ظلام للعبيد كلهم ، يظلم هذا ، ويظلم هذا ، فتكون المبالغة من ناحية تعدد المتعلق ، والظلم على قدر المقدرة ؛ لأن العاجز لا يظلم ، فالذي يظلم دائمًا في مرتبة القوي ، فلو أراد الله أن يظلم فسيكون ظلمه صعبًا جدًّا ؛ لأن الظلم على حسب القدرة .

فإذا ما رأينا صفات مبالغة ، يجب أن نتنبه إلى أن الصفات في الله تبارك وتعالى لا تتحمل تشكيكًا ، أي : قوة وضعفًا ، ولكن صفة الكمال في الله كمال مطلق ، لا تكون مرة ضعيفة ، ومرة قوية ، وإنما تكون بالنسبة لمتعلقها ، يقول مثلاً : تواب ؛ لأننا نكثر الذنوب ، ونتوب ، ونتوب ، ونتوب ، وهو يتوب علينا ويتوب ويتوب ، فيكون توابا ؛ لأنه مع ضخامة الذنب يكون أيضًا توابًا .

﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ .. ورد هذا اللفظ بعدة مشتقات له : **غافر** .. ﴿غَافِرِ الذَّنبِ﴾[1] ، و **غفار** .. ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ ﴾[2] ، و **الغفور** كالآية التي معنا ، فيكون من هذه المادة ثلاث كلمات : **غافر** الوصف الأصيل ، وبعد ذلك : **غفار** ، وبعد ذلك : **غفور** ، وهي ليست تكرارًا هنا كلها بالنسبة لمتعلقاتها ، لكن مرة تكون المبالغة الغفر ، ومعناه : الستر ، ومنه سمي المِغفر الذي يلبسه الشجعان ليقي رءوسهم في الحرب ، والغفر : هو ستر الذنب ، بحيث لا يفضح العبد بذنوبه عند الناس ، ويكره من يفضحه بتتبع العورة ، وبعد ذلك تكون هذه صفة الدنيا .

و **الغفور** : للجزاء على الذنوب ، أي : مرة غفر للذنب في ذاته ، ومرة غفور للجزاء على الذنوب ، أو غفار لمن تاب .

وبعد ذلك تأتي مبالغة ثالثة في المغفرة وهي : أن الذي لم يتُب ، طالما أنه آمن به ولقيه غير

---

1 – سورة : غافر ،الآية : 3 .

2 – سورة : طه ،الآية : 82 .

مشركٍ به ، فإنه يغفر له ، قال ﷻ : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾[1] ، لكن نستثني من ذلك الشرك ؛ ولذلك كان ابن عباس عندما يقرأ هذه الآية يقول : إلا الشرك ؛ وذلك جمعًا بين النصوص مع قوله ﷻ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾[2] ، حتى لا يتعارض نص مع نص .

وكذلك وإن لم يذكر هذا الاستثناء ، فهي مفهومة من كلمة الذنب ، ومن قوله : ﴿ يَا عِبَادِيَ ﴾ وكلمة : " عبادي " عندما تذكر ، نفهم أنها للمخلصين ، وبعد ذلك : ﴿ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ .. ولا يقال لذي الكفر أو لذي الشرك : إنه مذنب ؛ لأن المذنب هو الذي عنده مقاييس يؤمن بها ثم خالفها في شيء منها ، والمشرك ليس عنده مقاييس ، فالمشرك ليس داخلاً في : ﴿ يَا عِبَادِيَ ﴾ .

إذن **الغفار** : ستار الذنوب في الدنيا ، بحيث لا يفضح العبد بذنبه أمام الناس ، أو غفار لمن يتوب بالفعل ، وبعد ذلك : **غفور** ، إما في الآخِرَة لجزاء الذنوب ، أو غفور لمن لم يتب ؛ لأنه ﷻ يصح أنه يعامل بعض عباده بهذه المسألة .

﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴾ .. **الودود** من صفات المبالغة ، **ودود** على وزن فعول ، وصيغة فعول ، هل هي بمعنى اسم الفاعل ، أم بمعنى اسم المفعول ؟! **ودود** فعول ، **ورسول** فعول أيضًا ، ولكن رسول معناها : مُرسَل من عند الله ، أما **ودود** فمعناها : واد لمن يحبه ، أو مودود لمن يحبه ، فيصح فيها المعنيان ، أنها بمعنى فاعل ، أوبمعنى مفعول ، واد لمن يحب ؛ ومودود لمن أحبه ، فالمسألة متبادلة ، أي أن : الود مرة يكون من الله ﷻ إلى العبد ، ومرة

---

1 – سورة : الزمر ، الآية : 53 .

2 – سورة : النساء ، الآية : 48 .

يكون من العبد إلى الله ﷻ ، فهناك عبد يقع له الود من الله ﷻ ، وهذا من بـاب الفضل ، أو من باب الجود ، والثاني : يتودد إلى الله ﷻ ، وبعد ذلك يوده الله ﷻ ، وهذا من باب بـذل المجهود ، فذلك من فضل الجود ، وذلك من بذل المجهود .

فمن الناس من يصل بكرامة الله ﷻ إلى طاعته ﷻ ، ومنهم من يصل بـطاعة الله إلى كرامة الله ، حـتى لا نحجرعلى أي طريق إلى الحق ﷻ ، ففيه شـيء من فيض الجود ، وشـيء من بذل المجهود .

فـ ﴿ الْوَدُودُ ﴾ : تأخذها من وادّ ، وهي اسـم الفاعل ، أو من **مودود** ، وهي اسـم المفعول ، أو **ودود** يوَدِّد أهل محبـته إلى خلقـه ، وذلك كما جاء في حـديث **أبـي هريرة** رضي الله عنه قال : قـال رسول الله ﷺ : " **إن الله إذا أحب عبدًا دعا جبريل فقال : إني أحـب فلانًا فأحبه ، قال : فيحبه جبريل ، ثم ينادي في السماء فيقول : إن الله يحب فلانًا فأحبـوه ، فيحبه أهل السماء ، قال : ثم يوضع له القبول في الأرض ، وإذا أبغض عبدًا دعا جبريل فيقول : إني أبغض فلانًا فأبغضه ، قال : فيبغضه جبريل ، ثم ينادي في أهل السماء : إن الله يبغض فلانًا فأبغضوه ، قال : فيبغضونه ثم توضع له البغضاء في الأرض** "[1] .

﴿ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴾ .. طبـعًا إذا سمعنا كلمة : **العرش** ، وكلمة : **الكرسـي** ، وكلمة : **الميزان** ، وكلمة : **اللوح المحفوظ** ، كل هذه الأمور التي نسـميها السـمعيات ، سمعية أي : حجتنا فيها السماع ، إنما ليس السماع المطلق ، السماع ممن تثق بـصدق تبليغه عن الحق ﷻ ، فعند ذلك لا ينبـغي لعقلـك أن يقـف على كيفية الأشـياء ، لا تقـل : ما هو العرش ؟ أو ما شكله ؟ حيث إن عدم قدرتك على وصف العرش لا تمنع من وجوده .

فإدراك كنه الأشـياء ، أو إدراك صفات الأشـياء ، لا يتعلق عليه الحكم بـوجود الأشـياء ، والأشـياء إذا أخبرت بـهـا ممن تثق بصدقـه عن الحق ﷻ فإن كان له نظير في كونك فتأخذ من

---

1 – أخرجه البخاري (2970 ، 5580 ، 6931) ، ومسلم (4772) .

النظير نظيره ، نحن نسمع كلمة : **العرش** ، ونفهم أنه هو عرش الملك ، فعندما يقول الله ﷻ لك : إن لي عرشًا ، فليس في ذهنك وتصوراتك أن تعرف ما هو ذلك العرش ، ولو قال : إن لي كرسيًّا ، فنؤمن بوجود الكرسي ، وبعد ذلك فاترك كيفيته ، واترك وصفه على منهاج الله ﷻ فيه ؛ لأنك تأخذ كل شيء ينسب إلى الله ﷻ كما قال الله ﷻ به ، فأعطِ وصف الخلق بما يناسب الخلق ، وأعطِ وصف الخالق بما يناسب الخالق ، في إطار قاعدة : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [1].

وليس هذا هو الشيء الوحيد الذي يقف العقل عند تصوره ، فهناك في ماديات الحياة وكونياتها المحسة أشياء لها آثارها ، ومع ذلك لا نستطيع أن نصف كنهها ، مثل الكهرباء ، فإلى الآن لا نستطيع أن نعرف ماهيتها ، ولكنها موجودة بلا شك ، وآثارها موجودة ، ومع ذلك فنحن لا نعرف كنهها ، فإذا وقف عقلك في تصور هذا الشيء ، فاعلم أن توقف عقلك في التصور هو الجواب ، وأنه شيء مما لا يتصور ، وما دام شيء مما لا يتصور ، فيكون فوق مستوى الإدراك ، وإذا أتيت بشيء فوق مستوى إدراكك وقلت : أنا غير مدرك له ، تكون بهذا قد أدركت ، ولذلك قيل : " **العجز عن الإدراك إدراك** " ، فحين يذكر الحق ﷻ العرش ، أو اللوح المحفوظ ، أو غير ذلك من الغيبيات ، يجب علينا أن نؤمن بها بدون تفكير أو تكييف .

﴿ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴾ .. كلمة : **مجيد** في اللغة مأخوذة من الواسع ، ولذلك من أسمائه ﷻ : **الواسع** أيضًا ، **الواسع** ، أي : الذي يتسع عطاؤه لكل مطلوبات الوجود ، ولذلك ما دام قد اتسع عطاؤه لكل مطلوبات الوجود ، فيجب أن يُعَظَّم ، فينشأ من سعة عطائه ، وقيوميته في العطاء ، أنه يُمَجَّد ويُعَظَّم .

﴿ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾ .. قد يقول قائل : كيف يُمَكِّن اللهُ ﷻ الكافرين من الذين آمنوا بالله

1 – سورة : الشورى ، الآية : 11 .



وبالرسل ؟! وهل تمكين الكافرين هذا على غير مراد الله ؟! فنقول : بالطبع لا ، بل هي من مراد الله ﷻ ، ولكنها سُنَّة الابتلاء التي يميز الله ﷻ بها بين الصادقين في إيمانهم وبين الكاذبين ، ولذلك تجد المواجهة الشديدة بين الرسل وبين خصومهم دائمًا ، فلم نعرف رسولاً انتصر ودانت له الدنيا بمجرد أن أرسل ، وحتى تعرف لؤم الإنسانية ، وخسة العقل البشري الذى لم يرتضِ بمنهج الله ﷻ ، استعرض مثلاً قصة **سليمان** ﷺ ، هل رأيت معركة حدثت بين **سليمان** وبين أحد ، كلا ، أتدري لماذا ؟ لأن **سليمان** ﷺ كان معه الملك والقوة ، وكأن الناس حين يؤخذون بالشدة ينتهي الأمر ، وانظر لحال **بلقيس ملكة سبأ** حين قالت : ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [1] ، فهي على قوتها وشدتها ، أذعنت **لسليمان** ، وذلك معناه : أن القوة هي التي تحكم الإنسان المتخطي عن المنهج ، فلو أرسل الحق ﷻ رسولاً ملكًا ، ما استطاع أحد أن يعارضه ؛ لأن الناس يعلمون أنه سيبطش بهم ، وهم لا يعرضون أنفسهم لهذا ، ولكن لو أرسل رسولاً غير ملك ، تمر عليه تجربة المبادئ ، فمرة يجعل الكافرين كفتهم عالية ، ومرة يجعل المؤمنين كفتهم عالية ، وهكذا .. سجال ، لحكمة يعلمها الحق ﷻ ، ثم تكون الغلبة للمؤمنين في النهاية ولا شك ؛ وذلك لأن المؤمن الذي يدخل الدين على أنه دين منصور ، لا يهزم أبدًا ، وأنه سيغنم ، فهذا يسقط مع أول اختبار ، وأول شدة ، ويكون عامل الثبات على الدين عنده معدومًا ، أما الذي يدخل هذا الدين وهو مستعد للابتلاء ، والضرب ، والسجن ، والإخراج من بلده ، والقتل ، والذل ، فهذا هو الذي يصمد ، ويتحمل تبعات هذا الدين ، ويكون قلبه قد تربى ، وأُعِدَّ إعدادًا جيدًا .

إذن فأول درس إعدادي في الدعوة والتربية هو أن يُعَدّ المدعو ويربى على التحمل والثبات ، ولذلك قلنا : إن المسلمين في الطور المكي لم يوعدوا بنصر أبدًا ؛ لأنه أراد أن يُسقِط الدنيا من

---

1 ـ سورة : النمل ، الآية : 44 .

حساب هؤلاء السابقين ، وبعد بيعة العقبة قالوا : وما لنا إن وفينا ، لم يقل : ستنتصرون على أعدائكم ، وستدخلون فاتحين ، بل قال : " **لكم الجنة** "[1] ، لم يأت بالدنيا لهم ؛ لأنهم كانوا في أول التربية ، فلا نربيهم إلا على أنهم داخلون في محنة ، فالذي يدخلها هو الذي يقارن بين الصفقتين ، صفقة الجنة في الآخرة ، وصفقة الدنيا ، لكن ليس معنى ذلك أن المسألة تستمر بهذه الشكل ، فالله لا ينصر المؤمنين لأنه يعطي لهم ثمن مجهودهم ، كلا ، بل ينصر المؤمنين ؛ لأن لهم رسالة في الإيمان يؤدونها ، وعندما ينتصر الكفر على الإيمان ، أو عندما ينتصر الفاتنون على المفتونين ، فإنما هناك نصر آخر للطرف الآخر ، نصر للمفتونين على الفتنة ذاتها ، هذا هو الأهم ، المفتون انتصر على الفتنة في الدنيا ؛ لأنه يعلم أن كلمة الكفر تجعله يعيش سعيدًا آمنًا ، ومع ذلك لم يقلها ، فهو نصرٌ على الفتنة في ذاتها .

إذن ، فحينما يكون هناك نصر للفاتن ، فهناك نصر للمفتون من نوع آخر ، وفي أوليات كل دعوة لا بد أن يوجد النصر على الفتنة في ذاتها ، فأنا عندما أكون في المعركة وأنا ضعيف والآخر قوي ، فإن اخترت ما أنا عليه ، لا سبيل لي إلا أن أموت ، فإذا كانت الصفقة متضحة في ذهني ، أكون قد انتصرت على الفتنة في ذاتي ؛ لأن هناك شيئًا يجذب نفسي إلى الدنيا ، وصفقة عقدت بالإيمان عليها تجذبني للناحية الأخرى .

إذن ، فعندما تجد نصرًا لفاتن على مفتون ، فاعلم أن هناك نصرًا للمفتون على الفتنة ذاتها ، وحين يوجد النصر على الفتنة ذاتها ، يوجد الجنود الذين يحملون الدعوة ، وعندما تتأصل في نفوسهم هذه المعاني كلها ، يعطيهم الله بعد ذلك نصرًا ، لا على أنه جزاء ، ولكن لأن لهؤلاء مهمة لاعتدال ميزان الدنيا .

1 - تقدم تخريجه ، وانظر مسند أحمد : (34 / 447) .



هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ﴿٢٠﴾ بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ﴿٢١﴾ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ﴿٢٢﴾

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴾ .. كلمة : ﴿ حَدِيثُ ﴾ تدل على أنه أمر تحدث الناس به ، وتناقلته السير والأخبار ، أي إنه ليس كلامًا جديدًا من عندنا .

ثم يأتي بكلمة : ﴿ الْجُنُودِ ﴾ ، والتجنيد ، أي : العسكرة ، ومنه كلمة : **جندية** ، أي فيها شبه إعداد للشراسة ، وإعداد للقتال ، وإعداد لكل شيء .

ومعنى ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴾ : إما أن يكون رسول الله ﷺ قد علم بهذا القصص أو لم يعلم بها ، فإن لم يكن قد علم ، فهذا هو أول إعلام من الله ﷻ إليه ، وحين يقول الله ﷻ : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴾ أي : هل أتاك مني أنا ، وإذا كان ربنا ﷻ هو الذي يخبر ، فالحقيقة تكون واقعة .

لكننا لم نلاحظ في المكذبين مع حرصهم على تكذيب رسول الله ﷺ أنهم قالوا : ما هي **قصة ثمود** ؟ أو ما هي **قصةفرعون** ؟ ومرت المسألة دون اعتراض من أحد منهم ، مع رغبتهم الشديدة في الاعتراض ، مما يدل على أن بعضهم قد تنقّل في الرحلات ، وعرف مدائن صالح وغيرها ؛ لأنهم كانوا يمشون في هذه الأماكن فلابد من أنها أمور معلومة لهم .

﴿ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴾ .. ولاحظ هنا أنه أفرد **فرعون** ، وصحيح أن كلمة " **ثمود** " كلمة مفردة ، ولكن معناها : قبيلة **ثمود** ، أو قوم ، أو جماعة ، لكن **فرعون** كان وحده ، وذ يدلك على أن الذين كانوا في ثمود ، كانوا كلهم مجمعين على مناقضة الرسالة ومحاربتها .

فرعون فإن قومه لم يكونوا كلهم مقتنعين بذلك ، ولكن **فرعون** الذي جعل نفسه إلهاً ، هو الذي حملهم على هذا الأمر ، ولذلك قال : ﴿ فِرْعَوْنَ ﴾ ، ولم يقل : **قوم فرعون** .

ونلاحظ أنه أتى في القرآن **بفرعون وثمود** ، كما في **سورة الفجر** أيضًا : ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ** ﴾ [1] ، أي : كلما يتكرر منهم الطغيان والفساد ، فربك لهم مترصد .

وهؤلاء المشركون الذين كذبوا رسول الله ﷺ لم يبلغوا من الملك والطغيان ذلك المبلغ الذي بلغه **فرعون** ، ولم يبلغوا المبلغ الحضاري الذي بلغته **ثمود** ، إذن فأخذهم يصبح مسألة هينة .

﴿ **بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ** ﴾ .. وصلهم هذا الخبر ، ومع ذلك فكلهم يكذبون ، لماذا ؟! ليوجدوا لأنفسهم مبررات للسلوك المعاند ، فلا يمكن أن يكونوا مصدقين لهذه الأمور ، ثم بعد ذلك يعادونها ، فهذا التكذيب مطية تبريرية للإنسان ، يبرر بها سلوكه ؛ لأنه لو لم يكذب للزمته الحجة .

﴿ **وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ** ﴾ .. وقال : ﴿ **مِنْ وَرَائِهِمْ** ﴾ ؛ لأنهم جعلوا الله ﷻ وراء ظهورهم ، فنقول لهم : لقد جعلتم الله ﷻ وراء ظهوركم ، فالذي جعلتموه وراء ظهوركم محيط بكم ، وما دام محيطاً بكم ؛ لأنه من وراء ظهوركم ، فعندها يخيل إليكم أنكم سبقتموه ، فيقول : ﴿ **وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ** ﴾ [2].

﴿ **بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ** ﴾ .. ويدل ذلك على أن التكذيب كان للقرآن بكونه من الله ﷻ ،

1 – سورة : الفجر ، الآية : 6 – 14 .

2 – سورة : الواقعة ، الآية : 60 .

وفيما يُحدِّث به القرآن ، فقال : القرآن صادق البلاغ ، و**محمد** ﷺ صادق التبليغ فيه عن الله ﷻ ، وهذا القرآن يتميز عن غيره بأنه محفوظ..

﴿ **فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ** ﴾ .. ولذلك تجد الدقة في كلمة : **لوح** ، حيث لم يقل : **قرآن محفوظ** ، فقوله : **مَحْفُوظٍ** ليست صفة للقرآن ، بل هي صفة للوح ، فإذا كان اللوح الذي فيه القرآن محفوظًا ، فما بالك بالقرآن ذاته .

فيجب أن تصبر يا **محمد** ؛ لأن هؤلاء يكذبون ، ولكن القرآن الذي أنزل عليك لم ولن تمسَّه يد تحريف ، لا في السماء العُلا ولا عندك ، وسيظل كما أنزله الله ﷻ عليك .

نسأل الله ﷻ أن يجعلنا من المتمسكين بهذا الكتاب العظيم ، وأن يكفينا شر أنفسنا ، وشر أعدائنا ، وأن يحقق لنا آمالنا أجمعين ..

والحمد لله رب العالمين ..

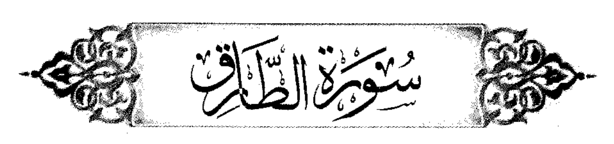






سورة الطارق





سورة الطارق

أحمدك ربي ثناء بلا حد، وأصلي وأسلم على خير رسلك من اشتقت اسمه من الحمد، وبعد:

فمع **سورة الطارق**، تلك السورة التي تمثل طرقات متوالية على الحس .. طرقات عنيفة قوية عالية، وصيحات بنوّم غارقين في النوم .. تتوالى على حسهم تلك الطرقات والصيحات بإيقاع واحد، ونذير واحد، وكأنه ينادي فيهم: **اصحوا .. تيقظوا .. انظروا .. تلفتوا .. تفكروا .. تدبروا .. فإن هناك إلهًا، وإن هناك تدبيرًا، وإن هناك تقديرًا، وإن هناك ابتلاء، وإن هناك تبعة، وإن هناك حسابًا وجزاء، وإن هناك عذابًا شديدًا .. ونعيمًا كبيرًا ..**

إن هذه السورة نموذج واضح لهذه الخصائص، ففي إيقاعاتها حدة يشارك فيها نوع المشاهد، ونوع الإيقاع الموسيقي، وجرس الألفاظ، وإيحاء المعاني.

ومن مشاهدها: الطارق، والثاقب، والدافق، والرجع، والصدع.

ومن معانيها: الرقابة على كل نفس: ﴿ **إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ** ﴾ .. ونفي القوة والناصر: ﴿ **يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ * فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلاَ نَاصِرٍ** ﴾ .. والجد الصارم: ﴿ **إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ** ﴾.

والوعيد فيها يحمل الطابع ذاته: ﴿ **إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا * فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا** ﴾.

* مقدمة تفسير السورة مقتبس بتصرف من: "في ظلال القرآن".

وبين المشاهد الكونية والحقائق الموضوعية في السورة تناسق مطلق دقيق ملحوظ ، يتضح من استعراض السورة في سياقها القرآني الجميل ..

وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفۡسٍ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٌ ۝٤

﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴾ .. تقدمت سور كثيرة فيها لفت الإنسان إلى مظاهر الكون الثابتة الرتيبة ، وإلى ما يعقب ذلك من تغيير لهذه الثوابت ، بما يحدث من انقلاب في الوجود ، كقول الحق ﷻ : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾[1] ، وقوله ﷻ : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴾[2] ، وسبق أيضًا أن سمعنا قول الحق ﷻ : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾[3] ، قسمًا ، وهنا يقول الحق ﷻ : ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ ..

والسماء : هي كل ما علاك فأظلك ، ذلك هو معناها في اللغة .

ومعناها المراد في بنائية الكون هو : السماء ذات الجرم ، التي خلقها الله ﷻ سقفًا للأرض كلها ، والعلماء حينما تكلموا عن السماء ، نظروا فقط إلى جهة العلو ، وكلما اهتدى كشفهم وعقلهم إلى وجود شيء أعلى ظنوه سماء ، ففسروا مثلاً في القرن الماضي الكواكب السيارة حول الشمس ، بأنها هي السماوات السبع ؛ لأن العقل لم يكن قد اكتشف سيارات حول الشمس إلا هذه السبع ، ثم بعد ذلك اكتشفت سيارات أخرى ، فبطل تفسيرهم بأن السماوات هي

1 - سورة : التكوير ، الآية : 1 .

2 - سورة : الانفطار ، الآية : 1 .

3 - سورة : البروج ، الآية : 1 .

هذه الكواكب التي كانت تدور حول الشمس ؛ لأنها وصلت الآن إلى أكثر من عشرة كواكب .

والواقع أن كل ما نراه من كواكب ، ونجوم ، وأفلاك .. كل ذلك من السماء الدنيا ، فكأن السماء الدنيا بعد ذلك كله ، وكان يجب على الذين يستنبطون هذه الاستنباطات ، أن يلتفتوا إلى أن الحق ﷻ تكلم عن هذه الكواكب قائلاً : ﴿ **إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ** ﴾[1] فكان يجب أن يعلموا أن كل ما نراه من نجوم ، وكواكب ، وأفلاك .. كل ذلك ضمن السماء الدنيا ، ثم بعد ذلك بقيت السماء سقفًا محفوظًا كما أرادها الله ﷻ مبنية ، أما من أي شيء بنيت ، أو كيفية ذلك البناء ، فهذا أمر لم يطلب منا الحق ﷻ أن نعرفه كسائر المدركات التي لا تدخل تحت التجربة ، ولا يمكن أن ينالها أحد .

ويكفي حين يقول الحق ﷻ : ﴿ **السَّمَاء** ﴾ .. أن نستحضر في أذهاننا مدلول هذه الكلمة .

﴿ **وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ** ﴾ .. يعطينا الحق ﷻ صورة من آثار ما لم نعرف كنهه ، وإنما نعرف أثره فينا ، ونعرف له مهمة ، إذن .. فغاية العبد المكلف أن ينظر إلى آثار الأشياء عليه ، ولا يعنيه أن يعرف كيفية هذه الأشياء ، فالانتفاع بالأشياء شيء ، ومعرفة تكوينها شيء آخر ، فإن انتفاع الإنسان بكل ما هو موجود في الكون لم يترتب على أنه عرفه ، فنحن تمتعنا بالشمس والهواء والماء ، وإن كنا لم نعرف الحقيقة التي توجد عليها هذه الأشياء .

﴿ **وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ** ﴾ .. إن الحق ﷻ يلفتنا في قوله : ﴿ **وَالطَّارِقِ** ﴾ إلى شيء ننتفع بآثاره ، ثم يدلنا على أن الطارق هذا أمر لا يمكن للعقل البشري وحده أن يعرفه ، ولذلك يقول فيه : ﴿ **وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ** ﴾ ، أي : أي شيء أعلمك بذلك الطارق ، فكأنه لا يمكن لعقولنا أن تعرف ماهية ذلك الطارق أبدًا ، وإنما نتلقى آثار ذلك الطارق .

﴿ **النَّجْمُ الثَّاقِبُ** ﴾ .. يعرفنا الحق ﷻ بذلك الطارق فيقول : ﴿ **النَّجْمُ الثَّاقِبُ** ﴾ .. إذن ، وينبغي أن نقف وقفة عند تعريف الحق ﷻ للطارق بالنجم الثاقب ، أولا : كلمة :

---

1 - سورة : الصافات ، الآية : 6 .

" **طارق** " اسم فاعل من طرق ، وطرق معناها : ضرب بوقع وشدة حتى أحدث صوتًا ، ومنه مطرقة الحداد ؛ لأنها تحدث ذلك الصوت ، ومنه سمي الطريق ، وهو السبيل الذي نسلكه ؛ لأن السابلة تطرقه بأقدامها ، ثم بعد ذلك وُجد عرف دلالي ، أن الطارق هو السائر ، أو السالك السبيل ، وبعد ذلك خص بالسائر ليلاً ، ولماذا جعلت اللغة هذا اللفظ ينحاز أخيرًا إلى الطارق ليلاً ؟ ذلك لأن الليل سكون ، ومعنى السكون هو أن تهدأ الحركة ، ويذهب الضجيج ، فلما تهدأ الحركة في الكون ويذهب الضجيج ، فأي حركة تحدث حينها تُسمع ، فالذي يفسد على الناس سماع المشي هو حركة الكون التي تحدث ضجيجًا على الناس ، لكن إذا كان هناك سكون ، فمن الممكن أن يُسمع للطارق صوت ؛ أو لأن طارق الليل يأتي والأبواب مغلقة دائمًا ، فهو يدق عليها ليستأذن ، أما في النهار فهي مفتوحة ، إذن ، انحازت الكلمة إلى أن الطارق هو الذي يسير ليلاً .

وبعد ذلك ، تُوسِع فيها نوع توسع آخر ، وهو أن يكون كل ما يطرق على الوجدان من هم أو فعل يسمونه طارقًا ، ولذلك يقولون : نعوذ بالله من طارق الهم ، فطارق الهم هو خاطر يأتي بالسوء ، فيفسد على الإنسان مزاجه ، ليس له أمر محدد ، وكما قيل : إن الطارق من الممكن أن لا يؤذن له ، أو من الممكن أن يُدفع إذا كان ماديًّا ، فإذا كان غير مادي ، لا تعرف كيف يتسلل إلى نفسك ، ذلك هو شر أنواع الطارق ، وهو الذي لا تستطيع أن تحجبه ، لا بأن تغلق الباب في وجهه ، ولا بأن تدفعه إن رأيته ، ولكنه يتسلل عليك بلطف ، ويدخل على قلبك ، فهذا هو طارق الهم .

﴿ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ .. ومعنى كلمة : **ثاقب** .. أن النجم يثقب الظلام وينفذ فيه ، فثقب الظلام هذا آية من الآيات الكونية ؛ لأن الله ﷻ يريد أن يبيِّن لنا عنايته بخلقه ، فهو حين يرسل الشمس ضياء بالنهار ، فينشط الناس إلى حركاتهم ، ويعرفون ما يتناولون وما يحتاجون إليه ، فإذا ما جاء الليل بظلامه ولفَّ الكون ، قد يضطر الإنسان إلى أن يعمل ليلاً

، أو إلى أن يسير ليلاً ، فالحق ﷻ لم يمنع هذا اللون من الحركة ؛ ولذلك فقد خلق النجوم ، كما يقول في آية أخرى : ﴿ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾[1] .

وثقب الظلام بضوء الطارق ، هو أمر منظور ، فكيف نجد القرآن قد تكلم عن الأمر المنظور بلفظ الطارق ؟! في حين أن الطارق يكون للأمر غير المحدد ! !

نقول : ذلك لأن المعنى الأخير الذي انتهت إليه كلمة : **طارق** هو الوافد عليك من أي لون كان ، ولو كان وهمًا ، أو خيالاً ، أو أمرًا لا صوت له .

وحين يقول الحق ﷻ : ﴿ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ ، يدل على أن الإشعاع الذي يأتي من النجم لو لم يوجد لكان الليل كتلة واحدة ، وإذا كان الليل كتلة واحدة ، فيكون الظلام شاملاً ، وإذا كان الظلام شاملاً فالحركة غير متأتية ، فيقول الحق ﷻ : إن هذا النجم يثقب الليل بذلك الضوء ، هذا مبلغ العناية بذلك الإنسان ، يعطيه في النهار الشمس ، ويعطيه أيضًا في الليل ، حتى لا يمتنع من يريد الحركة عن الحركة .

﴿ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ .. من المعلوم أن كل قَسَم في القرآن لابد أن تكون له صلة بالمقسم عليه المراد تأكيده ، فما علاقة الطارق ، الذي هو : ﴿ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ بما يقسم عليه الحق ﷻ وهو : ﴿ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ ؟!

كلمة : ﴿ حَافِظٌ ﴾ هذه إما أن تؤخذ من **الحفظ** ، بمعنى : الرعاية والعناية من الحافظ للمحفوظ ، وإما أن تأتي من **الحافظ** ، الذي هو الرقيب ، الذي لا يغيب عنه شيء أبدًا ، فإذا توجهنا بكلمة : **حافظ** إلى المعنى الذي يرعى به المحفوظ بحفظه ، نجد الحق ﷻ يقول في آية أخرى من آياته : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾[2] ، أي أن ذلك الحفظ من أمر الله ﷻ ، فإن الإنسان تمر عليه أحداث كثيرة لا يمكن لقوته أن

---

1 – سورة : النحل ، الآية : 16 .

2 – سورة : الرعد ، الآية : 11 .

تفسرها ، ولا لحيلته وأناته ورويته أن تفكر فيها .

ومعنى ذلك أن الحق ﷻ وكّل بالإنسان من يحفظه من كل ما قد يفوق طاقته ، أو قدرته ، أو تُعَجِّل أناته ، ورويته .

فقول الحق ﷻ : ﴿ **لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ** ﴾[1] ، يعني : أنك لست متروكًا لرعاية نفسك ، ولا للعناية بها ، فهناك أحداث وأشياء فوق عنايتك ورعايتك ، ولولا أني سخرت لك من جنودي ما لا تعلم ممن يحوطك ويحفظك ، لكانت فتكت بك تلك الأشياء .

وهذا يدل على أن الحفظ هنا هو : **العناية والرعاية للمحفوظ** .

وقد يكون الحفظ معناه : الرقابة ، والعلم بكل ما يكون من هذا المحفوظ كما قال الحق ﷻ : ﴿ **وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ** ﴾[2].

إذن فكلمة : **حَافِظٌ** هنا ، تعطي ما للإنسان ، وتعطي ما على الإنسان ؛ لأن كل شيء لك يقابله شيء عليك ، والذي لك كان على الله ﷻ ، والذي عليك كان لله ﷻ .

فعدّى الحق ﷻ الفعل في الآية الأولى باللام : ﴿ **لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ** ﴾[3]، وعدّى الفعل في الثانية بعلى : ﴿ **وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ** ﴾[4]، ثم جاءت هذه الآية : ﴿ **إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ** ﴾ لتؤيد هاتين الآيتين .

﴿ **إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ** ﴾ .. **لما** تأتي بمعان متعددة .. المعنى الأول : أنها تأتي للنفي ، أي : لنفي الفعل سابقًا نفيًا يتصل بالحال ، تقول : لما يجيء زيد ، مثل : زيد لم يجئ ، أي : حكمت بعدم مجيئه في الماضي ، إلا أن الفرق بين **لم** وبين **لما** : أنه قيل : **لما**

1 - سورة : الرعد ، الآية : 11 .

2 - سورة : الانفطار ، الآية : 10 ، 11 .

3 - سورة : الرعد ، الآية : 11 .

4 - سورة : الانفطار ، الآية : 10 .

متصل بالحال ، أي : لم يجئ ، وإلى الآن لم يأت ، لكن مفهوم **لما** ينفي مجيئه في الماضي ، إنما من الجائز أن يأتي الآن ، فعندما ترى **لما** ، اعرف أن الفعل بعدها منفي في الماضي ، واستمر نفيه إلى الحال الذي تتكلم فيه ، ولكنه يكون متوقع الحضور .

ولذلك إذا قرأنا قول الله ﷻ : ﴿ **قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا** ﴾[1] ، فهم نافقوا مع أنهم أظهروا مطلوبات الإسلام ، إنما الإيمان لم يدخل قلوبهم بعد : ﴿ **وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ** ﴾ ، جملة : ﴿ **وَلَمَّا يَدْخُلِ** ﴾ ، أي : عند أسلوب الخطاب هذا ، لم يكن الإيمان قد دخل قلوبهم ، ولكنه متوقع أن يدخل ، هذا هو الأمل .

فمنفي **لما** فيه خصوصية ، فالخصوصية : أنه ينفي الفعل ماضيًا ، ويستمر نفيه إلى الحال الذي تتكلم فيه ، بخلاف **لم** ، فإن **لم** تنفي في الماضي ، ويجوز أن ينقطع الحال ، مثال : (لم يحضر زيد ، ولكنه حضر الآن) ، أي : لم يحضر في الماضي ، و **لما** تمتاز أيضًا بأن منفيها يتوقع أن يحدث ، مثال : (لما يثمر بستاننا ، وقد أثمرت البساتين) ، فيه توقع أن يثمر .

فكلمة **لما** : تقلب الفعل المضارع بعدها إلى الماضي .

ولها استعمال آخر : **لما** التي تدل على الوجود للوجود ، أي وجود شيء ، لوجود شيء آخر : ﴿ **فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ** ﴾[2]، كأن الحق يقول : إن المجادلة وجدت لما ذهب الروع وجاءت البشرى ، فهذا الحرف يسمونه حرف وجود لوجود .

وهناك استعمال آخر نحن بصدده الآن : أنها تأتي بمعنى : **إلا** الاستثنائية ، أي أن المعنى : إن كل نفس إلا عليها حافظ ، فتكون كلمة **إن** هنا معناها : النفي ؛ لأن **إن** تكون شرطية ، (إن قام زيد ، قام عمرو) ، تكون مخففة وليست مثقلة ، وتكون بمعنى النفي :

---

1 - سورة : الحجرات ، الآية : 14 .

2 - سورة : هود ، الآية : 74 .

﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُمْ مِن نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ ﴾[1] ، أي : ما أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم فـ**إن** هنا للنفي ، إن كل نفس إلا عليها حافظ ، ضع بدلا من إن ، **ما** ، فيكون : ما كل نفس إلا عليها حافظ ، أي : لم توجد نفس منفلتة من الخالق .

لو قيل مثلا في غير القرآن : **إن نفس إلا عليها حافظ** ، فيكون الكلام مستقيمًا ؛ لأن النكرة في سياق النفي تعم ، لكن جاءت النكرة في سياق النفي ، ثم جاء لها بكلمة **كل** ، لكي تفيد الإحاطة ، إفادة من طريقين :

الطريق الأول : النكرة في سياق النفي .

الطريق الثاني : الإحاطة الكلية ، أي : لا تظن نفس من النفوس أنها بمنأى عن الرقابة والمحاسبة ، فهذه الرقابة هي رقابة الحق ﷻ ، أو رقابة من وكّله الحق ممن يكتبون .

ثم تجد المناسبة هنا بين : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ ، فكأن الحافظ الرقيب يطلع على الأشياء ، كما أن النجم الثاقب يثقب الظلام ، وينفذ إلى دقائق الأشياء وتفاصيلها ، إذن .. فالقسم نفسه دليل على المقسم عليه .

فـ : ﴿ الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ الذي يثقب الظلام ، فيري الإنسان خبايا الأشياء ، يكون منسجمًا مع : ﴿ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ ، وهذا الحافظ ثاقب يثقب عليها سرائرها ؛ ولذلك جاء بعد ذلك : ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ .

فالحق ﷻ نقلنا من آية كونية إلى آية نفسية ، فالآية الكونية : ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ ، نقلنا من ذلك إلى آية في النفس الإنسانية .

وهنا تتجلى لنا دقة الأداء القرآني في قول الحق ﷻ : ﴿ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ ؛ لأن العطاء الأول لصالح النفس ، النجم الثاقب حتى نعرف به حركاتنا ومصالحنا ، فكأن الحق ﷻ يقول لك : كل شيء يعطى لك لابد أن يكون له مقابل ، فلا

---

1 - سورة : المجادلة ، الآية : 2 .

نعتني بـــك تلك العناية ، ثم نتركك ، وعنايتنا بـــك دليل على أن لك مهمة معنا ، ولذلك سيبتدئ في شرح الإنسان كقضية كونية أخرى .

فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾

﴿ فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ * إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾ .. نجد هنا أيضًا انسجام القسم في قـوله ﷻ : ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ ، مع قـــوله ﷻ : ﴿ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ ،وينسجم انسجامًا آخر مع قوله ﷻ : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾،وينسـجم أيضًا انسـجامًا مع الحفظ في قــوله : ﴿ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾ ، متى ؟ ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ * فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلاَ نَاصِرٍ ﴾ .

﴿ فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ .. خَلْق الإنســان أمر لا شــك فيه ، ولكن المطلوب منه أن ينظر فيه ، فيقــول له : انظر أيها الإنســان في صورتك الكمالية في الكون ؛ لأن الإنســان هو السيد المتميز في الكون ، وكل أجناس الكون في خدمته ؛ لأنه يتميز بـالخصوصيات المتتالية ، فالنبـات يتميز عن الجماد بحركة النمو ، والحيوان يتميز عن النبـات بـالحس ، والإنســان يتميز عن الحيوان بالفكر ، إذن ، فالقمة في جميع الأجناس هو ذلك الإنسان .

فكأن القرآن يقول له : يا أيها الإنسان ، يا من في هذا المسـتوى العالي من الكمال ، انظر مِمَّ خلقت ، فلينظر الإنسان العالي الشامخ السيد في ذلك الكون مِمَّ خلق ؟

وكلمة : ﴿ فَلْيَنْظُرِ ﴾ إذا سمعتها في القرآن لا تفيد النظر بمعنى الرؤية ، بل النظر بمعنى التفكر ، والفكر هو ثلث النظر ، فكأن هذا هو معنى الملاحظة ، وهذه الملاحظة تؤدي إلى حقيقة ، وقد عرفنا أن كل التجارب العلمية تبدأ بالملاحظة ، ثم إجراء التجربة المعملية على الملاحظة ، ثم نقوم بعمل النظرية ، وبعد ذلك حقيقة علمية ، إلى ما شاء الله .

إذن ، فأساس كل شيء هو النظر ، لا النظر الضيق ، ولكن النظر المدقق المحقق ، فكان يجب على الإنسان – ما دام أنه لم يخلق نفسه ، ولم يخلق هذه الماديات التى يستخدمها فى حياته ، ولم يأخذها بقوته – أن يفهم أصل الحكاية .

﴿ فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ ﴾ .. ما المراد بالإنسان ؟! يجب أن يكون الخطاب موجهًا إلى الإنسان الذي خلق من ماء دافق ، فما موقف **أبي البشر آدم** ﷺ الذي خلقه الله ﷻ من طين ؟

والجواب : أن الحق ﷻ يريد أن يلفت الإنسان إلى اعتبار أصلية وجوده ، ولا يلفته إلا إذا كان هناك غفلة ، ولا تكون هناك غفلة إلا لأنه لم يشهد ذلك الأمر ، ولكن **آدم** ﷺ شهد التكوين بيد الله ﷻ ، وشهد النفخ فيه بيد الله ﷻ ، فلا شك عند **آدم** ﷺ في هذه المسألة ، إنما الشك في الناس الذين ينضجون بعد أن يكون الخلق قد انتهى ، فلا يستطيع أن يدرك كيف خُلق .

فيقول الحق ﷻ : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ ، وفكرة الخلق قائمة على الإيجاد من العدم ، هذا الإيجاد من عدم ، إما أن يكون العدم حقيقة ، وإما أن يكون قد وجد على شكل لا يليق بما ينتهي إليه كمال الإنسان .

فلو نظرت إلى مادة خلق الإنسان ، تجد أن ماء الرجل يلتقي ببويضة المرأة ، فتنشأ الخلية ، ثم تنقسم هذه الخلية ، وهذه الخلية لا عقل لها ولا إدراك ولا إرادة ، ولكن عندما تنقسم الخلية ، يحدث شيء عجيب ، فالذي خلقها ﷻ هداها إلى ما تصير إليه في مسارها ،

تجد بعد انقسام الخلايا ، أن بعض الخلايا تتكتل حتى تكون عظامًا ، وبعض الخلايا لأخرى تتكتل حتى تكون أعصابًا ، والتي تكون عظامًا تتكون على أشكال ، فالعظم نفسه أنواع ، فخلية تشكل العظم المجوف ، وأخرى تشكل العظم المنبسط ، وأخرى تشكل العظم الدقيق ، فهي عملية لا يمكن أبدًا أن تكون إلا إذا كان وراءها مدبر وضع في كل هذه الأشياء الغرائزية تكويناتها ، بحيث تسير في مسارها لتؤدي المهمة المنوطة بها ، كل هذا والمادة الأصلية واحدة .

فهذا يدل على أن وراء ذلك الإنسان العظيم قدرة عالية فائقة ، وهندسة وضعت في مادة وجوده ، المسار الذي يهيئ كل خلية إلى ما تكونه من ذلك الإنسان .

إن الحق ﷻ عندما يحدثنا عن مسألة الخلق ينزع من رءوس الناس أن الخلق لابد له من تلك السببية ، التي هي الماء الدافق الذي يخرج من بين الصلب والترائب ، بل إنه إذا أراد أن يخلق ، فإنه يخلق بدون ماء دافق ، ولا صلب ، ولا ترائب ، بدليل أنه خلق الأب الأصيل بغير تلك الطريقة ، ثم خلق منه على هذه الطريقة .

ولذلك تجد العجب في أن الحق ﷻ أدار عملية خلق الإنسان على القسمة العقلية النهائية ، فنحن نجد أن كل ما في الكون من ذكر وأنثى ، والشيء المردد بين شيئين ، لا ينتج عنه منطقيًا إلا صورًا أربعة : إما أن يوجد بوجود الزوجين ، الذكر والأنثى ، أو يوجد بدونهما ، أو يوجد بوجود الذكر فقط ، أو بوجود الأنثى فقط ، فيكون عندي أربع صور عقلية .

فالحق ﷻ يعلمنا أن السبب ليس هو الموجد ، ولكن المسبب ﷻ هو الموجد ، فحين ينعدم الماء الدافق من بين الصلب والترائب ، يقدر الخالق ﷻ أن يخلق ، وقد خلق أباكم آدم عليه السلام على هذه الصورة بغير ذكر ولا أنثى ، وقد خلق أمكم حواء من ذكر دون أنثى ، وخلق عيسى عليه السلام من أنثى دون ذكر ، وهو يخلق جميع البشر من الزوجين الذكر والأنثى .

إذن فالمسألة ليست دائرة على الأسباب ، لأن السببين منعا في آدم عليه السلام ، وأحدهما منع في



واحد ، والثاني منع في الآخر ، وقد يوجد السببان معًا وهو : الماء الدافق الذي يخرج من بين الصلب والترائب ، ولكن الحق ﷻ لا يوجِد منه شيئًا .

ولذلك تجد الحق ﷻ يقول : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا ﴾ [1] ، فمع اكتمال السببين ، تكلم عن العقم ، فالعملية الرتيبة هي أن الله ﷻ يخلق بسبب ، لكن ذلك لا يحدد مجال قدرته ، فإنه يخلق أيضًا بلا سبب ، وقد يوجد السببان في أقوى ما يكون ، ومع ذلك لا يتأتى النتاج منهما .

ومرة أخرى يصفه الحق بأنه خلق من ماء مهين ، ومعنى : " **مهين** " أنك عندما تنظر إلى ذاتية الماء ، تجد أنه ليس فيه قدرة ولا إرادة ، إنما إرادة الحق ﷻ أن يتكون منه ذلك الإنسان العالي ، وإذا نزلت إلى الجنس الذي هو أقل منه ، وهو الحيوان ، تجد أن الحيوان أيضًا يتكون من الماء الدافق ، ومن الصلب والترائب ، فلماذا يخلق منه حيوان لا فكر له ، ويبقى في المنزلة الدنيا ، ويخرج إنسان بكل هذه الخصائص المتميزة ؟! فالمسألة إذن مسألة إرادة المكون بأن يكون ذلك الكائن .

إذن ، فتكريم الحق للإنسان بما صوره هذه الصورة الجمالية ، وبعد ذلك بما آتاه من هذه الملكات الواعية الواسعة ، فكان يجب أن يقول : هل أصل تكوينك يفي بما ستكون أنت عليه ؟ لا ، بل أصل تكويني لا يفي بهذه الأشياء ، ولا يعطيني هذه الخصائص ، إذن فإرادة الحق ﷻ هي التي جعلت مني ذلك الإنسان ، وإلا فشيء آخر يشترك معي في الماء الدافق ، والصلب ، والترائب ، وغيرهم ، ومع ذلك لا يصير إنسانًا ، بل يكون حيوانًا ، ويظل في هذه الحياة الحيوانية .

وذلك هو السبب في أن العلماء عندما يتكلمون عن الإنسان وهو في بطن أمه يقولون : إنه لا

---

1 - سورة : الشورى ، الآية : 50 .

يكون إنسانًا إلا بعد مائة وعشرين يومًا ؛ ولذلك لما وصلوا إلى قول الصادق المصدوق ﷺ : **" إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله ملكًا فيؤمر بأربع كلمات ، ويقال له : اكتب عمله ورزقه وأجله وشقي أو سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح ، فإن الرجل منكم ليعمل حتى ما يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع فيسبق عليه كتابه فيعمل بعمل أهل النار ، ويعمل حتى ما يكون بينه وبين النار إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة "**[1] .. قالوا : وهل هذا النمو ليس روحًا ؟ فنقول : هذه ليست الروح الإنسانية ، أما الروح الإنسانية فتأتي بعد فترة المائة والعشرين يومًا ، إنما هناك نامية حيوانية ، ومعنى النامية الحيوانية : أي عندما تأتي بحبة بر ، فهذه الحبة فيها نامية نباتية بالقوة ، ثم عندما تنمو يكون فيها نامية نباتية بالفعل ، والحيوان المنوي فيه النامية الحيوانية بالقوة ، ثم بعد ذلك حين يوجد في البويضة يكون فيه نامية حيوانية بالفعل ، وبعد ذلك حين يريد الله ﷻ له الإنسانية ، يأتي له الملك ، فينفخ فيه الروح الإنسانية .

إذن ، فليست كلمة الروح هي التي ينشأ عنها النمو ، فالنبات ينمو ، ولا ندعي أن في النبات روحًا .

﴿ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ﴾ .. وهذه حقيقة تعرض لها القرآن من قبل أن يكتشفها العلم الحديث ، وهي ماء الصلب وماء الترائب ، و**" الصلب "** : هو عظام الظهر ، و**" الترائب "** : هي عظام صدر المرأة ، أو موضع القلادة منها ، والعلم التجريبي انتهى إلى هذه الحقيقة .

وكلمة : ﴿ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ﴾ أسندت دفقًا للماء ، مما يدل على أنه غير مدفوق بإرادة الإنسان ؛ لأن هذه العملية لو لاحظها الإنسان ، يجد أنه يُغلب على هذه المسألة ، بحيث أنه لا خيار له في تدفق هذا الماء منه ، فكأن **الدفق** خاصية موجودة في الماء ذاته ، وينزل بالشدة

---

1 - أخرجه البخاري (2969) ، ومسلم (4781) كلاهما من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .

والقـوة ، بحيث لو أراد الإنسـان أن يمنعه ما اسـتطاع ، ولذلك لم يقـل : " من ماء مدفوق " ، لكي لا يكون الفعل للغير ، بـل **دافق** ، فحـين ينضج الرجل ، ويصل إلى القمة الجنسـية ، يغلبه ذلك الماء ، بحيث لا يستطيع مطلقًا أن يمنعه .

فنسبـة التدفق إلى الماء ينبـهك إلى أنه خرج رغم إرادة ذلك الإنســان ، هو فقــط له أن يمنع الوسائل التي تؤدي إليه ، لكنه إذا ترك تلك الوسائل فلا قدرة له عليه أبدًا .

وقـــول الحق ﷻ : ﴿ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ .. أوهم كثيرًا من الباحثين أن ماء الرجل الذي نسميه نطفة من مني يمنى ، وماء المرأة يظنون أنه الماء الذي يأتي عقب العملية الجنسية ، نقول لهم : لا ، بل إن ماء المرأة في العملية الجنسية لا دخل له في تكوين الإنسان ، فإن المرأة تفرز البويضة سـواء تعرضت لعملية جنسـية أم لم تتعرض لها ، والبـويضة لها وقــت توجد فيه ، فإن صادفت وجود ماء الرجل تم التخصيب بــإذن الله ﷻ وتنتهي المسألة .

إذن فالمراد بـــكلمة : ﴿ مَاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ : هو ذلك الماء الذي ينزل في العملية الجنسـية من الرجل ، ولكنه بالنسبــة للمرأة ليس بــالماء الذي يأتي في العملية الجنسية ، بل هو البويضة نفسها ، سواء تعرضت لعملية جنسية أو لم تتعرض .

وهنا حصل إشكال ، فبعض الناس ينقِّبون في القرآن وفي الحديث ليعرفوا آثار الكمال فيه ، والبعض الآخر ينقبون ليعرفوا آثار التضارب فيه ، فالمستشرقون درسوا وقـاموا بـعمل فهارس للقـرآن الكريم وللحـديث الشـريف ، ثم تجدهم بـعد ذلك يثيرون في الحديث أو فى القــرآن أشياء ، ومن العجيب لمكرهم أنهم قبل أن يتكلموا عن الحديث يقولون : هذا الحديث موثق ، ويقوم بالأبحاث التي تقوم أنت بها حـينما تصحـح الحديث لتستنبـط منه حـكمًا ، فيعطيك فكرة أن هذا إخلاص في البحث ، ولكنه يأتي من ناحـية أخرى ليبرز إشـكالاً ، هذ الإشـكال سطحـي يعارض بـعض قـضايا العلم ، فلو أنه لا يريد أن يبـين هذا الإشـكال ، لكان لا يتعب

نفسه في التوثيق ، هو يوثق الحديث ليس إخلاصًا للحديث ، بل ليوثق الضربة .

فلما وصلوا إلى قول رسول الله ﷺ عندما سئل : كيف ينزع الولد إلى جنس أبيه أو إلى جنس أمه ؟ فقال : " **إذا سبق ماء الذكر ماء الأنثى نزع الولد إلى أبيه ، وإذا سبق ماء الأنثى ماء الذكر نزع الولد إلى أمه** "[1] .

فقالوا : **أولا** : ماء المرأة لا دخل له في هذه العملية ، ففسروا الماء على أنه هو الذي يكون أثناء العملية الجنسية من صلب الرجل ، وترائب المرأة ، حتى لا يتفق الحديث مع الحقائق الكونية والعلمية .

ثانيًا : في مسألة النزوع .. ثبت علميًّا أن ماء المرأة هو البويضة ، فقالوا : البويضة لا دخل لها في تحديد جنس الذكورة والأنوثة ، وإنما الذي يتحكم في ذلك هو ماء الرجل نفسه ، فهذه مسألة جعلتنا ننظر في الحديث : " إذا سبق ماء الذكر ماء الأنثى " ، فظن الناس أن ماء الذكر من الذكر ، وماء الأنثى من الأنثى ، ولكن كلمة : " **إذا سبق** " هي التي تعطينا الجواب ، فكلمة : " **سبق** " إذا سمعتها تفهم منها أن الاثنين يستبقان ، والمتسابقان لابد أن يكونا منطلقين من مكان واحد ، وفي اتجاه واحد ، إذن ، فلابد أن نقف عند كلمة : " **سبق** " .

ومعنى سبق هنا : أن ماء الذكر وماء الأنثى من جهة الرجل ، وإلا فإذا كانا متقابلين فكيف يقال عن أحدهما : " **سبق** " ؟! إذن ، فالمنطلَق من مكان واحد ، وما دام المنطلَق من مكان واحد ، فالمراد بماء الذكر وماء الأنثى : الماءان الصادران من الرجل ، وهذا هو الذي أثبته العلم : أن الرجل يخرج من مائه الذكور والإناث ، ويتسابق الماءان ، فإن غلب ماء الذكورة يصبح المولود ذكرًا ، وإن غلب ماء الأنوثة يصبح المولود من جنس أمه أنثى .

﴿ **إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ** ﴾ .. وما دام أنه قد أثبت العظمة في التكوين ، والعظمة في الإيجاد ، والعظمة في أنه خلق ذلك الإنسان العظيم بكل مواهبه وملكاته من ماء مهين ،

---

1 - أخرجه البخاري (3645 ، 4120) من حديث عبد الله بن سلام ، ومسلم بنحوه (469) من حديث أم سليم .

فمعنى ذلك أن النهاية له ، فماذا بقي عليه ؟ إن ربنا يطلب لنفسه أشياء ، ويكتب على نفسه أشياء : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾[1] ، إذن فكل : " **لك** " يجب أن يقابلها : " **عليك** " ، فبعد هذه العناية التي رفعتك على كل الأجناس ، وجعلتك صاحب هذه المنزلة العظيمة ، أتظن بعد ذلك أنك متروك .

وبعد أن تجتاز مرحلة الحياة الطويلة اجتيازًا لا تشعر بهذه الحياة ، ينقلك من الإيجاد الأول إلي الإيجاد الثاني ؛ ليدلنا على أن خلقي كهذه المسألة ، فمرحلة الحياة كلها مرحلة مطمورة ، هذه المرحلة المطمورة مطمورة في حساب الزمن ، والحق ﷻ أوجدك لهذه الغاية .

كما في قول الحق ﷻ : ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى ﴾[2] .. هل هذا الإعجاز من الحق ﷻ حدث من أجل هذه الفترة القليلة فى الحياة الدنيا ؟! كلا ، بل إنما كان لمسألة أخرى ، ولكنه يلفتنا ويقول : وحتى تسعد في هذه العملية ، فلابد من الفترة الثانية ، التي نخبرك عنها ، وتخطيناها في الكلام هنا ، هي الفترة التي تعطيك خير الفترات كلها ، وما دام هناك حفيظ ورقيب عليك ، فما قيمة الحفيظ ؟ وما قيمة الرقيب إذا كانت المسألة متروكة سدى ؟ لأننا سنحاسب بالضرورة ، وما دامنا سنحاسب حساب من يرى منا خفايا الأمور ، فيجب أن تعلم أن الأمر ليس متروكًا سدى ..

﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ .. ومعنى ﴿ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ : تختبر بإخراج المكنون فيها ، والسرائر : هي كل ما يسره الإنسان ، وإذا كانت الأمور التي أسرها الإنسان ستبلى وتختبر وتخرج ، فالأمور التي أعلنها الإنسان من باب أولى واضحة ، ولكن لما كان الإنسان يظن أنه بكتمانه وبإسراره لكثير من الأشياء قد أخفاها ، نقول له : كلا ؛ لأن الحق ﷻ قال : ﴿ يَعْلَمُ

---

1 - سورة : الأنعام ، الآية : 54 .

2 - سورة : القيامة ، الآية : 36 - 39 .

السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾[1] ، وقد يقول قائل : السر هو الذي أسررته في نفسي ، فما هو الأخفى ؟ نقول له : السر يطلق إطلاقين : ما تسره إلى الغير في أذنه ، فإن كان السر معناه هذا ، فيكون أخفى منه وجوده في نفسك قبل أن تسره للغير ، أو إن كان السر هو ما أسررت به في نفسك ولم تقل به لأحد ، فالأخفى هو ما يعلمه قبل وجوده فيك ، فكلمة : ﴿ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ أي : قبل أن يكون سرًّا عندك ، فهو عالم أن سيوجد سرٌّ هنا .

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ﴿١١﴾ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ﴿١٧﴾

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴾ .. و " الرجع " : هو المطر الذي ينزل ، ثم يتبخر ، ثم يعود ، هذا هو الرجع ، أي : الماء الذي يرجع ويأخذ دورته ثم يعود .

ولماذا : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴾ ؟! لأنه لا يفيد الإنسان الفائدة إلا إذا نزل من السماء ؛ لأنه لو أتى من البحر المالح فلا يفيد الإنسان ، فيجب أن يكون ماء عذبًا مبخرًا صالحًا للشرب وللري .

وكذلك قول الحق ﷻ : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴾ يعطينا ملابسة للخلق الأول ؛ لأن الماء الدافق يشبه الرجع .

وكذلك فإن الإنسان سيرجع كما أن الماء يرجع .

1 – سورة : طه ، الآية : 7 .

﴿ وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴾ .. الأرض التي تتشقق وتنبت النبات ، مثل الماء الدافق ينزل في الرحم ، وبعد ذلك يأخذ صورته وينمو ... إلخ .

إذن ، فالحياة كلها عبارة عن قوانين منسجمة ، هذه القوانين المنسجمة ، يحكمها قانون واحد ، هذا القانون الواحد ، سائر في كل ألوان الوجود ، في الكونيات العليا ، والكونيات السفلى .

والحق ﷻ يتكلم عن الماء الدافق الذي يخرج من بين الصلب والترائب ليوجد ذلك الإنسان العجيب ، هذا هو بدء الخلق ، ثم بعد ذلك يريد قيومية عليه لكي يعيش ، فمن وهبه الحياة يريد استبقاء هذه الحياة ، فتكلم الحق ﷻ أولاً عن وهبه الحياة : ﴿ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ ، ثم بعد ذلك تكلم عن استبقاء تلك الحياة : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴾ .

وبعد ذلك يعرض القرآن الكون والنفس هذا العرض ، ليعطينا هذا التمازج على أن خالق الكون هو خالق الإنسان ، هو قائل ذلك القرآن ، وما دام يلفتنا إلى أن خالق الكون ، هو خالق الإنسان ، هو قائل القرآن ، إذن فلابد أن نأخذ هذا المنهج منه ، ونعلم أن هذا هو المنهج الفصل ، فيقول ﷻ : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴾ .

﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴾ .. وذلك يعني : أن كل ما جاء من أقضية القرآن هو الفصل في هذه الأقضية ، ومعنى القول الفصل : أنه ستوجد خصومات حول أشياء ، وكأن الطرفين المتخاصمين يريدان من يفصل بينهما ، ولابد وأن يكون كل واحد منهما في جانب ، فيفصل الحق ﷻ بينهما ، فإما أن ينصر جانبًا على جانب ، وإما أن يبين خطأ الجانبين .

كما قال الحق ﷻ : ﴿ لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾[1] ، فإن الله ﷻ أخرج هذه الأمة ، وأنزل فيها رسوله ﷺ ، وأنزل القرآن ليكون شهيدًا علينا ،

---

1 - سورة : الحج ، الآية : 78 .

المطلوب منا أن نكون شهداء على الناس ، فأنت لا تقول : أنا شـهدت على فلان إلا إذا كان لحق في غير جانبه ، وإلا لو أن الحق في جانبه فتكون قد شهدت له ، فكأن الحق ﷻ يقول : أنا أتيت بكم في زمن فاسـد كله ، ولا يوجد طرف مع الحق وطرف مع البـاطل ، بـل الطرفان مبـطلان ، وما داما مبـطلين ، لا آتي لهم بشـهيد على بـعضهم ضد الآخرين ، بـل أتيت لهم بشهيد على الاثنين ، ومعنى شهيد على الاثنين أن الاثنين مبطلان .

وعندما نلاحـظ الفترة التي جاء فيها القـرآن والإسـلام ، تجد الكفتين كبـعضهما ؛ لذلك قال : ﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ .

فقـول الحق ﷻ : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴾ .. يفصل في قـضية ، هذه القـضية إن كان الطرفان مبـطلين ، أو إن كان طرف عنده شبـهة حـق ، فيميل إلى ناحـية ذي الحق ، لكن هذه الفترة التي نزل فيها القرآن كان الناس كلهم مبطلين .. أهل الكتاب حـرفوا وبـدلوا ، والوثنيون كما نعلم حـالهم من كفر وشـرك وضلال ، إذن لم يكن هناك منهج واضح للحـق ، بـل كلهم على ضلال .

﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾ .. وهنا مسألتان :

مسألة الكيد منهم ، ومسألة الكيد الذي نسبه الله ﷻ لنفسه ، فحـين تجد لفظًا نسبـه الله ﷻ لنفسـه مما لا يستسـيغ فكرك أن ينسبـه إلى الله ﷻ مثل الكيد والمكر ، كما في قـوله ﷻ : ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ [1] ، فهذا مما يسـمى في الأداء البياني بالمشاكلة ، والمشـاكلة : هي أن تأتي بـلفظ يدل على معنى ، هذا المعنى ليس هو عطاء اللفظ لغة ، ولكنه جاء بهذا اللفظ لوقوعه في صحبة غيره .

كما يقـول ﷻ : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ [2] ، وإنما سميت سـيئة لوقـوعها بصحبـة

---

1 – سورة : النمل ، الآية : 50 .

2 – سورة : الشورى ، الآية : 40 .

السيئة الأولى ، فكأنه يقول : إن كنت قد أسأت إلينا بفعلك هذا وأنت تقصد أن تسوءنا ، فنحن نعاقبك على ذلك بما يسيء إليك ، فعندما نعاقبك نسوءك ، وكما قال الله ﷻ : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾[1] ، فكل هذا يسمى بالمشاكلة .

و " المكر " : هو الاحتيال لإيذاء خصم لم تقدر على إيذائه بالمواجهة ، فتدبر له المكائد .

ومعنى ذلك هو عجز الماكر ؛ لأنه لو كانت عنده القوة التي تؤهله للمواجهة ما كان ليلجأ للمكيدة ، بل يواجه ؛ ولذلك فالضعيف غالبًا حين تأتيه الفرصة يكون جبارًا ظالمًا ؛ لأن هذه هي الفرصة الوحيدة التي تمكن منها ، لكن القوي عندما يملك الفرصة يقول : أنا في أي وقت سآخذ حقي ، ولذلك قال أبو الطيب المتنبي في ذلك المعنى :

وضعيفة فإذا أصابت فرصة قتلت كذلك قدرة الضعفاء

إذن ، فمن يمكر ويكيد ويبيِّت ويدبر في خفاء ، فذلك دليل على أنه ضعيف ، واعلم أنك عندما تمكر بمن يعلم مكرك فإنك لم تمكر ؛ لأنه يعرف طباعك في المكر ، فمكرك لن ينفع ، فإذا مكرت بمن يعلم مكرك يكون لا مكر ، مكر خائب ليس له ثمرة ؛ ولذلك جاء التعبير القرآني : ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا ﴾ ، وهم يظنون أنهم يمكرون على من يساويهم في بشريتهم ، ﴿ وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾[2] ، أي : هم يمكرون ونحن نعلم بمكرهم ، أما نحن فنمكر بهم ولا يشعرون بمكرنا .

وكذلك قوله : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴾ ، أي : لهذه الدعوة ، فما داموا لم يستطيعوا الوقوف أمام الدعوة وقوف المواجهة ، فإنهم يمكرون ، لكن قل لهم : إن كيدكم مكشوف عند ربكم ﷻ ، وما دام مكشوفًا عنده ﷻ فهذا ليس كيدًا ، وكيدنا سيكون خيرًا من كيدهم .

وعندما يقول الله ﷻ : ﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾[3] ، لا نقول : إن ربنا مكار ، حاشا لله ،

---

1 – سورة : النحل ، الآية : 126 .

2 – سورة : النمل ، الآية : 50 .

3 – سورة : آل عمران ، الآية : 54 .

وتعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرا ، فربنا تبارك وتعالى لا تجوز عليه الحيلة على أحد ، فإذا قال الله عز وجل عن نفسه ذلك ، فيجب أن نؤمن بذلك ، ونعلم أن كنهه مجهول لنا ، فنقف عند ما يقول ، ولا نشتق منه اسمًا ، فلا نقول : الله كائد ، ولا نقول : الله ماكر ، حاشا لله ، بل نقف بالحدث عند ما قال الله عز وجل به .

﴿ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾ .. من الذي يمهل ؟ ظاهر الآية أن الرسول ﷺ هو الذي يمهل ، ولكن المراد أن الله عز وجل هو الذي يمهل ، وإنما ذلك إيناس لرسول الله ﷺ ، فكأنه يقول له : إنني أرسلتك رسولاً لكى أؤيدك ، وما فعلوه إنما أردنا منه تمحيص الذين يؤمنون بك ؛ لأننا نريد ألا يكون معك في هذه الدعوة إلا من يصبر معك على تلك الشدائد ، من مكر وخداع وكيد ، فإن صبروا يكونوا أهلاً لأن يحملوا معك هذه الدعوة إلى الدنيا كلها ، فكأن الموقف بيدك : ﴿ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ ﴾ .

﴿ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾ .. رويدًا : أي قليلاً ، أي أن الإمهال لن يطول كثيرًا ، وإذا ما استقرأنا تاريخ هذه الدعوة نجد أن الإمهال إنما كان فقط لتربية جنود الدعوة تربية تصبر على الشدة ، شدة ولا أمل في خير الدنيا أبدًا ، فإذا نجحوا في هذه المسألة ، ففترة الإمهال قد انتهت ، وجاء نصر الله والفتح ، ودخل الناس في دين الله أفواجًا .

نسأل الله أن يعيننا على الصبر والثبات ، وأن يجعلنا من حملة هذه الدعوة ، إنه ولي ذلك والقادر عليه .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .



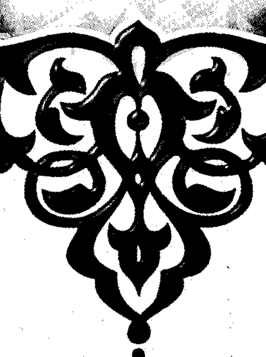












سورة الأعلى



سورة الأعلى

أحمدك ربي على فضائل ذاتك ، وعظائم نعمائك ، وأصلي وأسلم على قمة اصطفائك ، ومسك ختامك ، سيدنا محمد ﷺ وبعد . .

فمع **سورة الأعلى** ، تلك السورة التي جاء موضعها من الكتاب بعد **سورة الطارق** ، والتي تعرضت – فيما تعرضت له إلى قضية الخلق – وهي الإيجاد من العدم – حيث قال الحق ﷻ : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الإنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ [1] ، ثم تعرضت بعد ذلك إلى القيومية التي تمد ذلك الموجود من العدم بما يبقي عليه حياته من مادة حياته ، فقال الحق ﷻ : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴾ [2].

ثم جاءت **سورة الأعلى** بعد أن تعرضت **سورة الطارق** لهاتين القضيتين ، فشرحت القضية الأولى شرحًا أوسع وأوفى ، وشرحت القضية الثانية أيضًا بصورة وافية .

وإذا ما استعرضنا هذه السورة جملة وجدنا – بداية – أن اسمها هو : " **الأعلى** " ؛ لأن كلمة الأعلى وردت فيها كحيثية من حيثيات الأمر بتسبيح الله ﷻ : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ ، فسميت السورة بذلك الاسم .

وهذه السورة هي حبيبة رسول الله ﷺ ، وهي أحب المسبحات إليه ، كما روي عن علي رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يحب هذه السورة : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ [3] .

---

1 – سورة : الطارق ، الآية : 5 : 7 .

2 – سورة : الطارق ، الآية : 11 ، 12 .

3 – أخرجه أحمد في المسند (2 / 210) ، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (4542) .



والمسبحات هي السور التي ابتدأت بما يُشتق من التسبيح ، مثل : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ ﴾ ، و ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ ﴾ ، و ﴿ سَبِّحْ ﴾ ... وهكذا ، فهي أفضل هذه المسبحات .

لذلك كان رسول الله ﷺ يحرص دائمًا على أن يقرأها في صلاة الجمعة ، وفي صلاة العيد ، حتى لو اجتمعت الجمعة مع العيد قرأها في العيد صباحًا ، ثم قرأها في الظهر زوالاً ، كما روى **حبيب بن سالم** مولى **النعمان بن بشير** عن **النعمان بن بشير** قال : " كان رسول الله ﷺ يقرأ في العيدين وفي الجمعة بـ : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ ، و ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾ .. قال وإذا اجتمع العيد والجمعة في يوم واحد يقرأ بهما أيضًا في الصلاتين "[1].

وهذا مما يدل على أن رسول الله ﷺ كان له فيها ملاحظ تؤنسه ، فما هذه الملاحظ التي تؤنس رسول الله ﷺ ؟!

أول ملحظ : أن رسول الله ﷺ – وهو أميٌّ في أمة أمية – ينزل عليه الوحي فيقول له : ﴿ اقْرَأْ ﴾[2]، وذلك أمر العالِم ، ورسول الله ببشريته الأمية يجيب جوابًا طبيعيًا ، فيقول : " **ما أنا بقارئ** " ، فيُصِر الوحي قائلاً : " **اقرأ** " ، فيصر رسول الله ﷺ : " **ما أنا بقارئ** " . فيقول له الوحي – بعد ذلك : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[3].

إذن فهناك حوار بين أمر ، وبين عجز عن أداء ذلك الأمر .

الأمر منطقي ؛ لأنه صادر من أعلى ، والنفي من رسول الله ﷺ منطقي ؛ لأنه صادر من بشر لا وسائل عنده للقراءة ، لم يرتَضْ عليها ، ولم يتعلمها ، ولم يجلس إلى المعلم ، فكيف يؤدي مدلول هذا الأمر ؟!!

---

1 - أخرجه مسلم (1452) .

2 - سورة : العلق ، الآية : 1 .

3 - أخرجه البخاري (3) ، ومسلم (231) من طريق أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها .

إذن فقول رسول الله : " **ما أنا بقارئ** " .. كلام منطقي مع قانون بشريته ، والكلام الأعلى في : ﴿ **اقْرَأْ** ﴾ كلام منطقي مع قدرة من يأمر .

وهنا تبدو ذاتيتان : ذاتية آمرة جازمة ، وذاتية ممتنعة نافية .

وهذا يدلنا على أن الرد على من يقول : إن القرآن إنما كان خواطر **محمد** ، أو صفائية إشراقية في نفسه وهو الآمر .

قلنا : لو كان هو الآمر لما كان هو الممتنع ؛ لأنه كيف يجتمع منه أمر وامتناع ؟! فلو كان الأمر منه لما كان هناك امتناع .

إذن فهنا تأكيد على أن هناك ذاتين : ذاتًا أعلى ، وذاتًا بشرية ، فالذات الأعلى تأمر بما عندها من الاقتدار ، والذات البشرية تنفي بما عندها من العجز .

إذن فالموقف موقف صدق من الآمر ومن الممتنع .

حين ذلك ما الذي ينهي هذا النزاع : أمر من أعلى بجزم ، ونفي من أدنى ؟ ما الذي يخرجنا من هذا الأمر ؟

لا يخرجنا موقف الضعيف ، وإنما يخرجنا منطق القوي ، لماذا ؟!

لأن القوي في قدرته أن يفيض على الضعيف بما يجعله يؤدي مدلول هذا الأمر ، فقال : ﴿ **اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ** ﴾[1] ، وانظروا إلى أفعل التفضيل في كلمة : ﴿ **الأَكْرَمُ** ﴾ ، ﴿ **الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾[2] ، فإذا كان الإنسان لا يقرأ إلا بما تعلّم ، فمن علم أول قارئ ؟!

إذن فلابد وأن تنتهي المسألة إلى أن أول قارئ لم يكن مُعلَّمًا من مثله ، بل معلمٌ من أعلى منه ، وما دام معلمًا من أعلى منه فلماذا تنفي ؟!

---

1 - سورة : العلق ، الآية : 3 .

2 - سورة : العلق ، الآية : 4 ، 5 .

أنا لا آمرك أن تقرأ برياضتك للقراءة ، ولا آمرك أن تقرأ لأنك تعلمت ، وإنما آمرك أن تقرأ لأني أردت لك أن تقرأ ، وأنت لن تقرأ باسم ما تعلمت ، أو باسم ما ارتضت ، وإنما تقرأ ﴿ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾[1] .

ثم يعطي الحيثية القوية فيقول : ﴿ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴾ ، و ﴿ الأَكْرَمُ ﴾ أفعل تفضيل من كريم ، فإذا كان الكريم ﷻ قد أمد خلقه بالأسباب التي توصلهم إلى أن يتعلموا ويتواضعوا على رسم الأصوات بحروف تُقرأ ، تلك صفة الكريم وهبت لجميع الخلق .

فما هو مدلول الأكرم ؟

الأكرم : هو أن يجعلك تتعلم وإن لم تتلقَّ ذلك .

نحن نعرف في السيرة كيف أجهد الوحي رسول الله ﷺ ، وكيف كان يقول ﷺ بعد أول لقاء له بالوحي : " **زمّلوني .. زمّلوني ... دثروني .. دثروني** " ، وكيف قال في أول اتصال الوحي به : " فغطني حتى بلغ مني الجهد "[2] ، وكما تروي **أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها** كيف كان الوحي به : " ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقًا "[3] ، كل هذه ظواهر مادية ، هذه الظواهر المادية لابد أن يكون فيها إجهاد مادي ، وما دام فيها إجهاد مادي لابد أن يكون هناك – كما سبق أن قلنا – تحولات كيماوية في ذاتيته البشرية ﷺ ؛ لأن ملكًا أعلى سيلتقي ببشر ، فلا مفر من أحد أمرين :

الأمر الأول : إما أن ينتقل الملك من ملكيته إلى بشرية تساوي بشرية الرسول فيتكلم معه ، وحينئذ لا يكون عند البشر مجهود ؛ لأن العملية صارت من الملك ، وتمثل له بشرًا فكلمه ،

---

1 – سورة : العلق ، الآية : 1 .

2 – أخرجه البخاري (3 ، 2999) ومواضع عدة ، ومسلم (231 ، 232) عن عائشة وجابر بن عبد الله رضي الله عنهم أجمعين .

3 – أخرجه البخاري (2) عن عائشة رضي الله عنها .

فهو لا يزال على طبيعته البشرية .

وإما أن يكون **الأمر الثاني** : وهو أن يحصل التحول منه ﷺ ، فتصفو نفسه ، وتهتز بشريته ؛ حتى يمكن أن تلتقي البشرية بالملكية ، وذلك هو أشق أنواع الوحي على رسول الله ﷺ ، وإن كان هذا هو أشق ألوان الوحي على رسول الله ﷺ إلا أنه هو آكد الوسائل في صدق بلاغه عن الله ﷻ ؛ لأن الملك إذا تمثل بشرًا ربما يكون ظن أن هناك بشرًا أعلى من بشريته يكلمه ويخاطبه وينقل له ما ينقل ، فليس في ذاتيته ﷺ دليل الاتصال الخارجي إذًا ، أما أن يحدث في تكوينه شيء فترتجف بوادره ، ويتفصد جبينه عرقًا ، ويحصل له ما يحصل فهذا أمر ذاتي فيه .

فحينما يأتي له علم من هذا الطريق فيعرف أن ذلك العلم عن طريق غير عادي ، فيثبت فيه ما يملى على رسول الله ﷺ ، ومعه دليله أن ذلك ليس أمرًا عاديًا ، لا ببشر ولا بكلام من وراء حجاب .

ولذلك فإذا قرأنا قول الحق ﷻ : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾[1] .. وجدنا أن وسائل اتصال الحق بالخلق ثلاثة : **الوحي الإلهي ، أو الكلام مباشرة من وراء حجاب ، أو بإرسال رسول من الملائكة** .

والوحي : هو إلهام يقذفه الله ﷻ في قلب الموحى إليه ، كما قال النبي ﷺ : **" وإن الروح الأمين نفث في روعي أنه ليس من نفس تموت حتى تستوفي رزقها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ، ولا يحملكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعاصي الله ، فإنه لا يُنال ما عنده إلا بطاعته "**[2].

---

1 – سورة : الشورى ، الآية : 51 .

2 – أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (8 / 129) ، والبيهقي في الشعب (9989) ، عن عبد الله بن مسعود .

والفرق بين الوحي وبين أي خاطر بشري أن الذي يُنفَث في روعه يكون مع النفث في الروع دليل صدقه وأنه من الله ﷻ ، لا يُشك فيه ، كما قال الحق ﷻ عن أم موسى عليه السلام : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [1] .. فهل امتثلت أم موسى أم لم تمتثل ؟ لقد امتثلت .

فأروني امرأة خافت على وليدها وشعرت أنها يجب أن تلقي به في البحر لينجو وفعلت ذلك ! !

أي منطق هذا ! ! فلو لم يكن قد ألقي في نفسها أن هذا الخاطر ليس خاطرًا بشريًا ولا شيطانيًا ، وإنما هو خاطر من الله ﷻ ما انصاعت إلى تنفيذ الأمر المخالف للفطرة البشرية .

وإلا فكيف تنجيه من موت مظنون إلى موت محقق ، فمن الجائز أنها إذا لم تلقِه في البحر أن لا يقتله جنود فرعون ، أو أن فرعون يلغي أمره ، أو تستطيع أن تخفيه في أي مكان عند بحثهم عنه ، فكيف تنقذه من موت مظنون وتلقي به في البحر ، وهو موت محقق ، لو لم يكن مع ذلك الوحي ما يدل على أنه من عند الله ، ويطمئنها الطمأنة البشرية : ﴿ وَلَا تَخَافِي ﴾ .. في أمر يأتي مستقبلاً ، ﴿ وَلَا تَحْزَنِي ﴾ .. على أمر يفوتك ماضيًا ، وهو أنك ستلقينه ، ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ، أي أن نجاته عليه السلام ليس لأمر يهمك أنت فحسب ، ولكن نجاته أمر يهمني أنا ؛ لأن له عندي مهمة ، وما دام له عندي مهمة وسأرسله رسولاً فأنا الذي سأحافظ عليه ، ولذلك سألقي أوامري إلى كائن من خلقي ، وهو البحر .. ﴿ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ ﴾ [2] عندما قال لها : اقذفيه في التابوت ، أمر البحر كذلك أن ألقه بالساحل .. ﴿ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ ﴾ أمر باللام .

1 – سورة : القصص ، الآية : 7 .

2 – سورة : طه ، الآية : 39 .

إذًا .. ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا ﴾ .. هذه هي الطريقة الأولى .

﴿ أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ .. كما كلّم الحق ﷻ موسى عليه السلام من وراء حجاب .

﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾ .. ﴿ يُرْسِلَ رَسُولاً ﴾ وهو وصف للوحي .. ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ ﴾[1].. اصطفى من الملائكة رسولاً قمة ، واصطفى من البشر رسولاً قمة ، فالقمتان تلتقيان ، حين تلتقي القمتان – قمة الاصطفاء الملكية وقمة الاصطفاء البشرية – لابد أن يحدث تحويل في واحد منهما ؛ لأنه غير ممكن الالتقاء بينهما ما دام كل منهما لا يزال على طبيعته .

ثم لما أُجهد رسول الله ﷺ بذلك الأمر الجديد عليه أراد الحق ﷻ أن يطمئنه على شيئين : على أن المسألة لن تكون هكذا باستمرار ، ولكنا سنرفع ذلك الحِمل الذي تتكلفه ماديتك وتكون متعبًا بسببه ، فبعد أن قال : ﴿ وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾[2].. قال له : ﴿ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى ﴾[3].. سيكون في ذلك خفة لك ، ولذلك ما اشتكى رسول الله ﷺ من الوحي بعدها ؛ لأنه قد ربيت فيه طاقة الشوق إلى الوحي ، وتربية طاقة الشوق للأمر الشاق تُهَوِّن المشقة ، وتجعل الإنسان لا يشعر بها ، فإذا ما عرض إنسان على إنسان أمرًا شاقًّا ، ثم رأى ثمرة ذلك الأمر الشاق حلوة بعد ما يهدأ وبعد ما يرتاح ، ذهب التعب وبقيت حلاوة ما أوحي إليه ، هذه الحلاوة تجعله يشتاق إن غاب عنه الوحي ، ساعة ما يشتاق وجدت في نفسه الطاقة الإقبالية ، وعندما توجد في نفسه الطاقة الإقبالية والشوق يجعله لا يشعر بالمتاعب بعد ذلك .

وبعد ذلك فكما أن الرسول ﷺ كان أميًا لا يعرف القراءة فهو في هذه السورة سمع : ﴿ سَنُقْرِئُكَ ﴾ ، وبعد ذلك قال له : ﴿ فَلاَ تَنْسَى ﴾ ، فالرسول ﷺ لم يشتهر عنه أنه راوية

---

1 – سورة : الحج ، الآية : 75 .

2 – سورة : الضحى ، الآية : 1 : 3 .

3 – سورة : الضحى ، الآية : 4 .

للأخبار ، ولا راوية للشعر ، ولا نسابة أو حافظ للأنساب ، أي : لم يعتد ذهنه على أن يتلقى معلومات ثم يسردها كالحافظة عن غيب ، فعندما يوحي إليه ويجعله يقرأ إنما يقرأ عليه النجم الواحد ، وهو الجزء أو القسم من القرآن ، وقد يطول ذلك النجم أو يقصر ، بحسب الواقعة التي نزل بشأنها .

فقال ﷻ طمأنة لنبيه ﷺ : ﴿ سَنُقْرِئُكَ ﴾ هذه واحدة ، ﴿ فَلا تَنْسَى ﴾ بشرى ثانية .

وهذه هي أول حيثية جعلت السورة حبيبة لرسول الله ﷺ .

ثم بعد ذلك قال له : أنت تتلقى فتقرأ ، وبعد ذلك تنقل : ﴿ فَلا تَنْسَى ﴾ .. فلا تريد أن تنسى ، وبعدها تريد أن تطبق ، فعندما تطبق ، أي : تُخرج الكلام المبدئي النظري والقضايا المطلوبة منك إلى حيز السلوك ، فسيكون هناك مشقة إخضاع حركة حياتك لمنطق المنهج ، فقال له : لا تخَفْ من هذه : ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى ﴾ .. سنيسر لك الأمور .

فإذا ما استقر لك الإقراء وعدم النسيان ، لتبلغ الناس ، وتيسير تطبيق السلوك ، إذن فعليك أن تنقل ذلك الإشراق والنور إلى غيرك ، ولا تظن أبدًا أن الناس كلهم سيكون على قلوبهم ختم ، فإنه ما من ذكرى إلا وهي نافعة ، وإن لم تنفع الكل تنفع البعض فقال له : ﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى * سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى ﴾ .. وهذه طمأنة .. ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى * الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى * ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَى ﴾ .

وبعد ذلك يكر على من سمع الذكرى فيقول : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى * بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ .

ثم بعد ذلك يختمها بمبدأ عام ، وهو أن ما أتيت به من أصول ذلك الدين والتكليف أمر موجود مع الوجود منذ الأزل ، أي : أنت لم تخرج بذلك الأمر الجديد عليك عما جاء أولاً من رسالات : ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ ، إذن فتلك هي حيثيات حبه ﷺ لهذه السورة .

سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾

﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ .. ننتقل إلى فقه السورة ، فنجدها قد بدأت بأمر هو : ﴿ سَبِّحْ ﴾ ، ومعناها : طلب المتكلم ، وهو الحق ﷻ ، من المخاطَب أساسًا ، وهو رسول الله ﷺ ، ومن كل من يتبعه أن يقوم بالتسبيح .

والتسبيح : هو التنزيه ، والتنزيه : أن يكون شيء ثم يوجد له نظير في الشكل أو في الجملة ، فتتوهم أن هذا قد يساوي ذاك ، فنقول : كلا ، بل إن هذا ليس من هذه الطبيعة .

أي أن لله ﷻ وجودًا ، ولخلقه وجودًا ، ولكن نزِّه وجود الله ﷻ عن وجود الناس ؛ لأن وجود الناس عن عدم ، وإلى عدم ، ولكن وجود الحق ﷻ لا عن عدم ، ولا إلى عدم .

فصفة الوجود قدر مشترك ، إلا أنك لابد أن تنزه الحق ﷻ إن وجد وصف في مخلوقاته يساوي وصفه في شكلية اللفظ .

فالتسبيح معناه : التنزيه ، يعني : أمرني ربي أن أنزهه ﷻ .

لكن يلاحظ أن الحق ﷻ قال : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ ، وحين نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ : " **اجعلوها في سجودكم** "[1] ، ولذلك نقول في سجودنا : " **سبحان ربي الأعلى** " .

ولو كان على منطق المطلوب لقال رسول الله ﷺ : قولوا : " **سبحان اسم ربي الأعلى** " ، إلا أن القرآن لما قال : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ ﴾ قال الرسول ﷺ : " **سبحان ربي** " .

---

1 - أخرجه أبو داود (736) ، وابن ماجه (877) ، وأحمد (16773) من طريق عقبة بن عامر الجهني .

وأيضًا فالآية نفسها .. ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ جاء فيها بالحيثية ؛ فالحيثية الأولى أنه أعلى .

ومعنى التنزيه : أن تنزه الأعلى أن يكون مثل الأدنى ، فهو**أعلى** ، وليس **عاليا** ؛ لأن " عالٍ " وصف من خلقه ، أي : يوصف به بعض خلقه ، يقول الحق ﷻ **لإبليس** حين امتنع عن السجود **لآدم** ﷺ : ﴿ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾[1] ، وكأن الملائكة كانوا مقسمين إلى قسمين : قسم له علاقة بذلك الخليفة في الكون من حفظة ، ومن رقيب ، ومن عتيد ، ومن الملائكة الموكلين بتدبير الكثير من الأمور ، هؤلاء لهم علاقة بهذا المخلوق وهو **آدم** ﷺ ، فإذا كان الله ﷻ قد أمر الملائكة بالسجود **لآدم** فإنه إنما أمر الملائكة الذين لهم علاقة بهذا المخلوق يدبرون أمره : أمر النواميس .. أمر الكون .

وهناك ملائكة لا يدرون مَن آدم ولا يعرفون عنه شـيئًا وهم : المهيّمون في الله ، الذين لا يعرفون إلا الله ﷻ ، فليس عندهم معلومات أخرى ، فقال له : أستكبرت عن الأمر ، أم أنك حسبت نفسك من العالين الذين لم يشملهم الأمر ؟!

إذن فكلمة : " عالٍ " أطلقها الله ﷻ على بعض خلقه ، ولكن عندما يقول : ﴿ الأَعْلَى ﴾ يكون قد أحدث التمايز المطلوب .

﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴾ .. حيثية الأعلى ، لماذا كان أعلى ؟ لأنه خلق ، وما دام قد خلق فهو أعلى من المخلوق ؛ لأن المخلوق انفعال للقدرة الخالقة ، وما دام منفعلاً للقدرة الخالقة إيجادًا ينفعل لها إعدامًا ، إذن ﴿ الَّذِي خَلَقَ ﴾ حيثية للأعلى .

ولم يخلق فقط فأوجد من عدم على أية صورة ، بل ﴿ خَلَقَ فَسَوَّى ﴾ ، كما يفسره قول الحق ﷻ : ﴿ مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ ﴾[2].

---

1 – سورة : ص ، الآية : 75 .

2 – سورة : الملك ، الآية : 3 .

﴿ **وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى** ﴾ .. يشرح الحق ﷻ بعد ذلك هذه التسوية فيقول : ﴿ **وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى** ﴾[1] ، أي : ﴿ **جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا** ﴾[2] أي : جنسًا ونوعًا وتشخصًا وعمرًا ، وبعد ذلك هدى كل مقدور إلى ما قُدر إليه .

فإنك عندما تستقرئ الكون تجد العجب ؛ فالإنسان العاقل الذي سما بفكره في الكون ، والذي يجعل فكره يستنبط أشياء كثيرة ، وهو فاهم أنه تميز عن ذلك الكون ، نقول له : حتى تفهم أن المسألة ليست نتيجة عقلك ، فإن عقلك قد يدلك على كثير من الخطأ والبوار ؛ لأن عقلك سيصادمه شيء آخر وهو هواك ، **وآفة الرأي دائمًا الهوى** ، فالهوى يزين للإنسان أمرًا يجعله يلجأ إلى هذا الطريق ؛ لا لأن عقله قال هذا ، بل لأن الهوى أفسد عليه عقله .

فنقول له : انظر إلى المخلوقات التي ليس لها فكر ، لكي تعرف أنه عندما قدر هدى كل شيء ﷻ .

فمثلاً : جنس النبات يكون من بذرة ، والبذرة نبات بالقوة لا نبات بالفعل ، ومعنى نبات بالقوة : أنها صالحة لأن تكون نباتًا إن هيئت لها بيئتها ، فتبقى هكذا في مخزنها بذرة حتى تتهيأ لها البيئة من تربة خصبة وري وغير ذلك فتنبت ، فالحبة نبات بالقوة أي فيها قوة أن تكون نبتة ، وبعد ذلك تكون نبتة بالفعل إذا هيئت لها البيئة .

فانظر إلى التقدير ، فعندما تهتم بتلك الحبة بوضعها في التربة ، فتبدأ الفلقتان تتضخمان ثم يخرج بينهما الزباني التي تكوِّن الجذر ، وتأخذ الفلقتان تغذيان الجذر ، حتى يقوى الجذر ويكوِّن شعيرات تمتص من الأرض فتعطي له الغذاء ، وبعد ذلك يستمر الجذر في أخذ الغذاء من الفلقتين حتى ينتهيا فيتكون أول ورقتين .

إذن فالحبة نفسها فيها قوتها إلى أن يصبح لها قوت ذاتي ، وبعد ذلك عندما يكون لها شعيرات تبدأ بالامتصاص .

---

1 - سورة : الأعلى ، الآية : 3 .

2 - سورة : الطلاق ، الآية : 3 .

وعلماء النبات يتكلمون فيقولون : إن النبات يتغذى بخاصية الأنابيب الشعرية ، وهذا صحيح ؛ لأن هذه الأنابيب دقيقة جدًّا ، وقطرها ضيق جدًّا ، ولذلك تجد ضيق قطرها يجعل السائل يرتفع فيها عن منطقة الاستطراق مع أن السائل ضروري أن يستطرق ، وإن وسعت ينزل السائل ويستطرق ، وإن كانت شعرية يرتفع السائل إلى أعلى ؛ فالنبات يتغذى بقانون الاستطراق فعلاً .

مثال : سوف آتي بحوض وأضع فيه أنواعًا كثيرة من العناصر وأذيبها في الماء ، وبعد ذلك أحضر أنابيب شعرية وأضعها في الحوض ، وبعد ذلك أرى هذه الأنابيب ، فسأجد أنها تأخذ السائل بكل مكوناته الذائبة فيه ، ولكن هل هناك أنبوبة تأخذ عنصرًا وتترك عنصرًا ؟ كلا ، لا تجد ذلك أبدًا .

وعندما نرى الشعيرات نتذكر قول الله ﷻ : ﴿ وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ ﴾ [1] ، وأتى بالماء لأنه المذيب للعناصر ، وبعد ذلك : ﴿ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ ﴾ ، ولكن كيف حدث هذا التميز ، وكيف تميِّزُ وتتعرف هذه الشعيرة على العنصر الذي هو غذاؤها وتدع العنصر الآخر ، فهل هناك أنبوبة شعرية تأخذ عنصرًا من السائل وتدع الآخر ؟! لا ، فهي تأخذه كله ؛ وذلك لأن الذي صنع الأنابيب لم يهدها بخلقته لكيلا تأخذ إلا ما تحتاجه ، لكن الحق ﷻ : ﴿ قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ .

ثم يقولون : حدث هذا بخاصية الانتخاب الغذائي ! !

فنرد عليهم ونقول : وما هو معنى خاصية الانتخاب الغذائي ؟!

إنه لا يختلف عن خاصية الاختيار ، أي : ينتخب ما يريده ، وما دامت خاصية اختيار فلابد وأن يكون فيها ما ترجح به الاختيار ، لماذا اختارت هذا بالذات ، فتأخذ المختار وتدع

---

1 - سورة : الرعد ، الآية : 4 .

غير المختار ؟! فمن ألهمها هذه المسألة ؟!

ونحن نعلم أنها ليست عندها فكر من وجهة نظرنا نحن ، فالذي يعمل مثل هذا رغم حالته هذه فهو أحذق من الذي له فكر ؛ لأن الذي له فكر قد يكون هناك شيء ضار فيقول : أجربه ، أما هي فلا تفعله أبدًا ؛ فالإنسان مثلاً قد يشبع من الأكل ثم تصر عليه أن يأكل فيأكل ، ثم تصر فيأكل ، وهكذا ، أما الحيوان فعندما يشبع فلا يأكل عود برسيم واحد زائد عن حاجته .

إذن فهو بغير فكره بما قدره الله ، وبما هداه إلى صالحه لا ينحاز إلى شيء غير ذلك .

إذن فتقدير الله ﷻ وهديه لمخلوقاته دون الإنسان ، وكأنه يقول له : الفكر الذي أنت تقول : إنك متميز به ، فأنا معطٍ لشيء ليس له فكر خواصًا أنت لا تقدر عليها .

فالشجرة مثلاً إذا منعت عنها المياه فلم يعد هناك شيء يذيب العناصر ، فتقوم هي بطبيعتها فتستغني عن المهم قليلاً وتهتم بالأهم ، فتجعل الورق يذبل حتى تغذي الساق ، والفروع الصغيرة تذبل وتضحي بنفسها حتى يكبر الساق ، والساق يذبل حتى يغذي الجذر ، وما دام الجذر باقيًا سليمًا فمن الممكن عندما تأتيه المياه أن يبدأ في النمو ، فكل الشجرة بأوراقها وأزهارها وأغصانها الرفيعة كلها تخدم السيد ، والسيد هنا في النبات هو الجذر ، وليس القمة .

لكن في الإنسان السيد هو القمة .. هو العقل ، وما دام العقل صحيحًا وخلاياه لم يحدث لها شيء فكل شيء من الممكن أن يعوض .

لذلك ننظر لحكمة الحق ﷻ فيما لا يدخل تحت العقل ولا تحت عملية الفكر في الإنسان ، فنجد أن الحق ﷻ لا يحرم الإنسان أيضًا من معنى .. ﴿ قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ بدون تدخله ؛ فالإنسان يرضع ثم تطرأ عليه فترة النمو ، فيكون الداخل له من الغذاء أكثر من الخارج منه من الفضلات ، فالداخل من الغذاء جاء حتى يعوض الحرارة التي خرجت جراء الحركة والطاقة .

زيادة على ذلك يقوم ببناء خلايا زائدة في الجسم ، لا تدخّل للإنسان فيها ، ولا يعرف عنها شيئًا ، كعمل الشحم وتضخم العضلات واللحم ، بحيث إذا امتنع عنه أسباب الحياة أو أسباب البقاء وهو الطعام فيجد أن : ﴿ قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ تقوم بعملها ، والتي هي بعيدة عن فكرنا ، فيتغذى الجسم على الغذاء الذاتي الذي ليس لنا فيه دخل ، فيقوم الجسم ذاتيًا بأخذ بعض الدهن الذي تركب عندنا والزائد عن حاجة الجسم ، ويبتدئ في تحليلها لنا حتى يصلح كغذاء ووقود .

ومن العجيب أن الدهون – وهي مادة واحدة – تتحول إلى كل عناصر الغذاء .

وهذا أيضًا من مشكلات العلم ، فمادة واحدة تتحول إلى كل العناصر المطلوبة للجسم ، وبعد ذلك ينتهي الدهن فيأخذ من اللحم ومن العضلات ، وبعد أن ينتهي ذلك فالمخ يريد أن يبقى ؛ لأنه هو السيد ، فيقوم العظم ويعطي له من الغذاء ، فيكون آخر مخزن للقوت الذاتي في الإنسان – الذي لا يعلم عنه شيئًا لا بفكره ولا باختياره ، بل بقانون ﴿ قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ – هو العظام .

فنحن نلمح أن القرآن عندما يلمح إلى مثل هذا لا يقولها على أنها نظرية ، بل يقولها على أنها قضية كونية ، كقصة **سيدنا زكريا** الذي يقول : ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ﴾[1] ، أي أن آخر مخزن ذاتي عندي قد انتهى .

والعربي القديم تفطن إلى هذا فيقول : " **لقد مرت علينا سنة أذابت الشحم ، وسنة محت اللحم ، وسنة محّت العظم** " .

إذن فالعملية الذاتية هي التي تطرأ على الإنسان عندما يفوت ميعاد غذائه فيقول : لقد عفت نفسي عن الأكل ، فنقول له : لا ، بل أنت قد تغذيت عندما فات ميعاد أكلك الذي بفكرك وبإرادتك فابتدأ الجسم من قانون : ﴿ قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ يعطي لك بعضًا من الشحم

1 – سورة : مريم ، الآية : 4 .

فيغذيك .

تدبـــر – مثلاً – في خلق الحيوان ، ولتطالع مثلاً كتاب : " **العلم يدعو إلى الإيمان** " وفيه صور كثيرة كهذه ، ورحم الله الشيخ **سيد قطب** ، فقد نقل في كتابـه : " **في ظلال القرآن** " فصولاً كاملة من كلام رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك عن هذه الحالة في شرح قـول الحق ﷻ : ﴿ **قَدَّرَ فَهَدَى** ﴾ ، وطبعًا أنا لن أكرر ما قاله ، ومن أحب أن يرجع إليه فليرجع [1].

فيقول مثلاً : إن ثعبان السمك من الأشياء المدهشة في العلم ، وثعابين السمك توجد في البرك والنهيرات والأنهار ، وبعد ذلك قـال : إنها لا تخصب إلا في بـرمودة في أمريكا ، فبـمجرد ما يصل الثعبان إلى سن المراهقة تجده يذهب إلى مكانه في برمودة في هذا المكان من العالم بـالذات دون سواه ، فيخصب ، وبعد أن يخصب يموت .

فالمهم هنا أنه كيف تمكن من أن يذهب إلى برمودة في الأمواج والمسافات الطويلة .

والأغرب أيضًا أنه عندما قاموا بـعمل نسبـة لسـمك الثعبـان الذي يعيش في نهيرات وبـرك أوروبـا ، والذي يعيش في بـرك ونهيرات نيويورك ، وجدوا أن الأولى التي تأخذ مسـافة أطول تعطى له طاقـــة أكثر من الثانية ، ولذلك فالعجيب أننا لم نجد ثعبـــانًا أمريكيًّا في المياه الأوروبية ، ولا ثعبانًا أوربيًّا في مياه أمريكية ، وكلاهما لا يُتم التخصيب إلا في برمودة .

ثم بعد ذلك هذا الصغير الذي يفقـس هناك كيف يرجع إلى موطنه الخاص بأبـيه الذي مات بعد التخصيب ولا يخطئ أبدًا ، فذلك أيضًا بقانون : ﴿ **قَدَّرَ فَهَدَى** ﴾ .

وقد ذكر أيضًا أمثلة عن السلمون ، وعن النحل ، وعن النمل .

فعندما تنظر – مثلاً – إلى خلية النحـل تجد أنها تخضع لأدق مقـاييس الهندســة ، فنجد كل أضلاع الغرفة الواحدة متساوية في الطول والعرض والارتفاع والشـكل مع الغرفة الأخرى ، وكل غرفة مخصوصة لها شـكل مختلف ، فالعَمَلة لهم حـجرة بشــكل كذا ، والذُّكْرَان الذين

---

1 – انظر " في ظلال القرآن " لسيد قطب (6 / 3884 – 3886) .

يلقحون الملكة لهم حجرة بشكل معين ، والملكة أيضًا لها غرفة بشكل معين ، وإذا نظرنا إلى تلك الإفرازات نجد أنها تفرز شيئًا يغذي الملكة فقط ، وغيره من المسائل العجيبة في خلايا النحل .

وفي النمل أيضًا لو أتيت بتمرة أو قطعة من اللحم ورميتها ، فلابد من وجود نمل بعد مدة ، فمن الذي أخبره ؟! وتجد أنه تأتي نملة أو اثنتان أو ثلاثة فقط ، لا يزيدون ، فيحومون حول تلك القطعة ، ثم يتركونها ويذهبون ، وبعد مدة تلتفت فتجد عددًا من النمل ، جاء هذا العدد الذي يستطيع حمل هذه القطعة لا أقل ولا أكثر ، فكيف قدروا وزنها ؟!

وحتى تتأكد من صدق هذه النظرية ضع جرامًا من اللحم – مثلاً – وانظر كم نملة ستأتي لتحملها ، وبعد ذلك قلل الوزن إلى النصف وانظر كم نملة ستأتي لتحملها ، فتجد أنهم في الحالة الثانية نصف ما في الحالة الأولى .

فهذا شيء عجيب ومن أعجب ما يكون ، وهذا من قانون ﴿ قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ ، فربنا سبحانه وتعالى يقول لذلك الإنسان المتعالي : إن عقلك هذا دون ما ليس له عقل ؛ لأنني أعطيت من لا يملك العقل قوانين تحكمه وتسيره ، فإن ما يبعد الإنسان عن السماء هو غروره بعقله .

إن الهدهد هو الطائر الذي غذاؤه ليس من على سطح الأرض أبدًا ، فغذاؤه لابد أن يكون من تحت الأرض ، فكيف يتنبه إلى أن هنا غذاء فينقر الأرض ويأتي بالغذاء ؟!

ولذلك تجد العجب في عرض القرآن لهذه القضية ، فعندما قال نبي الله سليمان عليه السلام : ﴿ مَا لِيَ لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ * لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ ﴾ [1] ، فهذا كلام ملك ، ثم كلام النبوة : ﴿ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ .. مُلك ولكن بعدالة النبوة .

فيأتيه الهدهد ويقول له : ﴿ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ * إِنِّي

---

1 ـ سورة : النمل ، الآية : 20 ، 21 .

وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾[1].. هذا الكلام كله في المُلك ؛ لأنه لا يخاطب ملكًا فقط ، بل ملكًا نبيًّا فيقول له : ﴿ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾[2] ، فلابد وأن يتحدث من الجهتين الخاصتين بـ سليمان عليه السلام : جهة المُلك ، وجهة النبوة ، فجهة الملك : ﴿ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ ، وجهة النبوة : ﴿ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ ﴾ .

ثم انظر إلى دقة الأداء البياني : ﴿ أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾[3] ، فلماذا لم يلتفت الهدهد إلى شيء من القدرة إلا ﴿ يُخْرِجُ الْخَبْءَ ﴾ ؟!

لأن قوت حياته ومقوماتها من الخبء ، فأتى بالملحظ الذي مسه ، وأتى بالحيثية ﴿ أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ .

يلفتنا من هذا إلى أن الإنسان حين يتجه إلى الحق تعالى يجب إن لم يتجه إليه لفضائل ذاته فليتوجه إليه لفواضل إنعامه ، أي : إذا لم تكن الذات تستحق يكفيك أن تتجه للنعم التي تفضل بها عليك .

إذن فذلك كله من قانون ﴿ قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ .

والطيور التي تهاجر من الشمال إلى الجنوب ، وبعد ذلك لا تضل مسارها الطويل إلى أن تعود .

والفراشة التي تدخل عندك في الحجرة ، ثم بعدما تمكث مدة في الحجرة نجد أن الذكر يأتيها ، فإن وجد النافذة مفتوحة يدخل ، وإن لم يجدها مفتوحة يحوم حول الحجرة ، فهذا رادار جديد .

---

1 – سورة : النمل ، الآية : 22 ، 23 .

2 – سورة : النمل ، الآية : 24 .

3 – سورة : النمل ، الآية : 25 .

وفي أعشاش النمل نجد أشياء بيضاء صغيرة كثيرة كالسمسمة ، والناس كانوا يتعجبون ، وعندما قام العلماء بتحليلها وجدوا أن هذه الأشياء الصغيرة هي الزبانى الموجودة في الحب ، فلا يترك النمل أبدًا حبة بزبانها ، لماذا ؟!

لأنه عرضة للرطوبة ؛ مما يجعل الحبوب قد تنمو فتدمر له العش كله ، فيقوم النمل بنزعها وإخراجها خارج العش .

هذه المسألة كذلك من باب ﴿ **قَدَّرَ فَهَدَى** ﴾ .

فهنا قال الحق ﷻ : ﴿ **سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى** ﴾ .. أي : يا **محمد** عليك أن تسبِّح ، وأن تنقل الطلب إلى أمتك ليسبحوا الله الأعلى بحيثياته ﴿ **الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى** ﴾ .

والتسبيح ورد في كتاب الله بصور شتى :

فورد بلفظ : ﴿ **سُبْحَانَ** ﴾ كما في أول **سورة الإسراء** : ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى** ﴾[1] ، و﴿ **سُبْحَانَ** ﴾ هو تنزيه الله لنفسه ، إي أن الله منزه نفسه قديمًا قبل أن يخلق خلقًا يطلب منه أن ينزهه ، كما قال في الوحدانية : ﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ** ﴾[2].

إذن فالحق ﷻ بقوله : ﴿ **سُبْحَانَ** ﴾ لم يطلب من أحد التنزيه ، وكأن التنزيه ثابت لله قبل أن يخلق خلقًا يأمرهم بأن ينزهوه ، وما دام التنزيه ثابتًا لله فإن تنزيهنا لله لم يُوجِدْ التنزيه ، فهو موجود له ﷻ ، إذن فالفائدة ليست على المنزَّه ، بل الفائدة عائدة إلى المنزِّه .

ونجد كذلك لفظ : ﴿ **سَبَّحَ لِلَّهِ** ﴾ بصيغة الماضي : ﴿ **سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ** ﴾[3] ، و ﴿ **سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾[4] ؛ لتعلم أن التسبيح ثابت قبل أن يُخلق المسبِّح ، ولما خُلق المسبِّح سَبَّحَ .

1 – سورة : االإسراء ، الآية : 1 .

2 – سورة : آل عمران ، الآية : 18 .

3 – سورة : الحشر ، الآية : 1 .

4 – سورة : الحديد ، الآية : 1 .

وهل سبح مرة وانقطع عن التسبيح ؟

كلا ، بل .. ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ [1].

إذن فيا أيها الإنسان الذي تريد أن تعيش في منهج ربك ، لا تشذ عن نغم الوجود في التسبيح ؛ حتى لا تكون شاذًّا ؛ كي لا تكون الحيثية التي أعطيت لك – وهي الزيادة في الفكر – عائقًا لك عن أن تكون مع من هو أدنى منك ، فلا تكن نغمة شاذة في ذلك الوجود ، فالوجود كله مسبِّح .

ولذلك يقول الحق ﷻ : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [2] ، ونحن نفهم التسبيح في لغتنا على أنه صوت ، ولكن الأداء لا يشترط فيه الصوت ؛ لأنك قد تؤدي أداء بدون صوت وبدون حركة ، فمثلاً بالنظرة قد تؤدي أداء ؛ فحينما تنظر لابنك مثلاً أو للخادم فإنه يفهم ما تريد .

إذن فالأداء الدال لا يشترط فيه أن يكون أداء صوتيًّا ، وذلك عندما يكون هناك أداء صوتي من فصيلة اللغات ، ثم رأيت قومًا يتكلمون لغة غير لغتك ، أتفهم عنهم ؟!

إذن فالصوت في ذاته لا يفهم إلا بالاتفاق على وضع ذلك المعنى ، فما دمت لم تفهم المعنى المراد فيستوي عندك أن يوجد صوت أو لا يوجد ، فإذا كنت تفهم أن الدلالات لا تأتي إلا بالأصوات فأنت مخطئ ، بل لكل جنس لغته التي يتفاهم بها ، ولغته التي يسبح بها ، وإن كنت لا تعرف ذلك فليس بدعًا ؛ لأنك تسمع أصواتًا هي شريكة أصواتك اللغوية في مخارجها ، ولكن مؤداها الوضعي لا تفهم منه شيئًا .

إذن فالله يُعلِّم كل جنس اللغة التي يتفاهم بها في صالح ذاته ، واللغة التي يسبحه بها .

فإذا ما قرأنا قول الحق ﷻ : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ ﴾ [3] .. لا نقول : إن

---

1 – سورة : الجمعة ، الآية : 1 .

2 – سورة : الإسراء ، الآية : 44 .

3 – سورة : الأنبياء ، الآية : 79 .

هذا التسبيح تسبيح دلالة ؛ لأن بعضهم يقول : التسبيح تسبيح الدلالة على الخالق ، إذن فقد فهمته ؛ لأنك قلت : هو تسبيح دلالة ، وهذا دليل على فهمك ، فالذي خلقك وخلقها وعلمها وعلمك قال : ﴿ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ ، فلابد أنه ليس تسبيح دلالة فقط ، بل تسبيح أدائي : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ﴾[1] ، ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ﴾[2]، ومعنى ﴿ أَوِّبِي مَعَهُ ﴾ .. أي : أوبي إلى الله معه ، فالجبال مع غير داود مئوبة أيضًا ولكن ميزة داود أن الحق ﷻ أفهمه لغة ذلك الجماد فجعل تسبيحه يوافق تسبيح الجماد ، وكأنه فريق تسبيح يتناغم مع بعضه البعض .. ﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ﴾ .

ثم يأتينا الحق ﷻ بصورة ثانية : سيدنا سليمان عليه السلام مع النملة : ﴿ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾[3].. فهذه النملة متعلمة قانون صيانة جماعتها .. ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ﴾[4].. فكان معنى شكر النعمة هنا أن علمه منطق هذه الأشياء .

وفي قصة الهدهد – وهي مسألة عقدية – نجد أن الذي حز في نفس الهدهد يدل عليه قوله : ﴿ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ ، وكأن الهدهد يعرف القضية العقدية الأصيلة ، وأنه ينبغي ألا يسجد أحد إلا لله ﷻ .

إذن فالمهم أن نفهم لغة ذلك التسبيح ، ولذلك عندما يقول أحد : إن الحصى قد سبح في يد رسول الله ﷺ ، نقول له : لا تقل ذلك ، بل قل : سُمع تسبيح الحصى في يد رسول الله ﷺ ،

1 – سورة : الأنبياء ، الآية : 79 .

2 – سورة : سبأ ، الآية : 10 .

3 – سورة : النمل ، الآية : 18 .

4 – سورة : النمل ، الآية : 19 .

وإلا فالحصى يسبح أيضًا في يد الكافر ، كما ورد عن أبي ذر رضي الله عنه قال : " كنا عند النبي فأخذ حصيات فسبحن في يده ، ثم وضعهن فخرسن ، ثم أخذهن فسبحن في يده " .. فتكون الميزة هي سماع تسبيح الحصى في يد رسول الله ﷺ [1] .

وعن سهل بن معاذ عن أبيه عن رسول الله ﷺ أنه مر على قوم وهم وقوف على دواب لهم ورواحل ، فقال : " **اركبوها سالمة ، ودعوها سالمة ، ولا تتخذوها كراسي لأحاديثكم في الطرق والأسواق ، فرب مركوبة خير من راكبها وأكثر ذكرًا لله تعالى منه** " [2] .

فالكون كله بأجناس وجوده مسبِّح للحق تعالى ، والذي يفيء الله عليه ببعض فضله يسمع ذلك التسبيح ، ويفهم لغة ذلك التسبيح .

إذن فقول الحق تعالى في استهلال السورة : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ ، أي : يا محمد ، كن مع الوجود كله منسجمًا معه ، وأنا بعثتك لتعيد انسجام الإنسان مع ذلك الوجود ، فلا يصح أن تكون النعمة العليا التي خلقتها لك – وهي الفكر – سببًا صارفًا ، بل يجب أن تكون سببًا داعيًا ، ولا تجعل الإنسان يشذ عن ذلك الكون كله ، ويخرق ذلك النغم ، فإن الحق تعالى هو : ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴾ فتلك هي حيثيات الأعلى ، والأعلى حيثيات ﴿ سَبِّحْ ﴾ .

﴿ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴾ .. يعني : أنبت الكلأ ، ويقال : هو العشب والحشيش وما أشبه .

﴿ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ﴾ .. يعني : جعل المرعى يابسًا بعد خضرته ، وقيل : غثاء يعني يابسًا ، أحوى يعني أسود من قدمه واحتراقه .

---

1 - أخرجه الطبراني في الأوسط (4247) .

2 - أخرجه الإمام أحمد في " مسند المكيين " ، وصححه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (1 / 29) إلا قوله : " فرب مركوبة خير من راكبها وأكثر ذكرًا لله منه " . فقال : " وهذه الزيادة ضعيفة " .

سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴿١٣﴾

﴿ **سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنسَى * إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ** ﴾ .. يعني : سنعلمك القرآن ، وينزل عليك فلا تنسى إلا ما شاء الله ، يعني : قد شاء الله أن لا تنسى القرآن ، فلم ينسَ ﷺ القرآن بعد نزول هذه الآية عليه ، وكان النبي ﷺ يأخذ في قراءته قبل أن يفرغ **جبريل** عليه السلام مخافة أن ينساه .

ويقال : ﴿ **سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنسَى** ﴾ .. يعني : سنحفظ عليك حتى لا تنسى شيئًا ، ويقال إن **جبريل** عليه السلام كان ينزل عليه في كل زمان ويقرأ عليه رسول الله ﷺ ويبين له ما نسخ ، فذلك قوله : ﴿ **إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ** ﴾ ، يعني : إلا ما شاء الله أن يرفعه وينسخه ويذهب من قلبك .

﴿ **إِنَّهُ يَعْلَمُ الجَهْرَ وَمَا يَخْفَى** ﴾ .. يعني : يعلم العلانية والسر ، ويقال : ما يجهر به الإمام في الفجر والمغرب والعشاء والجمعة ، وما يخفى يعني : في الظهر والعصر والسنن ، ويقال: ﴿ **يَعْلَمُ** ﴾ ما يظهر من أفعال العباد وأقوالهم ، ﴿ **وَمَا يَخْفَى** ﴾ من أقوالهم وأفعالهم ، ويقال : ﴿ **يَعْلَمُ** ﴾ ما عمل العباد ، ﴿ **وَمَا يَخْفَى** ﴾ يعني ما لم يعملوه وهم عاملوه .

﴿ **وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى** ﴾ .. يعني : سنهوّن عليك حفظ القرآن وتبليغ الرسالة ، ويقال : يعني نعينك على الطاعة ، ويقال : ﴿ **وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى** ﴾ .. أي : نهون عليك عمل أهل الجنة .

﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ .. ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ .. يعني : فعِظْ بالقرآن الناس ﴿ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ .. يعني : إن نفعتهم العظة ، ومعناه : ما نفعت العظة بالقرآن إلا لمن يخشى ، ويقال : ﴿ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ .. يعني إن قولك ودعوتك تنفع لكل قلب عاقل .

﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى ﴾ .. يعني : يتعظ بالقرآن من يخشى الله ﷻ ويسلم ، ويقال : معناه سيتعظ ويؤمن ويعمل صالحاً من يخشى قلبه من عذاب الله ﷻ .

﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى ﴾ .. يعني : يتباعد عنها ، أي : عن عظتك ، و ﴿ الأَشْقَى ﴾ .. يعني : الشقي الذي وجب في علم الله ﷻ أنه سيدخل النار ، مثل **الوليد** و**أبي جهل** ومن كان مثل حالهما .

﴿ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الكُبْرَى ﴾ .. يعني : يدخل يوم القيامة النار الكبرى ، أي : النار العظمى ؛ لأن نار الدنيا هي النار الصغرى ، ونار الآخرة هي النار الكبرى ، فعن **أنس بن مالك** رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : " **إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم ، ولولا أنها أطفئت بالماء مرتين ما انتفعتم بها ، وإنها لتدعو الله ﷻ أن لا يعيدها فيها** "[1].

وكما قال بعض الحكماء : علامة الشقاوة أشياء تسعة : " **كثرة الأكل ، وكثرة الشرب ، وكثرة النوم ، والإصرار على الذنب ، والغيبة ، وقساوة القلب ، وكثرة الذنوب ، ونسيان الموت ، ونسيان الوقوف بين يدي الملك ﷻ** " .. فهذا هو الشقي الذي يدخل النار الكبرى .

﴿ ثُمَّ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَى ﴾ .. يعني : لا يموت في النار فيستريح من عذابها ، ولا يحيا حياة تنفعه ، وقال القتبي : هو العذاب بحال من يموت ولا يموت .

---

1 - أخرجه ابن ماجه (4309) عن أنس رضي الله عنه ، وأخرجه أحمد (7025 ، 9811) ، والترمذي (2514) كلاهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى ﴾ .. يعني فاز ونجا من هذا العذاب وسعد بالجنة من تزكى ، أي : وحّد الله ﷻ وزكى نفسه بالتوحيد .

﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ .. ﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ ﴾ .. يعني : توحيد ربه ، ﴿ فَصَلَّى ﴾ الصلوات الخمس .

ويقال : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى ﴾ .. يعني : أدى زكاة الفطر ، ﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ مع الإمام صلاة العيد .

ويقال : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى ﴾ .. يعني : أدى زكاة المال ، أي نجا من خصومة الفقراء يوم القيامة ، ﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ .. يعني : كبّر وصلى لله ﷻ .

ويقال : ﴿ مَن تَزَكَّى ﴾ .. يعني : تاب من الذنوب ، ﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ ﴾ .. يعني : إذا سمع الأذان خرج إلى الصلاة ؛ لذلك ذم تارك الجماعة لأجل الاشتغال بالدنيا فقال ..

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴾ وذلك هو أمر العقيدة ، ﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ ﴾ وهذا هو أمر النطق باللسان والإقرار ، ﴿ فَصَلَّى ﴾ وهذا هو أمر السلوك الحركي في الحياة ، فالحق ﷻ حينما جاء بالسلوك الحركي في الحياة في قوله : ﴿ فَصَلَّى ﴾ قد جمع كل ألوان العبادة الشعائرية والعبادة المتعلقة بالمجتمع الإسلامي .

﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ .. يعني : تختارون عمل الدنيا على عمل الآخرة ، وفي قراءة أبي عمرو : ﴿ بَلْ يُؤْثِرُونَ ﴾ بالياء على معنى الخبر عنهم ، والباقون بالتاء على معنى

المخاطبة .

﴿ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ .. يعني : عمل الآخرة خير وأبقى من أشغال الدنيا وزينتها ، ويقال : إن معناه أنهم يختارون عيش الدنيا الفانية على عيش الآخرة الباقية ، وإن عيش الآخرة خير وأبقى ؛ لأن في عيش الدنيا عيوبًا كثيرة ، من خوف المرض والموت والفقر والذل والهوان والزوال والحبس والمنع وما أشبه ذلك ، وليس في عيش الآخرة شيء من هذه العيوب ؛ لأجل هذا فالآخرة خير من الدنيا وأبقى .

﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى ﴾ .. إن الحق ﷻ لم يكلف هذه الأمة أمرًا لم يكلفه الأمم السابقة ، وإنما هذه العقيدة أساس استصحبته الحياة من لدن آدم ﷺ ، فاستصحب الحق ﷻ تذكير الغافلين بإرسال الرسل ، فأشار إلى ذلك بقوله : ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ .

وينبغي أن نذكر عن هذه ﴿ الصُّحُفِ الأُولَى ﴾ أنها لم تكن مقصورة على ﴿ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ ، وإنما الصحف التي أنزلها الله ﷻ على رسله .

فقد أنزل على شيث ، وأنزل على إدريس ، وأنزل على إبراهيم ، وأنزل على موسى عليهم جميعًا الصلاة والسلام .

والصحف غير الكتب التي ذكرها الحق أيضًا ، التي هي التوراة والزبور والإنجيل والقرآن .

والحق ﷻ حينما قال : ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ يؤكد حقيقة عقدية ، أن الحقيقة العقدية لا تتغير مع أي رسول أبدًا ، وإن تغيرت بعض التشريعات فإنما هو التغيير المناسب للبيئات ، ولما يجِدُّ فيها من أقضية تقتضيها الحياة في الطموحات الذهنية في الوجود ، فالتشريعات حين تختلفُ تختلف في هذا القدر فقط ، وهو حركة الإنسان في هذه الحياة ، أما الأسلوب العقدي .. والصلة الشعائرية التي بين الله وبين عباده فهذا قاسم مشترك بين كل الديانات .

وقد أخرج ابن حبان في صحيحه ، من طريق أبي ذر في حديث طويل أنه قال : يا رسول



الله ، كم كتابًا أنزله الله ﷻ؟ قال : " مائة كتاب وأربعة كتب .. أنزل على شيث خمسون صحيفة ، وأنزل على أخنوخ ثلاثون صحيفة ، وأنزل على إبراهيم عشر صحائف ، وأنزل على موسى قبل التوراة عشر صحائف ، وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والقرآن" . قال : قلت : يا رسول الله ، ما كانت صحيفة إبراهيم؟ قال : " كانت أمثالاً كلها : أيها الملك المسلط المبتلى المغرور ، إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ، ولكني بعثتك لترد عني دعوة المظلوم ، فإني لا أردها ولو كانت من كافر ، وعلى العاقل ما لم يكن مغلوبًا على عقله أن تكون له ساعات : ساعة يناجي فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يتفكر فيها في صنع الله ، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب ، وعلى العاقل أن لا يكون ظاعنًا إلا لثلاث : تزود لمعاد ، أو مرمة لمعاش ، أو لذة في غير مُحرم ، وعلى العاقل أن يكون بصيرًا بزمانه ، مقبلاً على شأنه ، حافظًا للسانه ، ومن حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه " . قلت : يا رسول الله ، فما كانت صحف موسى؟ قال : " كانت عبرًا كلها .. عجبت لمن أيقن بالموت ثم هو يفرح ، وعجبت لمن أيقن بالنار ثم هو يضحك ، وعجبت لمن أيقن بالقدر ثم هو ينصب ، عجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم اطمأن إليها ، وعجبت لمن أيقن بالحساب غدًا ثم لا يعمل "[1].

فهذا منهج يجب أن يكون للمؤمن بالله أن يكون له مرمة للمعاش ، وتزود للمعاد ؛ حتى نخرج من قوله : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ ، وبعد ذلك أن يتلذذ بغير محرم ، فهذه الثلاثة أشياء هي المناهج .

ولذلك كان بعض الصالحين حينما سئل عن منهجه في الحياة قال : علمت أني لا أخلو من نظر الله ﷻ طرفة عين فاستحييت أن أعصيه .

ما دام موقنًا أن ربه ناظر إليه ساعتها يستحي أن يقع في المعصية وعين الله تراه ، وإلا

1 - أخرجه ابن حبان (362) ، وقال الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب : " ضعيف جدًا " .

فهاتوا لي إنسانًا يعتدي على محارم إنسان مثله وعينه ناظرة إليه ، فهل تستطيع أن تعتدي على محارم زميلك وهو يراك ؟! فإن قلت : نعم . كذبت ، وإن قلت : لا . فقد جعلت الله أهون من خلقه !

فالرجل يقول : علمت أني لا أخلو من نظر الله ﷻ طرفة عين فاستحييت أن أعصيه ، وعلمت أن لي رزقًا لا يتجاوزني وقد ضمنه الله لي فقنعت به ، وعلمت أن عليَّ دينًا لا يؤديه عني غيري فاشتغلت به ، وعلمت أن لي أجلاً يبادرني فبادرته .

وقد قيل : اجعل طاعتك لمن لا تستغني عنه ، واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك ، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه .

إذن **فالصحف الأولى** معناها : شحنة دينية .. . شحنة عقدية تجعل الإنسان دائمًا على ذكر من ربه .

وكل هذه الشحنات العقدية حتى يتربى الإنسان على هذه العقائد التي تجعله يزاول مهمته في الحياة على المبدأ الذي يقوله الحق ﷻ : ﴿ **لِكَيْ لاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ** ﴾[1] .

فيظل كما قال **الرافعي** رحمه الله :

وكن رجلاً كالضرس يرسو مكانه ليمضغ لا يعنيه حلو ولا مر

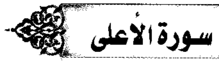
بقي بعد ذلك أن نقول : إن ذِكْر الله ﷻ مطلوب منا دائمًا ، ولكن في أماكن وأزمان ينزه اسم ربنا عن أن يذكر فيه ، كالخلاء والتغوط ؛ ولذلك فإن رسول الله ﷺ علمنا حين نخرج من الخلاء أن نقول : " **غُفْرَانَكَ** "[2] .

قيل في سبب ذلك : لأن اللحظات التي كان فيها في الخلاء كان لا يذكر اسم ربه ، فيقول : يا رب ، اغفر لي هذه الفترة التي لم أذكرك فيها ؛ ولذلك في موضع آخر يقول : " **الحمد لله**

---

1 – سورة : الحديد ، الآية : 23 .

2 – أخرجه أبو داود (28) ، والترمذي (7) ، وابن ماجه (296) ، جميعهم من حديث عائشة رضي الله عنها .



الذي أذهب عني الأذى وعافاني "[1] ..

فتصور مثلاً أن رجلاً يريد دخول الخلاء بشدة لقضاء حاجته ، ولا يجد المكان الذي يقضي فيها حاجته ، فعند قضائه حاجته ، ما أسعده بعد انتهائه ، فالفرق بين احتمال كيانه الداخلي لفضلاته ، واللحظة التي لابد لهذه الفضلات أن تخرج كبير ، فإذا لم يستطع الإنسان إخراجها فكيف يكون حاله ؟!

وهذه المسألة هي التي استغلها **ابن السماك** مع **هارون الرشيد** رحمهما الله ، فقد دخل **ابن السماك** على **الرشيد** الخليفة ، وأراد أن ينتهز فرصة يرقق بها قلبه ويذكره بالله ﷻ ، فطلب الرشيد كوبًا من ماء ، فقال له **ابن السماك** : أستحلفك بالله يا أمير المؤمنين ألا تشرب حتى أسألك .. فقال : سل .. فقال له : لو منع منك هذا الكوب من الماء ، فبكم كنت تشتريه من ملكك ؟ قال : بنصف ملكي . فقال : فإذا شربته واحتبس بداخلك ، فبكم تشتري خروجه ؟ قال : بملكي كله . فقال له **ابن السماك** : فأف لملك لا يساوي بولة ، إن ملكًا لا يساوي بولة لحقيق أن يزهد فيه .. فالإنسان عندما يشرب جرعة من الماء ، ثم يذهب ليقضي حاجته ، يقول : يا لها من نعمة ، دخلت لذة ، وخرجت سرحة ، أي : سهلة .

فقوله ﷺ : **" غفرانك "** .. إما لأنني غفلت فتركت ذكر اسمك هذه الفترة ، وإما لأنك أنعمت علي هذه النعمة ، بأن أدخلت الطعام في جوفي لذة ، ثم أخرجته بسرحة ، وبسهولة ، فأنا يا رب لم أعمل ما يوازي هذه النعمة من أعمال صالحة ، فغفرانك ربنا .

تلك هي **سورة الأعلى** ، وهذه هي حقيقة التسبيح ..

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يعلمنا من علمه ، ويكرمنا من كرمه ، ويمن علينا من جوده وفضله ، وأن ينعم علينا بتسبيحه كما يحب .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

---

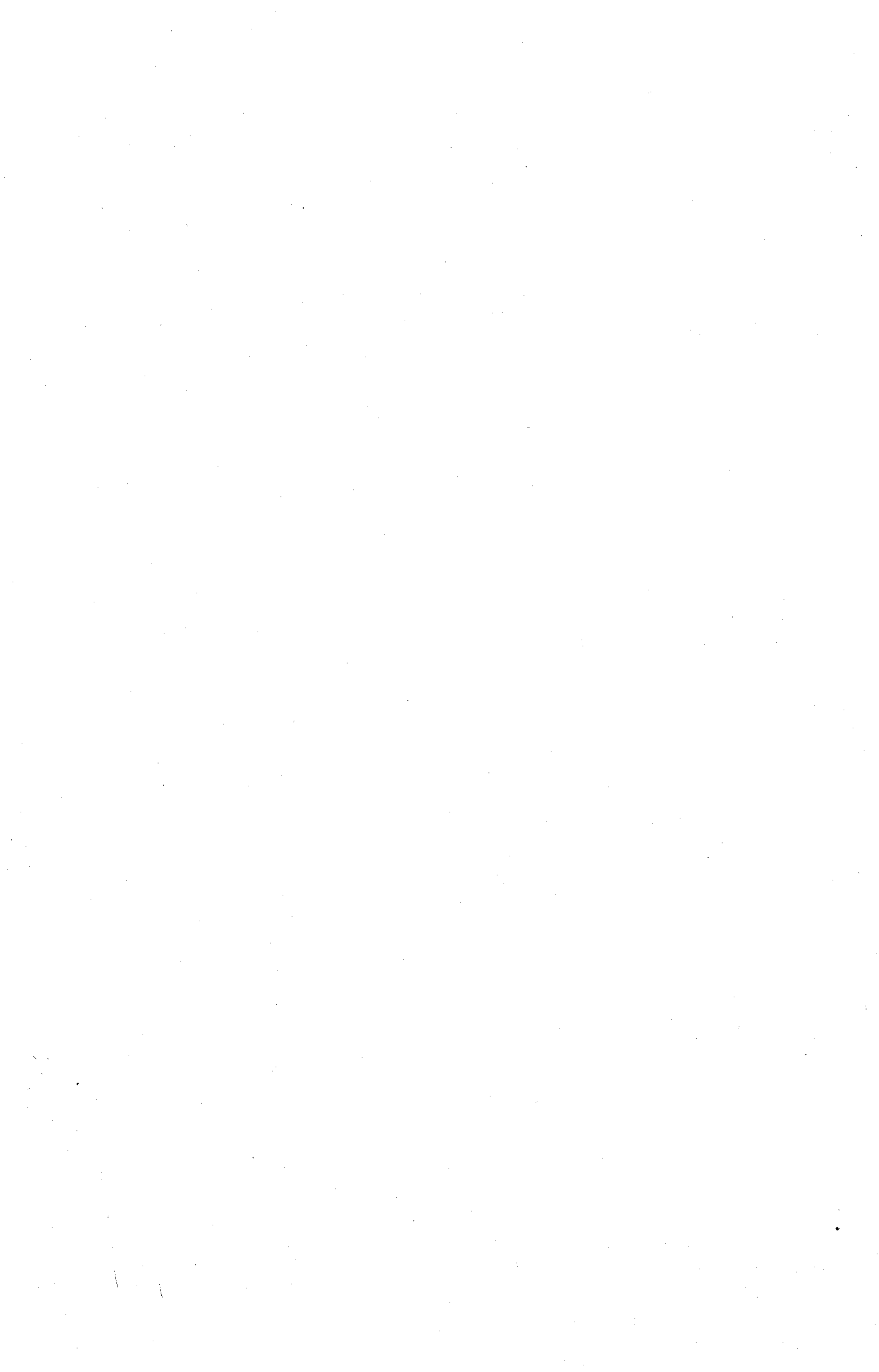
1 - أخرجه ابن ماجه عن أنس رضي الله عنه (297) .

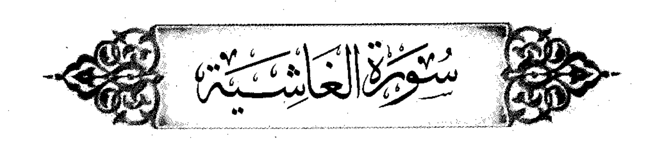




سُورَة الغَاشِيَة







أحمدك ربي على فضائل ذاتك ، وعظائم نعمائك ، وأصلي وأسلم على قمة اصطفائك ، ومسك ختامك ، سيدنا محمد ﷺ . . وبعد :

فمع **سورة الغاشية** ، تلك السورة التي جاء موضعها من الكتاب بعد **سورة الأعلى** ، وفي هذه السورة نجد أن المناسبة وثيقة بينها وبين **سورة الأعلى** ، **فسورة الأعلى** تحدثت حديثًا عن من تزكى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ [1] ، وتحدثت عن الأشقى : ﴿ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى * ثُمَّ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَا ﴾ [2] ، فكأنها تكلمت عن الإيمان ، وما ينتظر المؤمن من جزاء الله ، وتكلمت عن الكفر ، وما ينتظر الكافر من عذاب الله ، فجاءت تلك السورة أيضًا لتوضح هذا المعنى وتزيده تأكيدًا في : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴾ ، و﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴾ .

وأيضًا فقد تعرضت **سورة الأعلى** إلى مسألة التذكير : ﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ [3] ، وحين يقول الحق ﷻ لرسوله : ﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ يأتي في السورة الأخرى ليحدد له مهمته تحديدًا أساسيًا : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ ﴾ ، وبذلك يكون قد رفع العبء عن رسول الله ﷺ في أن يُعلِمه أنه مطلوب منه أن يذكِّر فقط ، وليس عليه أن يهدي ، أو أن ينتهي الناس إلى ما يقول ، بل عليه أن يذكر فقط ، فقال له :

---

1 - سورة : الأعلى ، الآية : 14 ، 15 .

2 - سورة : الأعلى ، الآية : 12 ، 13 .

3 - سورة : الأعلى ، الآية : 9 .

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ ﴾ .. ذلك فيه تخفيف من عبء الرسالة عن رسول الله ﷺ ، وتخفيف من عبء من يحملون تلك الرسالة بعد رسول الله ﷺ ، فلا يعنيهم أن يذّكر الناس أو أن لا يذّكرون ؛ لأن مهمتهم فقط هي التذكير ، وليسوا مسيطرين على الخلق ؛ ولذلك يقول الحق ﷻ في آية أخرى : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾[1] ، وكذلك : ﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى ﴾[2].

إذن فالحق ﷻ بعد أن أطلق التذكير في **سورة الأعلى** حدده بأن نتائج مهمتك تنتهي عند ذلك ، فلا تشغل بالك ، ولا تقلق ، ولا تبخع نفسك إن لم يؤمنوا . وأيضًا تكلمت **سورة الأعلى** عن منهج الفلاح ، ومنهج الفلاح مثلناه في قوله ﷻ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴾[3] ، أي طهر عقيدته ، والتزكية : هي التطهير والنماء ، ﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ ﴾[4] ، ذلك هو منهج القول في الإسلام .. ﴿ فَصَلَّى ﴾ .. وذلك منهج الحركة والعمل ، فكأن **سورة الأعلى** لخصت منهج الإسلام في أنه تصديق بالوجدان : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴾ ، وإقرار باللسان : ﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ ﴾ ، وعمل بالأركان : ﴿ فَصَلَّى ﴾ . بعد ذلك ، يتكلم الحق ﷻ في **سورة الغاشية** عن المنهج الذي يضعه البشر لنفسه ، وهو منهج قد أتعبه في حركة الحياة ، ولا يأتي له بطائل ، وإذا ما نظرنا إلى الحركة في الحياة ، وجدنا أنه حتى الذين لا يؤمنون بإله ، فإن حركتهم في الحياة متمثلة أولاً في أنه يقدر الهدف من الحركة ، فلا يمكن لإنسان أن يفعل فعلاً قبل أن يحدد الهدف من هذا الفعل ، ويجب أن يكون الهدف معوضًا لمتاعب الإنسان من حركة العمل ، ومعنى معوض : أنه يعطيه من المتعة والراحة فوق ما يأخذ العمل منه من المشقة والتعب ، فلو أن العمل يعطيك من الراحة على قدر المشقة فقط لما كان هناك ضرورة للمشقة

1 – سورة : الكهف ، الآية : 6 .

2 – سورة : عبس ، الآية : 7 .

3 – سورة : الأعلى ، الآية : 14 .

4 – سورة : الأعلى ، الآية : 15 .

أصلاً ، ولكن كل عمل يعمله العاقل لابد أن يأخذ حصيلة من عمله فوق مشقة عمله ، وبذلك يكون نجاح العمل للذين يعيشون في هذه الحياة ، فإنما يعملون ويكدون ويجتهدون ، ونقول لهم : بمقياس العقل يجب أن تحددوا نفعكم من هذا العمل بما يفوق مشقتكم في هذه الحياة ، فإذا كنتم عاملين وناصبين وفي مشقة ، فما هي النتيجة النهائية لذلك العمل ؟!

إن الحق ﷻ يعرض هذه اللمحة في قوله ﷻ : ﴿ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ * تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً ﴾ .. فكأن المعنى : فما ظنك بمن يعمل عملاً ، وينصب نصبًا ، ثم لا يجد لذلك العمل نتيجة ، ولا فائدة ، بل يجد له مضرة في أنه سيصلى نارًا حامية ، إذن ، فأساس فكرته في العمل فكرة خاطئة ، وذلك دليل حمق الحركة في الحياة .

فكأن الدين حينما جاء ، قد جاء ليجعل لحركة الإنسان في الحياة هدفًا ، وغاية ، وراحة ، تعقب التعب من العمل .

فسورة الغاشية أتت لتخدم هذه الأغراض كلها ، وعلى طريقة القرآن في عرضه للقضايا ، يعرض قضايا غيبية ، ثم يؤكدها بقضايا مشهدية ، يعني قضايا مُحَسَّة ، فينقلنا إلى الغيب بواسطة المُحَس ، **فسورة الغاشية** إذن ، جاءت لخدمة الأغراض الأساسية في **سورة الأعلى** بوضوح .

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾ .. وتبدأ السورة بهذا الاستفهام .



فننظر .. من المستفهِم ؟ ومن المستفهَم منه ؟ وما المستفهَم عنه ؟

إن المستفهِم في الخطاب هو الحق ﷻ ، والحق منزه أن يَستفهِم ليفهم ؛ لأن الأصل في الاستفهام : أن تريد فهم ما لم تعلم ، ولكن السؤال قد يرد لغير ذلك ، يرد لا ليعلم السائل ، ولكن ليقرر المسئول ؛ لأن السائل إن نطق بالحكم من عنده كان خبرًا ، ففي قول الحق ﷻ مثلاً : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾[1] ، أيستفهم الحق ﷻ من رسول الله ﷺ هل شرح له صدره أم لا ؟! وهل الحق ﷻ يحتاج لأن يستفهم أنه شرح صدر **محمد** ﷺ وهو الذي شرحه ؟!

إذن ، فحقيقة الاستفهام لا تتأتى هنا ، ولكن بدلاً من أن يقول الحق ﷻ : " **إنا شرحنا لك صدرك** " ، فيكون إخبارًا من الله ﷻ ، فإنه يدع الإخبار لمشروح الصدر ليجيب هو : " **نعم يا رب ، شرحت صدري** " ، فيكون إقرارًا منه لما فعل الحق ﷻ به ، هذا الإقرار بفعل الحق تثبيت للأمر ؛ لأن الله لو قال ذلك فربما وُجد مجادل ، ولكن مشروح الصدر نفسه هو الذي سئل وهو الذي أجاب .

إذن ، ففائدة نقل الكلام من الخبر إلى الإنشاء الاستفهامي هو : تقرير الخبر بأوضح حجة ؛ ولذلك تجد أيضًا مرتبة بلاغية ، فكان من الممكن أن يقول الحق لرسوله : أشرحت لك صدرك ؟ وتؤدي الغرض أيضًا ، ولكن الله جاء بها على طريقة النفي ؛ حتى لا يكون السؤال إيحاء بالجواب ، كما تكون قد صنعت جميلاً مع رجل ، ثم أنكر ذلك الجميل ، فتقول له : ألم أحسن إليك في كذا ؟ أو لم أحسن إليك في كذا ؟ أو لم أحسن إليك في كذا ؟ .. تأتي له بالنفي ؛ لأن الواقع يرد النفي إلى إثبات ، فهو يجد أنك لم توح إليه بالجواب ، ولم تعط له فكرة أن يجيب . إذن ، فقول الحق ﷻ : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾ لون من التقرير ، أو من التفخيم عن المسئول عنه ، كقولنا : ألم يأتك خبر كذا ؟ فكأن الخبر مهم ،

---

1 – سورة : الشرح ، الآية : 1 .

يجب أن يبحث عنه الإنسان ، ويجب أن يفتح ذهنه للجواب ، فكأن : ﴿ **هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ** ﴾ إشعار بأن ذلك أمر عظيم جدًّا يجب أن تتنبه له بكل جوارحك ، لتتلقى عنه الجواب .

ومرة يأتي السؤال من السائل لا تحقيقاً ولا تقريرًا ، وإنما يأتي إيناسًا للمسئول ، أي : أن يكون المسئول عنده رهبة ، فتريد أن تؤنسه إلى مقامك منه ، ومقامه منك ، فتأتي له بسؤال إيناسي ، كما سأل الله ﷻ نبيه **موسى** عليه السلام في قوله : ﴿ **وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى** ﴾[1] ، فقال عليه السلام : ﴿ **هِيَ عَصَايَ** ﴾[2] ، هذا سؤال إيناسي ، كما تسأل أنت الطفل الصغير عن شيء في يده ، وأنت تعرف هذا الشيء ، تريد بذلك أن تؤنسه ؛ لتسقط قناع المهابة ، فيأنس الولد منك .

وحين يخاطب الحق ﷻ **موسى** عليه السلام ، ويفاجئه بالكلام ، تجده مع ذلك يقول له : ﴿ **وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى** ﴾ .. تجد نفس طرح السؤال إيناسي ، فكان يكفي أن يقول : ما بيدك يا **موسى** ؟ إنما يقول : ﴿ **وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى** ﴾ ، والمراد أن يطيل له عمل السؤال ؛ ليطيل له أنسه بربه ، فيفطن **موسى** عليه السلام إلى أن الله يريد أن يؤنسه ، فكان يكفي **موسى** أن يقول : هي عصا ، لكن أيطيل **رب موسى لموسى** مجال الأنس ، ويقتضب **موسى** مجال الأنس ؟! كلا والله ، فقال : ﴿ **هِيَ** ﴾ .. وليس لها فائدة .. ﴿ **عَصَايَ** ﴾ .. وهذه هي التي فيها الفائدة .. ﴿ **أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي** ﴾[3] ، إذن ، فقد فطن **موسى** عليه السلام إلى أن الحق ﷻ عندما قال له : ﴿ **وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى** ﴾ ، أراد أن يؤنسه ، فأطال **موسى** عليه السلام على نفسه أمد الأنس بربه ، فلم يقل : (**عصا**) ، بل قال : (**هي**) ،

---

1 – سورة : طه ، الآية : 17 .

2 – سورة : طه ، الآية : 18 .

3 – سورة : طه ، الآية : 18 .

و(هي) في عرف الأساليب لم يكن لها فائدة ، وبعد ذلك أتى له بحكاية العصا : ﴿ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي ﴾ ، وبعد ذلك ، أدب الخطاب جعل **موسى** يفطن إلى أنه أطال مع الله ، فقال له : ﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ﴾ ، وكأن المقام لو طال ، لقص كل المآرب .

إذن ، فالاستفهام يرد لمعانٍ شتى ، فعندما يسمع رسول الله ﷺ من ربه خطابه : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾ ، يفهم أن هذه الغاشية أمر عظيم ، يجب أن يتنبه له بكل جوارحه ، ليتلقى من الحق ﷻ الجواب .

و" **الغاشية** " : هي الداهية ، تغمر الناس بأهوالها فتغشاهم ، ولا تجعل لهم منفذًا ، دواهي تأتي من كل اتجاه ، من الأمام ، ومن الخلف ، ومن اليمين ، ومن الشمال ، ومن تحت ، ومن فوق ، كما قال : ﴿ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾[1] ، ويقول في مسألة **موسى وفرعون** : ﴿ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾[2] ، ويقول الحق ﷻ في **سورة لقمان** : ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾[3] ، أي : الموت جاء لهم من كل جانب ، ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾[4] ، أرأيت دقة التصوير ؟ إن الإنسان لابد وأنه يعرف أين موقع يده ، فإذا كانت يده التي يعرف موقعها من نفسه لا يراها ، تكون : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾[5] ، إذن ، فمادة الغاشية كلها تدل على الداهية التي تغمر الإنسان من جميع النواحي ، فلا يجد منها خلاصًا ، ولا منفذًا .

وكلمة : " **غاشية** " وردت في القرآن مرة في هذه السورة ، ومرة في **سورة يوسف**

---

1 – سورة : الأعراف ، الآية : 41 .

2 – سورة : طه ، الآية : 78 .

3 – سورة : لقمان ، الآية : 32 .

4 – سورة : النور ، الآية : 40 .

5 – سورة : النور ، الآية : 40 .

ﷺ : ﴿ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ [1] ، ثم جاء من المادة الفعلية مثل : ﴿ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى ﴾ [2] ، ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴾ [3] ، وهكذا . وما دام قد قال : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾ ، فتكون الغاشية أمرًا عظيمًا ، ويجب أن ينتبه رسول الله ﷺ ؛ لأن المخاطِب له هو ربه ، ولذلك فإن رسول الله ﷺ وجد امرأة تقرأ : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾ ، فقال : " نعم جاءني " [4] .

لقد جاءه في : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ * تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً * تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ * لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ ضَرِيعٍ * لاَ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴾ .. إذن ، فكلمة الغاشية هي تلك الدواهي التي تغمر الناس ، شرحها ربنا فقال : الغاشية : هي القلوب التي تخشع ، لم تخشع اختيارًا في دنياها ، فخشعت قهرًا في أُخْرَاها ، فكان لها في دنياها اختيار أن تخشع أو لا تخشع ، أما اليوم فلم يعد لها اختيار في أن لا تخشع ؛ لأنها سلبت مكونات الاختيار ، فلم يعد لها الخيرة .

إذن .. فالمسألة ستكون قسرية على سلوك مراد للحق ، بخلاف ما كنا عليه في الدنيا ، فقد كان هناك سلوك قسري مقهورين فيه للحق ، وهو في الأعمال غير الإرادية ، و سلوك لنا فيه اختيار ، فاليوم لا يوجد ذلك .

ولذلك تجد القرآن حين تعرض للكلام عن عباد الله يقول : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا ﴾ [5] ، ثم يصف أوصاف عباد الرحمن بصفات كلها خير وتقوى ، وكذلك حين يتكلم عن الملائكة يقول : ﴿ بَلْ عِبَادٌ

---

1 – سورة : يوسف ، الآية : 107 .

2 – سورة : النجم ، الآية : 54 .

3 – سورة : الشمس ، الآية : 4 .

4 – انظر : " تفسير ابن كثير (8 / 384) ، وابن أبي حاتم (12 / 393) .

5 – سورة : الفرقان ، الآية : 63 .

مُكْرَمُونَ ﴾[1] . إذن .. فكلمة (عباد) ، هم الذين اختاروا أن يصوغوا حركة حياتهم بمنهج ربهم ، فكل الخلق عبيد ، ولكن ليس كل الخلق عبادًا ، فكل الخلق عبيد لله تعالى ، إنما العباد هم الذين قاموا بالعبادة بفعلهم الاختياري ، وأخضعوا فعلهم الاختياري لمنهج الله الذي يتضمن : افعل ولا تفعل .

وقد يورد اعتراض على هذا المعنى في آية واحدة في القرآن الكريم ، وهي قول الله عز وجل : ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ ﴾[2] ، يسأل الذين أضلوا الخلق : ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي ﴾ ، فكيف أطلقت كلمة (عبادي) هنا على أولئك الذين قد ضلوا في الدنيا ؟!

إن الحال في الآخرة لا يوجِد فرصة لأحد أن يختار ، وإنما الكل مقهور على كل تصرف ، فلم يعد لأحد اختيار في أي شيء ؛ لذلك فهم الآن عباد ، وإن لم يكونوا في الدنيا عبادًا ؛ فقد كان لهم اختيار في أن يؤمنوا أو يكفروا ، في أن يطيعوا أو يعصوا ، أما يوم القيامة فلم يعد أحد قادرًا على أن يختار في شيء .

إذن .. فمعنى : ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي ﴾ .. أنهم صاروا الآن عبادًا ؛ حيث لم يعد لأحد منهم حركة اختيارية أبدًا .

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ) .. أي : يوم تأتي الغاشية ، يأتي الحق تعالى بعد ذلك بالجواب فيقول : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴾ .. تلك الوجوه التي أبت أن تخشع لله عز وجل خشوعًا اختياريًا ، هي الآن خاشعة اضطرارًا .

﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴾ .. وهنا تظهر الخيبة ، فكما قلنا من قبل : إن كل فعل يفعله الفاعل ، أو أى حركة يقوم بها ، لابد وأن يقدر الهدف من تلك الحركة ، وأن يكون ما تدره الحركة من النفع ومن الراحة فوق ما يكون من المشقة التي بذلت فيها .. فيقول الحق تعالى : ﴿ عَامِلَةٌ

---

1 - سورة : الأنبياء ، الآية : 26 .

2 - سورة : الفرقان ، الآية : 17 .

نَاصِبَةٌ ﴾ .. ولكنها لم تأخذ من عملها إلا المشقة والنصب فقط ، فهي لم تجد نفعًا ، بل وجدت ضررًا شديدًا ، وهو الجواب الآتي بعد ذلك .

﴿ تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً ﴾ .. وانظر إلى ذلك الذي عمل ونصب لأولاده ، أو لجاهه ، أو لمركزه ، وبعد ذلك يجد عمله في الآخرة هباءً لا نفع فيه ، ويا ليته لم يجد نفعًا فقط ، بل إنه يجد ضررًا عظيمًا ، وهو دخول النار ، وذلك من حمق حركته في الحياة ؛ لأنه لم يُقدِّر كيف يتحرك الحركة التي تنجيه من النار ، وتدخله الجنة ، وفي ذلك يقول الحق ﷻ : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾[1] ، لماذا ؟ لأنهم حين عملوا تلك الأعمال في الدنيا ، لم يكن الله ﷻ في حسبانهم ، عملوا أعمالهم في الدنيا بمنطق المادة ، وللمادة فقط ، تعبوا ونصبوا ، ولكن لم يكن الله في حساباتهم ، فلم يحتسبوا تلك الأعمال عنده ﷻ ، فكيف يطلبون يوم القيامة الأجر من الله ﷻ ؟! فإنهم فعلوا ليقال : فعلوا ، وقد قيل وانتهى الأمر ، وفي ذلك يقول الحق ﷻ : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ﴾[2] ، ويضرب لهم مثلاً فيقول : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ ﴾[3] ، فقمة المفاجأة تجدها في قوله : ﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ ﴾ .. فعندها يفاجأ بوجود الله عند عمله ، فوجئ ولم يكن في باله وحسابه عندما عمله ، فكيف يطلب أجرًا ، والله ﷻ يقول : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا ﴾[4] .

﴿ تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴾ .. غليان النار الحامية هو أول ما يوحي بحرارة الجو ، وهنا قد يظن الظان أن الماء يبرده ، فيقول له : بل سيشرب ماء من عين آنية ، أي : شديدة الحرارة ،

---

1 - سورة : الفرقان ، الآية : 23 .

2 - سورة : إبراهيم ، الآية : 18 .

3 - سورة : النور ، الآية : 39 .

4 - سورة : الأحقاف ، الآية : 20 .

كما قال ﷻ : ﴿ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ﴾[1].

﴿ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ ضَرِيعٍ ﴾ .. والضريع في عرف العرب الذين نزل القرآن بلغتهم هو : مادة يسمونها " الشِّبْرِق " ، وبعضهم قال : هو " الغرقد " ، وهو نبت فيه شوك ، فإذا تم نضجه وجفَّ يكون سامًّا ، وهو نبات ترعاه الإبل وهو أخضر ، فهذا النبات هو طعامهم فى النار ، وذلك كقوله : ﴿ وَلاَ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ ﴾[2] ، وكذلك : ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الأَثِيمِ ﴾[3] ، فكأن مقامات العذاب مختلفة ، والغسلين : هو الصديد الذي يخرج من أجساد الكافرين .

إذن .. فمراتب الإيلام والتعذيب تتناسب وكلمة الغاشية ، ولذلك تجد أن الحق ﷻ قد استهل الكلام عن العصاة الداخلين في قوله : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴾ بكلمة : (الغاشية) ، فما دامت الغاشية هي الدواهي التي تلف الناس لفًّا بحيث لا تجد إليهم منفذًا للنجاة ، فالمناسب أن يأتي بالصورة التي للكفار : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴾ .. عاملة ناصبة : يحكي حالتهم في الدنيا ، وأن حركتهم في الدنيا كانت إلى بوار وهلاك ومضرة ، أو أنها أيضًا ستكون خاشعة في الآخرة ، وعاملة ، وناصبة ، نعم ، سيسحبون في الأغلال ، والقيود ، ويسيرون في وهاج جهنم ، ووديانها ، فهذه مشقات ، وعذاب فوق العذاب .

إن الحق ﷻ حينما يصور ألمًا أو عذابًا ، إنما يصور التصوير الذي تأتي به اللغة للمخاطب به ، وليس معنى ذلك أن هذه هي الكيفية الحقيقية ؛ لأن ألفاظ اللغة تأخذ معانيها من واقع إدراكات المدرك ، والصورة التي توجد أمامه .

---

1 - سورة : الكهف ، الآية : 29 .

2 – سورة : الحاقة ، الآية : 36 .

3 – سورة : الدخان ، الآية : 43 ، 44 .

فالحق ﷻ حينما يعرض لنا عذابًا أو نعيمًا في الآخرة ، فلا يعرض لنا حقيقة العذاب ، ولا حقيقة النعيم ، ولكنه يعرض لنا حقيقة العذاب في تصورنا ، وفي إمكانيات الأداء في لغتنا .

﴿ لاَ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴾ .. وذلك لئلا يتوهم البعض أن هذا الطعام من الضريع مع العذاب قد يغني من الجوع شيئًا ، فيقطع الله ﷻ الظن في ذلك بقوله : ﴿ لاَ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴾ .

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴾ .. ينتقل الحق ﷻ إلى الوجه المقابل : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴾ .. وانظر إلى الفرق الكبير والبون الشاسع بين قوله : ﴿ خَاشِعَةٌ ﴾ وما فيها من الذلة والهوان وانكسار الخاطر وتوجس الشر والمخافة من المعاصي ، كل هذه الصور المرسومة في : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴾ ، وبين قوله : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴾ .. وما فيها من نعيم ولذة ، كما شرحها في : ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ [1] ، ونضرة النعيم شيء لا تستطيع أن تصفه إلا عندما ترى رجلاً مسرورًا في نعمة ، وترى تلك النضرة في وجهه ، وله شكل ، وجاذبية تشف عما في نفسه من الرضا والمتعة والأمان والسكون والهدوء .

﴿ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴾ .. وكلمة : ﴿ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴾ ، مقابل لكلمة : ﴿ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ *

1 – سورة : المطففين ، الآية : 24 .

تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً ﴾ ، فكأنها حينما رأت الغاية من حركة حياتها ، غاية مسعدة ، غاية مرضية ، تقول : نعم المسعى ما سعيته ، ووصلت به إلى ذلك النعيم ، ولكن الأخرى : ﴿ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ * تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً ﴾ .. في المقابل تقول : بئس المسعى الذي كنت أسعاه ، كنت أعتقد أني أحقق لنفسي متعة ، فقد أكون حققت لنفسي متعة ، ولكنها متعة الحمقى ، متعة الذين يأخذون المتعة العاجلة ، وينسون المتعة الآجلة .

﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ .. والعلو قد يكون علو مكان ، وقد يكون علو منازل ، ففسر في العلو ما شئت .

﴿ لاَ تَسْمَعُ فِيهَا لاَغِيَةً ﴾ .. وانظر إلى تلك الدقة الأدائية في قول الحق ﷻ : ﴿ لاَ تَسْمَعُ فِيهَا لاَغِيَةً ﴾ ، حيث يعطيك صورة عن فساد الكون بغير منهج الإيمان ، فلو استعرضت الوجود الذي نعيش فيه ، لوجدت كل الفساد المورث للقلق ، وللاضطراب ، وللخوف ، وللبؤس ، وللشقاء ، وللتناحر ، والتزاحم ، وللصدام ، وللحروب ، كل ذلك ناشئ من أن اللغو فيه كثير .

ومعنى : " **لاغية** " : هي الشيء اللاغي ، إما لغو في عقيدة ، أو لغو في فكرة ، أو لغو في كلمة ، أو لغو في حركة حياة ، فعندما يوجد لاغية في حركة الحياة تفسد الحياة ، فيقول الحق ﷻ فى الجنة التي وعد بها المتقون : ﴿ لاَ تَسْمَعُ فِيهَا لاَغِيَةً ﴾ ، وكلمة : ﴿ لاَ تَسْمَعُ فِيهَا لاَغِيَةً ﴾ توحي بالهدوء والاستقرار والسكون والاطمئنان .

ولذلك عندما يصف الحق ﷻ المؤمنين يقول : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾[1] .. وكأن الذي يفسد الحياة على الناس هو اللغو ، فيقول لك : إن ميزة الجنة أنك : ﴿ لاَ تَسْمَعُ فِيهَا لاَغِيَةً ﴾ ، لأ الإنسان ليس حرًّا هناك ليلغو ، بل محكومًا بالمسبب الأعلى ، أما في الدنيا ، فهو محكوم

1 – سورة : المؤمنون ، الآية : 1 : 3 .

أودع الله فيه من الاختيار ، ليعرف الحق ﷻ من جاءه طواعية ، ولكن الآخرة ليس فيها لغو .

فأنت هناك تأكل وتشرب وتتمتع بالخاطر ، ومعنى ذلك أنك بمجرد ما يخطر شيء ببالك تجده ، ليس هناك عناء العمل ، فقوله : ﴿ لاَ تَسْمَعُ فِيهَا لاَغِيَةً ﴾ أي : الأمن المطلق ، وما دام وُجِدَ أَمْنٌ مطلق ، فهذا هو الهدوء ، والسكون ، أما حينما يسمرون ، أو يتفكهون ، يتفكهون بغير لهو ، ويسمرون بغير لهو .

إذن ، فميزة الحياة في الجنة أنك : ﴿ لاَ تَسْمَعُ فِيهَا لاَغِيَةً ﴾ .

﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾ .. وكلمة : ﴿ عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾ عظيمة جدًّا عند العربي ، فالذي عنده بئر من العرب فهي تكفيه ، فما بالنا بمن له عين جارية ؟! وذلك لكي تعرف أن الإنعام في الجنة ليس مسألة رد الحاجة فقط ، إنما أيضًا الاستمتاع بجريان الماء وقوته وحركته وتدفقه ، واطمئنانك إلى أن الماء ليس كمية ثابتة محدودة ، ولكنك حين ترى الماء جاريًا وممتدًّا ، يطمئنك على أن أصل الحياة موجود ؛ ولذلك تجد أن أولئك الذين يريدون أن ينعموا أنفسهم في القصور ، فبالرغم من وجود الماء عندهم إلا أنك تجده يقوم بعمل نافورة أو بركة أو قناة ، أو حتى يبني قصره على نهر جارٍ ، مما يدل على أن مجرد النظر في الماء وهو يجري ويتدفق يعطي اطمئنانًا وتنعمًا ؛ لأنه هو أصل الحياة ، وهو اطمئنان إلى أن أصل الحياة ليس عندك بقدر الحاجة والكفاية ، بل هو جار ومتدفق .

﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴾ .. وكذلك كلمة : ﴿ سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴾ لا تنظر إليها نظرة سريعة خفيفة ، فإنك لا تستطيع أن تفهمها إلا إذا علمت أن الذي يخاطب بذلك عربي ، كان ينام في الكهوف ، أو على الحصى ، أو على الأقل على الرمال ، وقد تؤذيه الآفات والحشرات ، فعندما يؤتى بتلك السرر المرفوعة عن الأرض ، فهذا من أعظم ألوان النعيم .

﴿ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴾ .. أي : مهيأة للشرب بدون أن تطلب .



﴿ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ .. وهي : الحشايا ، أو ما يفترشه الإنسان تحته ، ملفوفة ، ومنتشرة حتى ترتاح عليها ، مما يعني أن الجلسة تأخذ كل ألوان المتعة .

و (**الزرابي**) : هي التي نسميها الآن السجاجيد ، كل هذا بالمنظور العربي ، يعطي صورة من النعيم ؛ لأن العربي عندما يمتلك بيتًا ، فيبنيه ويفرشه بالسجاد والفُرُش ، ويضع الحشايا ، فهذه المسألة هي عين المتعة عنده .

أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾

انتقلنا من عالم الغيب الذي يخبرنا الله ﷻ عنه في : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴾ ، و ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴾ ، إلى مشهد من مشاهد الحياة ، مشهد أيضًا يصور بيئة العربي بكل إمكانياته ، فيقول ﷻ : ﴿ أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الأبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ ..

وكل ذلك في بيئة العربي ، فالعربي عندما يرتحل ، ليس له أنيس إلا جمله الذى يحمله ، ويحمل عنه أمتعته ، فأعطاه الله الأدلة من تلك الأشياء التي يضطر أن يتعامل معها ويصحبها معه .

﴿ أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ .. عندما تركب الإبل تنظر إلى كيفية خلقها

من حيث : قوتها ، ومن ناحية تركيب هيئتها ، فعندما تنظر إلى الجمل ، وتقارن بين أخفافه التي يمشي عليها ، وبين ما اخترع حديثًا من المطاط ، الذي يعطي لينًا عند المطبات تجد تلك الأخفاف تعمل نفس العمل ، فعندما يمشي الجمل مسافة ما ، فمهما كانت المسافة بعيدة فأنت لا تشعر بأي تعب أو مشقة بسبب الضغط الموجود في خفه ، وهو كذلك عالٍ ؛ لأنه قد يثير حصى وغبارًا كما تثير السيارات ، وعندما تنظر إلى تركيب أذنيه ، أو جحمة عينيه ، أو أسنانه ، أو إلى معدته ، فله معدتان ، وهو يمشي دائمًا في الصحراء ، وهو أكثر الحيوانات تحملاً للعطش ، فهو يصبر (عِشْرًا) – بكسر العين وسكون الشين – أي : ثمانية أيام لا يرد الماء ، أي أنها عملية تدل على القدرة والإرادة والحكمة ، وترى ذلك الحيوان الضخم يقوده طفل صغير ، كأن الله ﷻ يقول لنا : مع أن هذا الجمل ضخم ، و لكن إن تنخه يناخ ، تستنهضه يقوم ، ومن قوته أنه الحيوان الوحيد الذي لا يحتاج أن يكون قائمًا كي تحمل عليه ، بل إنك تحمل عليه ثم ينهض بحمله ، لأنك لو أردت أن تحمل عليه وهو واقف فإن في ذلك مشقة بالغة نظرًا لعلوه الشديد .

ومع أن كبد الجمل يضرب به المثل في الغلظ ، إلا أنه عندما يحدو الحادي بالنشيد الجميل ، يستخف الحداء ، ويسرع بالمشي .

وكذلك فإن الجمل قد يكون وحدة كاملة للحياة ، فيُشرب لبنه ، ويُؤكل لحمه ، ويُصنع وبره ثوبًا ، وتُصنع الخيمة من جلده ، وهي بيت العربي ، وكذلك يُشرب من لبنه وبوله للتداوي ، فعن **أنس بن مالك** ﷺ قال : " قدم أناس من عُكْل أو عُرَينة فاجتووا المدينة ، فأمرهم النبي ﷺ بلقاح ، وأن يشربوا من أبوالها وألبانها ، فانطلقوا ، فلما صحوا قتلوا راعي النبي ﷺ ، واستاقوا النعم ، فجاء الخبر في أول النهار فبعث في آثارهم ، فلما ارتفع النهار جيء بهم ، فأمر فقطعت أيديهم وأرجلهم وسملت أعينهم وألقوا في الحرة يستسقون فلا يسقون "[1].

---

1 – أخرجه البخاري (266) ومواضع أخرى ، ومسلم (3162 ، 3163) .

وبعد ذلك فلينظر الإنسان في بيدائه .. في صحرائه ، فيجد سماء وأرضًا وجبالاً ، فيلفته الله ﷻ لذلك الكون الذي يعيش فيه ، فينظر في بعيره كيف خلق ، ثم ينظر فوقه فيجد السماء ، ثم يمينًا وشمالاً فيجد الجبال ، ثم تحته فيجد الأرض ، فكأنه قد أعطى له مقومات الحياة ، أو العالم بأسره .

فكأن ﴿ **أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ** ﴾ ، كل ذلك مقومات ذلك العربي ، عندما نقله ربه إلى مشهد ، كان يجب أن يتدبر ، ويتفكر ، أن الله ﷻ قد ذلل له هذا ، مع أنه لم يذلل له أشياء أخرى ، كالثعبان مثلاً ، فعندما يرى ثعبانًا يفزع ، مع أن الجمل أكبر من الثعبان بكثير ، ولكن الله ﷻ قد ذلل له هذا ولم يذلل له ذاك ، فترك الله بعض الحيوانات ، أو الحشرات متوحشة أو غير مستأنسة ؛ لكي نلتفت إلى أن هذه الحيوانات لو لم يذللها الله ﷻ لما استطعنا أن نذللها .

ثم يطلب المرعى ، أو المنبت ، أو الكلأ ، ويطلب نزول الماء من السماء ، فتكون علاقته أيضًا بالسماء ، فينتظر منها السحاب لينزل له بعض المطر ، ويلوذ بالجبال ، والأرض من أجل المرعى .

إذن .. فالقرآن حينما عرض هذا الأسلوب ، نقل الإنسان من معنى غيبي ، وما ينتظر الشقي من عذاب في الآخرة ، وما ينتظر التقي من نعيم هناك ، فهو يريد بذلك أن يقول له : إن العاقل هو من يتنبه إلى أن تكون حركة حياته مُجدية ، وفي الكون آثار تدل على أن هذا الكون لم يخلق عبثًا ، بل خلقه يتطلب حكمة وقدرة وإرادة ، فيجب أن تتنبهوا إلى هذه الأشياء .

﴿ **فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ** ﴾ .. وفي موضع آخر قال له : ﴿ **فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى** ﴾[1] ،

---

1 – سورة : الأعلى ، الآية : 9 .

وفى موضع آخر يريد أن يحمل عنه عبء الدعوة ، فيقول له : ﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى ﴾[1] ، أنت مبلغ فقط ، وهذا لون من التيسير .

﴿ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ ﴾ .. أي : أنت لست جبارًا ، كما قال له في آية أخرى : ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ﴾[2] ، لماذا ؟

لأن الحق ﷻ لو أنزل دينًا مفروضًا من السماء لما استطاع أحـد أن يبتعد عنه ، ولجعلنا كما جعل الملائكة ، أو جعلنا كسائر الخلق لا اختيار لنا ، ولجعلنا مسخرين لمنهج لا نستطيع أن نفر منه ، ولكنه يريد أن يرى مَن الذي يعمل بمنهجه وهو مختار .

ثم لعل الذين لم يؤمنوا بمنهج **محمد** ﷺ يقـولون : إن هذا ليس مسـيطرًا علينا ، فلا نؤمن به ، وليس له علينا سلطان في الدنيا ولا في الآخرة .. فيرد الله ﷻ عليهم بأن هناك مرجعًا إلى الله .

﴿ إِلاَّ مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴾ .. أي بك يا **محمد** ، وبمنهج الله الذي بعثك به إليهم .

﴿ فَيُعَذِّبُهُ اللهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ ﴾ .. فأنا لم أخلقـهم كي يشـردوا مني ، وإنما إليَّ مرجعهم يوم القيامة فأجازيهم بما عملوا .

﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴾ .. وما دام إلينا إيابـــهم ، فمن يؤمن يؤمن ، ومن يكفر يكفر ، وأنت تذكر فقط ، وما عليك غير ذلك .

﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ .. أطلق قضية قصرية ، أي فيها أسـلوب القـصر قـوي : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ ، وحـــين يقــول الحق ﷻ : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴾ ولم يقـل : إن إيابــهم إلينا ، أو إن حسابـــهم علينا ؛ لأن هذا الأسـلوب يمكن أن يعطف عليه ، فيصح أن يقـول : إن إيابــهم إلينا ، وإلى غيرنا ، أما أن يقـدم الجار والمجرور في : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا

1 - سورة : عبس ، الآية : 7 .

2 - سورة : ق ، الآية : 45 .

إِيَابَهُمْ ﴾ ، أي : لا إياب لهم إلى غيرنا ، لا شركة ولا استقلالاً ، فإيابهم في الآخرة إلينا ؛ لأن مبدأهم كان منا بدون شريك ، فما دام المبدأ كان من الله بدون شريك ، فالمرجع يكون إليه بدون شريك ، فإذا ما وعد الله أهل النعيم بخير ، أو أوعد أهل الخسران بشرٍّ ، فمعنى ذلك أن الوعد والوعيد مؤكدان ؛ لأن الذي وعد هو القادر ، الذي بدأ وإليه نعود جميعًا .

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا دائمًا إلى أن نكون من أصحاب الوجوه الناعمة ، وألا يشغلنا لهو الحياة عن جدها ، وأن يوفقنا في كل ما نأتي وما نذر . .

إنه ولي ذلك والقادر عليه .



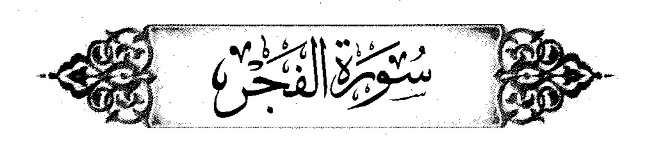






سورة الفجر





سورة الفجر

أحمدك ربي على فضائل ذاتك ، وعظائم نعمائك ، وأصلي وأسلم على قمة اصطفائك ، ومسك ختامك ، سيدنا محمد ﷺ . . وبعد :

فمع **سورة الفجر** ، وهذه السورة في عمومها حلقة من حلقات هذا الجزء في الهتاف بالقلب البشري إلى الإيمان والتقوى واليقظة والتدبر ، ولكنها تتضمن ألوانًا شتى من الجولات والإيقاعات والظلال .. ألوانًا متنوعة تؤلف من تفرقها وتناسقها لحنًا واحدًا .. متعدد النغمات .. موحد الإيقاع .

في بعض مشاهدها جمال هادئ رفيق .. ندي السمات والإيقاعات ، كهذا المطلع الندي بمشاهده الكونية الرقيقة ، وبظل العبادة والصلاة في ثنايا تلك المشاهد .. ﴿ **وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ** ﴾ .

وفي بعض مشاهدها شد وقصف .. كهذا المشهد العنيف المخيف .. ﴿ **كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا * وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا * وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى * يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي * فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلاَ يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ** ﴾ ..

وفي بعض مشاهدها نداوة ورقة ، ورضى يفيض ، وطمأنينة تتناسق فيها المناظر والأنغام ، كهذا الختام .. ﴿ **يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي**

---

* مقدمة تفسير السورة والمقطع الرابع مقتبس بتصرف من : " في ظلال القرآن " .

عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ ..

وفيها إشارات سريعة لمصارع الغابرين المتجبرين ، وإيقاعها بينَ بينَ .. بين إيقاع القصص الرخي وإيقاع المصرع القوي .. ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ .

وفيها بيان لتصورات الإنسان وقيمه غير الإيمانية ، وهي ذات لون خاص في السورة تعبيرًا وإيقاعًا .. ﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴾ .

ثم الرد على هذه التصورات ببيان حقيقة حالهم التي تنبع منها هذه التصورات ، وهي تشمل لونين من ألوان العبارة والتنغيم : ﴿ كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلاَ تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا * وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ .

ويلاحظ أن هذا اللون الأخير هو قنطرة بين تقرير حالهم وما ينتظرهم في مآلهم ، فقد جاء بعده : ﴿ كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ... ﴾ إلخ .. فهو وسط في شدة التنغيم بين التقرير الأول والتهديد الأخير .

ومن هذا الاستعراض السريع تبدو الألوان المتعددة في مشاهد السورة وإيقاعاتها في تعبيرها وفي تنغيمها ، كما يبدو تعدد نظام الفواصل وتغير حروف القوافي بحسب تنوع المعاني والمشاهد ، فالسورة من هذا الجانب نموذج وافٍ لهذا الأفق من التناسق الجمالي في التعبير القرآني . فوق ما فيها عمومًا من جمال ملحوظ مأنوس .

وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾

سورة الفجر تأتي بعد **سورة الغاشية** ، ومعنى الغاشية كما سبق : هي الشيء الذي يغمر بالأهوال ، ولا يجد الإنسان فيه منفذًا ، ويغشى : أي يغطي الأشياء ، وهنا يقول : ﴿ وَالْفَجْرِ ﴾ .. الذي هو يغشى الظلام أيضًا ويغطيه .

إذن ، هنا تقابل بين استهلال السورتين ، فسورة تأتي بالغاشية ، وسورة تأتي بالفجر .

﴿ وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ .. هنا يستهل الحق السورة بالقسم ، ولا يكتفي بقسم واحد ، بل يقسم بالفجر ، ويقسم بالليالي العشر ، ويقسم بالشفع ، ويقسم بالوتر .

فعلى أي شيء يقسم الحق سبحانه وتعالى ؟!

وكما نعلم أن الحق سبحانه وتعالى يقسم بما شاء على ما شاء ، ولكن خلقه لا يقسمون إلا به سبحانه وتعالى ، والقسم يأتي دائمًا لتأكيد المقسم عليه ، ومعنى تأكيد المقسم عليه : أن الحق يوجب الدليل في القسم ، على وقوع المقسم عليه .

فما هو المقسم عليه هنا في قوله : ﴿ وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ ؟! في حين أن الذي جاء بعدها استفهام في قوله : ﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ﴾ أي : لذي عقل .

فلنشرح أولا مفردات القسم..



﴿ وَالْفَجْرِ ﴾ .. الفجر هو : الشق الواسع ، يقال : فجرت الشيء ، أي : جعلت بـه شـقًا واسـعًا ، ولما كان ضوء النهار محتجبًا بسـواد الليل ، كان الفجر شـقًا لذلك السـواد ، ولذلك يسمونه العامود ، أي : العمود الذي يقـطع الظلام ، فيشـق شـقًا واسـعًا ؛ فلذلك سمي الفجر فجرًا .

والمادة تدل على الشق الواسـع في أي وضع كانت ؛ ولذلك يسـمي الشـرع من يخرج عن أمر ربه بالفاجر ، فجر أي : أحدث شقًا واسعًا في التزامه بمنهج الله ﷻ .

إذن .. فالمسألة كلها مرجعها إلى إيجاد الشق والهوة الواسعة ، ونظرًا لأن الفجر يأتي ليشق ظلام الليل ، سمي فجرًا ، والفجر هو الانتقـال من آية الليل إلى أولية آية النهـار ، ونأخذ من هذا عدم ثبوت الحركة الحادثة .. ليل يأتي بظلامه ، ثم يأتي فجر بعده فيشـق ذلك الظلام ، ثم تسـطع الشـمس بـنورها ، مما يدل على أن ما في الكون أحـداث ، والأحـداث متغيرة ، والحدث المتغير لابـد له من مهيمن عليه يغيره ، والتغيير إنما هو إلى الضد ، وإلى النقـيض ، فلابد أن ننظر في آيات الكون كلها وما فيها من تغيرات من نقيض إلى نقيض .

ثم بـعد ذلك نشـعر أن كلمة : (الفجر) قـد أخرجت العالم من الثبـات والسـكون إلى الحركة ، والضوء يهدينا إلى أن نتفاعل مع ما نحركه ، أو مع ما يحركنا .

فقـول الحق ﷻ : ﴿ وَالْفَجْرِ ﴾ .. يقسـم بـآية من آيات كونه ، تُخرج الكون عن ظلامه الدامس ، لتمد الناس بالنور والإشراق ، الذي يـهديهم إلى متفاعلاتهم من حركتهم في الحياة ، وكما قال الحق ﷻ : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴾ [1] ، فكأن الحق ﷻ يعطي في كونه المتقابلات ؛ ليؤدي كل متقابل دوره ، فليس معنى التقابل هو التضاد أو التناقض ، وإنما هو تقابل التكامل في الحياة .

فالفجر جاء ليؤدي مهمة في الكون ، والليل جاء أيضًا ليؤدي مهمـة في الكـون ، وليـس مـن

1 – سورة : الليل ، الآية : 1 : 4 .

صالح الكون ، ولا من صالح الإنسان ، أن يستمر الليل في ظلامه ، ولا أن يستمر النهار في ضوئه ، فكل شيء من هذه الأشياء في الكون له مهمة يؤديها ، لو أخذ رتابة في لون من الألوان ، لما وجد هذا اللون من الألوان الذي يؤيد كل زمن للحركة أو للسكون بها ؛ ولذلك يضرب لنا الحق ﷻ ذلك المثل في قوله ﷻ : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ ﴾ [1] ، ثم يأتي بالمقابل بعد ذلك فيقول : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ [2].

إذن ، فيجب على الإنسان أن ينظر إلى متقابلات ذلك الكون ، لا على أنها تناقضات للكون ، ولكن على أنها مكملات ، ومعنى مكملات : أن هذا له دور ، وذلك له دور ، فلو تعدى شيء دوره ، ما استمر أو استقام أمر الحياة .

والفجر الذي يقسم الله ﷻ به هنا ، ليس مجرد ظهور الضوء الذي يمحو آية الليل ، ولكنه هو الفجر المقرون بأمر نسكي ، تعبدي ، يبتدئ الإنسان فيه يومه باستقباله لربه ، صلاةً له ، وحضورًا في حضرته ، واستمدادًا من إمداده ، بدليل أنه قال بعدها : ﴿ وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ .

فإذا نظرنا في تلك الأقسام الأربعة ، والتي هي : (**الفجر ، والليالي العشر ، والشفع ، والوتر**) .. نجد أن رسول الله ﷺ قد فسر لنا بعض هذه الأشياء :

فالفجر : إما زمن ، وإما عبادة تشغل ذلك الزمن ، والعبادة التي تشغل ذلك الزمن تعتبر عبادة عامة ؛ لأنها استقبال أولية حركة الحياة بالإقبال على من خلق هذه الحياة ، وأنزل التكليف على الإنسان الذي له حركة في هذه الحياة ، وهو الوقت الذي يطرأ على الناس وهم

---

1 - سورة : القصص ، الآية : 71 .

2 - سورة : القصص ، الآية : 71 .

في ألذ ما يتنعمون به في حياتهم ، وهو راحة النوم .

فهذا الركن الخاص الذي يقلق الإنسان من راحته وسكونه وهدوئه ليستقبل يومه استقبالاً يبتدئه بالحضور في حضرة الله ﷻ ، ليأخذ دائمًا من إمدادات ربه ﷻ .

إذن ، فهذا أمر يقسم به ﷻ بعد أن ذكر الغاشية وما فيها من أهوال ، فكأن الذي يتنبه إلى هذه الأمور لا تأتيه الغاشية التي تحيطه بالأهوال ؛ لأن المنجى من غاشية الأهوال يوم القيامة هو أن يقبل الإنسان على منهج الله ﷻ ؛ ليبدل له هذه الغاشية ، فكأن ذلك هو التقابل .

﴿ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴾ .. وقد اختلف المفسرون فيها ، فبعضهم يرى أنها العشر الأوائل من المحرم ، وبعضهم يرى أنها العشر الأوائل من ذي الحجة ، وبعضهم يرى أنها العشر الأواخر من رمضان ، ولكن أصح ما قيل فيها – والله أعلم – أنها هي عشر ذى الحجة ، لماذا ؟! لأن عشر ذي الحجة هي الوقت الذي يستكمل الإنسان فيه منهج ربه ﷻ ، أي : التكليف ، فيستعد للحج الذي هو الركن الخامس من أركان الإسلام .

فعشر ذي الحجة هي الوقت الذي يحتشد فيه الناس لإتمام الركن الخامس من أركان الإسلام ، فكأن الإسلام بهذه الليالي ، أو بالاحتشاد فيها ، قد استوفى كل أركانه .

﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ .. يقسم الحق ﷻ بالشفع والوتر ، و(**الشفع**) هو : الزوجية ، و(**الوتر**) هو : الفرد .

إذن .. فالحق ﷻ يقسم في هذه السورة بأقسام ، كل قسم منها يرمز إلى لون من ألوان حركة التكليف التي جاءت لحركة الحياة بالنسبة للعبد المؤمن بالله ﷻ .

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ .. والليل هنا مخلوق حي ، يسري في الكون ، وكأنه ساهر يجول في الظلام ، أو مسافر يختار السرى لرحلته البعيدة .. يا لأناقة التعبير ! ويا لأنس المشهد ! ويا لجمال النغم ! ويا للتناسق مع الفجر ، والليالي العشر ، والشفع والوتر .

إنها ليست ألفاظًا وعبارات ، إنما هي أنسام من أنسام الفجر ، وأنداء مشعشعة بالعطر ،

أم إنه النجاء الأليف للقلب ؟! والهمس اللطيف للروح ؟! واللمس الموحي للضمير ؟!

إنه الجمال .. الجمال الحبيب الهامس اللطيف .. الجمال الذي لا يدانيه جمال التصورات الشاعرية الطليقة ؛ لأنه الجمال الإبداعي ، المعبر في الوقت ذاته عن حقيقة .

فهل من الممكن بعد هذا القسم أن نأخذ جوابه مما قد تقدم فى **سورة الغاشية** ؟ فيكون : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ * وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ ، أى : لتُبعَثُنَّ ، نأخذها مما تقدم ، ويكون ما تقدم هو دليل الجواب في ذلك .

أو نأخذ الجواب مما يليها ، ولا يكون جوابًا ، بل يكون دليلاً للجواب ، كيف ؟ ﴿ وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ * هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ﴾ .

﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ﴾ .. يقولون عنه : الاستفهام التقريري ، ومعناه : أن الإنسان قد يلقي قضية على مخاطبه ، فيلقيها بخبر من الأخبار ، إلا أنه خبر منه .

فالحق ﷻ لوثوقه بالخبر لا يطرحه خبرًا ، وإنما يطرحه استفهامًا ؛ لأنه ﷻ يعلم أن العقل الفطري لا يجيب إلا بجواب واحد ، فحين يقول : ﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ﴾ يكون الجواب هو : (**نعم**) .

أنت لا تلقي على مخاطب استفهامًا تقريريًّا إلا في أمر تعتقد أنه لا مندوحة أن يقول إلا ما تريده أنت ، وبدلاً من أن تقوله أنت ، فيكون خبرًا من جهتك ، يكون استفهامًا منك ، فكأنك تقرره ، كما تقول لرجل ينكر أنك عاونته في شيء : ألم أعطك كذا ؟ فأنت لم تقل له ألم أعطك كذا ، إلا وأنت واثق من أنه لا يمكن أن يكون الجواب إلا بكلمة واحدة ، هي : (**نعم**) ، ولو أن عندك ذرة شك في أنه قد يقول : لا ، لما قلت له ذلك .

فالحق ﷻ يقول : هل في ذلك قسم لذي حجر ، أي : لذي عقل ؛ لأنه يعلم تمام العلم أن



العقل الفطري حين يستقبل هذا ، لا يكون جوابه إلا : نعم ، في ذلك قسم لذي عقل .

فالأشياء التي أقسم بها الحق ﷻ قسم لذي عقل .

﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ﴾ .. وإذا تأملنا في الأسلوب ، وفي قول الحق ﷻ حينما ختم القسم بقوله : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ ، فهل الليل يسري ، أم يُسرى فيه ؟ إن الليل هو محل الإسراء ، ولكن الحق ﷻ كما جعل الليل يُدْبر ويقبل ، والصبح يتنفس ، فهذه مظاهر حياة ، كذلك يقول : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ ، وكأن الليل له غاية ينتهي إليها ، ويسير إلى هذه الغاية ، فانتقل السُّرى من السير في الليل إلى نفس الليل ، فكأن الليل له غاية ، وهو يقطع فيها إلى أن ينتهي .

إذن .. فالحق ﷻ يصور لنا المعاني تصوير الحياة ، فيقول لنا : ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾[1] ، وهل الصبح يتنفس ، أم نحن الذين نتنفس ؟! ولكنه إنما يعطي بالأمور المعنوية أمورًا يصبغها بصبغة الحياة .

فعندنا مظهرية الحياة ، الحركة وغيرها ، وكل شيء فيه حياة بحسبه ، أنت تفسر الحياة بقانونك أنت ، والحياة في الحيوان بقانون الحيوان ، وحياة النبات بقانون النبات ، وكذلك الجماد ، والمعاني ، والأشياء ، كلٌّ له حياة بقانونه .

فعندما يقول الحق ﷻ : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ ، ثم بعد ذلك يقول : ﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ﴾ ، نقول : نعم يا رب ، إن في ذلك قسمًا لذي حجر ، فتكون النتيجة : ﴿ وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ ، إن في هذه الأقسام ، ﴿ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ﴾ ، أي : هذه الأشياء يمكن أن يقسم بها لمن له عقل يتفكر ، والحجر هو العقل ؛ فإن تأملت مادة : حجر ، وعقل ، ونهى ، وجدت أن مشتقاتها كلها تدل على الحجز والمنع ، (حجر) ، أي : منع عن شيء ، وحجرك عن كذا : حجزك ، و (عقل)..

---

1 – سورة : التكوير ، الآية : 18 .

أي : عقـلك عن كذا ، أي : منعك ، و (نهى) أى : منع ، وكأن مهمة العقـل ليسـت هي انطلاق الحركة ، فمهمة العقل هي أن تعقل حـركتك ، بحيث تؤدي إلى الغاية المطلوبـة منك أداءً يحقـق لك نفعًا أكبر ، كذلك مهمة العقـل أن يحجب الغرائز المتعدية عند الإنسـان بمنهج ، ومعلوم أنه هناك غرائز لازمة ، وغرائز متعدية ، فالغريـزة اللازمـة : غريـزة تـؤدي المهمة التي من أجلها وُجِدت الغريزة ، بحيث لا تحمل الغريزة أمرًا زائدًا عن ما أُعِدت لـه ، فمثلاً الحيوان يحب أن يأكل ، لكن إذا ما أدى مهمة أكله وشبـع ، فلا يمكن أن يأكل أي شيء زائد عن طاقته .

أما الغريزة المتعدية : فهى التى تعدت المطلوب منها ، كغريزة حـب الطعام عند الإنسـان واشتهائه له بالرغم من شبعه .

والحيوان مثلاً عنده غريزة حـب النوع ، وهي الغريزة التناسـلية ، وهي غريزة لازمة عنده ؛ لأنه بمجرد أن تحمل الأنثى ، لا يقترب الذكر منها ، لكن الإنسان يجامع المرأة حتى الوضع ، فتكون هذه الغريزة متعدية ، أي : ليست لحفظ النوع ، بل جعلها متعة ذاتية .

إذن .. فشـهوة الإنسـان غريزة متعدية ، فيأتي العقـل فيحـجب هذه الغرائز المتعدية بمنهج ، لماذا ؟ لأن الحيوان ليس له اختيار ، أما الإنسان فمخلوق على هيئة فيها الاختيار ، فالعقل الإنساني يختار بين البديلات ، أما الحيوان فليس له اختيار .

إذن .. فوظيفة العقل هي أن يعقـل حـركة الإنسـان ، من عقـلت البـعير ، أي : منعته عن الحركة .

إذن ، فكل غريزة لها وظيفة مخلوقـة لها ، ثم يأتي المنهج لكي يوقـفه عند موجبـات هذه الغريزة ، حتى لا تكون غريزة متعدية .

إذن ، فكل مادة العقـل تعمل كاللجام ، أي : كابحة ، حـتى لو أن العقـل عقـل متحـرر وقوي ، فمعنى العقل : أنه يعقل حركتك لكي تكون حـركة منضبـطة مع منهج الخالق ، وهو

افعل ، ولا تفعل ، فالحق ﷻ يقول : لو أنكم استقرأتم هذه الأقسام ، وجدتم أن فيها مقنعًا للقسم : ﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ﴾ .

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ .. لما تكلم الحق ﷻ عن الغاشية وأهوالها ، وأنها تكتنف الناس ، ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴾ [1] ، ربما ظن ظان أن الله ﷻ يجعل كل الجزاء في الآخرة ، وقد يستبطئ ناس الآخرة ، وقد لا يؤمن ناس بالآخرة ، فلابد من وضع حد للطغيان في الكون ، فيكون هناك أشياء لا تؤجل للآخرة ، بل يكون الاعتبار بها في الدنيا أيضًا ، فقال ﷻ لنا : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴾ .. أتى لنا بأعلام لهم تاريخ معروف ومعلوم ومتداول ، كان لهم من الامتداد العمراني ، والرقي الحضاري ، والتمكين في الأرض ، ثم بعد ذلك انهارت كل تلك الحضارات قاطبة وانتهت بأجمعها ، وعندما يقول القرآن : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ .. فالخطاب أولاً لرسول الله ﷺ ، ثم يشمل كل من يتأتى بعد ذلك .

وكلمة : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ معناها : أن ذلك أمر عرف للنبي ﷺ وعرف للمعاصرين لنزول هذه

1 - سورة : الغاشية ، الآية : 2 ، 3 .

الآية ، وإلا فلو لم يكن تاريخًا معلومًا ومتعارفًا لاعترضوا على هذه الحكاية لعدم علمهم بها .

فلا يقول الحق ﷻ : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ ﴾ إلا لأمر متعارف معلوم ، وقع في الكون ، والاستدلال بواقع الكون المخالف لمنهج الله ، يدل على أننا يجب أن نصدق ما لم يقع تحت حسنا في كون الله ؛ لأن الله ﷻ أخبر به ، فيكون إخبار الله لنا أوثق من حواسنا .

إذن .. فالمخالفة للمنهج السماوي يكون له لون من الجزاء الدنيوي ، ولون من الجزاء الأخروي .

فلكي لا يستبطئ الناس الآخرة ، يقول لهم : حتى في الدنيا ، لله أيضًا قَدَرٌ يجري على من انحرف وبغى ؛ لكي نعتبر، فالذي لا يؤمن بغيب الوعد ، ولا بغيب الوعيد ، يؤمن بمشهد الواقع .

وكلمة : (**ألم تر**) يعني : (**ألم تعلم**) ، فيكون المعنى : ألم تصلك النسبة التي أسندت في الأخبار الآتية ، وهي ثمود ، وعاد ، وفرعون .

وعلة العدول عن (**ألم تعلم**) إلى (**ألم تر**) هي أنه قد يعلمك إنسان بأمر هو غيب عنك ، ولكنه يستطيع أن يدلل عليه دليلاً عقليًا يقينيًا ، ومع ذلك يظل الأمر غيبًا عنك ، ولكنه إن نقلك إليه نقلاً مشهديًا فإنه بذلك يكون قد جعله واقعًا عندك ، كمن يخبرك مثلاً عن جبال الهمالايا ، وأن فيها أعلى قمة جبل في العالم ، وهو جبل إفرست ، فهذا الكلام في ذاته واقع ، ولكنه يظل غيبًا بالنسبة لك ، حتى تذهب أنت وترى بنفسك ، فتكون بذلك قد أخذت الأمر مشهديًا بعد أن كنت أخذته خبرًا .

فمعنى : (**ألم تر**) .. هو نقل الإنسان من علم يقيني بالخبر إلى عين الشيء ، أي أنك قد أصبحت معاينًا له .

فحين يستبدل الحق ﷻ كلمة : (**ألم تعلم**) بـ (**ألم تر**) ، فإنه بذلك يريد أن يقول : إنك إذا علمت علمًا أعلمكه الله ﷻ فإنك بذلك تكون وكأنك قد رأيته رؤيا عين ، فاعلم أن يقينك



به يجب أن يكون يقين المستقبل لما رأى ، لا يقين المستقبل لما سمع .

فيكون خبر الله إليك أوثق من معاينتك ورؤيتك للأشياء ؛ لأن عينك قد تخدع ، لكن ربك سبحانه وتعالى لن يخدعك .

إذن .. فكل أمر من الأمور يؤكده الحق سبحانه وتعالى فيأتي بـ : (ألم تر) ، فيقول : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾[1] ، وأنا يا رب لا أرى الذين يسجدون في السماء ، ولا كل الذين يسجدون في الأرض ، لكن ربنا قال ، وما مدام ربنا قد قال ، فيكون ذلك عِلمًا لا خبرًا ، أي : علم كأنك أنت رأيته .

ولذلك نقول : إن إخبار الله عز وجل عن أمر غيبي ، يجب أن يرتقي إلى مستوى ما تراه عينك ، (**وليس مع العين أين**) .

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ .. وعاد تذكر في الأحقاف : ﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ ﴾[2] ، وهي في جنوب الجزيرة بين عدن وحضرموت ، وإلى الآن لم نهتدِ إلى شيء من آثارها ، ولكن ثمود ، ومدائن صالح ، عرفنا منها شيئًا ، ورأينا كيف حفروا الجبال وبنوا البيوت ، وما أشبه ذلك .

وفرعون شهدنا حضارته أو ما يدل عليها ، ولا ينطمس علينا إلى الآن إلا قصة عاد ، لا نعرف عنها شيئًا ، إلا من خبر القرآن عنها ، ويجوز أن يكون من مُضِيِّ الزمن ؛ لأنها بلاد رمال ، ويحدّثون أن عاصفة الرمل تهب فتطمر قافلة بأكملها ، فإذا كانت العاصفة الواحدة تدمر قافلة بأكملها ، فيكون مع توالي العصور قد حدث طمر لهذه المعالم ، سواء كانت ذات العماد ، أي : المباني التي لها عُمد ومرتفعة ، كما يقولون عنها في التاريخ ، ويجوز أن يكون القدر الذي وجد في أذهان المعاصرين للقرآن كان متوارثًا تاريخيًا من الآباء ، ولم يكونوا قد رأوا

---

1 - سورة : الحج ، الآية : 18 .

2 - سورة : الأحقاف ، الآية : 21 .

شيئًا من معالمهم .

لكن صِدْق الحق الذي يتجلى فيما بقي لنا من آثار ، يشهد أيضًا لنا بتصديقه فيما خفي عنا من آثار .

﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ .. أعطانا الله ﷻ صورة حضارية متمكنة من المادة ، ومدام لم يخلق مثلها في البلاد ، فمعنى ذلك أنها كانت الدولة الأولى في العالم .

﴿ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴾ .. جابوا أي : قطعوا الصخر ، لكي يبنوا به البيوت ، والتماثيل ، وما شابه ذلك .

﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴾ .. وهي على الأرجح الأهرامات ، التي تشبه الأوتاد الثابتة في الأرض المتينة البنيان ، وفرعون هو ذلك الطاغية الجبار ، الذي كان بطغيانه يذبح الأبناء ، ويعذب الآباء .

﴿ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴾ .. يقول : إن العيب فيهم ليس لأنهم وصلوا لذلك الرقي والحضارة : ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴾ ، إنما انصباب اللعنة عليهم جاء بسبب الطغيان ، ذلك الطغيان الذي كان سببه التفوق في ماديات الحياة .

إذن .. فالعيب عليهم ليس لأنها ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ بل تبقى إرم ذات العماد هي .. ﴿ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴾ .

لكن ينبغي أن لا يتسبب عن ذلك الرقي المادي في حركة الحياة وفي حضارتها طغيان .

إذن .. فالمعيب هو طغيان الحركة ، لا الحركة في ذاتها ، ارتقِ في مادتك كما تحب ، واستنبط من أسرار الوجود ما يجعلك في رفاهية من الحياة مما أحل الله ، ولكن لا يجب أن



يكون تفوقنا في الحياة وسيلة من وسائل الطغيان ؛ لأن هذا الطغيان يؤدي إلى الفساد ، والله لا يدع هذا الفساد ، بل يأخذ أخذ عزيز مقتدر ، ويصب على الطغاة من العذاب ، لماذا ؟ لكي يعطي صورة في الوجود ، صورة : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ .

إذن .. فالآيات حينما عرضت ، عرضت في مقدمتها حضارات ، هذه الحضارات كانت متفوقة ، ومتميزة ، ونحن شهدنا آثار تلك الحضارات ، وعرفنا عنها أشياء يعجز عصرنا بما أوتي من نشاطات ذهنية وابتكارية في الكون أن يصل إلى هذه المسألة ، فلا يزالون في حيرة في بناء الأهرام ، وكيف رفعت هذه الأحجار ؟! وكيف وضعت في هذا الموضع ؟! وكيف وصلوا إلى هذا المستوى العالي في الهندسة ؟! فإلى الآن هي محل عجب من العقول المعاصرة .

فتصور لو أن هذه الحضارات لم تؤخذ أخذ عزيز مقتدر من جذورها ، كيف كانت تصل بعد هذه الآلاف من السنين ؟! لابد أنها كانت تصل إلى مراحل كبيرة ، إنما انقطاع أخبارها عنا ، يدل على أن الحق ﷻ حينما أخذهم ، أخذهم أخذ عزيز مقتدر ، ولم يترك حتى ما يدل على كيفية وصول أصحاب هذه الحضارات إلى ما وصلوا إليه .

﴿ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴾ .. عندما يتناول الحق ﷻ المعنى فإنه ﷻ يعطي المعنى شمولية العطاء ، فيقول : ﴿ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴾ .. و(**الطغيان**) : هو تجاوز الحد ، و(**الفساد**) : هو إخراج الأمر الصالح عن صلاحه ؛ لأن الأمور قد تكون صالحة في نفسها ، ولا يُطلب منك إلا شيء واحد ، وهو ألا تعمد إلى الصالح في ذاته فتفسده .

كلمة الطغيان : تجاوز ، وتجاوز الحد معناه : أن هناك مقادير للأمور ، وهناك من يريد تجاوز تلك المقادير والاستعلاء عليها ، وبالطبع لا يمكن أن يوجد مستعلٍ إلا إذا وجد مستعلى عليه .

ومعنى الاستعلاء : أنك تريد استطراقًا عكسيًا ، والاستطراق العكسي عكس الاستطراق

الإيماني المطلوب منك كمنهج إيماني ، أن يوجد استطراق منك ، أي : من قوتك لضعفك ، من غناك لفقرك ، من علمك لجهلك ، هذا هو الاستطراق الإيماني ، والرزق الذي عندك تعطي منه المحروم من ذلك الرزق .

وأما الاستطراق الثاني فبالعكس ، فيكون الرجل قويًّا ، ولكنه يريد أن يأخذ حركة الضعيف لصالحه ، وقد يكون الرجل غنيًّا ، ولا يعطي الفقير حقه حتى يزداد غنىً ، وهو يزيد فقرًا .

فتكون بذلك ما حققت الاستطراق : ﴿ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ﴾ [1] ، والطغيان ليس بأنك تركته على حاله فلم تعطه ولم تظلمه ، بل حاولت أن تستطرق من الضعف إلى القوة .

إذن .. فهذا لون من الفساد المركب ؛ لأنك لو تركته على ضعفه من غير أن تمده بقوتك ، فهذا ظلم ، فما بالك لو أردت أن تأخذ من طاقة ضعفه زيادة في قوتك أنت ، فهذا طغيان ، فيكون : ﴿ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴾ ، وحين أصبح الوضع بهذا الشكل ، فلابد أن يتدخل الذي في السماء ﷻ ، ولا يتدخل ﷻ طالما توجد في الإنسان نفس رادعة ، أي : نفس لوامة ، فمن ليس عنده نفس لوامة ، بل نفسه أمّارة بالسوء ، فهناك مجتمع يُقَوِّمه ، فإذا لم توجد النفس اللوامة – الردع الذاتي – ولم يوجد المجتمع المقوِّم – الردع الخارجي – ، فيجب أن يتدخل رب الأرض والسماء ، وذلك حين لا يوجد الردع الذاتي ، ولا الردع الاجتماعي .

وهذا هو الفارق بين أمة الإسلام وبين غيرها من الأمم ، فقد كان كل رسول من الرسل السابقين غير مطلوب منه أنه يؤدب الخارجين عن المنهج ، بل حينما يطغى الكافرون أمام أي منهج رسالي ، تُرسل الصيحة ، أو الزلزلة ، أو الطوفان ، أو غير ذلك من ألوان العذاب ،

---

1 – سورة : النحل ، الآية : 71 .

ولكن ذلك الوضع لم يختلف إلا في الإسلام ؛ لأن الله ﷻ أرسل رسوله مهيمنًا على الأديان كلها ، حتى يكونوا هو وأمته مقومين لمنهج الانحراف في الأرض .

ولذلك تجد أن خاصية الردع الاجتماعي لم تنطمس أبدًا عند المسلمين ، فلابد أن يوجد أهل خير في أمة الإسلام .

لأن الأمم قبل الإسلام كان من الممكن أن تنطمس وتندرس ، أما في أمة الإسلام فقد قال ﷺ : **" لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك "** [1] ، وهذا لأن المسلمين ، أو أتباع **محمد** ﷺ الذين آمنوا برسالته ، امتداد لرسالته ﷺ .

فهذه هي ميزة الإسلام ، وعلى ذلك آمن رسول الله ﷺ ، وآمن المؤمنون برسول الله ﷺ على أن يحملوا حملة التأسيس للبشر ، حينما يخالفون منهج الله ، جهادًا في سبيل الله ، وضربًا على أيدي العابثين ، وتذكيرًا لهم دائمًا بمنهج الله ؛ ولذلك تجد أن الحق ﷻ حمَّل أمة الإسلام نفس التحميل لرسول الله ﷺ : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [2].

إذن .. فكما أن رسول الله ﷺ يشهد أنه بلغنا ، وأنه أقامنا على المحجة ، مطلوب منكم يا من آمنتم به ، أن تشهدوا على الناس بأنكم بلغتموهم ، وأنكم أقمتموهم على المحجة .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ .. وكلمة : المرصاد توحي بالترصد والترقب ، فلا تظنوا أنكم انفلتم من الله ﷻ ، وأنكم تصرفتم في كون الله هذا التصرف ، وسخر لكم ما في الأرض ليكون تحت طوعكم وإشارتكم ونشاطكم ، فلا تظنوا أنكم انفلتم عن الله ، فإن ربكم بالمرصاد ، يرصد تحركاتكم ، ولأن ربنا هو الذي يرصد تحركاتنا فأي حركة تخالف منهج الحق ﷻ هي حركة محسوبة ومقدرة ، إن شاء عجل الله بها في الدنيا ، وإن شاء ادخرها إلى الآخرة .

---

1 - أخرجه البخاري عن المغيرة بن شعبة (6767) ، ومسلم من حديث ثوبان (3544) .

2 - سورة : البقرة ، الآية : 143 .

فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ﴿٢٠﴾

ثم يتحدث الحق ﷻ عن خطأ معايير الناس في استقبال أوامر الحق في الخلق ، فيقول لهم : أنتم تأخذون المقاييس بالعقل ، وأنا أريد أن أعدل لكم المقاييس ، فإذا عدلت لكم المقاييس التي تزنون بها أموركم أمكن لحركتكم أن تسير على هدى ، إنما الذي يجعل حركتكم لا تسير على هدى هو أن المقاييس نفسها التي تردون إليها وزن حركاتكم مقاييس خاطئة .

﴿ **فَأَمَّا الإنسان إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ** ﴾ .. فأتى بصورتين من صور الحياة ، صورة لإنسان موسع عليه في رزقه ، وصورة لإنسان مضيق عليه في رزقه ، فالإنسان الموسع عليه يظن أن هذه السعة إكرام من الله عليه ، والمضيق عليه يظن أن هذا التضييق إهانة من الله له ، فنقول له : أنت في هذه المقاييس خلطت بين شيئين ، خلطت بين الامتحان وبين النتيجة ، فإيتاء المال امتحان ، والتقتير في إيتاء المال امتحان أيضًا ، والنتيجة النهائية تتأتى على تصرفك تجاه هذا الامتحان .

إذن .. فإيتاء المال نفسه ليس نتيجة النجاح ، كلا ، فما زال هذا امتحانًا ؛ لذلك جمع الله



ﷻ بين الأمرين في الابتلاء فقال : ﴿ فَأَمَّا الإنسان إِذَا مَا ابْتَلاَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ ﴾ ، ثم : ﴿ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ ﴾ .. فالصورتان الظاهرتان ليستا نتيجة نجاح ، بل كلاهما امتحان .

﴿ كَلاَّ بَلْ لاَ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴾ .. يرد الله ﷻ على الاثنين فيقول : ﴿ كَلاَّ ﴾ ، أي : أنت خاطئ في هذه ، وأنت أيضًا خاطئ في تلك ، فلا الذي أنعم الله عليه دليل إكرام ، ولا الذي ضيق الله عليه دليل إهانة ، وأنا سأبين لكم السبب : حين يؤتي الله إنسانًا مالاً ، فهذا المال تكون فيه حقوق .. كيف يكتسب ، وكيف يُستغل ويُنفق ، فالله تجاوز عن مرحلتين ، وتكلم عن المرحلة الأخيرة ، وهي مرحلة المصرف .

﴿ وَلاَ تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ .. هل من لديه مال يتصرف فيه تصرفًا صحيحًا ؟ هل تحض على طعام المسكين ؟ هل تكرم اليتيم ؟ أعطانا الله صورتين من صور البؤس والشقاء ، فيقول : ﴿ كَلاَّ بَلْ لاَ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلاَ تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ ، هذا في المصرف ، فإذا كنت في مصرفك للمال غير موفق ، فكيف يكون إيتاء المال الذي أنت غير موفق في مصرفه إكرامًا لك ؟! بل هو امتحان لكي يرى ماذا تعمل فيه .

﴿ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَمًّا * وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ ، أي : تركة الرجل ، يأخذها القوي ، ويترك الضعيف ، هذا في أخذ المال ، فكيف إذا كان أخذ المال أساسًا بهذا الشكل ، ومصرفه بهذا الشكل ، فلا توفيق لكم في شيء ، فكيف تظن يا من أوتيت مالاً أن هذا إكرام لك ، إنما هو ابتلاء .

ويا من مُنع عنه المال ، لا تظن أن منع المال عنك إهانة ، فلو نظرت لمن قال الله ﷻ فيه : ﴿ وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾[1] ، أو لمن قال فيه : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ

---

1 - سورة : آل عمران ، الآية : 180 .

وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّه فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ ﴾ [1] ، فعندما أمنعك من هذا المال ، أكون قد أهنتك أم حملتك على أن تكون ذا عذر في الوجود ؟ فقد تكون ممن يرسب في الامتحان ، فلعلي حرمتك منه رحمة بك .

وبعد ذلك يطلق الحق صور هذا الوجود ، لنعرف أن كثيرًا من الأغنياء لم يوفقوا ، لا في أخذ أموالهم ، ولا في استغلال أموالهم ، ولا في مصرف أموالهم . فحين تتأكد لنا هذه القضية ، نقول : إذن ، فإيتاء المال ليس دليل إكرام من الله ، ومنع المال ليس دليل إهانة من الله ، فكلا الأمرين ابتلاء واختبار ، فمن شكر نعمة الله ﷻ نجح في الاختبار ، ومن لا فلا .

أسأل الله ﷻ أن نكون ممن نجحوا في كلا الابتلاءين .. المال والتقتير ..

كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾

وعند هذا الحد من فضح حقيقة حالهم المنكرة ، بعد تصوير خطأ تصورهم في الابتلاء بالمنع والعطاء .. يجيء التهديد الرعيب بيوم الجزاء وحقيقته ، بعد الابتلاء ونتيجته ، في إيقاع

1 – سورة : التوبة ، الآية : 34 ، 35 .

شـــــديد : ﴿ كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا * وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا * وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الـــذِّكْرَى * يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي * فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلاَ يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴾ .

﴿ كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴾ .. ودَكُّ الأرض : تحطيم معالمها وتســـويتها ، وهو أحد الانقلابات الكونية التي تقع في يوم القيامة .

﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ .. وأما مجيء ربـــك والملائكة صفًّا صفًّا ، فهو أمر غيبي لا ندرك طبيعته ونحن في هذه الأرض ، ولكنا نحس وراءه التعبير بالجلال والهول .

﴿ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ﴾ .. والمجـيء بجهنـم أيضًا يوحي بذلك الجلال والرهبة ، ونأخذ منه قربـها منهم ، وقـرب المعذبـين منها وكفى ، وأما حقيقة ما يقع وكيفيته فذلك من غيب الله المكنون ليومه المعلوم .

إنما يرتسـم من وراء هذه الآيات ، ومن خلال إيقـاعها الحاد التقسيم .. الشـديد الأسر ، مشهد ترجف له القـلوب ، وتخشـع له الأبـصار .. إذ الأرض تدك دكًّا دكًّا ، والجبـار المتكبر يتجلى ويتولى الحكم والفصل ، ويقف الملائكة صفًّا صفًّا ، ثم يجاء بجهنم فتقـف متأهبـة هي الأخرى .

﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ ﴾ .. ذلك الإنسان الذي غفل عن حكمة الابتلاء بالمنع والعطاء ، والذي أكل التراث أكلاً لمًّا ، وأحـب المال حـبًّا جمًّا ، والذي لم يكرم اليتيم ، ولم يحض على طعام المســكين ، والذي طغى وأفســـد وتولى .. يومئذ يتذكر .. يتذكر الحق ويتعظ بما يرى ، ولكن لقـد فات الأوان ﴿ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ﴾ .. ولقـد مضى عهد الذكرى ، فما عادت تجدي هنا في دار الجزاء أحـــدًا ، وإن هي إلا الحســـرة الكبرى على فوات الفرصة في دار العمل في الحياة الدنيا .

﴿ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾ .. حـــين تتجلى له هذه الحقيقـــة .. ﴿ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي

قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾ .. يا ليتني قدمت شيئًا لحياتي هنا ، فهي الحياة الحقيقية التي تستحق اسم الحياة ، وهي التي تستأهل الاستعداد والتقدمة والادخار لها .. يا ليتني .. أمنية فيها الحسرة الظاهرة ، وهي أقسى ما يملكه الإنسان في الآخرة .

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلاَ يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴾ .. يصور مصيره بعد الحسرة الفاجعة ، والتمنيات الضائعة : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلاَ يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴾ .. إنه الله القهار الجبار ، الذي يعذب يومئذ عذابه الفذ الذي لا يملك مثله أحد ، والذي يوثق وثاقه الفذ الذي لا يوثق مثله أحد ، وعذاب الله ﷻ ووثاقه يفصلهما القرآن في مواضع أخرى في مشاهد القيامة الكثيرة المنوعة في ثنايا القرآن كله ، ويجملهما هنا حيث يصفهما بالتفرد بلا شبيه من عذاب البشر ووثاقهم ، أو عذاب الخلق جميعًا ووثاقهم ، وذلك مقابل ما أسلف في السورة من طغيان الطغاة ممثلين في عاد وثمود وفرعون ، وإكثارهم من الفساد في الأرض ، مما يتضمن تعذيب الناس وتقييدهم بالقيود والأغلال ، فها هو ذا ربك أيها النبي وأيها المؤمن يعذب ويوثق من كانوا يعذبون الناس ويوثقونهم ، ولكن شتان ما بين عذاب وعذاب ، ووثاق ووثاق .. وهان ما يملكه الخلق من هذا الأمر ، وجل ما يفعله صاحب الخلق والأمر ، فليكن عذاب الطغاة للناس ووثاقهم ما يكون ، فسيعذبون هم ويوثقون ، عذابًا ووثاقًا وراء التصورات والظنون .

وفي وسط هذا الهول المروع ، وهذا العذاب والوثاق ، الذي يتجاوز كل تصور تنادى النفس المؤمنة من الملأ الأعلى : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ ..

هكذا في عطف وقرب : ﴿ يَا أَيَّتُهَا ﴾ .. وفي روحانية وتكريم : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ ﴾ .. وفي ثناء وتطمين : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ .

ثم في وسط الشد والوثاق ، الانطلاق والرخاء : ﴿ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ ﴾ .. ارجعي إلى





مصدرك بعد غربة الأرض ، وفرقة المهد .. ارجعي إلى ربك بما بينك وبينه من صلة ومعرفة ونسبة : ﴿ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ .. بهذه النداوة التي تفيض على الجو كله بالتعاطف وبالرضى .

﴿ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴾ .. المقربين المختارين لينالوا هذه القربى .

﴿ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ .. في كنفي ورحمتي .

إنها عطفة تنسم فيها أرواح الجنة منذ النداء الأول : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ .. المطمئنة إلى ربها .. المطمئنة إلى طريقها .. المطمئنة إلى قدر الله بها .. المطمئنة في السراء والضراء ، وفي البسط والقبض ، وفي المنع والعطاء .. المطمئنة فلا ترتاب .. والمطمئنة فلا تنحرف .. والمطمئنة فلا تتلجلج في الطريق .. والمطمئنة فلا ترتاع في يوم الهول الرعيب .

ألا إنها الجنة بأنفاسها الرضية الندية ، تطل من خلايا هذه الآيات ، وتتجلى عليها طلعة الرحمن الجليلة البهية .

نسأل الله عز وجل أن يمن علينا بهذا النداء يوم ينادى علينا ،

وأن يرزقنا الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل ،

وأن يجنبنا النار وما قرب إليها من قول أو عمل .





تفسير جزء عم

سُورَةُ البَلَد





سورة البلد

أحمدك ربي على فضائل ذاتك، وعظائم نعمائك، وأصلي وأسلم على قمة اصطفائك، ومسك ختامك، سيدنا محمد ﷺ . . وبعد :

فمع **سورة البلد** ، وهذه السورة في عمومها حلقة من حلقات هذا الجزء في الهتاف بالقلب البشري إلى الإيمان والتقوى واليقظة والتدبر ، ولكنها تتضمن ألوانًا شتى من الجولات والإيقاعات والظلال .. ألوانًا متنوعة تؤلف من تفرقها وتناسقها لحنًا واحدًا .. متعدد النغمات .. موحد الإيقاع .

تضم هذه السورة القصيرة جناحيها على حشد من الحقائق الأساسية في حياة الكائن الإنساني ذات الإيحاءات الدافعة واللمسات الموحية ، حشد يصعب أن يجتمع في هذا الحيز الصغير في غير القرآن الكريم ، وأسلوبه الفريد في التوقيع على أوتار القلب البشري بمثل هذه اللمسات السريعة العميقة .

---

* تفسير السورة مقتبس بتصرف من : "في ظلال القرآن" .





لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ۝٤ أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ ۝٥ يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧ أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ۝٨ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ ۝٩ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ۝١٠ فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ۝١٤ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ۝١٥ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ۝١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ۝١٧ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ۝١٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ۝١٩ عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ۝٢٠

تبدأ السورة بالتلويح بقسم عظيم ، على حقيقة في حياة الإنسان ثابتة :

﴿ **لاَ أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ * لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ** ﴾ .. والبلد هو مكة .. بيت الله الحرام .. أول بيت وضع للناس في الأرض ؛ ليكون مثابة لهم وأمنًا ، يضعون عنده سلاحهم وخصوماتهم وعداواتهم ، ويلتقون فيه مسالمين حرامًا بعضهم على بعض ، كما أن البيت وشجره وطيره وكل حي فيه حرام ، ثم هو بيت **إبراهيم** والد **إسماعيل** أبي العرب والمسلمين أجمعين .

ويكرم الله نبيه **محمدًا** ﷺ فيذكره ويذكر حله بهذا البلد وإقامته فيه ، بوصفها ملابسة تزيد هذا البلد حرمة ، وتزيده شرفًا ، وتزيده عظمة ، وهي إيماءة ذات دلالة عميقة في هذا

المقام ، والمشركون يستحلون حرمة البيت ، فيؤذون النبي ﷺ والمسلمين فيه ، والبيت كريم ، ويزيده كرمًا أن النبي ﷺ حل فيه مقيمًا ، وحين يقسم الله ﷻ بالبلد والمقيم بـه ، فإنه يخلع عليه عظمة وحرمة فوق حرمته ، فيبدو موقف المشركين الذين يدعون أنهم سدنة البيت وأبناء **إسماعيل** وعلى ملة **إبراهيم** ، موقفًا منكرًا قبيحًا من جميع الوجوه .

ولعل هذا المعنى يرشح لاعتبار : ﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴾ .. إشارة خاصة إلى **إبراهيم** ، أو إلى **إسماعيل عليهما السلام** ، وإضافة هذا إلى القسم بالبلد والنبي المقيم بـه ، وبـانيه الأول وما ولد .. وإن كان هذا الاعتبـار لا ينفي أن يكون المقـصود هو : والد وما ولد إطلاقًا .. وأن تكون هذه إشارة إلى طبيعة النشأة الإنسانية ، واعتمادها على التوالد ، تمهيدًا للحديث عن حقيقـة الإنسان التي هي مادة السورة الأساسية .

وفي هذا الموضع يقول **الشيخ محمد عبده** :

" ثم أقسم بوالد وما ولد ، ليلفت نظرنا إلى رفعة قـدر هذا الطَور من أطوار الوجود ، وهو طور التوالد ، وإلى ما فيه من بـالغ الحكمة وإتقـان الصنع ، وإلى ما يعانيه الوالد والمولود في إبـداء النشء وتكميل الناشئ ، وإبلاغه حده من النمو المقـدر له .. فإذا تصورت في النبـات كم تعاني البـذرة في أطوار النمو .. من مقـاومة فواعل الجو ، ومحاولة امتصاص الغذاء مما حـولها من العناصر ، إلى أن تستقيم شجرة ذات فروع وأغصان ، وتستعد إلى أن تلد بـذرة أو بـذورًا أخرى تعمل عملها ، وتزين الوجود بجمال منظرها ، إذا أحـضرت ذلك في ذهنك ، والتفت إلى ما فوق النبـات من الحيوان والإنسـان ، حـضر لك من أمر الوالد والمولود فيهما ما هو أعظم ، ووجدت من المكابدة والعناء الذي يلاقـيه كل منهما في سبـيل حـفظ الأنواع ، واستبقـاء جمال الكون بصورها ما هو أشد وأجسم " .

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ .. يقسم الحق ﷻ هذا القسم على حقيقة ثابتة في حـياة الكائن الإنسـاني : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ .. في مكابـدة ومشقـة ، وجهد وكد ،



وكفاح وكدح .. كما قال في موضع آخر : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيه ﴾[1].

فالخلية الأولى لا تستقر في الرحم حتى تبدأ في الكبد والكدح والنصب ؛ لتوفر لنفسها الظروف الملائمة للحياة والغذاء بإذن ربها ﷻ ، وما تزال كذلك حتى تنتهي إلى المخرج ، فتذوق من المخاض – إلى جانب ما تذوقه الوالدة – ما تذوق ، ثم ما يكاد الجنين يرى النور حتى يكون قد ضغط ودفع حتى كاد يختنق في مخرجه من الرحم .

ومنذ هذه اللحظة يبدأ الجهد الأشق والكبد الأمر ، يبدأ الجنين ليتنفس هذا الهواء الذي لا عهد له به ، ويفتح فمه ورئتيه لأول مرة ليشهق ويزفر في صراخ يشي بمشقة البداية ، وتبدأ دورته الهضمية ودورته الدموية في العمل على غير عادة ، ويعاني في إخراج الفضلات حتى يروض أمعاءه على هذا العمل الجديد ، وكل خطوة بعد ذلك كبد ، وكل حركة بعد ذلك كبد ، والذي يلاحظ الوليد عندما يهم بالحبو وعندما يهم بالمشي يدرك كم يبذل من الجهد العنيف للقيام بهذه الحركة الساذجة .

وعند بروز الأسنان كبد .. وعند انتصاب القامة كبد .. وعند الخطو الثابت كبد .. وعند التعلم كبد .. وعند التفكر كبد .. وفي كل تجربة جديدة كبد كتجربة الحبو والمشي سواء .

ثم تفترق الطرق ، وتتنوع المشاق ، هذا يكدح بعضلاته ، وهذا يكدح بفكره ، وهذا يكدح بروحه ، وهذا يكدح للقمة العيش وخرقة الكساء ، وهذا يكدح ليجعل الألف ألفين وعشرة آلاف ، وهذا يكدح لملك أو جاه ، وهذا يكدح في سبيل الله ، وهذا يكدح لشهوة ونزوة ، وهذا يكدح لعقيدة ودعوة ، وهذا يكدح إلى النار ، وهذا يكدح إلى الجنة .. والكل يحمل حمله ويصعد الطريق كادحًا إلى ربه فيلقاه ، وهناك يكون الكبد الأكبر للأشقياء ، وتكون الراحة الكبرى للسعداء .

إنه الكبد .. طبيعة الحياة الدنيا ، تختلف أشكاله وأسبابه ، ولكنه هو الكبد في النهاية ،

---

1 – سورة : الانشقاق ، الآية : 6 .

فأخسر الخاسرين هو من يعاني كبد الحياة الدنيا لينتهي إلى الكبد الأشقِّ الأمرِّ في الأخرى ، وأفلح الفالحين من يكدح في الطريق إلى ربه ليلقاه بمؤهلات تنهي عنه كبد الحياة ، وتنتهي به إلى الراحة الكبرى في ظلال عرش الله ﷻ.

على أن في الأرض ذاتها بعض الجزاء على ألوان الكدح والعناء ، فالذي يكدح للأمر الجليل ليس كالذي يكدح للأمر الحقير .

والذي يكدح وهو طليق من أثقال الطين ، أو للانطلاق من هذه الأثقال ، ليس كالذي يكدح ليغوص في الوحل ويلتصق بالأرض كالحشرات والديدان ، والذي يموت في سبيل دعوة ليس كالذي يموت في سبيل نزوة ، ليس مثله في خاصة شعوره بالجهد والكبد الذي يلقاه .

وبعد تقرير هذه الحقيقة عن طبيعة الحياة الإنسانية يناقش بعض دعاوى الإنسان وتصوراته التي تشي بها تصرفاته ..

﴿ أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ * يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَدًا * أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴾ .. إن هذا الإنسان المخلوق في كبد ، الذي لا يخلص من عناء الكدح والكد ، لينسى حقيقة حاله وينخدع بما يعطيه خالقه من أطراف القوة والقدرة والوجدان والمتاع ، فيتصرف تصرف الذي لا يحسب أنه مأخوذ بعمله ، ولا يتوقع أن يقدر عليه قادر ليحاسبه ، فيطغى ويبطش ، ويسلب وينهب ، ويجمع ويكثر ، ويفسق ويفجر ، دون أن يخشى أو أن يتحرج .. وهذه هي صفة الإنسان الذي يعرى قلبه من الإيمان .

﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَدًا ﴾ .. ثم إنه إذا دعي للخير والبذل في مثل المواضع التي ورد ذكرها في السورة .. ﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَدًا ﴾ .. وأنفقت شيئًا كثيرًا فحسبي ما أنفقت وما بذلت .

﴿ أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴾ .. وينسى أن عين الله ﷻ عليه ، وأن علمه محيط به ، فهو يرى ما أنفق ، ولكن هذا الإنسان كأنما ينسى هذه الحقيقة ، ويحسب أنه في خفاء عن عين الله ﷻ.



وأمام هذا الغرور الذي يخيل للإنسان أنه ذو منعة وقوة ، وأمام ضنه بالمال وادعائه أنه بذل الكثير ، يجابهه القرآن بفيض الآلاء عليه في خاصة نفسه ، وفي صميم تكوينه ، وفي خصائص طبيعته واستعداداته ، تلك الآلاء التي لم يشكرها ولم يقم بحقها عنده ..

﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ .. إن هذا الإنسان يغتر بقوته ، في حين أن الله ﷻ هو المنعم عليه بهذا القدر من القوة .. ثم هو يضن بالمال ، مع أن الله ﷻ هو المنعم عليه بهذا المال .. ولا يهتدي ولا يشكر ، وقد جعل له من الحواس ما يهديه في عالم المحسوسات .

جعل له عينين على هذا القدر من الدقة في تركيبهما وفي قدرتهما على الإبصار ، وميزه بالنطق ، وأعطاه أداته المحكمة .. ﴿ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴾ .. ثم أودع نفسه خصائص القدرة على إدراك الخير والشر ، والهدى والضلال ، والحق والباطل .. ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ .. ليختار أيهما شاء ، ففي طبيعته هذا الاستعداد المزدوج لسلوك أي النجدين ، والنجد هو الطريق المرتفع ، وقد اقتضت مشيئة الله ﷻ أن تمنحه القدرة على سلوك أيهما شاء ، وأن تخلقه بهذا الازدواج طبقًا لحكمة الله في الخلق ، وإعطاء كل شيء خلقه ، وتيسيره لوظيفته في هذا الوجود .

وهذه الآية تكشف عن حقيقة الطبيعة الإنسانية ، كما أنها تمثل قاعدة (النظرية النفسية الإسلامية) هي والآيات الأخرى في **سورة الشمس** : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ [1] .

هذه الآلاء التي أفاضها الله على الجنس الإنساني في خاصة نفسه ، وفي صميم تكوينه ، والتي من شأنها أن تعينه على الهدى .. عيناه بما تريان في صفحات هذا الكون من دلائل القدرة وموحيات الإيمان ، وهي معروضة في صفحات الكون مبثوثة في حناياه ، ولسانه

---

1 - سورة : الشمس ،الآية : 7 : 10 .

وشفتاه وهما أداة البيان والتعبير ، وعنهما يملك الإنسان أن يفعل الشيء الكثير .

والكلمة أحيانًا تقوم مقام السيف والقذيفة وأكثر ، وأحيانًا تهوي بصاحبها في النار كما ترفعه أو تخفضه في هذه النار .. كما ورد في الحديث عن معاذ بن جبل قال :

كنت مع النبي ﷺ في سفر فأصبحت يومًا قريبًا منه ونحن نسير ، فقلت : يا نبي الله .. أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار ، قال : **" لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه : تعبد الله ولا تشرك به شيئًا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت "** .. ثم قال : **" ألا أدلك على أبواب الخير ؟! الصوم جُنَّة ، والصدقة تطفئ الخطيئة ، وصلاة الرجل في جوف الليل "** .. ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ .. حتى بلغ : ﴿ يَعْمَلُونَ ﴾[1] ، ثم قال : **" ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟! "** فقلت : بلى يا رسول الله .. قال : **" رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد "** .. ثم قال : **" ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟! "** .. فقلت له : بلى يا نبي الله ، فأخذ بلسانه ، فقال : **" كُفَّ عليك هذا "** .. فقلت : يا رسول الله ، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟! فقال : **" ثكلتك أمك يا معاذ ، وهل يكب الناس على وجوههم في النار – أو قال على مناخرهم – إلا حصائد ألسنتهم "**[2] .

وهدايته إلى إدراك الخير والشر ، ومعرفة الطريق إلى الجنة والطريق إلى النار ، وإعانته على الخير بهذه الهداية .

هذه الآلاء كلها لم تدفع هذا الإنسان إلى اقتحام العقبة التي تحول بينه وبين الجنة ، هذه العقبة التي يبينها الله له في هذه الآيات ..

﴿ فَلاَ اقْتَحَمَ العَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا العَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ *

---

1 – سورة : السجدة ، الآية : 16 ، 17 .

2 – أخرجه أحمد (21008 ، 21054) ، والترمذي (2541) ، وابن ماجه (3963) .

يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَة * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَة * ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَة * أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَة ﴾ ..

هذه هي العقبة التي يقتحمها الإنسان ، إلا من استعان بالإيمان ، هذه هي العقبة التي تقف بينه وبين الجنة .. لو تخطاها لوصل ، وتصويرها كذلك حافز قوي ، واستجاشة للقلب البشري ، وتحريك له ليقتحم العقبة ، وقد وضحت ووضح معها أنها الحائل بينه وبين هذا المكسب الضخم .. ﴿ فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾ .. ففيه تحضيض ودفع وترغيب .

ثم تفخيم لهذا الشأن وتعظيم : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴾ .. إنه ليس تضخيم العقبة ، ولكنه تعظيم شأنها عند الله ﷻ ؛ ليحفز به الإنسان إلى اقتحامها وتخطيها ، مهما تتطلب من جهد ومن كبد ، فالكبد واقع واقع ، وحين يبذل لاقتحام العقبة يؤتي ثمره ويعوض المقتحم عما يكابده ، ولا يذهب ضياعًا وهو واقع واقع على كل حال .

ويبدأ كشف العقبة وبيان طبيعتها بالأمر الذي كانت البيئة الخاصة التي تواجهها الدعوة في أمسِّ الحاجة إليه .. فك الرقاب العانية ، وإطعام الطعام ، والحاجة إليه ماسة للضعاف الذين تقسو عليهم البيئة الجاحدة المتكالبة ، وينتهي بالأمر الذي لا يتعلق ببيئة خاصة ولا بزمان خاص ، والذي تواجهه النفوس جميعًا ، وهي تتخطى العقبة إلى النجاة ..

﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَة ﴾ ..

وقد ورد أن فك الرقبة هو المشاركة في عتقها ، وأن العتق هو الاستقلال بهذا ، وأيًّا ما كان المقصود فالنتيجة الحاصلة واحدة .

وقد نزل هذا النص والإسلام في مكة محاصر ، وليست له دولة تقوم على شريعته ، وكان الرق عامًّا في الجزيرة العربية ، وفي العالم من حولها ، وكان الرقيق يعامَلون معاملة قاسية على الإطلاق ، فلما أن أسلم بعضهم **كعمار بن ياسر** وأسرته ، **وبلال بن رباح** ، **وصهيب** .. وغيرهم ﷺ جميعًا .. اشتد عليهم البلاء من سادتهم العتاة ، وأسلموهم إلى تعذيب لا يطاق ،

رِبدا أن طريق الخلاص لهم هو تحريرهم بشرائهم من سادتهم القساة ، فكان **أبو بكر** رضي الله عنه هو لسابق كعادته دائمًا إلى التلبية والاستجابة في ثبات وطمأنينة واستقامة .

قال **ابن إسحاق** : وكان **بلال** مولى **أبي بكر رضي الله عنهما** لبعض بني جمح مولدًا من مولديهم ، وكان صادق الإسلام ، طاهر القلب ، وكان **أمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح** يخرجه إذا حميت الظهيرة ، فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة ، ثم يأمرهم بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر **بمحمد** وتعبد اللات والعزى .. فيقول وهو في ذلك البلاء : أحد أحد .

حتى مر به **أبو بكر الصديق** رضي الله عنه يومًا وهم يصنعون ذلك به ، وكانت دار **أبي بكر** في بني جمح ، فقال **لأمية بن خلف** : ألا تتقي الله في هذا المسكين ؟! قال : أنت الذي أفسدته ، فأنقذه مما ترى .. فقال **أبو بكر** : أفعل ، عندي غلام أسود أجلد منه وأقوى ، على دينك أعطيكه به .. قال : قد قبلت .. قال : هو لك .. فأعطاه **أبو بكر الصديق** رضي الله عنه غلامه ذلك وأخذه وأعتقه .

ثم أعتق معه على الإسلام قبل أن يهاجر إلى المدينة ست رقاب ، بلال سابعهم .. **عامر بن فهيرة** (شهد بدرًا ، وقتل يوم بئر معونة شهيدًا) ، **وأم عبيس** ، **وزنيرة** (وأصيب بصرها حين أعتقها ، فقالت قريش : ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى .. فقالت : كذبوا والله ما تضر اللات والعزى وما تنفعان .. فرد الله بصرها) ، وأعتق **النهدية** وابنتها ، وكانتا لامرأة من بني عبد الدار ، فمر بهما وقد بعثتهما سيدتهما بطحين لها وهي تقول : والله لا أعتقكما أبدًا . فقال **أبو بكر** رضي الله عنه حلٌ يا أم فلان (أي تحللي من يمينك) .. فقالت : حل ، أنت أفسدتهما فأعتقهما .. قال : فبكم هما ؟ قالت : بكذا وكذا .. قال : قد أخذتهما ، وهما حرتان . أرجعا إليها طحينها . قالتا : أو نفرغ منه يا **أبا بكر** ثم نرده إليها ؟ قال : ذلك إن شئتما .

ومر بجارية بني مؤمل ، وهي من بني عدي ، وكانت مسلمة ، وكان عمر بن الخطاب يعذبها لتترك الإسلام وهو يومئذ مشرك وهو يضربها ، حتى إذا مل قال : إني أعتذر إليك ، إني لم أتركك إلا ملالة .. فتقول : كذلك فعل الله بك .. فابتاعها أبو بكر فأعتقها .

قال ابن إسحاق : قال أبو قحافة والد أبي بكر لأبي بكر : يا بني إني أراك تعتق رقابًا ضعافًا ، فلو أنك إذ فعلت ما فعلت أعتقت رجالاً جُلدا يمنعونك ويقومون دونك .. قال : فقال أبو بكر رضي الله عنه : يا أبت إني إنما أريد ما أريد لله .

لقد كان رضي الله عنه يقتحم العقبة وهو يعتق هذه الرقاب العانية لله عز وجل ، وكانت الملابسات الحاضرة في البيئة تجعل هذا العمل يذكر في مقدمة الخطوات والوثنيات لاقتحام العقبة في سبيل الله عز وجل .

﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ ..

والمسغبة هي : المجاعة ، ويوم المجاعة الذي يعز فيه الطعام هو محك لحقيقة الإيمان ، وقد كان اليتيم يجد في البيئة الجاهلية المتكالبة الخسف والغبن ، ولو كان ذا قربى ، وقد حفل القرآن بالوصية باليتيم ، مما يدل على قسوة البيئة من حول اليتامى ، وظلت هذه الوصايا تتوالى حتى في السور المدنية بمناسبة تشريعات الميراث والوصاية والزواج ، كما في سورة النساء خاصة ، وكذلك في سورة البقرة ، وغيرهما .

وكذلك إطعام المسكين ذي المتربة أي اللاصق بالتراب من بؤسه وشدة حاله في يوم المسغبة يقدمه السياق القرآني خطوة في سبيل اقتحام العقبة ، لأنه محك للمشاعر الإيمانية من رحمة وعطف وتكافل وإيثار ، ومراقبة لله في عياله ، في يوم الشدة والمجاعة والحاجة ، وهاتان الخطوتان : فك الرقاب وإطعام الطعام كانتا من إيحاءات البيئة الملحة ، وإن كانت لهما صفة العموم ، ومن ثم قدمها في الذكر ، ثم عقب بالوثبة الكبرى الشاملة ..

﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾ ..

و ﴿ ثُمَّ ﴾ هنا ليست للتراخي الزمني ، إنما هي للتراخي المعنوي باعتبار أن هذه الخطوة هي الأشمل والأوسع نطاقًا والأعلى أفقًا ، وإلا فما ينفع فك رقاب ولا إطعام طعام بلا إيمان ، فالإيمان مفروض وقوعه قبل فك الرقاب وإطعام الطعام ، وهو الذي يجعل للعمل الصالح وزنًا في ميزان الله ﷻ ؛ لأنه بمنهج ثابت مطرد ، فلا يكون الخير فلتة عارضة ترضية لمزاج متقلب ، أو ابتغاء محمدة من البيئة أو مصلحة .

وكأنما قال : ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ .. وفوق ذلك .. ﴿ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾ .. فكلمة : ﴿ ثُمَّ ﴾ هنا لإفادة معنى الفضل والعلو .

والصبر هو العنصر الضروري للإيمان بصفة عامة ، ولاقتحام العقبة بصفة خاصة ، والتواصي به يقرر درجة وراء درجة الصبر ذاته .. درجة تماسك الجماعة المؤمنة ، وتواصيها على معنى الصبر ، وتعاونها على تكاليف الإيمان ، فهي أعضاء متجاوبة الحس ، تشعر جميعًا شعورًا واحدًا بمشقة الجهاد لتحقيق الإيمان في الأرض وحمل تكاليفه ، فيوصي بعضها بعضًا بالصبر على العبء المشترك ، ويثبت بعضها بعضًا فلا تتخاذل ، ويقوي بعضها بعضًا فلا تنهزم ، وهذا أمر غير الصبر الفردي ، وإن يكن قائمًا على الصبر الفردي ، وهو إيحاء بواجب المؤمن في الجماعة المؤمنة ، وهو ألا يكون عنصر تخذيل ، بل عنصر تثبيت ، ولا يكون داعية هزيمة ، بل داعية اقتحام ، ولا يكون مثار جزع ، بل مهبط طمأنينة .

وكذلك التواصي بالمرحمة ، فهو أمر زائد على المرحمة ، إنه إشاعة الشعور بواجب التراحم في صفوف الجماعة عن طريق التواصي به ، والتحاض عليه ، واتخاذه واجبًا جماعيًا فرديًا في الوقت ذاته ، يتعارف عليه الجميع ، ويتعاون عليه الجميع .

فمعنى الجماعة قائم في هذا التوجيه ، وهو المعنى الذي يبرزه القرآن كما تبرزه أحاديث رسول الله ﷺ لأهميته في تحقيق هذا الدين ، فهو دين جماعة ، ومنهج أمة ، مع وضوح التبعة الفردية والحساب الفردي فيه وضوحًا كاملاً .



﴿ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ .. أولئك الذين يقتحمون العقبة كما وصفها القرآن وحددها هم .. ﴿ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ .. وهم أصحاب اليمين ، كما جاء في مواضع أخرى ، أو أنهم أصحاب اليُمن والحظ والسعادة .. وكلا المعنيين متصل في المفهوم الإيماني .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴾ ..

ولم يحتج هنا إلى ذكر أوصاف أخرى لفريق المشأمة غير أن يقول : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا ﴾ .. لأن صفة الكفر تنهي الموقف ، فلا حسنة مع الكفر ، ولا سيئة إلا والكفر يتضمنها أو يغطي عليها ، فلا ضرورة للقول بأنهم الذين لا يفكون الرقاب ولا يطعمون الطعام ، ثم هم الذين كفروا بآياتنا ، فإذا كفروا فما هو بنافعهم شيء من ذلك حتى لو فعلوه .

وهم أصحاب المشأمة .. أي أصحاب الشمال ، أو هم أصحاب الشؤم والنحس .. وكلاهما كذلك قريب في المفهوم الإيماني ، وهؤلاء هم الذين بقوا وراء العقبة لم يقتحموها .

﴿ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴾ .. أي مغلقة .. إما على المعنى القريب .. أي أبوابها مغلقة عليهم ، وهم في العذاب محبوسون ، وإما على لازم هذا المعنى القريب ، وهو أنهم لا يخرجون منها ، فبحكم إغلاقها عليهم لا يمكن أن يزايلوها ، وهذان المعنيان متلازمان .

هذه هي الحقائق الأساسية في حياة الكائن الإنساني ، وفي التصور الإيماني ، تعرض في هذا الحيز الصغير بهذه القوة وبهذا الوضوح .. وهذه هي خاصية التعبير القرآني الفريد .

نسأل الله ﷻ أن يلهمنا رشدنا ، وأن يقينا شرور أنفسنا ، وأن يقربنا من الجنة ، وأن يباعدنا عن النار .

إنه ولي ذلك والقادر عليه .

والحمد لله رب العالمين .

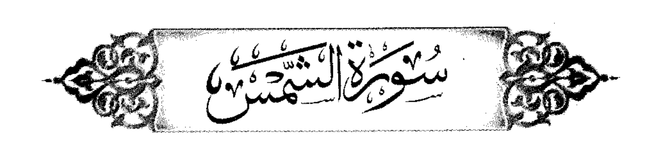




سورة الشمس







أحمدك ربي على فضائل ذاتك ، وعظائم نعمائك ، وأصلي وأسلم على قمة اصطفائك ، ومسك ختامك ، سيدنا محمد ﷺ . . وبعد :

فمع **سورة الشمس** ، هذه السورة القصيرة ذات القافية الواحدة ، والإيقاع الموسيقي الموحد ، تتضمن عدة لمسات وجدانية تنبثق من مشاهد الكون وظواهره التي تبدأ بها السورة ، والتي تظهر كأنها إطار للحقيقة الكبيرة التي تتضمنها السورة .. حقيقة النفس الإنسانية ، واستعداداتها الفطرية ، ودور الإنسان في شأن نفسه ، وتبعته في مصيرها .. هذه الحقيقة التي يربطها سياق بحقائق الكون ، ومشاهده الثابتة .

كذلك تتضمن قصة ثمود ، وتكذيبها بإنذار رسولها ، وعقرها للناقة ، ومصرعها بعد ذلك وزوالها ، وهي نموذج من الخيبة التي تصيب من لا يزكي نفسه ، فيدعها للفجور ، ولا يلزمها تقواها : كما جاء في الفقرة الأولى في السورة : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ .

* تفسير السورة مقتبس بتصرف من : " في ظلال القرآن " .





وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾

يقسم الله تعالى بهذه الخلائق والمشاهد الكونية ، كما يقسم بالنفس وتسويتها وإلهامها ، ومن شأن هذا القسم أن يخلع على هذه الخلائق قيمة كبرى ، وأن يوجه إليها القلوب تتملاها ، وتتدبر ماذا لها من قيمة ، وماذا بها من دلالة ، حتى استحقت أن يقسم بها الجليل العظيم تعالى .

ومشاهد الكون وظواهره إطلاقًا بينها وبين القلب الإنساني لغة سرية متعارف عليها في صميم الفطرة وأغوار المشاعر ، وبينها وبين الروح الإنسانية تجاوب ومناجاة بغير نبرة ولا صوت ، وهي تنطق للقلب ، وتوحي للروح ، وتنبض بالحياة المأنوسة للكيان الإنساني الحي ، حيثما التقى بها وهو مقبل عليها ، متطلع عندها إلى الأنس والمناجاة والتجاوب والإيحاء .

ومن ثم يكثر القرآن من توجيه القلب إلى مشاهد الكون بشتى الأساليب ، في شتى المواضع .. تارة بالتوجيهات المباشرة ، وتارة باللمسات الجانبية كهذا القسم بتلك الخلائق والمشاهد ، ووضعها إطارًا لما يليها من الحقائق ، وفي هذا الجزء بالذات لاحظنا كثرة هذه التوجيهات واللمسات كثرة ظاهرة ، فلا تكاد سورة واحدة تخلو من إيقاظ القلب لينطلق إلى هذا الكون ، يطلب عنده التجاوب والإيحاء ، ويتلقى عنه بلغة السر المتبادل ما ينطق به من دلائل ، وما يبثه من مناجاة .

﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾ .. وهنا نجد القسم الموحي بالشمس وضحاها ، بالشمس عامة ، وحين تضحى وترتفع عن الأفق بصفة خاصة ، وهي أروق ما تكون في هذه الفترة وأحلى ، في الشتاء يكون وقت الدفء المستحب الناعش ، وفي الصيف يكون وقت الإشراق الرائق قبل وقدة الظهيرة وقيظها ، فالشمس في الضحى في أروق أوقاتها وأصفاها ، وقد ورد أن المقصود بالضحى هو النهار كله ، ولكنا لا نرى ضرورة للعدول عن المعنى القريب للضحى . وهو ذو دلالة خاصة كما رأينا .

﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا ﴾ .. وبالقمر إذا تلاها ، إذا تلا الشمس بنوره اللطيف الشفيف الرائق الصافي ، وبين القمر والقلب البشري ودٌّ قديم موغل في السرائر والأعماق ، غائر في شعاب الضمير ، يترقرق ويستيقظ كلما التقى به القلب في أية حال .

وللقمر همسات وإيحاءات للقلب ، وسبحات وتسبيحات للخالق ، يكاد يسمعها القلب الشاعر في نور القمر المنساب .. وإن القلب ليشعر أحيانًا أنه يسبح في فيض النور الغامر في الليلة القمراء ، ويغسل أدرانه ، ويرتوي ، ويعانق هذا النور الحبيب ، ويستروح فيه روح الله .

﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا ﴾ .. ويقسم بالنهار إذا جلاها ، مما يوحي بأن المقصود بالضحى هو الفترة الخاصة لا كل النهار ، والظاهر أن الضمير في : ﴿ جَلاَّهَا ﴾ يعود إلى الشمس المذكورة في السياق ، ولكن الإيحاء القرآني يشي بأنه ضمير هذه البسيطة ، وللأسلوب القرآني إيحاءات جانبية كهذه مضمرة في السياق لأنها معهودة في الحس البشري ، يستدعيها التعبير استدعاء خفيًا ، فالنهار يجلي البسيطة ويكشفها ، وللنهار في حياة الإنسان آثاره التي يعلمها ، وقد ينسى الإنسان بطول التكرار جمال النهار وأثره ، فهذه اللمسة السريعة في مثل هذا السياق توقظه وتبعثه للتأمل في هذه الظاهرة الكبرى .

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴾ .. وهذا مثال آخر .. والتغشية هي مقابل التجلية ، والليل غشاء



يضم كل شيء ويخفيه ، وهو مشهد له في النفس وقع ، وله في حياة الإنسان أثر كالنهار سواء .

﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ .. ثم يقسم الحق ﷻ بالسماء وبنائها .. و ﴿مَا﴾ هنا مصدرية ، ولفظ السماء حين يذكر يسبق إلى الذهن هذا الذي نراه فوقنا كالقبة حيثما اتجهنا ، تتناثر فيه النجوم والكواكب السابحة في أفلاكها ومداراتها ، فأما حقيقة السماء فلا ندريها ، وهذا الذي نراه فوقنا متماسكًا لا يختل ولا يضطرب تتحقق فيه صفة البناء بثباته وتماسكه ، أما كيف هو مبني ، وما الذي يمسك أجزاءه فلا تتناثر وهو سابح في الفضاء الذي لا نعرف له أولاً ولا آخرًا ، فذلك ما لا ندريه ، وكل ما قيل عنه مجرد نظريات قابلة للنقض والتعديل ، ولا قرار لها ولا ثبات ، إنما نوقن من وراء كل شيء أن يد الله ﷻ هي تمسك هذا البناء : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾[1] ، وهذا هو العلم المستيقن الوحيد .

﴿وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾ .. يقسم كذلك بالأرض وطحوها .. والطحو كالدحو : البسط والتمهيد للحياة ، وهي حقيقة قائمة تتوقف على وجودها حياة الجنس البشري وسائر الأجناس الحية ، وهذه الخصائص والموافقات التي جعلتها يد الله ﷻ في هذه الأرض هي التي سمحت بالحياة فيها وفق تقديره وتدبيره ، وحسب الظاهر لنا أنه لو اختلت إحداها ما أمكن أن تنشأ الحياة ولا أن تسير في هذا الطريق الذي سارت فيه .. وطحو الأرض أو دحوها كما قال في الآية الأخرى : ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾[2] ، وهو أكبر هذه الخصائص والموافقات ، ويد الله وحدها هي التي تولت هذا الأمر ، فحين يذكر هنا بطحو الأرض فإنما يذكر بهذه اليد التي وراءه ، ويلمس القلب البشري هذه اللمسة للتدبر والذكرى .

---

1 – سورة : فاطر ، الآية : 41 .

2 – سورة : النازعات ، الآية : 30 ، 31 .

ثم تجيء الحقيقة الكبرى عن النفس البشرية في سياق هذا القسم ، مرتبطة بالكون ومشاهده وظواهره ، وهي إحدى الآيات الكبرى في هذا الوجود المترابط المتناسق :

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ ..

وهذه الآيات الأربع ، بالإضافة إلى آية **سورة البلد** السابقة : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [1]، وآية **سورة الإنسان** : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [2].. تمثل قاعدة النظرية النفسية للإسلام .. وهي مرتبطة ومكملة للآيات التي تشير إلى ازدواج طبيعة الإنسان ، كقول الحق ﷻ في **سورة ص** : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [3].. كما أنها مرتبطة ومكملة للآيات التي تقرر التبعة الفردية .. كقوله ﷻ في **سورة المدثر** : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [4]، والآيات التي تقرر أن الله يرتب تصرفه بالإنسان على واقع هذا الإنسان ، كقوله ﷻ في **سورة الرعد** : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [5]، ومن خلال هذه الآيات وأمثالها تبرز لنا نظرة الإسلام إلى الإنسان بكل معالمها .

إن هذا الكائن مخلوق مزدوج الطبيعة ، مزدوج الاستعداد ، مزدوج الاتجاه ونعني بكلمة مزدوج على وجه التحديد أنه بطبيعة تكوينه من طين الأرض ، ومن نفخة الله فيه من روحه .. مزود باستعدادات متساوية للخير والشر ، والهدى والضلال ، فهو قادر على التمييز بين ما هو خير وما هو شر ، كما أنه قادر على توجيه نفسه إلى الخير وإلى الشر سواء ، وأن

1 – سورة : البلد ، الآية : 10 .

2 – سورة : الإنسان ، الآية : 3 .

3 – سورة : ص ، الآية : 71 ، 72 .

4 – سورة : المدثر ، الآية : 38 .

5 – سورة : الرعد ، الآية : 11 .

هذه القدرة كامنة في كيانه ، يعبرعنها القرآن بالإلهام تارة : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ .. ويعبر عنها بالهداية تارة : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾[1] ، فهي كامنة في صميمه في صورة استعداد .. والرسالات والتوجيهات والعوامل الخارجية إنما توقظ هذه الاستعدادات وتشحذها وتوجهها هنا أو هناك ، ولكنها لا تخلقها خلقًا ؛ فهي مخلوقة فطرة وكائنة طبعًا ، وكامنة إلهامًا .

وهناك إلى جانب هذه الاستعدادات الفطرية الكامنة قوة واعية مدركة موجهة في ذات الإنسان ، هي التي تناط بها التبعة ، فمن استخدم هذه القوة في تزكية نفسه وتطهيرها وتنمية استعداد الخير فيها وتغليبه على استعداد الشر فقد أفلح ، ومن أظلم هذه القوة وخبأها وأضعفها فقد خاب : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ .

وهنالك إذن تبعة مترتبة على منح الإنسان هذه القوة الواعية القادرة على الاختيار والتوجيه .. توجيه الاستعدادات الفطرية القابلة للنمو في حقل الخير وفي حقل الشر سواء ، فهي حرية تقابلها تبعة ، وقدرة يقابلها تكليف ، ومنحة يقابلها واجب .

ورحمة من الله ﷻ بالإنسان أن لم يدعه لاستعداد فطرته الإلهامي ، ولا للقوة الواعية المالكة للتصرف ، فأعانه بالرسالات التي تضع له الموازين الثابتة الدقيقة ، وتكشف له عن موحيات الإيمان ، ودلائل الهدى في نفسه وفي الآفاق من حوله ، وتجلو عنه غواشي الهوى فيبصر الحق في صورته الصحيحة ، وبذلك يتضح له الطريق وضوحًا كاشفًا لا غبش فيه ولا شبهة ، فتتصرف القوة الواعية حينئذ عن بصيرة وإدراك لحقيقة الاتجاه الذي تختاره وتسير فيه .

وهذه في جملتها هي مشيئة الله ﷻ بالإنسان ، وكل ما يتم في دائرتها فهو محقق لمشيئة الله وقدره العام .

---

1 - سورة : البلد ، الآية : 10 .

هذه النظرة المجملة إلى أقصى حد تنبثق منها جملة حقائق ذات قيمة في التوجيه التربوي : فهي أولاً ترتفع بقيمة هذا الكائن الإنساني ، حين تجعله أهلاً لاحتمال تبعة اتجاهه ، وتمنحه حرية الاختيار في إطار المشيئة الإلهية التي شاءت له هذه الحرية فيما يختار ، فالحرية والتبعة يضعان هذا الكائن في مكان كريم ، ويقرران له في هذا الوجود منزلة عالية تليق بالخليقة التي نفخ الله فيها من روحه وسواها بيده ، وفضلها على كثير من العالمين .

وهي ثانيًا تلقي على هذا الكائن تبعة مصيره ، وتجعل أمره بين يديه في إطار المشيئة الكبرى كما أسلفنا ، فتثير في حسه كل مشاعر اليقظة والتحرج والتقوى ، وهو يعلم أن قدر الله فيه يتحقق من خلال تصرفه هو بنفسه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾[1] ، وهي تبعة ثقيلة لا يغفل صاحبها ولا يغفو .

وهي ثالثًا تشعر هذا الإنسان بالحاجة الدائمة للرجوع إلى الموازين الإلهية الثابتة ؛ ليظل على يقين أن هواه لم يخدعه ، ولم يضلله ، كي لا يقوده الهوى إلى المهلكة ، ولا يحق عليه قدر الله فيمن يجعل إلهه هواه ، وبذلك يظل قريبًا من الله ، يهتدي بهديه ، ويستضيء بالنور الذي أمده به في متاهات الطريق .

ومن ثم فلا نهاية لما يملك هذا الإنسان أن يصل إليه من تزكية النفس وتطهيرها ، وهو يغتسل في نور الله الفائض ، ويتطهر في هذا العباب الذي يتدفق حوله من ينابيع الوجود .

---

1 – سورة : الرعد ، الآية : 11 .

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾

بعد ذلك يعرض نموذجًا من نماذج الخيبة التي ينتهي إليها من يدسي نفسه ، فيحجبها عن الهدى ويدنسها .. ممثلاً هذا النموذج فيما أصاب ثمود من غضب ونكال وهلاك ..

وقد وردت قصة ثمود ونبيها **صالح** عليه السلام في مواضع شتى من القرآن ، فأما في هذا الموضع بالذات فهو يذكر أن ثمود بسبب طغيانها كذبت نبيها ، فكان الطغيان وحده هو سبب التكذيب ، وتمثل هذا الطغيان في انبعاث أشقاها ، وهو الذي عقر الناقة ، وهو أشدها شقاء وأكثرها تعاسة بما ارتكب من الإثم ، وقد حذرهم رسولهم عليه السلام قبل الإقدام على تلك الفعلة ، فقال لهم : احذروا أن تمسوا ناقة الله ، أو أن تمسوا الماء الذي جعل لها يومًا ولكم يومًا ، كما اشترط عليهم عندما طلبوا منه آية ، فجعل الله هذه الناقة آية ، ولابد أنه كان لها شأن خاص لا نخوض في تفصيلاته ؛ لأن الله تعالى لم يذكر لنا عنه شيئًا ، فكذبوا النذير وعقروا الناقة .

والذي عقرها هو هذا الأشقى ، ولكنهم جميعًا حملوا التبعة وعُدوا أنهم عقروها ؛ لأنهم لم يضربوا على يده ، بل استحسنوا فعلته ، وهذا مبدأ من مبادئ الإسلام الرئيسية في التكافل في التبعة الاجتماعية في الحياة الدنيا ، لا يتعارض مع التبعة الفردية في الجزاء الأخروي ، حيث لا تزر وازرة وزر أخرى ، على أنه من الوزر إهمال التناصح والتكافل والحض على البر ، والأخذ على يد البغي والشر .

عندئذ تتحـرك يد القـدرة لتبـطش البطشـــة الكبرى .. ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴾ .. والدمدمة هي الغضب وما يتبعه من تنكيل ، واللفظ ذاته : ﴿ دَمْدَمَ ﴾ يوحـي بما وراءه ، ويصور معناه بجرسه ، ويكاد يرسم مشهدًا مروعًا مخيفًا ، وقـد سـوى الله أرضهم عاليها بسافلها ، وهو المشهد الذي يرتسم بعد الدمار العنيف الشديد .

﴿ وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾ .. ﷻ ، ومن ذا يخاف ؟! وماذا يخاف ؟! وأنى يخاف ؟! إنمـا يراد من هذا التعبير لازمه المفهوم منه ، فالذي لا يخاف عاقبة ما يفعل ، يبـلغ غاية البـطش حـين يبـطش ، وكذلك بـطش الله ﷻ .. ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾[1] .. فهو إيقــاع يراد إيحاؤه وظله في النفوس .

وهكذا ترتبط حقيقة النفس البشرية بحقائق هذا الوجود الكبـيرة ، ومشـاهده الثابـتة ، كما ترتبـط بـهذه وتلك سـنة الله ﷻ في أخذ المكذبـين والطغاة ، في حـدود التقـدير الحكيم الذي يجعل لكل شيء أجلاً ، ولكل حادث موعدًا ، ولكل أمر غاية ، ولكل قدر حـكمة ، وهو رب النفس والكون والقدر جميعًا .

نسأل الله أن يلهمنا رشدنا ، وأن يقينا شرور أنفسنا . .

إنه ولي ذلك والقادر عليه . .

والحمد لله رب العالمين .



1 – سورة : البروج ، الآية : 12 .





سورة الليل







سورة الليل

أحمدك ربي على فضائل ذاتك، وعظائم نعمائك، وأصلي وأسلم على قمة اصطفائك، ومسك ختامك، سيدنا محمد ﷺ .. وبعد :

فمع **سورة الليل** ، تلك السورة التي تقرر – في إطار من مشاهد الكون وطبيعة الإنسان – حقيقة العمل والجزاء .

ولما كانت هذه الحقيقة منوعة المظاهر .. ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى * فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ .. وكانت العاقبة كذلك في الآخرة مختلفة وفق العمل والوجهة .. ﴿ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى * لاَ يَصْلاَهَا إِلاَّ الأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى * وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴾ .

ولما كانت مظاهر هذه الحقيقة ذات لونين ، وذات اتجاهين كذلك .. كان الإطار المختار لها في مطلع السورة ذا لونين في الكون وفي النفس سواء .. ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى ﴾ .. وهذا من بدائع التناسق في التعبير القرآني .

---

* تفسير السورة مقتبس بتصرف من : "في ظلال القرآن" .

وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ۝٤ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ﴾ .. يقسم الله ﷻ بهاتين الآيتين : الليل والنهار ، مع صفة كل منهما الصفة المصورة للمشهد .. ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ﴾ .. ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ﴾ .. الليل حين يغشى البسيطة ، ويغمرها ويخفيها .. والنهار حين يتجلى ويظهر ، فيظهر في تجلية كل شيء ويسفر ، وهما آنان متقابلان في دورة الفلك ، ومتقابلان في الصورة ، ومتقابلان في الخصائص ، ومتقابلان في الآثار .

﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَى ﴾ .. ثم يقسم بخلقه الأنواع جنسين متقابلين : ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَى ﴾ .. تكملة لظواهر التقابل في جو السورة وحقائقها جميعًا .

والليل والنهار ظاهرتان شاملتان لهما دلالة توحيان بها إيحاء للقلب البشري ، ولهما دلالة كذلك أخرى عند التدبر والتفكر فيهما وفيما وراءهما ، والنفس تتأثر تأثرًا تلقائيًا بتقلب الليل والنهار .. الليل إذا يغشى ويعم ، والنهار إذا تجلى وأسفر ، ولهذا التقلب حديث وإيحاء .. حديث عن هذا الكون المجهول الأسرار ، وعن هذه الظواهر التي لا يملك البشر من أمرها شيئًا ، وإيحاء بما وراء هذا التقلب من قدرة تدير الآونة في الكون كما تدار العجلة اليسيرة ، وبما هنالك من تغير وتحول لا يثبت أبدًا على حال .

ودلالتهما عند التدبر والتفكر قاطعة في أن هنالك يدًا أخرى تدير هذا الفلك ، وتبدل الليل والنهار بهذا الانتظام وهذا الاطراد وهذه الدقة ، وأن الذي يدير الفلك هكذا يدير حياة البشر أيضًا ، ولا يتركهم سدى ، كما أنه لا يخلقهم عبثًا .

ومهما حاول المنكرون والمضلون أن يلغوا في هذه الحقيقة ، وأن يحولوا الأنظار عنها ، فإن القلب البشري سيظل موصولاً بهذا الكون ، يتلقى إيقاعاته ، وينظر تقلباته ، ويدرك تلقائيًّا – كما يدرك بعد التدبر والتفكر – أن هنالك مدبرًا لا محيد من الشعور به ، والاعتراف بوجوده من وراء اللغو والهذر ، ومن وراء الجحود والنكران .

وكذلك خلقة الذكر والأنثى .. إنها في الإنسان والثدييات الحيوانية نطفة تستقر في رحم ، وخلية تتحد ببويضة ، ففيم هذا الاختلاف في نهاية المطاف ؟! ما الذي يقول لهذه : كوني ذكرًا ، ويقول لهذه : كوني أنثى ؟!

إن كشف العوامل التي تجعل هذه النطفة تصبح ذكرًا ، وهذه تصبح أنثى لا يغير من واقع الأمر شيئًا .. فإنه لماذا تتوفر هذه العوامل هنا وهذه العوامل هناك ؟! وكيف يتفق أن تكون صيرورة هذه ذكرًا ، وصيرورة هذه أنثى هو الحدث الذي يتناسق مع خط سير الحياة كلها ، ويكفل امتدادها بالتناسل مرة أخرى ؟!

هل هي مصادفة ؟! إن للمصادفة كذلك قانونًا يستحيل معه أن تتوافر هذه الموافقات كلها من قبيل المصادفة .. فلا يبقى إلا أن هنالك مدبرًا يخلق الذكر والأنثى لحكمة مرسومة وغاية معلومة ، فلا مجال للمصادفة ، ولا مكان للتلقائية في نظام هذا الوجود أصلاً .

والذكر والأنثى شاملان بعد ذلك للأنواع كلها غير الثدييات ، فهي مطردة في سائر الأحياء ومنها النبات .. قاعدة واحدة في الخلق لا تتخلف ، لا يتفرد ولا يتوحد إلا الخالق ﷻ الذي ليس كمثله شيء .

هذه بعض إيحاءات تلك المشاهد الكونية ، وهذه الحقيقة الإنسانية التي يقسم الله ﷻ



بها ؛ لعظيم دلالتها وعميق إيقاعها ، والتي يجعلها السياق القرآني إطارًا لحقيقة العمل والجزاء في الحياة الدنيا وفي الحياة الأخرى .

يقسم الله ﷻ بهذه الظواهر والحقائق المتقابلة في الكون وفي الناس ، على أن سعي الناس مختلف وطرقهم مختلفة ، ومن ثم فجزاؤهم مختلف كذلك ، فليس الخير كالشر ، وليس الهدى كالضلال ، وليس الصلاح كالفساد ، وليس من أعطى واتقى كمن بخل واستغنى ، وليس من صدق وآمن كمن كذب وتولى ، وأن لكل طريقًا ، ولكل مصيرًا ، ولكل جزاء وفاقًا .

﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴾ .. مختلف في حقيقته ، مختلف في بواعثه ، مختلف في اتجاهه ، مختلف في نتائجه .. والناس في هذه الأرض تختلف طبائعهم ، وتختلف مشاربهم ، وتختلف تصوراتهم ، وتختلف اهتماماتهم ، حتى لكأن كل واحد منهم عالم خاص يعيش في كوكب خاص .

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ .. كل ما سبق حقيقة ، ولكن هناك حقيقة أخرى ، حقيقة إجمالية ، تضم أشتات البشر جميعًا ، وتضم هذه العوامل المتباينة كلها ، تضمها في حزمتين اثنتين ، وفي صفين متقابلين ، تحت رايتين عامتين : ﴿ مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴾ .. و ﴿ مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴾ .

من أعطى نفسه وماله ، واتقى غضب الله ﷻ وعذابه ، وصدق بهذه العقيدة التي إذا قيل : إن (**الحسنى**) كانت اسمًا لها وعلمًا عليها ، ومن بخل بنفسه وماله ، واستغنى عن الله وهداه ، وكذب بهذه الحسنى .

هذان هما الصفان اللذان يلتقي فيهما شتات النفوس ، وشتات السعي ، وشتات المناهج ، وشتات الغايات ، ولكل منهما في هذه الحياة طريق .. ولكل منهما في طريقه توفيق .

والذي يعطي ويتقي ويصدق بالحسنى يكون قد بذل أقصى ما في وسعه ليزكي نفسه

ويهديها ، عندئذ يستحق عون الله وتوفيقه الذي أوجبه ﷻ على نفسه بإرادته ومشيئته .
والذي بدونه لا يكون شيء ، ولا يقدر الإنسان على شيء ،ومن يسره الله لليسرى فقد وصل .. وصل في سر وفي رفق وفي هوادة .. وصل وهو بعد في هذه الأرض ، وعاش في يسر ، يفيض اليسر من نفسه على كل ما حوله وعلى كل من حوله .. اليسر في خطوه ، واليسر في طريقه ، واليسر في تناوله للأمور كلها ، والتوفيق الهادئ المطمئن في كلياتها وجزئياتها ، وهي درجة تتضمن كل شيء في طياتها ، حيث تسلك صاحبها مع رسول الله ﷺ في وعد ربه له : ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى ﴾ .

وأما الذي يبخل بنفسه وماله ، ويستغني عن ربه وهداه ، ويكذب بدعوته ودينه .. يبلغ أقصى ما يبلغه إنسان بنفسه من تعريضها للفساد ، ويستحق أن يعسر الله عليه كل شيء ، فييسره للعسرى ، ويوفقه إلى كل وعورة ، ويحرمه كل تيسير ، ويجعل في كل خطوة من خطاه مشقة وحرجًا ، ينحرف به عن طريق الرشاد ، ويصعد به في طريق الشقاوة ، وإن حسب أنه سائر في طريق الفلاح ، وإنما هو يعثر فيتقي العثار بعثرة أخرى تبعده عن طريق الله ﷻ ، وتنأى به عن رضاه .. فإذا تردى وسقط في نهاية العثرات والانحرافات لم يغن عنه ماله الذي بخل به ، والذي استغنى به كذلك عن الله وهداه .

﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴾ .. والتيسير للشر والمعصية من التيسير للعسرى ، وإن أفلح صاحبها في هذه الأرض ونجا .. وهل أعسر من جهنم ؟! وإنها لهي العسرى .

هكذا ينتهي المقطع الأول في السورة ، وقد تبين طريقان ونهجان للجموع البشرية في كل زمان ومكان ، وقد تبين أنهما حزبان ورايتان مهما تنوعت وتعددت الأشكال والألوان ، وأن كل إنسان يفعل بنفسه ما يختار لها ، فييسر الله له طريقه .. إما إلى اليسرى ، وإما إلى العسرى .



﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾

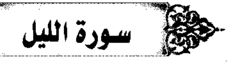
وأما المقطع الثاني فيتحدث عن مصير كل فريق ، ويكشف عن نهاية المطاف لمن يسره لليسرى ، ومن يسره للعسرى ، وقبل كل شيء يقرر أن ما يلاقيه كل فريق من عاقبة ومن جزاء هو عدل وحق ، كما أنه واقع وحتم ، فقد بين الله للناس الهدى ، وأنذرهم نارًا تلظى .

﴿ **إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى** ﴾ .. لقد كتب الله على نفسه – فضلاً منه بعباده ورحمة – أن يبين الهدى لفطرة الناس ووعيهم ، وأن يبينه لهم كذلك بالرسل والرسالات والآيات ، فلا تكون هناك حجة لأحد ، ولا يكون هناك ظلم لأحد : ﴿ **إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى** ﴾ .

﴿ **وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى** ﴾ .. واللمسة الثانية هي التقرير الجازم لحقيقة السيطرة التي تحيط بالناس ، فلا يجدون من دونها موئلاً : ﴿ **وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى** ﴾ .. فأين يذهب من يريد أن يذهب عن الله بعيدًا ؟!

﴿ **فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى** ﴾ .. وتفريعًا على أن الله ﷻ كتب على نفسه بيان الهدى للعباد ، وأن له الآخرة والأولى داري الجزاء والعمل .. تفريعًا على هذا يذكرهم أنه أنذرهم وحذرهم وبين لهم : ﴿ **فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى** ﴾ .. وتتسعر .. هذه النار المتسعرة ...

﴿ **لاَ يَصْلاَهَا إِلاَّ الأَشْقَى** ﴾ .. أشقى العباد جميعًا ، وهل بعد الصلي في النار شقوة ؟! ثم



يبين من هو الأشقى ، إنه هو ...

﴿ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ .. كذب بالدعوة وتولى عنها ، تولى عن الهدى وعن دعوة ربه له ليهديه كما وعد كل من يأتي إليه راغبًا .

﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى ﴾ .. وهو الأسعد في مقابل الأشقى .. ثم يبين من هو الأتقى ، إنه هو ...

﴿ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴾ .. الذي ينفق ماله ليتطهر بإنفاقه ، لا ليرائي به ويستعلي ، ينفقه تطوعًا لا ردًّا لجميل أحد ، ولا طلبًا لشكران أحد ، وإنما ابتغاء وجه ربه خالصًا .. ربه الأعلى .

﴿ وَمَا لأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى * إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى ﴾ .. ثم ماذا ؟ ماذا ينتظر هذا الأتقى ، الذي يؤتي ماله تطهرًا ، وابتغاء وجه ربه الأعلى ؟ إن الجزاء الذي يطالع القرآن به الأرواح المؤمنة هنا .. عجيب .. ومفاجئ .. وعلى غير المألوف ...

﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾ .. إنه الرضى ينسكب في قلب هذا الأتقى .. إنه الرضى يغمر روحه .. إنه الرضى يفيض على جوارحه .. إنه الرضى يشيع في كيانه .. إنه الرضى يندي حياته . ويا له من جزاء ! ويا لها من نعمة كبرى !

﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾ .. يرضى بدينه ، ويرضى بربه ، ويرضى بقدره ، ويرضى بنصيبه ، ويرضى بما يجد من سراء وضراء ، ومن غنى وفقر ، ومن يسر وعسر ، ومن رخاء وشدة ، يرضى فلا يقلق .. ولا يضيق .. ولا يستعجل .. ولا يستثقل العبء .. ولا يستبعد الغاية .

إن هذا الرضى جزاء أكبر من كل جزاء .. جزاء يستحقه من يبذل له نفسه وماله .. من يعطي ليتزكى ، ومن يبذل ابتغاء وجه ربه الأعلى .

إنه جزاء لا يمنحه إلا الله ﷻ ، وهو يسكبه في القلوب التي تخلص له ، فلا ترى سواه أحدًا .



﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾ .. يرضى وقد بذل الثمن ، وقد أعطى ما أعطى ..

إنها مفاجأة في موضعها هذا ، ولكنها المفاجأة المرتقبة لمن يبلغ ما بلغه (**الأتقــى الذي يؤتي ماله يتزكى ، وما لأحد عنده من نعمة تجزى ، إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى**) ..

﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾ .. نسأل الله أن يرزقنا الرضا عنه ، وأن يرزقنا رضاه ..

اللهم إنا قد رضينا عنك .. فارض اللهم عنا ، وأرضنا بك .. يا أرحم الراحميـــن ..

والحمد لله رب العالميـــن ..





تفسير جزء عم

سورة الضحى



سُورَةُ الضُّحَى

أحمدك ربي على فضائل ذاتك، وعظائم نعمائك، وأصلي وأسلم على قمة اصطفائك، ومسك ختامك، سيدنا محمد ﷺ . . وبعد :

فمع **سورة الضحى**، هذه السورة بموضوعها، وتعبيرها، ومشاهدها، وظلالها وإيقاعها، لسمة من حنان، ونسمة من رحمة، وطائف من ود، ويد حانية تمسح على الآلام والمواجع، وتنسم بالرَّوح والرضى والأمل، وتسكب البرد والطمأنينة واليقين.

إنها كلها خالصة للنبي ﷺ، كلها نجاء له من ربه، وتسرية وتسلية وترويح وتطمين، كلها أنسام من الرحمة، وأنداء من الود، وألطاف من القربى، وهدهدة للروح المتعب والخاطر المقلق، والقلب الموجوع.

وقد رد في روايات كثيرة أن الوحي فتر عن رسول الله ﷺ وأبطأ عليه **جبريل** عليه السلام، حتى قال المشركون : ودع **محمدا** ربُّه .. فأنزل الله عز وجل هذه السورة.

والوحي ولقاء **جبريل** والاتصال بالله، كانت هي زاد الرسول ﷺ في مشقة الطريق، وسقياه في هجير الجحود، ورَوحه في لأواء التكذيب، وكان ﷺ يحيا بها في هذه الهاجرة المحرقة التي يعانيها في النفوس النافرة الشاردة العصية العنيدة، ويعانيها في المكر والكيد والأذى المصبوب على الدعوة، وعلى الإيمان، وعلى الهدى من طغاة المشركين.

فلما فتر الوحي انقطع عنه الزاد، وانحبس عنه الينبوع، واستوحش قلبه من الحبيب، وبقي للهاجرة وحده .. بلا زاد، وبلا رِي، وبغير ما اعتاد من رائحة الحبيب الودود، وهو

* تفسير السورة مقتبس بتصرف من : "في ظلال القرآن".

أمر أشد من الاحتمال من جميع الوجوه .

وعندئذ نزلت هذه السورة ، نزل هذا الفيض من الود والحب والرحمة والإيناس والقربى والأمل والرضى والطمأنينة واليقين .

﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى * وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ ..

وما تركك ربك من قبل أبدًا ، وما قلاك من قبل قط ، وما أخلاك من رحمته ورعايته وإيوائه .. ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى ﴾ .

ألا تجد مصداق هذا في حياتك ؟! ألا تحس مسّ هذا في قلبك ؟! ألا ترى أثر هذا في واقعك ؟!

﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ .. وما انقطع عنك بره وما ينقطع أبدًا .. ﴿ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى ﴾ .. وهناك ما هو أكثر وأوفى : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ ..

ومع هذه الأنسام اللطيفة من حقيقة الأمر وروحه .. الأنسام اللطيفة في العبارة والإيقاع .. وفي الإطار الكوني الذي وضعت فيه هذه الحقيقة .. ﴿ وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴾ .. فأطلق التعبير جوًّا من الحنان اللطيف والرحمة الوديعة والرضى الشامل والشجى الشفيف .

ذلك الحنان ، وتلك الرحمة ، وذاك الرضى ، وهذا الشجى .. تنسرب كلها من خلال النظم اللطيف العبارة ، الرقيق اللفظ ، ومن هذا الإيقاع الساري في التعبير .

فلما أراد إطارًا لهذا الحنان اللطيف ، ولهذه الرحمة الوديعة ، ولهذا الرضى الشامل ، ولهذا الشجى الشفيف ، جعل الإطار من الضحى الرائق ، ومن الليل الساجي .. أصفى آنين من آونة الليل والنهار ، وأشف آنين تسري فيهما التأملات ، وتتصل الروح بالوجود وخالق الوجود ، وتحس بعبادة الكون كله لمبدعه ، وتوجهه لبارئه بالتسبيح والفرح والصفاء ، وصوّرهما في اللفظ المناسب ، فالليل هو : (**الليل إذا سجى**) ، لا الليل على إطلاقه بوحشته وظلامه ، الليل الساجي الذي يرق ويسكن ويصفو ، وتغشاه سحابة رقيقة من الشجى

الشــفيف ، والتأمل الوديع ، كجو اليتم والعيلة ، ثم ينكشــف ويجلي مع الضحـــى الرائق الصافي .. فتلتئم ألوان الصورة مع ألوان الإطار ، ويتم التناسق والاتساق .

إن هذا الإبـداع في كمال ليدل على الصنعة .. صنعة الله التي لا تماثلها صنعة ، ولا يتلبـس بها تقليد .

وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾

﴿ وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴾ .. يقسـم الله ﷻ بـهذين الآنين الرائقـين الموحـيين ، فيربط بين ظواهر الكون ومشاعر النفس ، ويوحي إلى القلب البشري بالحياة الشاعرة المتجاوبة مع هذا الوجود الجميل الحي ، المتعاطف مع كل حـي ، فيعيش ذلك القـلب في أنس من هذا الوجود ، غير موحش ولا غريب فيه فريد .

وفي هذه السورة بالذات يكون لهذا الأنس وقعه ، فظل الأنس هو المراد مده ، وكأنما يوحـي الله لرسوله ﷺ منذ مطلع السورة أن ربه ﷻ قـد أفاض من حـوله الأنس في هذا الوجود ، وأنه من ثم غير مجفوّ فيه ولا فريد .

﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ .. وبـعد هذا الإيحاء الكوني يجيء التوكيد المباشـر : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ .. ما تركك ربـــك ولا جفاك كما زعم من يريدون إيذاء روحـــك ، وإيجاع قلبـك ، وإقـلاق خاطرك .. وهو ربـك ، وأنت عبـده المنسـوب إليه ، المضاف إلى ربوبيته ، وهو راعيك وكافلك ..





وما غاض معين فضله وفيض عطائه ؛ فإن لك عنده في الآخرة من الحسنى خيرًا مما يعطيك منها في الدنيا .

﴿ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى ﴾ .. فهو الخير أولاً وأخيرًا .. وإنه ليدخر لك ما يرضيك من التوفيق في دعوتك ، وإزاحة العقبات من طريقك ، وغلبة منهجك ، وظهور حقك .. وهي الأمور التي كانت تشغل باله ﷺ وهو يواجه العناد والتكذيب والأذى والكيد .. والشماتة ..

﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ .. ويمضي سياق السورة يذكّر الرسول ﷺ ما كان من شأن ربه معه منذ أول الطريق ؛ ليستحضر في خاطره جميل صنع ربه به ، ومودته له ، وفيضه عليه ، ويستمتع باستعادة مواقع الرحمة والود والإيناس الإلهي ، وهو متاع فائق تحييه الذكرى على هذا النحو البديع ..

أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى ﴾ .. انظر في واقع حالك ، وماضي حياتك .. هل ودعك ربك وهل قلاك حتى قبل أن يعهد إليك بهذا الأمر ؟ ألم تحط يتمك رعايته ؟ ألم تدرك حيرتك هدايته ؟ ألم يغمر فقرك عطاؤه ؟

لقد ولدت يتيمًا فآواك إليه ، وعطف عليك القلوب ، حتى قلب عمك **أبي طالب** وهو على غير دينك .

ولقد كنت فقيرًا فأغنى الله نفسك بالقناعة ، كما أغناك بكسبك ومال أهل بيتك (**خديجة**

رضي الله عنها) عن أن تحس الفقر ، أو تتطلع إلى ما حولك من ثراء .

ثم لقد نشأت في جاهلية مضطربة التصورات والعقائد ، منحرفة السلوك والأوضاع ، فلم تطمئن روحك إليها ، ولكنك لم تكن تجد لك طريقًا واضحًا مطمئنًا ، لا فيما عند الجاهلية ، ولا فيما عند أتباع موسى وعيسى الذين حرفوا وبدلوا وانحرفوا وتاهوا .. ثم هداك الله بالأمر الذي أوحى به إليك ، وبالمنهج الذي يصلك به .

والهداية من حيرة العقيدة وضلال الشعاب فيها هي المنة الكبرى ، التي لا تعدلها منة ، وهي الراحة والطمأنينة من القلق الذي لا يعدله قلق ، ومن التعب الذي لا يعدله تعب ، ولعلها كانت بسبب مما كان رسول الله ﷺ يعانيه في هذه الفترة ، من انقطاع الوحي ، وشماتة المشركين ، ووحشة الحبيب من الحبيب .

فجاءت هذه تذكره وتطمئنه على أن ربه لن يتركه بلا وحي في التيه ، وهو لم يتركه من قبل في الحيرة والتيه .

وبمناسبة ما ذكره ربه بإيوائه من اليتم ، وهدايته من الحيرة وإغنائه من العيلة .. يوجهه ويوجه المسلمين من ورائه إلى رعاية كل يتيم ، وإلى كفاية كل سائل ، وإلى التحدث بنعمة الله الكبرى عليه ، وفي أولها : الهداية إلى هذا الدين ..

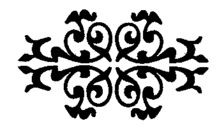
﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ ﴾ .. وهذه التوجيهات إلى إكرام اليتيم والنهي عن قهره وكسر خاطره وإذلاله ، وإلى إغناء السائل مع الرفق به والكرامة ، كانت من أهم إيحاءات الواقع في البيئة الجاحدة المتكالبة ، التي لا ترعى حق ضعيف ، غير قادر على حماية حقه بسيفه ، حيث رفع الإسلام هذه البيئة بشرعة الله ﷻ إلى الحق والعدل ، والتحرج والتقوى ، والوقوف عند حدود الله الذي يحمي حدوده ، ويغار عليها ، ويغضب للاعتداء على حقوق عباده الضعاف الذين لا يملكون قوة ولا سيفًا يذودون به عن هذه الحقوق .



﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ .. وأما التحدث بنعمة الله ﷻ ، وبخاصة نعمة الهدى والإيمان ، فهو صورة من صور الشكر للمنعم ، يكملها البر بعباده ، وهو المظهر العملي للشكر ، والحديث الصامت النافع الكريم ..

نسأل الله أن يعيننا على شكره كما يحب ويرضى ، وأن يعيننا على التحدث بنعمته علينا ، إنه ولي ذلك والقادر عليه .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .









سورة الشرح





سورة الشرح

أحمدك ربي على فضائل ذاتك، وعظائم نعمائك، وأصلي وأسلم على قمة اصطفائك، ومسك ختامك، سيدنا محمد ﷺ .. وبعد :

فمع **سورة الشرح** ، وقد نزلت هذه السورة بعد **سورة الضحى** ، وكأنها تكملة لها ، فيها ظل العطف الندي ، وفيها روح المناجاة الحبيب ، وفيها استحضار مظاهر العناية ، واستعراض مواقع الرعاية ، وفيها البشرى باليسر والفرج ، وفيها التوجيه إلى سر اليسر وحبل الاتصال الوثيق .

وهي توحي بأن هناك ضائقة كانت في روح الرسول ﷺ لأمر من أمور هذه الدعوة التي كُلفها ، ومن العقبات الوعرة في طريقها ، ومن الكيد والمكر المضروب حولها .. توحي بأن صدره ﷺ كان مثقلاً بهموم هذه الدعوة الثقيلة ، وأنه كان يحس العبء فادحًا على كاهله ، وأنه كان في حاجة إلى عون وزاد ورصيد .. ثم كانت هذه المناجاة الحلوة ، وهذا الحديث الودود .

---

* تفسير السورة مقتبس بتصرف من : " في ظلال القرآن " .



أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ .. ألم نشرح صدرك لهذه الدعوة ؟ ونيسر لك أمرها ؟ ونجعلها حبيبة لقلبك ؟ ونشرع لك طريقها ؟ ونُنِرْ لك الطريق حتى ترى نهايته السعيدة ؟

فتش في صدرك .. ألا تجد فيه الرَوح والانشراح والإشراق والنور ؟ واستعد في حسك مذاق هذا العطاء ، وقل : ألا تجد معه المتاع مع كل مشقة ؟! والراحة مع كل تعب ؟! واليسر مع كل عسر ؟! والرضى مع كل حرمان ؟!

﴿ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ .. ووضعنا عنك عبئك الذي أثقل ظهرك حتى كاد يحطمه من ثقله .. وضعناه عنك بشرح صدرك له فخف وهان ، وبتوفيقك وتيسيرك للدعوة ومداخل القلوب ، وبالوحي الذي يكشف لك عن الحقيقة ويعينك على التسلل بها إلى النفوس في يسر وهوادة ولين .

ألا تجد ذلك العبء الذي أنقض ظهرك ؟! ألا تجد عبئك خفيفًا بعد أن شرحنا لك صدرك ؟!

﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ .. رفعناه في الملأ الأعلى ، ورفعناه في الأرض ، ورفعناه في هذا الوجود جميعًا .. رفعناه فجعلنا اسمك مقرونًا باسم الله ﷻ كلما تحركت به الشفاه : " **لا إله إلا الله .. محمد رسول الله** " .. وليس بعد هذا الرفع رفع ، وليس وراء هذه المنزلة منزلة ، وهو المقام الذي تفرد به ﷺ دون سائر العالمين .

ورفعنا لك ذكرك في اللوح المحفوظ ، حين قدر الله أن تمر القرون ، وتكر الأجيال ، وملايين الشفاه في كل مكان تهتف بهذا الاسم الكريم ، مع الصلاة والتسليم ، والحب العميق العظيم .

ورفعنا لك ذكرك ، وقد ارتبط بهذا المنهج الإلهي الرفيع ، وكان مجرد الاختيار لهذا الأمر رفعة ذكر لم ينلها أحد من قبل ولا من بعد في هذا الوجود ، فأين تقع المشقة والتعب والضنى من هذا العطاء الذي يمسح على كل مشقة وكل عناء ؟! ومع هذا فإن الله يتلطف مع حبيبه المختار ﷺ ، ويسري عنه ، ويؤنسه ، ويطمئنه ، ويطلعه على اليسر الذي لا يفارقه ..

﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ .. إن العسر لا يخلو من يسر يصاحبه ويلازمه ، وقد لازمه معك فعلاً ، فحينما ثقل العبء شرحنا لك صدرك ، فخفف حملك ، الذي أنقض ظهرك ، وكان اليسر مصاحبًا للعسر ، يرفع إصره ، ويضع ثقله .

وإنه لأمر مؤكد يكرره بألفاظه : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ .. وهذا التكرار يشي بأن الرسول ﷺ كان في عسرة وضيق ومشقة اقتضت هذه الملاحظة .. وهذا التذكير .. وهذا الاستحضار لمظاهر العناية .. وهذا الاستعراض لمواقع الرعاية .. وهذا التوكيد بكل ضروب التوكيد ، والأمر الذي يثقل على نفس محمد هكذا لا بد أنه كان أمرًا عظيمًا ..

ثم يجيء التوجيه الكريم لمواقع التيسير ، وأسباب الانشراح ، ومستودع الري والزاد في الطريق الشاق الطويل ..

﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ﴾ .. إذا كان مع العسر يسر .. فخذ في أسباب اليسر والتيسير ، فإذا فرغت من شغلك مع الناس ومع الأرض ، ومع شواغل الحياة .. إذا فرغت من هذا كله .. فتوجه بقلبك كله إذن إلى ما يستحق أن تنصب فيه وتكد وتجهد .. العبادة والتجرد والتطلع والتوجه ..

﴿ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾ .. إلى ربك وحده خاليًا من كل شيء حتى من أمر الناس الذين

تشتغل بـدعوتهم .. إنه لا بـد من الزاد للطريق ، وهنا الزاد ، ولا بـد من العدة للجهاد ، وهنا العدة ، وهنا ستجد يسرًا مع كل عسر ، وفرجًا مع كل ضيق .. هذا هو الطريق .

وتنتهي هذه السورة كما انتهت **سورة الضحى** ، وقد تركت في النفس شعورين ممتزجين .. الشعور بعظمة الود الحبيب الجليل الذي ينسم على روح الرسول ﷺ من ربه الودود الرحـيم ، والشعور بالعطف على شخصه ﷺ ونحن نكاد نلمس ما كان يساور قلبـه الكريم في هذه الآونة التي اقـتضت ذلك الود الجميل .. إنها الدعوة .. هذه الأمانة الثقـيلة ، وهذا العبء الذي ينقض الظهر ، وهي مع هذا وهذا مشرق النور الإلهي ومهبطه ، ووصلة الفناء بالبقاء ، والعدم بالوجود .

نسأل الله العلي الكبير أن يشرح صدورنا ، وأن ييسر أمورنا ، وأن يعلي ذكرنا في الدنيا والآخرة ، وأن يرزقنا لذة العبادة في الدنيا ، ولذة النعيم في الآخرة .

إنه ولي ذلك والقادر عليه . .




عم
تفسير جزء




سورة
البينة





سُورَةُ التِّين

أحمدك ربي على فضائل ذاتك، وعظائم نعمائك، وأصلي وأسلم على قمة اصطفائك، ومسك ختامك، سيدنا محمد ﷺ .. وبعد :

فمع **سورة التين** .. والحقيقة الرئيسية التي تعرضها هذه السورة هي حقيقة الفطرة القويمة التي فطر الله الإنسان عليها ، واستقامة طبيعتها مع طبيعة الإيمان ، والوصول بها معه إلى كمالها المقدور لها ، وهبوط الإنسان وسفوله حين ينحرف عن سواء الفطرة واستقامة الإيمان .

يقسم الله ﷻ على هذه الحقيقة بالتين والزيتون ، وطور سينين ، وهذا البلد الأمين ، وهذا القسم على ما عهدنا في كثير من سور هذا الجزء هو الإطار الذي تعرض فيه تلك الحقيقة ، وقد رأينا في السور المماثلة أن الإطار يتناسق مع الحقيقة التي تعرض فيه تناسقاً دقيقاً .

* تفسير السورة مقتبس بتصرف من : "في ظلال القرآن" .

وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾

﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ ﴾ .. فأما (**طور سينين**) فهو جبل الطور الذي نودي **موسى** عليه السلام من جانبه ، وأما (**البلد الأمين**) فهو مكة التي هي بيت الله الحرام .. وعلاقتهما بأمر الدين والإيمان واضحة .

وأما (**التين والزيتون**) فلا يتضح فيهما هذا الظل فيما يبدو لنا ، وقد كثرت الأقوال المأثورة في التين والزيتون .. (**فقيل**) : إن التين إشارة إلى طورتينا بجوار دمشق .

(**وقيل**) : هو إشارة إلى شجرة التين التي راح **آدم وزوجه عليهما السلام** يخصفان من ورقها على سوءاتهما في الجنة التي كانا فيها قبل هبوطهما إلى هذه الحياة الدنيا .

(**وقيل**) : هو منبت التين في الجبل الذي استوت عليه سفينة **نوح** عليه السلام .

(**وقيل**) في الزيتون : إنه إشارة إلى طورزيتا في بيت المقدس .

(**وقيل**) : هو إشارة إلى بيت المقدس نفسه .

(**وقيل**) : هو إشارة إلى غصن الزيتون الذي عادت به الحمامة التي أطلقها **نوح** عليه السلام من السفينة لترتاد حالة الطوفان ، فلما عادت ومعها هذا الغصن عرف أن الأرض قد انكشفت وأنبتت .

(وقيل) : بـل التين والزيتون هما هذان الأكلان اللذان نعرفهما بحقيقـتهما ، وليس هناك رمز لشيء وراءهما .. أو أنهما هما رمز لمنبتهما من الأرض .

وشجرة الزيتون أشير إليها في القرآن في موضع آخر بجوار الطور .. فقال ﷻ : ﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلآكِلِينَ ﴾ [1] ، كما ورد ذكر الزيتون : ﴿ وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً ﴾ [2].

وأما التين فذكره يرد في هذا الموضع لأول مرة ، وللمرة الوحيدة في القرآن الكريم كله .

ومن ثم فإننا لا نملك أن نجزم بشيء في هذا الأمر ، وكل ما نملك أن نقوله اعتمادًا على نظائر هذا الإطار في السور القرآنية هو أن الأقرب أن يكون ذكر التين والزيتون إشارة إلى أماكن أو ذكريات ذات علاقة بالدين والإيمان ، أو ذات علاقة بنشأة الإنسان في أحسن تقويم ، وربما كان ذلك في الجنة التي بدأ فيها حياته ، كي تلتئم هذه الإشارة مع الحقيقة الرئيسية البارزة في السورة ، ويتناسق الإطار مع الحقيقة الموضوعة في داخله على طريقة القرآن .

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ .. فأما الحقيقة الداخلية في السورة فهي هذه .

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ .. ومنها تبدو عناية الله بخلق هذا الإنسان ابتداء في أحسن تقويم ، والله ﷻ أحسن كل شيء خلقه .

فتخصيص الإنسان هنا وفي مواضع قرآنية أخرى بحسن التركيب ، وحسن التقويم ، وحسن التعديل .. فيه فضل عناية بهذا المخلوق ، وإن عناية الله بأمر هذا المخلوق على ما به من ضعف وعلى ما يقع منه من انحراف عن الفطرة وفساد لتشير إلى أن له شأنًا عند الله ﷻ ، ووزنًا في نظام هذا الوجود .

---

1 – سورة : المؤمنون ، الآية : 20 .

2 – سورة : عبس ، الآية : 29 .

وتتجلى هذه العناية في خلقه وتركيبه على هذا النحو الفائق ، سواء في تكوينه الجثماني البالغ الدقة والتعقيد ، أم في تكوينه العقلي الفريد ، أم في تكوينه الروحي العجيب .

والتركيز في هذا المقام على خصائصه الروحية .. فهي التي تنتكس إلى أسفل سافلين حين ينحرف عن الفطرة ويحيد عن الإيمان المستقيم معها ، إذ إنه من الواضح أن خلقته البدنية لا تنتكس إلى أسفل سافلين .

وفي هذه الخصائص الروحية يتجلى تفوق التكوين الإنساني ، فهو مهيأ لأن يبلغ من الرفعة مدى يفوق مقام الملائكة المقربين ، كما تشهد بذلك قصة المعراج ، حيث وقف **جبريل** عليه السلام عند مقام ، وارتفع **محمد بن عبد الله** ﷺ الإنسان إلى المقام الأسنى .

بينما هذا الإنسان مهيأ حين ينتكس لأن يهوي إلى الدرك الذي لا يبلغ إليه مخلوق قط : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ .. حيث تصبح البهائم أرفع منه وأقوم ؛ لاستقامتها على فطرتها ، وإلهامها تسبيح ربها ، وأداء وظيفتها في الأرض على هدى ، بينما هو المخلوق في أحسن تقويم يجحد ربه ، ويرتكس مع هواه إلى درك لا تملك البهيمة أن ترتكس إليه .

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ .. فطرة واستعدادًا .. ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ .. حين ينحرف بهذه الفطرة عن الخط الذي هداه الله إليه ، وبينه له ، وتركه ليختار أحد النجدين .

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ .. فهؤلاء هم الذين يبقون على سواء الفطرة ، ويكملونها بالإيمان والعمل الصالح ، ويرتقون بها إلى الكمال المقدر لها ، حتى ينتهوا بها إلى حياة الكمال في دار الكمال .

﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ .. دائم غير مقطوع ، فأما الذين يرتكسون بفطرتهم إلى أسفل سافلين ، فيظلون ينحدرون بها في المنحدر ، حتى تستقر في الدرك الأسفل .. هناك في جهنم ، حيث تهدر آدميتهم ، ويتمحضون للسفول .

فهذه وتلك نهايتان طبيعيتان لنقطة البدء .. إما استقامة على الفطرة القويمة ، وتكميل لها بالإيمان ، ورفع لها بالعمل الصالح .. فهي واصلة في النهاية إلى كمالها المقدر في حياة النعيم .

وإما انحراف عن الفطرة القويمة ، واندفاع مع النكسة ، وانقطاع عن النفخة الإلهية .. فهي واصلة في النهاية إلى دركها المقرر في حياة الجحيم .

ومن ثم تتجلى قيمة الإيمان في حياة الإنسان .. إنه المرتقى الذي تصل فيه الفطرة القويمة إلى غاية كمالها .. إنه الحبل الممدود بين الفطرة وبارئها .. إنه النور الذي يكشف لها مواقع خطاها في المرتقى الصاعد إلى حياة الخالدين المكرمين .

وحين ينقطع هذا الحبل ، وحين ينطفئ هذا النور ، فالنتيجة الحتمية هي الارتكاس في المنحدر الهابط إلى أسفل سافلين ، والانتهاء إلى إهدار الآدمية كلية ، حين يتمحض الطين في الكائن البشري ، فإذا هو وقود النار مع الحجارة سواء بسواء .

وفي ظل هذه الحقيقة ينادى الإنسان ..

﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴾ .. فما يكذبك بالدين بعد هذه الحقيقة ؟! وبعد إدراك قيمة الإيمان في حياة البشرية ؟! وبعد تبين مصير الذين لا يؤمنون ، ولا يهتدون بهذا النور ، ولا يمسكون بحبل الله المتين ؟!

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴾ .. أليس الله بأعدل العادلين حين يحكم في أمر الخلق على هذا النحو ؟! أو .. أليست حكمة الله بالغة في هذا الحكم على المؤمنين وغير المؤمنين ؟! والعدل واضح ، والحكمة بارزة ..

نسأل الله ﷻ أن يجعلنا من أولئك الذين آمنوا وعملوا الصالحات ،

وأن يعطينا الأجر غير ممنون ، إنه ولي ذلك والقادر عليه .

والحمد لله رب العالمين ..



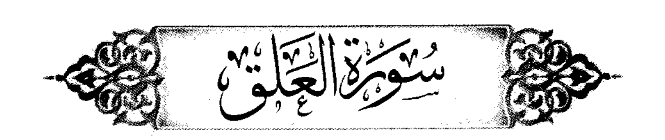






سورة العلق





أحمدك ربي ، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد ﷺ ، رحمة الله للعالمين ، وخاتم الأنبياء والمرسلين ، وبعد . .

فمع **سورة العلق** ، تلك السورة التي هي أول ما نزل من القرآن باتفاق ، فعن **عائشة رضي الله عنها** قالت : أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه – وهو التعبد الليالي ذوات العدد – قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى **خديجة** فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فقال : " **اقرأ** " .. قال : " **ما أنا بقارئ** " .. قال : " **فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني** ، فقال : " **اقرأ** " .. قلت : " **ما أنا بقارئ** " .. " **فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني** " ، فقال : " **اقرأ** " .. فقلت : " **ما أنا بقارئ** " .. فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني ، فقال : ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ** ﴾ .. فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده ، فدخل على **خديجة بنت خويلد رضي الله عنها** ، فقال : " **زملوني زملوني** " .. فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال **لخديجة** ، وأخبرها الخبر : " **لقد خشيت على نفسي** " .. فقالت **خديجة** : كلا والله ، ما يخزيك الله أبدًا ؛ إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق .. فانطلقت به **خديجة** حتى أتت به **ورقة بن نوفل بن أسد بن**

* مقدمة تفسير السورة من وضعنا .. " لجنة التحقيق " .

عبد العزى ابن عم **خديجة** ، وكان امرأً قد تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخًا كبيرًا قد عمي ، فقالت له **خديجة** : يا ابن عم ، اسمع من ابن أخيك . فقال له ورقة : يا ابن أخي ، ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى ، فقال له ورقة : هذا الناموس الذي نزَّل الله على **موسى** ، يا ليتني فيها جذعًا ، ليتني أكون حيًّا إذ يخرجك قومك . فقال رسول الله ﷺ : " **أومخرجي هم ؟!** " .. قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا ، ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي [1].

ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ .. أمر الله رسوله ﷺ أن يقرأ ، ولكن لا برسوم الناس في القراءة ، وهي سابقية التعلم في أن يقع ؛ ولذلك علل قوله ﷻ : **﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾** ، بأنه إذا كانت الأشياء لها أسباب من المقدمات ، والإنسان يوجد من أمه ، ومن أبيه ، وأبوه وأمه ، يوجدان من أبويهما ، وأميهما ، فمن خلق الخلق الأول الذي هو بلا أسباب ؟

إذن ، فالحق يقول له : إنك ستقرأ على غير طريقة الناس ؛ لأن طريقة الناس في القراءة تكون بالأسباب المتقدمة على القراءة ، وأنت ستقرأ لا بالأسباب ، ولكن بإرادة مسبب

1 ـ أخرجه البخاري (3 ، 4572 ، 6467) ، ومسلم (231) ، وغيرهما ، جميعًا عن عائشة رضي الله عنها

لأسباب الذي لا يحتاج في إيجاد الأشياء إلى سبب .

﴿ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ .. والعلق : هو المرحلة الأولى في التناسل الإنساني المعلوم لنا ، أما البدايات الأولى فكانت من تراب ، أو من طين ، أو من صلصال ، أو كل ذلك ، فلماذا عدل الحق ﷻ عن بداية الخلق الأول الذي هو التراب ، مع أنه أدل على كمال القدرة ؟!

ذلك لأن الحق ﷻ يخاطبنا في منطقة علمنا ، ومنطقة علم البشر أنهم لم يشهدوا الخلق من التراب ، وإنما خلقُنا من تراب جاء بإخبار الحق لنا ، فتلك جزئيات علمية لا وسيلة للعلم التجريبي فيها ، وأما كون الإنسان مخلوقًا من علق ، فهذا من الممكن أن يخضع لتجربة عملية ، بحيث نستطيع أن نبحث وراء النطفة حتى تصير علقة ، والعلقة حتى تصير مضغة ، ثم عظامًا ، ثم لحمًا من فوق العظام ، وهكذا .

فذلك واقع في نطاق علمنا التجريبي ، أما كونه خلقنا من تراب ، فهذا خاضع لإعلامنا بذلك ، ولم نشهد نحن ذلك ، وهذا يدلنا على أن العلم التجريبي منطقته الأمور المحسة التي يمكن أن تجري عليها تجربة ، أما الأمر الغيبي فلا يمكن أن تقوم عليه تجربة ، فلا مصدر لعلمنا به إلا من الحق ﷻ ، والحق يقول : ﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ ﴾[1] ، وكوننا مخلوقين من علق ، ثم تتطور العلقة إلى مضغة ، إلى آخره ... ، كل هذا أمر في حيز العلم التطبيقي ، ويسهل عليه أن يهتدي إلى منطق القرآن فيه ، والمنطق القرآني حينما تكلم عن علم الأجنة ، لم يكن قد سُبق إلى كلام من هذا النوع ، لا النطفة ، ولا العلقة ، ولا المضغة ، إلى آخره .

﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴾ .. ونجد أن الحق ﷻ قال : ﴿ الأَكْرَمُ ﴾ ، وهي صيغة تفضيل ، وهي تدل على وجود منطقتين : منطقة الكريم ، ومنطقة الأكرم ، فكأن الكريم هو الذي يلهمك الأسباب فتتعلم بها ، ولكن الأكرم هو الذي يعلمك بلا وجود لهذه الأسباب .

---

1 - سورة : الكهف ، الآية : 51 .

﴿ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ .. فهل المقصود بالإنسان هنا مطلق الإنسان ، أم خصوص الإنسان الأول ؟ نعم ، هو مطلق الإنسان ، ويصير إلى خصوصية الإنسان الأول أيضًا .

فعِلم البشر كله يأتي من مقدمات تُستنتج منها الأشياء ، هذه المقدمات لو سلسلناها لوجدناها تنتهي كلها إلى الأمر البديهي الموجود في الكون ، الذي لا يختلف فيه أحد أبدًا ، حتى أعقد نظريات العلم .

ودللنا على ذلك بتسلسل النظريات الهندسية ، فعندما يأتي الإنسان ليبرهن على نظرية ما فإنه يحتاج في البرهنة إلى أن يقول : حسب نظريتي ، أو يقول : حسب نظرية ثمانين مثلاً ، أو سبعين ، إلى أن يقول : نظرية ثلاثة ، وهذا البرهان حسب نظرية واحد ، وهكذا ... ، فإذا جاء عند نظرية واحد في البرهنة عليها ، لا يقول : كذا يساوي كذا حسب نظرية فلان ؛ لأن النظريات انتهت إلى آخر حدها ، وإنما يقول : حسب بديهية فلان ، وهي البديهية التي يشترك كل الناس فيها .

إذن ، فأعقد النظريات العلمية ، ما جاءت إلا من الأمر البديهي .

فالحق عندما علم الإنسان ما لم يعلم ، ترك في أصول الكون بديهيات ، هذه البديهيات لا تتطلب من العقل البشرى إلا أن يلتفت إليها فقط .

وبما أنه لم يسمع ، فما الذي يحاكيه ؟ لا يمكن إلا إذا طرأ الصمم بعد سماعه للأشياء ، فإن كان سمع الأشياء ، فالذي سمعه أولاً يتكلم به ، وإن تعلم في هذه الأثناء فمن الممكن أن يقرأ ، ولذلك قال ﷻ : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ ﴾[1] ، فأتى بالبكم بعد الصم ؛ لأنه هو العلة الأساسية في عدم السماع ؛ لأن اللغة بنت المحاكاة ، فما تسمعه الأذن يحكيه اللسان .

والحق ﷻ حين أراد أن يضرب لنا مثلاً في فتية أهل الكهف ، ماذا قال فيهم ؟ وهو يريد أن ينيمهم ثلاثمائة سنين وتسعة ، أنامهم في كهف ، والكهف في جبل ، والجبل في

1 – سورة : البقرة ، الآية : 18 .

صحراء ، والصحراء فيها عوامل طبيعية ، من أعاصير ، وعواصف ، وزوابع ، وغير ذلك من الأشياء الأخرى التي تقلق النوم ، وهو يريد أن ينيمهم نومًا طويلاً ، ماذا قال فيهم ؟ قال : ﴿ فَضَرَبْنَا على آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾[1] ، وكأنهم خالفوا النوم الطبيعي ؛ لأن الحق ﷻ قد ضرب على آذانهم ، فضرب على الأداة التي لا تذهب مهمتها في النوم : ﴿ فَضَرَبْنَا على آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ .

فإذا ما جئنا للإنسان الأول ، نجد أن الإنسان الأول ، وهو أبونا آدم عليه السلام ، تلقى من الله العلم بالسماع أولاً : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾[2] ؛ لأن المعرفة جاءت لبني آدم بالتسلسل ، فأنا تعلمت من أبي ، وأبي تعلم من أبيه ، وهكذا ، حتى نصل إلى أبي البشر جميعًا آدم عليه السلام ، فمن الذي علم آدم ؟ إنه ربه ﷻ ، الذي علم الإنسان مالم يعلم .

وإذا نظرت إلى الإنسان هنا نظرة عامة تفهم أن : ﴿ عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ ، أي : أوجد في الوجود ما يعينه على العلم ، من طاقة فكرية ، وإدراكات ، ومادة ينفعل بها ، فإذا نظرت للإنسان الأول ، لم تجد شيئًا من هذا ؛ لأنه فاقد لغة نقل العلم ، وما دام فاقدًا للغة النقل ، فلابد من تعلمها أولاً .

انظر إلى عبارات القرآن الدقيقة ، حيث قسم الكلام إلى : اسم ، وفعل ، وحرف ، فالاسم له مدلول يدل على معنى مستقل بالفهم ، وليس الزمن جزءًا منه ، والفعل يدل على معنى مستقل بالفهم ، والزمن جزءٌ منه ، والحرف يدل على معنى ، لكنه غير مستقل بالفهم ، فلابد وأن يتصل بغيره حتى يفهم منه معنى ، فاللفظ قد يعطي معنى مرتبطًا بالزمن ، أو غير مرتبط بالزمن ، فالكلام يتكون من هذه الأشياء : الاسم ، والفعل ، والحرف ، ولكن الفعل الذي يدل على الحدث مربوطًا بالزمان ، الدلالة عليه اسم أيضًا ، بدليل أننا نسميه بـ

1 – سورة : الكهف ، الآية : 11 .

2 – سورة : البقرة ، الآية : 31 .

(الفعل) ، فدُلَّ على الفعل باسمه ، ودُلّ على الحرف أيضًا باسمه ، وكأن الاسم هو الأصل في الدلالات ، ولذلك لا نُعَلِّم الطفل الأفعال أبدًا ، وإنما نُعَلِّمه أسماء الأشياء أولاً ، هذه نخلة ، هذه سماء ، هذه كذا ، وهكذا ... ، ثم يتعلم الأفعال ، هذا أكَل ، وهذا شَرب ، فلا نعلمه الأحداث أولاً ، ولا الحروف ، وإنما الأسماء .

إذن .. فكل وظيفة تعليم اللغة على الاسم ، والاسم يشمل في مدلوله : الاسم الاصطلاحي ، والفعل ، والحرف .

إذن .. فقول الحق ﷻ : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ ، يدل على أنه ﷻ علمه ما يقيم به لسانه ليتفاهم ، أي : الاسم ، والفعل ، والحرف ، الذي به يربط أجزاء الكلام .

والحرف يأتي على معنيين : (**حرف المبني**) ، مثل : الكاف ، والتاء ، والباء من كلمة " كتب " ، بحيث إذا انفصل لا يدل على معنى ، أما (**حرف المعنى**) : فهو إن انفصل دل على معنى ، كما تدل الكاف على التشبيه مثلاً ، واللام على الملكية ، فحرف اللام في : (**لفلان**) ، حرف معنى يدل على الملكية ، أما حرف اللام في : (**قلم**) ، فهي حرف مبنى لا يدل جزؤه على جزء معناه ، إذن ، فالحروف نوعان : معانٍ ومبانٍ ، وبهذا تكون داخلة في الأسماء أم لا ؟ نعم ، داخلة فيها .

إذن ، فقول الحق ﷻ : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ ، يدل على أنه علمه ما يقيم به لسانه وبيانه ؛ ولذلك جاء في **سورة الرحمن** : ﴿ الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾[1] .

كيف يَبين عن ما في نفسه إلاّ إذا تكلم ؟ ولا يَبين عن ما في نفسه إذا تكلم إلا إذا كان من يخاطبه على علم بمدلولات الألفاظ ، فلو تخاطب غير العربي مع العربي لما استطاع التفاهم معه ؛ لأنه يجب أن يكونا على علم بمدلولات الألفاظ معًا .

---

1 - سورة : الرحمن ، الآية : 1 : 4 .

فإذا أنا تقعرت في اللغة العربية مع من يتكلم العربية ، ولكن أتيت بألفاظ متقعرة ، وليست في مستوى المتكلم العادي ، وإن كانت عربية ، والمخاطَب عربي ، فلن يفهم شيئًا .

فيجب أن يؤتى آدم البيان ، بمعنى أن يعلمه إياه ، وبعد ذلك يفهم عن الله ، قال : ﴿ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ﴾[1] ، فهم آدم الأمر ، وأنبأهم بعد ما كان تعلم الأسماء كلها ، وقد استخدم في أمره بتعليم الأسماء : الاسم (آدم) ، والفعل (أنبئ) ، والحرف (بـ) ، إذن ، هذه كلها أسماء من تعليم الله له .

وهذا أخرجنا من إشكالات متعددة في علم اللغات حول نشأتها ، هذه الإشكالات أنهم قالوا : إن الله إذا كان قد علم آدم الأسماء كلها ، ثم نقلها آدم بالكلام ، فسمعها بنوه بالمحاكاة ، لكان من الواجب ألا يزيد لفظ عما تعلمه آدم ، ونحن نشاهد أن المجامع اللغوية في أي بلد من البلاد تخترع أسماء لبعض مكتشفاتها التي لم تكن موجودة ، فمعنى اختراعهم لبعض المكتشفات التي لم تكن موجودة ، دليل على أن الأسماء ليست توقيفية .

إذن .. فهذا الرأي يرد عليه من هذه الناحية ، فمن قال : إن الأسماء وضعية ، قصدوا بالتواضع : أن نتفق على أن معناها كذا ، فالأرض معناها كذا ، والسماء معناها كذا ، هذا الاتفاق إذا أردنا أن نتواطأ جميعًا ونتفق عليه ، ألا يريد منا تفاهمًا ؟! أم بماذا سنتفق ؟! فلابد من لغة ، فإذا كانت اللغة تحتاج إلى توافق حتى نتفق على معاني الألفاظ ، فما هي اللغة التي نتفق بواسطتها ؟! فلو أن التواضع من البشر ، لاحتاج التواضع إلى لغة يتفاهمون بها ، واللغة تحتاج إلى تواضع ، يكون دورًا ، أو تسلسلاً .

فلابد وأن ينتهي الأمر إلى أن هناك من علمنا ، فإن قيل : فإن كان هناك من علمه ، فلِمَ تزيد ألفاظًا جديدة للمكتشفات ؟! أجيب عليه : بأن الحق ﷻ أمد كل آلة من آلات الإنسان الإدراكية بمتعلقاتها ، فأمد العين بمرائيها ، وأمد الأذن بمسموعاتها ، وأمد الأنف

---

1 – سورة : البقرة ، الآية : 33 .

بمشموماتها ، وأمد اللمس بملموساته ، وأمد الذوق بمتذوقاته ، ثم بقي اللسان .. فما هي متعلقاته ؟ إنه يمده بالألفاظ ، وبعد ذلك هو يأخذ الألفاظ التي أمده الله بها ، فيُكَوِّن اللغة التي يتفاهم بها ، ثم يتفاهم بواسطة هذه الألفاظ على ما تَجِدُّ به نُظُم الحياة ، إذن فاللغة كانت أولاً توقيفية من الله ، ثم انتهت وضعية .

إذن .. فقول الحق ﷻ : ﴿ **عَلَّمَ الإنسان مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾ ، إما أن يراد بها الإنسان العام ، وإما أن يراد بها الإنسان الخاص ، وحين نردها ، نردها إلى : ﴿ **وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا** ﴾ .

كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَـٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾

﴿ **كَلاَّ إِنَّ الإنسان لَيَطْغَى** ﴾ .. وردت كلمة : (**كلا**) في القرآن الكريم ثلاثًا وثلاثين مرة ، ولم ترد في نصف القرآن الأول ، لكنها أول ما وردت وردت في **سورة مريم** .

وكلمة : (**كل**) إذا وجدت ، فاعلم أن قبلها كلام يُردع عنه ويُزجر .

فإذا كانت كلمة : (**كلا**) ، كلمة ردع وزجر ، فأين المردوع ، والمزجور عنه في قوله : ﴿ **كَلاَّ إِنَّ الإنسان لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى** ﴾ ؟!

إن العلماء يقولون : إذا لم تجد ما يردع عنه ويزجر فانقل (كلا) إلى (حقـا) ، يعني : حقًّا إن الإنسان ليطغى ، فهو يشير إلى مبدأ حقيقي ، وهو أن الإنسان يطغى إذا رآه استغنى .

وحين لم نجد في هذه الآية التي معنا ما يردع ويزجر عنه في الظاهر ، ولكنا لما استرجعنا قوله ﷻ : ﴿ خَلَقَ الإنسان مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإنسان مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ ، فهذه كان المفروض أن تقابل بالشكر ، ولكنها لم تقابل بالشكر من الناس ، فكأنه ردع عن واقع لا ينسجم مع المقدمات التي ذكرها الله ﷻ ، وكأن الله ﷻ قد أعطانا النعم لنشكر نعمه ، ولكن واقعنا أننا لم نشكر .

وقوله ﷻ : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإنسان لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ﴾ ، يدل على أنه قد حصل لنا غرور بالعلم ، فانفصلنا عن الحق ، فكلما تقدمنا في العلم زدنا غرورًا بعقولنا وذاتيتنا ، فننفصل عن الحق ؛ ولذلك فإن كل الأمم والشعوب عندما تتقدم في وسائل النبوغ من اختراعات واكتشافات يزداد سلطانها بقوة العقل ، أما قبل ذلك فلم تكن لقوة العقل تدخل كبير في حياة الناس ، فقبل ذلك مثلاً عندما كان الناس يفقدون الماء لم يكن لهم إلا الله ﷻ ؛ لأن الله هو الذي ينزل الماء ، فيرجعون إليه ﷻ .

أما الآن ، فعندما يفتح المرء الصنبور ولا يجد ماءً ، فإنه لا يفزع إلى الله ، ولا يخطر ذلك بباله ، بل إنه يتصل بشركة المياه لتصلح آلة ضخ المياه ، وهذه كلها أسباب فقط ، ليست هي المسبب .

﴿ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ﴾ .. وتلك هي طبيعة الإنسان ، ما لم يعصمها عاقل العصمة ، فالحق ﷻ يربي أناسًا لا يفتنون في هذه الأسباب ، فإذا أوتوا نعمة فهم يذكرون دائمًا أن مصدرها هو الله ﷻ ، كما قال ﷻ : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالاَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[1] ، ثم بعد ذلك : ﴿ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ

---

1 – سورة : النمل ، الآية : 15 .

الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ﴾[1] .

إذن .. فهؤلاء لم يغرهم ما وصلوا إليه ، مع أن سـليمان عليه السلام وصل إلى ما لم يصل إليه خيال بشر ، فالخيال أن يحوز المرء القوة والمال والملك والسلطان ، لكن أن يسخر له الجن ! ! فهذا لم يسبق إليه الخيال ، أن يسخر له الريح ! ! ويعرف لغة الطير ، بل ويكلمه ! ! فهذه مسألة عظيمة ، ونعمة جسيمة ، ومع ذلك فإنه عليه السلام لم يغتر بها ، وما زادته إلا تقربًا من ربه ، وشكرًا له على نعمه .

وضرب الله عز وجل لنا مثلاً في **سورة الكهف** برجلين : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴾[2] ، ولكن الذي أنعم الله عز وجل عليه : ﴿ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا * قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً * لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَوْلاَ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاء اللَّهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَ بِاللَّهِ إِن تُرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا ﴾[3] ، فكأنك حينما يأتيك الخير يجب ألا تغتر ، وأن تردها إلى مصدرها : ﴿ مَا شَاء اللَّهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَ بِاللَّهِ ﴾ ، لكن الإنسان الغافل بمجرد أن يصله خير يأتيه معه الغرور ، فيقول : هذا من عملي بكذا ، وعلمي بكذا ، وفطنتي لكذا ، كما قال قارون : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي ﴾[4] .

إذن .. فالغرور والطغيان المشار إليه في قوله تعالى : ﴿ كَلاَ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ

---

1 – سورة : النمل ، الآية : 19 .

2 – سورة : الكهف ، الآية : 32 .

3 – سورة : الكهف ، الآية : 35 : 39 .

4 – سورة : القصص ، الآية : 78 .

اسْتَغْنَى ﴾ ، تستلزم مقابلاً فوريًا ، فسرعان ما تزول منه أسباب الاستغناء ، فينقلب طغيانه في : ﴿ يَطْغَى ﴾ ضدًا ، فلو كان صادقًا مع نفسه لاستمر في شعيرته هذه ، ولكن الإنسان لا يغش نفسه ، وإن غش كل الناس ، مهما أكثرت الناس عنه ، فإنه لا يغش نفسه أبدًا ، فيرجع سريعًا إلى ربه .

ويضرب القرآن الأمثلة المتعددة في هذا ، مثلاً : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ ﴾[1].. سبحان الله .

وفي آية أخرى يقول : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾[2]، جعل لله أندادًا من فكره وذكائه وعقله وفطنته .

ويقول في آية أخرى : ﴿ فَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ * قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[3].

وتلك هى طبيعة الإنسان فيما بينه وبين نفسه ، لا يخجل أن يسأل الله ﷻ ؛ لأنه لا يراه أحد ، هذا عند انفراده ، وفي الاجتماع أيضًا ، فلا يخجل من أن يطلع أحد على ذلك ، قال ﷻ : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ * ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾[4].

وفي آية أخرى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى

---

1 – سورة : يونس ، الآية : 12 .

2 – سورة : الزمر ، الآية : 8 .

3 – سورة : الزمر ، الآية : 49 ، 50 .

4 – سورة : النحل ، الآية : 53 ، 54 .

الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾[1] ، وقال أيضًا : ﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُواْ بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾[2].

إذن ، فقول الحق ﷻ : ﴿ كَلاَ إِنَّ الإنسان لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ﴾ ، تعطي المقابل ، فإذا انحلت عنه أسباب الاستغناء ، زال عنه الطغيان ؛ ولذلك تجد أن كفر كل الحضارات التي أعطاها القرآن لنا مثلاً سببه الطغيان : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلاَدِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلاَدِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عليهم رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾[3] ، وكذلك : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾[4] ، يقول لهم : انظروا إلى الذين سبقوكم من الحضارات التي كانت منتشرة .

وكذلك يقول ﷻ : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾[5] ، ﴿ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ ﴾ ، فهذا ليس من سعيكم ، ولكن ظنوا أن عبقرية بناء السد ، وحساب المياه ، وتحسبهم للغيث وقت نزوله أغناهم ، رغم أنهم لم يكلفوا إلا بأمرين ، هما : أن ينفضوا عن أنفسهم داء الغرور فينسبوا الرزق لله ﷻ، كما ورد في الآية : ﴿ رِزْقِ رَبِّكُمْ .... ﴾ ، والأمر الثاني هو الشكر: ﴿ وَاشْكُرُوا لَهُ ﴾ .

---

1 – سورة : الإسراء ، الآية : 67 .

2 – سورة : الروم ، الآية : 33 ، 34 .

3 – سورة : الفجر ، الآية : 6 ؛ 13 .

4 – سورة : الشعراء ، الآية : 128 ؛ 130 .

5 – سورة : سبأ ، الآية : 15 .

ولكن كانت النتيجة : ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عليهمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾[1] ، ومعنى : (أعرضوا) ، أي : امتنعوا عن الأمرين ، فأكلوا ظنًّا منهم أنه من سعيهم ونجاحهم ، ولم يشكروا ، ﴿ فَأَرْسَلْنَا عليهمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ﴾ .. فما عاقبناهم بالجفاف في المقابل ، بل بعقاب من جنس النعمة ، اعتزوا بالماء ، فكان جزاؤهم من جنس نعمتهم : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عليهمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ ﴾[2].

وكل الحضارات التي قصها القرآن علينا ، سبب زوالها هو عدم وجود عنصر قيم موصول بالزمن ، بل عنصر غرور موصول بذاتية النفس ، وحيث أنه موصول بالنفس ، فإن الموصول بالمتغير يتغير ، فكان التغير ما حدث لكل حضارة منهم .

﴿ كَلاَّ إِنَّ الإنسان لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ﴾ .. وبعد ذلك يقول له : إنك مهما استغنيت ، فإنك راجع إلى ربك ، فلا تعتقد أنك انفلت من الحق ﷻ باستغنائك ، بل سترجع إليه حينما تصيبك المضرات التي لا تقوى عليها ، وهذا أوسع ، أي : سترجع لنا في الدنيا قبل الآخرة .

﴿ إنَّ إلى رَبِّكَ الرُّجْعَى ﴾ .. فإن لم يكن في الدنيا ، فستكون النهاية الأخيرة إليه ، وأمر ستنتهي إليه وقد بدأت فيه ، فلا مجال للفرار ، لا يمكن أن تفلت منه أبدًا ، طالما أنك بدأت فيه ، وبعد ذلك ستعود إليه ، فلا خير في نعيم بعده النار ، ولا شر في مكروه بعده الجنة ، وعندما توقن بهذه النتيجة تسأل النفس : ماذا تفعل لو ظللت مدة العمر مثلاً في طغيان إذا كان : ﴿ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى ﴾ ، ويقدم الجار والمجرور ليفيد الاقتصار عليه ﷻ ، فالرجعى إليه لا إلى غيره .

1 – سورة : سبأ ، الآية : 16 .

2 – سورة : سبأ ، الآية : 16 ، 17 .

و (**الرجعى**) ، سواء كانت عندما تهزه الأحداث دعانا لجنبه أو قاعدًا أو قائمًا ، أو الرجعى النهائية ، حيث إنك مهما أوتيت من متع الدنيا فسترجع إليه .

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ﴾ .. كلمة : ﴿ أَرَأَيْتَ ﴾ عند سماعها تدل على أمر عجيب ، فهذه المسألة ليست مسألة عادية ، بل مسألة عجيبة ، ومجيئها بعد : ﴿ إِنَّ الإنسان لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى * إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى ﴾ ، فكأنها حيثية للحكم الذي سبق أن قاله : ﴿ إِنَّ الإنسان لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ﴾ .

﴿ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴾ .. فالمعقول أن تطيع المصلي فتفعل فعله ، فإن لم تطعه ، فهذا طغيان ، أما أن تنهاه ، فهذا طغيان آخر ، ومرحلة أخرى ، فإن كان هو المطلوب منه أن يأمر الناس بالفعل ، فهذه مرحلة ثالثة ، وطغيان ثالث .

ثلاث مراحل: المرحلة الأولى: أنك لم تطعه في فعله ، **المرحلة الثانية:** أنك تريد حمله على ضلالك في أنك لا تصلي ، **المرحلة الثالثة:** أنك لا تفطن إلى أن هذا هو الرسول المكلف بإيصال هذا الأمر للناس ، فهو ينهى المأمور من الله أن يأمر هو بهذه الأشياء ، فهذه أشياء تدل على الطغيان المركب ، طغيان في قمته وذروته .

﴿ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى * أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ .. وكأن الحق ﷻ أراد أن يقضي بين الخصمين ، فالتفت لكل بما يناسبه ، والحادثة كانت بين **أبي جهل** وبين الرسول ﷺ ، فعندما أراد الاستدلال على طغيان الإنسان ، وأنه يتجاوز حدوده قال : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴾ .

وبعد ذلك التفت ، فهو ينهى ، إذن فهناك ناهٍ ، ومنهي عنه ، المنهي قد يكون نوعين : نوع من الاتباع ، ونوع هو المتبع ، فكأن الحق حينما قال : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإنسان لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى * إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى ﴾ ، فكلمة : ﴿ إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى ﴾ فيها مقابلة ، فالحق ﷻ عرض لنا الصورة ، وفي عرضه للصورة رغم أن القرآن نزل بعد الحادثة التي

حصلت ، فلم يكن أبو جهل ساعة النزول ينهى رسول الله ﷺ عن الصلاة ، بل لقد نهى بالفعل ، ولكن القرآن جاء بالصورة الحالية ، فكأنه يصور الموقف حينها ، فلم يقل : أرأيت الذي نهى عبدًا إذا صلى ، ولكنه استحضر الصورة فقال : ﴿ يَنْهَى ﴾ كأنه يصور الموقف ، فهنا يوجد خصمان .

والقصة معروفة ، فعن **أبي هريرة** رضي الله عنه قال : قال **أبو جهل** : هل يعفر **محمد** وجهه بين أظهركم ؟ قال : فقيل : نعم .. فقال : واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته ، أو لأعفرن وجهه في التراب .. قال : فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي ، زعم ليطأ على رقبته ، قال : فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه ، قال : فقيل له : ما لك ؟! فقال : إن بيني وبينه لخندقًا من نار ، وهولاً ، وأجنحة .. فقال رسول الله ﷺ : " **لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا** "[1].

إذن ، فالقرآن يصور لك الحادثة وقت حدوثها كأنك تشاهدها رأي العين ، لكن هذه الحادثة واقعة عندنا في أمور كثيرة ، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

إذن .. كل ناهٍ عن الصلاة ، وكل معوق عن الصلاة ، وكل من يشغل الإنسان عن الصلاة يدخل تحت عموم هذه الآية ، وكأن للآية صورًا كثيرة ، ولا يزال في كل قوم أبو جهل .

وللسلف في هذه الآية مواقف لطيفة ، فقد رأى **سيدنا علي** رضي الله عنه قومًا يصلون قبل صلاة العيد ، وهذا مخالف لسنة النبي ﷺ ، فقال له بعض الصحابة : ألا تنهاهم ؟ فقال : لا أنهاهم عن الصلاة ، وإنما أقول لهم : ذلك لم يفعله رسول الله ﷺ خشية أن أكون فيمن نهى عبدًا إذا صلى .

﴿ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى * أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ .. يلتفت الحق عز وجل بعد ذلك إلى الناس ويقول : ﴿ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى *

---

1 - أخرجه مسلم (5005) .

﴿ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ .. فكأنه التفت أولاً للناهي ، ثم التفت إلى المنهي ، ويكرر : (أرأيت) ، دليلاً على أن هذه القضايا قضايا عجيبة ، فهل يكون الكلام كله بالنسبة لأبى جهل؟ بالطبع لا ، فيكون : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴾ ، و: ﴿ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ .. معقولاً أن تكون بالنسبة لأبى جهل، ولكن قوله ﷻ : ﴿ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى ﴾ فكيف تكون بالنسبة لأبي جهل؟ يجاب بأن لأبي جهل حالتين : حالة زعم ، وحالة حقيقة واقعة ، أما الزعم الذي زعمه فهو أنه على الهدى والحق ، والحقيقة الواقعة فهي أنه كذب وتولى ، والرد التعجبي من الحالتين : حالة الزعم ، وحالة الحقيقة .

﴿ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴾ .. فهناك إذن شاهد يحصي ، وما دام الحق ﷻ هو الشاهد فالمسألة إذًا لا تحتاج إلى بينة ، ولو جاءت البينة فستكون تطوعًا : ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [1].

﴿ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴾ .. أتي هنا أيضًا بـ ﴿ كَلَّا ﴾ ، فالردع والزجر عن كل سبب .

يهدد الله ﷻ الكفار ، ومادام يهدد الكفار فالتهديد واقع ؛ لأنه لو هدد ولم يقع في جزئية واحدة ، لصارت مدعاة للشك في القرآن .

﴿ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴾ .. وهو بكفره لم ينته ، فلابد من عقابه بحادثة .

و (الناصية) : التي هي مقدم الشعر التي يُشَدُّ منها ، والجر من الناصية دليل على المهانة ؛ لأنه لا يُسحَب بهذه الطريقة إلا الحيوان ؛ لأن الناصية هي محل تكريم الإنسان .

ومعنى ﴿ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ ﴾ ، أي : ينتهي عن مطاردة الحق ، أو لئن لم ينته عن الأسباب

---

1 – سورة : فصلت ، الآية : 21 .

المسببة لهذا النهي ، أي كفره .. ﴿ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴾ .

﴿ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ .. ومع أن الناصية هي محل تكريم الإنسان إلا أن هذه الناصية كانت السبب في هلاك صاحبها ؛ فهي ليست سوى ﴿ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ .

﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴾ .. وكان أبو جهل قد قال للرسول ﷺ : أتشتد عليَّ ، وأنا أكثر أهل الوادي ناديًا ؟! فرد الله ﷻ عليه : ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ * كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾[1] .

﴿ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴾ .. و (الزبانية) هم شرطة جهنم ، أعاذنا الله منها .

﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ .. فيه مقابلة : ﴿ لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ .. وكأن هنا متقابلين : أبو جهل يدعوهم إلى عدم الصلاة ، والصلاة تقربه من الحق ، فاعقد مقارنة ، فمع من تحب أن تكون ؟!

فهل تستحق الصلاة مغالبة النفس ومغالبة الطغيان أم لا ؟!

قطعًا تستحق ذلك كله ؛ ولذلك قال النبي ﷺ : " أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد "[2] .. لأن هذه الصلاة حضور بين يدي الله ﷻ ، وأما السجود فهو أقرب ما يكون الحضور من الحاضر .

وقالوا : إن الحق ﷻ قد كلَّف أمة محمد ﷺ بالصلاة لما كان في المعراج ، فكان حظيرة القرب التي التقى فيها رسول الله ﷺ بحضرة ربه ، وكان أقرب ما يكون إلى الرب ، فكانت التحية لأمته ما يعطيهم ذلك القرب ، فنزل من القرب بالقرب .

---

1 - أخرجه الترمذي (11 / 187) ، والنسائي في الكبرى (6 / 518) ، والحاكم في المستدرك (8 / 500) ، جميعًا من طريق ابن عباس رضي الله عنهما .

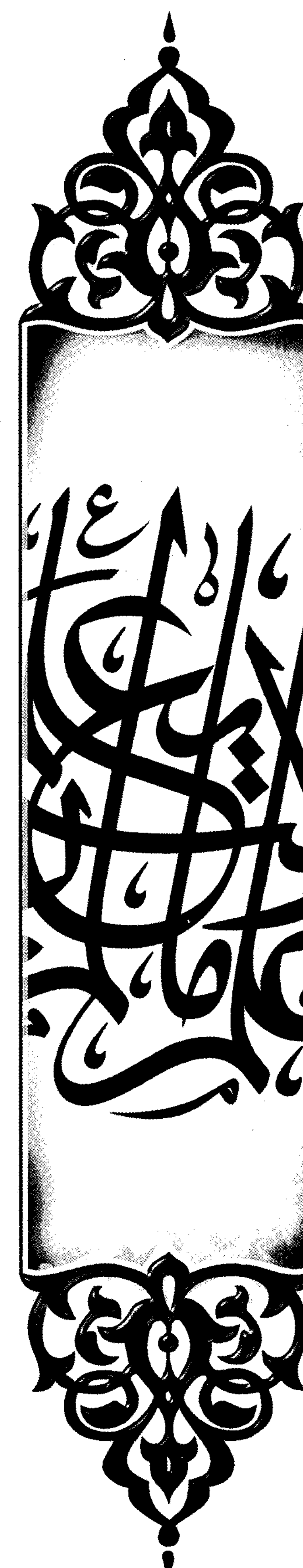
2 - أخرجه مسلم (744) ، وأبو داود (3 / 41) ، والنسائي (4 / 336) ، وأحمد (19 / 126) ، جميعًا من حديث أبي هريرة .

وهذه هي فضيلة الصلاة ، وهذه هي فضيلة هذه الأمة المختارة المنتقـــاة ، التي فضلها الله ﷻ على جميع الأمم .

نسأل الله ﷻ أن يلهمنا التوفيق في كل ما نأتي وما ندع، وأن يرزقنا القرب والزلفى إليه وإلى الجنة ، ومن كل عمل يقربنا إليه وإلى الجنة .

والحمد لله رب العالمين . .





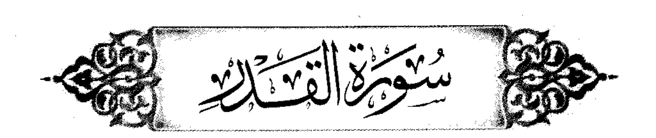




سورة القدر







أحمدك ربي ، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد ، رحمة الله للعالمين ، وخاتم الأنبياء والمرسلين ، وبعد ..

فمع **سورة القدر** ، والحديث في هذه السورة عن تلك الليلة الموعودة المشهودة التي سجلها الوجود كله في فرح وغبطة وابتهال .. ليلة الاتصال المطلق بين الأرض والملأ الأعلى .. ليلة بدء نزول هذا القرآن على قلب **محمد** ﷺ .. الليلة ذات الحدث العظيم الذي لم تشهد الأرض مثله في عظمته ، وفي دلالته ، وفي آثاره في حياة البشرية جميعًا .. العظمة التي لا يحيط بها الإدراك البشري .

والسياق الترتيبي في المصحف غير السياق الترتيبي في النزول ؛ لأن إنزال القرآن جاء تبعًا للأحداث التي تتطلب أحكامًا ، فالمناسبة بين النازل والحادثة أمر معقول ، فحين توجد الحادثة يوجد الحكم لها ، وذلك أدعى إلى إثبات الحكم ، لأن وجود الشيء عند تهيؤ النفس له ، وطلبها أمكن لتغلغل ذلك الشيء ، ولكن الشيء إذا جاء عن غير حاجة ، فربما إذا جاءت الحاجة ضل الإنسان عنها ، ولكن إذا وجدت الحاجة ، وجاء الشيء من النفس ، تمكن من الإلحاح في الطلب .

ولكن القرآن له نسق محفوظ ، أو كما كان في اللوح المحفوظ ، فهل المناسبة الترتيبية التي نجدها في المصحف ، تخالف المناسبة الإنزالية ؟ .. كلا ، أيضًا حين يوجه لسورة أو لآية ما في المصحف ، في غير المكان الذي كانت فيه بعد المناسبة ، توجد أيضًا المناسبة .

إذن ، فهناك مناسبة حدث ، وهناك مناسبة إنزال ، فإذا نظرنا إلى **سورة القدر** ،



وجدناها قد أخذت موقعها الطبيعي من **سورة اقرأ** ؛ لأن **سورة اقرأ** وإن كانت لم تحدد المقروء ، فإن المطلوب في ذلك الوقت هو إحداث القراءة من أمي لم يعرف القراءة ؛ ولذلك انطوى المقروء : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾[1] ، ماذا يقرأ ؟ لا شك أن الذي يقرؤه هو القرآن ، إذن ، فكأن الحق ﷻ بعد أن تكلم عن أولية ما نزل من القرآن ، تكلم عن الظرف الذي نزل فيه القرآن ، ولذلك تجد الحق ﷻ لم يقل في كلامه : إنا أنزلنا القرآن في ليلة القدر في ابتداء الكلام ، ولكنه قال : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ ﴾ ، فجاء ضمير الغيبة ، فكأن المعروف : اقرأ القرآن ، أو اقرأ الكتاب ، فتأتي السورة بعدها : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ .

إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ﴿٢﴾ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ﴿٥﴾

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ .. هنا نجد أن الحق ﷻ استهل السورة بـ : ﴿ إِنَّا ﴾ ، وإذا استعرضنا أساليب القرآن في التعظيم ، وجدنا الجمع والإفراد للمتكلم كما يقتضيه الوصف ، وجدنا أن الحق حين يتكلم عن شيء يتقلب اتجاهه تقلبًا من صفات جمال ، أو صفات كمال ، حين يخلق خلقًا ، لابد أن تتدخل صفة العلم ، وصفة الحكمة ، وصفة القدرة ، فالأشياء التي يتطلبها الفعل الذي يريد أن يتعرض له الحق تتقلب صفات متعددة ، هذه الصفات المتعددة تتكاتف بجلالها وكمالها في جمال هذا الشيء على علم وحكمة وقدرة وبعزة .

1 – سورة : العلق ، الآية : 1 .

إذن ، فالحق ﷻ له صفات كمال وصفات جمال ، كل صفة لها شأنها في الخلق .

حين يتكلم الحق عن شيء يتطلب تكتل الجمال أو الكمال فيه ، فيقول : إنا .. لكنه إذا تكلم عن ذاته ، ويريد من عبده أن يتوجه إليه ، لا يقول : إنا نحن الله ، إنما يقول : إنني أنا الله ، لا إله إلا أنا .

إذن ، فحين نتوجه إليه بالعبادة نلمح صفة التقرب ، وحين يعرض علينا أنعامه يتعرض لصفة الجمع ؛ لأن الإنعامات تتطلب صفات متعددة ، ولكن في مقام التودد والعبادة والتوحيد يأتي بضمير التفرد دائمًا : ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي ﴾[1] ، لم يقل : فاعبدنا ، فإذا استقرأت القرآن على هذا الضوء ، فالإفراد حين يتكلم إنما يراد به وحدة ألوهيته ووحدة عبوديته ، وعبادتك إلهًا واحدًا ، وحين يريد الامتنان بوجود شيء يقول : خلقنا ، وقدرنا ، وأنزلنا .

إذا نظرنا إلى قوله ﷻ : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا ﴾ .. فإن مادة النزول بالنسبة للقرآن وردت على صور متعددة من الارتقاء ، نجد أنها مرة وردت : (نَزَلَ) مجردة من الهمز والتضعيف ، كما قال ﷻ : ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾[2] ، ووردت : (نزَّل) مضعَّفة ، كما في قول الحق ﷻ : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾[3] ، ووردت : (أَنزل) متعدية بالهمزة ، كما في قول الحق ﷻ : ﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ﴾[4] ، ووردت : (أُنزل) ، كما في قول الحق ﷻ : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾[5] .

---

1 – سورة : طه ، الآية : 14 .

2 – سورة : الإسراء ، الآية : 105 .

3 – سورة : الفرقان ، الآية : 1 .

4 – سورة : الشورى ، الآية : 17 .

5 – سورة : البقرة ، الآية : 4 .

فما هو الملحوظ في تعدد هذا الإنزال ؟! الفعل حينما يكون مجردًا ، فهو غير متعدٍّ بنفسه ، إلا أن القرآن استعرض آياته ، أن الحق ﷻ حينما ينزل المجرد ، أي : اللازم غير المتعدي ، مرة أسند فيه إلى القرآن ، ومرة أسند : (نزل) إلى **جبريل** عليه السلام ، فهو ﷻ مثلاً يقول مثلاً : ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾[1] ، أي : القرآن ، فيكون معناها : وبالحق نزل ، فأسند نزل إلى القرآن .

وفي آية أخرى يقول : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * على قَلْبِكَ ﴾[2] ، فيصير النزول مرة للقرآن ، ومرة نزل به الروح الأمين ، والاثنان نزلا ، وهذا هو الملحظ في هذا ، يقول الحق ﷻ : نزل القرآن ، لم يتعرض لنزل فقط ، وحين يقول : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴾ ، تعرض لمن نزل بالقرآن ، فمعناه أن القرآن أيضًا نزل معه لماذا ؟ لأن نزل القرآن ، لعله نزل بدون واسطة ، ويصح أن يكون بواسطة .

فالوضع البلاغي في الآية الثانية : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴾ .. أن الحق ﷻ يقول : إن نزوله وحده مثل النزول به ، لا يغير الموقف ، بمعنى : أن الذي نزل به روح أمين ، فلم يتناول بأي شيء ، كأنه نزل وحده .

إذن ، فنزل القرآن ، ونزل **جبريل** بالقرآن ، يؤديان معنى واحدًا ، ولكن المعنى الجديد : أن القرآن لو نزل هو ، أو نزل بغيره ، فالأمر واحد ؛ لأن الروح الذي نزل به أمين لم يتصرف في شيء أبدًا .

وما دام الفعل غير متعدٍّ ، يقتضي منزلة الفعل المضعَّف نزل : ﴿ الم * اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾[3] ، بعدما كان الفعل مسندًا للقرآن ، ضُعِّف

1 - سورة : الإسراء ، الآية : 105 .

2 - سورة : الشعراء ، الآية : 193 ، 194 .

3 - سورة : آل عمران ، الآية : 1 : 3 .

الفعل ، وأسند الفعل إلى الحق ﷻ ، وأصبح القرآن منزلاً .. ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ .

ويقول ﷻ في آية أخرى : ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً ﴾[1] ، وهذه أفادت النزول في تتابع ، ليدل على أنه لم يعرض للإنزال مرة واحدة ، ولكن كلما جدت حادثة نزل ، ولذلك قال ﷻ : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً[2] ﴾ ، جملة واحدة كما عهدوا في الكتب السابقة ، ﴿ كَذَلِكَ ﴾ يعني : نزلناه منزلاً حسب الحوادث ؛ لنثبت به فؤادك ، ولو نزل مرة واحدة لكان تثبيتًا واحدًا ، والرسول ﷺ تعرض لأحداث كثيرة ، كل حدث منها يتطلب تثبيتًا ، ﴿ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ .

ومعنى ﴿ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ : لأن القرآن متعبد بتلاوته ، فلا تنزل كلمة إلا اجتمعت الألسنة كلها على قراءتها .

ولابد أن يظل الأمر إلى أن يفرق : ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً ﴾ .

هنا تأتي مسألة أيضًا ، وهي : أن يأتي **جبريل** ، ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ ﴾[3] ، إذن ، نزله مضافًا إلى الحق مرة : ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾[4] ، ومرة تأتي إلى **جبريل** ، على أن (نزل) فيها المشارك من الآمر به ، ومن النازل به ، ومرة يسند الفعل إلى المباشر ، ومرة يسند إلى الآمر به ؛ لأن المباشر لم ينزله من

1 – سورة : الإسراء ، الآية : 106 .

2 – سورة : الفرقان ، الآية : 32 .

3 – سورة : البقرة ، الآية : 97 .

4 – سورة : آل عمران ، الآية : 3 .

قِبَل نفسه ، بل بأمر الله ﷻ وبتقديره ، فحين يفعل إنما يفعل بـأمر الله ﷻ ، وهذه نجدها في القرآن ظاهرة موجودة في كثير من الأفعال .

وعندما أمر الحق ﷻ القلمَ أن يكتب القرآن في اللوح المحفوظ أبـرزه من عالم الغيب المطلق إلى عالم الشـــهادة ، فأصبـــح ظاهرًا ، لمن ؟ للصفوة ، وإن كان غائبًا عن **جبريل** ، لا يزال بالنسبـة **لجبريل** في عالم الغيب ، وبـعد ذلك حـــين تنزل بـــه على **جبريل** ، يصبـــح عند **جبريل** عالم شهادة ، ويصبح عند **محمد** ﷺ في عالم الغيب .

وحينما يتنزل به **جبريل** على رسول الله ﷺ قبل أن يبـلغه ، كان بالنسبـة لنا عالم غيب ، وبالنسبة له عالم شهادة ، وحين يبلغه تصبح الشهادة مطلقة .

إذن ، فالمراحل : أنزله الحق من عالم الغيب ما لا يعرفه أحد إلا الله ، وبـعد ذلك أنزله إلى اللوح المحفوظ ، فإذا قـــال الله : أنزله ، أي : يريد الإنزال الأول ، أي : من عالم الغيب إلى أول مراتب عالم الشهادة .

فأنزل الله ﷻ الإنزال الأول ، ولكن هذه هي آخر مظهر من مظاهر عالم الشـــهادة ، فكأن الملحوظ هنا هو أن يتقبـل العبـد ما أنزل من الحق ، يتقبـله على أنه نازل من الحق مباشـرة ، وكأنه يستمع من الله ﷻ مباشرة ، ويلغي الوظائف كلها .

ولذلك ورد عن **سيدنا جعفر** رضي الله عنه أنه قال : عجبت لمن خاف .. كيف لا يفزع إلى قـول الله ﷻ : ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾[1] ، فإني سمعت الله ﷻ يعقبـها فيقـــول : ﴿ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ﴾[2].

وهو يقصد بذلك الوصف الإيماني لأحوال النفس البشرية ، فالذي يقلق الإنسـان في حـياته هو أن يخاف شيئًا ، أو أن يهمه شيء .

---

1 – سورة : آل عمران ، الآية : 173 .

2 – سورة : آل عمران ، الآية : 174 .



والفرق بين الخوف والهم : أن الخوف يكون من شيء معلوم ، أما الهم فهو ما قد يدخل على القلب من شيء غير معلوم ، كأن يخاف أن يُمكَر به ، فهذه هي أحوال البشرية ، خوفًا ، وهمًّا ، ومكرًا ، وغير ذلك ، والسبب هو الدنيا .

فهو يريد من الإنسان بمجرد أن تأتيه تلك الحالة أن يفزع ويرجع إلى مأمنه .. ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ ، لأنها قد أتى بعدها : ﴿ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ﴾ ، فكأنه جاء بالأمن ، ثم جاء بالدليل ، ثم جاء بالحيثية .

ثم يقول ﷺ : وعجبت لمن اغتم .. كيف لا يفزع إلى قول الله ﷻ : ﴿ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾[1] ، وعجبت لمن مُكر به .. كيف لا يفزع إلى قول الله ﷻ : ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾[2] ، فإني سمعت الله ﷻ عقبها يقول : ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ﴾[3] ، وعجبت لمن طلب الدنيا وزينتها .. كيف لا يفزع إلى قول الله ﷻ : ﴿ مَا شَاءَ اللَّهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ ﴾[4] ، فإني سمعت الله يقول في عقبها : ﴿ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَدًا فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ ﴾[5] .

إذن فالشاهد في قوله ﷺ : فإني سمعت الله .. فمعنى سمعت الله أي أنه قد التحم بالإنزال الأول في هذه الآية من القرآن .

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ .. يبين لنا الحق ﷻ في مجموع ما أوصله رسول الله ﷺ إلينا أنه ﷻ قد خلق الزمان والمكان ، ثم فضل ﷻ الأزمنة والأمكنة ، ثم الإنسان الذي خلق له الزمان والمكان ، فإذا اصطفى الحق نوعًا من الخلق فهو أعلم حيث يجعل رسالته .

---

1 - سورة : الأنبياء ، الآية : 87 .

2 - سورة : غافر ، الآية : 44 .

3 - سورة : غافر ، الآية : 45 .

4 - سورة : الكهف ، الآية : 39 .

5 - سورة : الكهف ، الآية : 39 ، 40 .

فالزمان فيه مصطفيات ، والأمكنة فها مصطفيات ، وفي الإنسـان مصطفيات ، وفي الملائكة مصطفيات .

﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ ﴾[1] ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾[2] ، ﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي ﴾[3] ، ﴿ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾[4] ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾[5].

فإذا قـال الحق ﷻ : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ فقـد أخذت القـدر والشـرف والعظمة بإنزال القرآن فيها ، لا أن الله اختار نزول القرآن فيها لأنها ذات القدر .

والذي يدل على ذلك هو أن ليلة القـدر التي نزل فيها القـرآن لم تبـدأ هنا في نزول القـرآن ؛ لأن الله ﷻ له قدر في تقدير النزول ، وليلة القدر يفرق فيها كل أمر حـكيم ، والأمور الحكيمة كانت قبل نزول القرآن ، وبعد نزول القرآن .

فكأن الليلة التي اختارها الله ﷻ ليفرق فيها كل أمر حكيم ، اختارها أيضًا لنزول القرآن ، فيبقى اختيار الليلة ، فقد كان لها قدر ، بعضهم يرى أنها جاء لها القدر بنزول القرآن .

ولم تأتِ لها ليلة أخرى تأخذ منها ؛ لأنه كان من الممكن أن يترك هـذه الليلـة الـتي يفـرق فيها كل أمر حكيم ، ثم يسـرد القـرآن ، ولكنه قـال : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ .. فليلة القدر هي الشـرف والعظمة والرفعة و... و... إلى آخر الأشـياء العظيمة ، وطالما أنه يفرق فيها كل أمر حكيم ، والأمور الحكيمة كانت قبل نزول القرآن ، وبعد نزول القرآن ؛ ولذلك فستظل

---

1 - سورة : الحج ، الآية : 75 .

2 - سورة : آل عمران ، الآية : 33 .

3 - سورة : الأعراف ، الآية : 144 .

4 - سورة : آل عمران ، الآية : 43 .

5 - سورة : آل عمران ، الآية : 42 .

أيضًا بعد نزول القرآن ؛ ولذلك فنحن نلتمس هذه الليلة .

وإن أخذت المعنى بالتقدير فله معنى ، وإن أخذته بالقدر فله معنى الشرف ، والعظمة ، فالليلة التي اختيرت ليفرق الله فيها كل أمر حكيم تكون لابد أنها هي هذه اليلة ؛ لأن جميع الزمن الذي هو غير الليلة سيكون خاضعًا في أموره لما نزل في تلك الليلة ، فإذا ما أراد الله ﷻ أن يبرز كلامه من عالم الغيب إلى عالم الشهادة ، فإنه يختار ﷻ الليلة التي فيها يفرق كل أمر حكيم ؛ لأن هذا هو رأس الفرقان .

والذي حدث في ليلة القدر هو أن القرآن نزل بداية من عالم الغيب إلى عالم الشهادة ، وتنزله أيضًا إلى السماء الدنيا كان في ليلة القدر ، وبعد ذلك كل الآيات التي تنزل في هذه السنة تكون في كل ليلة قدر ، فالإنزال الأول الذي هو إخراجه من عالم الغيب إلى عالم الشهادة كان في ليلة القدر ، وبعد ذلك إنزاله إلى السماء الدنيا حتى يباشر مهمته في الوجود أيضًا كان في ليلة القدر ، وبعد إكمال نزوله في كل عام يبقى في ليلة القدر ، ولا يعني ذلك أن بداية إنزاله لنا كانت في ليلة القدر ؛ لأن العلماء يقولون طالما هناك ليلة القدر فلابد أن أول آية منه نزلت في ليلة القدر ، ولا يكفي أن يكون نجمها النجم الذي نزلت في ليلة القدر ، إذن ، فليلة القدر مواكبة لإنزال القرآن ، ولنزول القرآن ، ولتنزيل القرآن ، الأول من (**أنزل**) ، والثاني من (**نزل**) ، والثالث من (**تنزل**) .

فهي إذن مواكبة الخط الأول ، إنزال من عالم الغيب إلى عالم الشهادة الأولى ، وبعد ذلك ما عداه ، هو إنزال من الله إلى العالم الثاني المشاهد .

فالقرآن نزل أولاً من الحق في أول مشهد ، ثم بعد ذلك نزل من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا ، ثم نزل على **جبريل** كل عام ، وبعد ذلك نزل به **جبريل** في كل وقت .

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ .. وإذا سألت لم خص الليل بالإنزال دون النهار ؟! كان الجواب : لأن الليل محل السكون والهدوء ، والنهار محل الحركة والضجيج ، وهذه الحركة





تجعل مواهب الإنسان موزعة ، أما في حالة السكون والهدوء فتكون النفس مهيأة لاستقبال الأمر .

ولذلك فإن القرآن يقول : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾ ؛ لأن النفس مهيأة ليس عندها مشاغل ، بل سكون وهدوء ، ليس هناك حركة ، ولا حياة ، ولا ما يشتت انتباهك ، فالإنسان دائما في الليل يكون خاليًا بنفسه ، وما أهمية الخلوة في تدبر القرآن ؟ لأن الإنسان إذا كان مع الناس فإن أفكاره تأخذ من أفكارهم ، وتأخذ أفكارهم من أفكاره ، لكن الإنسان إذا كان وحده فإنه يستطيع أن يخلو بنفسه وبفكره ؛ ولذلك خص وقت الإنزال بالليل .

كذلك فإن الحق ﷻ لما خلق الأشياء خلق ليلاً ونهارًا ، وجعل الليل أمرًا سلبيًّا ، ومعنى سلبي : أنه لا يظهر شيء حين يأتي الليل ، بل تختفي أشياء حين يحل الليل ، فالنهار يأتي عندما تطلع الشمس ، أما الليل فهو عملية سلب ، سلب الشيء ، وإيجاب الشيء ، فرق بين الاثنين ، فسلب الشيء يعني : أن الشيء رجع على طبيعته ، كأن تقول : لولا ذلك المصباح لكانت ظلمة ، أي : إنها جاءت إيجابية في إيجاد الضوء ، الإيجابية في إيجاد الضوء هي تهيئة نهار مسطِع ليناسب حركة الحياة ، والضرب في الأرض ، والمعايشة ؛ ولذلك فحينما امتدح الله ﷻ أقوامًا امتدحهم بقيام الليل ؛ لأن الليل أعون على الخلوة ، فقال ﷻ : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾[1] ، فالذي أخذ فضل ربه نهارًا ، لا يجد له إلا الليل الذي هو خالٍ فيه ؛ لأنه أبعد عن الرياء والسمعة ، فلا أحد يراك إلا الله .

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴾ .. وكلمة : ﴿ مَا أَدْرَاكَ ﴾ .. تعني أنها شيء فوق

---

1 - سورة : الذاريات ، الآية : 15 : 18 .

إدراكك ، لو لم تدرك لأعطيناك نحن الإدراك فيها ، وكأنه شيء بالذاتية لا يُدرك ولا يُفهم ، وحيث إنه بالذاتية لا يُفهم ، يكون معناها أنها تضمنت فوق المدلول الذي هو بالوضعية ، ولو أن معناها هو اللفظ العربي لكان فهمها **محمد** ﷺ ، وكل فاهم للعربية يدرك ليلة القدر .. ليلة الشرف والعظمة ، فنقول له : لا تفهم أنها كذلك فحسب ؛ لأن فيها من الأسرار والإشراقات والأنوار والأنوال ما لا يتسع اللفظ اللغوي لإعطائك إياه ، وأنتم في معاملاتكم بالألفاظ تتفاهمون على المعاني المتعارف عليها ، وهذا المعنى علمه عند الله ﷻ ، فلا تأخذ المعنى اللغوي في اللغة المعروفة المتداولة ، ولكن خذ المعنى من الله ﷻ ؛ لأنه يعلم لها أمرًا زائدًا عن مدلول معناها اللغوي الذي يفهم من الخطاب .

﴿ **لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ** ﴾ .. وهنا وُجد إشكال بين العلماء ، فقالوا : إنهم يفهمون التوقيت اليومي بالشمس ، والتوقيت الشهري بالقمر ، ثم بعد ذلك يحسبون العام وهو يتكون من اثنتي عشرة وحدة من الشهر القمري ، فأول ما جاء من اعتراضات قالوا : ﴿ **لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ** ﴾ ، وليلة القدر أنزل ربنا فيها القرآن ، وهو قال : ﴿ **شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ** ﴾[1] ، فقد تحدد مقام الليلة من الشهر ، وحيث إنه تحدد مقام الليلة من الشهر ، فإن ألف شهر يكون فيهم ثلاثة وثمانون رمضان ، فعندما نقول : ﴿ **لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ** ﴾ ، لابد أننا نستثني ليلة القدر من هذه الألف شهر ، وإلا يكون الشيء مفردًا مفضلاً على نفسه مجموعًا .

فيكون معنى : ﴿ **لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ** ﴾ .. أي : ليس فيها ليلة القدر ، هذه الآلاف كانت عند العرب أكثر عددًا ، ولذلك قال ﷻ : ﴿ **يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ** ﴾[2]، فكأن كلمة ألف أكثر العدد عندهم .

---

1 – سورة : البقرة ، الآية : 185 .

2 – سورة : البقرة ، الآية : 96 .

وروي أن النبي ﷺ ذكر رجلاً من بني إسرائيل لَبس السلاح في سبيل الله ألف شهر ، قال : فَعَجب المسلمون من ذلك ، قال : فأنزل الله ﷻ : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ .. التي لبس ذلك الرجل السلاح في سبيل الله ألف شهر[1] .

وعن **مجاهد** قال : كان في بني إسرائيل رجل يقوم الليل حتى يصبح ، ثم يجاهد العدو بالنهار حتى يمسي ، ففعل ذلك ألف شهر ، فأنزل الله هذه الآية : ﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ .. قيام تلك الليلة خير من عمل ذلك الرجل[2] .

وعن **علي بن عروة** قال : ذكر رسول الله ﷺ يومًا أربعة من بني إسرائيل عبدوا الله ثمانين عامًا ، لم يَعْصوه طرفة عين : فذكر **أيوب** ، **وزكريا** ، **وحزقيل بن العجوز** ، **ويوشع بن نون** .. قال : فتعجب أصحاب رسول الله ﷺ من ذلك ، فأتاه **جبريل** فقال : يا **محمد** ، عَجِبَتْ أمتك من عبادة هؤلاء النفر ثمانين سنة ، لم يَعْصُوه طرفة عين ؟! فقد أنزل الله خيرًا من ذلك .. فقرأ عليه : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ .. هذا أفضل مما عجبت أنت وأمتك .. قال : فَسُرَّ بذلك رسول الله ﷺ والناس معه[3] .

وقال جماعة غيرهم : الحادثة أن رسول الله ﷺ كان فيما يحدث به : أن بعض بني إسرائيل ظلوا يعبدون الله ثمانين عامًا ، فبعد ذلك وجد تقصيرهم .

وقد كان السابقون لا يسمون الرجل عابدًا إلا إذا مر عليه ثمانون سنة يعبد الله ﷻ ولا يعصي الله أبدًا .

---

1 - أخرجه ابن أبي حاتم (12 / 434) عن مجاهد .

2 - تفسير الطبري (30 / 167) .

3 - الدر المنثور للسيوطي (8 / 569) .

فكأن الحق ﷻ إكرامًا لرسول الله ﷺ ، وإكرامًا لأمته أعطاه هذه الليلة ، بحيث إذا وفق الإنسان إلى العمل فيها .. قيامًا ، واحتسابًا لله ﷻ غفر له ما تقدم من ذنبه ، وكأنه يأخذ فضيلة الذين عبدوا الله ﷻ تلك السنين الطوال .

وعلى كل حال .. سواء كان الأمر الأول ، أو الأمر الثاني ، أو هي مجتمعة ، فقد دلتنا على أن الحق ﷻ قد بين أنها : ﴿ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ .

ثم أراد الحق ﷻ أن يعطينا شيئًا عن ليلة القدر ، فيكون المعنى الذي أخذناه : أن القرآن أنزل في ليلة القدر إنزالاً أوليًا ، وتنزيلاً .. ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ .. أعطانا ﷻ حكمًا عامًا في ليلة القدر ..

﴿ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا ﴾ .. وهنا قد يتساءل العقل فيقول : إن العطف دائمًا يقتضي المغايرة ، ومعنى اقتضاء العطف المغايرة : أن يكون الثاني مغايرًا للأول ، فيجاب على هذا الاستفهام بأنه قد يكون خاصًا من الأول ، أو عامًا منه : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [1] ، فقد لا يكون الثاني مغايرًا للعمومات عن الأول ، بل مغايرة الخصوصية عن الأول ، بمعنى أن تكون له خصوصية دائمة ، فالملائكة معروفون ، والذين يتنزلون هم المدبرات ، ومعناها : أنهم هم الموكلون بمصالحنا ، فالملائكة أنواع : كنوع من الملائكة مثلاً اسمهم العالون ، والعالون ملائكة ليسوا مشغولين بشيء من الخلق ، ليس لهم عمل إلا الحق ﷻ فقط ؛ ولذلك عندما استكبر **إبليس** عن السجود **لآدم** قال الحق ﷻ له : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾ [2] ، أي : أستكبرت عن السجود ؟ أم أنك من أولئك العالين الذين لم يشملهم أمر السجود ؟ فهؤلاء العالون ليس لهم عمل أبدًا فيما يتعلق بالخلق ، عملهم كله موصول بالحق ﷻ ، فأمر السجود لا يشمل هؤلاء .

---

1 – سورة : نوح ، الآية : 28 .

2 – سورة : ص ، الآية : 75 .

وقـــول الحق ﷻ : ﴿ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴾ يدل على أنهم نزلوا لأمر معين ، وحـــيث إنهم نزلوا لأمر ، فهؤلاء إذن من المدبـــرات أمرًا ، يعني : المتعلقين بالخلق .

والروح في : ﴿ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا ﴾ .. قـــال العلماء : الروح نوع من الملائكة ، هم بالنسبـــة للملائكة كالحفظة ، بمعنى أنه نوع متميز عن الملائكة ، أو الروح المراد بـــه **جبريل** كقول الحق ﷻ : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴾[1] ، فقد يحتمل هذا أو ذاك ، ويحتمل تنزل الملائكة والروح فيها تنزلاً بـــإذن ربـــهم من كل أمر ، وهنا جاء بالأســـلوب الكلي ، والأسلوب الكلي يدل على الاستغراق ، فإن قـيل : لم قـال : ﴿ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴾ .. الأمور هي التي بها يدار نظام الكون ، نظام الكون يحتاج أمورًا تتعلق برزق .. من الأمطار التي ينشأ منها الخصب ، وأمورًا تتعلق بـالحروب ، والويلات ، والنكبـات بـالموت ، وأمورًا تتعلق ببقـية الأعمال .. فكل ملك له مهمة بالنسبة لأهل الأرض .

لكن الصواب أن قـــول الحق ﷻ : ﴿ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴾ يفهم على هذا الوضع ، إذن ، يقــدر فيها أمورًا ، كالموت الذي يحدث هذه الســنة ، والمصائب ، وعدد المواليد ، والوفيات ، والخصب ، والرخاء ، والشـــدة ..... وغير ذلك ، فمن هذه الأمور ما هو خير ، ومنها ما هو شر .

﴿ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ .. نقول : قد تظن أنت مراد الحق مصيبـة ، ثم تجد أن كله خير ، فقـد قـــال الحق ﷻ : ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾[2] ، فقــد كانت إذن حـــرب ، ولكنها كانت من ضمن سلام الأرض .

---

1 – سورة : الشعراء ، الآية : 193 .

2 – سورة : البقرة ، الآية : 251 .

وكما يقول **شوقي** :

الحرب في حق لديك شريعة ومن السموم الناقعات دواءُ

فإن لم يكن الله ﷻ يدفع الناس بعضهم ببعض لما تهيأ السلام في هذه الأرض ؛ ولذلك يدفع الله الناس بعضهم ببعض .

ولا يحصل السلام إلا بوجود قوتين معًا ، فلو صارت قوة واحدة منفردة تستبد ، وإنما تمتنع خوفًا من قوة ثانية ، وهذا هو التوازن ، يدفع هذا بهذه ، ويدفع هذه بتلك .

وأيضًا المصائب ، والأحداث التي يخشاها الناس ، لماذا يظنون أنها ابتعاد عن السلام ؟!

فما هو السلام ؟ إن (**السلام**) هو الأمن ، والاطمئنان ، والاستقرار ، والهدوء ، فالسلام يكون مع الإنسان بالنسبة لربه في عقيدته ، سلام مع نفسه وملكاته ، ومع المجتمع الذي يعيش فيه .

ففي الجدب مثلاً ، كيف يكون في الجدب سلام ؟ نقول : لم يكن ذلك ؛ حتى لا يطغى الناس ، ويظنوا أن الأمر لهم وبأيديهم ، كما قال أحد زعماء بعض الدول : الآن ستروي السدود أرضكم ، أمطرت السماء أم لم تمطر .

ليس كل ما تستطيبه نفسك سلام ، ولكن الذي يعدل النفس البشرية عن طغيانها ، وتمردها ، وغرورها ، وعن كل ما تعلم ، هذا عين ميزان السلام .

ولذلك فلابد للإنسان إن أراد أن يفسر الأحداث أن يفسرها حين لا يكون له يد فيها ، فيفسرها بالنسبة لحكمة الحق ﷻ ، لا بما تستطيبه نفسه ، إن كنت مثلاً أسرفت على نفسي في شيء ، ثم ابتليت بمرض ، فقد كفر الله عني ، ألا يكون ذلك سلامًا ؟!

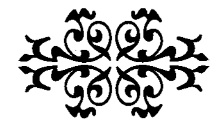
إذن .. فيجب أن تقاس الأمور بإسنادها إلى حكمة الحق ﷻ ، وأنه لا يريد مني إلا التوكل عليه ﷻ ؛ ولذلك قال الحق ﷻ في **سورة آل عمران** : ﴿ **قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ**

﴿ إِنَّكَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[1] ، وإتيان الملك خير في أعرافنا ، ولكن نزعه ليس كذلك ، الإعزاز خير في أعرافنا ، ولكن الإذلال شر في أعرافنا نحن ، ولكن عند الحق ﷻ قال : ﴿ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ﴾ ، نعم ، بيدك الخير ، الصور الأربع : إيتاء الملك .. نزع الملك .. خير الإعزاز .. خير الإذلال ، فيكون إذن كل ما يجري به القدر ، استطابته نفسك ، أو لم تستطبه ، فإنما هو من مقدرات خير الله ﷻ .

وعن **سعد بن أبي وقاص** قال : قلت : يا رسول الله .. أي الناس أشد بلاء ؟ قال : **" الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل من الناس ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه ، وإن كان في دينه رقة خفف عنه ، وما يزال البلاء بالعبد حتى يمشي على ظهر الأرض ليس عليه خطيئة "**[2] .

وقد تكون كلمة : ﴿ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ .. أن الملائكة ينزلون للتسليم على المؤمنين ؛ لأن ذلك يعتبر بالنسبة لهم تشريفًا عظيمًا ، وارتباطًا قويًا بالرسالة المحمدية ، وبنزول القرآن الكريم ، وبهذه الليلة المباركة التي أُعطوها ، وهي خير من ألف شهر ، والأحباء دائمًا في المناسبات السعيدة يسلمون على بعضهم البعض ، ويقال : إنهم ينزلون فيودعهم **جبريل** الأرضَ ، فلا يبقى بيت فيه مؤمن ولا مؤمنة إلا دخلوا فسلموا عليه .

نسأل الله ﷻ أن نكون من أهل السلام في ديننا ودنيانا ، وفي آخرتنا .. إنه ولي ذلك والقادر عليه .



---

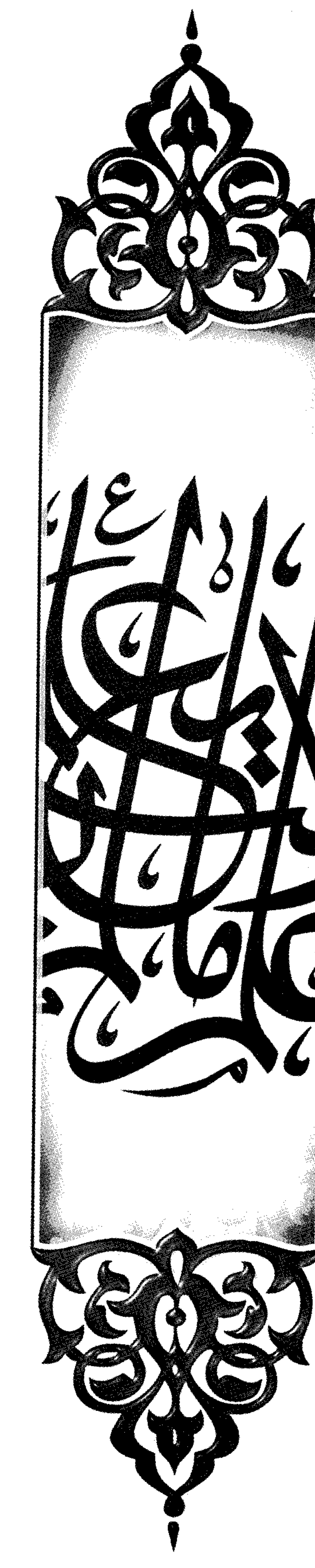
1 – سورة : آل عمران ، الآية : 26 .

2 – مسند أحمد (3 / 410) .





سورة البينة





سُورَةُ البَيِّنَة

أحمدك ربي، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد، رحمة الله للعالمين، وخاتم الأنبياء والمرسلين، وبعد ..

فمع **سورة البينة** .. هذه السورة التي تعرض عدة حقائق تاريخية وإيمانية في أسلوب تقريري مهيب ..

الحقيقة الأولى: هي أن بعثة الرسول ﷺ كانت ضرورية لتحويل الذين كفروا من أهل الكتاب ومن المشركين عما كانوا قد انتهوا إليه من الضلال والاختلاف، وما كانوا ليتحولوا عنه بغير هذه البعثة: ﴿ **لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ * رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ** ﴾ ..

والحقيقة الثانية: هي أن أهل الكتاب لم يختلفوا في دينهم عن جهالة ولا عن غموض فيه، إنما اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم وجاءتهم البينة: ﴿ **وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ** ﴾.

والحقيقة الثالثة: هي أن الدين في أصله واحد، وقواعده بسيطة واضحة، لا تدعو إلى التفرق والاختلاف في ذاتها وطبيعتها البسيطة اليسيرة: ﴿ **وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ** ﴾.

والحقيقة الرابعة: هي أن الذين كفروا بعد ما جاءتهم البينة هم شر البرية، وأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم خير البرية، ومن ثم يختلف جزاء هؤلاء عن أولئك اختلافًا بينًا:

* تفسير السورة مقتبس بتصرف من: "في ظلال القرآن".

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ * جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ ..

وهذه الحقائق الأربع ذات قيمة في إدراك دور العقيدة الإسلامية ، ودور الرسالة الأخيرة ، وفي التصور الإيماني كذلك ، كما سيأتي تفصيل ذلك .

لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾

﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ ..

لقد كانت الأرض في حاجة ماسة إلى رسالة جديدة ، كان الفساد قد عم أرجاءها كلها بحيث لا يرتجى لها صلاح إلا برسالة جديدة ، ومنهج جديد ، وحركة جديدة .. وكان الكفر قد تطرق إلى عقائد أهلها جميعًا .. سواء أهل الكتاب الذين عرفوا الديانات السماوية من قبل ثم حرفوها ، أو المشركين في الجزيرة العربية وفي خارجها سواء .

وما كانوا لينفكوا ويتحولوا عن هذا الكفر الذي صاروا إليه إلا بهذه الرسالة الجديدة ، وإلا على يد رسول يكون هو ذاته بينة واضحة فارقة فاصلة .



﴿ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴾ .. مطهرة من الشرك والكفر .

﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ .. والكتاب يطلق على الموضوع ، كما يقال : كتاب الطهارة ، وكتاب الصلاة ، وكتاب القدَر ، وكتاب القيامة ، وهذه الصحف المطهرة – وهي هذا القرآن – فيها كتب قيمة ، أي موضوعات وحقائق قيمة ..

ومن ثم جاءت هذه الرسالة في إبانها ، وجاء هذا الرسول في وقته ، وجاءت هذه الصحف وما فيها من كتب وحقائق وموضوعات لتحدث في الأرض كلها حدثًا لا تصلح الأرض إلا به.

فأما كيف كانت الأرض في حاجة إلى هذه الرسالة وإلى هذا الرسول فنكتفي في بيانه باقتطاف لمحات كاشفة من الكتاب القيم الذي كتبه الرجل المسلم **السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي** ، بعنوان : " **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين** " .. وهو أوضح وأخصر ما قرأناه في موضوعه .

جاء في الفصل الأول من الباب الأول :

كان القرن السادس والسابع لميلاد المسيح من أحط أدوار التاريخ بلا خلاف ، فكانت الإنسانية متدلية منحدرة منذ قرون ، وما على وجه الأرض قوة تمسك بيدها وتمنعها من التردي ، وقد زادتها الأيام سرعة في هبوطها ، وشدة في إسفافها ، وكان الإنسان في هذا القرن قد نسي خالقه ، فنسي نفسه ومصيره ، وفقد رشده ، وفقد قوة التمييز بين الخير والشر ، والحسن والقبيح ، وقد خفتت دعوة الأنبياء منذ زمن ، والمصابيح التي أوقدوها قد انطفأت من العواصف التي هبت بعدها ، أو بقيت ونورها ضعيف ضئيل لا ينير إلا بعض القلوب ، فضلاً عن البيوت ، فضلاً عن البلاد ، وقد انسحب رجال الدين من ميدان الحياة ، ولاذوا بالأديرة والكنائس والخلوات فرارًا بدينهم من الفتن ، وضنًّا بأنفسهم ، أو رغبة إلى الدعة والسكون ، فرارًا من تكاليف الحياة وجدها ، أو فشلاً في كفاح الدين والسياسة ، والروح والمادة ، ومن بقي منهم في تيار الحياة اصطلح مع الملوك وأهل الدنيا وعاونهم على إثمهم وعدوانهم ، وأكل أموال الناس بالباطل ..



" أصبحت الديانات العظيمة فريسة العابثين والمتلاعبين ، ولعبة المجرمين والمنافقين ، حتى فقدت روحها وشكلها ، فلو بُعث أصحابها الأولون لم يعرفوها ، وأصبحت مهود الحضارة والثقافة والحكم والسياسة مسرح الفوضى والانحلال والاختلال وسوء النظام وعسف الحكام ، وشغلت بنفسها لا تحمل للعالم رسالة ، ولا للأمم دعوة ، وأفلست في معنوياتها ، ونضب معين حياتها ، لا تملك مشرعًا صافيًا من الدين السماوي ، ولا نظامًا ثابتًا من الحكم البشري " .

هذه اللمحة السريعة تصور في إجمال حالة البشرية والديانات قبيل البعثة المحمدية ، وقد أشار القرآن إلى مظاهر الكفر الذي شمل أهل الكتاب والمشركين في مواضع شتى .

من ذلك قوله عن اليهود والنصارى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ﴾[1] ، ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ ﴾[2] ، وقوله عن اليهود : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾[3] ، وقوله عن النصارى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾[4] ، ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴾[5] ، وقوله عن المشركين : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾[6] .. وغيرها كثير .

---

1 – سورة : التوبة ، الآية : 30 .

2 – سورة : البقرة ، الآية : 113 .

3 – سورة : المائدة ، الآية : 64 .

4 – سورة : المائدة ، الآية : 17 ، والآية : 72 .

5 – سورة : المائدة ، الآية : 73 .

6 – سورة : الكافرون .

كان وراء هذا الكفر ما وراءه من الشر والانحطاط والشقاق والخراب الذي عم أرجاء الأرض .

" وبالجملة لم تكن على ظهر الأرض أمة صالحة المزاج ، ولا مجتمع قائم على أساس الأخلاق والفضيلة ، ولا حكومة مؤسسة على أساس العدل والرحمة ، ولا قيادة مبنية على العلم والحكمة ، ولا دين صحيح مأثور عن الأنبياء " .

ومن ثم اقتضت رحمة الله ﷻ بالبشرية إرسال رسول من عنده يتلو صحفًا مطهرة فيها كتب قيمة ، وما كان الذين كفروا من المشركين ومن الذين أوتوا الكتاب ليتحولوا عن ذلك الشر والفساد إلا ببعثة هذا الرسول المنقذ الهادي المبين .

ولما قرر الحق تعالى هذه الحقيقة في مطلع السورة عاد يقرر أن أهل الكتاب خاصة لم يتفرقوا ويختلفوا في دينهم عن جهل أو عن غموض في الدين أو تعقيد ، إنما هم تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم العلم ومن بعد ما جاءتهم البينة من دينهم على أيدي رسلهم ..

﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ .. وكان أول التفرق والاختلاف هو ما وقع بين طوائف اليهود قبل بعثة **عيسى** عليه السلام فقد انقسموا شعبًا وأحزابًا ، مع أن رسولهم هو **موسى** عليه السلام ، وكتابهم هو التوراة ، فكانوا طوائف خمسة رئيسية ، هي طوائف : الصدوقيين ، والفريسيين ، والآسيين ، والغلاة ، والسامريين .. ولكل طائفة منها سمة واتجاه ، ثم كان التفرق بين اليهود والنصارى ، مع أن **المسيح** عليه السلام هو أحد أنبياء بني إسرائيل وآخرهم ، وقد جاء مصدقًا لما بين يديه من التوراة ، ومع هذا فقد بلغ الخلاف والشقاق بين اليهود والمسيحيين حد العداء العنيف والحقد الذميم ، وحفظ التاريخ من المجازر بين الفريقين ما تقشعر له الأبدان .

وقد تجدد في أوائل القرن السابع من الحوادث ما بغَّضهم (أي اليهود) إلى النصارى وبغض النصارى إليهم ، وشوه سمعتهم .. ففي السنة الأخيرة من حكم فوكاس (610 م) أوقع اليهود بالنصارى في أنطاكية ، فأرسل الإمبراطور قائده " **أبنوسوس** " ليقضي على ثورتهم ،



فذهب وأنفذ عمله بقسوة نادرة ، فقتل الناس جميعًا .. قتلاً بالسيف ، وشنقًا ، وإغراقًا ، وإحراقًا ، وتعذيبًا ، ورميًا للوحوش الكاسرة .

وكان ذلك بين اليهود والنصارى مرة بعد مرة ، قال المقريزي في كتاب الخطط : " وفي أيام " فوقا " ملك الروم ، بعث " كسرى " ملك فارس جيوشه إلى بلاد الشام ومصر فخربوا كنائس القدس ، وفلسطين وعامة بلاد الشام ، وقتلوا النصارى بأجمعهم ، وأتوا إلى مصر في طلبهم ، وقتلوا منهم أمة كبيرة ، وسبوا منهم سبيًا لا يدخل تحت حصر ، وساعدهم اليهود في محاربة النصارى وتخريب كنائسهم ، وأقبلوا نحو الفُرس من طبرية ، وجبل الجليل ، وقرية الناصرة ومدينة صور ، وبلاد القدس ، فنالوا من النصارى كل منال وأعظموا النكاية فيهم ، وخربوا لهم كنيستين بالقدس ، وأحرقوا أماكنهم ، وأخذوا قطعة من عود الصليب ، وأسروا بطرك القدس وكثيرًا من أصحابه " .

إلى أن قال بعد أن ذكر فتح القدس : " فثارت اليهود في أثناء ذلك بمدينة صور ، وأرسلوا بقيتهم في بلادهم ، وتواعدوا على الإيقاع بالنصارى وقتلهم ، فكانت بينهم حرب ، اجتمع فيها من اليهود نحو عشرين ألفًا ، وهدموا كنائس النصارى خارج صور ، فقوّس النصارى عليهم وكاثروهم ، فانهزم اليهود هزيمة قبيحة ، وقتل منهم كثير ، وكان هرقل قد ملك الروم بقسطنطينية ، وغلب الفرس بحيلة دبرها على كسرى حتى رحل عنه ، ثم سار من قسطنطينية ليمهد ممالك الشام ومصر ، ويجدد ما خربه الفرس ، فخرج إليه اليهود من طبرية وغيرها ، وقدموا لها الهدايا الجليلة ، وطلبوا منه أن يؤمنهم منه ، ويحلف لهم على ذلك ، فأمنهم وحلف لهم ، ثم دخل القدس ، وقد تلقاهم النصارى بالأناجيل والصلبان والبخور والشموع المشعلة ، فوجد المدينة وكنائسها خرابًا ، فساءه ذلك ، وتوجع لهم ، وأعلمه النصارى بما كان من ثورة اليهود مع الفرس ، وإيقاعهم بالنصارى وتخريبهم الكنائس ، وأنهم كانوا أشد نكاية لهم من الفرس ، وقاموا قيامًا كبيرًا في قتلهم عن آخرهم ،

وحثوا هرقل على الوقيعة بهم ، وحسنوا له ذلك ، فاحتج عليهم بما كان من تأمينه لهم وحلفه ، فأفتاه رهبانهم وبطارقتهم وقسيسوهم بأنه لا حرج عليه في قتلهم ، فإنهم عملوا عليه حيلة حتى أمنهم من غير أن يعلم بما كان منهم ، وأنهم يقومون عنه بكفارة يمينه بأن يلتزموا ويلزموا النصارى بصوم جمعة في كل سنة عنه على مر الزمان والدهور ، فمال إلى قولهم وأوقع باليهود وقيعة شنعاء أبادهم جميعهم فيها ، حتى لم يبق في مماليك الروم والشام إلا من فر واختفى " .

وبهذه الروايات يعلم ما وصل إليه الفريقان : اليهود والنصارى ، من القسوة والضراوة بالدم الإنساني ، وتحين الفرص للنكاية في العدو ، وعدم مراعاة الحدود في ذلك .

ثم كان التفرق والاختلاف بين النصارى أنفسهم ، مع أن كتابهم واحد ونبيهم واحد ، تفرقوا واختلفوا أولاً في العقيدة ، ثم تفرقوا واختلفوا طوائف متعادية متنافرة متقابلة ، وقد دارت الخلافات حول طبيعة المسيح عليه السلام وعما إذا كانت لاهوتية أو ناسوتية ، وطبيعة أمه مريم ، وطبيعة الثالوث الذي يتألف منه الله في زعمهم ، وحكى القرآن قولين منها أو ثلاثة في قوله : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾[1] ، ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴾[2] ، ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾[3] .

وكان أشد مظاهر هذا الخلاف الديني ما كان بين نصارى الشام والدولة الرومية ، وبين نصارى مصر ، أو بين " الملكانية " ، و" المنوفوسية " بلفظ أصح ، فكان شعار الملكانية هو عقيدة ازدواج طبيعة المسيح ، وكان المنوفوسيون يعتقدون أن للسيد المسيح طبيعة واحدة هي

---

1 – سورة : المائدة ، الآية : 17 ، والآية : 72 .

2 – سورة : المائدة ، الآية : 73 .

3 – سورة : المائدة ، الآية : 116 .

الإلهية التي تلاشت فيها طبيعة المسيح البشرية كقطرة من الخل تقع في بحر عميق لا قرار له ، وقد اشتد هذا الخلاف بين الحزبين في القرنين السادس والسابع ، حتى صار كأنه حرب عوان بين دينين متنافسين ، أو كأنه خلاف بين اليهود والنصارى ، كل طائفة تقول للأخرى : إنها ليست على شيء .

وحاول الإمبراطور **هرقل** (610 - 641 م) بعد انتصاره على الفرس سنة 638 م جمع مذاهب الدولة المتصارعة وتوحيدها ، وأراد التوفيق ، وتقررت صورة التوفيق أن يمتنع الناس عن الخوض في الكلام عن كنه طبيعة السيد المسيح ، وعما إذا كانت له صفة واحدة أم صفتان ، ولكن عليهم بأن يشهدوا بأن الله له إرادة واحدة ، أو قضاء واحد ، وفي صدر عام 631 م حصل وفاق على ذلك ، وصار المذهب المنوثيلي مذهبًا رسميًّا للدولة ، ومن تضمهم من أتباع الكنيسة المسيحية ، وصمم **هرقل** على إظهار المذهب الجديد على ما عداه من المذاهب المخالفة ، متوسلاً إلى ذلك بكل الوسائل ، ولكن القبط نابذوه العداء ، وتبرأوا من هذه البدعة والتحريف ، وصمدوا له واستماتوا في سبيل عقيدتهم القديمة ، وحاول الإمبراطور مرة أخرى توحيد المذاهب وحسم الخلاف ، فاقتنع بأن يقر الناس بأن الله له إرادة واحدة ، وأما المسألة الأخرى وهي نفاذ تلك الإرادة بالفعل فأرجأ القول فيها ، ومنع الناس أن يخوضوا في مناظراته ، وجعل ذلك رسالة رسمية ، ذهب بها إلى جميع جهات العالم الشرقي ، ولكن الرسالة لم تهدئ العاصفة في مصر ، ووقع اضطهاد فظيع على يد **قيصر** في مصر استمر عشر سنين ، ووقع في خلالها ما تقشعر منه الجلود ، فرجال كانوا يعذبون ثم يقتلون غرقًا ، وتوقد المشاعل وتسلط نارها على الأشقياء حتى يسيل الدهن من الجانبين إلى الأرض ، ويوضع السجين في كيس مملوء بالرمل ويرمى في البحر .. إلى غير ذلك من الفظائع .

وكان هذا الخلاف كله بين أهل الكتاب جميعًا ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ .. فلم يكن ينقصهم العلم والبيان ، إنما كان يجرفهم الهوى والانحراف ، على أن الدين في أصله واضح والعقيدة في ذاتها بسيطة ..

﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ .. وهذه هي قاعدة دين الله على الإطلاق : عبادة الله وحده ، وإخلاص الدين له ، والميل عن الشـرك وأهله ، وإقـامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة .. ﴿ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ .

عقيدة خالصة في الضمير ، وعبـادة لله تترجم عن هذه العقـيدة ، وإنفاق للمال في سبـيل الله وهو الزكاة .. فمن حقق هذه القواعد ، فقد حقـق الإيمان كما أُمر بـه أهل الكتاب ، وكما هو في دين الله على الإطلاق .. دين واحد .. وعقيدة واحدة ، تتوالى بها الرسـالات ، ويتوافى عليها الرسـل .. دين لا غموض فيه ولا تعقـيد ، وعقـيدة لا تدعو إلى تفرق ولا خلاف ، وهي بـهذه النصاعة ، وبهذه البساطة ، وبهذا التيسير .

فأين هذا من تلك التصورات المعقـدة ، وذلك الجدل الكثير ؟! فأما وقـد جاءتهم البـينة من قبـل في دياناتهم على أيدي رسـلهم ، ثم جاءتـهم البـينة ، حـية في صورة رسـول من الله يتلو صحفًا مطهرة ، ويقدم لهم عقيدة واضحة بسـيطة ميسـرة ، فقـد تبـين الطريق ، ووضح مصير الذين يكفرون والذين يؤمنون .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾

إن **محمدًا** ﷺ هو الرسول الأخير ، وإن الإسـلام الذي جاء بـه هو الرسـالة الأخيرة ، وقـد



كانت الرسل تتوالى كلما فسدت الأرض ؛ لترد الناس إلى الصلاح ، وكانت هناك فرصة بعد فرصة ، ومهلة بعد مهلة لمن ينحرفون عن الطريق ، فأما وقد شاء الله أن يختم الرسالات إلى الأرض بهذه الرسالة الأخيرة الجامعة الشاملة الكاملة ، فقد تحددت الفرصة الأخيرة ، فإما إيمان فنجاة ، وإما كفر فهلاك ؛ ذلك لأن الكفر حينئذ دلالة على الشر الذي لا حد له ، والإيمان دلالة على الخير البالغ أمده .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴾ .. حكم قاطع لا جدال فيه ولا محال ، مهما يكن من صلاح بعض أعمالهم وآدابهم ونظمهم .. ما دامت تقوم على غير إيمان بهذه الرسالة الأخيرة ، وبهذا الرسول الأخير .. لا نستريب في هذا الحكم لأي مظهر من مظاهر الصلاح المقطوعة الاتصال بمنهج الله الثابت القويم .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴾ .. حكم كذلك قاطع لا جدال فيه ولا محال ، ولكن شرطه كذلك واضح لا غموض فيه ولا احتيال ، إنه الإيمان ، لا مجرد مظهر في أرض تدعي الإسلام ، أو في بيت يقول : إنه من المسلمين ، ولا بمجرد كلمات يتشدق بها الإنسان ، إنه الإيمان الذي ينشئ آثاره في واقع الحياة ، والدليل على ذلك أنهم : ﴿ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ .. وليس هو الكلام الذي لا يتعدى الشفاه فحسب ، والصالحات هي كل ما أمر الله بفعله من عبادة وخلق وعمل وتعامل ، وفي أولها إقامة شريعة الله الملك الحكم الحق في الأرض ، والحكم بين الناس بما شرع الله ﷻ ، فمن كانوا كذلك فهم خير البرية .

﴿ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ .. جنات للإقامة الدائمة في نعيمها الذي يمثله هنا الأمن من الفناء والفوات ، والطمأنينة من القلق الذي يعكر وينغص كل طيبات الأرض .. كما يمثله جريان الأنهار من تحتها ، وهو

يلقي ظلال النداوة والحياة والجمال .. ثم يرتقي السياق درجة ، أو درجات في تصوير هذا النعيم المقيم ..

﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ .. هذا الرضا من الله ﷻ ، وهو أعلى وأندى من كل نعيم ، وهذا الرضا في نفوسهم عن ربهم .. الرضا عن قدره فيهم ، والرضا عن إنعامه عليهم ، والرضا بهذه الصلة بينه وبينهم ، الرضا الذي يغمر النفس بالهدوء والطمأنينة والفرح الخالص العميق .. إنه تعبير يلقي ظلاله بذاته .. ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ .. حيث يعجز أي تعبير آخر عن إلقاء مثل هذه الظلال .

﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ .. وذلك هو التوكيد الأخير .. التوكيد على أن هذا كله متوقف على صلة القلب بالله ﷻ ، ونوع هذه الصلة ، والشعور بخشيته خشية تدفع إلى كل صلاح ، وتنهى عن كل انحراف .. الشعور الذي يزيح الحواجز ، ويرفع الأستار ، ويقف القلب عاريًا أمام الواحد القهار ، والذي يخلص العبادة ، ويخلص العمل من شوائب الرياء والشرك في كل صورة من صوره .

فالذي يخشى ربه حقًا لا يملك أن يجعل في قلبه ظلاً لغيره من خلقه ، وهو يعلم أن الله يرد كل عمل ينظر فيه العبد إلى غيره معه ، فهو أغنى الشركاء عن الشرك ، فإما عمل خالص له ، وإلا لا يقبله .

تلك الحقائق الأربعة الكبيرة هي مقررات هذه السورة القصيرة ، يعرضها القرآن بأسلوبه الخاص ، الذي يتجلى بصفة خاصة في هذه السور القصار .

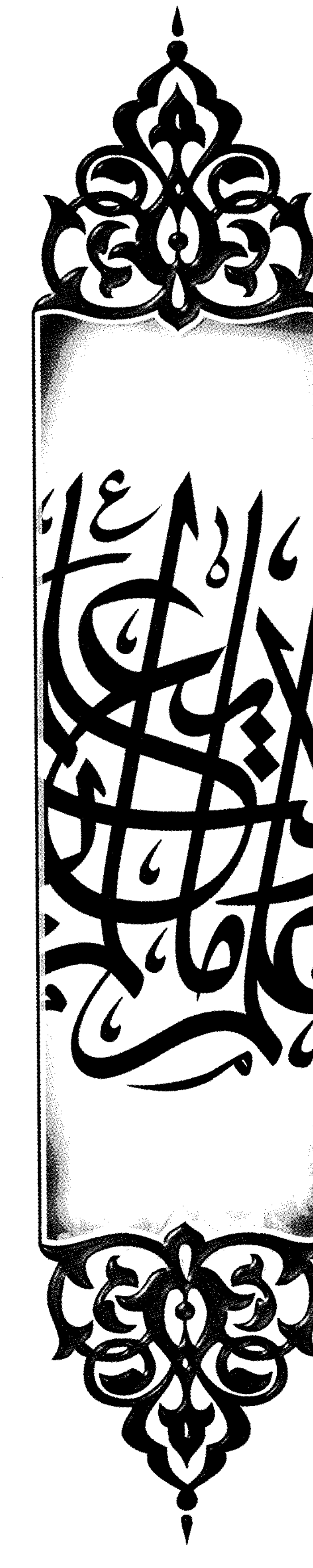
نسأل الله أن يرزقنا الرضا في أمورنا كلها ، وأن يرضينا ، وأن يرضى عنا ، إنه ولي ذلك والقادر عليه .











سورة الزلزلة





أحمدك ربي ، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد ، رحمة الله للعالمين ، وخاتم الأنبياء والمرسلين ، وبعد ..

فمع **سورة الزلزلة** .. تلك السورة القصيرة التي ما إن تطالعها حتى تجدها هزة عنيفة للقلوب الغافلة .. هزة يشترك فيها الموضوع والمشهد والإيقاع اللفظي .

وصيحة قوية مزلزلة للأرض ومن عليها ، فما يكادون يفيقون حتى يواجههم الحساب والوزن والجزاء في بضع فقرات قصار .

وهذا هو طابع هذا الجزء كله ، يتمثل في هذه السورة تمثلاً قويًا ..

إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْاْ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ .. إنه يوم القيامة ، حيث

* تفسير السورة مقتبس بتصرف من : " في ظلال القرآن " .

ترتجف الأرض الثابـــــتة ارتجافًا ، وتزلزل زلزالاً ، وتنفض ما في جوفها نفضًا ، وتخرج ما يثقلها من أجساد ومعادن وغيرها مما حملته طويلاً ، وكأنها تتخفف من هذه الأثقال ، التي حملتها طويلاً .

وهو مشهد يهز تحت أقدام المستمعين لهذه السورة كل شيء ثابت ، ويخيل إليهم أنهم يترنحون ويتأرجحون ، والأرض من تحتهم تهتز وتمور ، مشـــهد يخلع القلوب من كل ما تتشبث به من هذه الأرض ، وتحسبه ثابتًا باقيًا ، وهو الإيحاء الأول لمثل هذه المشاهد التي يصورها القرآن ، ويودع فيها حركة تكاد تنتقل إلى أعصاب السامع بمجرد سماع العبارة القرآنية الفريدة .

ويزيد هذا الأثر وضوحًا بتصوير (**الإنسان**) حيال المشهد المعروض ، ورسم انفعالاته وهو يشهده ..

﴿ وَقَالَ الإِنْسَانُ مَا لَهَا ﴾ .. وهو سؤال المشـــدوه المبـــهوت المفجوء ، الذي يرى ما لم يعهد ، ويواجه ما لا يدرك ، ويشهد ما لا يملك الصبر أمامه والسكوت .. مالها ؟! ما الذي يزلزلها هكذا ويرجها رجًّا ؟! مالها ؟! وكأنه يتمايل على ظهرها ويترنح معها ، ويحاول أن يمسك بأي شيء يسنده ويثبته ، وكل ما حوله يمور مورًا شديدًا .

و(**الإنسان**) قد شهد الزلازل والبراكين من قبل ، وكان يصاب منها بالهلع والذعر ، ويصيبه بها الهلاك والدمار ، ولكنه حين يرى زلزال يوم القيامة لا يجد أن هناك شبهًا بينه وبين ما كان يقع من الزلازل والبراكين في الحياة الدنيا ، فهذا أمر جديد لا عهد للإنسان به ، أمر لا يعرف له سرًا ، ولا يذكر له نظيرًا ، أمر هائل يقع للمرة الأولى .

﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴾ .. يوم يقع هذا الزلزال ، ويُشدَه أمامه الإنسان .. يومئذ تحدث هذه الأرض أخبارها ، وتصف حالها وما جرى لها ، لقد كان ما كان لها بأمر ربها ، وأمرها أن تمور مورًا ، وأن تزلزل زلزالها ، وأن تخرج أثقالها ، فأطاعت أمر

ربها ، ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾[1] ، فهي تحدث أخبارها ، فهذا الحال حديث واضح عما وراءه من أمر الله ووحيه إليها .

﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴾ .. وهنا .. والإنسان مشدوه مأخوذ ، والإيقاع يلهث فزعًا ورعبًا ، ودهشة وعجبًا ، واضطرابًا ومورًا .. وهنا .. والإنسان لا يكاد يلتقط أنفاسه وهو يتساءل : مالها .. مالها ؟! هنا يواجه بمشهد الحشر والحساب والوزن والجزاء .. وفي لمحة نرى مشهد القيام من القبور ..

﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا ﴾ .. نرى مشهدهم شتيتًا منبعثًا من أرجاء الأرض .. ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴾ .. وهو مشهد لا عهد للإنسان به كذلك من قبل .. مشهد الخلائق في أجيالها جميعًا تنبعث من هنا ومن هناك .. ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ﴾[2] .. وحيثما امتد البصر رأى شبحًا ينبعث ثم ينطلق مسرعًا .. لا يلوي على شيء ، ولا ينظر وراءه ولا حواليه : ﴿ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ﴾[3] .. ممدودة رقابهم .. شاخصة أبصارهم .. ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾[4] .. إنه مشهد لا تعبر عن صفته لغة البشر .. هائل مروع .. مفزع .. مرعب .. مذهل .. كل أولئك الكلمات وسائر ما في المعجم من أمثالها لا تبلغ من وصف هذا المشهد شيئًا مما يبلغه إرسال الخيال قليلاً يتملاه بقدر ما يملك ، وفي حدود ما يطيق .

﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴾ .. وهذه أشد وأدهى .. إنهم ذاهبون إلى حيث تعرض عليهم أعمالهم ؛ ليواجهوها ويواجهوا جزاءها ، ومواجهة الإنسان لعمله قد تكون أحيانًا أقسى من كل جزاء ، وإن من عمله ما يهرب من مواجهته بينه وبين نفسه ، ويشيح بوجهه عنه لبشاعته حين يتمثل له في نوبة من نوبات الندم ولذع الضمير ، فكيف به

---

1 - سورة : الانشقاق ، الآية : 2 .

2 - سورة : ق ، الآية : 44 .

3 - سورة : القمر ، الآية : 8 .

4 - سورة : عبس ، الآية : 37 .

وهو يواجه بعمله على رؤوس الأشهاد ، في حضرة الجليل العظيم الجبار المتكبر ؟!

إنها عقوبة هائلة رهيبة .. مجرد أن يُروا أعمالهم ، وأن يواجهوا بما كان منهم ، ووراء رؤيتها الحساب الدقيق الذي لا يدع ذرة من خير أو من شر لا يزنها ولا يجازي عليها .

﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ .. ذرة .. وكان المفسرون القدامى يقولون : إنها البعوضة . وكانوا يقولون : إنها الهباءة التي تُرى في ضوء الشمس .. فقد كان ذلك أصغر ما يتصورون من لفظ الذرة .

أما الآن فنحن نعلم أن الذرة شيء محدد يحمل هذا الاسم ، وأنه أصغر بكثير من تلك الهباءة التي تُرى في ضوء الشمس ، فالهباءة تُرى بالعين المجردة ، أما الذرة فلا تُرى أبداً حتى بأعظم المجاهر في المعامل ، إنما هي (رؤيا) في ضمير العلماء ، لم يسبق لواحد منهم أن رآها بعينه ولا بمجهره ، وكل ما رآه إنما هو آثارها .

فهذه أو ما يشبهها من ثقل ، من خير أو شر ، تُحضر ويراها صاحبها ، ويجد جزاءها .

عندئذ لا يحقر الإنسان شيئًا من عمله ، خيرًا كان أو شرًّا ، ولا يقول : هذه صغيرة لا حساب لها ولا وزن .. إنما يرتعش وجدانه أمام كل عمل من أعماله ارتعاشة ذلك الميزان الدقيق الذي ترجح به الذرة أو تشيل .

إن هذا الميزان لم يوجد له نظير أو شبيه بعد في الأرض .. إلا في القلب المؤمن .. ذلك القلب الذي يرتعش لمثقال ذرة من خير أو شر ، وفي الأرض قلوب لا تتحرك للجبل من الذنوب والمعاصي والجرائر ، ولا تتأثر وهي تسحق رواسي من الخير دونها رواسي الجبال .

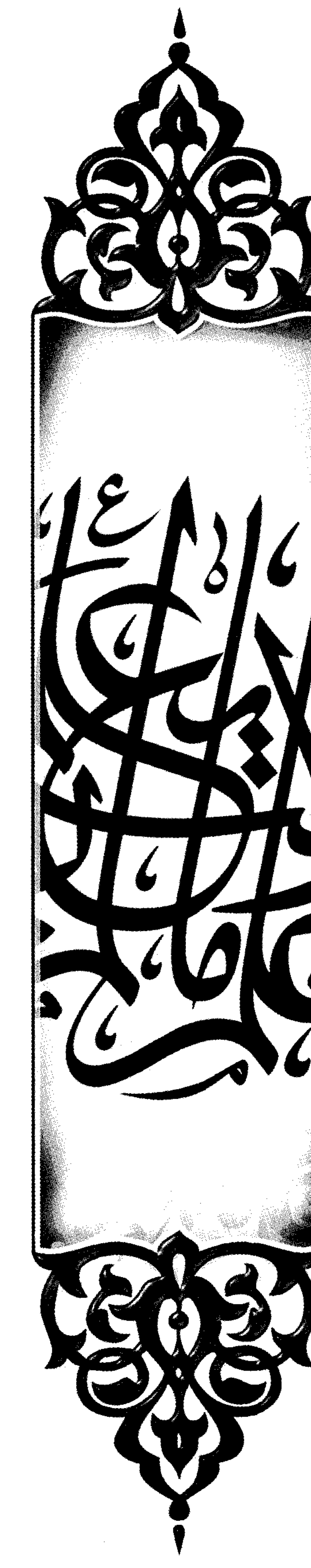
إنها قلوب عتلة في الأرض ، مسحوقة تحت أثقالها تلك في يوم الحساب .

نسأل الله العلي القدير أن يرزقنا هذه القلوب الطاهرة النقية التي تهتز بمثقال الذرة من الذنوب .. إنه ولي ذلك والقادر عليه .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

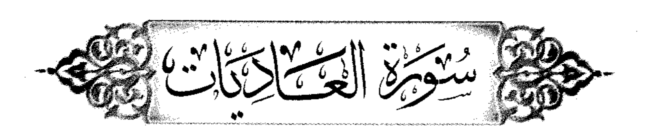






سُورَةُ العَادِيَاتِ





أحمدك ربي ، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد ، رحمة الله للعالمين ، وخاتم الأنبياء والمرسلين ، وبعد ..

فمع **سورة العاديات** .. تلك السورة التي يجري سياقها في لمسات سريعة عنيفة مثيرة ، ينتقل من إحداها إلى الأخرى قفزًا وركضًا في خفة وسرعة وانطلاق ، حتى ينتهي إلى آخر فقرة فيها فيستقر عندها اللفظ والظل والموضوع والإيقاع ، كما يصل الراكض إلى نهاية المطاف .

وتبدأ بمشهد الخيل العادية الضابحة ، القادحة للشرر بحوافرها ، المغيرة مع الصباح ، المثيرة للنقع وهو الغبار ، الداخلة في وسط العدو فجأة تأخذه على غرة ، وتثير في صفوفه الذعر والفرار .

يليه مشهد في النفس من الكنود والجحود والأثرة والشح الشديد .. ثم يعقبه مشهد لبعثرة القبور وتحصيل ما في الصدور .

وفي الختام ينتهي النقع المثار ، وينتهي الكنود والشح ، وتنتهي البعثرة والجمع .. إلى نهايتها جميعًا .. إلى الله ﷻ .. فتستقر هناك : ﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾ .

والإيقاع الموسيقي فيه خشونة ودمدمة وفرقعة ، تناسب الجو الصاخب المعفر الذي تنشئه القبور المبعثرة ، والصدور المحصل ما فيها بشدة وقوة ، كما تناسب جو الجحود والكنود ، والأثرة والشح الشديد .. فلما أراد لهذا كله إطارًا مناسبًا ، اختاره من الجو الصاخب المعفر كذلك ، تثيره الخيل العادية في جريها ، الصاخبة بأصواتها ، القادحة بحوافرها ، المغيرة

* تفسير السورة مقتبس بتصرف من : " في ظلال القرآن " .

فجأة مع الصباح ، المثيرة للنقع والغبار ، الداخلة في وسط العدو على غير انتظار .. فكان الإطار من الصورة ، والصورة من الإطار .

وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾

﴿ وَالْعَادِيَات ضَبْحًا * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا * فَالْمُغِيرَات صُبْحًا ﴾ .. يقسم الله ﷻ بخيل المعركة ، ويصف حركاتها واحدة واحدة منذ أن تبدأ عدوها وجريها ضابحة بأصواتها المعروفة حين تجري ، قارعة للصخر بحوافرها حتى توري الشرر منها ، مغيرة في الصباح الباكر لمفاجأة العدو ، مثيرة للنقع والغبار .. غبار المعركة على غير انتظار ، وهي تتوسط صفوف الأعداء على غرة فتوقع بينهم الفوضى والاضطراب .

﴿ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴾ .. إنها خطوات المعركة على ما يألفه المخاطبون بالقرآن أول مرة ، والقسم بالخيل في هذا الإطار فيه إيحاء قوي بحب هذه الحركة والنشاط لها ، بعد الشعور بقيمتها في ميزان الله والتفاته ﷻ إليها .

وذلك فوق تناسق المشهد مع المشاهد المقسم عليها والمعقب بها كما أسلفنا ، أما الذي يقسم الله ﷻ عليه ، فهو حقيقة في نفس الإنسان ، حين يخوى قلبه من دوافع الإيمان ، حقيقة ينبهه القرآن إليها ؛ ليجند إرادته لكفاحها ، مذ كان الله يعلم عمق وشائجها في نفسه ،

وثقل وقعها في كيانه .

﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ .. إن الإنسان ليجحد نعمة ربه ، وينكر جزيل فضله ، ويتمثل كنوده وجحوده في مظاهر شتى تبدو منه أفعالاً وأقوالاً ، فتقوم عليه مقام الشاهد الذي يقرر هذه الحقيقة ، وكأنه يشهد على نفسه بها ، أو لعله يشهد على نفسه يوم القيامة بالكنود والجحود .. ﴿ وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ .. يوم ينطق بالحق على نفسه حيث لا جدال ولا محال .

﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ .. فهو شديد الحب لنفسه ، ومن ثم يحب الخير ، ولكن كما يتمثله مالاً وسلطة ومتاعًا بأعراض الحياة الدنيا .

هذه فطرته ، وهذا طبعه ، ما لم يخالط الإيمان قلبه فيغير من تصوراته وقيمه وموازينه واهتماماته ، ويحيل كنوده وجحوده اعترافًا بفضل الله وشكرانًا ، كما يبدل أثرته وشحه إيثارًا ورحمة ، ويريه القيم الحقيقية التي تستحق الحرص والتنافس والكد والكدح ، وهي قيم أعلى من المال والسلطة والمتاع الحيواني بأعراض الحياة الدنيا .

إن الإنسان بغير إيمان حقير صغير ، حقير المطامع ، صغير الاهتمامات ، ومهما كبرت أطماعه ، واشتد طموحه ، وتعالت أهدافه ، فإنه يظل مرتكسًا في حمأة الأرض ، مقيدًا بحدود العمر ، سجينًا في سجن الذات ، لا يطلقه ولا يرفعه إلا الاتصال بعالم أكبر من الأرض ، وأبعد من الحياة الدنيا ، وأعظم من الذات ، عالم يصدر عن الله الأزلي ، ويعود إلى الله الأبدي ، وتتصل فيه الدنيا بالآخرة إلى غير انتهاء .

ومن ثم تجيء اللفتة الأخيرة في السورة لعلاج الكنود والجحود والأثرة والشح ؛ لتحطيم قيد النفس وإطلاقها منه ، مع عرض مشهد البعث والحشر في صورة تنسي حب الخير ، وتوقظ من غفلة البطر ..

﴿ أَفَلاَ يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴾ .. وهو مشهد عنيف



مثير ، بعثرة لما في القبور ، بعثرة بهذا اللفظ العنيف المثير ، وتحصيل لأسرار الصدور التي ضنت بها وخبأتها بعيدًا عن العيون ، تحصيل بهذا اللفظ العنيف القاسي .. فالجو كله عنف وشدة وتعفير .

أفلا يعلم إذا كان هذا ؟! ولا يذكر ماذا يعلم ؟! لأن علمه بهذا وحده يكفي لهز المشاعر ، ثم ليدع النفس تبحث عن الجواب ، وترود كل مراد ، وتتصور كل ما يمكن أن يصاحب هذه الحركات العنيفة من آثار وعواقب .

ويختم هذه الحركات الثائرة باستقرار ينتهي إليه كل شيء ، وكل أمر ، وكل مصير ..

﴿ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ ﴾ .. فالمرجع إلى ربهم ، وإنه لخبير بهم ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ ، وبأحوالهم وأسرارهم ، والله خبير بهم في كل وقت وفي كل حال ، ولكن لهذه الخبرة ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ آثار هي التي تثير انتباههم لها في هذا المقام .. إنها خبرة وراءها عاقبة ، خبرة وراءها حساب وجزاء ، وهذا المعنى الضمني هو الذي يلوح به في هذا المقام .

إن السورة مشوار واحد لاهث صاخب ثائر ، حتى ينتهي إلى هذا القرار ، معنى ولفظًا وإيقاعًا ، على طريقة القرآن .

نسأل الله العلي القدير أن يقينا هذا اليوم ، وأن يرزقنا قلوبًا طاهرة نقية من الذنوب .. إنه ولي ذلك والقادر عليه .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .









سورة القارعة







بسم الله الرحمن الرحيم، أحمدك ربي كما علمتنا أن نحمدك، وأصلي وأسلم على خير خلقك سيدنا محمد ﷺ، وبعد ..

فمع **سورة القارعة** .. تلك السورة القصيرة .. التي تتحدث عن يوم القيامة وكأنك تراه رأي العين .. حقيقتها .. معناها .. ما يقع فيها .

والقارعة من أسماء يوم القيامة ، كالطامة ، والصاخة ، والحاقة ، والغاشية ، وكلمة ﴿ الْقَارِعَةُ ﴾ .. توحي بالقرع واللطم ، فهي تقرع القلوب بهولها .

والسورة كلها تتحدث عن هذه القارعة .. حقيقتها .. وما يقع فيها .. وما تنتهي إليه ، فهي تعرض مشهدًا من مشاهد القيامة .

والمشهد المعروض هنا مشهد هول تتناول آثاره الناس والجبال ؛ فيبدو الناس في ظله صغارًا ضئالاً على كثرتهم ، فهم .. ﴿ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴾ .. مستطارون مستخفون في حيرة الفراش الذي يتهافت على الهلاك ، وهو لا يملك لنفسه وجهة ، ولا يعرف له هدفًا ، وتبدو الجبال التي كانت ثابتة راسخة كالصوف المنفوش تتقاذفه الرياح وتعبث به حتى الأنسام ، فمن تناسق التصوير أن تسمى القيامة بالقارعة ، فيتسق الظل الذي يلقيه اللفظ ، والجرس الذي تشترك فيه حروفه كلها ، مع آثار القارعة في الناس والجبال سواء ، وتلقي إيحاءها للقلب والمشاعر ، تمهيدًا لما ينتهي إليه المشهد من حساب وجزاء .

---

* مقدمة تفسير السورة والفقرة الأولى مقتبس بتصرف من : " في ظلال القرآن " .



ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾

﴿ الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ .. لقد بدأ بإلقاء الكلمة مفردة كأنها قذيفة : ﴿ الْقَارِعَةُ ﴾ .. هكذا بلا خبر ، ولا صفة ، لتلقي بظلها وجرسها الإيحاء المدوي المرهوب .

ثم أعقبها سؤال التهويل : ﴿ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ .. فهي الأمر المستهول الغامض الذي يثير الدهش والتساؤل .

ثم أجاب بسؤال التجهيل : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ .. فهي أكبر من أن يحيط بها الإدراك ، أو أن يلم بها التصور .

ثم تأتي الإجابة بما يكون فيها ، لا بماهيتها ، فماهيتها فوق الإدراك والتصور كما أسلفنا .

﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴾ .. وهذا هو المشهد الأول للقارعة ، مشهد تطير له القلوب شعاعًا ، وترجف منه الأوصال ارتجافًا ، ويحس السامع كأن كل شيء يتشبث به في الأرض قد طار حوله هباء .

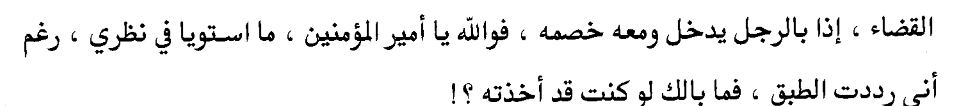


فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾

﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ .. إذا كان الميزان هو الميزان المادي ، فلهذه العلة ، أما إذا كان أمرًا معنويًا ، فلماذا اختار له كلمة الميزان ؟! لأنه أضبط شيء في تقدير الأمور ضبطًا غير متهم ، ولذلك نجد أن القاضي حين يجلس في مجلس قضائه يرسم فوقه الميزان ، وهل في القضاء ما يوزن بالميزان المادي ؟! كلا ، ولكنها أشياء معنوية ؛ كي يتذكر دائمًا أنه يعطي الحق عن الحق ، وألا يجعل عاطفته مائلة ، أو مريضة ، فميزان الحديد لا يجامل أحدًا ، ولا يحابي أحدًا ، فكأني عندما أوصيك بالميزان ، أوصيك بأن تكون في عواطفك مثل الحديد تمامًا ، وإياك أن يكون لك هوى ، وهذه مسألة دقيقة بالنسبة للتكوين البشري .

ولذلك كان كثير من العلماء يمتنعون عن القضاء ؛ لأنه لا يستطيع أن يكون بهذا الشكل ؛ لأن العواطف لها تأثير بلا شك .

فنجد في تاريخ القضاء من يأتي من القضاة إلى الخليفة ويقول : يا أمير المؤمنين ، اعزلني عن القضاء ! فيقول له : ولم ؟! هل نجد أعدل منك ؟! فيقول : يا أمير المؤمنين ، شاع عند الناس أني أحب الرُّطَب ، فبينما أنا في بيتي إذ طرق طارق ، فخرج خادمي ، ثم عاد إلي بطبق فيه رطب ، وكان في بواكيره ، فسألته : من جاء به ؟ فقال : رجل صفته كذا وكذا ، قلت : رده إليه .. وذلك يا أمير المؤمنين لأني أنظر في قضية بينه وبين خصم له ، فخشيت أن يكون قد دخل عليَّ من هذا الباب ، وهو حبي للرطب ، فلما أصبحت ، وجلست مجلس

القضاء ، إذا بالرجل يدخل ومعه خصمه ، فوالله يا أمير المؤمنين ، ما استويا في نظري ، رغم أني رددت الطبق ، فما بالك لو كنت قد أخذته ؟!

هذه هى الدقة ، الدقة أيضًا : كما لو أن إنسانًا له عواطف ، فقد يقف أمامه رجل خفيف الظل ، فيستلطفه ، فيكون هذا مؤثرًا في حكمه ، إذن ، فالمسألة ليست محكومة ؛ ولذلك فهي مسألة دقيقة .

أما الميزان فلا يأخذ بالعواطف أبدًا ، ومعنى ذلك أن العدالة مضمونة ؛ لأن الميزان لا هوى له ، فهو ميزان بكفتين من حديد ، ولسان من حديد ، وذراع من حديد ، وليس له عواطف ، وأخوف ما يخاف في الحكم ، هو أن تسرق عواطف من يحكم من غير قصد ، فتجعله يميل ولو بلحن الحجة ، فالرسول ﷺ – وهو من هو – يقول : **" إنكم تختصمون إلي ، ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض ، فمن قضيت له بحق أخيه شيئًا بقوله فإنما أقطع له قطعة من النار ، فلا يأخذها "**[1] ..

ومعنى ألحن بحجته ، أي : عنده قوة عرض وإقناع ، وقد يلبس الباطل ثوب الحق ، ويلبس المسألة عليَّ فأحكم له .

وقد عاتب الله داود عليه السلام فقال : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لاَ تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلاَ تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ * إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾[2] ، فردَّ داود عليه السلام مباشرة : ﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ ﴾[3] ، فتسلل هذا الخصم على عاطفة داود فأخذها ، فأدخل في حيثية الحكم ما لا دخل له في حيثية الحكم ؛ فالظلم هو الظلم ، سواء كان له تسع

---

1 – أخرجه البخاري (2483) ، ومسلم (3231) ، كلاهما من حديث أم سلمة رضي الله عنها .

2 – سورة : ص ، الآية : 21 : 23 .

3 – سورة : ص ، الآية : 24 .

وتسعون ، أو ليس له ، فيقول : ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ ﴾ ، وكأن داود عليه السلام قد استكثر أن يكون عند هذا تسع وتسعون ، وعند هذا واحدة فقط ، فأحزنه ذلك ، واسترأف بحاله ، فلو لم يكن عنده النعاج التسع والتسعون ، هل كان يبيح له أن يأخذها ؟!

إذن ، فكلمة ﴿ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً ﴾ لا دخل لها في الحكم ، ولا في حيثية الحكم ، إنما أُخذ من عرض المسألة : ﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ ، فبدأ يُدخل في قلب القاضي أن هذا غني ، وهذا فقير ، فتسلل إلى قلب داود وعاطفته من هذه الناحية .

فعندما أراد داود أن يحكم ، لم يحكم في القضية بصرف النظر عن ذلك ، فقال : ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ ﴾ ، وكان ذلك كافيًا ، ولكنه قال : ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ ﴾ .. كأنه لو لم يكن له تسع وتسعون لا يكون قد ظلمه !

إذن ، فأدخل في حيثية الحكم ما لا ينبغي أن يدخل فيه ؛ لأن عاطفته انساقت : ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ﴾ .. أي : اختبرناه بأن عرضنا عليه مسألة ، أي : جعلنا الرجل يحسن العرض ، ويملأ قلبه غيظًا على هذا الغني ، فأدخله في حيثية الحكم ، والمفترض أن القلب لا يتأثر ، فلا يدخل في حيثية الحكم ما ليس في حيثية الحكم .

إذن ، فكلمة : ﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾ .. سواء فهمنا أنها الميزان العدل والحق ، أو سواء فهمنا أنها ميزان مادي ، فإن فهمنا أنه ميزان مادي فقد عرفنا المعنى ، وإن فهمنا أنه الحق والعدل ، فلماذا أتى بكلمة ميزان ؟ لأن ذلك يذكرنا بأن الميزان حكم محكوم بأنه لا هوى له مطلقًا ؛ لأن الهوى ينشأ من العواطف والميول ، والحديد من الجماد ، لا عواطف له ، ولا ميول فكأن كل واحد يأخذ حقه .

﴿ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ .. (**العيشة**) : هي الحال التي يعيش بها الإنسان ، أي : من



قصر يعيش فيه ، ومن نعم يتنعم بـها ، ومن ملبـس يرتديه ، فهذه اسمها العيشـة ، فهي مجموعة الظروف المحيطة بالإنسـان التي تُكَوِّن مقـومات حـياته ومعيشـته ، هذه المقومات كلها لا تكون راضية ؛ لأن الرضا فرع وجود الراضي ، فلا أقـول مثلاً : المسـكن الذى أعيش فيه راضٍ عنى ! ! بل أقول : أنا راضٍ عن مسكنى ... وهكذا .

إذن .. فكلمة : ﴿ رَاضِيَةٍ ﴾ .. نقـلت من معناها ، وهي ممن يملك الرضا والعقـل والعواطف ، و .... إلى آخره ، إلى من لا يملكه ؛ ولذلك فالعلماء في هذه المسـائل يقـولون : استعمل اسـم الفاعل مكان اسـم المفعول ؛ لأن راضية اسـم الفاعل الذي وقـع منه الرضا ، والمفعول واقـع عليه الرضا ، إذن ، فعندما أقـول : عيشـتي مرضية ، أي : أنا راضٍ عنها ، وهي مرضية ، إذن ، فالقياس أن تقـول : عيشـة مرضية ، لكن الحق ﷻ قـال : ﴿ عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ .. فهنا اسم الفاعل استعمل وأريد بـه اسـم المفعول ، مثل قـول الحق ﷻ : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴾[1] .. فالحجـاب يكون سـاترًا ، وليس مسـتورًا ، لكن القـرآن قـال : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴾ ! ! بمعنى : ساتر ، فما السبب ؟ السبب هو أن الحجاب نفسه مستور ، أي أن الحجاب نفسه عليه حجاب ساتر ، بلغ من قوة حجبه ، أنه نفسـه محجوب ، فما دام محجوبًا ، فكأن الحجاب مركب ، كذلك يقـول الحق : ﴿ ظِلاًّ ظَلِيلاً ﴾[2]، فنقول : ظل مركب ؛ لأن الظل إذا كان نفسه هو في ظل ، فيكون هناك حـاجزان بالنسبة للشمس ، وما دام هناك حاجزان بالنسبة للشمس ، فهذا أوقع في أداء الظل .

إذن ، فقول الحق ﷻ : ﴿ عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ ، تفسر على أنها مرضية ، أو نفسرها على أن العيشة نفسها راضية ، وما هى ظاهرة الرضا ؟ ! فلان رضي بالشيء .. أي : أحبـه ، وما دام أحبه ، فيكون دائمًا معه ، ولا ينقطع عنه ، فأراد بـراضية في : ﴿ عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ .. أي :

1 ـ سورة : الإسراء ، الآية : 45 .

2 ـ سورة : النساء ، الآية : 57 .

مستديمة معه ، لا تنفك عنه ؛ لأنها راضية ، ليسوا هم فقط الراضين عنها ، بل وهي أيضًا .

وذلك كما يقول المتنبي عن مثل هذا المعنى ، فيقول :

أنت الحبيب ولكني أعوذ به ... من أن أكون حبيبًا غير محبوب

أي أني أحبك حقًّا ، ولكني أخاف من أن أحبك وأنت لا تحبني ، فأراد أن يبالغ في العيشة ، وأنها عيشة راضية ، مستديمة له ، شأن الراضي عن شيء ، وما دامت راضية عنك ، فلا تنفك عنك ولا تبارحك ، أو أن العيشة التي نظن أنها جماد ولا تعقل ، هي في علم الله عاقلة ، كما قلنا في قول الحق ﷻ : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ [1] ، ولكن من يستطيع أن يخاطب عقلها ؟ ومن يستطيع أن يخاطبها باللغة التي تفهمها ؟ إنه الذي خلقها سبحانه وتعالى ، ولذلك قال : ﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [2]، وقال عن النملة أنها قالت : ﴿ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ [3]، وقال عن الهدهد : ﴿ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ [4]، إذن ، فهذه الكائنات لها قائد ، ولها أقوام ، ولها نظام ، ولكن المهم هو من يفهمها :

والحق سبحانه وتعالى لم يثبت فقط للجماد والحيوان حياة ولغة وعقلاً واعتقادات ، بل أثبت لها أسمى ما يتميز به الإنسان ، أثبت لها وجود العاطفة عنده ، فالعواطف أسمى ، وأرقى شيء يتميز به الإنسان ، فالحق سبحانه وتعالى عندما يعرض في القرآن مثل هذه الصور فيقول : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ .. ليس فقه دلالة ، بل فقه الكلام ، فالحق سبحانه وتعالى يُبَيِّن أن هذه الجمادات والحيوانات ليس لها لغة فقط ، بل لها عواطف أيضًا ، التى هى أسمى شىء ، وذلك كما تكلم الحق سبحانه وتعالى عن قوم فرعون فقال : ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ

1 - سورة : الإسراء ، الآية : 44 .

2 - سورة : فصلت ، الآية : 11 .

3 - سورة : النمل ، الآية : 18 .

4 - سورة : النمل ، الآية : 22 .



جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ ﴾ [1] ، بكت السماء والأرض ، فالبكاء عملية نزوعية من وجود العواطف فيها ، فأنت تبكي بناء عن عواطف ، فهو في الآية يثبت لها عواطف ، فالأشياء التي يُتنعم بها ، وهي : الجمادات ، والنباتات ، والحيوانات ، لا مانع من أن تكون عندها هذه العواطف ، وأن تكون نفسها راضية بجزاء من يجزي بها ؛ لأنه يستحق أن يجازى هذا الجزاء ؛ لأنها علمت أنه لم يستحق هذا الجزاء إلا لأنه طبق المنهج الإلهي كما طلبه الله ﷻ .. إذن ، فله بها آصرة وُدٍّ ؛ لأنها طبقت المنهج الإلهي الذي اختاره الله لها بلا اختيار لها ، إذن ، فهو أخوها في الدين ، فحين تنعمه ، فهي تشعر بأنها راضية بأن تكون منعمة له ، وبذلك تكون نسبة الرضا للعيشة نسبة حقيقية .

وقد ورد عن **علي بن أبي طالب** رضي الله عنه حين قُرئ عليه قول الله ﷻ : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ ﴾ ، قالوا له : أتبكي السماوات والأرض ؟! قال : نعم .. تبكي ، وتفرح ، وتضحك .

وما دام الحق ﷻ قد ذكر أن السماوات والأرض لا تبكي على ذهاب آل فرعون ، فمعنى ذلك أنها تبكي على ذهاب غيرهم ، المقابلين لهم ، وذلك كما ورد عن **على بن أبي طالب** رضي الله عنه : " إذا مات العبد الصالح بكى عليه مصلاه من الأرض ، ومصعد عمله في السماء " [2] ؛ وذلك لأن المكان الذي يصلي فيه الإنسان ، يعشقه ، ويحبه ، ويألفه ، فإذا مات ذلك الإنسان فإن المكان الذي يصلي فيه لله يبكي عليه .

إذن ، فالحق ﷻ حينما يقول : ﴿ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ يمكن لنا أسباب النعيم أتم تمكين ، فنعيم الآخرة على غير نظام النعيم في الدنيا ، فالعيشة راضية عنك ، أما العلماء الذين يقولون : إن التعبير القرآني عبّر براضية ويريد مرضية ، فشرح لم يصل إلى دقيق معاني

1 - سورة : الدخان ، الآية : 25 : 29 .

2 - كنز العمال (15 / 747) .

المواضع القرآنية ، ويرد بلاغة كلام الله إلى المألوف من كلام البشر ، والمهم أن نلتقي في المعاني التي نستنبطها في القرآن حسب الكلام البليغ الذي قصده .

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ .. يأتي الحق ﷻ بعد ذلك بالمقابلة ، والمقابلة هنا في قوله ﷻ : ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ .. وذلك إعجاز تعبيري آخر ، ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ .. أمه نار ؛ لأنه فسر الهاوية بما جاء بعدها ..

﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ .. ابتدأها ابتداءً مقنعًا ، ثم أنهاها إنهاءً موئسًا ، وأيضًا ليأخذ من التصوير الدقيق للمعنى أن النار تتهافت على المعذب بها ، كما تتهافت الأم على وليدها فتحتضنه وتضمه ، فكذلك يكون شأن النار ؛ لأن الإنسان المعذب لم يرعَ نعمة الله في هذه الأم ، وهي لا إرادة لها ولا قوة ولا عقل ، وبعد ذلك سخرها له بما أودع فيها من العطف والحنان والرقة والاستجابة إلى كل نوازعه ، وكما كان منه إعراض عن نعم الله يقول : فأمه ستحتضنه .. ﴿ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾[1] .

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ﴾ .. والأسلوب هنا في قوله : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ﴾ ، رجوع إلى استهلال السورة في قوله : ﴿ الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ ، فهذا تفسير وتأويل ، بحيث يأتي اللفظ ليخرجه عن معانيه المعتادة اللغوية ، فلا ينبغي أن تفهم الأسلوب القرآني على ما اعتدت من معان وضعية لغوية ؛ لأنك تفهم القارعة لغويًا ، وتفهم الهاوية لغويًا ، ولكنك لا تفسر المقصود من القارعة ، والمقصود من الهاوية على وفق ما تعرفه من اللغة ؛ لأن اللغة تحمل معان أخرى متعددة ؛ ولذلك قال الله ﷻ : ﴿ الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ .. فإذا كان ذلك على معناها اللغوي فالنبي والصحابة والعرب جميعًا يدركون ما القارعة ، ولكن المعنى الذي أراده الله ﷻ غير مدرك ؛ ولذلك فقد أعاد للأذهان الأسلوب فقال : ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ ، وأيضًا تفهم : ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ على ضوء ما

1 – سورة : ق ، الآية : 30 .

فهمت من قوله : ﴿ الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ ﴾ فهنا تمثيل وتعيين ، ولا يمكن أن تعلم حقيقة ذلك اللفظ ، إلا إن تركت المعنى اللغوي الذي تألفه وتعرفه ، والذي تعرفه البشر ، وتنظر إلى المعنى المراد من الحق فقال ﷻ : ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ﴾ .

﴿ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ .. وعظمة هذا الأسلوب تتجلى في أنه يصدر الأسلوب بالتصدير المؤنس ، ثم يختمه بالتيئيس المفجع ، وذلك نقلة عملية نفسية مرادة من الحق ﷻ ، وإذا قرأنا القرآن رأينا مثل هذه الأساليب كثيرة ، فيقول : ﴿ فَبَشِّرْهُمْ ﴾ ، فعندما تسمع : ﴿ فَبَشِّرْهُمْ ﴾ ، تقول : إن البشارة تكون بخير ، فتستشرق النفوس إلى أن هناك منقذًا ، ومغيثًا ، ومنجيًا يُفهم من : (فَبَشِّرْهُمْ) ، فإذا استشرفت النفوس إلى ذلك ، جاء الجواب مُبئسًا ، مفجعًا فيقول : ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[1] ، ويقول الحق : ﴿ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا ﴾[2] ، والإنسان حين يستغيث ، تفهم منه أنه يطمع في شيء يخلصه من العذاب ، فتستشرف نفسه ، فإذا قال : ﴿ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ ﴾ ، ولكن .. ﴿ بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ ﴾ ، بأشد مما هم فيه ، فكأنه ابتدأ الأسلوب ابتداء مقنعًا ، ثم أنهاه إنهاء موئسًا ، فلو ترك اليأس من أوله ، ولم تفرح النفس بمعنى المنقذ والمغيث ، لكانت المسألة أخفّ ، ولكن يفتح له باب الأمل واسعًا ، ثم بعد ذلك يأتي بالمبشر به فنجده عذابًا أليمًا ، فيفتح الباب بقوله : ﴿ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا ﴾ .. وبعد ذلك : ﴿ يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ ﴾ ، بأشد مما كانوا فيه .

وبعد ذلك يقول : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ .. وهنا تقابل لـ : ﴿ مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾ بـ : ﴿ مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴾ ، وبين : ﴿ عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ وبين : ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ ، هذا التقابل الإعلاني عن الإخبار بأمر غيبي المقصود منه أن ينعم المؤمنون نعمتين : (**النعمة الأولى**) : أن يعرف موقعه في الآخرة من رضا ربه ، ونعيم ربه عليه ، (**والنعمة الأخرى**) : أن يرى أن الذي كان يحاربه في دينه ، ويشاقه ، ويعانده : أمه

---

1 - سورة : آل عمران ، الآية : 21 .

2 - سورة : الكهف ، الآية : 29 .

هاوية ، إذن ، فنعيمه جاء من جهتين : النعيم في نفسه ، والعذاب لخصمه وعدوه الذي عاداه في الدنيا عقديًا .

وأيضًا فيه تعذيب للكافر من جهتين : من جهة أنه يعطيه صورته من العذاب ، وصورة خصمه الذي كان له في الدنيا من النعيم .

وهذا التقابل يأتي في مواضع كثيرة من القرآن ؛ حتى يعطينا الصورة ، فيقول مثلاً : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ * وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴾[1] ، ذلك هو التصوير الذي يتصوره الكافر بالنسبة للمؤمن ، فماذا قال الحق ليعطي التقابل ؟ قال : ﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ * هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾[2].

وفي **سورة الرحمن** أيضًا ، حيث ذكر فيها نعمًا كثيرة متوالية ، يعبر الحق ﷻ عن هذا الامتنان بالنعيم بعد كل نعمة ، فيقول : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[3].. فنقول : ولا بأي شيء من آلائك نُكذِّب ، كل النعم حقيقة ، ويأتي هذا التعقيب المكرر في قوله : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ . بعض الأمور معروف أنها نعم ، والبعض معروف أنها ليست نعمًا ، ولكنها تقوم بدور فعال في سائر أمور الإنسان ، فمثلاً عندما يقول : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴾[4] ، أي : خلقني من جماد ، وبعد ذلك أعطاني الحياة ، وأعطاني النعم ، ﴿ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[5] ، ﴿ كُلُّ مَنْ

1 – سورة : المطففين ، الآية : 29 : 33 .

2 – سورة : المطففين ، الآية : 34 : 36 .

3 – سورة : الرحمن ، الآية : 13 ومواضع بعدها .

4 – سورة : الرحمن ، الآية : 14 .

5 – سورة : الرحمن ، الآية : 15 ، 16 .

عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ .. وهي نعمة ؛ لأن المؤمن الذي يُطلب منه أن يسلك في حياته منهجًا خاصًا يقيد حريته ، يكون من النعم عليه ألا يدوم قيد التضييق عليه في حريته ، فيكون الموت نعمة ، وهو أيضًا نعمة بالنسبة لما تراه أنت للكافر ، فالمنعم به سينتهي ؛ لأنه ليس له في تصوره إلا هذه الدنيا ، وما دام ليس له في تصوره إلا هذه الدنيا ، فالموت سينهي هذا التصور أيضًا ، وذلك تلمحه أيضًا في قوله : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالأَنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانْفُذُوا لاَ تَنْفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ * فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [1] ، فعدم الخروج عن سلطان الله نعمة لنا ، وبعد ذلك يقول : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلاَ تَنْتَصِرَانِ * فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [2] .. إذن ، فكل ذلك يؤكد أن كل ما في الوجود نعم بالنسبة للمؤمن ، أما بالنسبة لاستشعار ما يكون للكافر في هذه الحياة ، ذلك تنعيم أيضًا بالنسبة للمؤمن .

فإذا كانت القارعة ستأتي بأوصافها التي أرادها الحق ﷻ، وإذا كان الإنسان ستُعْرَضُ أعماله للجزاء على ما فيها بمنتهى الدقة والعدل ، فعلى ذلك يلقى كل إنسان جزاءه ، المؤمن يأخذ جزاءه العيشة الراضية ، والكافر يأخذ جزاءه الأم الهاوية .

لذلك ، فالعاقل الذي يحب أن يستقبل الأمور بما تستحقه من العناية ، يجب ألا يشغل نفسه بما لا يفيده عما يفيده ، ويجب ألا يتلهى بما يكون نقمة عليه عن ما يكون نعمة له ، ولكن الإنسان بطبيعته غافل ، يشتغل بما جُعِل له عما طُلِب منه .

فنسأل الله ﷻ أن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وأن يلهمنا رشدنا ، وأن يقينا شرور أنفسنا .

إنه ولي ذلك والقادر عليه .. والحمد لله رب العالمين .

---

3 – سورة : الرحمن ، الآية : 33 ، 34 .

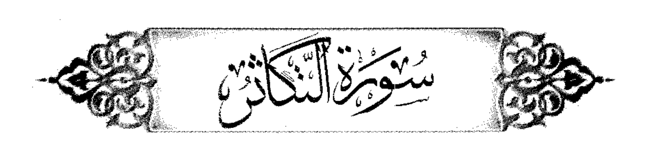
4 – سورة : الرحمن ، الآية : 35 ، 36 .



تفسير جزء عم

سورة التكاثر





بسم الله الرحمن الرحيم ، أحمدك ربي كما علمتنا أن نحمدك ، وأصلي وأسلم على خير خلقك سيدنا محمد ﷺ ، وبعد . .

فمع **سورة التكاثر** .. تلك السورة القصيرة .. التي تُذكر أولئك اللاهين بآخرتهم ، وتنبههم إلى الإيمان بالله عز وجل والعلم به علم اليقين قبل أن يرونها عين اليقين ، وقبل أن يُسألوا يومًا عن النعيم .

أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨

﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ .. ألهانا عن تلك المقاييس ، وعن تلك الموازين ، وعن تلك النهاية ، فانشغل الإنسان عن الأعمال التي تثقل موازينه ، وتلهى بالأشياء التي تخفف موازينه ، وهذه هي الغفلة ، ذلك هو الغباء ، وذلك هو الموت ، وذلك تحذير عن مطلوبات الله من الإنسان في الوجود ، وعن تحقيق الإنسان لتلك المطلوبات ، فيجب أن يصبر الإنسان على تحقيقها ، وأن ينتبه ، وأن يفيق ، فلا يشتغل بما يخفف موازينه عما يثقلها .

* تفسير السورة مقتبس بتصرف من : "في ظلال القرآن" .

و(**التكاثر**) .. تفاعل ، وهناك فرق بين الفعل والتفاعل ، فالفعل قد يقع من إنسان على إنسان آخر ، فهذا فاعل ، وهذا مفعول به ، ولكن التفاعل في ظاهره يتكون من الفاعل والمفعول ، ولكن في تحقيقه : نجد أن الفاعل – مع فاعليته – مفعولاً من ناحية أخرى ، والمفعول – مع مفعوليته – فاعلاً من ناحية أخرى ، كما تقول مثلاً : شارك زيد عمرًا ، فزيد في الصورة اللفظية فاعل ، وعمرو مفعول ، ولكن تحقيق الصورة هو المشاركة بين عمرو وزيد ، فلقد شارك عمرو زيدًا أيضًا ، فيكون كل واحد منهم فاعلاً من ناحية ، ومفعولاً من ناحية أخرى ، إلا أن تغليب السمع جعل الفاعلية غالبة هنا ، والمفعولية غالبة هناك ، فكلٌ فاعل ، وكلٌ تفاعل .

فإذا قلت : تشاجر زيد وعمرو ، أي : وقع التشاجر من زيد ، ومن عمرو معًا ، زيد متشاجر ومتشاجر معه ، وعمرو أيضًا متشاجر ومتشاجر معه ، ولكننا غلّبنا المعية في واحد ، والفعل في الآخر ، وهذا هو معنى التفاعل ، بأن يستوي الفاعل والمفعول ، أو الفاعل الأصيل مع المتعلق به يكون في الفعل ، ويكون بوقوع الفعل عليهم .

فلا يقال : إن فلانًا قد تكاثر على فلان إلا إذا كان فلان قد تكاثر أيضًا عليه ، فأنا أكاثرك ، وأنت تكاثرني ، فكل واحد منهما فاعل ومفعول ؛ ولذلك عادة يأتي الفاعل بليغًا ، أو اسمًا واحدًا ، فتقول : تكاثر القوم ، أي : كاثر بعضهم بعضًا ، أي : منهم فاعل ، ومنهم مفعول .

فقول الحق ﷻ : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ .. أي الصادر منكم جميعًا .. كل منكم يكاثر الآخر ، و " **المكاثرة** " .. لها معنيان ..

(**أحدهما**) : أن تكاثره بما وقع عندك من النعيم ، وأن يكاثرك بما وقع عنده من النعيم ، شيء واقع ، فيقول : مالي الموجود عندي الآن أكثر من مالك ، وولدي أكثر من ولدك ، ونعيمي أكثر من نعيمك ، أي التكاثر بأنك تدّعي أنك أكثر ، وهو يقابلك فيدّعي أنه أكثر في شيء واقع .

(الثانى) : أن يصرفوا جهودهم في أن يكونوا أكثر الناس أشياء ، فيستقبلوا بالفعل أعمالاً يريدون بها أن يكاثروا الغير .

فعلى المعنى الأول : المتكاثر بـه يكون موجودًا ، وعلى المعنى الثاني : أن يكون المتكاثر به مطلوبًا .

وما دام أن الحق ﷻ لم يذكر المتعلق ، فلم يقل : ألهاكم التكاثر فيما تملكون ، أو : ألهاكم حب التكاثر في ما تطلبون ، يكون عموم اللفظ يقتضي أن المعنى عام .

ونلاحظ أن الحق ﷻ قال : ﴿ أَلْهَاكُمُ ﴾ .. فما هو الإلهاء ؟ والإلهاء هو أن يوجد شيء يسيطر على فكر الإنسان ، فيجعل غير المطلوب عنده أهم من المطلوب ، وحين يذكر الحق ﷻ اللهو واللعب في كل آيات القرآن يقدم اللعب على اللهو ، إلا في آيتين اثنتين فقط ، قدم فيهما اللهو على اللعب .

وذلك لأن الإنسان تمر عليه فترات ، فترة قبل أن يبلغ ، وهذه فترة غير تكليفية ، فحين يلعب لم يترك شيئًا مطلوبًا منه ليفعل شيئًا غير مطلوب ، لكن اللاهي يترك شيئًا مطلوبًا منه ، ويشتغل بغير المطلوب ، وبما أن الإنسان حينما يستقبل الحياة لا يكون مطلقًا أول الأمر ، فأول ما يبدأ أمره باللعب ، ثم يكلف فينسى اللعب ، ومع ذلك ، فالقرآن لم يقل : ألعبكم ، بل قال : ﴿ أَلْهَاكُمُ ﴾ ، لماذا ؟ لأن اللعب عادة لا يكون له وقت مباح له فيه أن يلعب ، وهو يشترط أنه لم يبح لهم شيئًا من اللعب فقط لا يلهيهم . ولذلك كانت أُمُّنا عائشة رضى الله عنها تقف خلف الرسول ﷺ ، ويريها من اللعب ، فعن عروة بن الزبير ، أن عائشة رضى الله عنها قالت : لقد رأيت رسول الله ﷺ يومًا على باب حجرتي ، والحبشة يلعبون في المسجد ، ورسول الله ﷺ يسترني بردائه أنظر إلى لعبهم [1] ..

وعن عائشة رضي الله عنها أن أبا بكر رضي الله عنه دخل عليها وعندها جاريتان في أيام منى

---

1 - أخرجه البخاري (435) ، ومسلم (1481) .

تغنيان وتدففان وتضربان ، والنبي ﷺ متغش بثوبه ، فانتهرهما أبو بكر ، فكشف النبي ﷺ عن وجهه فقال : " **دعهما يا أبا بكر ؛ فإنها أيام عيد** " [1] .

إذن .. فهناك أشياء تكون مباحة للمكلف ، بشرط ألا تمنعه عن طاعة ، إنما نحن نلهو في كل وقت ، فالوقت الذي جعله الله ﷻ لذلك اللهو كان يوم عيد ؛ لأن هذه المباحات لك أن تفعلها أو لا تفعلها ، لك أن تأكل أو لا تأكل ، لك أن تفطر بدون أمر تكليفي به ، ولكنه أصبح مفروضًا عليك أن تفطر يوم العيد ، ففرض الله عليك الشيء المباح ، وأثابك عليه ، إذن ، ففطر يوم العيد لابد منه ، فقد كلفك الله به تكليفًا ، والفطر في يومه كالصوم في يوم من رمضان ، فيحرم الصوم يوم العيد ، ولك أن تلعب ، ولك فيه ثواب لذلك ، هذا هو العيد ، يعطيك ثوابًا على أشياء كانت مباحة أولاً ، افعلها أو لا تفعلها .

﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ .. قال **ابن أبي حاتم** : حدثنا **أبو سعيد الأشج** ، حدثنا **أبو أسامة** قال : **صالح بن حيان** حدثني عن **ابن بريدة** في قوله : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ قال : نزلت في قبيلتين من قبائل الأنصار ، في بني حارثة وبني الحارث ، تفاخروا وتكاثروا ، فقالت إحداهما : فيكم مثلُ فلان بن فلان ، وفلان ؟ وقال الآخرون مثل ذلك ، تفاخروا بالأحياء ، ثم قالوا : انطلقوا بنا إلى القبور . فجعلت إحدى الطائفتين تقول : فيكم مثل فلان ؟ يشيرون إلى القبر ، ومثل فلان ؟ وفعل الآخرون مثل ذلك ، فأنزل الله ﷻ : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ .. لقد كان لكم فيما رأيتم عبرة وشغل .

وقال قتادة : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ .. كانوا يقولون : نحن أكثر من بني فلان ، ونحن أعَدُّ من بني فلان ، وهم كل يوم يتساقطون إلى آخرهم ، والله ما زالوا كذلك حتى صاروا من أهل القبور كلهم .

وقال مقاتل والكلبي : نزلت في حيين من قريش ، بني عبد مناف بن قصي ، وبني سهم بن

---

1 - أخرجه البخاري (3266) ، ومسلم (1480) .

عمرو ، كان بينهم تفاخر ، فتعادَّ السادة والأشراف أيهم أكثر عددًا ؟ فقال بنو عبد مناف : نحن أكثر سيدًا ، وأعز عزيزًا ، وأعظم نفرًا ، وأكثر عددًا ، وقال بنو سهم مثل ذلك ، فكثرهم بنو عبد مناف ، ثم قالوا : نعدّ موتانا . حتى زاروا القبور فعدوهم ، فقالوا : هذا قبر فلان ، وهذا قبر فلان . فكثرهم بنو سهم بثلاثة أبيات ؛ لأنهم كانوا في الجاهلية أكثر عددًا ، فأنزل الله هذه الآية .. ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ بما لا يعنيكم عن ما يعنيكم .

﴿ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ .. وكانت هذه صورة واقعة ، فقد تفاخروا بالأحياء حتى انتهى التفاخر بالأحياء ، فذهبوا يتفاخرون أيضًا بمن في القبور ، فمنهم من قال : من في هذا القبر منا ، ومن في هذا القبر منا ، فكأن تكاثرهم أداهم إلى أن يزوروا القبور ؛ ليضموا إلى تكاثر موجود لهم في الدنيا تكاثرًا كان لهم ثم مات ، أو أن الإلهاء بلغ بكم مبلغًا ، أنكم شغلتم به كل الوقت حتى فوجئتم بالموت ، أي : ظللتم حياتكم كلها في تكاثر شغلكم حتى الموت ، والمعنيان يصحان ؛ لأن (**العبرة دائمًا بعموم اللفظ لا بخصوص السبب**) .

وهنا نجد أن العربي الذي يستقبل القرآن بإيحاءاته ، ويستقبل القرآن بخلفياته المعبرة ، حين سمع هذه الآية قال : نعى الناس إلى أنفسهم ورب الكعبة ، والله لقد قامت القيامة فقال : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ .

وانتهى التعبير الدقيق هنا أيضًا فيما يفهم من زرتم المقابر ، أما عن المعنى الأول : أنهم ذهبوا إلى المقابر ليتكاثروا بالأموات ، فالأمر واحد ؛ لأنهم تكاثروا ورجعوا ، فالمدة التي استغرقها التكاثر عند الحضور مدة يسيرة ، هي مدة الزيارة ، أما إذا كان المقصود أن التكاثر ألهاكم ، وأغفلكم ، وأذهلكم ، حتى فاجأكم الموت فمتم ، فالتعبير فيه دقة ، أي أن الموت ليس نهاية الأحياء ، إنما هو مرحلة فقط ، بعدها يأتي أمر آخر ، وستعودون ثانية إلى الحياة ، وفترتكم في ذلك الحضور ، كالفترة في تلك الزيارة ؛ لأن الزائر غير مقيم .

إذن .. فالذي يلهي الإنسان عن شيء ، هو غفلته عن مصيره في الأمرين ؛ لأن الإنسان لو



استحـــضر الجزاء على أعماله ، أو نسبـــنا له الجزاء على أعماله ، أو عجلنا له الجزاء على أعماله ، وأحضرنا له الجزاء حسًّا أمامه ، وأوقدنا نارًا ، ثم جاء بأمتع متعة تمتع بها ، وقلنا له : إن تمتعت بهذه المتعة فإننا سندخلك هذه النار ، فلا شك أنه سيبتعد عن هذه المتعة ، لأنه لا يوجد إنسان أبدًا يجازف بأن يتمتع بمتعة ، ثم يقذف به في النار .

فالفرق بين ما في الصورتين هو أن الجزاء في هذه الصورة محس أمامه كإحساسه بالمتعة ، ولكن في الصورة الأخرى فالمتعة فيها محســـــة عاجلة ، والجزاء غيب آجل ، وما دام غيبًا آجلاً ، فهو ليس مستحضرًا .

فالذي يوجد اللهو عن مطلوب هو أن معنى الجزاء ، ومعنى موقف الجزاء ، ومعنى وصف الجزاء ، أمر باهت في النفس ، ولو كان الجزاء مُشاهدًا للنفس ، فلا يمكن أن يقبل أحد على معصية ، ما دام يستحضر الجزاء عليها والعذاب إن فعلها .

فالمسألة إذًا يقين في الجزاء ، فاليقين في الجزاء حين يبهت في النفس بأن لا يستحضر الجزاء فلا يكون له رادع ، فإنه يقع في المعصية ، لكن الجزاء حين يستضخم أمام الإنسان فلا يمكن أن يأتي المعصية ، وهذا هو معنى حديث رسول الله ﷺ حين لقي الحارث بن مالك الأنصاري فقال له : " **كيف أصبحت يا حارث ؟** " قال : أصبحت مؤمنًا حقًّا ، فقال : " **انظر ما تقول ؛ فإن لكل شيء حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟** " فقال : قد عزفت نفسي عن الدنيا ، وأسهرت لذلك ليلي ، وأظمأت نهاري ، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزًا ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها . فقـــــــال : " **يا حارث .. عرفت فالزم** "[1].

إذن ، فالذى يجعل الإنسان يلهو ويلعب هو غفلته عن القيمة الجزائية للأشياء .. الجنة والنار ، فهو يأخذ بصورة عينية ، وقد تبهت عنده .

1 – أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه عن الحارث بن مالك الأنصاري (7 / 226) ، وعبد بن حميد في مسنده (2 / 28) ، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (6 / 153) .

﴿ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ .. إن الحق ﷻ يعطينا السورة حتى يُعلِمنا ، فيقول : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ * كَلاَّ ﴾ .. وكلمة : ﴿ كَلاَّ ﴾ كلمة ردع وزجر ، أي : ليس هذا هو العاقل ، ليس هذا هو سلوك الإنسان الذي يرتب الأمور على نتائجها ، بل هذا سلوك معيب .

وكلمة : ﴿ كَلاَّ ﴾ .. عندما تسمعها ، تفهم أنها كلمة زجر ، ﴿ كَلاَّ ﴾ .. أي : ذلك مسلك لا يرضي الله ﷻ ، ﴿ كَلاَّ ﴾ .. الذي أنتم متشككون فيه في هذه المسألة ؛ لأن علم اليقين لا يكفيكم .

﴿ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ .. فالمرتبة بـ : ﴿ تَعْلَمُونَ ﴾ هي مرتبة علم القين ؛ لأننا في القبر تعرض علينا النار ، وتعرض علينا الجنة ، كما قال ﷺ : " **إن أحدكم إذا مات ، عُرض عليه مقعده بالغداة والعشي ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، يقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة** "[1].. فالذي كان علم يقين أولاً ، سيصير عين يقين ، وبعد ذلك ، في يوم الجزاء ، يدخل أهل الجنة الجنة ، ويدخل أهل النار النار ، فيكون الأمر حق اليقين ، فكأنها مراتب ، مراتب الإعلام من الحق بوجود جنة ونار وجزاء ، لكن ذلك علم نظري منقول بصورة ذهنية ، أنت صدقت الصادق ، فالذي إيمانه زائد ، وحقيقة إيمانه موجودة ، يعلم ويتيقن أن ما قاله الله ﷻ له ليس علمًا نظريًا ، بل هو علم حقيقي ، أما من هو صادٌّ عن هذا ، يبقى هكذا حتى يرى المرحلتين الأخيرتين .

فيقول : ﴿ كَلاَّ ﴾ .. أي ليس ذلك أمرًا طبيعيًا .

﴿ ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ .. انتقلتم إلى مرحلة علم اليقين ، ثم تأتي مرحلة أخرى : ﴿ كَلاَّ سَوْفَ ﴾ .. أي : ليس هذه هي المرحلة فقط ، بل هناك عين اليقين ، وستراها بعينك .

---

1 – أخرجه البخاري (1290) ، ومسلم (5110) ، كلاهما من حديث ابن عمر .

وكلمة : ﴿ سَوْفَ ﴾ .. للزمن المستقبل ، ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ .. أي : بعد الموت ، فيكون الأمر عين اليقين ، وليست هذه هي النهاية ، بل تأتي فترة أخرى .. ﴿ ثُمَّ ﴾ ، أي : ستأتي ولكن على الترتيب والتراخي ، ثم يأتي عين اليقين : ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ .. فالاستقبال في الثانية لأن الثانية تكون حالاً .. ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ، أي : مستقبلاً بالنسبة لحالكم الآن .

ولذلك فالرسول ﷺ يعطينا هذه الصورة ، ويبين أن الناس جميعًا موقنون أنهم يموتون ؛ لأنه عند استقراء الحياة تجد أنه لا ينجو أحد من الموت ، فالحياة هكذا ، فإذا كانوا متيقنين أنهم سيموتون ، فما الذي يجعلهم يغفلون عن ما بعد الموت من الجزاء والحساب ؟! حتى قيل : " **لا أرى يقينًا يشوبه الشك من يقين الناس بالموت** " ، فهو يقين يرى فيه شكًا ، فلو لم يكن فيه مثقال شك لكان الإنسان يستحضر ذلك الموت دائمًا .

﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ .. إن المعنيات دائمًا حين يعلمنا الحق ﷻ بها تأخذ ثلاث صور :

الصورة الأولى: أن يخبرك بها المخبر ، فتوجد عندك صورة ذهنية عن الخبر .. صورة نظرية .. صورة عينية ، ومعنى صورة ذهنية ، أو صورة عينية : أن الشيء في حقيقته بعيد عنك ، وأخذت حسب تصديقك للمخبر صورة يقينية ، ولكنه يقين أقل من يقينه هو بما يخبرك به .

الصورة الثانية: ينتقل بك إلى يقين ، ولكن ليس نظريًا ، بل إلى يقين عيني ، كما قلنا من قبل : إذا جاء إنسان من بلد من البلاد وقال : زرت البلد الفلانية ، فوجدت فاكهة في حجم البطيخ ، ولون البرتقال ، وطعم التفاح ، ورائحة الموز ، فإن كان صادقًا ، فقد أعطاك صورة ذهنية نظرية عن الشيء ، أي أصبح لديك صورة نظرية ، فلما تتعجب أنت من هذه الفاكهة يريك إياها ، ويعطيك منها ، فتكون قد انتقلت من الكلام النظري ، إلى الكلام العيني ، أي :

ن الشيء ، فيكون الأمر منتقل من علم اليقين ، إلى عين اليقين ؛ لأنها أصبحت أمامك .

الصورة الثالثة: ينتقل بك من عين اليقين إلى حقيقة اليقين ، فإذا جاء بالسكين ، وقطعها طعًا ، وأعطى كل إنسان قطعة وأكلها ، يكون قد وصل من عين اليقين إلى حقيقة اليقين ، ي : وصل إلى درجة من اليقين ، وليس يبقى بعد هذا شيء آخر .

وكذلك الحق سبحانه وتعالى في الإخبار عن الغيبيات ، يخبرنا – وهو الصادق – فنأخذ صورة هذه الأشياء ، فهذا اسمه : علم اليقين ، بعد ذلك نرى بأعيننا ذلك الشيء الذي لم نكن قد رأيناه ، فهذا اسمه : عين اليقين ، ثم ندخل في حقيقة ذلك الشيء ، فيكون : حق اليقين .

فمثلاً يخبرنا الشرع والتواتر أن لله عز وجل في مكة بيتًا ، هو الكعبة ، وهذا البيت شكله كذا وكذا ، فالذى لم يره يأخذ صورة ذهنية عنه ، فيكون عنده علم يقين ؛ لأنه علم ذلك ، والتواتر أيده ، فعندما يذهب إلى البيت ، وينظر له ، فالذي كان علم يقين عنده ، أصبح عنده عين يقين ، فإذا ما طاف ، وَصَفَت روحه ، وتشبع فؤاده ، وغيرته الروحانية ، يكون قد دخل في حقيقة اليقين ، وهي مرحلة حق اليقين .

﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ .. تأتي خاتمة السورة بما يوحي به التكاثر من تنافس على خير الحياة وما يسعد في الدنيا ، ظنًّا من الإنسان أن الدنيا هي كل شيء ، فأراد الحق سبحانه وتعالى أن يردنا عن التكاثر ليجعله تنافسًا في الخير ومسابقة إلى النعيم الباقي ، فانتهت السورة عند قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ .. ذلك النعيم الذي تلقيناه بالتكاثر والتنافس ، وما دام هذا النعيم نعيمًا فإن الإنسان يسأل عنه ، ويدخل بسببه في الحساب أولاً ، ثم الوزن ثانيًا ، ثم الجزاء على ذلك الوزن .

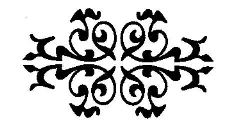
فوجب أن يحتاط الإنسان بألا يتكاثر إلا في شيء يكون له منه الخير في الدنيا ، وبعد الدنيا ، أي في الحياة الباقية ، فلا يجب أن يتكاثر على شيء إلا إذا وثق بأن ذلك الشيء يرجح كفة ميزانه يوم لقاء الله عز وجل ، وحينئذ يكون سؤاله عن النعيم لا سؤال تعنيف بل سؤال تشريف .



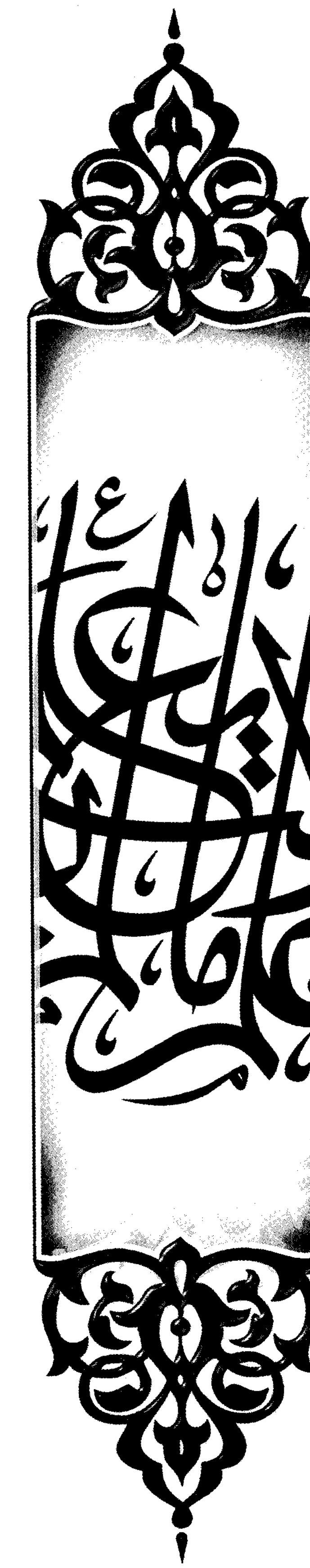
لأن الحق سبحانه وتعالى وضع للناس طريقًا مستقيمًا لا تتفرق السبل فيه بالإنسان بل يتوجد فيه السبيل إلى الحق ، وهذا الطريق المستقيم كما نعرف بداهة هو أقصر المسافات بين نقطتين ، فإن أردت أن تصل إلى الله عز وجل ، وإلى النعيم الذي له حساب راجح عند الله ، فلتلتزم منهج الله ، وخط الله ، وهو الصراط المستقيم الذي يوصلك إليه .

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا دائمًا إلى أن نتصرف تصرف الخير على المنهج الذي يريده الله سبحانه وتعالى لنا .

إنه ولي ذلك والقادر عليه .

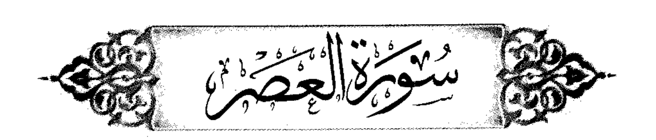








سُورَةُ العَصْرِ



بسم الله الرحمن الرحيم . . أحمدك ربي كما علمتنا أن نحمدك ، وأصلي وأسلم على خير خلقك سيدنا محمد ﷺ ، وبعد . .

انتهينا في خواطرنا حول **سورة التكاثر** ، وقلنا : إن السورة ختمت بما يوحي به التكاثر من تنافس على خير الحياة ، وما يسعد في الدنيا ، ظنًّا للإنسان أن الدنيا هي كل شيء ، فأراد الحق ﷻ أن يردنا عن التكاثر ليجعله تنافسًا في الخير ، ومسابقة إلى النعيم الباقي ، فانتهت السورة عند قوله ﷻ : ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾[1] ، النعيم الذي طلبتموه بالتكاثر ، وطلبتموه بالتنافس ، وما دام هذا النعيم نعيمًا يُسأل الإنسان عنه ، ويدخل بسببه في منطقة الحساب أولاً ، ثم منطقة الوزن ثانيًا ، ثم منطقة الجزاء على ذلك الوزن ، فوجب أن يحتاط الإنسان لنفسه بألا يتكاثر إلا في شيء يكون له منه الخير في الدنيا وبعد الدنيا ، أي في الحياة الباقية .

فلا يجب أن يتكاثر على شيء إلا إذا وثق بأن ذلك الشيء يرجح كفة ميزانه يوم لقاء الله ﷻ ، وحينئذٍ يكون سؤاله عن النعيم لا سؤال تعنيف ، بل سؤال تشريف .

لأن الحق ﷻ وضع للناس طريقًا مستقيمًا لا تتفرق السبل فيه بالإنسان ، بل يتوحد فيه السبيل إلى الحق ، والطريق المستقيم هو أقصر المسافات بين نقطتين ، فإن أردت أن تصل إلى الله ﷻ ، وإلى النعيم الذي له عند الله حساب راجح فلتلتزم منهج الله وخط الله ، وهو الصراط المستقيم الذي يوصلك إليه .

1 - سورة : التكاثر ، الآية : 8 .

بعد ذلك كان ولابد أن يحدد الحق أن الإنسان بالنسبة لواقعه في الحياة ، وبالنسبة لحركته في تلك الحياة لا يعدو نهايتين :

النهاية الأولى : أن يكون رابحًا .. أن يكون ناجحًا .. أن يكون مفلحًا .

النهاية الثانية : أن يكون خاسرًا .

فكان ولابد أن ينقسم الناس إلى قسمين : قسم خاسر ، وقسم رابح .. قسم ناجح ، وقسم راسب .. قسم مرتفع ، وقسم نازل .

وبعد ذلك حينما أراد الحق أن يعرض للناس المنهج الذي يؤديهم إلى القسم الرابح ، وإلى القسم الناجح ، وإلى القسم العالي ، أراد أن يقدم بين يدي ما يقول من المبادئ الشهادة على ذلك .

فالحق سبحانه وتعالى حينما يقسم بشيء – وكما قلنا سابقًا : إن الله يقسم بما شاء على ما شاء – يقسم به لأنه يعلم ما خلق ، ومن خلق ، وسر ما خلق ، ومن خلق ، فهو وحده الذي يقسم بما شاء ، ولكننا لا نعرف عظمة الأشياء ، ولا نعرف خطورتها ؛ لجهلنا بما حولنا من الوجود ، ولكن الله الذي خلق هذه الأشياء وأودع فيها أسراره هو الذي يقسم بها .

وقلنا : إن القسم يأتي مرة بإثباتٍ حين يقول مثلاً : ﴿ وَالْعَصْرِ ﴾ ، ويأتي بنفي للقسم ، ويكون أوكد من القسم في مثل قوله : ﴿ لاَ أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾[1] ، أو : ﴿ لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾[2] ، أو ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾[3] ، ففي ظاهر الأمر في قوله : ﴿ لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ ، أو : ﴿ لاَ أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ ، أو : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ أنه لم يقسم ؛ لأن القسم سواء كان إثباتًا له

---

1 – سورة : البلد ، الآية : 1 ، 2 .

2 – سورة : القيامة ، الآية : 1 .

3 – سورة : الواقعة ، الآية : 75 ، 76 .

كما في قـوله : ﴿ وَالْعَصْرِ ﴾ ، أو كان نفيًا له كما في قـوله : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ إنما يؤدي إلى غرض واحد ، ذلك الغرض هو تأكيد المقسم عليه .

فالقَسَمُ إذن في كل سور القرآن جاء لتأكيد الأمر المقسم عليه ، وتأكيد الأمر المقسم عليه يكون له لونان :

اللون الأول : أن يقسم بالفعل .

اللون الثاني : أن يقـول : إن ذلك الأمر الذي يجب أن يقسـم عليه في نظر الناس أمر من الوضوح بحيث لا يُحتاج فيه إلى القسم ، فكأنه حين يقول : ﴿ لاَ أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ .. كأن الجواب الذي يأتي بـعد ذلك أمر من الوضوح بحيث لا يقسـم عليه ، وما دام من الوضوح بحيث لا يقسم عليه فلو كنت مقسمًا لأقسمت بالبلد .. لو كنت مقسمًا لأقسمت بمواقع النجوم .. لو كنت مقسمًا لأقسمت بيوم القيامة ، ولكن ذلك الأمر واضح لدرجة أنه لا يحتاج إلى القسم .

وهناك أشياء قد يلتبس فيها الأمر ؛ فيحتاج إلى قسم ؛ فيقسم الله بالفعل .

إذن فمؤدى القسم ومؤدى نفي القسم واحد في تأكيد المقسم عليه ، إلا أن المقسم عليه أمر قد توجد فيه شبهة فيقسم الله ليرفع تلك الشبهة ، والأمر الثاني أمر واضح لا يحتاج لقسم ، ولكن لو كنت مقسمًا عليه لأقسمت بكذا وكذا وكذا ، ففيه أيضًا الدليل .

مثال ذلك ، ولله المثل الأعلى ، الإنسان منا حينما يشعر بوعكة صحية يذهب إلى الطبيب ، والطبيب حين يشخص المرض يكتب للإنسان دواء ، وبذلك يكون أقر المريض على شبهته في وجود مرض ، ولكنه بالدواء يحاول أن يزيل ذلك المرض .

ولكن حين يذهب الإنسان إلى الطبيب فيقول له الطبيب : والله ليس لك عندي دواء ؛ فليس عندك مرض يستحق أن أعطيك له دواء .

وكذلك حين يقسم الله ﷻ ، يقول : أنت من الممكن أن يكون عندك شبهة وأنا أقسم عليك لأنفي عنك تلك الشبهة .

أما حين لا يقسم فالشبهة لا محل لها إذًا ، فالشبهة لو واجهتها بالعقل الفطري تجدها محلولة ، كذلك حين يقول الله : ﴿ لاَ أُقْسِمُ ﴾ ، فهذا عدم اعتراف بشبهتك في إنكار المقسم عليه ، و﴿ أُقْسِمُ ﴾ .. أعترفُ بشبهتك في المقسم عليه وأقسم لك ، ومؤدى الأمرين واحد .

وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾

﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ .. حين يقول الحق ﷻ : ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ نرى أنه قد أقسم بالعصر ، وأقسم بالعصر على طريقة القسم في القرآن ليؤكد معنى المقسم عليه ، فما المناسبة بين العصر وبين المعنى المقسم عليه ؟

فما هو المعنى المقسم عليه ؟

هو : ﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ ، والدليل على صدق هذه القضية هو ﴿ الْعَصْرِ ﴾ .

إذن فالعصر حيثية مقدمة للحكم ، أو علة مقدمة على المعلّل ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ .. تلك هي القضية التي يقسم عليها الحق ﷻ .

وكلمة : ﴿ الْعَصْرِ ﴾ إذا أطلقت أول إطلاق تنصرف عن المعنى اللغوي إلى المعنى الاصطلاحي ، هذا المعنى الاصطلاحي هو العبادة المخصوصة في ذلك الوقت ، فهذا أول ما يحضر في ذهن الإنسان .

وقد يُنتقل من العبادة المفروضة في الوقت الخاص ، وهي بعد الظهر وقبل المغرب ، إلى الزمن الذي فرضت فيه الصلاة ؛ لأن اسمه العصر .

وقد ينتقل الذهن إلى معنى أوسع من أن يكون العصر ليس هو الزمن المخصوص بين الظهر وبين المغرب ، ولكنه مطلق طائفة محددة من الزمان لها مهمة مخصوصة ، فمثلاً يطلق العصر على النهار كله ، ويطلق العصر على الليل كله بجامع أن هذا طائفة من الزمان لها خصوصية الضياء ، وهذه طائفة من الزمان لها خصوصية الظلمة .

إذن فالعصر يطلق مرة على العبادة المفروضة ، ومرة يطلق على زمن هذه العبادة وحدها ، ومرة يطلق على طائفة من الزمن لها طابع خاص يحكمها كالنهار مثلاً بما يجمعه من ضوء ونور ، أو كالليل مثلاً بما يجمعه من ظلمة .

وقد يطلق العصر ويراد به فترة أوسع من ذلك ، بمعنى أنه زمان يشمل ليلاً ونهارًا ، وقد يشمل أسابيع ، وقد يشمل شهورًا ، إلا أن هذا الزمن يحكمه طابع خاص في مقوماته .. في مشخِصاته .. في أحواله .. في حضارته ، كما نقول : عصر الجاهلية .. عصر فجر الإسلام .. العصر الأموي .. العصر العباسي .. العصر الحاضر الذي يبدأ من النهضة الحديثة .

إذن فالعصر متدرج في مفهوم معانيه ..

المعنى الأول : العبادة .. **المعنى الثاني** : وقت هذه العبادة .. **المعنى الثالث** : الوقت الذي يجمعه طائفة طبيعة من الخصوصيات كالنهار أو كالليل .. أو يطلق العصر على طائفة من الزمان تعم ليلاً ونهارًا ، ولكن لها طابع خاص يحكمها ، هذا الطابع الخاص قد يكون طابعًا سياسيًّا ، أو تحضريًّا ، أو علميًّا .

فبأي هذه العصور يقسم الحق سبحانه وتعالى ؟

لو نظرنا إلى العصر بالمعنى الأول لوجدنا أن العلماء حينما تعرضوا لقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى ﴾[1].. كانوا مختلفين هل الصلاة

---

1 – سورة : البقرة ، الآية : 238 .

الوسطى هي الظهر أم العصر أم المغرب أم العشاء أم الفجر ؟

كلام شائع في كل الأوقات ، فما سببه ؟

قالوا : لأننا عندما نقول : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاَةِ الْوُسْطَى ﴾ .. فلا يتصور أن يكون شيء وسطًا إلا إذا كان هناك طرفان ، فما هو تحديد الطرفين الذي على ضوئه سنحدد الوسط ؟

إن أردت تحديد الطرفين بالنسبة للتشريع ، فأول صلاة فرضت علينا هي الظهر ، وثاني صلاة هي العصر ، وثالث صلاة هي المغرب ، ورابع صلاة هي العشاء ، وخامس صلاة هي الفجر ، فلو أردت التحديد في ورود التكليف لكان معنى الصلاة الوسطى في زمن التكليف أن تعد اثنتين وتأتي بالوسطى وتعد بعدها اثنتين ، فتكون هي المغرب .

أو نأتي بأفراد الصلاة بالنسبة لفرضيتها علينا ، فالذي قال : الظهر ، ما حجته في ذلك ؟

إنه نظر إلى يوم العمل .. إلى النهار ، فالنهار هو محل الكدح الذي يواجهه الإنسان يقظًا في أعماله ، ففي الليل نكون نائمين ، فالتحديد يكون بالنهار الذي يكون عندنا فيه اليقظة ، ويكون عندنا فيه الكفاح والجهاد في العمل ، فيكون الوسط بالنسبة له وسط بالنهار ، والظهر هو ذلك الوسط .

وقال آخر : لا ، لقد أخذت الوسط باعتبار الزمن الذي هو النهار ، ولكن الصواب أنه العصر ، لماذا يكون العصر ؟

قال : لورود بعض أحاديث تنص على أنها هي العصر كما في حديث علي ﷺ أن النبي ﷺ قال يوم الخندق : " **حَبَسُونَا عَنْ صَلاةِ الْوُسْطَى حَتَّى غَابَتْ الشَّمْسُ ، مَلأَ اللهُ قُبُورَهُمْ وَبُيُوتَهُمْ – أَوْ أَجْوَافَهُمْ – نَارًا** "[1] .. فيكون معنى هذا أن العصر حُدد بأنه ذلك الوقت .

وآخر قال : هناك علة أخرى هي أن العصر وسط ، لكن لا بالنسبة لفرضيات الصلاة ،

1 – أخرجه البخاري (4169) .

ولكن بالنسبة لوقتيات الصلاة ؛ لأنه سبقه فرضان نهاريان وهما : الفجر والظهر ، وبعده فرضان ليليان وهما : المغرب والعشاء .

وقال آخر : هو المغرب ، والوسطية فيه باعتبار أن الصلاة حسب ركعاتها فُرض منها اثنين كالصبح ، وفرض منها أربعة كالظهر والعصر والعشاء ، وفرض منها ثلاثة وهو المغرب فقط .

وقال آخر : هي العشاء ؛ لأن العشاء متوسطة أمرين لا يدخلهما القصر في السفر : المغرب والصبح .

وقال آخر : هو الفجر ؛ لأنه توسط بين أمرين : الأمر الأول : فرضان جهريان وهما : المغرب والعشاء ، وفرضان سريان وهما : الظهر والعصر .

وفيه تعليل أقوى في كونه وسطًا ؛ لأن معنى الوسط أنه الذي يجمع شيئًا من الطرفين ، فصلاة المغرب والعشاء ليليتان قطعًا ، وصلاة الظهر والعصر نهاريتان قطعًا ، وصلاة الفجر فيها من النهارية أن الفجر قد طلع ، وفيها من الليلية أن الشمس لم تشرق .

وعلى هذا فالحق ﷻ يُبهم بعض الأشياء ، وفي هذا الإبهام تربيب للفائدة [أي زيادة ونمو للفائدة] ؛ ليحرص الإنسان على كل وقت ظنًّا منه أنه هو تلك الصلاة المطلوبة من الله ﷻ ، فكأن كل فرض مما فرض الله ﷻ مطلوب مرتين ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى ﴾ فما هي الصلاة الوسطى ؟

ما دامت قد اختلفت الآراء حولها ، وتكرر الأمر بها مرتين : مرة في عموم قوله : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ ﴾ ، ومرة في خصوص قوله : ﴿ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى ﴾ ، إذن فلتحافظوا على كل الصلوات .

وذلك كما أخفى ﷻ ليلة القدر في رمضان في وتر العشر الأواخر ؛ ليجتهد الإنسان في قيامها لها رغبة في إصابتها .

وكما أخفى الحق ﷻ ساعة الإجابة في يوم الجمعة ؛ ليجتهد الإنسان في كل وقت من

أوقاتها بالعبادة ، فكأنها تربب الفائدة ، فتربط العبد أكبر وقت ممكن بربه عَزَّ وَجَلَّ .

حين ننتهي من هذا نقول : لماذا أقسم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالعصر ؟

قيل : لأن العصر يأتي في آخر النهار ، وفيه يكون الناس مشغولين بأعمالهم ، وربما يكون عندهم بعض الأشياء من العمل فيريدون أن يتموه فيغلبهم الوقت ، فالحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أكد به .

وأيضًا لأن العصر هو وقت الحصيلة النهائية في حساب الإنسان على عمله اليومي ، أهو أداه بما يؤدي له نفعًا ؟ أهو شغل الوقت بما يعود عليه بالخير ؟ أم هو قد بدد الوقت ؟

فوقت العصر هو وقت الحساب عن اليوم ، وما دام هو وقت الحساب عن اليوم فيناسب أن الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول : ﴿ وَالْعَصْرِ ﴾ ، أي : الذي تحاسبون فيه أنفسكم عما قدمتم من حصيلة عمل في ذلك الوقت ، فإن كنتم عملتم عملاً ينفعكم فستسرون ، وإن كنتم قد بددتم ذلك اليوم فسيكون في هذا الوقت ندم على أن الإنسان قد فوت جزءًا كبيرًا من الزمن لم يشغله بما ينفعه .

وإن أردنا بالعصر اليوم كله على حد قول الشاعر :

ولا يَلْبَثُ العَصْرانِ يَوْمٌ وليلةٌ إِذا طَلَبا أَن يُدْرِكا ما تَيَمَّما

فأطلق على اليوم والليلة أنهم عصران ، فكل واحد منهم عصر .

أما العصر فهو محل الكفاح النهاري ، وأيضًا سنحاسب أنفسنا في آخر اليوم عن حصيلة ما قدمناه من عمل ، أو حصيلة ما لم نقدمه .

أو أن يكون ذلك شائعًا في الطائفة الكبيرة من الزمن التي تتسم بخصوصية ؛ فالعصور التي عاصرها الإنسان على هذه الحياة عصور مختلفة ، وكل عصر له بداية وله نهاية ، حضارات قامت .. أمم قامت .. دول حكمت وبعد ذلك انتهت ، فنقول : قيامها يدل على أن فيها مقومات الوجود ، وفناؤها وانهيارها يدل على أنها حملت بعد ذلك مقومات الفناء ، فلو أن مقومات الوجود في أي عصر ظلت فيه رتيبة لما انتهى ذلك العصر .

إذن ما الذي جعل ذلك العصر ينتهي إلى أفول ؟

ذلك لأن مقـومات وجوده كانت نشـطة في أول الأمر ، وبـعد ذلك غفل الناس عنها أو تشاغلوا ، فحملت مقومات فنائها فتدمرت .

كأن الحق يريد قبل أن يعلن المبدأ أن يستلهمنا الواقع التاريخي .. الواقع الوجودي حتى نحكِّم ذلك المبدأ ، فحكِّم ذلك المبدأ في كل عصر من العصور .. في كل وقت من الأوقات ، فستجد أن المبدأ حق .. أنه لا يستقيم ولا يستقر أي عصر من العصور بمقوماته إلا إذا حافظ على ما يأتي ..

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ .. أن تكون فيه عقيدة يجمعها كلمة الإيمان ، وألا يكتفى بالعقيدة بل لابد من إبراز العقيدة والتعبير عنها بعملٍ وترجمتها بسلوك ؛ لأن وجود العقيدة بدون أن تترجم إلى سلوك تكون كلامًا لا قيمة له ، فإذا ترجمت العقيدة إلى سلوك وإلى عمل فستتعرض لعقبات كثيرة ، وما دامت تتعرض لعقبات كثيرة فستحتاج إلى مقومين أيضًا .

هذان المقومان هما :

أن يتواصى المملوكون بالعقيدة على الحق ، بمعنى أن يكون الحق دائمًا نصب أعينهم ، فكل إنسان يوصي أخاه بالحق ، وهل إيصاؤهم بالحق يمنع من وجود العقبات من غير المؤمنين بالحق ؟

لا .. فلابد من وجود صراع ، هذا الصراع بين قوى الخير التي تخدم الحق ، وقوى الشر التي لا تريد الحق وتريد الباطل ، فلابد إذن من التواصي بالصبر .

فكأن منهج العمل الناجح الذي يجعله ناجحًا دائمًا هو : عقيدة يترجم عنها إيمان ، وبعد ذلك عمل على وفق تلك العقيدة ، ثم بعد ذلك تواصٍ بالحق لتظل هذه العقيدة ثابتة ، وتظل هذه الأعمال الخاضعة للعقيدة ثابتة ، وبعد ذلك عقبات تعترضها ، فلابد من التواصي بالصبر .

كل حـــركة في الحياة لا تحكمها هذه العناصر حـــركة مآلها إلى الخســـران .. مآلها إلى الزوال .. مآلها إلى أنها لا تُعمَّر في الوجود أبدًا .. مآلها أنها تفنى .

فلو أن إنسانًا أرغم جماعة على عمل من الأعمال لا يتسم مع عقيدتهم ، فهناك سيخور هو ، ولا يمكن أن يستمر ذلك الإكراه ، وبعد ذلك تخرج المسائل عن طوق المكره ، وبعد ذلك تنهار هذه المسائل .

إذن فكل عمل يراد بـه أن يكون ناجحًا ، وأن يكون باقـيًا لابـد أن تسـتكمل فيه هذه العناصر : عناصر الإيمان بالمبـــدأ .. عناصر العمل .. عناصر التواصي بـــالحق .. عناصر التواصي بالصبر .

حينئذ يكون الحق ﷻ قد قدم الدليل في القسم ، وقدم الاستشهاد بأن يقول لك : استعرض أي عصر من العصور .. أي طائفة من الزمن لتعرف بماذا كتب النجاح لأي مبدأ من المبادئ .

كتب له النجاح باستيفائه لهذه العناصر ، فإن لم يستوفِ هذه العناصر فهو مبدأ محكوم على صاحبه بأنه في خسر .. في ضلال ، وأما مبدأ يستوفي هذه العناصر فاحكم عليه بأنه مبدأ ناجح ونافع .

لذلك تجد الحق ﷻ حـينما يعرض علينا ألوانًا من العصور القديمة التي سبقـت وجمعها طابع واحد من الزمن ، كما يعرض علينا مثلاً قوم فرعون .. قـوم نوح .. عاد .. ثمود ، فيقـول الحق ﷻ في سبأ مثلاً .. تلك المملكة القوية التي أخذت عصر نهضة وسعادة طويل ، فيقول : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيـــلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلا الْكَفُورَ ﴾[1]. حـضارة قـــامت والتفتت إليها الدنيا ، فما الذي جعلها تنهار ؟! ما الذي

1 – سورة : سبأ ، الآية : 15 : 17 .

جعلها تنحدر ؟ !

إنها لم يكن فيها مبادئ الصمود ، ولا مبادئ الخلود ، التي هي العقيدة ، والعمل على وفق العقيدة ، والتواصي بالحق ، والتواصي بالصبر .

ويعرض علينا الحق أيضًا حضارات أخرى تمثلت في عصور كانت مزدهرة ، حسبك مثلاً من عصرٍ كالعصر الذي يسمونه (**العصر الفرعوني**) .. الذي لا يزال من آثاره أشياء تَشْدَه الناس ، حتى إنهم يأتون إليها من بلاد النور .. بلاد المعرفة .. بلاد الحضارة ؛ حتى يشاهدوا هذه الأشياء ! !

حسبك من عصر يلفت انتباه من عاش في هذه الحضارة إلى أن يذهب إلى هناك فيتعجب ، فيقول مثلاً : ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ** ﴾[1] ، دليل على أنها بلغت من الحضارة مبلغًا لافتًا .. ﴿ **وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ** ﴾[2] .

إذن فالحق ﷻ يقول : استقرئ التاريخ ، وانظر إلى العصور ، وانظر إلى الحضارات التي تقدمتك ، فبدراستك لهذه العصور ترى أنه لا يزدهر ولا يبقى إلا المبدأ ، هذا المبدأ يعيش على عقيدة ويترجم إلى عمل ، ويتواصى فيه بالحق ، ويتواصى فيه بالصبر .

وعندما نستعرض تاريخنا الإسلامي نجد أن هناك عقيدة ، فنحن كلنا مؤمنون بالله ، والملائكة ، والكتب ، والرسل ، ونؤمن بالقضاء ، ونؤمن بالقدر ، ونؤمن باليوم الآخر ، ومع ذلك نجد أن العصور الإسلامية نفسها أو الأمم الإسلامية تعرضت لأشياء من الهوان ، ومن الذلة ، ومن الضعف ، ومن الاستعباد ، ومن استعمار الغير لها .. لماذا ؟!

---

1 – سورة : الفجر ، الآية : 6 : 8 .

2 – سورة : الفجر ، الآية : 9 : 13 .

لأننا وإن كان عندنا العقيدة ، إلا أن العنصر الثاني غير موجود ، وهو عنصر العمل ، فعلى فرض أن عنصر العمل موجود فسيظل موجودًا إلى أن تتعرض الشهوات ، فتزين للإنسان أن يخرج عن منهج الحق ، فيخرج قليلاً عن منهج الحق .

وافترض أننا ثبتنا على منهج الحق ولكننا لم نتواصَ حين تأتي الأزمات ، وحين تأتي الشدائد ، فلم نتواصَ بالصبر والاحتمال عليها ، فستخور عزائمنا وسنرضى بالأمر الواقع ، الواقع الذي فرضه علينا عدونا ، أو الذي فرضه علينا استعمارنا .

ولو أن هذا المبدأ بكل عناصره ظل يقظًا في حياة الأمة الإسلامية لما أمكن أبدًا أن يكونوا في خسر ، فإذا رأيتهم في خسر فاعلم أن عقيدة ضعفت ، أو أن عقيدة لم تترجم إلى عمل ، أو أن العمل حينما تعرض لهوى النفس انصرف عن الحق ، أو أنه حينما لم ينصرف عن الحق وجاءت له المصائب من خارجه لم يتواصَ بالصبر فخارت عزائمهم أمام أعدائهم ، وحين تخور عزائمهم أمام أعدائهم ولا يوجد التواصي بالصبر والاحتمال والإنسان الذي يتحمل المشقات فلابد أن ينهار المبدأ ، وأن يتمكن عدوه منه .

إذن فالحق ﷻ يطلب منا أن نعرض لواقع التاريخ في الأرض ، ولواقع الحضارات ، ولواقع العصور بكل مميزاتها ؛ لنتأكد من أن المبدأ الذي أطلقه الحق ﷻ في قوله : ﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ صحيحًا .

وعندما ترى الشيء وفيه استثناء فاعرف أن هذا الاستثناء قسم المسألة إلى قسمين فقال : ﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ .. القضية مطلقة ، ثم قال : ﴿ إِلاَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ؛ فالإنسان ينقسم بواسطة الاستثناء إلى نوعين : نوع في خسر ، ونوع في غير خسر .

فما حكاية هذا الإنسان ؟

قيل : هذا الإنسان مرة يطلق ويراد به الحقيقة ، ومرة يطلق ويراد به الجنس ، ومرة يطلق



ويراد به فرد من الأفراد ، ومرة يطلق ويراد به كل الأفراد ، فما الذي يتحكم في إرادة معنى من المعاني ؟

قيل : الاستثناء ؛ فعندما يقول مثلاً : ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ .. فقد استثنى جماعة ، فالذين آمنوا جماعة استثناهم من الإنسان ، فالإنسان لا يراد به الفرد ، ولا يراد به الحقيقة في ذاتها ، وإنما يراد به الحقيقة في كل فرد من أفرادها ، فكأنه قال : كل أفراد الإنسان ، ويسمونها (**" ال " الاستغراقية**) ، أي : تشمل كل الأفراد .

والذي دلنا على أن " ال " استغراقية تشمل كل الأفراد ، أن الذي استثني منها ليس فردًا ، وإنما استثني منها جماعة ، ولا يمكن أن تستثنى الجماعة إلا من جماعة أكثر منها ، فكأن قول الحق ﷻ : ﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ ، أي : كل إنسان .. جميع الأفراد في خسر ﴿ إِلاَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ .

إذن فلفظة : " ال " في كلمة ﴿ الإِنْسَانَ ﴾ دلت على أن المراد هنا الاستغراق ، الاستغراق الحقيقي لكل الأفراد ، أي : القضية لم يشذ عنها فرد من الأفراد سواء كان فردًا في نفسه ، أو فردًا في أسرته ، أو فردًا في أمته ، أو في المجتمع ، والدليل على ذلك أن الاستثناء جاء من كلمة " **إنسان** " ؛ فإنسان مستثنى منه ، والمستثنى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ وهم جماعة ، ولا يمكن أن تستثنى الجماعة من فرد ، فلابد أن تستثنى الجماعة من جماعة أوسع دائرة منها .

﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ .. العنصر الأول عنصر عقدي ، فنجد أن اختيار كلمة " **العقيدة** " للمبدأ الذي يختمر في النفس ، وبعد ذلك ينعقد عليه القلب ويربط عليه الفؤاد بحيث لا يخرج منه أبدًا ؛ لأن غير المعقود عرضة للتطاير والانحلال ، إنما أمر عقد ، أي : معناه أنه أصبح مربوطًا ، هذا معنى كلمة عقيدة .

فالعقيدة ليست هي الفكر في الرأس ؛ لأن الفكر في الرأس لا يزال محل مناقشة .



وليست العقيدة فيما تستقبل الحواس ، فكل شيء تستقبله حواسك لا يقال له : عقيدة ؛ لأنه أمر محس ، فلا يقول قائل : أنا أعتقد أنني معكم الآن ، وأتكلم وأنتم تسمعون .. لا يقال : أنا أعتقد أن الكهرباء موجودة .. ولا يقال : أنا أعتقد أن الجامعة بابها مفتوح والطلاب يدخلونها ؛ لأن هذا أمر حسي ، لا يمكن أن يقال فيه : عقيدة ؛ لأن العقيدة لابد أن تكون في أمر غيبي ، إنما الأمر الحسي لا تأتي فيه عقيدة أبدًا ؛ لأن الأمر الحسي يشترك فيه الناس كلهم ، فلا يقال فيه : عقيدة ، إنما كلمة " **عقيدة** " تأتي في الأمور الغيبية .

ولذلك العقيدة التي هي المقومة الأولى لمقومات الإيمان مفرداتها : أن تؤمن بالله .. والله غيب ، وملائكته .. والملائكة غيب ، وكتبه ورسله .. وهم أيضًا غيب ، رغم أن الكتاب نراه والرسول نراه ، ولكننا لم نشهد الوحي وهو نازل عليه ويقول له : أنت رسول ، ولم نشهد الكتاب وهو ينزل عليه ، فصحيح أننا رأينا الحصيلة فآمنا بأنه هو الرسول ، فنحن آمنا بعقولنا ؛ فهذه أمور غيبية أن هناك وحيًا نزل عليه ، وملكًا أقرأه الكتاب ، فهذا أمر لم نره .

إذن فالأساس الأول في العقيدة أن تكون أمرًا غيبيًّا : تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، وأن تؤمن باليوم الآخر ، وبالقدر خيره وشره ، فالقدر غيب ، والآخرة ليست الآن أمرًا محسًّا ، فنحن صدقناها لأن الله قال بها ، إذن فالعقيدة دائمًا إنما تكون في الأمور الغيبية .

ومن هنا يختلف المؤمن عن الكافر ، فالكافر يريدها كلها أشياء محسة ، فنقول له : الشيء المحس لا يكون فيه إيمان ؛ لأنك تستوي مع الغير في إدراك الشيء المحس ، فلو أن العقيدة تتعلق بأمر محسٍّ فيستوي فيها المؤمن والكافر ، لكن ميزة المؤمن أنه آمن بأشياء غيبية ، هذه الأشياء الغيبية حكَّم فيها ميزانه ، فما هو هذا الميزان ؟

قالوا : ليس معنى أننا لا ندرك الشيء أنه غير موجود ، لماذا ؟

قالوا : انظر في نفسك .. ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾[1].. أنا أومن بأن نفسي جسم

---

1 – سورة : الذاريات ، الآية : 21 .

ومادة لا تخرج عن طبــيعة مكونات الأرض ، وإنما فيها شـــيء إذا حـــل فيه أعطاه الحياة والحس والحركة والفكر ، وإذا نزع منه صار رميمًا ، وتحلل إلى عناصره ، وصار مـادة ، هـذا الذي اسمه الروح ، فهل رأينا الروح ؟ كلا .. هل سمعناها ؟ كلا .. هل ذقـــناها ؟ كلا .. هل شممناها ؟ كلا .. هل لمسناها ؟ كلا .. إذن فليست مدركة بأي حاسة ، ومع ذلك آمنت بها ، إذن فأنت آمنت بـغيب في نفسـك ، فكأن الحق ﷻ طلب منا أن نؤمن بـأمر غيبي عن إدراكنا الحسي وبه حياتنا ، شيء به حياتنا ولا ندركه .

إذن فإذا حُدِّثت بـــأن لك ربًّا ، هو خالق الكون ، وله إدارته وتدبــيره ، وأنت لا تراه فلا تعجب ؛ لأن هذا أمر موجود في نفسـك ، فإذا كنت لم تســتطع أن تدرك خلقًا من خلق الله في نفسك ، وهي (الروح) ، وأنت مؤمن بآثاره فيك ، فكيف تدرك من خلق هذا الشيء ؟

مخلوق له لم تستطع إدراكه ، ومع ذلك آمنت بـأنه موجود ، فكيف بـالذي خلق ذلك غير المدرك ؟! فكيف تدركه ؟! ولو أدركته لم يصلح أن يكون إلهًا ؛ لأنك أحطت به ، وأحاط بـه حسك وعقلك ، إذن من عظمته أنه لا يدرك .

إذن فهناك فرق بين وجود الشيء وبين إدراك الشيء ، فلا يصح أن يربط المؤمن بـين إدراك الشـيء وبـين وجوده وإحساسـه بـه ، بـل عدم حسـك بـــه وعدم إدراكك له لا يعني أنه غير موجود ، والدليل على ذلك موجود في نفسك ، وهو روحك .

ولماذا نحيله إلى شيء لا يراه أبدًا ؟

نقول له : أنت تستقرئ كتاب الكون كل يوم ، وتكتشـف فيه غائبًا عنك .. تكتشـف كنزًا وسرًّا من أسرار الكون ، قبل اكتشافه أكان موجودًا أم غير موجود ؟

كان موجودًا ، فالحاصل أنك اكتشفته ، فكيف اكتشفته ؟!

قـيل : إن وسـائل إدراكي لم تكن قـادرة على إدراكه في أول الأمر ، وبـعد ذلك يسـر لي بوسائل الإدراك أن أدركه ، فالميكروب مثلاً الذي اكتشـف في العصر الحديث كان موجودًا أم

غير موجود ؟ أعدم رؤيتك وعدم إحساسك به قديمًا يعني أنه غير موجود ؟

كلا .. لا يعني أنه غير موجود لأنه لم يكن قد دخل في دائرة إدراكنا ، بدليل أنه عندما بدأ يدخل في دائرة إدراكنا أدركناه .

فإذا جلست في حجرة ، ثم فتحت طاقة وأتت بحزمة ضوئية من الشمس ، ساعتها سترى في الحزمة الضوئية أشياء كثيرة تتحرك فيها .. هي ذرات .. هذه الذرات أين كانت قبل أن تدخل الحزمة الضوئية ؟

كانت موجودة أيضا ، ولكنك لم تكن تراها ؛ لأن الضوء الذي كان موجودًا لم يكن كافيًا ليظهر دقائقها ، فلما دخلت حزمة ضوئية قوية عليها بينتها لك .

إذن فعدم إدراك الشيء ليس له علاقة بوجود ذلك الشيء .

وما دام الإنسان في المادة التي هي من جنسه كالذرات ، أو الميكروب التي هي من جنسه المادي ، ومع ذلك لم يكن يدركه ثم أدركه ، ألا يجعل ذلك الإنسان يستأنس بأن هناك كثيرًا من الأشياء الغيبية لا يدركها وهي موجودة أيضًا ، إذا كان من مادته ما كان موجودًا ولم يدركه ، فإذا قال الله ﷻ : هناك أشياء أخرى ألطف من الإنسان وهي الجن ، وهناك أشياء ألطف من الجن وهي الملائكة وهو لا يدركها ، فيجب أن يصدق ؛ لأن هناك شيئًا من جنس مادته بلغ من الدقة مبلغًا وهو لا يدركه ومع ذلك أدركه ، أي أن إدراكه لما كان غيبًا قديمًا يؤنسه بأن يجعل فيه إيناسًا بأن الغيب لعله فيما بعد يدركه .

إذن فالعقيدة لا تتأتى إلا في الأمور الغيبية : إيمان بالله ، إيمان بملائكة الله ، إيمان بالكتب ، إيمان بالرسل ، إيمان بالقضاء والقدر خيره وشره ، إيمان بأن هناك آخرة .. تلك هي العقيدة .

هذه العقيدة لها أم هي التي يدخل عليها الإنسان بعقله : أن تؤمن بالله هذا هو الأصل ، فإذا دخلت على الإيمان بالله بعقلك ، فإذا ما دخلت على أن هناك قوة اسمها الله موجود له

قدرة .. له قيومية .. له حكمه .. إليه المرد .. آمنت به .

بعد ذلك تأتي العقيدة الثانية ويكون مصدرها ما آمنت بـه أولاً ، فأنت آمنت بـالملائكة لأن الله أخبرك ، وآمنت بالله لأنك انتهيت إليه بالدليل العقلي .

إذن فالعقائد تكون نوعين : نوع هو القمة .. الأساس ، ونوع تخبر بـه القـمة ، فنحـن آمنا بـالملائكة ؛ لأن الله قـال لنا : هناك ملائكة .. آمنا بـالجن ؛ لأن الله قـال لنا : هناك جن .. آمنا بالرسل ؛ لأن الله قال ذلك .. آمنا بالقضاء والقـدر لأن الله قـال ذلك .. آمنا بـاليوم الآخر لأن الله قال ذلك .. وآمنا بالله لأن عقلونا دلتنا على وجود ذلك الإله .

إذن فالمسألة كلها مردودة إلى العقل ، إلا أن العقل احـترامًا لنفسـه ما دام آمن بـالله فيجب عليه تبعًا لذلك أن يؤمن بكل ما صدر عن الله ، كل ما يُطلب منه أن يوثق ذلك الأمر بأنه صدر من الله .

إذن فما دمنا آمنا بـالله ، وسـنأخذ منه عقـديات غيبـية ، فمن الأولى أن نأخذ أشـياء ظاهرية .. نأخذ منه تكاليف .. نأخذ منه منهج الحياة ؛ لأننا أخذنا منه أشـياء لا تدخل تحت حسي ، فنأخذ منه ويكون هو المصدر الوحيد .

وما دام ذلك هو المصدر الوحيد فماذا يعطي ذلك للإنسان ؟

إنه يعطي للإنســان أن لا يضعف أمام الحياة ؛ لأنه لا يواجهها بقـوته ، ولكن يواجهها بقوة الإله الذي آمن به ، فإذا حدثت له أي أحـداث بـالغة مهما بـلغت ، وخرجت عن نطاق قـوته ، ونطاق سببـه فيجب ألا يخور ؛ لأنه لا يواجه الحياة بأسبابـه ، ولا يواجه الحياة بقوته ، وإنما يواجهها بالقوة المطلقة ، وبالقدرة التي لا تعجز عن شيء ، وبخالق الأسبـاب ؛ ولذلك يقـول ﷻ : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾[1] .. فالأسباب تضيع .

---

1 - سورة : الطلاق ، الآية : 2 ، 3 .

إذن فالإيمان بالله يثري النفس البشرية ، فيجعلها ثرية وغنية ، وعدم الإيمان يفقرها .

وبعد ذلك إذا آمنا بالله يخبرنا ويطمئننا أن هذا الوجود بما فيه من كل الأجناس مخلوق لخدمتنا ، ومسخر لنا جماده ونباته وحيوانه ، كل هذا مسخر لنا ، ما دخل في طوق قدرتنا وما لم يدخل .

إذن فنحن لا نتشكك في أن الكون سيعصى علينا ؛ لأنه مخلوق لنا ، ونحن نأخذ الملكية بالخلافة ، فنحن واثقون أن ذلك الكون لا يمكن أن يخرج عن نطاق خلافتنا ، ولا يخرج عن نطاق تسخيره لنا .

فقد أعطى للإنسان قوة زائدة ، إذا قال الله ﷻ : إن الخلق الذين تراهم كلهم عبادي ، وما داموا عبادي فأنت وهم مشتركون في العبودية ، لا يوجد أحد منكم ابن لله ، فربنا لم يتخذ من أحد صاحبة ، ولم يتخذ من ولد ، فكلنا بالنسبة لله سواء وعبيد ، وما دمنا عبيدًا يجب أن نلزم منهجين اثنين :

المنهج الأول : أننا وهم عبيد ، فنحن لا نستعلي عليهم ؛ لأن عبيد غيرنا أحرار مثلنا ، فما داموا ليسوا عبيدنا فهم أحرار مثلنا تمامًا .

المنهج الثاني : أن لا نستخزي لأحد فيمنعنا ذلك من أن نعلو ، ويمنعه من أن يكون إنسانًا سويًا ، فلا ننظر لهم على أنهم منافسون لنا في الحياة وسيأخذون أرزاقنا ، بل ننظر لهم على أنهم معاونون لنا في الحياة ، إخوة يحبون لنا الخير ؛ لأننا مؤمنون جميعًا بمنهج واحد ، هذا المنهج الواحد يقول : " **لا تحاسدوا ، ولا تناجشوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، ولا يبع بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عباد الله إخوانا ، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يحقره .. التقوى ههنا** – ويشير إلى صدره ثلاث مرات – **بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه** " ، أو كما[1] قال ﷺ : " **المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا** " .. ثم شبك بين أصابعه

1 - أخرجه البخاري (2262) ، ومسلم (4650) .

إذن .. فكلما وجدنا الكثير من الناس فلا ينبغي أن نأخذه على أنه علينا ، بل نأخذه على أنه لنا ، فعندما تكون هناك نعمة عند أحد الناس ، وما دمت أنا مؤمنًا بأن الله هو الواحد الواهب لهذه النعم ، فلابد وأن أقول : لعل الله رأى في نعمته الخير ، ورأي الخير في منعي ؛ فلا أحقد عليه ، ولا أحسده ، فهو عندما يؤدي حق الله عليه في النعمة ويصيبني منها شيء فلا أحقد عليه ، ولا أحسده ، فتكون النعمة في يدي كالنعمة في يد غيري ؛ لأن خيرها واصل إلي سواء كان من معي أو من عند غيري .

إذن فالإيمان بالله ﷻ ، وأنه المرجع النهائي للقوة ، والمصدر النهائي لكل قوة تجعل الإنسان يعتز بالحياة ، ولا يخور أمام أي مظهر من مظاهر الحياة .

وأيضًا فما دمنا سنؤمن بأن هناك إلهًا موجودًا ، فممن نأخذ تصوراتنا ؟! هل نأخذها من تصورات الغير ؟! لماذا نأخذ منهجنا من عند غيرنا ؟! ولماذا هم يأخذون منهجهم من عملنا الفكري ؟! ولماذا لا يكون الأمر بالعكس ؟! لماذا تتحكم أمة لأنها قوية في أنها تضع نظمًا ومبادئ وتحمل عليها الأمم الضعيفة ؟!

إذن ستتفرق هنا السبل حسب الأهواء .

لكن عندما نعرف أن لنا ربًّا ، وهو الوحيد الذي نتلقى منه المنهج ، فقد قضى على هواي وعلى هواك ولا سلطان لأحد مطلقًا في أن ينظمنا ، أو أن يحكم ذلك الكون .

إذن فقد عصمنا ﷻ من التجارب ، ومن أن نأتي بالمبادئ من غيرنا فيتحكم فينا .

وليس لله خليل ولا صاحب ، وعليه فسنواجه الحياة بأننا كلنا في الأصل عبيد ، وما دمنا سنواجه الله وكلنا عبيد فكل واحد يستطيع أن يتصل بالله ، فكلنا جميعًا بالنسبة له سواء ، وبعد ذلك كرمنا وسخر لنا ذلك الكون .

---

1 - أخرجه البخاري (5567) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

إذن فلا نرضى أبدًا أن نكون في مرتبة الهوان ، أي : في منزلة أقل من المنزلة التي وضعنا فيها ربنا ، كتلك المذاهب التي تزعم أن أصل الإنسان قرد ، أهو يكرمنا ثم نتسفل به لنجعل أصله ممن هو دونه ؟! فكل مذهب يأتي من هذا فنحن نرفضه ؛ لأن ذلك ينافي تكريم الله للإنسان .

وأيضًا ما دمت أنا بالنسبة لله مثل الجميع بالنسبة له ، فيجب أن أضع في حسابي أنني بالنسبة للناس لست خاضعًا في الحساب والجزاء لهم ؛ لأنني أستطيع أن أخبئ عنهم أشياء ، وأن أستر عنهم أشياء ، وأن أقابلهم بوجه غير ما في قلبي .. لكن التصور الإيماني أن الحق ﷻ يطلع على خائنة الأعين ، ويعلم ما تخفيه الصدور .

إذن فسيكون المؤمن سويًّا ظاهره كباطنه ؛ لأنه لا يتعامل مع الناس ، وإنما يتعامل مع الإله الذي تصور أنه لا تخفى عليه أبدًا خافية ، وما دام كذلك فيجب أن يعامل الناس بشكل واحد وبنظام واحد ، هذا النظام مبني على أنه ليست له واجهة ، وليست له خبية ، فواجهته هي خبيته .

وأيضًا عندما نتصور الإيمان بالله وأنه هو الذي خلقنا ، وأننا سنرجع إليه فلابد أن نؤمن بأن الدار الدنيا ليست كل شيء ، فمن يحرص على الدنيا ويظلم فيها ويطغى ويتمتع بأقصى قسط من النعيم ويأبى أن تقيده مناهج لا من عند الله ولا من عند غيره ، ويريد أن ينطلق في الحياة على هواه ، فنقول : إن هذا هو الإنسان الذي يتصور أن حياته فقط هي هذه الدنيا .

ولكننا إذا ارتبطنا بالعقيدة الإيمانية نرى أن الحياة معبر فقط ، وليست محل جزاء ، فمهما يصيبنا فيها فلا نحزن ، لماذا ؟ لأنها ليست النهاية ؛ فالله ﷻ يقول : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآَخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾[1] ، فليست هذه هي الحياة ، فنحن نعتبرها برزخًا .. نعتبرها معبرًا فقط إلى دار أخرى ، فمهما أصابنا فيها فلا يمكن أن ينال منا شيءٌ ؛

1 – سورة : العنكبوت ، الآية : 64 .

لأن الغاية لم يحن حينها بعد .

وبعد ذلك يقول : ما دامت المسألة بهذا الشكل ، وأنت ستتصور في إلهك ، وستأخذ العقيدة عن ذلك الإله ، أنه بهذه العظمة ، وبهذه القوة ، وبهذا العلم الخفي الذي يكشف أمورك الداخلية .. فإذا كنت أنت فيه بالنسبة للناس لا تداري عنه فلا يمكن أبدًا أن تكون بالنسبة إليه أقل من الناس .

وأيضًا فإننا لو نظرنا إلى الكون نجد أنه ما دام هناك إله ، ولا يزيد عملنا في ملك هذا الإله شيئًا ، ولا إيماننا يثبت عرشه ، وكفر الكافرين به لا يزلزل عرشه .. إذن فعملنا المكلفون به وسنعطى عليه ثوابًا يكون بمحض الفضل من الله ﷻ ؛ لأنه عملنا هذا منفعته عائدة علينا نحن ، إذن فعندما يعطينا مع ذلك ثوابًا عليه فبمحض فضله ﷻ .

فبواسطة هذا التصور العقدي سنمنع من أشياء كثيرة ، فسنمنع من أن نفكر بأننا في الحياة أفراد وحيدون ، كلا ، فنحن لنا إله ، وفي حياتنا نقول : إن الذي له أب لا يحمل همّ الحياة ، ولا هم المعاش ، ولا يهتم إذا كانت الحياة غالية أو رخيصة ، لماذا ؟ لأن له أبًا ، فإذا كان من له أب لا ينشغل بهمِّ الحياة ، فكيف الحال بمن له رب ؟!

إذن فهذا هو الرصيد الذي يجعلنا نمضي في الحياة ولا نسأل عن أي شيء .

وبالتالي فسأستقبل المحصات التي تأتي من كوارث الدنيا ونكباتها في مال أو نفس أو ولد ، أستقبل كل ذلك على أنها ممحصات ، والله لا يمحص إلا من يحبه ، فيريد أن يجعله طاهرًا من الذنوب ، كما جاء عن **أنس بن مالك** رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : " **إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله إذا أحب قوما ابتلاهم ، فمن رضي فله الرضا ، و من سخط فله السخط** "[1] .

و هذا الحديث يدل على أن البلاء يكون خيرًا للعبد ، وأن صاحبه يكون محبوبًا عند الله

1 - أخرجه الترمذي (2 / 64) ، وابن ماجه (4031) .

سبحانه وتعالى ، إذا صبر على بلاء الله سبحانه وتعالى ، و رضي بقضاء الله عز وجل ، وذلك كما جاء في حديث **صهيب الرومي** رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **" عجبًا لأمر المؤمن ! إن أمره كله خير ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له "** [1].

إذن فعندما ينظر الإنسان إلى الأشياء المؤلمة المتعبة في مصائب الدنيا وفي أحداثها أنها بمثابة الغسول والتطهير له ؛ من أجل أن تكون الحياة الباقية حياة نظيفة .. حياة عالية ؛ فلا يحزن الإنسان من هذه الابتلاءات ، بل يستقبلها استقبال الراضي بقدر الله عز وجل فيه .. الراضي بحكمه ، وأنه لم يُجرِ عليه شيئًا إلا لمصلحته .

فإنسان تكون عنده هذه العقيدة كيف يواجه الحياة ؟

لا شك أنه سيواجه الحياة بكل قوته ؛ لأن الذين ليست عندهم عقيدة حينما تفجؤهم الأحداث تضيع طاقة كبيرة من طاقتهم ؛ فيصيبهم شيء من الانهيار ، وبالتالي يواجهون الحياة وحركتها بطاقة غير كاملة ، وبفكر غير كامل .

فإذا كنت وأنت في أول الأمر لم تقدر عليها وأنت بطاقتك المجمعة وبفكرك الكامل ، فكيف إذا أضعفتها بإضعاف طاقتك وإضعاف فكرك ؟! يقينًا سوف تواجهها مواجهة أقل ، لكن المؤمن ينظر لقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [2]، فما دمت مؤمنًا ، وصلتك الإيمانية جيدة بربك ، فاعتقد أنك عالٍ .. انهزمت فأنت عالٍ .. أُصبت بأي شيء فأنت عالٍ .

ولذلك عندما يعرض القرآن علينا هذه المسألة في قصة **سيدنا موسى** عليه السلام عندما قال له قومه : ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ [3].. فبقانون البشر هذا كلام صحيح ؛ لأن قوم فرعون وراءهم ،

1 - أخرجه مسلم (5318) .

2 - سورة : آل عمران ، الآية : 139 .

3 - سورة : الشعراء ، الآية : 61 .

والبحر أمامهم ، ولكن ماذا قال موسى عليه السلام ؟ ﴿ قَالَ كَلاَّ ﴾[1] .. بملء فيه ، فقد التفت إلى ذلك الرصيد القوي ، ثم إنه لم يقل : ﴿ كَلاَّ ﴾ بلا حيثية ، بل قال : ﴿ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ ، أنتم صادقون ، ففي قانون الناس هم سيدركوننا لا محالة ، إنما عندما يكون معي ربي وسيهدين فلن يدركونا أبدًا ، فارتكن موسى عليه السلام إلى ركن ركين ؛ ولذلك فما كاد يتم كلمته حتى ناداه ربه عز وجل وقال له : ﴿ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾[2] ، فضرب موسى عليه السلام بعصاه البحر ﴿ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ .. شيء عجيب ، هذا هو الرصيد .. وكذلك يكون الإيمان .

إذن فالمؤمن الذي يواجه الحياة في أي عصر من العصور بالطاقة الإيمانية .. فبهذه القوة يكون قلبه قد عمر وانتهى الأمر .

ولا تكون طاقة إيمانية إلا إذا ثبتت واستقرت ورُبط القلب عليها وأصبحت عقيدة ، أي : لا تطفو مرة أخرى على الذهن لتناقش من جديد ، فإن طفت على الذهن لتناقش من جديد فلا يقال : إنها عقيدة ، بل ما زالت فكرة تبحث ، فإذا ما انتهي من بحثها نهائيًّا واستقرت أصبحت عقيدة ، فكذلك يريد منا الحق سبحانه وتعالى ، فليس بمجرد المعرفة تكون عقيدة ، فقد تعرف شيئًا ولكنه لا يستقر في نفسك استقرار العقيدة ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى عن الكفار : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾[3] ، ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾[4] .. إذن فهم يعرفون ، ويناديهم متسائلاً .. ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾[5] .

---

1 - سورة : الشعراء ، الآية : 62 .

2 - سورة : الشعراء ، الآية : 63 .

3 - سورة : الزخرف ، الآية : 87 .

4 - سورة : لقمان ، الآية : 25 .

5 - سورة : الطور ، الآية : 35 .

فما معنى أنهم يعرفون ذلك ولم يؤمنوا ؟ !

هناك فرق بين المعرفة والعلم ، وبين اليقين والعقيدة ، فلم تصل في نفوسهم إلى درجة أن تصير عقيدة .. تلك العقيدة التي تحكم سلوكهم في الحياة ، فإذا وصلت العقيدة إلى أنها مذكورة دائمًا ، وفي بال الإنسان دائمًا ، وتحكم حركة حياته ، فأي عمل يعمله يسأل نفسه أيرضي العقيدة أم لا ؟ أيتفق مع العقيدة أم لا ؟

إذن فعلمك بشيء لا يعني أنك اعتقدت به ، وأنك تحمست له ، وأنك سخرت كل تصرفاتك بناءً على تلك العقيدة ، فالذي كان معلومًا عندهم معرفة شيء أو علم شيء ، إنما إيمان ويقين بشيء هذا لم يكن عندهم ؛ لأنه لو كان عندهم إيمان ويقين بشيء لكان من الممكن أن يديروا حركة حياتهم على ذلك المركز .

إذن فالأساس الأول في المنهج المتميز .. المنهج الجامع لكل خير في حركة الحياة هو أن يوجد الإيمان أولاً ، ولذلك لا يُكره الله على الإيمان ؛ لأن الله ﷻ يريد أن تصدر الأعمال عن عقيدة عندك أنت ، وإلا لو كان الحق يريد حركة منك لأرغمك عليها كما يرغم المكره حركة المكرَه وقلبه غير مقتنع به ، ولذلك تقرأ قوله ﷻ : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ [1] ، فهل يريد الله أعناقًا وأجسامًا وحركة ؟

كلا .. فهذا يملكه العبيد ، فهم قد يرغمون أحدًا على أن يفعل فعلاً وقلبه يأباه .

فكأن الحق ﷻ يقول : أنا لا أريد أعناقًا خاضعة .. ولا أريد أشباحًا خاضعة .. أنا لا أريد قوالب .. أنا أريد قلوبًا خاضعة ؛ لأن القلب سيحكم عليك أن تعمل ، سواء رأيتك وكنت بمظهر من الناس ، أم كنت مختبئًا بينك وبين نفسك .

قصارى ما يصنعه المكرِه أن يكره قالبك على فعل شيء ما دام مسيطرًا عليك ، فإذا خلوت

---

1 - سورة : الشعراء ، الآية : 3 ، 4 .

لنفسك فأنت حر حينئذ ، لكن حين يكون المبدأ عن طواعية .. وعن اختيار .. وعن رضا .. يتحكم فيك المبدأ في كل حركاتك .

والمكرِه على شيء حين يكرهك على سلوك معين فأول ما يحمل من المعاني أنه غير مقتنع بذات المبدأ ، فهو نفسه غير مقتنع أن المبدأ صحيح ؛ لأنه لو كان مقتنعًا بأن المبدأ صحيح فلا يأتي في باله أن يعارضه الناس ، فسيقول : هذا مبدأ سليم فلن تعارضه الناس ؟

إنما هو عارف أن المبدأ غير سليم ويقول : إن أنا وضعت سوطي ولم أرغم الناس عليه فلن يتمسك به أحد .

فالحق ﷻ يؤكد على عدم إرغام الناس على الدين فيقول : ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾[1] ، ما حيثية ذلك ، ولماذا لا يوجد إكراه ؟ ﴿ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ ، فالمسألة واضحة فلا تحتاج إكراهًا .

إذن الذي يريد إكراهًا من البشر على المبدأ المعوج يقول : أنا لو تركت الناس ولم أرغمهم بالقوة والسوط على اعتناق هذا المبدأ فلن يتبعني أحد ؛ لأنه هو نفسه ليس مقتنعًا أن هذا المبدأ يتبع ، فعلى مقدار الإكراه فيه يكون مقدار إيمانه هو شخصيًا به .

إذن فأول شيء في المبدأ هو أن يستقبل برضا .. أن يستقبل باختيار ؛ لأنه سيحكم كل حياتك ظاهرها وباطنها .. ما لك وما عليك ، فإذا جاء الإيمان بعد ذلك والإيمان في ذاته ليس غاية ، الإيمان في ذاته وسيلة إلى أشياء ، فما دمت آمنت بالإله .. الذي يوصف بأنه قوي .. فأنت تلجأ إليه .. وأنت تؤمن أنه صنع لك كل ذلك الخير .. أن الناس كلهم بالنسبة له سواء .. أن لا يُشرِّع لخلق الله إلا الله ، هو الذي يُشرِّع ، رفعني الإله وكرمني أنه جعلني كذا وكذا .. ذلك الإله .

فيجب أن أستقبل عنه منهجه ، وذلك بجعله حركة حياة التي هي العمل الصالح ، فنكون

---

1 - سورة : البقرة ، الآية : 256 .

بذلك قد انتقلنا من العنصر الأول إلى العنصر الثاني ، وهو العمل الصالح .

والعمل الصالح نرى ترجمته في أشياء طلبها الحق ﷻ منا ، وفي ظاهر الأمر أنك لا ترى لبعضها فوائد عاجلة ، وهي التي نسميها العبادات .

وبعد ذلك وضع لك في نظام حركة الحياة معاملات .. المعاملات هي التي تنظم حركتك كفرد .. حركتك في الأسرة .. حركة المجتمع .. حركة الإنسانية .. علاقة الأفراد ببعضهم .. هذه اسمها النظم ، فلو لم يوجد فكرة عن إله فهل تظل ستستمر الحياة بلا نظم ؟

كلا .. ستضعها الناس لنفسها ، فما دام هناك مجتمعات فلابد من وجود نظم .

إذن فالفرق بين الأمر التعبدي والمعاملات هو أن الأمر التعبدي هو الذي شرعه الحق للتقرب منه ، وليظل فكرك فيه ، وبالك غير منقطع عنه .

لكن الأمور الأخرى التي تنظم المصالح فتسمى بالمعاملات ، والأصل في المعاملات أنها من نشاط الذهن البشري ، إلا أن مهمة الشرع فيها أن الصالح يبقيه ، والطالح ينفيه ، والذي فيه شبهة يقوِّمه ، فهذه مهمة تشريع السماء فيها .

ولذلك الإسلام أقر كثيرًا مما كان عليه القوم في الجاهلية ؛ لأنه عمل في ذاته لم يدخله فساد ، وبعد ذلك نهى عن بعض الأعمال ، وعدَّل أعمالاً أخرى .

لكن المنهج العبادي ليس من نشاط البشر ، ولا عمل لذهن الإنسان فيه ، وإنما الحق ﷻ هو الذي يقول : تقرب إليَّ بكذا وكذا ، ولا تفعل كذا فهو يبعدك عني .

إذن فكما يقول العلماء : الأصل في العبادات الحظر والمنع إلى أن يأتي من الشارع ما يفيد التشريع .

إذن فليس لي أن أعبد الله بطريقة لم يأمرني بها ، إلا أن أتطوع بأمر موجود مثله ، فهو فرض عليَّ خمس صلوات ، فلا مانع بعد أن أصلي ما فرض عليَّ من أن أتنفل بصلاة أخرى .. فرض عليَّ أن أخرج 2.5 % من المال كل عام ، فلا مانع من أن أخرج خمسة أو عشرة

حسب طاقة الإحسان فيَّ .. فرض عليَّ الحج مرة ، فلا مانع من أن أحج كل سنة مثلاً .. فرض عليَّ صوم شهر فلا مانع من أن أصوم الاثنين والخميس .. أصوم ثلاثة أيام من كل شهر عربي .. إلخ .

إذن فالأصل في العبادة المنع والحظر ؛ لأنها الطريق الذي رسمه الله للتقرب منه ، والمعاملات هي الطريق الذي أقره الله لنظام الحياة .

إذن فالأعمال تكون صالحة : إما لأن الله هو المشرع لها أو المقر لها ، فمن حيث العبادة هو المشرع لها ، ومن حيث الأمور الأخرى وهي النشاطات الذهنية في الحياة فهو مقر لها : ما ثبَّته نرضاه ، وما نفاه ننتهي عنه ، والذي عدّله نأخذ ذلك التعديل ، ذلك هو منهج الحياة .

ولك بعد ذلك أن تجول بعقلك في الأمور التعاملية التي هي نشاطات الذهن ، فتأتي بقانون الله في نظام الأسرة .. قانون الله في نظام المجتمع .. قانون الله في الحكم .. قانون الله في النظام الاقتصادي .. قانون الله في القانون السياسي وقارنه بأي قانون شئت في الدنيا ، فستنتهي بالتقنين بأن ذلك هو أسمى ما يمكن أن يصل إليه البشر .

فمثلاً : الغرب يرى أن الطلاق من مثالب الإسلام .. ماذا صاروا إليه الآن ؟ أباحوه رغمًا عنهم ؛ لأن ظروف الحياة أرغمتهم على ذلك ، تعدد الزوجات الآن يبحث عندهم ؛ لأنهم شاهدوا الفساد المترتب على منهجهم .

والأمر في التعبديات يجب أن يكون بحثه في علته متأخرًا عن عمله ، أي أنك لا تقتنع بعلة الأمر التعبدي أولاً وبعد ذلك تفعله ، بل تفعل أولاً سواء وصلت للعلة أم لم تصل إليها .

كذلك ثقتك في الله في كثير من الأمور التي عدّلها الله ؛ فكانوا يأكلون لحم الخنزير فقال لنا الله : لا تأكلوا لحم الخنزير ، إذن فكان عملاً غيره ربنا ، هل كنا نؤخر عدم أكل لحم الخنزير حتى يثبت عندنا بالتحليل العلمي والتحليل المعملي أن هناك فيروسات ضارة بالصحة الإنسانية .



معنى ذلك أننا كنا سنعطل الحكم أربعة عشر قرنًا حتى يأتي عصر التحليل ، كلا .. فنحن سمعنا كلام ربنا ، وقلنا : سمعنا وأطعنا ؛ لأننا واثقون من حكمته .

إذن فالأعمال الصالحة تنقسم لقسمين : قسم تعبدي ، وقسم تبدو له علل ، وهي المسائل التي تربط نظام المجتمع ، ومنها أشياء لم تكن علتها في تشريع الإسلام ظاهرة أولاً إلا أن علتها ظهرت فيما بعد .

عندما تظهر علة فيما بعد لأمر لم تكن له علة ، ماذا يعطيك ذلك ؟

يعطيك الثقة في أوامر الله ﷻ ، وأن الأشياء الغائبة علتها لها علة في الحقيقة ، ولم تواتنا الظروف حتى ندرك هذه العلة .

فكل شيء يستقبل من الله يجب أن يكون إيمان المؤمن به أنه فعلَ لأن الله أمر ، وترك لأن الله نهى ، ذلك هو الإيمان .

وأما الذي يقبل على الأمر لعلته فمثله كرجل غير مؤمن بالله ذهب للطبيب فيقول له الطبيب : أنت لن تشفى من هذا المرض إلا إذا منعت نفسك شهرًا من الطعام .

فهل سيمتنع أم لا ؟ سيمتنع قطعًا ، إذن هو امتنع للعلة وليس للآمر .

الإسلام ليس كذلك ، الإسلام أنك تمنع لأن الله أمر ، لأن الله قال ، وأنت واثق فيه أنه إله حكيم .

إذن فالمؤمن بالحق ﷻ حينما تكونت عنده العقيدة الإيمانية يقبل على منهج الله من حيث : أهو قال أم لا ؟ فهذا هو عمل عقله ؛ فإن كان قال فليقبل على المنهج من الله بيقين أن ذلك مفيد له ، دون أن يتساءل عن جهة الفائدة أو جهة النفع ، لعله لا يدركها الآن ويدركها فيما بعد .

فإذا فعلت ذلك تكون واثقًا من نتيجة ذلك العمل الصالح الذي تقوم به ، فلم تعمل العمل الصالح كما يفعل المقامر ينفع أو لا ينفع ، بل مادمت تعلم أن هذا ثابت عن الله فأنا أقبل عليه

لأني متيقن أن فيه فائدة .

هب أن فائدته أخطأتني الآن ففائدته لن تخطئني في المستقبل ؛ لأن الدنيا ليست هي كل شيء .

فإذا جاء الإيمان وجاء العمل الصالح بقيت غفلات النفوس ؛ لأن المنهج الذي يحدد حركة حياتك ، ويحدد حركة شهواتك قد تغفل نفسك عن بعضه ، وما دمت كذلك فأنت في حاجة إلى من ينبهك ، فسيُتواصى بالحق ، فيقول لك المتواصي : لِمَ تفعل هذا ؟! تذكّر كذا وكذا .

وانظر إلى كلمة : ﴿ تَوَاصَوْا ﴾ . فلم يجعل موصِين وموصَين ، بل كل واحد منا موصٍ وموصىً ؛ لأنه قد تصادفني غفلة فتكون عندك يقظة تنبهني ، وأنت تصادفك غفلة فتكون عندي يقظة أنبهك ، وهكذا .

إذن فمعنى : ﴿ تَوَاصَوْا ﴾ ، أي أن كل واحد منا موصٍ وموصىً .

﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ ﴾ .. (**والتواصي**) معناه : بذل النصح والمعونة من الناصح للمنصوح ليتمسك بمبدأ مسلَّم به ، هذا المبدأ المسلَّم به هو المبدأ الإيماني ، أو المبدأ السلوكي .

والسبب في ذلك أن التواصي بالحق يعتبر هو العنصر الثالث من عناصر الدعوة الناجحة ، فالمبادئ عادة تقيِّد حركة الإنسان ، والإنسان يحب أن تكون حركته طليقة لتحقق له مشتهيات نفسه ، فتأتي المبادئ لتحكم هذه الحركة ، وما دامت المبادئ جاءت لتحكم هذه الحركة تصير تكليفًا ، والتكليف من عناصره المشقة .

وقلنا سابقًا : إن الذي يُهوِّن مهمة التكليف ومشقاته استحضار الجزاء على التكليف ، فلا نأخذ التكليف أولاً بمشقته ، ولكن نأخذ التكليف بغايته ونهايته وجزائه ، فإذا ما نصبنا الغاية والجزاء الضخم أمام أي تكليف وجدنا الغاية أرجى من مشقة التكليف .

والسبب في أن كثيرًا من الناس يحجمون عن مشقات التكليف أنهم ينصبون فقط أمام نفوسهم المشقة التي يعانونها من التكليف ، ولو أنهم استحضروا النهاية والغاية أمام

التكاليف لهانت عليهم هذه المشقات ؛ لأن المقارنة ترجح الجزاء على التكليف ومشقته .

وما دامت التكاليف في بدايتها شاقة إذن فغفلة النفس دائمًا موجودة مع التكاليف ، فليس كل يقين يقبل عليه الإنسان ، هناك ألوان كثيرة من الأشياء اليقين موجود فيها ، إنما حمل النفس على مطلوب اليقين غير موجود .

إذن فاليقين ليس هو كل شيء ، بل يجب أن يُستحضر اليقين دائمًا ليكون منهجًا منصوبًا أمام العين بحيث لا يغفل الإنسان عنه .

إن المناهج الربانية التي تقيد حركة الإنسان في تصرفه حينما تغفل النفس عنها تغفل عنها في جزئية بسيطة ، فإذا ما طاوع الإنسان نفسه وجاءت جزئية أخرى بجانبها ، ثم غفلة ثالثة تجيء جزئية ثالثة ، ثم غفلة رابعة إلى أن يحدث الران الذي يقول الحق فيه : ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[1] .

وضرب رسول الله ﷺ المثل في الحديث الذي رواه **حذيفة** رضي الله عنه قال : حدثنا رسول الله ﷺ حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر ، حدثنا : " **أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال**[2] **، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة** " .. ثم حدثنا عن رفع الأمانة[3] ، قال : " **ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر الوكت**[4] **، ثم ينام النومة الثانية فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر المجل**[5] **كجمر دحرجته على رجلك فنفط فتراه منتبرًا وليس به شيء** ، فيصبح الناس يتبايعون

---

1 - سورة : المطففين ، الآية : 14 .

2 - أي : تمكنت من قلوبهم .

3 - أي : تلك المغروسة في القلوب هذه .

4 - الوكت : هو الأثر الذي تحدث من ملاقاة حرارة النار للجلد التي تحدث فيها لون مخالف .

5 - المجل : ليست الحرارة تصيب الجلد ، بل الجمرة نفسها تقع على الجلد فتعمل الانبثارة .

6 - أي : ارتفع .

، فلا يكاد يوجد أحد منهم يؤدي الأمانة ، حتى يقال : إن في بني فلان رجلاً أمينًا ، وحتى يقال للرجل : ما أظرفه ، ما أعقله ، ما أجلده ، وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان " .. قال : وقد مر عليَّ زمان وما كنت أبالي أيكم بايعت ، لئن كان مؤمنًا ليردنه علي إيمانه ، ولئن كان يهوديًا أو نصرانيًا ليردنه علي ساعيه ، أما اليوم فما كنت أبايع منكم إلا فلانًا وفلانًا .[1]

ومنشأ هذا هو تسرب الأمانة من القلب بالغفلة عن الشيء الصغير ، ثم يغفل عن شيء آخر ، فتتراكم هذه الغفلات فتكون الطبقة التي ترين على القلب .

يشرحها في حديث آخر أيضًا **حذيفة** ﵁ فيقول : حدثنا رسول الله ﷺ قال : "**تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودا ، فأيما قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء ، وأيما قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء ، حتى تكون على قلبين : على أبيض مثل الصفا لا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض ، والآخر أسود مربادا كالكوز مجخيًا**[2]**، لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا إلا ما أشرب من هواه** "[3].

كل شاهدنا في هذا أن التحلل من المنهج لا يأتي دفعة واحدة ، ولا يأتي تحللاً من الأمور الكبيرة ، وإنما يأتي في توافه الأمور ، وبعد ذلك يأتي التافه مع التافه فيكوِّن الران الذي يحجب الإنسان عن منبع عقيدته ، وبذلك يكون سلوكه سلوكا ظلمانيًا .

فيجب أن يوجد التواصي بالحق ، أي : كلما رأينا إنسانًا غفل عن جزئية من جزئيات دينه ننبهه .

وسماها تواصيًا ولم يسمها أمرًا ؛ لأن الوصية عادة تحمل معنى النصح من المحبوب للمحبوب ، فأنت لا توصي إنسانًا إلا إذا كنت تحبه ، وهو يوقن أنك تحبه ، لكن المحبوب

---

1 - أخرجه البخاري (6016) ، ومسلم (206) .

2 - أي : منكوسًا .

3 - أخرجه مسلم (207) .

يختلف باختلافات الناس ، فقد يكون دنيا ، وقد يكون دينًا .

إذن المحبوب الأولى بأن يكون موضع الوصية من المحبوب للمحبوب ، فيكون أمرًا محبوبًا الذي يوصي به محبوبًا والموصى به محبوبًا .

فلما تسمع الوصية تجد حق الحق هو منهج الله ﷻ ، الحق فيه ألوان كثيرة وحقه هو منهج الله ، والوصية من المحبوب للمحبوب تكون أوجهها كثيرة : توصيه بأن يكون صالحاً مثلاً في زراعته .. في تجارته .. في علاقاته بالناس .. في مذاكرته حتى يجتهد وينجح ، توصيه بأشياء كثيرة ، هي أشياء محبوبة ، ولكن قمة المحبوبية في أن يكون التواصي دائمًا بمنهج الله ﷻ وهو الحق ؛ ولذلك حينما عرض القرآن هذه الكلمة وهي الوصية قال : ﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾[1] .

وللوصية وقت هذا الوقت متسع في كل زمان ، ولكن تجد الوصية تكون محكمة حين يضيق وقت المحتضر ويعلم أن الموت آتٍ ، وبعد ذلك يركز أهم شيء في الوجود ليوصي به أبناءه ؛ لأن الوقت ضيق فهو يحتضر وروحه تخرج ، فليس عنده وقت حتى يأتي بكل ما يوصي به ، فيختار قمة الوصايا التي هي المبادئ التي عرفها بتجربته في الحياة ، ويحب أن ينقلها إلى بنيه ، وهم أحبابه ، فيقولها في هذا الوقت ، كأن سكرات الموت والاحتضار لم تشغله عن أنه يلقي بهذه الوصية إلى من يحب : ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ ﴾ .. وهو في ساعة الموت ﴿ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي ﴾[2] ، كأن أهم شيء يتركه يعقوب لبنيه أن يطمئن على منهجهم العبادي .. لم يطمئن على مصائر دنياهم .. لم يطمئن على أحوالهم أو على أرزاقهم .. لم يطمئن على شيء مطلقًا ، بل أراد أن تكون هذه هي المسألة .. ﴿ قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ .. وصية

1 – سورة : البقرة ، الآية : 132 .

2 – سورة : البقرة ، الآية : 133 .

في وقــتها ، ويعرض الحق ﷻ أيضًا الوصية من الآبــاء ؛ لأن الأب إن غش الناس جميعًا لا يستطيع أن يغش الأبناء ، فهو يريد أن يعطيهم المنهج السليم الذي جربــه فوجده نافعًا في الحياة .

وهناك في قــصة لقــمان : ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِه وَهُوَ يَعظُهُ يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّه إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[1] .. ﴿ يَا بُنَيَّ ﴾ .. ﴿ يَا بُنَيَّ ﴾ .. وصية أب لابــنه ، والأب لا يرضى أن يغش ابنه ، بل يريد أن يعطيه خلاصة ما أخذه ، وخلاصة تجاربه .

إذن فالوصية من المحبوب إلى المحبوب أحسن أوقاتها هو الوقت الذي يفارق الإنسان فيه الحياة لماذا ؟

لأنه إن كان يكذب قديمًا فلن يكذب في هذا الوقت ، فالذي يكذب دائمًا يجب أن يصدق في هذا الوقت ، ويستحضر قمة الأشياء التي يعتبرها نافعة لأحب الناس إليه ، وهم أبناؤه حتى يزودهم بالمنهج النافع .

والوصية بالحق تأخذ طابعها القوي حيث مثلها الخلفاء الراشدون أبـو بـكروعمررضوان الله عليهما ، حـينما توليا أمر المسلمين ، فتولية أمر المسلمين قـد يعطي في بـعض ضعاف النفوس مهابة الولاية ، فربما تصرفا تصرفًا قد يكون فيه شـيء من الغفلة ، فهو يوجه الوصية والنصح إلى الرعية المحكومة به ؛ لأنها يجب أن تتقبل كل أعماله تقبل الناقـد الصيرفي ، فلا تتقبلـه لأن هذا هو أبـوبـكر ، أو لأن هذا هو عمر ، بـل تأخذ أعمالهما وتنقـدها ، فإن كان مطابقًا لمنهج الإسلام أيدوه ، وإن لم يكن مطابقًا لمنهج الإسلام نصحوه وقوّموه .

لذلك قـال سـيدنا أبـو بـكر حـين تولى الخلافة : قـد وليت عليكم ولسـت بخيركم ، فإن أحسـنت فأعينوني ، وإن أسـأت فقـوموني .. أطيعوني ما أطعت الله ورسـوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم .

---

1 - سورة : لقمان ، الآية : 13 .



فأعطاهم المنهج ، إذن فلن يتهيبه أحد .

وأيضا يأتي **عمر** رضي الله عنه ويعطي هذه النصيحة ؛ لأنه خاف أن يتهيبه الناس فيجدوه على عمل من الأعمال فلا يجترئوا أن يردوه عنه ، فقال **لمحمد بن مسلمة** : يا **محمد** ، كيف تراني ؟ قال : أراك كما أحب ، وكما يحب من يحب لك الخير ، قويًّا على جمع المال ، عفيفًا عنه ، عدلاً في قسمه ، ولو ملت عدلناك كما يعدل السهم في الثقاف . قال : الحمد لله الذي جعلني في قوم إذا ملت عدلوني .

بهذه المبادئ يقظ الخليفتان شعور الرعية المحكومة بهما أنهم لا تأخذهم مهابة هؤلاء الخلفاء ، بل ينقدون أعمالهم وينظرون كيف يتصرفون .

ولذلك كانت مهمة أي حاكم حينما يولي الولاة أن يزودهم بالنصيحة ، لماذا ؟ لأنها نصيحة من يملك ، وإذا خالف الوالي سيناله سوء ؛ ولأنه هو الذي ولاه فيعطيه المبدأ ، وقد كانت المسافة بين الولايات بعيدة ، ووسائل التراسل لم تكن سهلة ، وإقبال المظلومين إلى الحاكم العام لم يكن ميسرًا لهم ، فلابد أن يتوجه الوالي الخاص في البقعة الخاصة مزودًا بالنصائح الكافية ، وموصى بالتوصية اللازمة .

فمثلاً نجد سيدنا **عليًا رضوان الله عليه** عندما يولي مالك بن الأشتر ولاية مصر ، فلما جاءه بعد أن حزم أمتعته كان آخر كلامه له : اعلم يا مالك أني قد وجهتك إلى بلاد قامت فيها دول قبلك بالجور والعدل ، وإن الناس سينظرون من أمرك في مثل ما كنت تنظر إليه من أمور الولاة قبلك ، ويقولون فيك مثل ما كنت تقول فيهم ، وإنما يستدل على العباد بما يجريه الله على ألسنة عباده ، فليكن أحب الذخائر إليك ذخيرة العمل الصالح ، وأشعر قلبك الرحمة بالرعية ، والمحبة لهم ، واللطف بهم ، ولا تكن عليهم سبعًا ضاريًا تغتنم أكلهم ، فإنهم صنفان : إما أخوك في الإسلام ، وإما نظيرك في الخلق ، يفرط منهم الزلل ، وتغلب عليهم العلل ، ويؤتى على أيديهم من العمد والخطأ ، فأعطهم من عفوك وصفحك مثل ما

تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه ، فإنك فوقهم ، ووالي الأمر عليك فوقك ، والله فوق من ولاك .

فكلامه مراتب : نصيحة وتوصية يوصى بها الوالي ؛ لأن الوالي إذا صلحَ صلح به شيء كثير .

فسيدنا **الحسن البصري** يقول : لو أن لي عند الله دعوة مستجابة لخصصت بها السلطان ، قيل له : وكيف ؟ قال : لأن الله يصلح على يده الشيء الكثير .

إذن فالنصيحة والتوصية هي التنبيه الدائم للتمسك بمنهج الحق ، لكن قد تعترض النصيحة والتوصية أشياء تحول بين الإنسان وبينها ، قالوا : ذلك خاضع لعظمة النفس الناصحة ، فما هي العقبات التي تحول عن هذا الأمر ؟

فيعرض لنا التاريخ الإسلامي قممًا من قمم العقبات ، من قمة الولاة الكبار ، ويأتي الإنسان فيجابهه بكلمة الحق ولا يبالي بها فينصح ويقول ، فمن الجائز أن يتقبلها ، ومن الجائز أن يدخرها في نفسه ليستغل أية فرصة وينكل بالناصح ، ولكن لم يؤثر ذلك في الناصحين أبدًا ، ولا يبالون .

فمثلاً يدخل **ابن السماك** على **الرشيد** ، فلما دخل على **الرشيد** ، وقليلاً ما كان يدخل ، فطلب الرشيد كوب ماء ، فقبل أن يشرب الماء قال له : بالله عليك يا أمير المؤمنين ، لو منع عنك هذا الكوب من الماء بكم كنت تشتريه من ملكك ؟ قال : أشتريه بنصف ملكي . قال : فإذا مُنع خروجه منك ، فبكم كنت تشتري إخراجه ؟ قال : بملكي كله . قال : إن ملكًا لا يساوي شربة ماء لحقيق أن يزهد فيه .

هكذا .. وبكل جرأة ، فيقولون النصيحة ويقولون التوصية ، ولا يبالون ماذا تكون النتيجة .

وتاريخ الإسلام مملوء بهذا .. هذا **سعيد بن المسيب** ناله ما ناله جراء نصحه .. وهذا **سعيد**





بـن جبـير ناله ما ناله .. وهذا الإمام مالك ناله ما ناله .. وهذا هو الإمام الشـافعي ناله ما ناله .. وهذا هو الإمام العظيم أحمد بـن حنبـل ناله ما ناله .. وهذا أبـو حـنيفة ناله ما ناله .. ومع ذلك ظلوا على مواقفهم .

ومن العجيب أن يأتي الاضطراد في النسق الذي نحن آخذون عنهم منهجنا حتى يطمئن إلى أن هؤلاء لم يغيروا شيئًا في منهج الله ، بدليل أن الولاة مع جبروتهم ومع ظلمهم لم يستطيعوا أن يخرجوهم عن حكم يرون أن ذلك هو حكم الله .

إذن ينشأ من التواصي بالحق أمرٌ ثانٍ وهو أنهم لابد أن يتواصوا بالصبر .

فنستهين بالعقبات ونصبر ونصابر ونرابط ، فإذا ما كنا قـد جمعنا العناصر لذلك المنهج الإلهي إيمانًا بـه وبما يستلزمه الإيمان بـه ، وعملاً صالحًا ؛ سـواء كان عملاً تعبديًا أو عملاً ينظم حركة الحياة ، ثم لم نغفل عن مبدأ من مبـادئ الحق وذلك بـالتواصي عليه ، ثم لم نهن أمام حدث من أحـداث الدنيا فنتواصى بـالصبر نكون ممن اسـتثناهم الله من الخسـران ، فإن تهاونا في مبدأ فلنعتقد أن هذا التهاون سيجعلنا من أهل الخسران والعياذ بالله .

فتجد مثلاً في أثناء محنة سيدنا ابـن حنبـل في محنة خلق القرآن التي قـامت أيام المأمون ، وظلت أيام المعتصم ، وبـعد ذلك أيام الواثق ، ثم أنهاها المتوكل ، فكل الناس قـد فتنوا فقـالوا برأي الدولة ، وحين تطلب الدولة رأيًا على أنه رأي الدولة فيا خسـارة الإسـلام ويا ضيعته ، فالدولة ترى أن هذا كلام المعتزلة ، ويجب أن يؤيد فقالت : إن القرآن مخلوق .

فالعلماء بعضهم أجاب بتورية ، وبعضهم وافقهم ، وبعضهم وقف ، ممن وقـف أمامهم وهو آخر من وقف محمد بـن نوح وسيدنا الإمام أحمد بـن حنبـل ، ومحمد بـن نوح قبـل أن يأتيه التعذيب كان الله قد قضى فيه أمره وانتقـل إليه ، وسـيدنا أحمد بـن حنبـل هو الذي تلقـاها ، وبـعد ذلك أخذوه ليصنعوا فيه ما صنعوا ، فجاء له ابـن الأنبـاري واحـتال عليهم ودخل فقال له : يا إمام لم يبق سواك من علماء المسلمين من يقـف إلى جانب الحق ، وإنك إن

أجبت تقية ، والجهال لا يعلمون التقية ، فكيف يعرفون الحقيقة ، يا إمام اصبر على ما ينالك ، هذه وصية **ابن الأنباري** .

بعد ذلك أدخل السجن ودخل عليه عمه **إسحاق بن حنبل** ، فقال : والله يا عم ما أخاف السجن فهو مثل بيتي ، وما أخاف الموت فهو إلى ربي ، ولكن أخوف ما أخافه السياط مخافة أن تخور نفسي وتضعف .. فبينما هو يقول ذلك لعمه **إسحاق** إذا برجل من المسجونين معه يقول له : يا **أبا عبد الله** لا تخف ؛ إنما هما سوطان ، ثم لا تدري ما يقع عليك بعدهما .. وذلك هو التواصي بالصبر .

إذن فالمنهج الحق يجب أن يحاط بتواص بالحق حتى لا تتسرب الغفلة ، وبتواص بالصبر حتى لا ينهار الإيمان أمام الاضطهاد ، فإذا وجد في مبدأ من المبادئ تلك العناصر فلابد أن يدوم ويستمر وينجح .

وأنت إذا استقرأت الإسلام وتاريخه وجدت الإسلام يقوى ويضعف باكتمال هذه العناصر ، فحينما كانت هذه العناصر كلها مجتمعة كان الإسلام والمسلمون في نضج وفي فلاح ، وحينما انحل المسلمون انحلالاً عمليًا ، أو انحلال عدم تواصٍ بحق ، أو انحلال عدم تواص بصبر ماذا كان ؟ كان ما نراه الآن من أن الإسلام ابتدأ في عهد الغربة .

إذًا فالحق ﷻ كأنه قال لنا : التاريخ أعظم شاهد لنا ، والإنسان نوعان : نوع في خسر ، ونوع في نجاح ، أما الذين في غير خسر ، أي : في نجاح فهم الذين تكتمل فيهم هذه العناصر : إيمان وعمل صالح وتواص بالحق وتواص بالصبر ، فإذا رأيت قومًا في غير نجح ، أي : قومًا في خسر فابحث لتجد السبب تخلف واحد من هذه العناصر .

نسأل الله ﷻ أن يوجهنا إلى ما فيه خير من إيماننا وعملنا الصالح ، وتواصينا بالحق ، وتواصينا بالصبر .





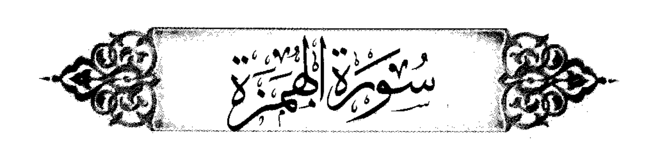

تفسير جزء
عم




سورة
الهمزة







بسم الله الرحمن الرحيم .. أحمدك ربي كما علمتنا أن نحمدك ، وأصلي وأسلم على خير خلقك سيدنا محمد ﷺ ، وبعد ..

فمع **سورة الهمزة** ، تلك السورة التي تعكس من الصور الواقعية في حياة الدعوة في عهدها الأول ، وهي في الوقت ذاته نموذج يتكرر في كل بيئة .. صورة اللئيم الصغير النفس ، الذي يؤتى المال فتسيطر نفسه به ، حتى ما يطيق نفسه ، ويروح يشعر أن المال هو القيمة العليا في الحياة ، القيمة التي تهون أمامها جميع القيم وجميع الأقدار .. أقدار الناس ، وأقدار المعاني ، وأقدار الحقائق ، وأنه وقد ملك المال فقد ملك كرامات الناس وأقدارهم بلا حساب .

كما يروح يحسب أن هذا المال إله قادر على كل شيء ، لا يعجز عن فعل شيء ، حتى دفع الموت وتخليد الحياة ، ودفع قضاء الله وحسابه وجزائه .. إن كان ثم نظرة لحساب وجزاء .

ومن ثم ينطلق في هوس بهذا المال يعده ويستلذ تعداده ، وتنطلق في كيانه نفخة فاجرة ، تدفعه إلى الاستهانة بأقدار الناس وكراماتهم ، ولمزهم وهمزهم ، يعيبهم بلسانه ، ويسخر منهم بحركاته ، سواء بحكاية حركاتهم وأصواتهم ، أو بتحقير صفاتهم وسماتهم ، بالقول والإشارة ، بالغمز واللمز ، باللفتة الساخرة ، والحركة الهازئة .

وهي صورة لئيمة حقيرة من صور النفوس البشرية حين تخلو من المروءة وتعرى من الإيمان ، والإسلام يكره هذه الصورة الهابطة من صور النفوس بحكم ترفعه الأخلاقي ، وقد نهى عن السخرية واللمز والعيب في مواضع شتى ، إلا أن ذكرها هنا بهذا التشنيع والتقبيح

* مقدمة تفسير السورة مقتبس بتصرف من : "في ظلال القرآن" .

مع الوعيد والتهديد ، يوحي بأنه كان يواجه حالة واقعية من بعض المشركين تجاه رسول الله ﷺ وتجاه المؤمنين ، فجاء الرد عليها في صورة الردع الشديد ، والتهديد الرعيب .

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴿٩﴾

﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ﴾ .. كلمة : (ويل) : في المدلول الاصطلاحي الذي يعنيه ربنا غير المدلول اللغوي الذي نفهمه ، كما قلنا مثلاً في القارعة ، فيكون هناك مدلول لغة ، ومفهوم آخر ؛ ولذلك فالحق سبحانه وتعالى حتى يأخذني للمدلول اللغوي وللمتعارف للسان يأخذني من المدلول عنده ، فيقول : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ ﴾ .. لعلك تدري أن القارعة أو الحاقة أو الحطمة هي المعنى اللغوي الذي عندك ، كلا .. ليس المعنى المقصود ، بل المعني المقصود هو كذا ، ثم يوضح الله سبحانه وتعالى ما يقصده .

ولذلك قال بعضهم : (**الويل**) واد في جهنم من أقصى الوديان .. وحين يتوعد الحق القادر على إنفاذ ما يتوعد به فيكون الأمر واقعًا ، فيجب أن تستحضر الصورة على أنها واقع ؛ لأن الذي قد يشكك في تنفيذ الأمر ، أو الذي يكون شفيعًا لنفسي بأن لا تعبأ بالتهديد أمور :

الأمر الأول : أن الذي هدد لا يضمن أنه سيبقى حتى يوقع ما هدد به .

الأمر الثاني : أنه لا يملك أن تظل له القوة المهدد بها .

الأمر الثالث : قد أصبح أحسن وأقوى منه عندما يريد أن يوقع التهديد ..... وهكذا .

لكن إذا كان الذي يقول : ﴿ وَيْلٌ ﴾ ويهدد به باق وقادر على إنفاذ ما يقول ، ولن تفلت أنت من يده ، فمعنى ذلك أن هذا وعيد من صنف آخر ، وعيد ممن يقدر على إنفاذ ما وعد ، وعيد ممن لا تتسرب للنفس آمال بأنه قد ينتهي عنك ، وعيد ممن لا يمكن أن تخرج عن ملكه وسلطانه ، فالمسألة ليست مطلق ويل ، أو مطلق عذاب ، بل عذاب خاص من الله ﷻ ، إذن فالتهديد يجب أن يصحب بمقوماته حتى يعطي الهيبة في النفس منه .

﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ﴾ .. (**اللمزة**) : صيغة مبالغة ، وهو الذي يقع منه الحدث كثيرًا ، يقال مثلا : (فلان ضُحَكة) بالفتح ، وهو الذي يصدر الضحك منه على الغير .. و: (فلان ضُحْكة) بالسكون ، وهو الذي يأتي الضحك من الغير عليه .

و(**الهمزة**) : هو الذي يهمز الناس ، أي : يعيبهم ، و(**اللمزة**) : هو الذي يأتي بالشيء الذي فيه لمز ، فمرة يكون باللسان ، ومرة يكون بإشارة العين ، ومرة يكون بتقليد الحركة ، إذن فالهمزة واللمزة : هو العياب الفاحش الذي يسيء إلى الناس .. إما بعينه ، وإما بلسانه ، وإما بالتعرض لحركاتهم ، يريد ﷻ أن يعطينا الحيثية التي جعلته ينزل إلى هذا المستوى ؛ وهو أنه يظن أنه صنف آخر من الناس ، والذي جعله يفهم ذلك هو المال الذي عنده .

﴿ الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ ﴾ .. ومعنى : ﴿ عَدَّدَهُ ﴾ أي : أحصاه ، أي في كل وقت يُطمئن نفسه بأن يفعل كما يفعل البخلاء بعَدِّ المال ، أو : ﴿ عَدَّدَهُ ﴾ أي : جعله عُدة له في كل شيء ، أي من الإعداد .

وهنا لفتة هامة ، يجب الانتباه لها .. وهي أن تلك الحادثة هل تعرضت لأحدهم بخصوصه ؟ أم أنها عامة للناس كافة ؟ نقول : لا يهم أي شخص مخصوص ، إنما المهم في إطلاق المبدأ ليستوعب ما شاء له من الاستيعاب ؛ فلو أراد أن يتكلم عن شخص مخصوص كان من الممكن أن يأتي باسمه أو بوصفه ، فقد تكلم عن شخص مخصوص فقال : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾[1] ..

1 – سورة : المسد ، الآية : 1 .

إذن فهناك أمر مناط الحكم فيه هو الوصف ، وأمر مناط الحكم فيه هو الشخص ، فالذي مناط الحكم فيه هو الوصف يكون شائعًا في أفراد كثيرة لا يقيده التشخيص الوصفي ، إنما الذي مناط الحكم فيه الشخص فليس له إلا ذلك الفرد ، فمناط الذم ومناط الوعيد ليس على المشخص وإنما على الوصف الذي استحق به ذلك ، إذن فذلك الوعيد إنما يأتي لمن اتصف بذلك الوصف ولو كان غير ذلك الشخص .

ولذلك فالقرآن عندما يعرض قصة كقصة أهل الكهف مثلاً ، فمن العلماء من قاموا ببحث أسمائهم .. وعددهم .. وبلدهم .. وحالهم .... إلخ ، لدرجة أنهم أتوا لكلبهم باسم ، واحتالوا ببعض الإسرائيليات من هنا وهناك ، فخرجوا عن مطلوب النص ؛ لأن القصة لو أنها وردت في مشخصين بذواتهم ووردت مشخصة بزمانها ومكانها لقدح ذلك في سياق القصة ؛ لأن الحق يعرض علينا قصصًا نموذجيًّا ، أي قصصًا مهيجًا للحق في نفوسنا ، وكأنه يريد أن يقول لنا : حتى لو كانت فئة صغيرة العدد فلا يمنعهم قلتهم من أن يقوموا أمام دعوة الباطل ، وأن يظلوا متمسكين بالحق ، بأي اسم .. وبأي عدد .. وفي أي زمان .. وفي أي مكان .

إذن فالذي يريد أن يحدد مفهوم القصة بأشخاص أو بزمان أو بمكان إنما يقدح في مطلوب القصة ؛ لأن الله ينصبها مثلاً للفتوة الإيمانية التي لا تبالي بأي أسماء .. في أي مكان .. في أي زمان ، فلو أنها حددت بأشخاص لقيل : إن هؤلاء الأشخاص كان لهم طبيعة خاصة ، فغيرهم لا يستطيع أن يعمل عملهم ، أو يخصصها بزمن فيقول : كانت ظروف هذا الزمن تسمح ، أو يخصصها بمكان فيقول : كانت مواصفات المكان في هذا الوقت كذا وكذا .

﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴾ .. أي : يظن أن ماله يعطيه الخلد ، وذلك فهم يبعده واقع الحياة ، فلم يظن أحد أبدًا أنه يخلد ، بل كلنا نعتقد أننا سنموت ، فلعل المراد من : ﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴾ .. أنه طلب من قوة التدبير في أنه يبقي لنفسه ذلك المال ، أي : يستطيع أن يفعل فيه فعلاً يجعل المال دائمًا لا عرضًا ، فالمال عرض يأتي ويذهب ، ولكنه

يريد أن ينقل المال والغنى لا إلى العرض ، وإنما يريد أن ينقله إلى صفة لازمة ، وهذه ليست موجودة أبدًا في الوجود ؛ لأنه عارض دائمًا يأتي مرة ويذهب مرة .

وما دام يحسب أن ماله أخلده أي : سيظل هكذا ، يعطيه طبيعة قساوة القلب ؛ لأنه هو الذي يجعل القلب يصفو ويخرج القلب من شحه ، فعندما يعتقد أن ماله لن يذهب عنه تظل معه قساوته ويظل معه شحه .

﴿ **كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ** ﴾ .. وعلى طريقة القرآن في علاج المسائل قال : ﴿ **كَلاَّ** ﴾ .. وهي كلمة زجر عما يحسبه ، وعما يظنه في أن ماله أخلده ، ؛ ولذلك قيل لأحد الحكماء : لقد جمع فلان مالاً كثيرًا .. فقال : وهل جمع العمر الذي ينفقه فيه ؟! إذن فالإنسان مهدد من ناحيتين : من ناحية أن المال قد يبقى ولا يبقى هو ، ومن ناحية أن يبقى هو ولا يبقى المال .

﴿ **كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ** ﴾ .. يعرض الحق النهاية التي تناسب البداية ، فقد قال هناك : ﴿ **وَيْلٌ** ﴾ ولقد أخذناها بتعبير الله ﷻ ، وأخذناها بقدرة الله ﷻ على إنفاذ وعيده ، وأن عبده لا يفلت منه ، فقال : ﴿ **كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ** ﴾ .. وكلمة : ﴿ **لَيُنْبَذَنَّ** ﴾ من : نبذت الشيء ، فأول ما توحي كلمة النبذ في تعبيرها : الاحتقار والمهانة ، وذلك رد طبيعي على استهلال السورة بالهمزة اللمزة ، فلقد كان يهمز ويلمز امتهانًا واحتقارًا واستخفافًا ، فجزاؤه يكون من جنس ما قدم : ﴿ **لَيُنْبَذَنَّ** ﴾ .. وليته ينبذ ويكون حظه فقط الطرد من الحضرة والنعيم ، كلا .. لكنه سينبذ في الحطمة ، والحطمة أول ما تسمعها تذكر الهمزة تمامًا ، فالهمزة هو الذي يأتي منه الهمز كثيرًا ، والحطمة هي التي تحطم ، وتحطيمها قوي ، فهذا هو ما يناسب ﴿ **الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ** ﴾ .

إذن فكلمة : ﴿ **لَيُنْبَذَنَّ** ﴾ ناسبت الهمزة واللمزة ، وناسبت ﴿ **الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ** ﴾ .



﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴾ .. على المعنى في كل : ﴿ مَا أَدْرَاكَ ﴾ .. فإياك أن تظن أن الحطمة هي الشيء يحطم الشيء ، كلا .. فهذا هو مدلولها اللغوي ، بل لها عند الله ﷻ مدلول آخر .

﴿ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴾ .. إنها ليست مطلق نار ، فإنها أُسندت إلى الله ﷻ ، فهذا دليل على أنها يجب أن تأخذ وصفًا مناسبًا ، وذلك كما دعا رسول الله ﷺ على **عتبة بن أبي لهب** قال : " **اللهم سلط عليه كلبًا من كلابك** " .. فخرج إلى الشام فأكله سبع[1]، فلقد قال النبي ﷺ : " **كلبًا** " .. ولكن لما أضيف الكلب إلى الله ﷻ .. فلابد وأن يكون كلب الله سبعًا لا كلبًا .

فإذا قال الله ﷻ عن هذه النار : ﴿ نَارُ اللَّهِ ﴾ .. فليس لأحد من خلق الله ﷻ أن يحجبها ؛ لأنها ليست نار فلان أو علان من البشر ، فقد يأتي من هو أقوى منه فيطفئها ، إنها ﴿ نَارُ اللَّهِ ﴾ .. فليس في مقدور أحد أن يطفئها ، وليس في مقدور أحد أن يدفع عن المعذب بها شيئًا .

﴿ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴾ .. ومن طبيعتها أنها موقدة .. تأكيدًا لاشتعالها وتأججها .

﴿ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ ﴾ .. والتعبير في : ﴿ تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ ﴾ .. أي تظل تعمل فيه إلى أن تصل إلى قلبه ، فكأن النار مميزة ، فتطلع على القلب ، فما كان موجودًا في القلب تعطيه من الألم على قدر ما فيه .

﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ ﴾ .. فلا تفكير في الفرار .

﴿ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴾ .. وفي عمد ممدة أي : عُمُد طويلة مربوطة .

إذن .. ﴿ نَارُ اللهِ ﴾ .. و : ﴿ الْمُوقَدَةُ ﴾ .. وطبيعتها أنها : ﴿ تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ ﴾ .. و : ﴿ تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ * إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ ﴾ .. فلا منجى .. ﴿ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴾ ..

---

1 - انظر السنن الكبرى للبيهقي (5 / 211) .

لا فرار منها ولا انفلات أبـــدًا ، فذلك هو الجزاء الذي يناله ﴿ الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ ﴾ والهمزة واللمزة ، وتجد أن كل وصف في العذاب يناسب وصفًا في الذنب .

نسأل الله ﷻ أن يباعد بيننا وبين هذه الصفات ، حتى نكون أهلاً لرحمته وأهلاً لمحبته وأهلاً لرضاه .

إنه ولي ذلك والقادر عليه .







سُورَةُ الفِيلِ







بسم الله الرحمن الرحيم ، أحمدك ربي كما علمتنا أن نحمد ، وأصلي وأسلم على خير خلقك سيدنا محمد ﷺ ، وبعد :

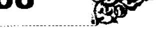
فمع **سورة الفيل** ، وفي البداية هناك مناسبة بين **سورة الهمزة** و**سورة الفيل** يجب أن نبينها ، وهي أن الحق ﷻ في **سورة الهمزة** أخبرنا عن غيب في قوله ﷻ : ﴿ كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ * نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ * إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ * فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴾[1] ، وهذا وعيد لذلك الهمزة اللمزة يعلمه ما سيحدث له يوم القيامة ، فكأن الحق ﷻ أراد أن يدلل على صدق نفاذ ذلك الوعيد ، فأجرى في دنيانا على الكافرين بعض الأمور المحسوسة ؛ لينتقل من الغيب إلى الحس ، فيصدق أن الذي أجرى ذلك في المحسِّ ، قادر على أن يجري ذلك فيما يغيب عنا .

وتصديقًا على أنه ﷻ قادر على إنفاذ العذاب الغيبي يوم القيامة ، يأتي ﷻ بحادثة دنيوية محسوسة لنا ؛ لتدل على صدق الوعيد ، فيأتينا ببعض الأشياء التي أجراها ﷻ في عالم الدنيا وعالم الحس على بعض القوم الكافرين ، ليدل على أن الذي توعد هذا الوعيد قادر على إنفاذه ، كما أنفذ وعيدًا ، وكما أنفذ عذابًا ، في دنياكم المرئية .

إذن .. فتلك هي مناسبة **سورة الهمزة لسورة الفيل** ؛ ولذلك جاء ترتيب **سورة الفيل** في المصحف بعد **سورة الهمزة** مباشرة .

---

1 - سورة : الهمزة ، الآية : 4 : 8 .



أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ﴿٥﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ .. حينما نستقبل هذه السورة نجد أنها بدأت برسم هو : ﴿ أَلَمْ ﴾ .. ألف ، ولام ، وميم ، فمرة نقرأها مقطعة كما في البقرة : ألف ، لام ، ميم ، وهنا نقرأها كلمة واحدة : ﴿ أَلَمْ ﴾ ، فما الذي جعل رسمًا يُقرأ هكذا هنا ، ويقرأ هكذا هناك ؟! هذا لأن قراءة القرآن توقيفية ؛ فليس كل (الم) أقرأها : ألف ، لام ، ميم ، أو أقرأها : أَلَمْ .

وهذا يجرنا إلى ملاحظة أن القرآن له خصوصيات كثيرة :

الخصوصية الأولى : خصوصية التناول ، فأنت تتناول أي كتاب فلا يشترط فيك أن تكون طاهرًا ، وهذا الكتاب بخصوصه يشترط أن تكون طاهرًا ، لماذا ؟ لتربية المهابة لذلك الكتاب ، وكأنه ليس كتابًا عاديًا تتناوله ، فقبل أن تتناوله يجب أن تتناوله بنية ، ويجب أن تقبل عليه وأنت طاهر .

الخصوصية الثانية : أنه يختلف في بعض رسمه عن قانون الكتابة ، والرسم الإملائي ، فليس كله يكفي أن يكون في بعضه ، فمثلاً لو قرأنا : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ .. لوجدناها في كل سور القرآن بغير ألف ، فالباء موصولة بالسين ، ولكن إذا قرأت أول آية نزلت تجدها في قوله : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ [1] ، فتجد أن الباء يفصلها عن

---

1 – سورة : العلق ، الآية : 1 .

لسين ألف ، فما الفرق بين (بِسْمِ) هنا ، و (بِاسْمِ) هناك ؟! وما الحكمة من كتابتها بهذا الشكل في الموضعين ؟! إن هذا يرد على الذين قالوا : إن العرب لم يكن عندهم قواعد الإملاء ، ولا يعرفون قانون الكتابة ؛ فكانوا يكتبونها بأي شكل .. فهذا يرد عليهم ؛ فلو كان العرب مخطئين في حذف الألف في موضع لما أثبتوها في الآخر ، ولكنهم كتبوها بالألف في مواضع بعينها ، وحذفوها في مواضع أخرى ، مما يدل على أن ذلك توقيف من عند الله ﷻ .

إن رسول الله ﷺ تناول القرآن الكريم من جبريل عليه السلام ، ثم بلغه إلينا ، فقال : اكتبوا هذا هكذا ، واكتبوا ذلك كذلك .. فكأن هناك إشارات كانت حين الموقف فيها دلالة على الرسم ، ودليل ذلك أنك حين تنظر مثلاً إلى كلمة : (تَبَارَكَ) في القرآن ، تجد أن بعضها كتبت بالألف ، وبعضها بحذف الألف ، فهل هي كلمة واحدة ، ومرة كتبت بالألف ، ومرة بغير الألف ؟! أم هي كلمتان مختلفتان ؟! كل الذي نستطيع أن نقوله هو أن ذلك توقيف .

إذن ، فالقرآن فيه خاصية تناول ، وخاصية نطق ، بدليل أن كلمة : (الم) تقرأ مرة : ألف .. لام .. ميم هكذا مقطعة ، وتقرأ مرة : ﴿ أَلَمْ ﴾ ، فما الفرق بينهما ؟! أنت تقرأ الأولى بنطق أسماء الحروف ، وفي الثانية تقرأ مسميات الحروف ، إذن ، فالحروف لها أسماء ، ولها مسميات ، فالاسم ألف ، ولكن مسماها عندما أنطقها في الكلام لا أنطقها في الكلام ألفًا ، إنما المدلول المسمى ، فمرة أنطق الحروف بأسمائها ، ومرة بمدلولاتها .

وليس كل ناطق يستطيع أن يفرق بين أسماء الحروف وبين مسمياتها ، وإلا فالأمي كالمتعلم ينطق مسميات الحروف ، فالأمي يقول مثلاً : قرأ ، وكتب ، وأكل ، وتكلم ، ولكنه لا يعرف أن : كتب مثلاً مكونة من : كاف مفتوحة ، وتاء مفتوحة ، وباء مفتوحة ، فلا يعرف ذلك إلا المتعلم ، ومحمد ﷺ كان أميًا ، فما الذي نقله من قراءة مسميات الحروف إلى قراءة أسماء الحروف ، مع أن أسماء الحروف لا يرتاض عليها إلا متعلم ، وهم جميعًا يشهدون أنه أمي ، ولم يجلس إلى معلم ، وهذا دليل على أن الذي اتخذه رسولاً علمه .

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ ﴾ .. وهنا يجب أن نعرف أن لغتنا تتكون من الكلمة ، والكلمة مدلولها إما اسم ، وإما فعل ، وإما حرف ، والتي لا هي اسم صريح ، ولا هي فعل صريح نسميه اسم فعل ، مثل : هيهات ، بمعنى : بَعُد ، فلا نستطيع أن نقول إنها اسم ، ولا فعل ، إنما هي (**اسم فعل**) ، فلو نظرت إلى الاسم أو الفعل أو الحرف ، تجد أن كلها تدخل في مدلول الكلمة ، إلا أن كل واحد له مدلول .

إذن .. فحروف المبنى لا تدخل في هذه الأقسام ، كالباء من : " كتب " مثلاً ، أو التاء ، فتسمى بحروف المباني ، إنما باء الجر ، وتاء القسم ، وواو العطف ، وأشباهها فتسمى بحروف المعاني ، فمثلاً : (**لاَ**) حرف له معنى ، والباء من قولك : (**كتبته بالقلم**) .. فالباء حرف له معنى ، والفعل له معنى ، والاسم له معنى ، كل واحد من أقسام الكلمة له معنى ، إلا أن ذلك المعنى إما أن يكون مستقلاً بالفهم ، أو غير مستقل بالفهم ، فمستقل بالفهم : بحيث إذا قرأت الكلمة يكون لها معنى مستقل تفهمه ، أو لها معنى غير مستقل ، مثل : (**محمد**) ، كلمة عندما تقولها تحضرك صورة الشخص المسمى بمحمد ، فتكون قد أدت معنى ، و : (**كتب**) ، لها معنى كذلك ، ولكن لو قلت : (**البـاء**) وحدها لا أفهم معنى إلا إذا انضمت الباء إلى شيء ، كقولك : **قطعت بالسكين** .

إذن .. فكيف نفرق بين مكونات الكلام من اسم أو فعل أو حرف ؟

قيل : إن كان الزمان جزءًا من مدلول المعنى فهو فعل ، وإن لم يكن الزمان جزءًا من مدلول المعنى فهو اسم ، أما إن لم يدل على معنى في نفسه أصلاً فهو الحرف .

والهمزة التي دخلت في : ﴿ أَلَمْ ﴾ همزة استفهام ، كما نقول : أقام زيد ؟ بمعنى : هل قام زيد ؟ و : أمحمد عندك ؟ بمعنى : هل محمد عندك ؟ فالهمزة للاستفهام ، و : (**لم**) حرف للنفي ، ذلك معناه ، أما عملها فشيء آخر ، فهناك فرق بين معناها وبين عملها ، فمعناها : هي للنفي ، أما عملها : فهي حرف نفي وجزم وقلب ، يدخل على المضارع الصالح للحال أو

الاستقبال فيجعله للماضي .

وعند الاستفهام إذا قلت : أكتب محمد ؟ فهو استفهام عن الكتابة ، أما عندما تقول : أمحمد كتب ؟ فأنت هنا تستفهم عن محمد ، إذن .. فعن أي شيء يستفهم في : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ ؟ .. إذا قمت بحذف همزة الاستفهام تقول : (لم تر) ، فهل كان ربنا ﷻ يستفهم عن النفي ؟! فعندما يقول الله ﷻ : (لم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل) ، فبذلك يكون الله ﷻ قد نفى عنه أنه يعلم ، ويكون الاستفهام عن ذلك النفي ، فنقول : فإذا كان ليس نفيًا ، بأن يقول : (أترى كيف فعل ربك بأصحاب الفيل) ، فيكون قد أثبت ، فهذا اسمه الحدث ولكن السؤال بالهمزة قد يكون للتقرير ، أي : لتقرير ما بعدها ؛ لأن الخطاب قد يكون من المتكلم خبرًا صالحًا لأن يكون صادقًا أو أن يكون كاذبًا ، وهذا الخبر عندما أحب أن أقرره أستخدم صيغة الاستفهام ؛ حتى يشارك المخاطَب في إثبات الفعل ، وفي إعداد الجواب ، فتقول : أحسنت إليك قديمًا .. فإذا أردت أن يقرَّ المخاطَب بلسانه ، فحوِّل الخبر إلى استفهام ، فتقول : ألم تر أني أحسنت إليك ؟ فبذلك تكون قد نقلت الكلام منك أنت كمتكلم ، إلى المحسن عليه كمخاطَب ، فكأنك تقرره بما بعد المدلول ، ولا تنقل الكلام منك إليه إلا إذا كنت على ثقة بأنه سيقول : نعم أحسنت إليَّ ، ولا يكون هذا كلامك ، بل هو إقرار منه ، وما دام إقرارًا منه فيكون حجة في إثبات الفعل ، فكأنك قررته بالفعل .

فكأن طرح السؤال إيحاء بالجواب ، فالحق ﷻ حينما يأتي ليقرر شيئًا ، لا يقرره بصيغة الإثبات فيقول : أنت لم تر ما فعل ربك بأصحاب الفيل ، لكان رسول الله ﷺ يقول : لا أنا رأيت ، فلم يقرره برأيت ، ربما يكون ذلك إيحاء بالجواب ، بل أتاه بالمقابل ، فكأنك عندما تقول لرجل : أنت بخيل ، وأنت لم تعطني حقي ، فيقول لك : صحيح ، أنا لم أعطك حقك يوم كذا ، ولم أحسن إليك يوم كذا ، مع أن هذا حدث بالفعل ، ولكنه أتى به منفيا ، فتأتي



له بالعكس ، فكأنها أمر من الوضوح بحيث لا يستطيع المستفهم منه أن ينكر ذلك ، بل جاء له بما يناقض القضية .

فكذلك قال الله لرسوله ﷺ : ﴿ أَلَمْ تَرَ ... ﴾ ، وكأن رسول الله ﷺ يقول : بلى رأيته ، فكأن همزة الاستفهام إذا دخلت على الشيء ، فكأنها تقرر بالفعل ، وإذا دخلت على ما دخل عليه الاستفهام ، لك أن تقول : إنها تقرر ما بعد النفي ، أو تنكر النفي وما بعده ، أي : الهمزة للإنكار ، فكأنما ينكر النفي : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ ، أي : أنا أنكر بأنك لم تر . أيضًا ، مرة تأتي الهمزة للاستفهام المحض ، ومرة تأتي لتقرير ما بعدها إذا كان الفعل مثبتًا ، ومرة تأتي للإنكار إنكار الفعل المنفي ، وما دمت قد أنكرت الفعل المنفي ، فقد أثبت الفعل المثبت ، أي : فأنت رأيت ما صنع ربك بأصحاب الفيل ، على أبلغ أسلوب .

هنا نلاحظ أن ﴿ أَلَمْ ﴾ ترددت في الكتاب الكريم ودائمًا يأتي معناها بـ : (**ألم تعلم**) ، مثل : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ ﴾[1] ، كل (**ألم تر**) ، أي : ألم تعلم ، فلماذا ترك كلمة (**ألم تعلم**) وأتى بـ (**ألم تر**) ؟ لأن وسائل العلم عند البشر : الحواس أولاً ، ثم المعقولات ، أي : الحواس تستقبل ، وبعد ذلك تختمر ، المحسوسات نكون منها المعلومات العقلية ، هذا ما يشير إليه الحق ﷻ في قوله : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ ﴾[2] ، ﴿ السَّمْعَ ﴾ لتسمع ، ﴿ وَالأَبْصَارَ ﴾ لترى ، ﴿ وَالأَفْئِدَةَ ﴾ لتتفقه ، إذن ، وسائل الإدراك : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ ﴾ .

إذن .. فوسائل العلم ثلاثة .. مركبة في أمهات الحواس ، وهي : السمع ، والأبصار ،

---

1 – سورة : الحج ، الآية : 18 .

2 – سورة : النحل ، الآية : 78 .

والأفئدة ، وكأن الله ﷻ قد أخرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئًا ، ثم بعد ذلك جعل لنا السمع والأبصار والأفئدة .. ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[1] .. لعلنا نشكر ، إذن هناك نعمة حصلت بهذه الوسائل ، وهي نعمة العلم ، فكأن الحق يقول : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ ثم علمكم بأن خلق لكم وسائل العلم متطورة مع أعمالكم العقلية ، فمرة يكون علمكم عن طريق السماع ، ومرة عن طريق الرؤية ومرة عن طريق الاستنباط من المسموع والمرئي ، فتستنبطون منه المعلومات ، فلعل هذا يجعلكم حين تعلمون هذه الوسائل تشكرون الله ﷻ ؛ لأن الشكر لا يكون إلا عن وجود نعمة .

والحق ﷻ حينما يتكلم عن وسائل العلم يذكر : السمع ثم البصر ثم الفؤاد ، وهذا كلام منطقي مع وظائف الأعضاء ؛ فلقد ثبت أن حاسة السمع هي أول حاسة تؤدي مهمتها في الإنسان ، فلو مرَّرت أصبعك أمام عين الوليد الصغير لا تطرف ؛ لأنه لا يرى شيئًا من ثلاثة أيام إلى عشرة أيام ، لكنك لو صرخت بجانبه صرخة تجده ينفعل ، فمعنى ذلك أن الأذن أدت مهمتها قبل العين .

وأيضًا فإن السمع هو الوسيلة الأولى لتلقي العلم ، فأنت لا تقرأ إلا إذا تعلمت فن القراءة ، وفي فن القراءة لابد أن تتعلم أن هذا اسمه ألف ، وهذا اسمه باء ، وهذه اسمها فتحة ، وهذه اسمها ضمة ، فلابد قبل أن تقرأ بعينك ، من أن تسمع بأذنك ، وإذا لم تسمع ، فأنت لم تعرف .

لذلك يقول الحق ﷻ في مرتبة العلم : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ ، فكأن العلم الذي يقوله الله ﷻ لك ، ويخبرك به – وإن كان غيبًا – يجب أن تستقبله من الله استقبالاً بأقوى وسائل الإدراك لك وهى : العين ، وكأنك تشاهده ، فلا تتشكك فيما يخبرك به الله سماعًا ، فهذا معنى :

---

1 – سورة : النحل ، الآية : 78 .

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ .. فكأنه ليس مجرد فعل ، بل فعل على كيفية مخصوصة ، لا تصدر إلا من الله ﷻ ، فكأن الحق ﷻ يريد أن يلفتنا إلى أن هناك أسبابًا خلقها ، تنتج مسببات ، كلها من فعل الله الذي هو خالق الأسباب ، والمسببات تنتج من وراء المسببات ، وهي أيضًا من فعل الله ﷻ ، ولكن فعل الله بواسطة نواميس مخلوقة ، تلك التي قد يتشكك الإنسان في أن الناموس فاعل بنفسه ؛ فيظن أن النار تحرق بنفسها ، أو أن المياه تروي بنفسها ، أو أن السيف يقطع بنفسه ، لكن إذا حدث فعل على غير طريق النواميس والأسباب ، فهذا فعل أدى المراد ، لكن بغير أسباب معروفة لديَّ ؛ ولذلك فالحق ﷻ يقول دائمًا : ﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ﴾[1] .

فإذا رأيت سببًا أدى النتيجة بدون مسبب ، فاعلم أن الذي خلق القوة في ذلك السبب هو الله ﷻ ، وإذا ما حدثت الأمور على غير قانون السبب ، فاعلم أن الله وراء ذلك الفعل ، فهو الظاهر فيما تعلم من أسباب ، وهو الباطن فيما لا ترى من أسباب .

إذن .. فكل شيء له ، وحين يقول ﷻ : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ ﴾ .. نعلم أن الله ﷻ قد فعل ما فعل بأصحاب الفيل لا بأيديكم ، ولا بأسبابكم ، ولكن بشيء آخر فوق النواميس والأسباب ، فليس العجب من الفعل ، ولكن العجب من الكيفية التي وقع عليها الفعل ، لذلك قال الحق ﷻ : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ .. وكذلك لم يقل : ألم تر كيف فعل الله ، إنما أتى بصفة الربوبية ، التي هي : التربية ، والتنمية ، وموالاة المربِّي للمربَّى حتى يبلغ كماله ويستوي ، فكأنه ﷻ يشير إلى أن الذي فعل هذا بأصحاب الفيل هو ربك ، أي : متوليك ، وكما صنع ذلك بأصحاب الفيل بلا أسباب عادية من أعراف البشر ، فكذلك سينصرك بلا أسباب عادية .

ونحن قد عرفنا أن حادثة الفيل حدثت في عام ميلاد رسول الله ﷺ ، فحين يقول الله ﷻ عن فعله : ﴿ فَعَلَ رَبُّكَ ﴾ .. فيجب أن نستقبل فعل الله ﷻ بقانون الله الله ﷻ لا

---

1 - سورة : الحديد ، الآية : 3 .

بقوانينا ؛ لأن كل فعل يأخذ قوته من قانون فاعله ، فمثلاً نقول : خطب طالب الإعدادي ، أو خطب طالب الثانوي ، أو خطب طالب الكلية الجامعية ، فتؤخذ الخُطبة بمدلول فاعلها ، فلم نأخذ فعل الفاعل من واقع آخر ، بل من فعله هو نفسه .

ففي قوله ﷻ : ﴿ فَعَلَ رَبُّكَ ... ﴾ : رد على طائفة العقلانين الذين أرادوا أن يستقبلوا أفعال الحق سبحانه وتعالى بقانون البشر ؛ ولذلك كانوا يردون كل شيء لا يدخل تحت قانون البشر ، ولا في معقول البشر ، ويحاولون أن يأولوه بما يخضع لقانون البشر ، وفكرهم ، وعقلهم ، وهذه المدرسة ظهرت طبعًا في أوائل النهضة الحديثة ، والتي من أشهر أئمتها **الشيخ جمال الدين الأفغاني** ، و**الشيخ محمد عبده** ، حيث كانوا يكتبون في الإسلام بالغيبيات ، والغيبيات مفهوم يقف حوله الناس كثيرًا ، فالعقول المادية ، تريد أن تعزل الرسالات والنبوات عن مرسلها ، وتريد تفسير الأشياء بناموس البشر والكون .

فمثلاً : قال **الشيخ محمد عبده** في الطير الأبابيل : إنها كانت الميكروبات ، والجدري ، وما أشبه ذلك ؛ والذى حمله على هذا القول أنه استبعد أن تحمل الطيور حجارة ، ثم تنزل تلك الحجارة على هؤلاء الناس فتقتلهم ! ! !

فنقول له : لماذا تستبعد ذلك ؟! فما دمت تدرس النبوات على أن الأساس الأصيل أنها مرسلة من الله ﷻ ، فلا ينبغي أن تلغي هذه القوانين ، وإن كان عقلك لم يسعها ، فعقلك ليس حجة .

وكذلك يقول : ففي الإسلام أشياء كثيرة حول سيرة الرسول غيبيات ، ولا يصدقها العقل ! ! وبالتالي يردها ويقول : هذه أشياء لم تحدث بالفعل ، ويبدأ في تفسيرها تفسيرًا عقليًّا ، وذلك حتى يبعدوا الأمور الغيبية عن الإسلام ، وعزلوا عن حياة الرسول المعجزات ، وعزلوا أسرار الكون ، ونفوا كل الغيبيات ، وكل ما يخالف العقل البشري ، أو يخالف قانون ، أو فسروها تفاسير مادية عقلية بعيده عن مدلولاتها .



ولذلك يقول (**هيكل**) في كتاب (**الصلاة**) : أنا سأنهي المعجزات التي حدثت لرسول الله ، وأبعد هذه الغيبيات ، وأبحث فيه كإنسان عبقري .. وظن أننا نُسَر عندما يكون **محمد** ﷺ هو القائد الأول في الإنسانية ، أو **محمد** العبقري ، كلا .. إننا لا نريده قائدًا أو عبقريًا ، أنما يكفينا أن تقول : إنه رسول الله فقط ؛ لأنك عندما تقول : قائد عبقري ، فقد جعلته بإمكانية الإنسان العادي ، فتلغي عنه الغيبيات ، وأولها الوحي ، ثم المعجزات ، لكن عندما تقول : هذا رسول الله ﷺ ، فقد علمنا أنه قد أخذ إمكانياته من الحق ، فتكون قد أعطيته ما هو أعلى من العبقرية والقيادة .

والشيخ **محمد عبده** في مثل هذه السورة ، عندما قال في هذه الغيبيات ما قال ، نقول له : هل هذه الحادثة موثقة تاريخيًا أم لا ؟ فسيقول : نعم .. موثقة تاريخيًا .. ثم متى حدثت هذه الحادثة ؟ لقد حدثت في عام الفيل ، ذلك العام الذي ولد فيه رسول الله ﷺ ، ورسول الله ﷺ بعث بعد أربعين سنة من هذا العام ، وبعدما بعث رسول الله ﷺ بأربعين سنة ، وتوالى نزول القرآن على أهل مكة ، كان هناك أناس أعمارهم خمسون ، أو ستون ، أو سبعون ، أو ثمانون ، أو تسعون .. ثم نزلت السورة ، وقرأها رسول الله ﷺ على القوم ، وكان معظم القوم كافرين بها ، وحريصين على أن يكذبوه ، ولو علموا أن شيئًا مما أنزل عليه يمكن أن يُكذَّب ، لما ادخروا في ذلك وسعًا ، فلما نزل قول الله : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴾ .. فلو لم تكن هذه الحادثة عند أصحاب سن العشرين ، والثلاثين ، والأربعين ، والخمسين ، والستين ، والسبعين ، كما نزل في القرآن ، لكان من الممكن أن يقولوا : إنها حادثة كاذبة ، ولكن لم يجترئ أحد أن يقول هذا ؛ لأنهم رأوا بأعينهم هذه الطيور الأبابيل[1] .

1 – أخرج القصة الحاكم في المستدرك عن ابن عباس (9 / 207) ، والبيهقي في دلائل النبوة (1 / 44) .

والذي يدل على أن هذه الحادثة وقعت ، أن العرب قبل الإسلام كانوا لا يعرفون الميكروب ، فالميكروب اكتشف في القرن السادس عشر ، أو السابع عشر الميلادي ، فإذا لم يكونوا قد عرفوا الميكروب ، ولم يعرفوا الطير الأبابيل بمدلول أبابيل ، وحجارة بمدلول حجارة ، وكعصف مأكول بمدلوله ، لكان من الممكن أن يُكذِّب رسول الله ﷺ من الأجيال العاقلة ، وأصحاب التجربة الذين رأوا الحادثة .

وما داموا يكذبون بالغيبيات ، ويريدون أن يخضعوها لأسباب نواميس كونية ، وليس قوة غيبية تدخلت ، فنقول : إن الميكروب – كما نعلم – له مدة حضانة في الجسم ، وليس بمجرد أن ينزل ويصيب الجسم ، يؤثر في الجسم مرة واحدة ، بل له مدة حضانه كبيرة ، قد تكون أسبوعين ، وبعد ذلك يبقى الجسم حتى يموت ، وبعد ذلك يتعفن ، وبعد ذلك يتفتت ، وبعد وقت طويل يكون عصفًا مأكولاً ، فالمسألة تريد وقتًا طويلاً ، فأي ميكروب هذا الذي يوجه كالصاروخ الموجه ؟! والله ﷻ لم يجعل العقل البشري يستنبط أسرار الكون المخفية عنه مرة واحدة ، بل يعطيها له تباعًا ، لماذا ؟! لكي أعلم أن عقلي بذاته ليس صالحاً لإدراك الأشياء على حقيقتها ، بل يمر عليه يوم وهو جاهل بالمسألة ، ثم يأتي بعد ذلك يوم يكون قادرًا عليه ، وما دام أثبت جهلي ، فلابد من الإيمان بدليل قدرته اليوم ، فأنا أثبت له قدرة الغد على عجز اليوم ، وهذا في قوله : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا ﴾[1] ، وما دام سيريهم آياته ، فمعنى ذلك أنها كانت مطمورة ، ولو كان العقل البشري صالحاً بذاته لإدراك أسرار الكون لأدركها مرة واحدة ، ثم أصبحت كل أحداث العالم بعد ذلك مكررة ، ولكن الحق ﷻ يجعل هناك أشياء تظل غيبًا ، ثم تصير بعد ذلك مشهدًا بمقدمات ، فيمشي من ألف ، ويذهب إلى جيم ، إذن ، فالمقدمات التي وضعها ربنا في الكون هي مادة في استنباط المجهول ، وما دامت مادتي في استنباط المجهول ، فيكون عندما أردها ، أردها إلى الآمر .

---

1 – سورة : فصلت ، الآية : 53 .

فكأن الحق ﷻ حين يأذن للعقل لكشف سر من أسرار كونه ، وهو سر غير مادي ، ليس منظورًا ، يهيئ الإنسان إلى أن يصل للمقدمات الموصلة ، فيأخذ بالمقدمة ، وبعد ذلك ينتهي لنتيجة ، فتتسلسل المعلومات ، وتتطور الفكرة ، وتتسامى ، و.... إلى آخره .

ومرة يأذن الله للسر أن ينكشف ، ولكن البشر لم يكونوا قد صنعوا المقدمات العلمية التي تدلهم عليه ، لكن الله أذن للسر أن ينكشف ، إما أن يمهد لذلك بأن يأخذ العقل البشري بمقدماتها ويصل ، أو أنه يجعله يبحث في شيء ، فيظهر له سر من أسرار الدنيا ، وإذا نظرت إلى كثير من المخترعات ، تجد أن أغلبها قد جاء بالمصادفة .

كما قال ﷻ : ﴿ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَ بِمَا شَاءَ ﴾[1] ، فالبشر لا يحيطون بشيء من علمه إلا إذا شاء ، فمرة يشاء أن يوفق في المقدمة ، ومرة يكونون موفقين فيعطيها لهم بالمصادفة ، فقط بمجرد أن يشاء .

ولكن هنا أعطى الله ﷻ الوصف لخلقه في قوله : ﴿ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَ بِمَا شَاءَ ﴾ .. في الأشياء التي كانت غيبًا ، ولكن يمكن أن يستوعبها الإنسان ، لكن في قوله : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلاَ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ ﴾[2] .. أي : لا يظهر هو ، وليس غيره ﷻ .

وهنا نصل إلى نتيجة : أن هناك فرقًا بين غيب مطلق ، وهو الغيب الذي لم يجعل الله له مقدمات تستطيع أن تستنبطها ، كاستنباطك لأسرار الكون الموجودة في الحياة ، وبين غيب مستور عنك ، ولكن من الممكن إذا دققت النظر ، وقمت بتجربة ، وملاحظات ، ونظريات ، أن تستطيع أن تتوصل إليها .

﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴾ .. والكيد : هو مقابلة الخصم للخصم ، إما أن يكون

1 – سورة : البقرة ، الآية : 255 .

2 – سورة : الجن ، الآية : 26 ، 27 .

بوسائل مجابهة ، علنية ، واضحة ، وإما أن يكون بالأشياء التبييتية ، ولا تأتي الأشياء التبييتية إلا إذا كان الخصم غير قادر على أن يغلب بالمواجهة ، فيقوم بعمل كيد ، إذن ، فالكيد وسيلة من وسائل الانتصار على الخصم الذي أعجزه أن ينتصر عليه بالمواجهة ، هذا في الواقع ، فقد يظن بعض الناس أن الكيد قوة ، كلا ، بل هو ضعف ؛ لأنه لو كان عنده قدرة المواجهة لما بيَّت .

ورحمة الله على العقاد ؛ إذ كان معروفًا برأيه في موضوع المرأة ؛ فلقد كان يسمي أولئك الذين يدافعون عن المرأة بالنسائيين ، فكانوا يقولون : إن عقلية المرأة جبارة ؛ لأن الله ﷻ وصف كيد الشيطان بأنه ضعيف فقال : ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾[1] ، ووصف كيد المرأة بأنه عظيم فقال : ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾[2].. فوفق الله العقاد لجواب ، هذا الجواب يتلخص في أن الذي يلجأ إلى الكيد ، والاحتيال ، والمكر ، وغيره ، هو الضعيف عن المواجهة والمقابلة ، والضعيف عن المواجهة هو الذي لا يملك ظروفه ، فإذا ما أصاب فرصة ولو ضعيفة أراد أن ينتهي من خصمه فيها ، لكن القوي لا تشغله الفرص ، فهو قادر أن ينفذ ما يريده في أي وقت ، والمرأة الضعيفة إذا أصابت فرصة قتلت ، وكذلك قدرة الضعفاء ، عندما يصيبون فرصة ينتهزونها ، ويبيتون ، ويكيدون ، حتى تحين الفرصة .

إذن ، فالذي يبيت لخصمه هو الضعيف ، فالذي يريد مثلاً أن ينافس أحدًا ، وينافسه منافسة شديدة بالمواجهة ، وهو ليس قادرًا على مسألة المواجهة ، فيقوم بعمل مكائد له ، ويبيت له ، فلو كان قادرًا على المواجهة لما صنع هذا .

فالعقاد يقول : إن كيدها حين يكون أعظم من كيد الشيطان ، فمعنى ذلك أن ضعفها في المواجهة غير موجود ، ولذلك لا تنجح إلا في الكيد ، فالذي لا ينجح إلا بالكيد والتبييت ، يكون ذلك دليلاً على ضعفه .

---

1 – سورة : النساء ، الآية : 76 .

2 – سورة : يوسف ، الآية : 28 .

والكيد يكون في الخفاء دائمًا ، الكيد الذي يكون على غير وجه حـــق ، فأنت تعمي على البشر في كيدك ، وإنما كيد البشر ليس هو الكيد الوحـيد ، بـل وراءه قـوة أعلى ثانية ، إذن ، فكيدكم مكشـوف .. كيدكم في ضلال ، ولا يصل إلى نتيجة ، ولا إلى غاية ؛ لأن المكيد ليس هو الذي يواجـهك ، بل وراءه قوة أكبر وأعظم من قـوته ، فكل أسبـاب المناورة والكيد ، تلك التي يفتتن بها صاحبها ؛ لأنه يعتقـد أنه أقـوى ممن يواجه ذلك الكيد ، ويعزل المكيد له الذي هو في جانب الحق ، أو جانب الإيمان ، عن المصدر الأصيل .

إذن ، فما دام كيده مفضوحًا فلن يصل إلى نتيجة ، بل كيده في تضليل .

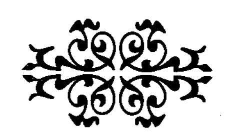
﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ ﴾ .. وطيرًا أبابـيل ، أي : جماعات ، وهي كما بلغتنا : طير أبابيل ، وكانت ترمي بحجارة .

﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴾ .. و(**العصف**) هو : القشـــرة ، أو الغلاف الذي يغلف الحب ، فإذا أُكِل الحَب أُلقـي هذا العصف ، فيصير مثل التبن ، فكأن المعنى : أن الأجسـام تفتتت كتفتت التبن ، أو الحب الذي أُكل وأُلقي عصفه .

نسأل الله ﷻ أن يعلمنا ما ينفعنا ، وأن ينفعنا بما علمنا ، وأن يزيدنا علمًا . .

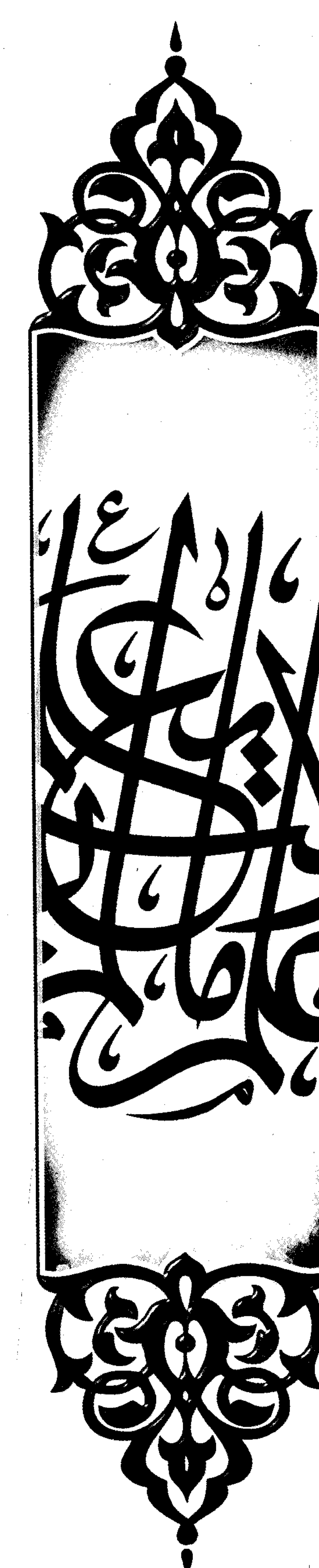
إنه ولي ذلك والقادر عليه .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .









سورة قريش



سورة قريش

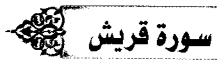
بسم الله الرحمن الرحيم ، أحمدك ربي كما علمتنا أن نحمد ، وأصلي وأسلم على خير خلقك سيدنا محمد ﷺ ، وبعد :

فمع تفسير **سورة قريش** ، تلك السورة التي ترتبط **بسورة الفيل** ارتباطًا وثيقًا مع أنها لم تنزل بعدها مباشرة ، إذ ليس من الضروري أن تنزل السورة بعد السورة لتكون مترتبة عليها ، وقد تنزل السورة بعد السورة بمراحل ، ولكن وضعها في القرآن يأتي بها في هذا الجانب ؛ لأن القرآن كلام الله ، له هيئة نهائية عند الحق سبحانه وتعالى ، وفرق بين نزول القرآن ، وبين الهيئة النهائية التي عليها القرآن .

فنزول القرآن كان يأتي حسب المقتضيات والأحداث التي تتطلبها الدعوة ، ولكن القرآن في اللوح المحفوظ مرتب الترتيب الطبيعي له ، فإذا ما نزلت حادثة ، واحتاجت لآية ، نزلت تلك الآية ، لكن وضعها في السياق القرآني له ترتيبه .

ولذلك نقول دائمًا : إنه يوجد ترتيب نزول حسب الأحداث والمتطلبات التي تتطلبها الدعوة ، وهناك ترتيب نهائي على ما هو عليه ، فمجيء الشيء على حسب سبب مجيئه ، غير ترتيبه في المصحف في التصميم النهائي ، فالقرآن بهذا الوضع علي التصميم النهائي الذي كان عليه في اللوح المحفوظ ، أما نزوله فقد نزل منجمًا حسب الحوادث .





لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ۝٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ۝٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ۝٤

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ ﴾ .. ماذا تعني كلمة : ﴿ لِإِيلَافِ ﴾ ؟ لابـد أن تجد فعلاً تعلقه بكلمة : ﴿ لِإِيلَافِ ﴾ .. وهذه هي العلاقة بين **سورتي الفيل وقريش** ؛ ففي **سورة الفيل** نجد أن الله ﷻ فعل ما فعل بأصحـاب الفيل.. ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴾[1] ، لماذا ؟ ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴾ ؛ لأن الحق ﷻ إذا ترك بيته لما يريده أبرهة من هدمه ، لسقطت مهابـة قريش في شبه الجزيرة العربية ؛ لأن الذي جعل لقريش تلك المهابة هو ذلك البيت ، ولماذا جعل البيت المهابة لقريش ؟ لأن القبائل كلها كانت تأتي إلى قريش لتحج البيت ، فما تستطيع قبيلة من القبائل أن تقطع الطريق على قريش في تجارتها ، ولا تتعرض لها ، لا شمالاً وهي ذاهبة إلى الشام ، ولا جنوبًا وهي ذاهبة إلى اليمن ؛ وذلك لأنها تذهب إلى قريش في عقر دارها لتحج البيت .

إذن .. فوجودهم في جوار البيت هو الذي جعل لهم تلك المهابة في الجزيرة ، فلو أن البيت هُدم كما يريد أبرهة ، لسقطت هذه المهابة ، وحين تسقط المهابة ماذا يحدث ؟ فهم في وادٍ غير ذي زرع ، وكل اقتصادهم في العمليات التجارية : رحلة الشتاء ، ورحلة الصيف ، فإذا ما سقطت مهابة البيت ، سقطت مهابة قريش تبعًا لذلك ، وإذا سقطت مهابة قريش فستتجرأ عليها القبائل في الشمال ، وفي الجنوب ، كما تجرأت علي غيرها من القبائل ، وإذا

1 - سورة : الفيل ، الآية : 5 .

ما تجرأت عليها القبائل صادرت تجارتها ، وما دامت صادرت تجارتها وهم لا مصدر رزق لهم إلا من هذه التجارة فماذا سيكون الموقف ؟ لا شك أنهم سيجوعون ، ويرتعدون خوفًا من القبائل المتفرقة .

إذن .. فالحق ﷻ فعل ما فعل بأصحاب الفيل ، وجعلهم كعصف مأكول لماذا ؟ ﴿ **لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ** ﴾ ، لكن هل الحق ﷻ رد أبرهة عن هدم البيت لهذه المسألة فحسب ، أى : لإيلاف قريش فقط ؟

إن اللام في كلمة : ﴿ **لِإِيلَافِ** ﴾ .. يسمونها : (**لام العاقبة**) ، أي : نجاة البيت من الهدم ، ورد أبرهة وجيشه مدحورين مهزومين ، ولم ينالوا من البيت شيئًا ، كان لأجل أن تظل لقريش مهابتها ، فيطمئنوا علي رزقهم وأمنهم ، فلا يهددهم أحد بخوف ، لكن الحق لم يفعل ذلك لهم ، إنما فعل ذلك حماية لبيته ، فيكون تبعًا حماية البيت أن تألف قريش رحلتي الشتاء والصيف .

﴿ **فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ** ﴾ .. لأنهم مدينون له بأنه حفظ البيت الذي يجعلهم يألفون رحلة الشتاء والصيف ، ويأمنون بسببهما على أنفسهم من جوع ومن خوف ، وما دام قد فعل معهم هذا الجميل ، وتلك النعمة ؛ فيجب عليهم أن يقابلوا ذلك بأن يعبدوا رب هذا البيت : ﴿ **فَلْيَعْبُدُوا ...** ﴾ .

إذن .. فـ : ﴿ **لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ** ﴾ بين أمرين : بين أمر هو الدافع الأصيل ، وكانت تلك عاقبته .. ﴿ **فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ** ﴾ ، وبين مطلوب من الله ﷻ .. ﴿ **فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ** ﴾ ..

﴿ **الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ** ﴾ .. فإذا نظرنا إلى هاتين القضيتين : أطعمهم من جوعٍ ، وآمنهم من خوف ، نجد أن هذه الأشياء هى الأشياء الضرورية للإنسان ، فالضروري للإنسان هو قوت حياته ، ثم بعد ذلك أن يطمئن علي أن شيئًا لا يخيفه ،

والخوف له مصدران ، إما زوال النعمة ، أو حلول مصيبة ، فيكون هنا الخوف ، فالحق ﷻ حينما يضمن للإنسان أنه أطعمه من جوع ، وآمنه من خوف ، يحقق له ما قاله الرسول ﷺ : " **ألا أخبركم بدنيا المؤمن ؟!** " قالوا : بلى يا رسول الله . قال : " **من أصبح معافىً في بدنه ، آمنًا في سربه ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها** "[1].

إذن .. فحظ الإنسان وسعادته في شيئين اثنين : أن يطعم من جوع ، وأن يأمن من خوف ، وهذان الشيئان حققهما الله ﷻ لهم ، وإذا نظرت وتأملت وجدت أن هذين الأمرين هما دعوة **إبراهيم** عليه السلام : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا ﴾ .. وهذا هو الأمن من الخوف ، ﴿ وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾[2] .. وهذا هو الإطعام من الجوع ، فدعوة **إبراهيم** عليه السلام في هذين الأمرين : أن يؤمنهم من خوف ، وأن يرزقهم من الثمرات كي لا يجوعوا ؛ لأنهم في وادٍ غير ذي زرع ، فإذا رتب الحق ﷻ الأمر بالعبادة على ما فعله لهم ، من إيلافهم رحلتي الشتاء والصيف ، يكون الترتيب طبيعيًّا ؛ لأن المهمة الأساسية التي من أجلها أسكنكم هذا المكان إنما هي إقام الصلاة .. ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾[3].

إذن .. فحين يقول الحق ﷻ : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ ، وقد استجاب دعاء **إبراهيم** عليه السلام ببلد آمن ، والرزق من الثمرات ، وحقق لهم هذين الأمرين ، فليؤدوا المطلوب منهم ، وهو : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴾ ؛ لأن هذه العملية الأساسية التي من أجلها جاء **إبراهيم** بذريته إلى هذا المكان ؛ ليقيموا الصلاة

---

1 – أخرجه الترمذي في سننه (8 / 344) ، وابن ماجه (12 / 17) ، والطبراني في الكبير (11 / 193) ، والأوسط (4 / 357) ، والبيهقي في شعب الإيمان (21 / 298) .

2 – سورة : البقرة ، الآية : 126 .

3 – سورة : إبراهيم ، الآية : 37 .

عند بيت ربهم ، إذن : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴾ .. تفسر لنا ﴿ لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ ﴾ .

فما هي العبادة ؟

(**العبادة**) : تطلق لمعان متعددة ، وكل سياق يتطلب معنى ، فالعبادة تطلق ويراد بها معرفة الحق ، وما دام قد عرف الحق فلابد – وفاء للحق – أن تطيعه وتخضع له ؛ لأن معرفة الحق أن تعرفه إلهاً ، أن تعرفه قادرًا ، أن تعرفه حكيمًا ، أن تعرفه باقيًا ، جميع هذه الصفات ستعرفها له ، وما دمت قد عرفت إلهاً له هذه الصفات فيجب عليك أن تنقاد له ، فالذي يفسر العبادة بالمعرفة ؛ لأن المعرفة هي الوسيلة لقبول تكاليف الله لخلقه .

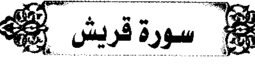
وبعض العلماء يري أن العبادة هي الخضوع ، فإذا وجدت المعرفة ولم يوجد الخضوع ، فهذه ليست عبادة ، فهناك أناس يعرفون الله ﷻ ، ولكن ليس عندهم الخضوع ، ويوجد أناس يعرفون الله ﷻ ، ويخضعون له ، إلا أنهم متكاسلون عن منهجه القويم ، فإذا قال الحق ﷻ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالأنْسَ إِلاَ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [1] ، فبعضهم يقول : إلا ليعرفون .. وهل خلق الله ﷻ الخلق للمعرفة فقط ؟ والبعض يفسر : (**إلا ليعبدون**) بالخضوع واتباع المنهج .

فنقول : إذا وجدت آية من الآيات ، فلابد أن تأتي بنظائرها من القرآن الكريم ، فهل جاءت آية : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالأنْسَ إِلاَ لِيَعْبُدُونِ ﴾ وحدها ، أم جاءت العبادة مع أوامر أخرى ؟ كما قال ﷻ : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ [2] ..

إذن ، فكلمة : ﴿ يَعْبُدُونِ ﴾ معناها : يخضعون لي ويطيعوني ، والخضوع والطاعة لا يتأتى إلا بوجود منهج ، وإلا لو كان بمجرد الخلق تأتي العبادة ، ما احتجنا إلى رسول ومُوَجِّه ، بل لا يحدث ذلك إلا إذا جاء رسول بمنهج مبلغ عن الله ﷻ ، إذن : ﴿ وَمَا

1 – سورة : الذاريات ، الآية : 56 .

2 – سورة : البينة ، الآية : 5 .

خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالأَنْسَ إِلاَ لِيَعْبُدُونِ ﴾ ، أي : لأكلفهم بعبادتي ، أكلفهم بواسطة أوامر ، فمنهم من يطيع ، ومنهم من يعصي .

وإذا نظرنا إلى العبادة في السورة نجد : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴾ أي : السبب الأصيل الذي لأجله جاء إبراهيم بذريته : ليقيموا الصلاة ، إذن ، فكأن الصلاة هي المحور الأساسي في العبادة ، عبادة لها معنى واسع ، ومعنى متوسط ، ومعنى قليل . وقد قسم العلماء الشعائر إلى : عبادات ، ومعاملات ، فقصدوا بالعبادات : الأمور التي شرعها الله لتقربك إليه ، وقصدوا بالمعاملات : ما ينظم أحوال هذا المجتمع ، لكن إذا نظرت إلى الحقيقة ، وجدت أن كل شيء سواء كان عبادات بهذا المعنى ، أو كان تنظيمًا لعلاقة المجتمع بعضه ببعض ، في نظام الأسرة ، في نظام الحكم ، في نظام الاقتصاد ، في الأخلاق ، وجدت كل هذا أيضًا من العبادة بمعناها العام الواسع ، فإذا كانت العبادة في قوله : ﴿ لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ ﴾ ، هي معناها في قوله : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴾ ؛ لأن الصلاة لو نظرت إليها لوجدت فيها العبادات بالمعنى الفقهي ، والمعاملات أيضًا ، لو جدت فيها العبادات بالمعنى العام المراد منه ، وهو الخضوع لمنهج الله دون منهج البشر إلا أن منهج الله أقسام ، هذه الأقسام أمور يفرضها الله ﷻ ولا ابتكار لأحد فيها ، كالصلاة ، أي : لا تتقرب إلى الله بشيء أزيد من هذا ؛ لأنه هو الذي شرعه ، أما أمور المعاملات فالحق ﷻ يترك للذهن البشري نشاطه ، وبعد ذلك يقنن لكل أمر علي حدود مستوى البيئة ، ومستوى العصر ، ومستوى المجتمع ، في إطار الأصول العامة .

وفرق بين العبادات الفقهية ، والمعاملات الفقهية ، في أن العبادة : هي ما لا يضعه بشر لبشر ، الكفار أليس لهم قانون يتعاملون به في نفوسهم ، وأُسَرِهم ، ومجتمعهم ، وحكمهم واقتصادهم ؟! هذا نظام ضروري ، لكن لا يضع البشر للبشر ، فمثلاً : لا يقول بشر لبشر : تقرب إليَّ بصلاة ركعتين ، أو بصوم شهر ، أو بزيارة بيتي كل عام ، كل هذا لم يحدث ،

إذن ، فهناك فرق بين العبادة ، والمعاملة ، فالمعاملة هي نظم للتعامل ولو لم تكن مؤمنًا ، لكن العبادة لا توجد إلا في منهج الدين ، فإذا نظرنا إلى هذا ، وجدنا الصلاة أخذت محلها في العبادة .. المحل الأساسي ، سواء كانت عبادة ، أو معاملة ، كيف ذلك ؟! لأن معاملات الإسلام فرض له علاقة بمجتمع قريب .. هو : الأسرة ، ومجتمع بعيد .. وهو : الأمة ، والعلاقات هذه لابد أن يقوم عليها والٍ ، وإمامٌ ؛ لينفذ الأحكام من يكون محلاً لرفع الظلم عن المظلوم ، إذن .. فلابد من وجود إمام يقوم بذلك ، فإذا نظرت إلى الصلاة وجدتها تأخذ بنود العبادة الشعائرية كلها ، وتأخذ أرقى بند من البنود ، وهو بند الولاية في الحكم ، كيف ؟! الصلاة صحيح أنها عماد الدين ، فلو نظرت إلى طريقة تكليفها وجدتها تختلف عن طريقة التكليف بالعبادات الأخرى ، فكل التكليفات صدرت بواسطة وحي ، إلا الصلاة ، فقد تميزت بأنها صدرت بالتكليف من الله ﷻ مباشرة ، ومادام التكليف جاء بهذه المباشرة ، فلابد وأن له أهمية كبيرة ، وأيضًا : الصلاة فرضت في الوقت الذي ظفر **محمد** ﷺ فيه بأن يكون في حضرة ربه ﷻ ، وما دام قد حدث له هذا الظفر بالقرب من الحق ﷻ ، فنزل إلى أمته بتحية من الحق لهذه الأمة ، هذه التحية هي التي تقرب أمة **محمد** ﷺ إلى الله ﷻ ، كما قُرب **محمد** ﷺ إلى الله ، وهذا هو المراد من قول الحق ﷻ : ﴿ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾[1] ، فكما اقترب رسول الله ﷺ ليلة المعراج من ربه ، كذلك أمته تقترب من الله بصلاتها ، فالصلاة تأخذ وضعًا متميزًا عن بقية الأحكام .

وإذا نظرنا إلى تكاليف الإسلام ، التي هي أركان الإسلام الخمسة لوجدناها متمثلة أكمل تمثل في الصلاة ؛ فشهادة أن لا إله إلا الله يجب على الإنسان لكي يكون مؤمنًا أن ينطقها وتلفظ بها ، والصلاة تحققها ، ليس مرة واحدة ، بل في كل صلاة عدة مرات ، وهذا هو الركن الأول من أركان الإسلام .

---

1 ـ سورة : العلق ، الآية : 19 .

إذن .. فالصلاة فيها الركن الأول من أركان الإسـلام ، وهي الركن الثاني ، فهي تحقق ذاتها ، أما الزكاة : فهي فضل من مال بلغ النصاب ، تخرج جزءًا منه ، وتعطيه للفقراء ، والمال الذي جاء منه النصاب ، فرع العمل ؛ لأنه ليس هناك تملك في الإسلام إلا بعمل ، وما دام المال فرع العمل ، إذن ، يحتاج المال إلى وقت ، إذن ، فالزكاة إخراج قدر من المال ، ووجود المال فرع العمل ، والعمل فرعه وجود الوقت ، فإنك تضحي بوقتك لأجل الصلاة ، فالزكاة تضحي بثمرة العمل وهو المال ، والصلاة هنا تجعلك تضحي لا بثمرة العمل وهو المال ، ولا بالعمل ، ولكن بالوقت الأصيل ، الذي يحدث فيه العمل ، فتعتبر بذلك الصلاة زكاة من نوع أعلى .

وكذلك فيها الركن الرابع من أركان الإسلام ، وهو الصيام ؛ فالصيام امتناع عن شهوتي البطن والفرج ، وكذلك في الصلاة أمتنع عن شهوتي البطن والفرج ، بل وزيادة على ذلك أمتنع عن مباحات الصيام أيضًا ، فمن مباحات الصيام : أن تمشي ، وتتكلم ، وتضحك ، وهذا ممتنع في الصلاة ، إذن ، فهو إمساك عن ما تمسك عنه في الصيام ، وإمساك عن أشياء أكثر مما تمسك عنه في الصيام ، فهى صيام بصورة واسعة .

وأيضًا فيها الركن الخامس من أركان الإسـلام ، وهو الحج ؛ لأنك إذا ما أردت أن تصلي لربك فإنك تستحضر بيت الله أمامك بقلبك ، وتتوجه إليه بقالبك ، فأنت تتجه للبيت قلبًا وقالبًا ، ففيها حج دائم .

إذن .. فالصلاة أخذت ذلك المدلول لأنها ينطوي فيها كل أركان الإسلام ، هذا من ناحية الشعائر .

وبعد ذلك انظر إلى الصلاة من ناحية النظام التعاملي في المجتمع ، فعندما يؤذن المؤذن يجتمع الناس ، كل من أرادوا أن يقوموا بأوامر ربهم ﷻ يهرعون إلى نداء ربهم ، ويتركون كل مشاغلهم ، فحين يهرعون إلى بيت ربهم ، تزول الفوارق ، فتجد الغني بجانب الفقير ،

والذي يأتي يجلس في المكان الذي يجده أمامه ، فالمكان لمن سبق ، قد يجلس الوزير في الصف الأخير ، ويجلس الفقير في الصف الأول .

إذن .. فقد تخلصوا من كبريائهم وغرورهم ، وتخلصوا من الطبقية التي فيهم ، واستووا جميعًا أمام ربهم في العبودية ، فحين يتكرر ذلك من الإنسان ، تخف قوة التعالي الموجودة بين الطبقات ، لماذا يكره الناس الفقر ؟ لأنهم يرون الغني يحترمه الناس ، فإذا ما احتُرِم الفقير أيضًا ، وأخذ حقه من الكرامة ، فلا تحدثه نفسه بهذه المسألة أبدًا ، ولكنه يرى الغني يأخذ حقوقًا أكثر منه ، لكنه عندما يجد هذا الوضع ، ويجد الذي كان يخشاه في عمله ، أو ذلك الذي كان يجلس معه وهو متهيب منه ، تجدهم كلهم في لحظة من اللحظات صاروا في خضوع لله ﷻ .

إذن .. فأول مبدأ هو المساواة ، وما دام يشيع مبدأ المساواة ، ولا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى ، يطمئن المجتمع ، ويصبح مجتمعًا سليمًا ، مجتمعًا ليس فيه تعالٍ ، وما دام ليس فيه تعالٍ ولا كبرياء ولا غرور ، فهو مجتمع منسجم ، وبعد ذلك نجد إنسانًا يتقدم بالناس ليصلي بهم ، ليس مطلق إنسان يتقدم ليصلي بالناس ، ولكن لابد من أن تتوافر فيه شروط ، منها : أن يكون من يصلي بهم راضين عن إمامته .

فالإمامة في الصلاة تعلمنا كيف تكون الإمامة في الحكم : " **لعن الله رجلاً أمَّ قومًا وهم له كارهون** "[1] ، وبعد ذلك وضع لها مقاييس : أحفظهم للقرآن ، فإن تساووا ، فيكون أفقههم لسنة رسول الله ﷺ ، فإن تساووا في ذلك ، فيكون من له سابقة إسلام ، أشياء مشروطة ، هي تمام ما يشترطه المشترطون في إمامة المسلمين ، بعد ذلك عندما ترتضى الإمام ، وتقف خلفه تصلي ، فللإمام الأمر ، يصدر أوامره ، يلتفت إلى المصلين ويقول : سووا صفوفكم فإن تسوية الصفوف من تمام الصلاة ، وبعد ذلك لا يكبر إنسان بتكبيرة الإحرام إلا إذا كبر الإمام أولاً ،

---

1 - أخرجه الترمذي عن أنس (2 / 97) ، وقد ورد بألفاظ متعددة عند أبي داود ، وابن ماجه ، وغيرهما .

فهم جميعًا وراء ذلك الإمام ، فعندما يقول : الله أكبر ، يقولون بعده : الله أكبر ، ولا يركع أحد إلا إذا ركع الإمام ، وكذلك لا يسجد أحد إلا إذا سجد هو ، وإذا جهر بالقرآن أنصتوا إليه ، فهنا مسألة الطاعة والاتباع ، ما دام هذا الإمام أتى برضانا ، فنحن ملزمون بطاعته ، وهنا لفتة ، يقول النبي ﷺ : " **ليلني منكم أولو الأحلام والنهى** "[1] ، أي : من يقف خلفي مباشرة هم أولو الأحلام والنهى ، وهذا هو منطق الرسول ﷺ ، وليس تكريمًا لأولي الأحلام والنهي ؛ فإن الإمام عرضة لأن يخطئ في القراءة ، فالذي عنده ذِكْر يذكره بالآية التي أخطأ فيها ، وإن نسي في الصلاة ينبهه ويقول له : سبحان الله ، وإذا حدث للإمام عذر من الأعذار يجعله يخرج من الصلاة ، فيجد خلفه من أولي الأحلام والنهى من هو أهل ليكمل الصلاة بالناس ، وهذه توحي إلينا في السياسة العامة أيضًا أنه لابد للإمام ألا يقرب منه أبدًا إلا أولي الأحلام والنهى ، بحيث إذا انحرف قيد أنملة عن منهج الله يقومونه ، فهذا خير خلق الله .. النبي ﷺ ، وكان يصلي بالناس ، ثم انصرف من اثنتين ، فقال له ذو اليدين أقصرت الصلاة أم نسيت يا رسول الله ؟! فقال رسول الله ﷺ : " **أصدق ذو اليدين ؟!** " . فقال الناس : نعم . فقام رسول الله ﷺ فصلى اثنتين أخريين ، ثم سلم ، ثم كبر فسجد مثل سجوده أو أطول ثم رفع رأسه فكبر ، ثم وضع رأسه فكبر ، فسجد مثل سجوده أو أطول ، ثم رفع رأسه وكبر[2].

إذن : وإن كانت المهابة تأخذ الإمام بأن جميع حركاته متبوعة ، ولا أحد يقدم بين يديه في أمر من الأمور ، إلا أن أولي الأحلام والنهى حينما يجدونه قد انحرف عن منهج من مناهج الله ، هنا تمتنع الطاعة ، وينبه إلى الخطأ ؛ ولذلك إذا نظرت إلى هذه الآيات في القرآن الكريم، تجد الحق ﷻ عندما يأمر بالطاعة مرة يقول : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾[3]،

---

1 - أخرجه مسلم (655) عن أبي مسعود .

2 - أخرجه البخاري (1153) ، ومسلم (896) كلاهما عن أبي هريرة .

3 - سورة : النساء ، الآية : 59 .

ومرة يقول : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾[1] ، ومرة يقول : ﴿ أَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾[2] فقط .

ثم حين أراد أن ينبه على طاعة أولي الأمر قال : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾[3] ؛ وذلك لأن ولي الأمر لا طاعة له في ذاته ، وإنما طاعته من باطن طاعة الله ﷻ وطاعة رسوله ﷺ ، فإذا انحرف عن شيء من طاعة الله ورسوله ، فليس له طاعة .

إذن ، فالصلاة بمثل هذه المعاني فيها جماع كل التكاليف من أولها إلى آخرها ؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ : " **لتنقضن عرى الدين عروة عروة ، أولها الحكم وآخرها الصلاة** "[4] ، معنى ذلك أنكم ستنسون قضايا الدين جزءًا جزءًا ، فينفصل الناس عن منهج ربهم ، يكون ذلك في الحكم ، فيحكمون بغير ما أنزل الله ﷻ ، وتكون هذه هي أول ما ينسى من الدين ، ثم بعد ذلك آخر ما يكون من سمات الإسلام التي تنسى الصلاة ، فيكون من الحكم إلى الصلاة ، فلو نظرنا إلى منهج الصلاة بهذا المعنى ، وجدنا أنها ضرورة من ضروريات وجودنا في ذلك المجتمع ؛ لأن أحداث المجتمع منوعة ، ونحن نرى أناسًا عندما تكثر عليهم الهموم يلجئون إلى شيءٍ يؤنسهم ، وينسيهم همومهم وأحزانهم ، ويعينهم علي زوال تلك الهموم ، فقد يمكن هذا ، وقد لا يمكن .

ولكن رسول الله ﷺ كان إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة[5] ، ومعنى حزبه أمر ، أي : ضغطت عليه الظروف فوق أسبابه ، فأين يذهب ؟ إنه يذهب إلى ربه الذي لا يعجز عن أمر ؛ فالصلاة مفزع لذي الحاجة ، ومفزع لذي الهم ، فقد يعتقد أناس أن الخمر تزيل الهم ، ولكنها في الحقيقة تنسي الهم ولا تزيله ، فالهم مازال موجودًا ، فالله جعل لك العقل لتواجه به

---

1 – سورة : آل عمران ، الآية : 32 .

2 – سورة : النور ، الآية : 56 .

3 – سورة : النساء ، الآية : 59 .

4 – أخرجه أحمد في مسنده (45 / 134) ، والطبراني في الكبير (7 / 103) عن أبي أمامة الباهلي .

5 – أخرجه أبو داود (4 / 88) ، وأحمد (47 / 279) ، والبيهقي في الشعب (7 / 180) عن حذيفة .

الأحداث ، لا لتهرب به من الأحداث ، فعندما يأتيك هَمٌّ لابد أن يكون عندك طاقة عقلية موفرة ، لتتخلص من هذه المشاكل ، لا لتذهب عقلك الذي تملكه ، فالخمر لا تذهب الحزن والهم .

ولكنني كرجل مؤمن سأذيب هذا الحزن في أن أكون بين يدي ربي ، وما دمت بين يدي ربي ، فأستطيع أن ألجأ وأستغيث ، وأيضًا : فإن الحق ﷻ هو الخالق ، والعبد مخلوق له ، إذن ، فهذا صانع ، وتلك صنعته ، أروني صنعة تعرض على صانعها كل يوم خمس مرات ثم تجد بها خللاً ! !

فأنت صنعة ربك ، فكونك تذهب إليه كل يوم خمس مرات ، وتكون في حضرته ، أتدري ماذا يفعل بك ؟! إلا أننا نلاحظ أنك عندما يكون بك هموم الدنيا ، ثم تذهب للقاء ربك ، فتخرج من هذا اللقاء وأنت في ارتياح ، ما الذي حدث لك ؟! الذي خلقك هو الذى يعلم مفاتيحك ، ويعلم ما هو المفتاح الذي يجعل عندك التوازن والرضا والاطمئنان ، ويجعلك إذا حدث لك من أحداث الحياة شيء ، برصيد من إيمانك بربك الذي لا تقدر عليه الأحداث ، فنحن عندما نذهب بألم عضوي إلى طبيب ليزيل هذا الألم العضوي ، فإنه يزيل هذا الألم بشيء مادي ؛ لأنه مادة أيضًا ، لكن الحق غيب ، فهو يزيل الأشياء بغيب أيضًا ، فكان ﷺ كلما حزبه أمر قام إلى الصلاة ؛ لأن الصلاة فيها ميزة لا توجد في أي شعيرة من الشعائر ، فهي ميزة تجعل مفتاح لقائك بربك في يدك ، وكما نعرف على عهدنا بالعظماء والحكام والملوك أن أحد الرعية من رعاياهم إذا أراد أن يلقاهم لابد أن يطلب مقابلة ، وبعد ذلك ينظر في ذلك الطلب أيوافق أو لا يوافق ، فإن وافق ، يقول له : عن أي شيء تتحدث ؟ فإن وافق حدد له الزمان والمكان والموضوع الذي يتحدث فيه ، هذا هو نظام لقائنا ، لكنك مع ربك الأعلى في غنى عن مثل هذه المقدمات كلها ، بإيمانك به ، وبإقبالك عليه ، أنت الذي تحدد الزمان والمكان وموضوع المقابلة .



إذن .. فالعبودية التي قدمتها بين يدي الله ﷻ إيمانًا به ، وخضوعًا له ، نقلت إليك سيادة هذه السيادة ، في أنك أنت الذي تحدد : أين تلقى الله ﷻ ، ومتى ، وبأى شيء تناجيه ، فبمجرد أن تقول : الله أكبر ، تكون في حضرة الله ﷻ ، وأنت أيضًا الذي تنهي هذه المقابلة ، أهذه سيادة أم عبودية ؟! إنها عبودية أعطتني سيادة ، ولذلك قال الشاعر :

ومما زادني شرفًا وتيهًا وكدت بأخمصي أطأ الثريا
دخولي تحت قولك يا عبادي وأن أرسلت أحمد لي نبيًّا

ولذلك عندما تؤمن بالحق ﷻ وتدخل في مقام العبودية الخالصة له ، يقول لك : المفتاح أصبح في يدك ، تريد أن تقابلني في أي وقت ، وفي أي زمان ومكان ، وتخاطبني في أي شيء ، وتظل طول عمرك معي ، لا أملُّك ، ولا أنهي المقابلة معك أبدًا حتى تكون أنت الذى تنهيها ، وتظل في أنس مع ربك ، ويأنس عباده في الأرض جميعًا به ، ولكن لا يشغله أنسه لعبد عن أنسه لعبد آخر ، يفيض عطاؤه وإقباله وأنسه على الكل ، فنعم السيد هو ، ونعم الرب هو ﷻ .

وفي ذلك يقول الحق ﷻ ، " **وإن تقدم إليَّ ذراعًا ، تقدمت إليه باعًا ، وإن أتاني يمشي ، أتيته هرولة** "[1].. فهل هذه عبودية أم سيادة ؟ إنها سيادة ، وليست عبودية .

وبعد ذلك نجد العجيب في الناس أنهم لا يعاملون الله ﷻ في جدية العبادة معه كما يتعاملون مع نفوسهم في هزل الحياة وفي لعبها ! ! فمثلاً : نحن نرى النشاط الرياضي ككرة القدم ، يسأل فيه الناس عن وقت المباراة ، وتجدهم ينتظرون وقت المباراة ويستعدون لحضورها ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ! ! ولماذا لم تنظم وقتك ، وتستعد لكى تحضر الصلاة كما استعددت للمباراة ؟! لماذا أخذتك الظروف عن الصلاة ، ولم تأخذك عن حضور المباراة ؟! تَجِدُّونَ مع اللعب ثم تلعبون مع الجدِّ .

---

1 - أخرجه البخاري (6856) ، ومسلم (4832) كلاهما من حديث أبي هريرة .

وأيضًا تجد أعرافًا وتقاليد ونصوصًا محترمة من الجميع ، فلماذا لا تحكمون المنهج الإلهي والدين القويم ؟! ولماذا ليس عندكم غيرة واحترام له كما هو عندكم لتلك القوانين ؟! لماذا هو أهون عندكم من قوانينكم التى وضعتموها لأنفسكم ولعبكم ؟! مع أن الذى وضع هذا المنهج وهذا الدين هو الله رب العالمين ﷻ ؟!!

وإذا نظرنا إلى الرياضة ، نجد أن الناس قد جعلوها غاية ، ولم يجعلوها وسيلة ، إن الرياضة ليست غاية في ذاتها ، بل هي وسيلة إلى أشياء ، وسيلة إلى التربية والتهذيب وتفريغ الطاقات ، كل هذه الألوان من الخُلُق ، فلا آخذ الوسيلة وأجعلها غاية ، فلو لم تكن هذه الوسيلة تخدم الغاية الأصيلة التي أنا مخلوق لها ، لا يصح أن توجد هذه أبدًا ، وإلا فبهذا تكون قد أضعت الفرض لأجل النفل ، ولا يمكن أن تتقرب إلى الله بنفل إلا بعد أن تؤدي له الفريضة ، فريضتك الأساسية أنك عبد لله ﷻ ، موجه من الله ﷻ ، في منهج من مناهج الحياة ، لتعمر الأرض ، وليسيطر فيها منهج الله ﷻ ، هذا هو الأساس ، كل ما يعينك على ذلك يكون وسيلة لتلك الغاية ، فلا صح من المرء أن يأخذ الوسيلة ليجعلها غاية ، وإلا انبتت الوسيلة عن الغاية ، وأصبح اللعب هو الأصل ، والجد هو المُهْمَل .

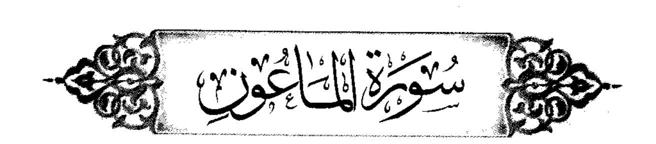
نسأل الله ﷻ أن يوفقنا في كل ما نأتي ، وفي كل ما ندع ، وأن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه .




تفسير جزء عم


سورة
الماعون





بسم الله الرحمن الرحيم ، أحمدك ربي كما علمتنا أن نحمد ، وأصلي وأسلم على خير خلقك سيدنا محمد ﷺ ، وبعد :

فمع **سورة الماعون** ، وتلك السورة كلها وحدة متماسكة ، ذات اتجاه واحد ، لتقرير حقيقة كلية من حقائق هذه العقيدة ، إن هذه السورة القصيرة ذات الآيات السبع تعالج حقيقة ضخمة تكاد تبدل المفهوم السائد للإيمان والكفر تبديلاً كاملاً ، فوق ما تطلع به على النفس من حقيقة باهرة لطبيعة هذه العقيدة ، وللخير الهائل العظيم المكنون فيها لهذه البشرية ، وللرحمة السابغة التي أرادها الله ﷻ للبشر وهو يبعث إليهم بهذه الرسالة الأخيرة .

إن هذا الدين ليس دين مظاهر وطقوس ، ولا تغني فيه مظاهر العبادات والشعائر ، ما لم تكن صادرة عن إخلاص لله ﷻ ، مؤدية بسبب هذا الإخلاص إلى آثار في القلب تدفع إلى العمل الصالح ، وتتمثل في سلوك تصلح به حياة الناس في هذه الأرض وترقى .

كذلك ليس هذا الدين أجزاء وتفاريق موزعة منفصلة ، يؤدي منها الإنسان ما يشاء ، ويدع منها ما يشاء ، إنما هو منهج متكامل ، تتعاون عباداته وشعائره ، وتكاليفه الفردية والاجتماعية ، حيث تنتهي كلها إلى غاية تعود كلها على البشر ، غاية تتطهر معها القلوب ، وتصلح الحياة ، ويتعاون الناس ويتكافلون في الخير والصلاح والنماء ، وتتمثل فيها رحمة الله السابغة بالعباد .

وقد يقول الإنسان بلسانه : إنه مسلم ومصدق بهذا الدين وقضاياه ، وقد يصلي ، وقد يؤدي

* مقدمة تفسير السورة مقتبس بتصرف من : " في ظلال القرآن " .

شعائر أخرى غير الصلاة ، ولكن حقيقة الإيمان وحقيقة التصديق بالدين تظل بعيدة عنه ، ويظل بعيدًا عنها ؛ لأن لهذه الحقيقة علامات تدل على وجودها وتحققها ، وما لم توجد هذه العلامات فلا إيمان ولا تصديق مهما قال اللسان ، ومهما تعبد الإنسان .

إن حقيقة الإيمان حين تستقر في القلب تتحرك من فورها لكي تحقق ذاتها في عمل صالح ، فإذا لم تتخذ هذه الحركة فهذا دليل على عدم وجودها أصلاً، وهذا ما تقرره هذه السورة نصًّا .

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴾ .. وكلمة : ﴿ أَرَأَيْتَ ﴾ من الممكن أن تؤخذ على حقيقتها ، أي : أأبصرت من يكذب بالدين ، وأبصرت من يدع اليتيم ؟ سواء كانت حادثة فردية بالنسبة **لأبي جهل** ، عندما ضرب اليتيم ، وكسر له يده ، أو حادثة فردية **لأبي سفيان** ، عندما نَهَرَ اليتيم ، وكان آنذاك مشركًا ، أو **العاص بن وائل** ، أو **عمر بن عائذ** ، هذه فردية يصح أن تكون ، ويكون الرسول ﷺ قد شاهد هذه المسألة .

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴾ .. أرأيت هنا استفهام ، والحق ﷻ حينما يتعرض لبعض الروايات ، كان من الممكن أن يلقيها خبرًا ، حدث كذا وكذا ، ولكن الحق حينما يخاطب الخلق ، يحاول أن يشارك المخاطب في العملية نفسها ، وذلك أسلوب شائع عندنا ، فحينما تلقي درسًا ، فمن الممكن أن تلقي الدرس إخباريًّا ، وتقول : حدث كذا وكذا ، ومن

الممكن أن تستثير انتباه الدارسين ، وتجعلهم يشاركوك في استنباط الحكم ، فتسألهم أسئلة ، هذه الأسئلة تمهد لأشياء ، بحيث يجيبون بأنفسهم عن هذا الحدث .

فكأن الحق ﷻ حينما يطرح قضية استفهامية وهو يريد بها الإخبار ، إنما يريد أن يأخذ المخاطَب بأسلوب القرآن في السورة ، أي : أنه ينبه مشاعره وأحاسيسه حتى يكون مشاركًا ، بحيث يستطيع أن يصل إلى الجواب ، قبل أن يقال الجواب ، فقال له : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴾ ، فكلمة ﴿ أَرَأَيْتَ ﴾ : إن كان يريد بها البصرية يصح ذلك ، وإن كان المراد بها أعَلِمت يصح أيضًا .

وقد تأتي بمعنى : أخبرني ، تقول : أرأيت ما حدث لفلان ؟ ما دمت شاهدت فأخبرني .

﴿ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴾ .. أردف الحق ﷻ قوله : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ .. بقوله : ﴿ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴾ ، فكأن جواب السؤال ليس عند البشر ؛ فعندما نسمع : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴾ قد نفهم من الأسلوب أن الذي يكذب بالدين هو الذي لم يؤمن بما جئت به ، لكن الحق يريد أن يلفتنا بقوله : ﴿ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴾ ، إلى أن هذا أمر قد يغيب عن البال ، أن الذي يكذب بالدين ، ليس من الضروري أن يكذب بأصل الدعوة ، بل قد يكون قد آمن بأصل الدعوة ، ولكنه لم يسِر في منهج حياته على مقتضى ما تتطلبه الدعوة ، فكأنه صدق بلسانه ، ولكن قلبه لم يصدق .

قد يصدق الإنسان بقلبه ، فيكون من السهل أن أعتقد ، ولكن ليس من السهل أن أحمل سلوكي على وفق ما أعتقد ، إذن ، فهنا عدة مشاكل ، فقد تؤمن بشيء ، وعندما تناقش فيه لا تستطيع أن تنقله ، ولكن إذا أردت أن تحمل نفسك على مقتضى ما يتطلبه ذلك الدين ، شق ذلك عليك ، فلا تستطيع أن تنصاع للسلوك وإن كنت مؤمنًا بالعقيدة ، ولذلك توجد قضايا كثيرة جدًا الناس يؤمنون بأنها حاصلة ، ولكن ملابسات عملهم تدل على أنهم ليسوا متيقنين لها ، وليسوا قادرين أن يحملوا أنفسهم على سلوك المعتقد .

فالحق ﷻ يقول : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴾ .. ويتولى الحق ﷻ الجواب ؛ لأن الجواب ليس عند البشر ؛ فالبشر يعتقدون أن الذي يكذب بالدين لا يؤمن به ، كلا ، بل قد يؤمن به ويعتقده ، ولكنه حين يحمل نفسه على السلوك الذي يشغله تبدو قوة إيمانه وضعفه وتشككه ، إن الذي يجعل الإنسان يذهل عن التكاليف كطاعة أو كمعصية ، سببها أنه لم ينقدح في ذهنه الجزاء ، ولو أن الثواب على الطاعة أمام عينيه ، وتيقن منه كأنه يراه ، أو جعل الجزاء على المعصية متيقنًا منه كأنه يراه ، ما صنع معصية قط ، ولا تحول عن طاعة قط ، إذن ، فالإنسان يذهل عن الطاعة أو عن المعصية ؛ لأنه يذهل عن الجزاء ، فلو استحضر الجزاء على الطاعة ، والجزاء على المعصية ، ما ترك طاعة أبدًا ، وما أقدم على معصية أبدًا ، وهذا هو معنى حديث رسول الله ﷺ حين لقي الحارث بن مالك الأنصاري فقال له : **" كيف أصبحت يا حارث ؟ "** قال : أصبحت مؤمنًا حقًّا ، فقال : **" انظر ما تقول ؟ فإن لكل شيء حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ "** فقال : قد عزفت نفسي عن الدنيا ، وأسهرت لذلك ليلي ، وأظمأت نهاري ، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزًا ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها . فقال : **" يا حارث .. عرفت فالزم "**[1].. هذه هي حقيقة الإيمان ، وليست قضايا إخبارية ، فإذا ما امتحنت أمام التطبيق تنحل من الإنسان .

يريد الله بقوله : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴾ .. أن نفهم أن الذي يكذب بالدين ، لا يصدق الرسول ﷺ ، ولا يستطيع أن يحمل نفسه علي منهج الدين ، فيؤمن بالقضايا العقدية ، وعندما يقال له : طبق هذا المنهج لا يستطيع ، ﴿ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴾ .. أي : إذا أردت أن تعرف حقيقة الذي يكذب بالدين ، فهو الذي صدقك ، وآمن بك ، وبعد

---

1 - أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه عن الحارث بن مالك الأنصاري (7 / 226) ، وعبد بن حميد في مسنده (2 / 28) ، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (6 / 153) .

ذلك لا يستطيع أن يحمل نفسه على سلوك الدين الذي تتطلبه تلك العقيدة .. ﴿ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴾ ، فهذا يكذب بالدين ، كأنه صدق العقيدة أولاً ، فلما جاء للتطبيق في هذا المظهر الضعيف في الكون دعَّ اليتيم ، فكلمة : ﴿ يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴾ .. أعطت صورة بشعة ، يدعُّه أي : يدفعه بعنف ، وليس فقط لم يعطه ، فالرد ليس بالكلمة ، ولكن الرد بالفعل المؤلم ، يدعُّه ، أي : يجذبه من رقبته بعنف ، ﴿ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴾ ، واختار الحق ﷻ صورة من صور الضعف في الجهاد الكوني ؛ لأن الضعف قد يكون عن عدم طاقة على الفعل ، أوعن عدم قدرة الفعل على التخطيط للطاقة ، أي : ليس له عقل يخطط به للطاقة ، فالرجل المسن الذي لا يقدر على فعل شيء ، فهذا لا يمتلك الطاقة التي بها يفعل هذا الشيء ، ولكنه يمتلك العقل ، بينما اليتيم ليس عنده الطاقة التي يفعل بها ، ولا عنده العقل الذي يفكر ، ولذلك (اليتيم) : هو من مات أبوه ، ولم يبلغ مبلغ الرجال ؛ لأن الذي يبلغ مبلغ الرجال ، انحلت عنه صفة اليتم ، إذن ، فاليتيم ضعيف ، لا طاقة عنده ، ولا عقل له يستطيع باحتياله أن يعوض هذه الطاقة ، ﴿ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴾ ؛ لأنه فاقد القدرة والعقل الذي يخطط ؛ لأن التخطيط من الممكن أن يقوم مقام القدرة ، فاليتيم لا يمتلك القوة ، ولا يمتلك العقل ، وهو أيضًا مخلوق لله ﷻ ، هو الذي خلقه ، وبخلق الله للعبد ، وبمخلوقية العبد لله ، فلابد أن يعيش ، سواء كان مؤمنًا أو كافرًا ؛ ولذلك فالأسباب المادية تستجلب للمؤمن وللكافر ، والصغير والكبير ، فما دام بخالقية الله له ، وبمخلوقيته لله ، فلابد أن يضمن له العيش ؛ ولذلك الحق ﷻ يعتبر أنك عندما تعطي إنسانًا فقيرًا كأنك تقرضه هو ﷻ ، لماذا ؟ لأني بخالقيتي له ، وبمخلوقيته لي ، فأنا أوجب على نفسي أن يعيش ، ولكني أريد أن أرى أثر تعاطف صنعتي على صنعتي ، أريد أن أرى تعاطف الصنعة القوية تعين العاجز ، ولذلك يقول الحق ﷻ : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾[1] ، فعندما تعطي الفقير فكأنك تقرض الخالق ﷻ .

---

1 – سورة : البقرة ، الآية : 245 .



فإذا قسا المجتمع ، وأصبح شديد القسوة ، فإن الحق لا يتدخل بالأسباب من البشر ، ولكن يتدخل بالأسباب الغائبة ، التي هي غيب ، فيعرض لنا الحق ﷻ ويقول : إن الإنسان تمر عليه فترة من الفترات ينشغل بنفسه ، ونفسه عنده أعز شيء ، وبعد ذلك عندما ينجب أولادًا ، ينتقل هذا الانشغال إلى الأولاد ، فيتعب من أجل راحتهم ، وأحيانًا ينشغل الإنسان برزق أولاده ، ويخاف أن يؤخذ منهم قبل أن ينضجوا ، فيقول الحق له : المسألة معادلة ، إن كنت صنعت في الضعاف من الصغار الذين لغيرك ، فاطمئن على أن الله سيخلق بسبب وبغير سبب الذين يعولون ضعافك ، فإن كنت تريد تأمينًا لحياتهم فأمن في يد الله ، وانظر إلى الضعاف الذين أمامك ، والذين ليس لهم عائل ، وتكفل بهم ، فإذا فعلت ذلك ، فثق تمام الثقة أن الحق ﷻ سيرزق أولادك ، ويسخر لهم من يعولهم ؛ لأنك أمنت في يد الله ، وما دمت أمنت في يد الله ، فالله خير أمين ، سيهيئ لك الفرصة ، وإن لم تكن في الحسبان .

وقد عرض القرآن الكريم قضية اليتيم في **سورة الكهف** عرضًا جميلاً ، في قصة **الخضر** وموسى **عليهما السلام** ، عندما أتيا أهل قرية استطعما أهلها ، فأبوا أن يطعموهما ، وهذا في منتهى الخسة واللؤم ، فوجد العبد الصالح جدارًا يريد أن ينقض فأقامه وأصلح من شأنه ، فاعترض **موسى** عليه السلام على ذلك وقال له : ﴿ لَوْ شِئْتَ لاَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾[1] ؛ لأنهم لم يتكرموا معنا حين طلبنا منهم طعامًا فرفضوا ، فكيف تقيم لهم الجدار ولا تأخذ عليه أجرًا ، فكان أقل شيء تفعله مع هؤلاء أن تأخذ أجرًا على عملك ؛ لأنهم أهل لؤم ، وليسوا أهل مجاملة .. كان هذا منطق **موسى** عليه السلام ، وهذا كلام صحيح ، ولكن منطق العبد الصالح كان غير ذلك ، فقد أخبره بأن تحت هذا الجدار كنزًا ، وهو ليتيمين في المدينة ، فإذا هدم الجدار نُهب الكنز ؛ لأن أهل هذه القرية لئام ، فأردت أن أكافئهم على لؤمهم ، فأمنع عنهم فرصة أخذ الكنز ، فعدم أخذي أجرًا على هذا العمل ، هو الرد الطبيعي على لؤمهم ، فأنا أقمت الجدار حتى يبلغ اليتامى سن الرشد ، فعندما أراد أن يعلل له سبب عدم أخذه أجرًا مقابل

1 – سورة : الكهف ، الآية : 77 .

أقامته للجدار قال : ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلاَمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا ﴾ .. هذه علة ، والعلة الثانية : ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾[1] .. فكأن الله ﷻ قد قيض مجيئي ومجيئك ، واستطعامنا لأهل القرية وألا يطعمونا ، إذن ، فللبخل وللؤم رسالة يؤديها في الكون ؛ لأنهم لو أطعمونا ما أقمنا الجدار ، وما فعلنا بهم ذلك : ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ ، إذن ، فتعليل الحق بقوله : ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾ ، يدل على أن من صلاحه ، أنه رعى مثل هؤلاء ، وما دام قد رعى لله عياله في حالة الضعف ، فلزامًا على الله أن يرعى له أولاده إذا كانوا في حاجة ، ويهيئ لهم أسبابًا بعيدة عن بيئتهم ، فيأتي إليهم من يحرس لهم كنزهم من حيث لا يدرون .

إذن ، فالقضية التي يلفت لها الحق ﷻ بقوله : ﴿ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴾ ، قد نستقبلها استقبالاً هينًا ، ولكنها في الحقيقة قضية خطيرة ؛ لأن أهم شيء في الحياة أن يحفظ الإنسان قوام حياته بالطعام ، هذا أول شيء مهم في الحياة ، أما ترف الحياة فشيء آخر ، فاليتيم فيه مظاهر الضعف كلها ، فلا طاقة تعمل ، ولا عقل يخطط تخطيطًا يقوم مقام الضعف ، إذن ، فاليتيم لابد أن يكون له وضع ، فإذا رأيت إنسانًا يفعل باليتيم هكذا ، فاعلم أنه لا خير فيه ، وكأنه فهم الدين على أنه مجرد قضايا كلامية ، أو قضايا عقدية ، فعندما أردنا أن نخرج الدين عن هذا القدر ، لم تستطع نفسه فعل ذلك ، وفي غير اليتيم يطلب أن يكون كذلك ، ولكن غير اليتيم قد يعطيه اللئيم ؛ لأنه قد يكون له كلام يلسن به ، وقد يكون له من يرد حقه ، لكن اليتيم الذي لا حول له ولا قوة ، ليس له قول مسموع ، وليس له أحد يرد اللئيم عنه .

﴿ وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ .. وبعد ذلك نقلنا نقلة ثانية ، فقال : ليس معنى ذلك أن الخطاب في الذي يكذب بالدين ، هو الذي يدع اليتيم فقط ؛ لأنه حينما تدع اليتيم ، كنت تمتلك الذي تعطيه له ولم تعطه ، وإذا لم يكن عندك ، فلليتيم أيضًا عليك حق : أن

1 - سورة : الكهف ، الآية : 82 .

تحث ، وتحض من يعطيه .

إذن .. فعدم وجود شيء عندك لا يعفيك من المسئولية ، كيف ذلك ؟! استعمل لسانك ، واذهب إلى الغني وحثه وأقنعه على أن يفعل ، إذن ، فهذه أيضًا قضية أخرى ، أن يقول الفرد : ليس عندي شيء ، ولذلك لا يلزمني أن أعطي ، فنقول له : كلا ، أنت حقًا لا تملك المال لتعطيه ، ولكنك تستطيع بقوة حثِّك ، وبلين حضِّك أن تنصح الواجد بأن يعطي الفاقد ، فعدم وجود المال لا يعفيني من المسؤلية .

وكثير من الأشياء لا يعذر الإنسان فيها بكونه لا يملك ، بل لابد من محاولات أخرى ، هذه المحاولات قد تكون موضوعية ، وقد تكون عاطفية ، فمثلاً يقول الحق ﷻ في الجهاد : ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ ﴾ ، ولكن متى لا يكون عليهم حرج في ترك الجهاد ؟ .. ﴿ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ﴾[1] ، وهذه خطوة ثانية ، فليس موقفهم فقط أنهم لا يقدرون ، بل يقدرون أن يتسلطوا على قادة ، ويوسوسوا في آذانهم ، وإن قال الفرد : لا أستطيع ، تأتي العملية العاطفية التي يستطيع كل إنسان أن يفعلها : ﴿ وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ ، كان يكفي هذا لعذرهم ، ذهبوا للرسول ﷺ وقالوا له : نريد أن نجاهد ، أحضر لنا ما نركبه .. فقال لهم : ليس عندي ، فماذا صنعوا ؟ ﴿ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴾[2]، عملية عاطفية ، إن لم تقدر على العمليات الموضوعية كلها ، لا أقل من أن تقدر على وجدانك ، فتتألم وتبكي ؛ لأنك لست قادرًا ، إذن ، فوجه الإعذار في قضايا الدين ليس للموجد فقط ، ولكن المرتبة الثانية أن تحث الواجد ، والمرتبة الثالثة أن تتحسر ، وتتألم ، وتبكي ؛ لأنك غير قادر .

إذن .. فالمسألة اقتصادية ، واجتماعية ، ونفسية .

---

1 - سورة : التوبة ، الآية : 91 .

2 - سورة : التوبة ، الآية : 92 .

﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ .. وبعد ذلك ينقلنا نقلة ثانية ، فقال : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ .. أولئك المصلون الذين هم عن صلاتهم ساهون ، إذن ، فالمصلون : هم الذين دخلوا في زمرة المتصلين بالصلاة ، وهم أهل القبلة ، آمنوا بالله ، وبرسوله ، وبالعبادات ، وبالشعائر ، إلا أنهم أصبحوا مصلين بهذا ؛ لأن هناك فرقًا بين مصلٍّ بالقوة ، ومصلٍّ بالفعل ، المصلي بالقوة : هو الذي دان بدين من يأمر بالصلاة ، والمصلي بالفعل هو الذي يبرز هذه المسألة إبرازًا تطبيقيًا .. ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴾ .. لماذا ؟ ﴿ هُمْ عَنْ صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ ، فإذا كانوا مصلين ، فكيف يسهون عن الصلاة ؟! هنا يوجد أسلوبان : أحدهما إثبات ، والآخر نفي ، لذلك يقف العقل هنا قليلاً ، كيف وصفوا بأنهم مصلون ، وكيف نقول : ﴿ عَنْ صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ ؟! إذن ، فهنا يتدخل العقل في فصل شيئين ، وهما : الشكل ، والموضوع ، فالعبادة لها شكل تقوم عليه ، ولها موضوع تحققه ، فقد يؤدي الإنسان الشكل ، ولا يؤدِّي الموضوع ؛ ولذلك يشرح لنا الرسول ﷺ هذا عندما يرى أحدهم يصلي ، فيقول له : " **قم فصلِّ فإنك لم تصلِّ** "[1].. إذن فقد أدى الشكل ، والشكل يسقط الحد عنه عندنا ، فنحن لا نستطيع أن نقول له : لماذا لا تصلي .. إنما لم يؤدِّ الموضوع ، الذي هو القرب من الله ﷻ ، ومادام في حضرة الله ﷻ ، فيجب إذًا أن لا يشغل باله بغيره في هذا الوقت الذي خصصه لذلك ؛ لأننا لا نأخذ منك إلا ساعة في الخمس أوقات ، وتاركين لك ثلاثًا وعشرين ساعة مع الكون كله ، فإذا كان لك ثلاث وعشرون ساعة مع الكون ، وساعة مع المكوِّن ، فهل تريد أن تُدْخل الكون أيضًا مع المكوِّن في ساعته ؟! إن هذا لا يصح .

إذن ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ .. يعني : الذين يذهبون إلى الصلاة ، ويؤدون شكل الصلاة ، ولكن لايؤدون مضمون الصلاة ، ويفتقدون شحنتهم النورانية

---

1 - أخرجه أحمد في مسنده (38 / 480) ، والنسائي (4 / 191) عن رفاعة بن رافع .

التي تجعلهم يستعينون بها على وسائل حياتهم ..

ونلاحظ أنه لم يقل : في صلاتهم ، وإنما قال : ﴿ عَنْ صَلَاتِهِمْ ﴾ .. لأن السهو في الصلاة يتأتى ، ولذلك قال بعضهم عندما سمع ذلك : الحمد لله الذي قال : (عن) ، ولم يقل : (في) ؛ لأنه لو قال : (في) لهلكنا جميعًا ؛ لأنه من غير الممكن أبدًا أن يصلي أحدهم ، وخصوصًا المرتاضين حديثًا على الصلاة ، ولا يسهو ، ولكن من الممكن عدم حدوث ذلك مع الذين أخذت الصلاة من نفوسهم ، وعقدت عليها محبتهم ، وعرفوا قرة العين فيها ، وعرفوا المشاهدة ، عندما يقف الفرد هكذا ، تتراءى له الكعبة ، وفيض من فيوضات الله تتجلى عليه ، يضن بذلك أن يضيع في غير صلته بالله ﷻ ، وهؤلاء هم المرتاضون على الصلاة ، الذين أحبوها ، ولكن الذين يرتاضون الصلاة حديثًا ، يكون للشيطان في صلاتهم مداخل .

ومن مداخل الشيطان أن الشيطان صادق مع نفسه ، كيف ذلك ؟! فعندما كان يجادل مع الحق ﷻ بعد رفضه السجود لآدم ، طرده الله حينذاك من الجنة ، وقال له : ﴿ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [1] ، فقال له إبليس : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [2] ، انظر القسم الذى أقسم به ، قسم عالم ، قال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ، يعني : سأدخل عليهم بوصف عزتك عنهم ؛ لأن عزتك عنهم هي التي جعلتهم إما مطيع لك ، وإما عازف عن الطاعة ، ولو أردتهم مهديين ، ما استطعت أن آخذهم منك ، إنما عزتك عن خلقك هي السبيل لي إليهم ، وإلا لو أنك أحببتهم ما كنت لأقدر على ذلك ، إذن ، عزتك عن خلقك هي التي ستجعلني أنفذ إليهم ، إذن ، قسم عالِم ، عالمٌ بصفات الله ، عالم بمتعلق الصفات : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ، لم يقل : بقدرتك ، ولم يقل : برحمتك ، إنما أتى بالصفة التي تتيح الحرية للعباد ، مَن أراد الإيمان آمن ، ومن لم يرد فهو وما يريد .

---

1 – سورة : ص ، الآية : 77 ، 78 .

2 – سورة : ص ، الآية : 82 .

كما في قول الحق ﷻ في الحديث القدسي : " **يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا ، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته ؛ فاستهدوني أهدكم ، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته ؛ فاستطعموني أطعمكم ، يا عبادي كلكم عارٍ إلا من كسوته ؛ فاستكسوني أكسكم ، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعًا ؛ فاستغفروني أغفر لكم ، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكى شيئًا ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر ، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيرًا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه** "[1].

إذن فعزة الله ﷻ عن خلقه هي التي ينفذ منها الشيطان ، بدليل قوله : ﴿ **إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ** ﴾[2].. أي الذين تريدهم أنت ، فلا أستطيع الاقتراب منهم ، إذن ، فالمسألة ليست معاندة إبليس لقانون الله ﷻ ، ولكن المسألة معاندة إبليس لعزائم البشر ، أما الله فلا يستطيع أحد أن يتحداه أبدًا ؛ لأنه لو أراد شيئًا سيحدث سواء رضيت أم لم ترضَ .

وانظر أيضًا إلى التخطيط في المعصية : ﴿ **لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ** ﴾[3] ، يعني : آتي على الصراط المستقيم ، وأقعد عليه للإغواء ، ولا آتي على الطريق المعوج ؛ لأن الذي في الطريق المعوج ليس في حاجة لي ، فهو كافر عاصٍ ، إذن فمهمتي مع الطائعين ، أقعد عند باب المسجد كثيرًا ، ولا أكثر على باب الخمارة ؛ لأن الذي يذهب إلى الخمارة ليس في حاجة

---

1 - أخرجه مسلم (6737) عن أبي ذر .

2 - سورة : ص ، الآية : 83 .

3 - سورة : الأعراف ، الآية : 16 .

لي ، وأنا شبه مطمئن عليه ، ولكن عملي كله مع الطائعين : ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ ، فيأتيك إبليس في وقت الصلاة ، ويقوم بحل مشاكلك كلها ، المعادلة التي لا أعرف حلها يأتي بحلها ، والتائهة يأتي بها لك ، ولولا أنه علم أن ذلك موقفٌ هو لب الصراط المستقيم ، ما جاء للإنسان ليفسد عليه ذلك الوقت ، يريد أن يفسد عليه تلك الخلوة .

ولذلك جاء إنسان لأبى حنيفة رحمه الله ، فقال له : يا إمام ، كان عندي مال ، وهذا المال دفنته في أرض ، و ضللت المكان إليه ، فضحك الإمام أبو حنيفة ، وقال : يا بني ، ليس في ذلك علم ، فمن أين لي بعلم يعرفني مكان المال ؟ ولكني سأحتال لك : اذهب الليلة وبعد أن تصلي العشاء ، توضأ وضوءًا جديدًا ، وانذر أنك تقف هذه الليلة بين يدي ربك مصليًا ، لعل الله ﷻ أن يهديك لمكان المال .. فذهب الرجل ، وعند الفجر جاء لأبي حنيفة ، وقال : يا إمام ، لقد وجدت المال ، قال له : كيف ؟! قال : لقد وقفت بين يدي ربي كما قلت لي ، وأنا أصلي إذا بي أتذكر مكان المال .. فضحك أبو حنيفة ، وقال : والله لقد علمت أن الشيطان لا يدعك تتم ليلتك مع ربك ، فهلا أتممتها شكرًا لله ﷻ ؟ قال : أفعل إن شاء الله .

هنا وقفة .. فإن إبليس قال في منهجه في التخطيط : ﴿ ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴾ .. يعني : من الأمام ، ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ﴾[1] .. فتجد أنه قد أغفل جهتين ، فلم يقترب ناحية مقام العلو ، ومقام السفل ، وكأن هاتين الجهتين لا يأتي منهما الشيطان إلى الذي يستشعر دائمًا عز الربوبية الأعلى ، وذل العبودية الأدنى ؛ لذلك ابتعد عن هذين الطريقين ، والذي يظل بين الاثنين ، موصول بين ذل عبودية ، وعز ربوبية ، لا يمكن أن يأتيه الشيطان .

إذن ، فقول الحق ﷻ : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ .. تنبه

---

1 - سورة : الأعراف ، الآية : 17 .

الإنســان إلى أن لحظات الصلاة هي لحظات القــرب ، لحظات تجلي الحق على الخلق ؛ فيستغلها الإنسان ، وينتفع بها ، ولا يشرك شيئًا آخر معها ؛ لأن هذا يعتبر من قبيل اللغو ، ولذلك قــال هناك : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾[1] ، ثم قال : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾[2] .. فكل فكر في غير الله وقت الصلاة يعتبر لغوًا في أمور دنياك .

﴿ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴾ .. فكأن لهم شــكل الصلاة ، إنما موضوع الصلاة فليس موجودًا عندهم ، فكأنها مراءاة من أجل أن يدخلوا في الجماعة المســلمة ، ومن أجل أن يتمتعوا بالحقــوق الإســلامية في المجتمع المسـلم ، إنما في حقيقــة الأمر هو مراءٍ ؛ لأنه مادام لم يؤدِّ موضوع الصلاة فهو يؤدي شكلها فقط ، وبالتالي فهو يرائي المجتمع .

﴿ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴾ .. أي : الذين يفعلون فعل المرائي الذي يحـب أن يـراه النـاس في وضع من الأوضاع .

﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ .. وهنا قام بـردِّها حـيث قـال هناك : ﴿ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴾ ، وهنا قال : ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ ، فكأن التجربـة الحقيقـية للمنهج الديني هو في المسـألة المادية ، وهذه المسـألة المادية إن هانت في نظرك أمام مطلوب الله منك ، فاعلم حـقًّا أنك على المنهج السـليم ، وإن تعبـت نفسـك عند تعرضك لهذه المسـألة المادية ، فاعلم أنك لسـت على المنهج السليم ، المسألة المادية هي المقياس الحقيقي الذي تظهر به أخلاق الناس ، ويظهر بـه دينهم ، فيقول هناك : ﴿ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴾ ، ويقـول هنا : ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ ، في الأولى يعطي اليتيم ضروريات حياة ، أي : يخرج شيئًا من ماله ، ويعطيه لليتيم لكي يعيش ، إذن فأنت تتبرع ، أو تتطوع بــأصل الشــيء ليملكه اليتيم ، إنما في الثانية : ﴿ يَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ ، فأنت تتطوع بـأثر نفع الشـيء ، والشـيء سـيرجع لك مرة أخرى ، كأن تعير

1 – سورة : المؤمنون ، الآية : 1 : 3 .

2 – سورة : المؤمنون ، الآية : 9 .

الماعون ، أو طست ، أو أي شيء من الأشياء التي تستعار في البيوت .

﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ .. حتى الشيء الذي سيتجاوز أثر نفعه إلى الغير ، وحقيقة ملكيته مازالت له ؛ لأن الماعون سيعار ، ثم يرجع لصاحبه مرة أخرى .

إذا نظرت إلى هذه السورة ، وجدتها تتضمن أصولاً اقتصادية ، وبها يقوم نظام الكون الدقيق ، وتتضمن أصلاً وجدانيًا ، وهو استشفافك من حضرتك في الصلاة ، وقربك من الله ﷻ ، وإذا اعتدل هذان الأمران اعتدل المجتمع بأكمله ، ويصير المنهج سليمًا ، والرعية الإسلامية تصبح رعية متكاملة متكافلة ، رعية مستشعرة عبوديتها جميعًا لإله واحد ، إذا نظرت للمقارنة نجد أنه قال هناك : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾[1] .

فيجب أن نفهم أن إطعامنا من جوع هو لله ، وأمننا من خوف هو لله ، فما دمت أخذت ما في يد الله ، فلا تضن على من دونك بذلك ، ولذلك جاء : ﴿ أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ ﴾[2] ، فإذا جاءك يتيم فلابد أن تعطيه ، وإذا طُلِب منك ماعون فلابد أن تُعيره ، فيعطينا الحق صفات شح وبخل في الذي يدعُّ اليتيم ، وهو شحٌّ وبخل على أقصى صورة ، وليس على صورة مهذبة أو مقبولة ، ثم يعطينا نفس الصفات في الذين يمنعون الماعون : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ .

نسأل الله ﷻ أن يتولانا ويرعانا ، وأن يباعد بيننا وبين هذه الصفات ، حتى نكون أهلاً لرحمته وأهلاً لمحبته وأهلاً لرضاه .

إنه ولي ذلك والقادر عليه .

---

1 – سورة : قريش ، الآية : 3 ، 4 .

2 – سورة : قريش ، الآية : 3 .

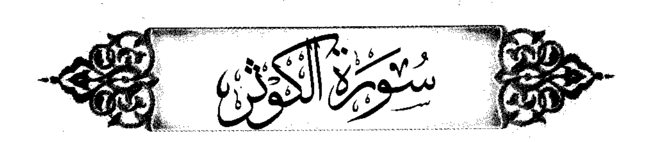






سورة الكوثر





بسم الله الرحمن الرحيم، أحمدك ربي كما علمتنا أن نحمد، وأصلي وأسلم على خير خلقك سيدنا محمد ﷺ، وبعد :

في هذه السورة يعرض الحق ﷻ المتقابلات ، فالبخل الذى ورد من الأصناف السالفة الذكر في **سورة الماعون** سيقابله الإعطاء ، فيستهل السورة بـ ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ .. أعطيناك الكوثر والكثير ، وبعد ذلك يذكر مقابل صفة المراءاة فيقول : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ ، أي : لا تصلِّ للناس ؛ لأنك لو صليت للناس فإنك ترائيهم ، وصلِّ لأنك تعلم : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴾ [1] .. وحين يأمر رسوله ﷺ بالصلاة فإنه يقصد بذلك الصلاة الحقيقية المتقنة ، وقوله : ﴿ فَصَلِّ ﴾ .. يقابل قوله : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴾ ، و : ﴿ لِرَبِّكَ ﴾ ، يقابل : ﴿ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴾ ، ثم : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ .. والنحر بذلٌ ، وهو بذل بأصل الشيء ، وليس بنفع الشيء ، والبذل بالأصل بذل بأقصى أنواع البذل ، وهو يقابل : ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ [2].

إذن .. فارتباط **سورة الكوثر** بالسورة التي سبقتها يسمى ارتباط التقابل ، ومعنى ارتباط التقابل : أن **سورة الماعون** تعرضت للتكذيب بالدين في قوله ﷻ : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴾ ، وتعرضت للسهو عن الصلاة في قوله ﷻ : ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ .. فلا يؤدونها مع اتسامهم بوسم الإسلام ، ومع ذلك لا يؤدون

---

1 – سورة : الماعون، الآية : 4 : 6 .

2 – سورة : الماعون، الآية : 7 .

عماد الإسلام ، أو أنهم يقومون بشكل الصلاة ، ولا يلتفتون إلى خشوع موضوعها .. ﴿ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴾ ، يفعلون الأشياء مراءاة للناس ، والمراءاة : مفاعلة ، فأنت تحب أن تفعل الفعل ليراك الناس ، وحين يراك الناس وأنت تفعل الفعل ، فإنك تراه لابد محمودًا ، فلو كان غير محمود لاستترت به ، فهو يرائيك بالفعل ، وأنت أيضًا ترائيه بالثناء ، وتعرضت أيضًا للبخل في قوله ﷻ : ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ .. وهي الأدوات التي يستعان بها على الحياة مما لا يملكه الناس البسطاء ، فالتقابل في **سورة الكوثر** ، جاء ليقابل البخل بالعطاء بقوله : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ ، وليقابل المراءاة بالإخلاص بقوله : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ ، أي : صلِّ لربك ، لا تصلِّ للناس ، فكأن الملحوظ في إقبالك على العبادة ، أن يكون التوجه بها إلى الله مباشرة ، وبعد ذلك قال الحق ﷻ : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ .. والنحر سمة من سمات البذل والسماح في الشيء الذي تتسامى ملكيته عند النفس ، ومعنى تسامي الملكية عند النفس : أن الإنسان قد يملك ألوانًا من الجمادات يحب أن يغذي بها النبات لينمو ، والنبات يملكه يحب أن يغذي به الحيوان لينمو ويتكاثر ، فالحيوان مظهريته أقصى ما يمكن من الانتفاع بالملكية ، فلم يرد الحق ﷻ منه أن يبذل مالاً أو نباتًا ، وإنما قال : ﴿ وَانْحَرْ ﴾ .. والنحر بأسمى الأشياء التي أنعم الله بها على الإنسان مما يلي الإنسان في الرتبة ؛ حيث إن الرتب الوجودية تتمثل في الجماد ، ثم يتميز بالنمو ، فيوجد النبات ، ثم يتميز بالحس والحركة ، فيوجد الحيوان ، ثم يتميز بالفكر ، فيوجد الإنسان .

هذا التقابل من الحق ﷻ يعطينا أيضًا أن الحق يريد أن يرد مقاييس الأرض إلى مقاييس السماء ، ومعايير الخلق إلى معيار الحق ؛ لأن الخلق لهم في أحكامهم معايير ومقاييس ، والحق بمنهجه لنا يريدنا أن نرتفع بمنهجنا إلى منهجه ؛ لأن منهجنا في الحياة إنما يستنبط على وفق قدرتنا في ذكاء الاستنباط ، وعلى قدرتنا في الإحاطة بعلم الأشياء ، ويختلف باختلاف أهوائنا فيما نقنن من قيم ومقاييس ومعايير ، فيريد الحق ﷻ أن يخلصنا من مقاييسنا ومعاييرنا ، إلى مقاييسه هو ومعاييره ﷻ .

فمثلاً الذين يعرفون تاريخ الجزيرة العربية يعرفون أن أهلها كانوا يعتزون دائمًا بالبنين وبالتكاثر في الذرية ، ويرون أن وجود الذرية وصل لحياة الإنسان ، وأن ذكر الإنسان لا يمكن أن يتحقق وجوده بعد موته ؛ لأن الموت أمر مقطوع به ، فهم يريدون أن يصلوا حياتهم بذرياتهم ؛ ولذلك شاع على ألسنتهم : من لا ولد له لا ذِكْرَ له ، تلك هي معايير الأرض في أن الولد هو الذي يحفظ ذِكْرَ أبيه ، ويحمل اسمه ، وهذا هو سر العرب في الاحتفاظ بالأنساب ، فالحي منهم يريد أن يفتخر بمجد أسلافه الماضيين ، والميت منهم يريد أن يبقى ذكره بواسطة أبنائه ، ولكن الحق ﷻ يريد أن يردنا عن هذه المعايير ، فمعايير الذكر الحقيقي ليست فيما نعرفه نحن من وجود البنين ؛ ولذلك لما مات ذكور رسول الله ﷺ فرح أولئك الذين كفروا به ؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن **محمدًا** ﷺ يريد ملكًا موروثًا ، وأن العقب الذي يجيء بعده من الذكور سيحمل ذلك الملك والجاه والنعيم ، فلما مات أبناؤه الذكور فرحوا ، وقالوا : نتحمل الأمر في عمره ، فإذا ما مات فلا يوجد له ذكر بعد ذلك ، فيصبح أبتر ، أي : مقطوع الذكر ، لا يُذكر على لسان أحد ، ولا تلتفت إليه الدنيا التي تجيء بعده .. هذه هي معايير الأرض ومقاييسها ، ثم لما ذهب إلى المدينة ، رُزق من مارية **بإبراهيم** ، ثم مات **إبراهيم** ، فتعالم خصومه في مكة بموت **إبراهيم** ، فقالوا مقولتهم تلك مرة أخرى : أصبح **محمد** أبتر .. فيريد الحق ﷻ أن يرد هذه المعايير الجاهلية ويقول لهم : إن نسب الرُسُل لا يكون في أبناء أصلابهم ، ولا يكون في أبناء دمائهم ، إنما نسبهم في أمتهم ، وفي الذين يتبعونهم ، ذلك هو النسب المعترف به عند الله ﷻ ، فإذا كان القياس هو ذلك فسيبقى **محمد** ﷺ ، الذي تقولون أنه قد صار أبتر لا ذرية له ، سيبقى موصول الذرية ، فيما لا يمكن لبشر أن يوجد من عدد الذرية مثله ؛ لأنه سيكون موصولاً في كل أتباعه ، وما دام موصولاً في كل أتباعه ، وكل واحد تابع له ، سينسب لاسمه ، ويدعو بدعوته ، ويرد الأحكام إلى ما قال وهو في قبره ﷺ .

ولذلك أعجبتني مقولة أحد المستشرقين غلبه الحق فقال : إني لأعجب لرجل مثل **محمد** ، لا يزال يحكم ملايين الناس وهو ميت في قبره .



إذن .. فهذا هو الذكر ، تلك هي رفعة الشأن ، هذا هو الوصل الذي لا ينقطع ، ولكن انظروا إليكم أنتم أيها المكذبون لرسول الله ﷺ ، كنتم تعتزون بأبنائكم ، وبعد ذلك أسلم أبناؤكم فنسوكم ، ولم يُذكر واحد منكم أبدًا مع ابنه ، إذن فأبناؤكم الذين هم من أصلابكم ، أخذهم رسول الله ﷺ لنفسه ، فها هو **الوليد** ، أسلم ابنه ، وكان إلى جانب رسول الله ﷺ في **غزوة بدر** ، **والوليد** في الجانب الآخر من خصوم رسول الله ﷺ ، ولم ينتظر حتى يموت **الوليد** ، وإنما كان ذلك في حياته ، وها هو ذا **العاص بن وائل** ، يسلم ابنه **عمرو** ، وها هو ذا **أبو جهل** ، يسلم ابنه **عكرمة** ، وغيرهم الكثير .

إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ .. والمعطي هنا هو الله ﷻ ، والمعطى له هو الرسول ﷺ ، والشيء الذي أعطيَه هو الكوثر ، عندنا معطٍ هو الله ﷻ ، ومعطى له هو الرسول ﷺ ، والشيء الذي أعطيه هو الكوثر ، وكلمة : (**الكوثر**) تستعمل في اللغة في وصف نسب الأشياء قلة وكثرة ، يقال : هذا أقل ، وهذا قليل ، وهذا كثير ، وهذا أكثر ، وهذا كوثر ، إذن ، فكلمة : (**كوثر**) هي أوسع الكلمات دلالة على معنى الكثرة ، فكلمة أكثر نلاحظ فيها أنه كثير بالنسبة لنوعه ، كمن يعطي شيئًا من المال ، فالذي يعطى كثيرًا تقول : هذا أعطى مالاً كثيرًا ، فعندما يزيد نقول : أعطى أكثر .

ولكن عندما يعطى مالاً كثيرًا ، وبعد ذلك يعطى صحة ، وسعادة كثيرة ، وطعامًا ، ونباتًا ، وحيوانًا كثيرًا ، وكذا ... وكذا ... فتعدد الأنواع في الكثرة يعني : أكثر ، ولكن كوثر تتأتى

بـكثرة في أنواع متعددة ، فإذا قـال الله ﷻ : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ .. فمعناه أنه أعطاه الكثير الأكثر من كل شيء .

قال أنس : أغفى رسول الله ﷺ إغفاءة ثم رفع رأسه مبتسمًا ، فقال : **" أنزلت عليَّ آنفًا سورة ، فقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم .. ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ ﴾ .. ثم قال : " أتدرون ما الكوثر ؟ "** فقلنا : الله ورسوله أعلم . قال : **" فإنه نهر وعدنيه ربي ﷻ ، عليه خير كثير ، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة ، آنيته عدد النجوم ، فيختلج العبد منهم ، فأقول : ربِّ إنه من أمتي .. فيقـول : ما تدري[1] ما أحدثَتْ بعدك "** .

وبعض المفسرين اختلفوا في المراد بـ (الكوثر) ، وهل بعد قول رسول الله ﷺ قول ؟! !

قـال ابـن عبـاس : هذا النهر هو بـعض الكوثر .. فكأن الكوثر شـيء كثير ، ويمثل النهر بعضه ، ولكن لماذا قال رسول الله ﷺ هذا الحديث بعد نزول هذه السورة ؟! إن كنتم تفسـرون الكوثر بالنبوة ، فالنبي ﷺ يعلم أنه نبي ، وإن كنتم تفسـرونها بالقـرآن ، فالقـرآن نازل على رسول الله ﷺ ، وهو أول منفعل به ، وإن كنتم تقـولون : إن الكوثر هو أن رفع الله ذكره ، فلا يشهد أحد لله ﷻ بالوحدانية إلا ويشهد لرسول الله ﷺ بالرسـالة ، كل هذه الأشياء يعلمها رسول الله ﷺ ، فكأن رسول الله ﷺ إنما فسر الكوثر بالنهر ، هذا الأمر الجديد الذي لم يكونوا يعلمونه ، مع أن الأشياء التي قال العلماء بأنها هي الكوثر : القرآن ، والنبـوة ، ورفع ذكره ، كانت معلومة لرسـول الله ﷺ ، ولكن الجديد أن ربـك أعطاك شـيئًا مشـهديًا أنت رأيته وتعلمه ، وهناك شـيء آخر غيبي أنت لم تره ، فرسـول الله ﷺ فسـر الكوثر في ذلك الوقـت بـالجديد الذي طرأ ، والجديد الذي طرأ هو ما كان غيبًا في الجنة ، وهو ذلك النهر ، وهذا لا يمنع أن يكون هناك غير ذلك ؛ لأن كلمة : (الكوثر) لا تعني الزائد من الكثرة ، إنما تعـني

---

1 – أخرجه مسلم (607) .

الجميع من الكثرة ، يعني الأكثر من كل شيء ، فتحمل النبوة ، وتحمل القرآن ، وتحمل رفع ذكره ، وتحمل أتباعه الكثيرين الذين يهتفون باسمه الشريف ﷺ ، ويتقربون إلى الله بالصلاة عليه ، تحمل كل هذا ، وذلك معلوم لرسول الله ﷺ ، فالذي زاد في هذا هو ما أخبره الله به من أمر ذلك النهر في الجنة .

إن الحق ﷻ يريد أن يؤكد في هذه السورة على مسألة العطاء ، تأكيد العطاء بأنه لم يقل : أعطيناك الكوثر ، بل قال : ﴿ إِنَّا ﴾ ، وحين يتقدم المسند إليه ، أو يتقدم الفاعل على الفعل ، فإن ذلك يدل على توثيق الفعل توثيقاً آخر ، مثال ذلك .. عندما حطم سيدنا إبراهيم عليه السلام الأصنام لم يقولوا له : أفعلت هذا بأصنامنا ؟ وإنما : ﴿ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ [1] .. إذن ، فعندما يريد الحق ﷻ أن يؤكد شيئًا ، فإنه يأتي بالمسند إليه ، أو بالفاعل أولاً ويجعله مبتدأً ، ثم يأتي بالجملة ويجعلها خبرًا لذلك المبتدأ .

وعندما تسمع : ﴿ إِنَّا ﴾ لابد وأن تتوقع مجيء خير كثير ؛ لأنه استهل بضمير الحق العظيم : ﴿ إِنَّا ﴾ ، وبعد ذلك عندما يقول : ﴿ أَعْطَيْنَاكَ ﴾ .. فلابد وأن تأخذ العطاء على قدر إمكانيات المعطي ..

إذن .. ﴿ إِنَّا ﴾ .. هذه نبهت ذهنك ، وجعلتك تلتفت لتوقع مجيء شيء خطير ، والشيء الخطير الذي سيأتي أنه قال : ﴿ أَعْطَيْنَاكَ ﴾ .. إذن .. فضخامة العطاء لابد أن تناسب إمكانيات المعطي ، فإن الحق ﷻ حينما يأتي بأمر فيه فعل يبرز به معدومًا ، يتكلم بضمير التعظيم : خلقنا .. فعلنا .. ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [2] ، يأتي بضمير التعظيم ؛ لأن أي فعل لأي حدث من الأحداث يتطلب صفات كثيرة جدا ، ففعل يتطلب قدرة ، وفعل يتطلب حكمة ، وفعل يتطلب بطشًا وقهرًا ، فعندما ينسب الحق ﷻ فعلاً من

---

1 - سورة : الأنبياء ، الآية : 62 .

2 - سورة : الحجر ، الآية : 9 .

الأفعال لنفسه فكأنه يقول لك : كأن الحدث الذي أحدثه الله فيه كل فيوضات صفاته ، وما دام فيه كل فيوضات صفاته .. إذن ، فالقدرة أبرزت ، والحكمة رتبت ، والرأفة هي التي حفزت إلى العمل ، فصفات كثيرة تتعاون في إبراز الحدث ، ولا يمكن أن تبرز صفة وتتخلف صفة أخرى ، فيتجلى الحق ﷻ في كل صفة فعل بعظمة الفاعل ويقول : نحن .. إنَّا .. لكن حين يتكلم الحق عن التوحيد والعبادة فدائما يفرد الضمير ، فيقول : ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ ﴾[1] ، ولم يقل : إننا نحن الله ؛ لأنه يتكلم عن الذات ، والذات واحدة وإن تعددت صفات الكمال فيها ، فما كان مظهرًا من صفات الكمال جاء فيه بنون التعظيم ، وما كان مظهرًا للذات في وحدانيتها وإفرادها ، جاء بالضمير الواحد : ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ ﴾ ، لم يقل : إنا أو نحن .

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ .. وما دام العطاء من الله ﷻ ، فهو عطاء له إمداد دائم ؛ لأن ربنا ﷻ ليس عنده كمية من الأشياء إذا أعطاها تنتهي ، ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾[2] .. فهو عطاء ممن لا حدود لإمكانياته ، والذي عنده لا ينفد ، فهو موصول دائمًا .

﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ .. بعد ذلك يرتب بالفاء فيقول : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ .. قال : هذا أمر طبيعي جدًا ؛ لأن العطاء بالنعم لابد له من حالات ثلاث : المنعِم ، والمنعَم به ، والمنعَم عليه ، أما المنعِم : فهو الحق ﷻ ، الذي ليس لإمكانياته حد ، فعطاؤه موصول دائمًا ، وأما النعمة : فأخذت عظمتها وشمولها وفيضها وامتدادها من المعطي ﷻ ، نعمة عظيمة تناسبه ، والمعطَى هو رسول الله ﷺ ، فيرتب الحق ﷻ على آية الامتنان في : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ أمرًا يتعلق بالنعمة ، وأمرًا يتعلق بالمنعِم ، وكل ذلك مطلوب من المنعَم عليه ، فما دام هناك منعِم ، فلابد أن تذكر نعمة المنعم ، وتصلي له ، ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ ؛ لأنه هو المنعم الذي أعطى ، فلا أقل من أن تكون موصولاً بمن أعطاك وَصْل شكر وتقدير .

---

1 – سورة : طه ، الآية : 14 .

2 – سورة : النحل ، الآية : 96 .

إذن ، ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ .. لاحظت جانب صلة المنعَم عليه بالمنعِم ، أما صلة المنعم عليه بالنعمة ، فهو أنعم عليك بهذه النعمة ؛ فلتنعم أنت على غيرك ، كما قال ﷻ : ﴿ وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾[1] ، وكما قال ﷻ : ﴿ وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾[2].

فحين يتفضل الحق ﷻ على رسوله ﷺ بأن يبين له أنه قد أعطاه شيئًا كثيرًا ، فإن الحق ﷻ يريد منه أن يتعدى عطاؤه إلى الغير ، وعادة ما يجيء العطاء الذي يتعدى به للغير فيما تشح به النفس ؛ لأن النفس قد يسهل عليها بذل العلم دون بذل المال ؛ لأنه يأخذ من شيء عنده قابل للزيادة ، فالعلم لن يفنى من عنده ، أما المال فقد يفنى بإنفاقه ، فإن آفة النفس في الشيء الذي ينتقل منك إلى غيرك ؛ فتخلو أنت منه ، وهنا تأتي سماحة النفس الحقيقية ؛ ولذلك كان بذل المال بالنسبة لنفوس الناس ، أشق عليهم من بذل ما عندهم من العلم والمعرفة ؛ لأن بذل المعرفة يجعل ما عندي باقيًا ، ولكن في بذل المال والأشياء المادية ، إذا بذلتها خلوت منها ، فتصبح عند غيرك لا عندك ، فلو كانت عند غيرك وعندك لهانت المسألة ، وإنما ستبقى عند غيرك لا عندك .

وهنا يظهر الإنسان وشحه ، فلا يقوى على هذا إلا الذين يعتقدون أنهم موصولون بالمعطي الأصيل ، فلو كان يعتقد أنه مقطوع عن المدِّ ، فكان ولابد سيحزن ، ولكنه ليس مقطوعًا عن المدِّ ، بل موصولاً بممدٍّ ، بحيث إذا بذلت سيصلك منه المدد ، فأنت أعطيت على قدر إمكانياتك ، فانتظر من المدِّ أن يعطي على قدر إمكانياته ؛ ولذلك يقال : (**لا توكِ فيوكَ عليك**) .. توكي أي : تربط الكيس ؛ فلا تربط كيسك عن الناس ، فإن فعلت ذلك فيما تملك فسيفعل بك ذلك أيضًا ، ولكن عندما تفتح الكيس وتعطي ، فربنا أيضًا سيعطيك .

ولذلك بعض الناس يقول : لقد عودت الناس عادة ؛ لأن الله عودني عادة ، فأنا لا أحب

---

1 – سورة : النور ، الآية : 33 .

2 – سورة : القصص ، الآية : 77 .

أن أقطع عادتي عن الناس ؛ حتى لا يقطع الله عادته معي .

إذا نظرنا إلى قول الله ﷻ : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ .. نأخذ الكلام على عمومه : مطلق الصلاة ، ومطلق النحر ، الذي هو أداء الحق للفقير .

بعض العلماء يقول : إنها نزلت في خصوصية ، هذه الخصوصية هل هي صلاة العيد ونحر الأضحية ؟ أم هي صلاة المزدلفة والنحر في عمليات الحج ؟ ولكني أرى أن هؤلاء يضيقون واسعًا ؛ فليست صلة رسول الله ﷺ بربه صلة تكميلية ، فهو لا يقوم بما يؤمر به من الله فقط ولا يزيد ، بل هو داخل في مقام القربى أكثر منا ، أي أن رسول الله ﷺ له منازل ، منزلة كرسول يبلغ الناس ، ومنزلة كنبي عنده أشياء لخصوصياته ، وبعد ذلك إذا كان العبد العادي من أتباع رسول الله ﷺ يعبد الله بالفرائض ، ثم بعد ذلك يتطوع العبد بأشياء من العبادة فوق ما افترضه الله ﷻ عليه ، ذلك هو المؤمن العادي التابع لرسول الله ﷺ .

فرسول الله ﷺ فُرض عليه نوعان من العبادة : نوع اشترك مع أمته فيه ، وهو ما جاء في الرسالة ، ونوع خصه الله ﷻ به ، وهو النبوة ، فالرسول ﷺ كواسطة بيننا وبين الله ﷻ ، أُمر بشرع يعمل به وتعمل به أمته ، ثم أُمر بشرع يعمل به هو ، ولم يطلب منه أن ينقله إلى أمته .

إذن .. فالرسول ﷺ في أعمال القربى بالنسبة إلى الحق ﷻ يعمل الأعمال التي من الرسالة ، ويعمل الأعمال التي من النبوة إلزامًا ، وبعد ذلك يتطوع ، وهذا هو ما قال فيه ﷺ : **" أفلا أكون عبدًا شكورًا "**[1]..

إذن .. ﴿ فَصَلِّ ﴾ .. ما خفت نفسك إلى الصلاة ، ﴿ وَانْحَرْ ﴾ .. ما خفت نفسك إلى النحر ، سواء دخل ذلك في مطلوبات الفرد أو في غير مطلوباته .

إذا كان الله ﷻ قد أعطى الكوثر لرسول الله ﷺ ، وهذا الكوثر الذي أعطاه لرسوله ﷺ لم

---

1 - أخرجه البخاري (1062) ، ومسلم (5044) كلاهما من حديث المغيرة بن شعبة .

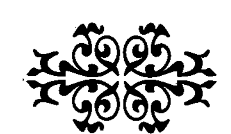


يدخره الرسول ﷺ لنفسه ، بل فضله العائد عليه سيعود إلى أمته ، إن كانت النبوة ، أو الرسالة ، أو القران ، أو الإسلام ، فكل ذلك عائد إلى أمته ، فأي خير يخص به الله ﷻ رسول الله ﷺ فهو خصوصية تلقٍ ، ثم بعد ذلك يكون لأمته منه نصيب ، فأنا لا أحجر كلمة الصلاة على صلاة العيد ، أو صلاة المزدلفة ، والنحر على نحر الأضحية ، بل أنا أريد أن تنطلق سيالاً عامًّا يناسب الكوثرية في قول الحق ﷻ : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ ، فنسب ما يترتب عليه أن يكون كثيرًا أيضًا ، فصلِّ لربك ﷻ صلاة كثيرة ، ما خفت نفسك للصلاة ، وانحر لربك نحرًا كثيرًا ، ما سمحت نفسك بالنحر ، سواء كان ذلك في أوقاتها ، أو في غير أوقاتها ، حتى يناسب المطلوب بالفاء المترتب على ما قبله ، يناسب المطلوب ويناسب الموهوب .

والله ﷻ أسال أن يوفقنا إلى ما يحبه ويرضاه ، وأن يخفف علينا العبادة ،

وأن يهون علينا البذل ، إنه سميع مجيب .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .



تفسير جزء عم

سورة الكافرون







بسم الله الرحمن الرحيم أحمدك ربي حق حمدك، وأصلي وأسلم على خاتم أنبيائك، وصفوة رسلك سيدنا محمد ﷺ . .

أما بعد فمع **سورة الكافرون** .. تلك السورة التي تعالج أعمق قضايا التوحيد .. فلم يكن العرب يجحدون الله ولكن كانوا لا يعرفونه بحقيقته التي وصف بها نفسه .. أحد صمد ؛ فكانوا يشركون به ولا يقدرونه حق قدره ، ولا يعبدونه حق عبادته ، كانوا يشركون به هذه الأصنام التي يرمزون بها إلى أسلافهم من الصالحين أو العظماء ، أو يرمزون بها إلى الملائكة ، وكانوا يزعمون أن الملائكة بنات الله ﷻ ، وأن بينه ﷻ وبين الجِنَّة نَسبًا ، أو ينسون هذا الرمز ويعبدون هذه الآلهة ، وفي هذه الحالة أو تلك كانوا يتخذونها لتقربهم من الله ﷻ ، كما حكى عنهم القرآن الكريم قولهم : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى ﴾ [1] ، ولقد حكى القرآن عنهم أنهم كانوا يعترفون بخلق الله للسماوات والأرض ، وتسخيره للشمس والقمر ، وإنزاله الماء من السماء ، كقوله ﷻ : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [2] ، وكقوله ﷻ : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [3] ، بل وفي أيمانهم كانوا يقسمون ويقولون : والله وبالله وتالله .. وفي دعائهم كانوا يقولون : اللهم .. الخ .

---

* تفسير السورة مقتبس بتصرف من : "في ظلال القرآن" .

1 – سورة : الزمر ، الآية : 3 .

2 – سورة : العنكبوت ، الآية : 61 .

3 – سورة : العنكبوت ، الآية : 63 .

ولكنهم مع إيمانهم بالله ﷻ كان هذا الشرك يفسد عليهم تصورهم ، كما كان يفسد عليهم تقاليدهم وشعائرهم ، فيجعلون لتلك الآلهة المدعاة نصيبًا في زرعهم وأنعامهم ، بل وحتى نصيبًا في أولادهم ، حتى ليقتضي هذا النصيب أحيانًا التضحية بأبنائهم .

وفي هذا يقول القرآن الكريم عنهم : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلاَدِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ * وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لاَ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلاَدَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾[1].. وكانوا يعتقدون أنهم على دين إبراهيم ، وأنهم أهدى من أهل الكتاب الذين كانوا يعيشون معهم في الجزيرة العربية ، لأن اليهود كانوا يقولون : **عزير ابن الله** ، والنصارى كانوا يقولون : **عيسى ابن الله** ، بينما هم كانوا يعبدون الملائكة والجن على اعتبار قرابتهم من الله بزعمهم ؛ فكانوا يعدون أنفسهم أهدى ؛ لأن نسبة الملائكة والجن إلى الله أقرب من نسبة **عزير وعيسى** .. وكله شرك ، وليس في الشرك خيار .

ولكنهم كانوا يحسبون أنفسهم أهدى وأقوم طريقًا !

فلما جاءهم النبي ﷺ يقول : إن دينه هو دين إبراهيم عليه السلام قالوا : نحن على دين إبراهيم ، فما حاجتنا إذن إلى ترك ما نحن عليه واتباع **محمد** ؟!

1 – سورة : الأنعام ، الآية : 136 : 140 .

وفي الوقت ذاته راحوا يحاولون مع الرسول ﷺ خطة وسطًا بينهم وبينه ؛ فعرضوا عليه أن يسجد لآلهتهم مقابل أن يسجدوا هم لإلهه ! وأن يسكت عن عيب آلهتهم وعبادتهم ، وله عليهم ما يشترط !

ولعل اختلاط تصوراتهم ، واعترافهم بالله مع عبادة آلهة أخرى معه .. لعل هذا كان يشعرهم أن المسافة بينهم وبين **محمد** قريبة ؛ فيمكن التفاهم عليها ، بقسمة البلد بلدين ، والالتقاء في منتصف الطريق ، مع بعض الترضيات الشخصية !

ولحسم هذه الشبهة ، وقطع الطريق على المحاولة ، والمفاصلة الحاسمة بين عبادة وعبادة ، ومنهج ومنهج ، وتصور وتصور ، وطريق وطريق .. نزلت هذه السورة .

بهذا الجزم ، وبهذا الحزم ، وبهذا التوكيد ، وبهذا التكرار ؛ لتنهي كل قول ، وتقطع كل مساومة وتفرق نهائيًّا بين التوحيد وبين الشرك ، وتقيم المعالم واضحة ، لا تقبل المساومة والجدل في قليل ولا كثير .

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦

نفي بعد نفي ، وجزم بعد جزم ، وتوكيد بعد توكيد ، بكل أساليب النفي والجزم والتوكيد .

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ .. فهو الأمر الإلهي الحاسم الموحي بأن أمر هذه العقيدة أمر الله وحده ، ليس **لمحمد** فيه شيء ، إنما الله ﷻ هو الآمر الذي لا مرد لأمره ، الحاكم لا راد لحكمه .



﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ .. ناداهم بحقيقتهم ، ووصفهم بصفتهم ، إنهم ليسوا على دين ، وليسوا بمؤمنين ، وإنما هم كافرون ، فلا التقاء إذن بينك وبينهم في طريق .

وهكذا يوحي مطلع السورة وافتتاح الخطاب بحقيقة الانفصال الذي لا يرجى معه اتصال .

﴿ لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ .. فعبادتي غير عبادتكم ، ومعبودي غير معبودكم .

﴿ وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ .. فعبادتكم غير عبادتي ، ومعبودكم غير معبودي .

﴿ وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴾ .. توكيد للفقرة الأولى في صيغة الجملة الاسمية ، وهي أدل على ثبات الصفة واستمرارها .

﴿ وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ .. تكرار لتوكيد الفقرة الثانية ؛ كي لا تبقي مظنة ولا شبهة ، ولا مجال لمظنة أو شبهة بعد هذا التوكيد المكرر بكل وسائل التكرار والتوكيد .

﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ .. إجمال لحقيقة الافتراق الذي لا التقاء فيه ، والاختلاف الذي لا تشابه فيه ، والانفصال الذي لا اتصال فيه ، والتمييز الذي لا اختلاط فيه .. ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ .. أنا هنا وأنتم هناك ، ولا معبر ولا جسر ولا طريق .

مفاصلة كاملة شاملة ، وتميز واضح دقيق .

ولقد كانت هذه المفاصلة ضرورية لإيضاح معالم الاختلاف الجوهري الكامل ، الذي يستحيل معه اللقاء على شيء في منتصف الطريق .. الاختلاف في جوهر الاعتقاد ، وأصل التصور ، وحقيقة المنهج ، وطبيعة الطريق .

إن التوحيد منهج ، والشرك منهج آخر ، ولا يلتقيان .. التوحيد منهج يتجه بالإنسان مع الوجود كله إلى الله وحده لا شريك له ، ويحدد الجهة التي يتلقى منها الإنسان ، عقيدته وشريعته ، وقيمه وموازينه ، وآدابه وأخلاقه ، وتصوراته كلها عن الحياة وعن الوجود ، هذه الجهة التي يتلقى المؤمن عنها هي الله ﷻ ، الله وحده بلا شريك ، ومن ثم تقوم الحياة كلها على هذا الأساس ، غير متلبسة بالشرك في أية صورة من صوره الظاهرة والخفية .. وهي

تسير ، وهذه المفاصلة بهذا الوضوح ضرورية للداعية ، وضرورية للمدعوين .

إن تصورات الجاهلية تتلبس بتصورات الإيمان ، وبخاصة في الجماعات التي عرفت العقيدة من قبل ثم انحرفت عنها ، وهذه الجماعات هي أعصى الجماعات على الإيمان في صورته المجردة من الغبش والالتواء والانحراف ، أعصى من الجماعات التي لا تعرف العقيدة أصلاً ؛ ذلك أنها تظن بنفسها الهدى في الوقت الذي تتعقد انحرافاتها وتتلوى ! واختلاط عقائدها وأعمالها وخلط الصالح بالفاسد فيها قد يغري الداعية نفسه بالأمل في اجتذابها إذا أقر الجانب الصالح وحاول تعديل الجانب الفاسد .

وهذا الإغراء في منتهى الخطورة .

إن الجاهلية جاهلية ، والإسلام إسلام ، والفارق بينهما بعيد ، والسبيل هو الخروج عن الجاهلية بجملتها إلى الإسلام بجملته ، هو الانسلاخ من الجاهلية بكل ما فيها ، والعودة إلى الإسلام بكل ما فيه .

وأول خطوة في الطريق هي تميز الداعية وشعوره بالانعزال التام عن الجاهلية .. تصورًا ومنهجًا وعملاً ، الانعزال الذي لا يسمح بالالتقاء في منتصف الطريق ، والانفصال الذي يستحيل معه التعاون إلا إذا انتقل أهل الجاهلية من جاهليتهم بكليتهم إلى الإسلام .

لا ترقيع ، ولا أنصاف حلول ، ولا التقاء في منتصف الطريق .. مهما تزيت الجاهلية بزي الإسلام ، أو ادعت هذا العنوان .

وتميز هذه الصورة في شعور الداعية هو حجر الأساس ، شعوره بأنه شيء آخر غير هؤلاء ، لهم دينهم وله دينه ، لهم طريقهم وله طريقه ، لا يملك أن يسايرهم خطوة واحدة في طريقهم ، ووظيفته هي أن يسيرهم في طريقه هو ، بلا مداهنة ولا نزول عن قليل من دينه أو كثير .

وإلا فهي البراءة الكاملة ، والمفاصلة التامة ، والحسم الصريح .. ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ .



وما أحوج الداعين إلى الإسلام اليوم إلى هذه البراءة وهذه المفاصلة وهذا الحسم .. ما أحوجهم إلى الشعور بأنهم ينشئون الإسلام من جديد في بيئة منحرفة ، وفي أناس سبق لهم أن عرفوا العقيدة ، ثم طال عليهم الأمد ﴿ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾[1].. وأنه ليس هناك أنصاف حلول ، ولا التقاء في منتصف الطريق ، ولا إصلاح عيوب ، ولا ترقيع مناهج .. إنما هي الدعوة إلى الإسلام كالدعوة إليه أول ما كان .

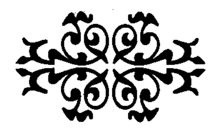
وهذا هو ديني .. التوحيد الخالص الذي يتلقى تصوراته وقيمه ، وعقيدته وشريعته .. كلها من الله ﷻ دون شريك .. كلها .. في كل نواحي الحياة والسلوك .

وبغير هذه المفاصلة يبقى الغبش ، وتبقى المداهنة ، ويبقى اللبس ، ويبقى الترقيع .

والدعوة إلى الإسلام لا تقوم على هذه الأسس المدخولة الواهنة الضعيفة ، إنها لا تقوم إلا على الحسم والصراحة والشجاعة والوضوح ، وهذا هو طريق الدعوة الأول : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ .

نسأل الله ﷻ أن يعلمنا من علمه ، ويكرمنا من كرمه ، ويمن علينا من جوده وفضله ، وأن ينعم علينا بتسبيحه كما يحب .

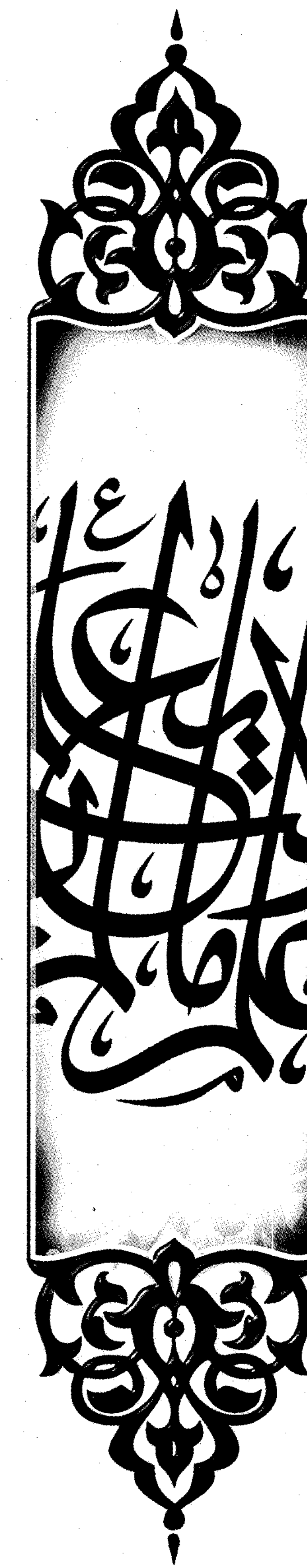
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين



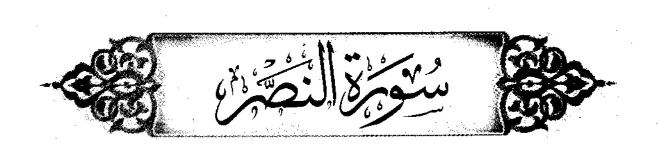
1 – سورة : الحديد ، الآية : 16.

تفسير جزء عم









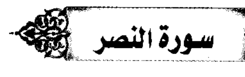
بسم الله الرحمن الرحيم ، أحمدك ربي كما علمتنا أن نحمد ، وأصلي وأسلم على خير خلقك سيدنا محمد ﷺ ، وبعد :

فمع **سورة النصر** .. تلك السورة القصيرة ، التي تحمل البشرى لرسول الله ﷺ بنصر الله وبالفتح ودخول الناس في دين الله أفواجًا ، وتوجهه ﷺ حين يتحقق نصر الله وفتحه واجتماع الناس على دينه إلى التوجه إلى ربه بالتسبيح والحمد والاستغفار .

وكما تحمل إلى الرسول ﷺ البشرى والتوجيه .. تكشف في الوقت ذاته عن طبيعة هذه العقيدة وحقيقة هذا المنهج ، ومدى ما يريد أن يبلغ بالبشرية من الرفعة والكرامة والتجرد والخلوص ، والانطلاق والتحرر .. هذه القمة السامقة الوضيئة ، التي لم تبلغها البشرية قط إلا في ظل الإسلام ، ولا يمكن أن تبلغها إلا وهي تلبي الهدف العلوي الكريم .

وعن مناسبة نزول هذه السورة الكريمة تقول أم المؤمنين **عائشة رضي الله عنها** : كان رسول الله ﷺ يكثر من قول : " **سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله وأتوب إليه** " .. قالت : فقلت : يا رسول الله ، أراك تكثر من قول : " **سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله وأتوب إليه** " .. فقال : " خبرني ربي أني سأرى علامة في أمتي ، فإذا رأيتها أكثرت من قول : سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله وأتوب إليه .. فقد رأيتها : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ .. فتح مكة ، ﴿ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ "[1] .

1 – أخرجه مسلم (749) .



إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ .. ملحوظ فيه التحام فريقين في معركة ، وينتصر أحدهما ، ولكن الفتح يدل على الدخول في الدين من غير معركة ، إذن فستحصل على الاثنين : النصر ، والفتح بالدخول في الدين من غير معركة ؛ فربما يقول قائل : هم قد سكتوا عنه ، ورضوا بالأمر الواقع ؛ لأنهم لو تعرضوا له فقد كانوا يستطيعون إيقافه عند حده ، ولكن الحصول على الأمرين دليل على القوة والبأس ، والسند القوي من الحق سبحانه وتعالى ، وإذا نظرت إلى الدعوة الإسلامية ، وجدت الدعوة الإسلامية انتشرت انتشارًا في العالم بما ليس له نظير في كل الدعوات ، ولا تجد مثل ذلك في تاريخ الدعوات كلها في نصف قرن ، فقد أتت من الشرق إلى الغرب بهذا الشكل ، وبهذا الاتساع ، ستجد البعض يقولون : هذا الانتشار بسبب أن الإسلام كان يمتد باندفاع الفاتحين فقط ، نقول له : كلا ؛ فالإسلام انتشر باندفاع الفاتحين ، وبجذب المفتوحين ، فالمفتوحون في الفساد ، ويريدون منقذًا يخلصهم من الذين هم فيه ، فكان هناك عاملان : عامل اندفاع من ناحية المؤمن ، وعامل الجذب والأخذ ، ففيه قوة تدفعه وتشده ؛ لذلك لابد أن يأتي الفتح بمثل ما في هذه السورة ، فتصبح : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ .

﴿ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾ .. كثير من قبائل العرب كانت تنتظر المعركة بين قريش وبين رسول الله ﷺ وتقول : دعوه وقومه ، فإن انتصر عليهم فبها ، وإن ل



ينتصر عليهم فقد كفينا أمره ، ووقـفوا موقـف الحياد ، فلما علموا أن محمدًا ﷺ في عراك مع قريش ، ومن المعلوم أن قريشًا وقعت في عراك قبل ذلك ، ونصرهم الله تعالى على أبرهة ، وفعل بأصحـــاب الفيل ما فعل ، فقـــالوا : ننظر ، إن نصرهم الله ﷻ عليه ، فهذه عادة الله ﷻ معهم ، أن لا ينصر عليهم أحــدًا ، وإن انتصر عليهم ، نعرف أن دعوته هذه دعوة حـــق ، والأخرى دعوة باطل .

فلما جاء نصر الله ﷻ ، وجاء فتح مكة ، أصبح هذا دليلاً على أنها دعوة حق ، فبدأ الناس يدخلون أفواجًا في دين الله ﷻ ، وكانوا من قبل يدخلون فرادى .

و(**أفواجًا**) يعني : جماعات جماعات ، وهذا هو النصر ، وتلك هي الآية ، وهو الفتح .

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ﴾ .. وهنا تجـد المطلـوب : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ .. و(**التسبيح**) : تنزيه ، ومعنى التنزيه ، أي : تنزيه الحق تعالى عن صفات النقـص ، ومماثلة الأغيار أو الحوادث ، ولكن هذا الحمد بالكمال بالفضل وبالفواضل ، فكأن أنا عندي شيء من السلب : سـلب النقائص ، وإيجاد المحامد ، سـلب النقـائص : تأتي في (**سبحـــانك**) ، يعني : أنزهه عن كل نقيصة ، والحمد يأتي بصفات الفضل ، والفواضل .

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ .. المصدر هذا مضاف للفاعل ، وليس مضافًا للمفعـول ، يعـني : حمد الله فاعله ، يعني : يقـع عليه الحمد بحمد ربـك ، يعني : كن حــامدًا أنت ، والله هو المحمود ، وبحمد ربـــك : يعني بحمد ليس صادرًا منك صيغته ، لماذا ؟! لأن حمد المحمود يتضمن الإلمام بـصفات الكمال له ، حـــتى تسـتطيع أن تثني عليه بما هو أهله ، ثم يقـتضي القـدرة على إيراد الأسـاليب التي تناسـب ذلك المقـام ، ومَنْ منَ البشـر يســتطيع أن يحيط بـــكمالات الله ﷻ ؟! ولو سـلمنا أن هناك من يســتطيع أن يحيط ببـعض الكمالات ، فمن يستطيع أن يأتي بالأسلوب الذي يليق بمدح الله ﷻ وحمده ؟! لا أحد .

فمن رحمة الله ﷻ بـالخلق أن علمهم صيغة حمده ، فقـال لهم : قـولوا : (**الحمد لله**) ..



وما دام هو الذي علمنا صيغة الحمد ، فسيبقى هو الذي تكفل بحمد نفسه ، ولم يترك لأساليبنا ، ولا لاختلاف مواهبنا وألسنتنا في الفصاحة أن ننشئ صيغًا للحمد ، وإلا فما ذنب العيي الذي لا يقدر أن ينشئ صيغة ؟! وما ميزة الإنسان الذي عنده أسلوب ، ويستطيع أن ينمق بعض العبارات ؟! وهذا ربٌّ حمده مطلوب من الجميع ، فيتحمل الحق ﷻ عن البشر صيغة الحمد التي يحمدونه بها ؛ فيرحمنا جميعًا .

ولذلك كان من دعاء رسول الله ﷺ : **" لا أحصي ثناءً عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك "**[1] .

أو أن سبح بحمد ربك : سبح تسبيحًا مصاحبًا للحمد ، سبح تسبيحًا ملابسًا للحمد ، يعني : اجمع بين سلب النقائص ، وإيجاد المحامد .

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ .. هل من المعقول أن يقول : ﴿ وَاسْتَغْفِرْهُ ﴾ .. ثم يأتي بالتعليل : ﴿ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ ؟! فالأمر لا يناسب التعليل في الظاهر ؛ لأنه لو قال : وتب إليه إنه كان توابًا .. لكان معقولاً ، أو لو قال : استغفره إنه كان غفارًا .. لكان معقولاً أيضًا ، إنما قال : ﴿ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ .. نعم ، وهذا أسلوب من الأساليب التي يسمونها : تربيب الفائدة ، أي أن يأتي بأمرين ، كل أمر فيه عنصران ، فينتج عندنا أربعة عناصر ، اثنان للأمر الأول ، واثنان للأمر الثاني ، فيأتي من الأمر الأول بعنصر ويحذف مقابله من الأمر الثاني ، ويأتي من الأمر الثاني بعنصر ويحذف مقابله في الأمر الأول ، كقوله ﷻ : ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ﴾[2] ، فئة ماذا ؟ ﴿ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ ﴾ ، فكان من الممكن أن يقال : قد كان لكم آية في فئتين التقتا ، فئة تقاتل في سبيل الله ، وأخرى تقاتل في سبيل الشيطان ، أو يقول : قد كان لكم آية

1 – أخرجه مسلم (751) من حديث عائشة رضي الله عنها .

2 – سورة : آل عمران ، الآية : 13 .

في فئتين التقتا ، فئة مؤمنة ، وفئة كافرة ، لكن الحق ﷻ أراد أن يقول : قد كان لكم آية في فئتين التقتا ، فئة مؤمنة تقاتل في سبيل الله ، وأخرى كافرة تقاتل في سبيل الشيطان ، فحذف من الأمر الأول كلمة : (**مؤمنة**) ، واستدل عليها بمقابلها : ﴿ **كَافِرَةٌ** ﴾ ، ثم حذف من الأمر الثاني كلمة : (**تقاتل في سبيل الشيطان**) ؛ لأنه قد استدل عليها بما يقابلها : ﴿ **تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ .

فيكون المعنى هنا : فسبح بحمد ربك واستغفره ؛ إنه كان غفارًا ، وتب إليه ؛ إنه كان توابًا ، فتكون كلمة : ﴿ **وَاسْتَغْفِرْهُ** ﴾ .. تعليلها : (**إنه كان غفارًا**) ، وكلمة : ﴿ **إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا** ﴾ .. تعليل لكلمة : (**تب إليه**) ، فحذف من الأول ما دل عليه من الثاني ، وحذف من الثاني ما دل عليه من الأول ، وهذا ما يسميه العلماء : **الاحتباك** .

فإذا قال : " **أستغفر الله وأتوب إليه** " .. يكون قد قام بالاستغفار والتوبة معًا ؛ لأن الاستغفار يوجب أنك تعرف غير التوبة ، فالتوبة هي الرجوع إلى منهج الله ﷻ ، والاستغفار : أن يطلب الإنسان من الله أن يغفر له ذنبه .

وهنا نقول : ما العلاقة إذن بين المطلوب بعد الفاء ، وبين ما قبلها في : ﴿ **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ** ﴾ ؟!

نضرب مثالاً لذلك .. فالزارع يأتي ببذرة مخلوقة لله ﷻ ، وتربة مخلوقة لله ﷻ ، ويرويها بالماء الذي هو مخلوق لله ﷻ ، والفكر الذي خطط ، والطاقة التي فعلت .. كل هذه مخلوقات لله ﷻ ، إذن .. فهو في التحقيق ليس له فعل ؛ فلا ينبغي له أن ينسى من سخر له هذه الأشياء لتنفعل له ؛ لأن كل فعل يحتاج شيئين : فاعلاً ، ومنفعلاً ، فقد يأتي الفاعل ، ولكن لا يوجد المنفعل ، فساعة ما تقبل على أي عمل تقول : بسم الله ، يعني : أنا لا أقبل بقدرتي ، ولا بعلمي ، ولا بشيء من عندي ، وإنما أقبل على العمل باسم الله الذي سخره لي ، وجعل انفعاله لي من فضل تسخيره ، فتصبح أنت لا تقبل على شيء بأسبابك ، لا تقبل





على شيء بعناصر الفعل منك ، بل تقبل على الشيء بعناصر الخالق الذي سخر لك العناصر ، وجعلها تستجيب وتنفعل لك ، فإذا ما نجحت في الفعل فإياك أن تعزو ذلك إلى نفسك ، أو مهاراتك ، أو إلى حسن تأتِّيك للأشياء ، بل قل : الحمد لله .. فإذا ما أثمر العمل فقل : ما شاء الله ، لا قوة إلا بالله .. حينئذ يلتصق المؤمن بربه بادئًا ومنتهيًا .

إن كل فساد يأتي للإنسان من أنه إن أقبل على شيء ولم يقل : بسم الله ، يصبح أبتر ، وإن نجح في شيء وأدرك الثمرة يقول : أوتيته على علم عندي .. فاستغفر ربك من هذه الخواطر ، واعتبر بما حدث للمسلمين في غزوة حنين ، حينما قال بعضهم : **" لن نُغلب اليوم من قلة "**[1] .. فانهزموا في أول الأمر ؛ لأن الله ﷻ أراد أن يُعلمهم أن النصر والهزيمة من عند الله ﷻ ، وليس من كثرة أو قلة .

إذن .. فهي ثلاثة أشياء : الإقبال على الأشياء باسم الله ﷻ ، والانتهاء منها بالحمد لله ، والاستصحاب لثمراتها بلا حول ولا قوة إلا بالله ، هذه هي مناهج المؤمن .

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ﴾ .. سبح بحمد ربك ، يعنى : إياك أن تجعل له شبيهًا ، أو شريكًا في أفعاله ، بل هو الفاعل لكل شيء ، غاية ما في الأمر أنه أكرمك ، وأجرى الخير على يديك ، فحظك من التكريم أنه جعلك أهلاً لأن يوجد الخير على يديك ، والله ﷻ يقول : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾[2] ، فأنتم آلات فقط في يد الله ﷻ ، كما قال : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾[3] ، إذن ففي فورة النصر ، وزهو الانتصار ، يجب ألا تذكر نفسك ، بل تذكر قدرة الله ﷻ .

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ﴾ .. والاستغفار إما أن يكون من اغترار النفس البشرية

---

1 – أخرج القصة البيهقي في دلائل النبوة (5 / 187) .

2 – سورة : الأنفال ، الآية : 17 .

3 – سورة : التوبة ، الآية : 14 .

بزهو الانتصار والإعداد ، وما شابه ذلك ، وإما أن يكون عما بدر منهم من استبطائهم لنصر الله ﷻ ، كما قال ﷻ : ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾[1].. فلما ظنوا هذا الظن : ﴿ جَاءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾ .

وقد يكون الاستغفار استغفار مقامات ، وهناك ما يدل من القرآن على هذه المقامات ، وذلك كما في قوله ﷻ : ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا ﴾[2]. فكأن المؤمن دائمًا في معارج ومراقٍ ، فإذا ما كان في مرتبة عالية ، فإنه يستغفر على ما كان منه في المرتبة السفلىٰ ، وكأنه أذنب .

وهنا لفتة هامة ينبغي الانتباه لها قبل أن ننهي خواطرنا حول هذه السورة الكريمة ، وهي أن هذه السورة لها واجهة ، ولها باطن خفي لا يعلمه كثير من الناس .

لذلك نقول دائمًا : إننا نحتاج دائمًا إلى تدبر القرآن : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾[3] ، وقلنا : معنى يتدبرون ، أي : لا ينبغي أن ينظروا إلى واجهة الأسلوب ، بل ينبغي أن ينظروا إلى ما هو من معطيات خلق الأسلوب ؛ ولذلك قال **ابن مسعود** رضي الله عنه : سوروا القرآن سوره .. يعني : هيجوا أساليبه ، حتى تظهر لكم الأشياء التي فيها ، كما تسور الأرض التي تخرج كنوزها .

فواجهة السورة يفهمها الكل : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ ، ونستقبل ذلك بأننا نسبح بحمد الله ﷻ ونستغفره .

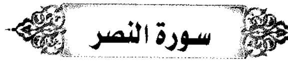
أما باطن السورة فيتجلى فيما رواه **البخاري** رضي الله عنه بسنده عن **سعيد بن جبير** رضي الله عنه عن **ابن عباس رضي الله عنهما** قال : كان **عمر** رضي الله عنه يدخلني مع أشياخ بدر ، فكأن بعضهم وجد في

---

1 – سورة : يوسف ، الآية : 110 .

2 – سورة : المائدة ، الآية : 93 .

3 – سورة : محمد ، الآية : 24 .

نفسه ؛ فقال : لم تُدخل هذا معنا ، ولنا أبناء مثله ؟! فقال **عمر** : إنه مَن قد علمتم .. فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم ، فعلمت أنه ما دعاني إلا ليريهم ، قال **عمر** : ما تقولون في قول الله ﷻ : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ حتى ختم السورة ؟ فقال بعض الصحابة : أمرنا أن نسبحه ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا .. وسكت بعضهم فلم يقل شيئًا ، قال **عمر** : أكذلك تقول يا **ابن عباس** ؟ قال : لا .. قال : فما تقول ؟ قال : أقول : ذلك أجل رسول الله ﷺ أعلمه له فقال : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ فتح مكة ، فذاك علامة أجلك ، ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ ، فقال : ما أعلم منها إلا ما تعلم[1] ..

نسأل الله العلي القدير أن يرزقنا نصره ، وأن يرزقنا حمده وتسبيحه والتوبة والاستغفار ..

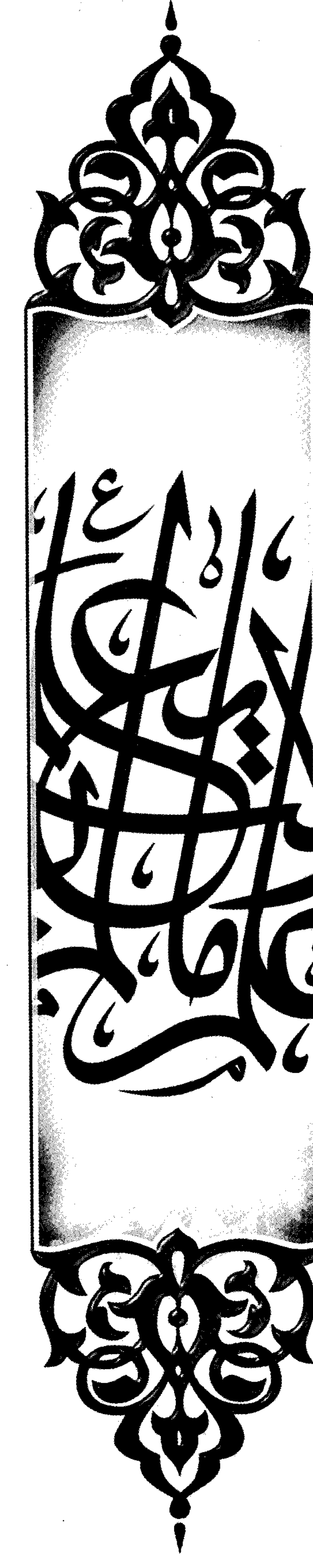
إنه ولي ذلك والقادر عليه .

---

1 – أخرجه البخاري (4588) .


عم
تفسير جزء


سورة
المسد







سورة المسد

بسم الله الرحمن الرحيم .. أحمدك ربي كما علمتنا أن نحمد ،
وأصلي وأسلم على خير أنبيائك ورسلك سيدنا محمد ﷺ ، وعلى آله
وصحبه أجمعين .. أما بعد ..

فمع خواطرنا حول **سورة المسد** ، تلك السورة التي نزلت لوضع حد لتلك الحرب الشعواء التي شنها **أبو لهب** وامرأته على ابن أخيه **محمد** ﷺ ..

لقد وضع لنا النبى ﷺ منهجًا لحياتنا ، وهو أنه لا فضل لأحد على أحد إلا بدينه وتقواه ، فقال ﷺ في وسط أيام التشريق : **" يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى "** [1] ، وعندما حدث خلاف بين **سيدنا بلال وسيدنا أبي ذر رضى الله تعالى عنهما** ، وقال له **أبو ذر** رضي الله عنه : **يا ابن السوداء .. فغضب بلال** رضي الله عنه ، وذهب إلى رسول الله ﷺ ليشكو له **أبا ذر** رضي الله عنه ، فقال رسول الله ﷺ لأبي ذر رضي الله عنه : **" يا أبا ذر ، أعيرته بأمه ؟! إنك امرؤ فيك جاهلية "** [2] .. وكما يقول الشاعر :

عليك بتقوى الله في كل حـالةٍ ... ولا تترك التقوى اتكالاً على النسبِ
فقد رفع الإسلامُ سلمانَ فارسٍ ... وقد وضع الشـركُ النسيبَ أبا لهبِ

---

1 - أخرجه أحمد في المسند (47 / 478) .

2 - أخرجه البخاري (29 ، 5590) ، ومسلم (3139 ، 3140) عن المعرور بن سويد عن أبي ذر .



فالأفضلية ليست بالقرابة أو العصبية ، وإنما بهذا الدين ؛ ولذلك أنزل الله ﷻ في **أبي لهب** ، وهو عم النبي ﷺ ، قرآنًا يتلى إلى يوم القيامة ، ويُتعبد بتلاوته إلى أن تقوم الساعة ، يبشره بالتباب والهلاك والدمار .

تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴿٥﴾

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ .. اختار الله ﷻ من أعداء رسول الله ﷺ أقرب العصبة ؛ حتى يدلنا على أن هذا الدين إتيانه لا لعصبة ولا لقرابة ، فشاء الحق ﷻ أن يعطينا نموذجًا ، هذا النموذج خرق حجاب الزمن المستقبل ، وأخبر بأشياء ، والإخبار بالأشياء في الزمن المستقبل قد تكون من متعلقات القدرة ، وقد تكون من متعلقات العلم . والفرق بين متعلقات القدرة ، ومتعلقات العلم هو أن متعلقات القدرة شيء ألزمت إنسانًا بفعله ؛ لأنك لم تترك له خيارات ، فتخبر بأنه سيفعله ، أما متعلقات العلم فهي أشياء تركت لإنسان الاختيار بينها ، وأنت تعلم مسبقًا على ماذا سيقع اختياره .

فالحق ﷻ يضرب لنا ذلك المثل في خرق حجاب الزمن المستقبل ، نحن نعلم أن كثيرًا من خصوم رسول الله ﷺ ظلوا مدة على خصومتهم ، ثم لانت قلوبهم للإسلام ، وجاءوا إلى رسول الله ﷺ ، وأعلنوا إسلامهم ، هذا **عمر بن الخطاب** ؓ ذهب ليقتل رسول الله ﷺ فإذا به يرجع مسلمًا ، وهذا **خالد بن الوليد** ؓ ، وهذا **عمرو بن العاص** ؓ ، فالسوابق الموجودة تدل على أن كثيرًا من الذين آذوا رسول الله ﷺ ، والذين كانت لهم عداوة معه ، جاءوا بعد



فترة مسلمين ، فكيف يختار الحق واحدًا من هؤلاء ليحكم بأنه لن يصيبه ما أصاب أولئك ؟! ولن يأتي مسلمًا .

﴿ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ .. يحكم الله ﷻ في أمر له فيه خيار فيقول : ﴿ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ .. فكأن الله ﷻ اختاره من دون القوم الذين علم الله أزلاً أنهم سيسلمون ، وقال : أنا أقول لكم : إن هذا لن يسلم ، وبعد ذلك سيصلى نارًا ذات لهب ، وليس هو فقط ، بل وامرأته أيضًا .

فكيف يقول ذلك إلا إذا كان محكومًا عليه بأنه لن يسلم ، فهل كان **محمد** ﷺ يجازف في مثل **أبي لهب** بهذه المقولة ، مع أنه يعلم أن كثيرًا ممن كان على مثل ما كان عليه **أبو لهب** جاءوا فأسلموا ؟! فلو فُرِضَ أن **أبا لهب** جاء في وسط قومه من العرب وقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ، ماذا يكون موقف القرآن ؟! وموقف **محمد** ﷺ ؟!

إذن .. فرسول الله ﷺ لم يقل هذا الكلام من قِبَل نفسه ، وإنما بلغه عن الله ، الذي يعلم أزلاً ما ينتهي إليه أمر **أبي لهب** دون بقية القوم ، فإن **أبا لهب** ليس له خيار في هذا الأمر .

وموقف **أبي لهب** من الدعوة معروف من أول يوم ، فحينما أمر الحق ﷻ رسوله ﷺ : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾[1] ، صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي : **" يا بني فهر ، يا بني عدي "** .. لبطون قريش حتى اجتمعوا ، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو ، فجاء **أبو لهب** وقريش ، فقال ﷺ : **" أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي "** ؟! قالوا : نعم ؛ ما جربنا عليك إلا صدقًا .. قال : **" فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد "** . فقال **أبو لهب** : تبًّا لك سائر اليوم ؛ ألهذا جمعتنا ؟! فنزلت : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾[2] ..

---

1 – سورة : الشعراء ، الآية : 214 .

2 – أخرجه البخاري (4397) ، ومسلم (307) ، كلاهما عن ابن عباس رضي الله عنهما .

وأيضًا في تتبع رسول الله ﷺ في القبائل ، كما قال **ربيعة بن عباد الديلي** ، قال : كنت مع أبي رجل شاب ، وأنا أنظر إلى رسول الله ﷺ يتتبع القبائل ، ووراءه رجل طويل له وجاهة وله جمة ، فإذا ما وقف رسول الله ﷺ على قبيلة ، قال : "**يا بني فلان ، إني رسول الله إليكم جميعًا ، آمركم أن تعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئًا ، وأن تنصروني ، وأن تمنعوني .. حتى أنفذ عن الله ما بعثني به**" .. فإذا انتهى من قوله ، قال الذي وراءه : يا بني فلان ، إن هذا جاء ليسلخكم عن اللات والعزى ، وعن حلفائكم من الجن من بني مالك بن أخمس ، فلا تسمعوا له ، ولا تتبعوه .. فقلت لأبي : من هذا ؟ قال : عمه **عبدالعزى** [1] ..

وهكذا .. من أول يوم من أيام الدعوة ينفر منه الناس ، وعندما حدث حصار الشعب فإن **أبا لهب** وحده من بني هاشم انسلخ عن قومه ، وعاهد قريشًا في مقاطعة بني هاشم ، بل وقد تعدت هذه العداوة إلى امرأته أيضًا ، فما كان من الحق ﷻ إلا أن سجل هذه الأحداث كلها ، وخرق حجاب الزمن المستقبل ، فقال ﷻ : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ .. و (**تبت**) تعني : القطع والهلاك والبوار ، وطبعًا هو يذكر اليدين ويعني الجسم كله ؛ لأن أغلب الأعمال تزاول بالأيدي ، كما في قوله ﷻ : ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾[2] ، في حين أن الأداء قد يكون بأيدينا ، أو بأرجلنا ، أو بألسنتنا ، أو بعيوننا ، ولكن لأن أغلب الأشياء تزاول دائمًا باليد .

إن **أبا لهب** بجهله دعا على النبي ﷺ ، ولا شك أنه دعا وهو يعرف من يجيب ذلك الدعاء ، إذن ، فلمن دعا ؟! لو كان في مكنته أن يتبّها كان يتبها ، لكن هو بقوله : تبت يداك .. يدعو أن تتب يدا رسول الله ﷺ ، إذن ، ليس في مكنته هو أن يتب ، فيكون لازمًا بوجدانه وبعواطفه وفطرته أنه يعلم أنه غير قادر على ذلك ، فلسانه يدعو بالدعاء لمن يملك

---

1 - أخرجه أحمد في مسنده (32 / 232) ، والحاكم في المستدرك (1 / 42) ، والطبراني في الكبير (4 / 452) .

2 - سورة : آل عمران ، الآية : 182 .

ولابد ، إذن فهذه شهادة منه حينما يدعو على رسول الله ﷺ بـأنه لا يملك أن يفعل المدعو بـه على رسول الله ﷺ .

ولكن كيف تدعو عليه والذي تتوجه بـالدعاء له ، هو نفســه من تكذب **محمدًا** في البــلاغ عنه ؟! إن هذا يدل على أن الفطرة التي في النفس تصادر الفكر ، تصادر التعقــل الكامل ، هو يدعو على القوة ؛ لأنها مبلغة عمن يدعوه ! ! ، وهذا دعاء هراء ، فيكون **أبـو لهب** دعا لغوًا في قوله : تبت يدك ، ألهذا جمعتنا ؟

ولكن الحق الذي يملك هو الذي قـال : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ ، وحـين يكون القــائل : ﴿ تَبَّتْ يَدَا ﴾ هو ذلك المدعو ﷻ ، فمعنى ذلك أن التباب حاصل لا محالة ، ولكنها سـتكون قرآنًا يتلى ؛ لتكون منا دعاء ، ولكنها من الحق قَطْع ، فحـين يقـول الحق ﷻ : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ .. فلا تفهموه على منطق الدعاء ، أنه قد يجاب وقد لا يجاب ، ولكنه حاصل لا محالة .

فإنه قـال : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ .. وتب .. يعني : وقــد حــصل ، هذا أمره في دنياه ، ولذلك تجد أن أبـا لهب رغم ما كان له في قـومه ، تحدث له أحـداث حـين يموت لم تحدث لأقل واحد في مكة ، مثلاً يصيبه الله بمرض اسمه : العدسـة ، ذلك المرض كان العرب يعتقدون فيه أنه كالطاعون أو أشد ، وأن الإنسان السليم إذا قـرب ممن أصيب بالعدسـة لابـد سيصاب ، فكانوا يفرون منه ، فلما مات **أبـو لهب** بالعدسة ، وظل ثلاثة أيام لا يقربه أحـد ، حتى كاد أن ينتن ، فرق قلبهم على أن يستروا جسمه ، فماذا صنعوا ؟ لقـد أحـضروا عودًا من خشب ، وحـفروا حـفرة كبـيرة ، وظلوا يدفعون جثته من بـعيد حـتى سقـط في الحفرة ، بـلا حمل ، ولا تشييع ، ثم أرادوا أن يردموا عليه فرجموه بالحجارة من بعيد أيضًا ! ![1] .

1 – أخرج القصة الحاكم في المستدرك عن أبي رافع (12 / 335) ، والطبراني في الكبير (1 / 393) ، والبيهقي في الدلائل (3 / 154) .

ومن عداوته أيضًا لرسول الله ﷺ أنه قبل أن يعلن رسول الله ﷺ دعوته ، كان لرسول الله ﷺ بنتان : **رقية** ، وأم **كلثوم** ، وكان **لأبي لهب** ولدان : **عتبة** ، و**عتيبة** ، فخطب بنتي رسول الله ﷺ لابنيه ، فلما جهر رسول الله ﷺ بدعوته ، قال **أبو لهب** لابنيه : لستما مني إلا أن تطلقا بنتي **محمد** ، فطلق أكبرهما الأولى ، لكن الأصغر قال : والله لا أطلقها حتى أؤذيها .. فمر على رسول الله ﷺ وقال : إنني رددت عليك بنتك وطلقتها ، ثم تفل في جانب رسول الله ﷺ ، وكان عمه **أبو طالب** موجودًا ، فقال رسول الله ﷺ : " **اللهم سلط عليه كلبًا من كلابك** " .. فخرج إلى الشام مع أبيه ، فلما وصلوا إلى مكان وأرادوا أن يقيلوا فيه ، قال أصحاب المكان : إن هذا المكان مكان مسبعة .. يعني : مكان ظهور السباع ، فتنبه **أبو لهب** وقال : يا معشر قريش ، أغيثوني من دعوة **محمد** ، أغيثوني من دعوة **محمد** .. فما كان منهم إلا أن جاءوا بإبلهم ، وأناخوها في دائرة ، وجعلوا المبيت في وسط الدائرة ، فجاء سبع ، وظل يتشمم إلى أن وصل إلى ذلك السفيه ، فأكله السبع [1]. وإذا أضيف الكلب إلى الله ﷻ فلابد وأن يكون سبعًا ، وفعلاً حصل الواقع كما قال رسول الله ﷺ .

﴿ **مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ** ﴾ .. وذلك تعزية أخرى للنبي ﷺ ؛ لأن **أبا لهب** كان يقول : إن كان ما يقول ابن أخي حقًّا ، فسأفتدي نفسي منه بمالي وبولدي ، فَرَدَّ الحق ﷻ على قوله ، بأنه لن يغني عنه ماله وما كسب ، وهنا طبعًا يهمنا أن نفرق بين ماله ، وبين ما كسب ، فالمال : هذا الأصل ، والمكاسب : ما ينشأ ، يعني : الأرباح التي تنشأ ، والله إنما يعني بما كسب : ولده ؛ لأن رسول الله ﷺ قال : " **إن من أطيب كسب الرجل ، أن يأكل من عمل يده وكسبه ، وولده من كسبه** "[2].. فقال : ﴿ **مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ** ﴾ ..

---

1 - أخرج القصة الطبراني في الكبير (16 / 294) ، والبيهقي في السنن الكبرى (5 / 211) ، وفي الدلائل (2 / 213) .

2 - أخرجه أحمد (49 / 175) ، وأبو داود (9 / 406) ، والنسائي (13 / 464) عن عائشة رضي الله عنها .

يعني : المال ، والولد .. وبعضهم قال : إنه كان قد اتخذ عند رسول الله ﷺ يدًا ، أي : قبل أن يبعث ، واتخذ عند قريش يدًا ، فقال : أما اليد التي لي عند **محمد** ، فستكون عونًا لي إن كان على حق وانتصر ، وأما اليد التي لي عند قريش ، فكانت ستنفعني إذا انتصرت قريش ، فنزلت : ﴿ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ .

﴿ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ .. فالذي سبق : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ .. فهذا من أمر الدنيا ، يجعل الله ﷻ ما يقف عليه البشر في أمر الدنيا من أشياء يحسونها بعد أن كانت مستقبلاً فتصير حالاً ، وبعد أن تصير حالاً ، ستصير ماضيًا ينقله الثقات ، فكل حدث من الأحداث التي تحدث كان في وقت ما مستقبلاً ، ثم بعد ذلك كان في وقت ما حالاً ، ثم سيكون بعد ذلك ماضيًا ، وهذا الذي حُدِّثْنا عنه كان مستقبلاً ، ثم صار حالاً ، ثم الآن صار ماضيًا ، ووقع على وقت ما قال الله : بأن الله تبَّ يده ، وأن ماله وما كسب لن يغني عنه أي شيء ، ثم بعد ذلك أعطانا الحق ﷻ غيبًا لن يحدث إلا في الدار الآخرة ، وجعل صدق ما نراه في محس دنيانا دليلاً على الصدق فيما لم نره بعد من غيب أخراه ، يعني : ما دام الحق حين يعرض قضية من القضايا ، يستدل عليها بالأمر المحس ، فلما يصدق في الأمر المحس ، تكون النتيجة الحتمية : ما دام قد صدق فيما رأينا ، فهو صادق أيضًا في الذي لم نره بعد ، وكفى بخبره تصديقًا : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [1].

﴿ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾ .. وامرأته هي **أروى** أخت **أبي سفيان بن حرب** ، فتكون هي : **أروى بنت حرب بن أمية** ، فكانت سيدة لها مكانة .

ولا يخفى علينا أنه كان لها دور في إيذائه ﷺ مما يدل على أن المسألة كانت قد وصلت إلى أن تشترك النساء في إيذاء رسول الله ﷺ ، فهؤلاء النساء كن يأخذن وضعهن بسيادات

1 – سورة : فصلت ، الآية : 53 .

آبـائهن ، أو بسـيادات أزواجـهن ، فإذا جاء إنسـان لكي يهدم هذه السـيادات كلها ، فمعنى ذلك أن فرصتها في أن تأخذ مكانتها في مجتمع مكة قـد ضاعت ؛ فلذلك هي تنظر لرسـول الله ﷺ نظرة الحقد .

صحيح أنها كانت تحمل الحطب وترميه ، وطبعًا مجرد الحطب ليس فيه إيذاء ، بل لابد وأن يكون حطبًا من نوع مخصوص ، كالشوك ، أو حسك السعدان ، فكانت ترميه لتؤذي بـه النبي ﷺ ، وهذه عملية حسـية ، ولكن بـعض المفسـرين يقـول : إنـها كانت مشـهورة بشـيء آخر ، وهو أنها كانت تمشي بـين الناس بـالنميمة ، وعادة الحطب أنه يأوي دائمًا إلى النار ، فالنميمة هي سبـب إيقـاد العداوة بين الناس ، كما الحطب هو سبـب إيقـاد النار ، فتصبح النميمة التي تمشـي بـين الناس بـها ، كأنها الحطب ، ونحن نقـول : لا مانع أن تكون قـد فعلت الحقيقـة ، وفعلت أيضًا ما يكنى بـه عن الحقيقـة ، فكلمة : ﴿ **حَمَّالَةَ الْحَطَبِ** ﴾ لها حقيقة ، ولها كناية عن كونها نمامة .

﴿ **فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ** ﴾ .. وكلمة : (**الجيد**) ، إذا ذكرت في اللغة يكون لابـد وأن تأتي فيها الأوصاف الحسـنة ، ولكن هنا هذا الجيد الذي يطلب فيه الجمال ، سـيكون فيه حبل من مسد ، تصور أن يكون جيد امرأة هي سيدة في قومها ، ولها مكانة عند عشيرتها ، ثم يصورها الله ﷻ بأن جيدها هذا سيكون فيه حبل من مسـد ، و(**المسد**) هو : الليف الخشـن حين يجدل جدلاً محكمًا ، وهو من غير الجدل المحكم مؤذٍ ، فما بـالك بـعد أن يجدل الليف جدلاً محكمًا ؟! ثم الأشد والأنكى أن يصير حبـلاً في العنق ، لا شـك أن هذا سـيكون تشـويهًا للصورة ، وإنزالاً لها من عليائها وجاهها .

حبـل من مسـد ؛ ليكون الجزاء من جنس العمل ؛ فما دامت تحمل حـطبًا ، فهي تحمل الحطب وتشده بحبل ، فكل شدة على حطب سيكون جزاؤها أيضًا شـدة بحبـل في جيدها ، وهذا تبشيع للصورة ، وأيضًا لينسجم الإيقاع التصويري .

هذا الإيقاع من قوة **أبي لهب** ، واسمه **عبد العزى** ، ولكن كنيته **أبو لهب** ؛ لأن وجهه كان مثل النار ، ملتهبًا إلى حد الحمرة ، فكنيته عند العرب : **أبو لهب** ، يعني : وجهه مثل لهب النار ، والكنية تصادف العذاب .

وتجد أيضًا في معنى كلمة : (تَبَّ) التشديد ، فمعناها : القطع بشدة وبإحكام ، والحبل من مسد : الذي يُشد ، فيه شدة وإحكام .

إذن .. فكل العبارات لكل ألفاظ السورة ، وكل جمل السورة جمل منسجمة التوقيع مع أدائها للمعاني .

نسأل الله أن يعلمنا ما ينفعنا ، وأن ينفعنا بما علمنا ، وأن يزيدنا علمًا .

إنه ولي ذلك والقادر عليه . .

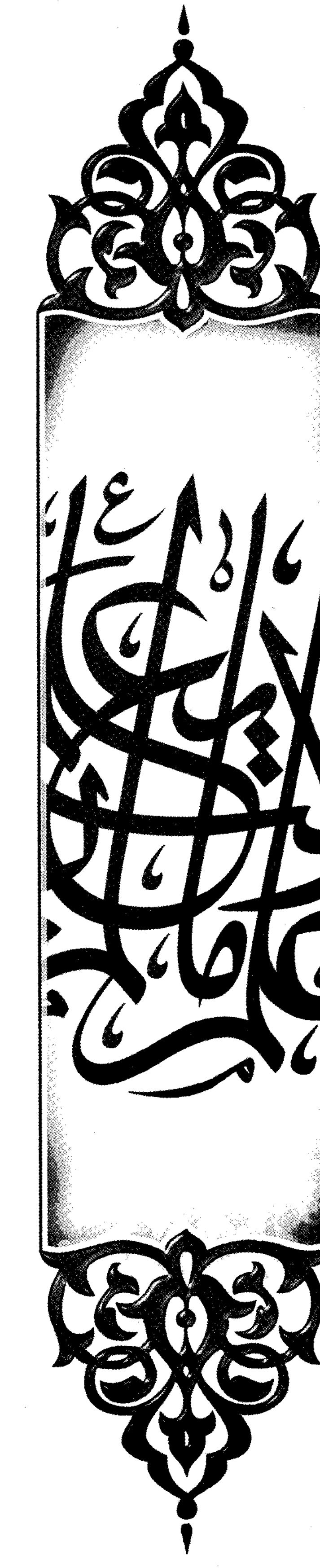
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .











سورة الإخلاص







سورة الإخلاص

بسم الله الرحمن الرحيم .. أحمدك ربي حق حمدك، وأصلي وأسلم على خاتم أنبيائك وصفوة رسلك سيدنا محمد ﷺ ..

أما بعد .. فمع **سورة الإخلاص** ، تلك السورة القصيرة التي تعدل **ثلث القرآن** ، كما جاء عن **أبي سعيد الخدري** رضي الله عنه : أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ يرددها ، فلما أصبح جاء إلى النبي ﷺ فذكر ذلك له ، وكأن الرجل يتقالها ، فقال النبي ﷺ : " **والذي نفسي بيده ، إنها لتعدل ثلث القرآن** "[1] .. وليس في هذا غرابة ؛ فإن الأحدية التي أُمر رسول الله ﷺ أن يعلنها : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ .. هذه الأحدية عقيدة للضمير ، وتفسير للوجود ، ومنهج للحياة .. وقد تضمنت السورة أعرض الخطوط الرئيسية في حقيقة الإسلام الكبيرة .

قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ .. وهو لفظ أدق من لفظ : (واحـــد) ؛ لأنه يضيف إلى معنى (واحد) أن لا شيء غيره معه ، وأن ليس كمثله شيء ..

---

* تفسير السورة مقتبس بتصرف من : " في ظلال القرآن " .

1 - أخرجه البخاري (4627 ، 4628 ، 6152 ، 6826) ، ومسلم بنحوه (1344 ، 1345 ، 1346) .

إنها أحـدية الوجود ، فليس هناك حقيقـة إلا حقيقـته ، وليس هناك وجود حقيقـي إلا وجوده ، وكل موجود آخر فإنما يستمد وجوده من ذلك الوجود الحقيقـي ، ويسـتمد حقيقـته من تلك الحقيقة الذاتية .

وهي من ثَمَّ أحدية الفاعلية ؛ فليس سواه فاعلاً لشيء ، أو فاعلاً في شـيء ، وهذه عقيدة في الضمير وتفسير للوجود أيضًا .

فإذا استقـر هذا التفسـير ، ووضح هذا التصور ، خلص القـلب من كل غاشـية ومن كل شائبة ، ومن كل تعلق بـغير هذه الذات الواحـدة المتفردة بحقيقـة الوجود وحقيقـة الفاعلية ، خلص من التعلق بشيء من أشياء هذا الوجود إن لم يخلص من الشعور بوجود شيء من الأشياء أصلاً ، فلا حقيقـة لوجودٍ إلا ذلك الوجود الإلهي ، ولا حقيقـة إلا لفاعلية الإرادة الإلهية ، فعلامَ يتعلق القلب بما لا حقيقة لوجوده ولا لفاعليته ؟!

وحين يخلص القلب من الشعور بغير الحقيقة الواحدة ، ومن التعلق بـغير هذه الحقيقـة .. فعندئذ يتحـرر من جميع القـيود ، وينطلق من كل الأوهام .. يتحـرر من الرغبـة ، وهي أصل قيود كثيرة ، ويتحـرر من الرهبة ، وهي أصل قيود كثيرة ، وفيمَ يرغب وهو لا يفقد شـيئًا متى وجد الله ﷻ ؟! ومن ذا يرهب ولا وجود لفاعلية إلا لله ﷻ ؟!

ومتى استقـر هذا التصور الذي لا يرى في الوجود إلا حقيقـة الله ، فستصحبـه رؤية هذه الحقيقـة في كل وجود آخر انبـثق عنها ، وهذه درجة يرى فيها القـلب يدَ الله في كل شـيء يراه ، ووراءها الدرجة التي لا يرى فيها شـيئًا في الكون إلا الله ﷻ ؛ لأنه لا حقيقــة هناك يراها إلا حقيقة الله ﷻ .

كذلك سيصحبه نفي فاعلية الأسباب ، ورد كل شيء وكل حـدث وكل حـركة إلى السبـب الأول الذي منه صدرت ، وبـه تأثرت .. وهذه هي الحقيقـة التي عني القـرآن عناية كبـيرة بتقريرها في التصور الإيماني ، ومن ثَمَّ كان ينحي الأسباب الظاهرة دائمًا ويصل الأمور مباشرة



بمشيئة الله ﷻ : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ [1] ، ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ [2] ، ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [3] .. وغيرها كثير .

وبتنحية الأسباب الظاهرة كلها ، ورد الأمر إلى مشيئة الله وحدها ، تنسكب في القلب الطمأنينة ، ويعرف المتجه الوحيد الذي يطلب عنده ما يرغب ، ويتقي عنده ما يرهب ، ويسكن تجاه الفواعل والمؤثرات والأسباب الظاهرة التي لا حقيقة لها ولا وجود ، وهذه هي مدارج الطريق التي حاولها المتصوفة ، فجذبتهم إلى بعيد ، ذلك أن الإسلام يريد من الناس أن يسلكوا الطريق إلى هذه الحقيقة وهم يكابدون الحياة الواقعية بكل خصائصها ، ويزاولون الحياة البشرية والخلافة الأرضية بكل مقوِّماتها ، شاعرين مع هذا أن لا حقيقة إلا الله ، وأن لا وجود إلا وجوده ، وأن لا فاعلية إلا فاعليته .. ولا يريد طريقاً غير هذا الطريق .

من هنا ينبثق منهج كامل للحياة ، قائم على ذلك التفسير وما يشيعه في النفس من تصورات ومشاعر واتجاهات .. منهج لعبادة الله وحده ، الذي لا حقيقة لوجود إلا وجوده ، ولا حقيقة لفاعلية إلا فاعليته ، ولا أثر لإرادة إلا إرادته .

ومنهج للاتجاه إلى الله وحده في الرغبة والرهبة ، في السراء والضراء ، في النعماء والبأساء ، وإلا فما جدوى التوجه إلى غير موجود وجودًا حقيقيًا ، وإلى غير فاعل في الوجود أصلاً ؟!

ومنهج للتلقي عن الله وحده .. تلقي العقيدة والتصور والقيم والموازين ، والشرائع والقوانين والأوضاع والنظم ، والآداب والتقاليد ، فالتلقي لا يكون إلا عن الوجود الواحد والحقيقة المفردة في الواقع وفي الضمير .

ومنهج للتحرك والعمل لله وحده .. ابتغاء القرب من الحقيقة ، وتطلعًا إلى الخلاص من الحواجز المعوقة والشوائب المضللة ، سواء في قرارة النفس أو فيما حولها من الأشياء

---

1 - سورة :الأنفال ، الآية : 17 .

2 - سورة : آل عمران ، الآية : 126 .

3 - سورة : الإنسان ، الآية : 30 .



والنفوس ، ومن بينها حاجز الذات ، وقيد الرغبة والرهبة لشيء من أشياء هذا الوجود .

ومنهج يربط مع هذا بين القلب البشري وبين كل موجود برباط الحب والأنس والتعاطف والتجاوب ، فليس معنى الخلاص من قيودها هو كراهيتها والنفور منها والهروب من مزاولتها .. فكلها خارجة من يد الله ﷻ ، وكلها تستمد وجودها من وجوده ﷻ ، وكلها تفيض عليها أنوار هذه الحقيقة ، فكلها إذن حبيب ؛ إذ كلها هدية من الحبيب .

وهو منهج رفيع طليق .. الأرض فيه صغيرة ، والحياة الدنيا قصيرة ، ومتاع الحياة الدنيا زهيد ، والانطلاق من هذه الحواجز والشوائب غاية وأمنية .. ولكن الانطلاق عند الإسلام ليس معناه الاعتزال ولا الإهمال ، ولا الكراهية ولا الهروب .. إنما معناه المحاولة المستمرة ، والكفاح الدائم لترقية البشرية كلها ، وإطلاق الحياة البشرية جميعها .. ومن ثَمَّ فهي الخلافة والقيادة بكل أعبائهما ، مع التحرر والانطلاق بكل مقوماتهما .

إن الخلاص عن طريق الصومعة سهل يسير ، ولكن الإسلام لا يريده ؛ لأن الخلافة في الأرض والقيادة للبشر طرف من المنهج الإلهي للخلاص ، إنه طريق أشق ، ولكنه هو الذي يحقق إنسانية الإنسان ، أي يحقق انتصار النفخة العلوية في كيانه ، وهذا هو الانطلاق .. انطلاق الروح إلى مصدرها الإلهي ، وتحقيق حقيقتها العلوية ، وهي تعمل في الميدان الذي اختاره لها خالقها الحكيم ﷻ .

من أجل هذا كله كانت الدعوة الأولى قاصرة على تقرير حقيقة التوحيد بصورتها هذه في القلوب ؛ لأن التوحيد في هذه الصورة عقيدة للضمير ، وتفسير للوجود ، ومنهج للحياة ، وليس كلمة تقال باللسان أو حتى صورة تستقر في الضمير ، إنما هو الأمر كله ، والدين كله ، وما بعده من تفصيلات وتفريعات لا يعدو أن يكون الثمرة الطبيعية لاستقرار هذه الحقيقة بهذه الصورة في القلوب .

والانحرافات التي أصابت أهل الكتاب من قبل ، والتي أفسدت عقائدهم وتصوراتهم

وحياتهم ، نشأت أول ما نشأت عن انطماس صورة التوحيد الخالص ، ثم تبع هذا الانطماس ما تبعه من سائر الانحرافات .

على أن الذي تمتاز به صورة التوحيد في العقيدة الإسلامية هو تعمقها للحياة كلها ، وقيام الحياة على أساسها ، واتخاذها قاعدة للمنهج العملي الواقعي في الحياة ، تبدو آثاره في التشريع كما تبدو في الاعتقاد سواء بسواء .

وأول هذه الآثار أن تكون شريعة الله وحدها هي التي تحكم الحياة ، فإذا تخلفت هذه الآثار فإن عقيدة التوحيد لا تكون قائمة ، فإنها لا تقوم إلا ومعها آثارها محققة في كل ركن من أركان الحياة .

﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ .. ومعنى أن الله أحد : أنه الصمد ، وأنه لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوًا أحد .. ولكن القرآن يذكر هذه التفريعات لزيادة التقرير والإيضاح ..

﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ .. ومعنى الصمد اللغوي هو : السيد المقصود الذي لا يُقضى أمرٌ إلا بإذنه ، والله ﷻ هو السيد الذي لا سيد غيره ، فهو أحدُ في ألوهيته ، والكل له عبيد ، وهو المقصود وحده بالحاجات ، المجيب وحده لأصحاب الحاجات ، وهو الذي يقضي في كل أمر بإذنه ، ولا يقضي أحد معه .. وهذه الصفة متحققة ابتداء من كونه الفرد الأحد .

﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ .. فحقيقة الله ثابتة أبدية أزلية ، لا تعتورها حال بعد حال ، صفتها الكمال المطلق في جميع الأحوال ، والولادة انبثاق وامتداد ، ووجود زائد بعد نقص أو عدم ، وهو على الله محال ، ثم هي تقتضي زوجية تقوم على التماثل ، وهذه كذلك محال ، ومن ثم فإن صفة : ﴿ أَحَدٌ ﴾ تتضمن نفي الوالد والولد .

﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ .. أي لم يوجد له مماثل أو مكافئ ، لا في حقيقة الوجود ، ولا في حقيقة الفاعلية ، ولا في أية صفة من الصفات الذاتية ، وهذا كذلك يتحقق بأنه ﴿ أَحَدٌ ﴾ ، ولكن هذا توكيد وتفصيل .. وهو نفي للعقيدة الثنائية التي تزعم أن الله هو إله



الخير وأن للشر إلهاً يعاكس الله بزعمهم ، ويعكس عليه أعماله الخيرة ، وينشر الفساد في الأرض .

وأشهر العقائد الثنائية كانت عقيدة الفرس في إله النور وإله الظلام ، وكانت معروفة في جنوبي الجزيرة العربية حيث للفرس دولة وسلطان .

إن هذه السورة إثبات وتقرير لعقيدة التوحيد الإسلامية ، كما أن **سورة الكافرون** نفي لأي تشابه أو التقاء بين عقيدة التوحيد وعقيدة الشرك .. وكل منهما تعالج حقيقة التوحيد من وجه ، وقد كان الرسول ﷺ يستفتح يومه في صلاة سنة الفجر بالقراءة بهاتين السورتين .. وكان لهذا الافتتاح معناه ومغزاه .

نسأل الله أن يرزقنا التوحيد الخالص من كل شائبة تشوبه . .

إنه ولي ذلك والقادر عليه .



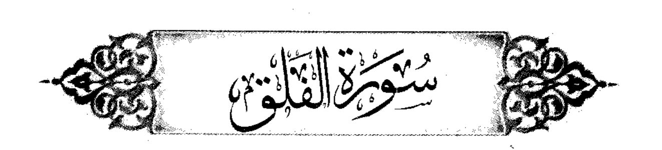






سورة الفلق





بسم الله الرحمن الرحيم . . أحمدك ربي حق حمدك ، وأصلي وأسلم على خاتم أنبيائك وصفوة رسلك سيدنا محمد ﷺ . .

أما بعد .. فمع سورة الفلق ، وهذه السورة والتي بعدها توجيه من الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ ابتداء ، وللمؤمنين من بعده جميعًا ، للعياذ بكنفه ، واللياذ بحماه ، من كل مخوف .. خاف وظاهر ، مجهول ومعلوم ، على وجه الإجمال وعلى وجه التفصيل .. وكأنما يفتح الله سبحانه وتعالى لهم حماه ، ويبسط لهم كنفه ، ويقول لهم في مودة وعطف : تعالوا إلى هنا .. تعالوا إلى الحمى .. تعالوا إلى مأمنكم الذي تطمئنون فيه .. تعالوا .. فأنا أعلم أنكم ضعاف ، وأن لكم أعداء ، وأن حولكم مخاوف ، وهنا .. هنا الأمن والطمأنينة والسلام .

ومن ثم تبدأ كلاهما بالتوجيه .. ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ ، ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ .

وفي قصة نزولها وقصة تداولها وردت عدة آثار، تتفق كلها مع هذا الظل الذي استروحناه ، والذي يتضح من الآثار المروية أن رسول الله ﷺ استروحه في عمق وفرح وانطلاق ..

عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : **" ألم ترَ آيات أنزلت هذه الليلة لم يُرَ مثلهن قط ؟! ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ ، و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ "**[1] .

وعن جابر رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله ﷺ : **" اقرأ يا جابر " . قلت : ماذا بأبي أنت وأمي ؟ قال : " اقرأ : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ ، و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ " .**

---

* تفسير السورة مقتبس بتصرف من : " في ظلال القرآن " .

1 – أخرجه مسلم (1348 ، 1349) .

فقرأتهما ، فقال : " **اقرأ بهما ؛ فلن تقرأ بمثلهما** "[1].

في هذه السورة يذكر الله ﷻ نفسه بصفته التي بها يكون العياذ من شر ما ذكر في السورة ..

قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ .. (**الفلق**) من معانيه : الصبح ، ومن معانيه : الخلق كله ، بالإشارة إلى كل ما يفلق عنه الوجود والحياة ، كما قال في **سورة الأنعام** : ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ﴾[2]، وكما قال : ﴿ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ﴾[3].. وسواء كان هو الصبح فالاستعاذة برب الصبح الذي يؤمِّن بالنور من شر كل غامض مستور ، أو كان هو الخلق فالاستعاذة برب الخلق الذي يؤمِّن من شر خلقه ، فالمعنى يتناسق مع ما بعده .

﴿ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ .. أي من شر خلقه إطلاقًا وإجمالاً ، وللخلائق شرور في حالات اتصال بعضها ببعض ، كما أن لها خيرًا ونفعًا في حالات أخرى ، والاستعاذة بالله هنا من شرها ليبقى خيرها ، والله الذي خلقها قادر على توجيهها وتدبير الحالات التي يتضح فيها خيرها لا شرها .

﴿ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ .. و(**الغاسق**) في اللغة : الدافق ، و(**الوقب**) : النقرة في

---

1 - أخرجه النسائي (16 / 308) .

2 - سورة : الأنعام ، الآية : 95 .

3 - سورة : الأنعام ، الآية : 96 .



الجبل يسيل منها الماء ، والمقصود هنا غالبًا هو الليل وما فيه ، الليل حين يتدفق فيغمر البسيطة ، والليل حينئذ مخوف بذاته ، فضلاً عن ما يثيره من توقع للمجهول الخافي من كل شيء .. من وحش مفترس يهجم ، ومتلصص فاتك يقتحم ، وعدو مخادع يتمكن ، وحشرة سامة تزحف ، ومن وساوس وهواجس وهموم وأشجان تتسرب في الليل ، وتخنق المشاعر والوجدان ، ومن شيطان تساعده الظلمة على الانطلاق والإيحاء ، ومن شهوة تستيقظ في الوحدة والظلام ، ومن ظاهر وخافٍ يدب ويثب ، في الغاسق إذا وقب .

﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴾ .. والنفاثات في العقد هي : السواحر الساعيات بالأذى عن طريق خداع الحواس ، خداع الأعصاب ، والإيحاء إلى النفوس ، والتأثير والمشاعر ، وهن يعقدن العقد في نحو خيط أو منديل ، وينفثن فيها كتقليد من تقاليد السحر والإيحاء .

والسحر لا يغير من طبيعة الأشياء ، ولا ينشئ حقيقة جديدة لها ، ولكنه يخيل للحواس والمشاعر بما يريده الساحر ، وهذا هو السحر كما صوره القرآن الكريم في قصة موسى عليه السلام ، إذ قال : سبحانه وتعالى : ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى * قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى * فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى * قُلْنَا لاَ تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾[1] .. وهكذا لم تنقلب حبالهم وعصيهم إلى حيَّاتٍ فعلاً ، ولكن خيل إلى الناس وموسى معهم أنها تسعى ، إلى حد أن أوجس في نفسه خيفة ، حتى جاءه التثبيت ، ثم انكشفت الحقيقة حين انقلبت عصا موسى بالفعل لحيَّة فتلقفت الحبال والعصي المزروة المسحورة .

وهذه هي طبيعة السحر كما ينبغي لنا أن نسلم بها ، وهو بهذه الطبيعة يؤثر في الناس ، وينشئ لهم مشاعر وفق إيحائه .. مشاعر تخيفهم وتؤذيهم وتوجههم الوجهة التي يريدها

1 – سورة : طه ، الآية : 65 : 69 .

الساحر ، وعند هذا الحد نقف في فهم طبيعة السحر والنفث في العقد .. وهي شر يستعاذ منه بالله ﷻ ، ويلجأ منه إلى حماه .

﴿ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ .. و(الحسد) : انفعال نفسي إزاء نعمة الله ﷻ على بعض عباده ، مع تمني زوالها .. وسواء أتبع الحاسد هذا الانفعال بسعي منه لإزالة النعمة تحت تأثير الحقد والغيظ ، أو وقف عند حد الانفعال النفسي ، فإن شرًا يمكن أن يعقب هذا الانفعال .

ونحن مضطرون أن نطامن من حدة النفي لما لا نعرف من أسرار هذا الوجود ، وأسرار النفس البشرية ، وأسرار هذا الجهاز الإنساني ، فهنالك وقائع كثيرة تصدر عن هذه الأسرار ، ولا نملك لها حتى اليوم تعليلاً .. هنالك مثلاً ذلك التخاطر على البعد ، وفيه تتم اتصالات بين أشخاص متباعدين ، اتصالات لا سبيل إلى الشك في وقوعها بعد تواتر الأخبار بها وقيام التجارب الكثيرة المثبتة لها ، ولا سبيل كذلك لتعليلها بما بين أيدينا من معلومات .. وكذلك التنويم المغناطيسي ، وقد أصبح الآن موضعًا للتجربة المتكررة المثبتة ، وهو مجهول السر والكيفية .. وغير التخاطر والتنويم كثير من أسرار الوجود وأسرار النفس وأسرار هذا الجهاز الإنساني .

فإذا حسد الحاسد ، ووجه انفعالاً نفسيًا معينًا إلى المحسود ، فلا سبيل لنفي أثر هذا التوجيه لمجرد أن ما لدينا من العلم وأدوات الاختبار لا تصل إلى سر هذا الأثر وكيفيته ، فنحن لا نعلم إلا القليل في هذا الميدان ، وهذا القليل يُكشف لنا عنه مصادفة في الغالب ، ثم يستقر كحقيقة واقعة بعد ذلك .

فهنا شر يستعاذ منه بالله ، ويستجار منه بحماه ، والله ﷻ برحمته وفضله هو الذي يوجه رسوله ﷺ وأمته من ورائه إلى الاستعاذة به من هذه الشرور ، ومن المقطوع به أنهم متى استعاذوا به وفق توجيهه أعاذهم وحماهم من هذه الشرور إجمالاً وتفصيلاً .

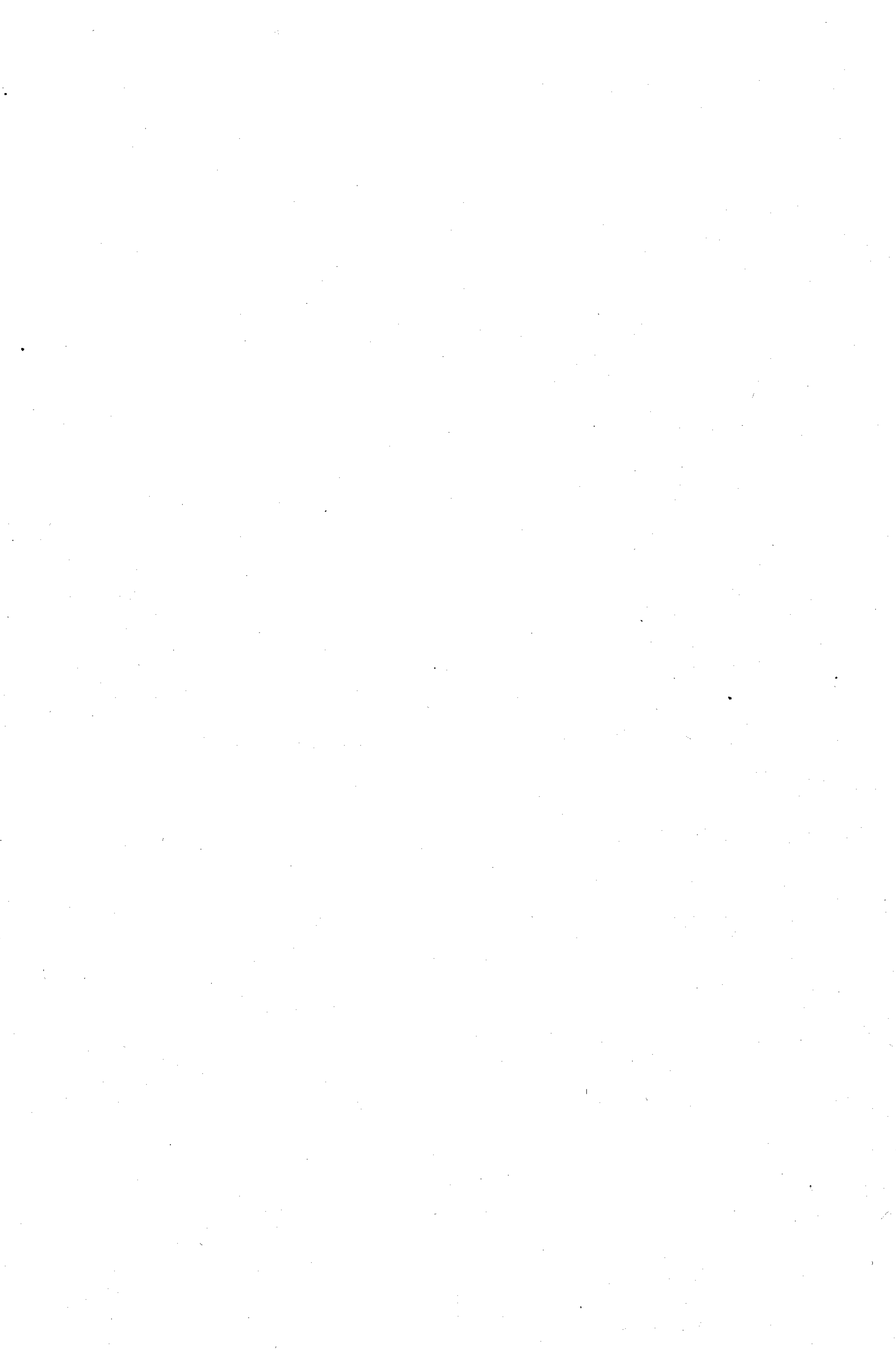
وقد روى **البخاري** بإسناده عن **عائشة رضي الله عنها** : أن النبي ﷺ كان إذا آوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ، ثم نفث فيهما ، وقرأ فيهما : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ، و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ ، و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ .. ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده ، يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده .. يفعل ذلك ثلاث مرات ..[1]

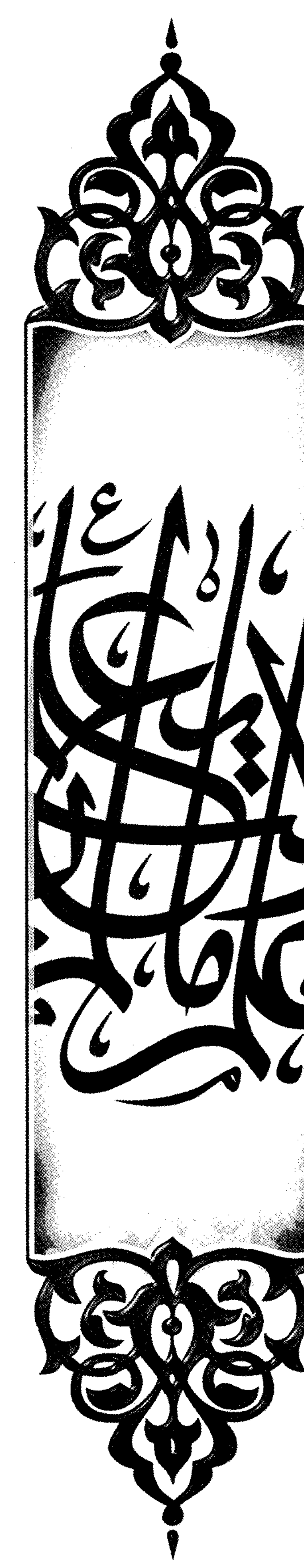
نسأل الله أن يقينا شرور أنفسنا ، وشرور خلقه ، وأن يعافينا من كل مكروه وسوء . .

إنه ولي ذلك والقادر عليه .



1 - أخرجه البخاري (4630) .








سورة الناس



سُورَةُ النَّاسِ

بسم الله الرحمن الرحيم . .أحمدك ربي حق حمدك ، وأصلي وأسلم على خاتم أنبيائك وصفوة رسلك سيدنا محمد ﷺ . .

أما بعد .. فمع **سورة الناس** ، والاستعاذة في هذه السورة برب الناس ، ملك الناس ، إله الناس .. والمستعاذ منه هو : شر الوسواس الخناس ، الذي يوسوس في صدور الناس ، من الجنة والناس .

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ ﴾ .. والاستعاذة بالرب .. الملك .. الإله تستحضر من صفات الله ﷻ ما به يدفع الشر عامة ، وشر الوسواس الخناس خاصة .

فإن (**الرب**) هو المربي والموجه والراعي والحامي ، و(**الملك**) هو المالك الحاكم المتصرف ، و(**الإله**) هو المستعلي المستولي المتسلط .. وهذه الصفات فيها حماية من الشر الذي يتدسس إلى الصدور .. وهي لا تعرف كيف تدفعه لأنه مستور .

* تفسير السورة مقتبس بتصرف من : " في ظلال القرآن " .

والله رب كل شـيء ، وملك كل شـيء ، وإله كل شـيء ، ولكن تخصيص ذكر الناس هنا يجعلهم يحسون بالقربى في موقف العياذ والاحتماء .

والله برحمة منه يوجه رسوله ﷺ وأمته إلى العياذ به والالتجاء إليه ، مع استحضار معاني صفاته هذه ، من شر خفي الدبيب ، لا قبل لهم بدفعه إلا بعون من الرب الملك الإله ، فهو يأخذهم من حيث لا يشعرون ، ويأتيهم من حيث لا يحتسبون .

﴿ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴾ .. و (**الوسوسة**) هي : الصوت الخفي .. و(**الخنوس**) هو : الاختباء والرجوع .. و(**الخناس**) هو : الذي من طبعه كثرة الخنوس .

﴿ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ .. وقـد أطلق النصُّ الصفةَ أولاً : ﴿ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴾ .. ثم حدد عمله : ﴿ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴾ .. ثم حـدد ماهيته : ﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ .. وهذا الترتيب يثير في الحس اليقـظة والتلفت والانتباه ؛ لتبين حقيقة الوسواس الخناس ، بعد إطلاق صفته في أول الكلام ؛ ولإدراك طريقة فعله التي يتحقق بها شره ، تأهبًا لدفعه أو مراقبته .

والنفس حين تعرف بعد هذا التشويق والإيقاظ أن الوسواس الخناس يوسوس في صدور الناس خفية وسرًا ، وأنه هو الجِنَّة الخافية ، وهو كذلك الناس الذين يتدسسـون إلى الصدور تدسس الجنة ، ويوسوسون وسوسة الشياطين .. النفس حين تعرف هذا تتأهب للدفاع ، وقد عرفت المكمن والمدخل والطريق .

ووسوسة الجِنَّة نحن لا ندري كيف تتم ، ولكنا نجد آثارها في واقع النفوس وواقع الحياة ، ونعرف أن المعركة بين آدم وإبليس قديمة قديمة ، وأن الشيطان قد أعلنها حربًا تنبثق من خليقة الشر فيه ، ومن كبريائه وحسده وحقده على الإنسان ، وأنه قد استصدر بها من الله إذنًا ، فأذن فيها ﷻ لحكمة يراها ، ولم يترك الإنسان فيها مجردًا من العدة ؛ فقد جعل له من الإيمان جُنَّة ، وجعل له من الذكر عُدة ، وجعل له من الاستعاذة سلاحًا .. فإذا أغفل

الإنسـان جُنَّته وعُدَّته وسلاحـه فهو إذن وحـده الملوم ، فعن ابـن عبـاس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : **" الشيطان جاثم على قلب ابن آدم ، فإذا ذكر الله تعالى خنس ، وإذا غفل وسوس "**[1] .

وأما الناس فنحن نعرف عن وسوستهم الشيء الكثير ، ونعرف منها ما هو أشد من وسوسة الشياطين .

رفيق السوء الذي يتدسس بالشر إلى قلب رفيقه وعقله من حيث لا يحتسب ، ومن حيث لا يحترس ؛ فهو الرفيق المأمون .

وحاشية الشر التي توسوس لكل ذي سلطان حتى تتركه طاغية جبارًا مفسدًا في الأرض ، مهلكًا للحرث والنسل .

والنمام الواشي الذي يزين الكلام ويزحلقه ، حتى يبدو كأنه الحق الصراح الذي لا مرية فيه .

وبائع الشهوات الذي يتدسس من منافذ الغريزة في إغراء لا تدفعه إلا يقظة القلب بعد عون الله ﷻ .

وعشرات من الموسوسين الخناسين الذين ينصبون الأحابيل ويخفونها ، ويدخلون بها من منافذ القلوب الخفية التي يعرفونها أو يتحسسونها .. وهم شر من الجنة وأخفى منهم دبيبًا .

والإنسان عاجز عن دفع الوسوسة الخفية ، ومن ثم يدله الله ﷻ على عدته وجنته وسلاحه في المعركة الرهيبة .

وهناك لفتة ذات مغزى في وصف الوسواس بأنه : ﴿ الْخَنَّاسِ ﴾ .. فهذه الصفة تدل من جهة على تخفيه واختبائه حتى يجد الفرصة سانحة فيدب ويوسوس ، ولكنها من جهة أخرى توحي بضعفه أمام من يستيقظ لمكره ، ويحمي مداخل صدره ، فهو سواء كان من الجنة

---

1 – مصنف ابن أبي شيبة (8 / 196) .

أم كان من الناس إذا ووجِه خنس ، وعاد من حيث أتى ، وقبع واختفى ، أو كما قال الرسول الكريم في تمثيله المصور الدقيق : " **فإذا ذكر الله تعالى خنس ، وإذا غفل وسوس** " .

وهذه اللفتة تقوي القلب على مواجهة الوسواس ؛ فهو خناس ، ضعيف أمام عدة المؤمن في المعركة .

ولكنها من ناحية أخرى معركة طويلة لا تنتهي أبدًا ، فهو أبدًا قابع خانس ، مترقب للغفلة ، واليقظة مرة لا تغني عن اليقظات .. والحرب سجال إلى يوم القيامة ، كما صورها القرآن الكريم في مواضع شتى ، ومنها هذه الصورة العجيبة في **سورة الإسراء** : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا * قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً * قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا * وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً ﴾[1] .

وهذا التصوُّر لطبيعة المعركة ودوافع الشر فيها سواء عن طريق الشيطان مباشرة ، أو عن طريق عملائه من البشر .. من شأنه أن يشعر الإنسان أنه ليس مغلوبًا على أمره فيها ؛ فإن ربه وملكه وإلهه مسيطر على الخلق كله ، وإذا كان قد أذن لإبليس بالحرب ، فهو آخذ بناصيته ، وهو لم يسلطه إلا على الذين يغفلون عن ربهم وملكهم وإلههم ، فأما من يذكرونه فهم في نجاة من الشر ودواعيه الخفية ، فالخير إذن يستند إلى القوة التي لا قوة سواها ، وإلى الحقيقة التي لا حقيقة غيرها .. يستند إلى الرب الملك الإله ، والشر يستند إلى وسواس

---

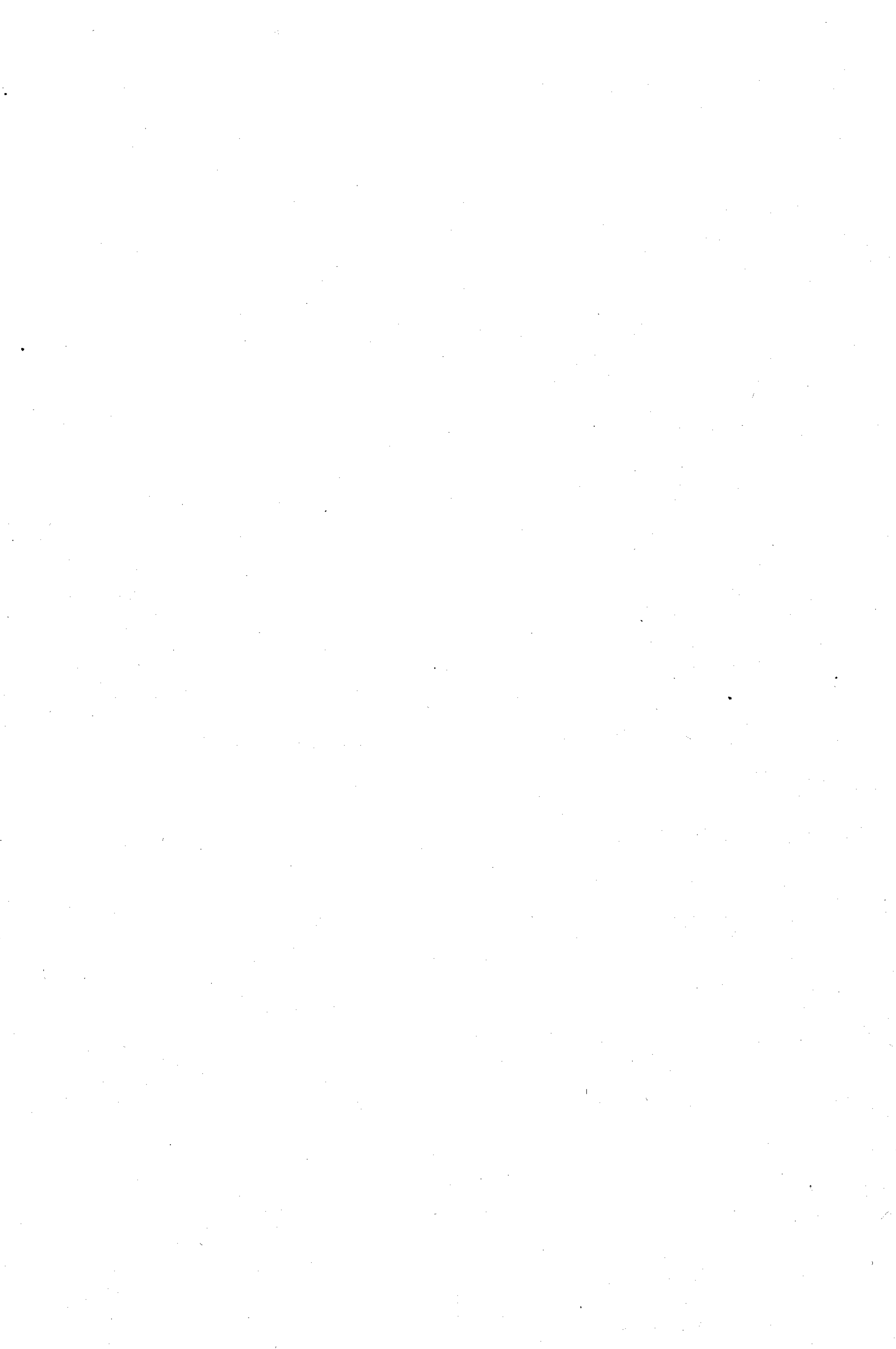
1 – سورة : الإسراء ، الآية : 60 : 65 .

خناس ، يضعف عن المواجهة ، ويخنس عند اللقاء ، وينهزم أمام العياذ بالله ﷻ .

وهذا أكمل تصور للحقيقة القائمة عن الخير والشر ، كما أنه أفضل تصور يحمي القلب من الهزيمة ، ويفعمه بالقوة والثقة والطمأنينة ..

والحمد لله أولاً وأخيرًا . . وبه الثقة والتوفيق . . وهو المستعان المعين . .





الفهرس

